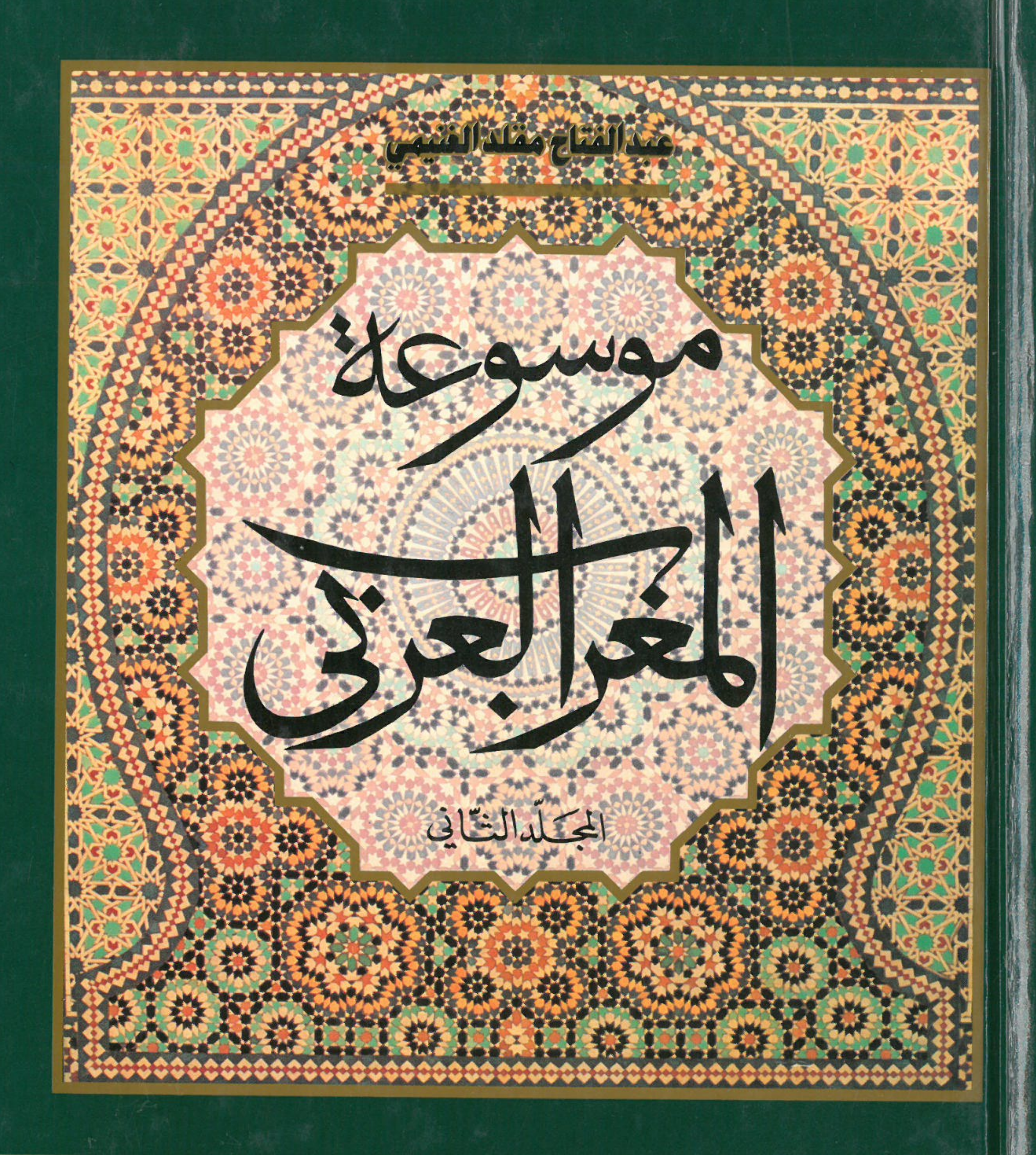




مكتبة مدبولي
القاهرة



# موسوعة تاريخ المغرب العربى

المغرب العربى بين الفاطميين والمرابطين والموحدين

المغرب العربى بين بنى زيرى وبنى هلال وبنى حمادة

## دراسة فى التاريخ الإسلامى

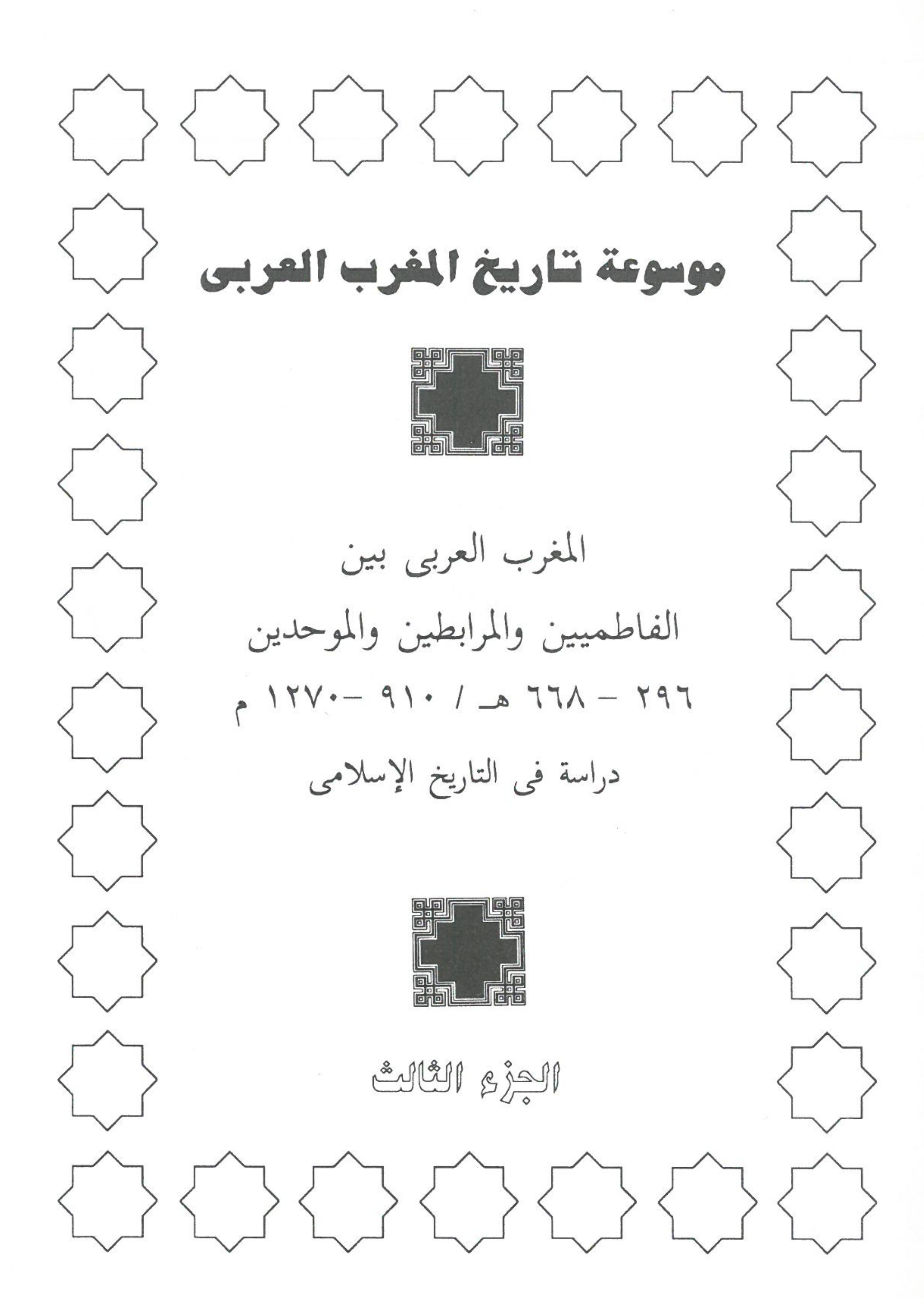
## الجزء الثالث و الرابع



الناشر : مكتبة مدبولى

الطبعة الأولى
١٤١٤هـ - ١٩٩٤م

الناشر
**مكتبة مدبولى**
ميدان طلعت حرب بالقاهرة - ج م ع
تليفون ٧٥٦٤٢١



# موسوعة تاريخ المغرب العربى

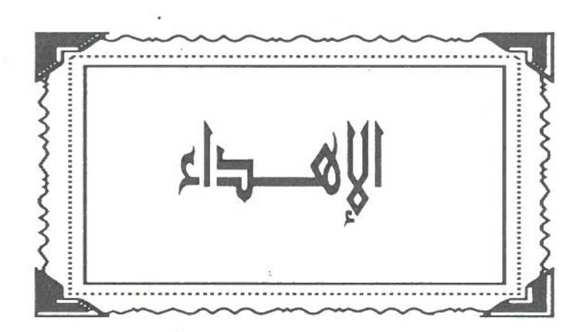
## المغرب العربى بين الفاطميين والمرابطين والموحدين

٢٩٦ - ٦٦٨ هـ / ٩١٠ - ١٢٧٠ م

دراسة فى التاريخ الإسلامى

**الجزء الثالث**


بسم الله الرحمن الرحيم




**إلى إبنى أحمد**

وهو يستقبل عامه الثالث عشر راجيا من المولى العلى القدير أن يجعله إبناً بارا مباركاً تحرسه عناية الله.

هذا الجزء الثالث من الموسوعة السداسية الأجزاء

دكتور

عبد الفتاح مقلد الغنيمى

# المقدمة

والحمد لله حمد العالمين والصلاه والسلام على أشرف الخلق سيدنا محمد بن عبد الله النبى الامى وعلى آله وصحبه الكرام أما بعد .

أما بعد .

فان تاريخ المغرب الاسلامى صفحة مشرقة ومضيئة فى تاريخ العالم الاسلامى منذ أن وطأت أنوار الدعوة الاسلامية تلك الديار وجهاد أهله الكرمة الابرار فى بناء دار الاسلام على أرضه وعلى أرض الاندلس وحماية ترابه ومقدساته ومعالمه من الضياع. فقد أصبحت المغرب بعد أن غمرتها أنوار الاسلام أغلى درة فقد وقع على عاتقها حماية الاسلام وثقافته وحضارته فى ذلك الركن العربى من الديار الاسلامية .

وفى هذه الدراسة التى هى الجزء الثالث من موسوعة تاريخ المغرب العربى والتى تركزت على المغرب بين الفاطميين والمرابطين والموحدين والتى قسمتها إلى ثلاثة أجزاء فكان الجزء الاول عن الدولة الفاطمية الشيعية فى المغرب والذى قسم إلى عدة أبواب فكان الباب الاول عن ظهور التشيع فى العالم الاسلامى منذ انتقال الرسول ﷺ وخلافة عثمان بن عفان وظهور التشيع بصورة واضحة ، ثم خلافة على بن أبى طالب وما تم فيها من أحداث ونشاط الشيعة فى العصر الاموى. والانتقال إلى بيعة يزيد بن معاوية بن أبى سفيان بالخلافة ودور الشيعة والحسين بن على ومذبحة كربلاء وتحدثت فى هذا الباب عن المذهب الشيعى بعد كربلاء وقيام الدولة العباسية وموقف الشيعة من خلافة أبناء عمومتهم .

وفى الباب الثانى عالجت موضوع الفرقة الاسماعيلية والدعوة الشيعية فى المغرب، واليمن كمركز للدعوة الشيعية وتحرك رجال الدعوة إلى المغرب ودور أبو عبد

الله الشيعى فى المغرب ثم بداية الكيان السياسى للدولة الشيعية وتناولت فى الباب الثالث الدولة الفاطمية ككيان سياسى فى العالم الاسلامى والخليفة الفاطمى الاول عبيد المهدى وبناء عاصمته المهدية ومحاولاته الاستيلاء على مصر والخليفة الفاطمى الثانى القائم بأمر الله أبو القاسم نزار الشيعى، ثم الخليفة الثالث المنصور اسماعيل ونهاية بالخليفة الرابع المعز لدين الله أبو تميم سعد الذى انتقل إلى القاهرة ٣٦٢هـ وانتهى تاريخ الدولة الفاطمية فى المغرب وتلك نهاية بحثنا هنا. وفى الباب الرابع تناولت الانجازات الفاطمية فى المغرب فى خلافة هؤلاء الخلفاء الاربعه وتحدثت عن الفاطميين والبحرية وحكم صقلية ثم الفتح الشيعى الفاطمى لمصر ونهاية الدراسة شجرة الدولة الفاطمية .

وكان الجزء الثانى فى هذه الدراسة عن خلافة المرابطين فى المغرب والاندلس والذى قسم إلى عدة أبواب فكان الباب الخامس عن ظهور المرابطين وما هو الدور الذى لعبته قبائل صنهاجة الصحراء وكيف توحدت صنهاجة لاول مرة .

وكان الباب السادس عن صنهاجة ودور عبد الله بن ياسين فى بناء دولة المرابطين، ثم الصدع بالدعوة والخروج من الرباط والباب السابع عن المرابطين بعد عبد الله بن ياسين ودورهم فى المغرب تحت قيادة أبى بكر بن عمر ثم الباب الثامن عن يوسف بن ناشين ودوره فى المغرب وجهاد المرابطين فى الاندلس كان الباب التاسع والذى ينطوى تحته القوة الاسلامية تقهر قوات أوربا الصليبية فى معركة الزلاقة ودور المرابطين بها وتوحيد الاندلس وعزل ملوك الطوائف ثم دور يوسف بن ناشين وبناء الدولة الجديدة فى المغرب والاندلس والبحرية الاسلامية فى عهد المرابطين والدولة بعد يوسف بن ناشين وكان الباب العاشر عن مآثر المرابطين فى المغرب والاندلس .

وفى الجزء الثالث من هذه الدراسة تحدثت عن ظهور دولة الموحدين على مسرح



الاحداث السياسية فى المغرب والاندلس حيث كان الباب الحادى عشر عن دور الفقيه محمد بن تومرت فى توحيد قبائل المصامدة والصدام مع المرابطين وانتقلت إلى الباب الثانى عشر وهو عن الكيان السياسى للموحدين ودور عبد المؤمن بن على فى بناء هذا الكيان الذى أصبح القوة الوحيدة فى المغرب وكيف استغرق عبد المؤمن أعواما عديدة فى بناء الدولة ثم الموحدين بعد عبد المؤمن بن على أبنائه وأحفاده بدءا من أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن وسنوات حكمه وأهم الانجازات التى تمت، والباب الثالث عشر عن الدولة الموحدية فى عصر ازدهارها وكيف قام المنصور بتوطيد دعائم الدولة مع بنى غانية وجهاد المنصور فى الاندلس وانتصاره فى معركة الارك الباهر. وفى الباب الرابع عشر تحدثت عن بداية انهيار الدولة الموحدية ودور الناصر لدين الله وموقعة العقاب وتساقط المدن الاندلسية وضعف السيادة الاسلامية فى الاندلس وفى الباب الخامس عشر كان الحديث عن الدولة الموحدية بعد الناصر لدين الله ومن هم الخلفاء الذين تولوا ادارة دفة الامور بعد هذا الانهيار وكيف تم لبنى مرين القضاء على الدولة فى خلافة الواثق بالله عام ٦٦٨هـ/ ١٢٧٠م وتكملة لهذا الباب تحدثت عن البحرية فى عهد الموحدين ودورهم فى بنائها، والباب السادس عشر عن مآثر الموحدين الحضارية فى المغرب والاندلس .

ثم جاءت الخاتمة فى نهاية هذه الدراسة وهى خلاصة ما انتهى اليه البحث عن الفاطميين والمرابطين ثم الموحدين وما أنجزوا من انجازات على الساحة المغربية والاندلسية ثم المصادر والمراجع العربية والاجنبية التى عولت عليها فى هذه الدراسة .

وهكذا تم فى هذه الدراسة القاء الضوء على الادوار الاسلامية لهذه الدول الثلاث وكيف تبلورت مقومات المغرب العربى الاسلامى بصورة فعالة وتم بناء الجيل العربى المغربى فى المغرب والاندلس وكيف اضطلعت المغرب بدور من أدوار تاريخها المجيد فى

ظل الاسلام قوامه التصدى للخطر الخارجى الذى بدأ يحدق بالديار المغربية الاندلسية وكيف أن دولة الموحدين والمرابطين كان لظهورهما الفعل المؤثر فى اعاقة الحركة الصليبية فى المشرق وانشغال دول أوربا وعلى وجه التحديد الممالك النصرانية فى الاندلس وغيرهما من الدول الاوربية فى الالقاء بثقلها فى الصراع الدائر فى المشرق من أجل السيطرة على بيت المقدس دون التكتل لحرب المسلمين فى الاندلس .

وهكذا لعبت هذه الدول دورها فى اثراء الحركة الاسلامية ودفع التقدم الحضارى والثقافى فى مختلف الميادين .

والله العلى القدير أرجو أن أكون قد استطعت أن ألقى بعض الاضواء على تاريخ هذه الدول بصورة موجزة يتضح فيها للقارئ الكريم نضال شعوب المغرب من أجل الاسلام وعقيدته الغراء .

والله ولى التوفيق

الملك فيصل– الهرم.

الجمعة ٢ مارس ١٩٩٠م

٥ شعبان ١٤١٠هـ

دكتور

عبد الفتاح مقلد الغنيمى



# الباب الأول

## كيف ظهر التشيع فى العالم الإسلامى

قبل الخوض فى دراسة تفصيلية عن ظهور الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب فان الأمر يقتضى أن نغوص فى أعماق التاريخ الإسلامى لكى نوضح كيف ظهر التشيع فى العالم الإسلامى وماهى الفرق الشيعية الهامة والتى مارست دورها فى فى التشيع لآل البيت وماهى الثورات التى قام بها أبناء البيت العلوى بعد خلافة الخليفة الراشد الرابع على بن أبى طالب وكيف ثار العلويون فى وجه الخلافة الأموية والعباسية حتى إستطاع فرع من الفرق الشيعية إقامة دولته فى بلاد المغرب وكيف كان يهدف خلفاء هذه الدول إلى فرض سيطرتهم على العالم الإسلامى والقضاء على الخلافة الأولى والوحيدة فى العالم الإسلامى فى ذلك الوقت والتى كانت ترى أن لها الحق فى حكم الأمة الإسلامية فى ذلك الحين.

ولقد كانت البذرة الأولى للشيعة، تلك الجماعة الذين رأو بعد إنتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى أن أهل بيته أولى الناس أن يخلفوه فى قيادة المسلمين وأولى أهل البيت العباس بن عبد المطلب عم النبى ﷺ وعلى بن أبى طالب ابن عمه وعلى أولى من العباس، ولقد كانت الخلافة أول المشاكل التى تعقد فيها الخلاف بين المسلمين ذلك لأن رسول ﷺ انتقل الى الرفيق الأعلى ولم يعين من يخلفه من بعده فواجه المسلمون أخطر مشكلة فى طريق سيرهم على درب الرسول ﷺ .

ولذا شعر المسلمون من لحظة وفاة الرسول ﷺ إلى ضرورة التفكير العلمى واتخاذ الخطوات الفعلية بمن يخلفه ﷺ فى قيادة المسيرة، وكان الانصار فى المدينة قد أسرعوا قبل دفنه ﷺ إلى عقد اجتماع عاجل وفورا فى سقيفة بنى ساعدة ليتدارسوا الامر

بينهم، لكن بعضا من المهاجرين بقيادة أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة الجراح وغيرهم من كبار المهاجرين خشيوا أن يتخذ الانصار قرارهم فى الامر من جانب واحد فى هذه السقيفة دون دعوة المهاجرين .

وفى سقيفة بنى ساعده انقسم المسلمون إلى قسمين بل رأيين متعارضين فهناك رأى يقول بأن الخليفة يجب أن يكون من الانصار الذين نصروا الرسول ﷺ وأوه فى المدينة المنورة وحجتهم فى ذلك أن محمدا ﷺ لبث فى قومه فى مكة المكرمة نحو ثلاث عشر سنة يدعو قريش إلى الاسلام فما آمن منهم الا نفر قليل وما تعرض له الرسول ﷺ من الاذى يعرفه كل المهاجرين فلما هاجر من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة نصره الانصار وآمنوا بدعوته وأعز الله دينه بهم وكانوا معه على عدوه حتى دانت له كل جزيرة العرب وصعدت روحه الطاهرة إلى بارئها وهو ﷺ راضى عنهم .

فلهذه الاسباب فان الانصار أولى الناس أن يخلفوه ﷺ فى قيادة المسيرة الاسلامية وكان للمهاجرين حجتهم فى أن تكون الخلافة الاسلامية من حقهم وحجتهم فى ذلك أنهم أول من آمن به وصبروا وصابروا معه ﷺ على الاذى والشدائد وهم قومه وعشيرته وهم من قريش وكل العرب لاندين الا لهم. ولا تقر بعزة ومنعه غير عزتهم ومنعتهم فهم أولى بالخلافة من غيرهم وبعد طول نقاش تمت البيعة فى هذا المجلس لعبد الله بن أبى قحافة (أبو بكر الصديق التميمى القرشى) .

ولم يكن على بن أبى طالب حاضرا هذا الاجتماع لانشغاله هو وأهل بيته فى جهاز وتجهيز الرسول ﷺ واعداد العدة لدفنه صلى الله عليه وسلم، فلما بلغه خبر البيعة لابى بكر لم يرضى عنها. ذلك لان الامام على بن أبى طالب عرف أن هزيمة الانصار جاءت بسبب حديث الرسول ﷺ– الائمة من قريش، قال على «احتجوا بالشجرة ونسوا (تجاهلوا) الثمرة» وقد فهم على من احتجاج أبى بكر وعمر بهذا الحديث أن المقصود



القرابة فاذا كانت القرابة من الرسول ﷺ مرجحا لنيل الخلافة فعلى بن أبى طالب أقرب إلى الرسول ﷺ من أبى بكر وعمر ولكن يبدو أن أبا بكر وعمر كانا يقصدان مكانة قريش وقوتها لا القرابة وحدها فقريش أولى بالخلافة لقوتها ولانها المطاعة بين العرب وقد وضح أبو بكر قصده ذلك فى نفس الخطاب الذى ألقاه فى سقيفة بنى ساعدة بقوله نحن مع ذلك أوسط العرب «أنسابا» ووضح عمر بن الخطاب هذا الاتجاه ايضا بقوله «لو دخلت قريش جحر ضب ليتبعها العرب» .

ولقد كان إلى جانب الانصار والمهاجرين الذين تم على أيديهم اختيار أبى بكر الصديق ليخلف الرسول ﷺ رأى ثالث فى المدينة يرى أن تكون الخلافة فى بيت النبى وأقرب الناس اليه ﷺ عمه العباس بن عبد المطلب أو ابن عمه على بن أبى طالب ولكن العباس لم يكن من السابقين إلى الاسلام ولم يدخل الاسلام الا متأخرا فأولى الناس من قرابة النبى ﷺ على بن أبى طالب وهو أول الناس اسلاما وزوج فاطمة الزهراء بنت النبى ﷺ وجهاده وعلمه لا ينكر . وحجة هذا الفريق الثالث أن أقرب الناس إلى النبى أن يخلفوه وأن بيت بنى هاشم خير من بيت بنى تميم فالعرب للاولين أطوع وان المهاجرين احتجوا على الانصار بأنهم قوم النبى وعشيرته فعلى هذا يكون آل النبى وأقربهم اليه أولى بالخلافة من أبى بكر الصديق .

وقد سؤل على بن أبى طالب عما حدث فى سقيفة بنى ساعدة فقال فماذا قالت قريش قالوا احتجت بأنها شجرة الرسول ﷺ فقال على احتجوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة، يريد القول بأن المهاجرين احتجوا بأنهم من شجرة النبى فالاولى بالاحتجاج من يجمعهم والرسول ﷺ ثمرة واحد من ثمار واحد من ثمار قريش وهم قرابته، وقد أيد هذا الرأى بعضا من بنى هاشم وعطف عليه بعض الانصار والمهاجرين على السواء .

ولكن الرسول ﷺ لم يو صى بالخلافة من بعده وترك الامر شورى بين المسلمين

وعن طريق هذه الشورى أختير الخلفاء الاربعه الراشدين وان اختلفت أساليب الشورى عند اختيار كل واحد منهم وكان على بن أبى طالب يطمع فى أن يلى هذا المنصب منذ اللحظة الاولى .

لكن الرأى الذى أيد عليا فى الخلافة واعطائه حقه فى الخلافة لم ينتهى ويسكت فى عهد أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب لكن سلوك أبى بكر وعمركان مثاليا فلم يدعا بأخلاقهما فرصة لاية أفكار معادية أن تظهر أو تنتشر لانهما لم يعيرا العصبية القبلية أى التفات وزاد فى سكونها اشتغال الناس بالدعوة والفتوح ونجاحهم فى تحقيق أهداف الفتح فلم يجد أصحاب الرأى المخالف مجالا يدخلون منه لاثارة الفتن بين المسلمين وعلى هذا فان الامر ظل يسير عاديا فى خلافة هذين الخليفتين اللذين بذلا الكثير لصالح المسلمين عامة وكان عليا فى ظل هذه الظروف لم يبدى تذمرا أو احساسا بالضيق نظرا لان حديثا دار بينه وبين عمه العباس بن عبد المطلب رواه البخارى عن ابن عباس أن عليا رضى الله عنه خرج من عند رسول الله ﷺ فى وجعه الاخير الذى نقل منه إلى الرفيق الاعلى فقال الناس يا أبا الحسن كيف أصبح رسول الله فقال أصبح يحمد الله بارئا فأخذ بيده العباس رضى الله عنه وقال أنت والله بعد ثلاث عن اليصا، وانى والله لارى رسول الله ﷺ سيتوفى من وجهه هذا لانى لا أعرف وجوه بنى عبد المطلب عند الموت، فاذهب بنا اليه نسأله فيمن هذا الامر، فان كان فينا علمناه، وان كان فى غيرنا كلمناه فأوصى بنا فقال على رضى الله عنه، أما والله لئن سالناه فمنعناها لا يعطيناها الناس بعده وأى والله لا أسألها .

وكان جمع من الصحابة يرى أن عليا أفضل من أبى بكر وعمر وغيرهما. وذكروا أن ممن كان يرى هذا الرأى عمار بن ياسر وأباذر الغفارى وسليمان الفارسى وجابر بن عبد الله، والعباس وبنيه، وأبى بن كعب وحذيفة وغيرهم الكثيرين من



صحابة رسول الله ﷺ .

والشيعة يرون أن عليا رضى الله عنه هو الذى عينه صلوات الله وسلامه عليه بنصوص ينقلونها ويؤولونها على مقتضى مذهبهم لا يعرفها جهابذة السنة وتنقسم هذه النصوص إلى جلى وخفى فالجلى مثل قوله ﷺ من كنت مولاه فعلى مولاه قالوا ولم تطرد هذه الولاية الا فى على ولهذا قال له عمر أصبحت مولى كل مؤمن ومؤمنه ومنها قوله ﷺ أقضاكم على. ولا معنى للامامة الا القضاء بأحكام الله وهو المراد بأولى الامر الواجبة طاعتهم بقوله أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم والمراد الحكم والقضاء ولهذا كان حكمه فى قضية الامامة يوم السقيفة دون غيره ومنها قوله من يبايعنى على روحه وهو حى وولى هذا الامر من بعدى فلم يبايعه الا على ومن الخفى عندهم بعث النبى ﷺ عليا لقراءة سورة براءة فى الموسم فانه ﷺ بعث بها أولا أبا بكر ثم أوحى اليه ليبلغه رجل منك أو من قومك فبعث عليا ليكون القارئ المبلغ وقالوا أن هذا يدل على تقدم على بن أبى طالب ولم يعرف عنه ﷺ انه قدم أحدا على على أما أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب فقدم عليهما أسامة بن زيد فى غزوة وعمرو بن العاص فى غزوة أخرى .

وهذه كلها أدلة حية وشاهدة على تعيين على بن أبى طالب للخلافة دون غيره من صحابته ﷺ، بل إن هذه النصوص تدل على تعيين على وتشخيصه وكذلك تنقل منه إلى من بعده . وعلى كل الاحوال فان خبر أبى ذر الغفارى بأنه كان من شيعة على خبر شائع بين كافة الناس ولقد عمل مؤيدو على بن أبى طالب منذ الوهلة الاولى على نشر الاحساس بين المسلمين بأن عليا مضطهد ومبعد عن مكانة الخلافة التى هو بها جدير دون غيره وان كان هذا الاحساس لم يكن قويا وظاهرا بصورة واضحة وجلية أمام كافة صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وان كان يشعر به من رأوا أحقية على

وذلك فى عصر أبى بكر وعمر نظر لكبر سنهما وكفاءتهما النادرة .

## خلافة عثمان بن عفان وظهور التشيع بصورة واضحة

لما ولى عثمان بن عفان الخلافة الراشدة الثالثة للمسلمين تبرم على ابن أبى طالب وأنصاره من صحابه رسول الله ﷺ وزادهم تبرما أن عثمان وهو أموى استعان بعشيرته من الامويين فكان أكثر عماله منهم وكان كاتبه وأمين سره «مروان بن الحكم» ومروان هذا وشيعته هدموا كل ما بناه الاسلام من قبل ودعمه أبو بكر وعمر من محاربة العصبية القبلية وبث الشعور العام بأن العرب أمة واحدة، ولكن الامويين حكموا البلاد كأمويين ولم يحكموها كعرب ولقد كانت هذه الافعال من جانب الامويين محركا للشعور القديم بين بنى هاشم وبنى أمية .

وكان اختيار عثمان وتفضيله على على سببا فى ظهور التشيع لآل البيت بصورة جلية وقوية لاسيما أن الشعور العام كان بجانب على وأن الخلافة بعد عمر سينالها على بن أبى طالب، ولقد عبر على بن أبى طالب عن ذلك بنفسه عما يحس به من شعور وضيق وابعاد بقوله لعبد الرحمن ابن عوف، عقب اعلان اختيار عثمان بن عفان خليفة راشد ثالث للمسلمين «ليس هذا أول يوم تظاهرتم فيه علينا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون» .

وجاء فى رواية ابن عبد ربه فى كتابه العقد الفريد قول على فى حديث الشورى عقب وفاة عمر : فأخذ عبد الرحمن بن عوف مواثيقنا وعهودنا على أن يخلع نفسه وينظر لعامة المسلمين فبسط يده إلى عثمان فبايعهم اللهم أن قلت انى لم أخن فقد كذبت .

وكان الخليفة عثمان قد اتى أعمالا لم يسبق لابى بكر وعمر قبله أن عملاها،



ومن ثم انتشرت الجمعيات السرية فى أواخر عهده تدعو إلى خلعه وتولية غيره ومن ثم بدأت حركات الشيعة تظهر وتقوى. ومن هذه الجمعيات من كانت تدعو إلى على ومن أشهر الدعاة له عبد الله بن سبأ وكان من يهود اليمن وادعى دخول الاسلام لاحبا فيه ولكن ليطعنه من الداخل فذلك أيسر عليه من محاربة الاسلام دون أن أن يتظاهر بالانتساب اليه .

وقد تنقل فى البصرة والكوفة والشام ومصر يدعو إلى آل البيت بعد أن حدث من تولى عثمان لشئون المسلمين فان التطور الذى شهده عهد هذا الخليفة قد هيأ للامويين الانفراد بالخلافة وجعلها وراثية فى بيتهم دون غيرهم وكانت الدولة الاسلامية قد سارت وفق النظام الاسلامى الكامل طيلة ثلاثين عاما من حياتها أى من السنة الاولى للهجرة حتى أواسط خلافة عثمان بن عفان وطوال عهد هذا الخليفة فقد بدأ نفر من القادة يميل إلى تعديل السياسة التى وضعها عمر بن الخطاب للحكم وهو الرأى الذى عبر عنه عثمان بن عفان نفسه فى مجلس الشورى قبل انتخابه قائلا لاعضاء هذا المجلس «لان تعينوا حجرا خيرا من أن تولوا مرة أخرى رجلا مثل عمر، وقطع هذا الخليفة على نفسه عهدا بالسير على سياسة أبى بكر وعمر ولكن حين ولى الخلافة اتخذ خطوات اختلفت تماما عن سياسة عمر وأتاحت للامويين خاصة دعم نفوذهم فى الدولة الاسلامية متخليا بذلك عن أسس مجلس الشورى ونظمه على عهد عمر بن الخطاب ولكن تصدى لهذا التيار الجديد الجماعة التى رأت ضرورة التمسك بحكم السابقين وعبر عن هذه الجماعة على بن أبى طالب حين دار بينه وبين الخليفة عثمان نقاش ونقد لأعمال بنى أمية وتوليتهم فى مناصب الدولة الاسلامية .

وانطلقت بذلك الازمة التى اشتهرت فى عهد عثمان باسم الفتنة وهى انفصام وحدة المسلمين السياسية واختلاف آرائهم وهى الوحدة التى بناها أبو بكر حين قضى

على الرد ثم دعمها الخليفة عمر بحزمه وعدله وأخذ الناس ينتقدون الخليفة عثمان وظهرت الحركات المعادية لعثمان بن عفان ومحاباته لأبناء البيت الأموى دون سائر قريش والعرب والمسلمين .

وكان عبد الله بن سبأ قد انتهز السخط الذى ساد الولايات ضد سياسة عثمان فى محاباة أبناء البيت الاموى وأخذ يتنقل بين الولايات الاسلامية ويثير أهلها على الخليفة. وقد اتخذ عبد الله بن سبأ من الدعوة لعلى بن أبى طالب ومناداته بأحقية بيت النبى فى الخلافة سندا يخفى وراءه أغراضه الخبيثة. وكون عبد الله من النفوس الثائرة على الخليفة جماعة بعد أن كانوا أفرادا وربط هذه الجماعة بحب آل البيت والتشيع لهم رغبة فى كسب عطف المسلمين ومن هنا كان الشيعة هم الذين شايعوا عليا رضى الله عنه وبذلك بدأ عبد الله بن سبأ يدخل على تفكير جماعته من الشيعة ألوانا من الآراء والفلسفات وخلق الروايات ووضع الاحاديث التى نسبت للشيعة وتبعه فى ذلك كثيرون ممن عاصروه وممن جاءوا بعده وساروا على شاكلته ومن هذه الآراء قوله بمذهب الوصاية بمعنى أن لكل نبى وصياً وأن على بن أبى طالب وصى النبى محمد ﷺ وبما أن محمد خاتم الانبياء فان عليا خاتم الاوصياء أى أن عثمان قد اغتصب الخلافة من وصى رسول الله فمن أظلم ممن لم يجز وصية رسوله الله ووثب على وصيه.

وقد وصل عبد الله بن سبأ إلى مصر بعد ست سنوات فقط من تولى عثمان الخلافة وأخذ يتراسل مع نفر من الرجال الذين مالوا إلى دعوته فى كل من البصرة والكوفة والشام وكان ممن استجاب لدعوة ابن سبأ فى مصر نفر من كبار أبناء الصحابة ومعهم محمد بن أبى بكر الصديق وغيره الكثيرين من الصحابة الذين كانوا يرون أن عليا أحق بالخلافة بعد وفاة الرسول ﷺ ولم يدرك الخليفة عثمان بن عفان خطورة دعوة ابن سبأ فى مصر لانها اتخذت طابع السرية الشديدة وظهرت دعوة ابن سبأ جهارا



فى عام ٣٥هـ وذلك بسبب أعمال عثمان وموقفه من أقاربه بالاضافة إلى الميل الطبيعى المبعث من العاطفة لتأييد أقارب الرسول ﷺ وحبهم والولاء لهم وكذلك لما عرف عن على بن أبى طالب من بطولة نادرة فى نشر الاسلام ومن سبق فى الاسلام وعلم زاخر وخلق قويم .

وأدرك الخليفة عثمان خطورة الدعوة لآل البيت ولعلى فأمر بعقد مؤتمر بالحجاز استدعى اليه سائر عماله بالولايات الاسلامية وقد أدرك الخليفة خطورة الموقف وما هى المخاطر التى أخذت تطبق عليه ولكن معاوية ابن أبى سفيان وسط هذه الفتنة استطاع أن يبلور مسؤليته فى الدفاع عن الخليفة فقد وفد عليه معاوية عام ٣٤هـ مع سائر ولاة بنى أمية للتشاور فى القلاقل والفتن التى انتشرت فى بلاد الدولة، اذ قال معاوية للخليفة بعد انتهاء المؤتمر واتضاح الاسباب الحقيقية للسخط «يا أمير المؤمنين انطلق معى إلى يزالوا» ورفض عثمان طلب معاوية وأبى مفارقة الحجاز وعندئذ أعلن معاوية عن مسئولية بنى أمية فى الدفاع عن عثمان فى خطاب ألقاه فى جمع من المهاجرين بالمدينة قبل عودته إلى الشام فقال لهم قد علمتم انه ليس منكم رجلا الا وكان قبل الاسلام مغمورا فى قومه.. حتى بعث الله رسوله فسبقتم اليه فسدتم بالايمان والاسلام لا بغيره وسيدوم هذا الأمر ما استقمتم فان تركتم شيخنا هذا (يقصد عثمان بن عفان) يموت على فراشه والا خرج منكم ولا ينفعكم سيفكم وهجرتكم» وكشف معاوية بذلك عن مفهوم جديد للحكم فى الدولة الاسلامية هو أن بقاء الخلافة فى عثمان ابن عفان حق من حقوق البيت الاموى وان الالتجاء إلى القوة سوف يؤدى إلى رجحان كفة الامويين لاعتمادهم على أهل الشام .

وكان تلويح معاوية لعثمان بالانتقال إلى الشام يمثل ظاهرة جديدة من أجل العمل الشيعى المكثف للدعوة لآل البيت وضرورة تولية على بن أبى طالب للخلافة

وخلع عثمان قبل أن تسير الامور فى صالح بنى أمية إذ إن انتقال عثمان إلى الشام معناه أن الحكم سيؤول من بعده إلى معاوية نظرا لاعتماد البيت الاموى على بلاد الشام وأن ذلك يمثل مفهوما جديدا فى التطور السياسى الذى شهدته الدولة الاسلامية فقد اثبتت الاحداث والحوادث أن بلاد الحجاز لم تعد المركز الذى تدار منه شئون الدولة الاسلامية بعد أن اتسعت رقعتها. وقد ظهرت صحة احساس معاوية وأبناء البيت الاموى بالخطورة على عثمان حين وفد الثوار من الامصار الاسلامية إلى المدينة عام ٣٥هـ/ ٦٥٥م لشد أزر الناقمين فيها على الخليفة. اذ حين حاصر الثوار بيت الخليفة قال مروان بن الحكم الاموى مستشار عثمان ابن عفان. ما شأنكم قد اجتمعتم كأنكم قد جئتم للنهب شاهت الوجوه؟ أجئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا. ارجعوا إلى منازلكم فإنا والله ما نحن بمغلوبين على ما فى أيدينا». وقال لهم عثمان مجيبا لهم «لا أخلع قميصا البسنيه الله» ولم يلبث أن تطور الأمر إلى اقتحام الثوار لمنزل الخليفة وقتله وهو يقرأ القرآن كما قطعت أصابع زوجته نائلة وهى تدافع عنه .

وقد اندس بين الساخطين الثائرين الذين قتلوا عثمان بن عفان كثيرون ممن غلبهم الاسلام على أمرهم فأرادوا هدمه أو النيل منه وتلك سمة ظاهرة منذ عصر الفتوحات حتى وقتنا الحاضر فتظاهروا بالدخول فيه ليمكنهم ذلك من الثورة على ولى أمر المسلمين باسم الاسلام وهذه قواعد الاسلام باسم الأحاديث الكاذبة التى وضعوها أو كما يقول الاستاذ أحمد أمين فى كتابه «فجر الاسلام» والحق أن التشيع كان مأوى يلجأ اليه من أراد هدم الاسلام لعدواة أو حقد ومن كان يريد ادخال تعاليم أبائه من يهودية ونصرانية وزردشتية أو هندية وكل من كان يريد استقلال بلاده والخروج على مملكة الاسلام. وكل هؤلاء كانوا يتخذون حب أهل البيت ستارا يخفون وراءه كل أهدافهم فى محاولة الكيد للاسلام وأهله وقالوا بأقوال كانت عند اليهود والنصرانية



والبرهمة والفلاسفة والمجوس من قبل الاسلام وسوف نشير إلى ذلك عند الحديث عن التغيرات التى تحرك فيها هؤلاء الذين دخلوا الاسلام واتخذوا التشيع لآل البيت عاملا من عوامل نقل الاسلام من البساطة إلى التعقيد وحقيقتهم أنهم كانوا أكثر بعدا عن الاسلام وعن التفكير السليم وانهم أخذوا اسم الشيعة فوضعوه ستارا ونسجوا خلفه ألوانا من الاكاذيب والاباطيل يقصدون بذلك الكيد للاسلام والمسلمين .

## خلافة على بن أبى طالب وما تم من أحداث

لما قتل عثمان بن عفان بايع عليا بن أبى طالب كثير من المسلمين فتحققت بذلك نظرية القائلين بحق على فى الخلافة من يوم وفاة الرسول وأيده كثيرا من كبار المهاجرين لانطباق آرائهم فى حق على بالخلافة وخرج على على طلحة والزبير ومعاوية وكلهم يلصق بعلى تهمة أن له ضلعا فى قتل عثمان أو على أقل تقدير قعد عن نصرته وكان فى استطاعته رد الناس عنه. وأنه يجب عليه أن يقتص من قتلة عثمان وحمل لواء البيت الاموى هذا الصراع معاوية بن أبى سفيان والى الشام الذى رفض الاعتراف بعلى بن أبى طالب الذى بايعه الثوار خليفة بعد مقتل عثمان بن عفان وكان معاوية يقول انه أولى الناس رحما بعثمان وأقوى أهل بيته على المطالبة بدمه وانه زعيم البيت الاموى والرأس المفكرة المدبر لابناء هذا البيت وتطلعهم إلى السيادة العليا فى الدولة الاسلامية وحين انتهت الفتنة بمقتل عثمان بن عفان تولى معاوية بن أبى سفيان الزعامة السافرة للبيت الأموى فى المطالبة بدم الخليفة المقتول باعتباره من أبناء البيت الآموى .

واتخذ على بن أبى طالب الكوفة عاصمة له ابان خلافته وأصبحت الكوفة منذ ذلك التاريخ مركز التشيع وحدث الانقسام الاول الذى فتت الوحدة الاسلامية وجر الويلات على المسلمين والعالم الاسلامى منذ تلك اللحظة إلى يومنا هذا (ظهور شيعة

وسنة وخوارج) وكانت حجة معاوية انه قام للمطالبة بثأر عثمان والانتقام من قتلته ومن حماة هؤلاء القتلة وكانت هذه حجة عاطفية اتخذها معاوية ستارا ليثير شعور المسلمين على على أما الصراع الحقيقى فهو صراع سياسى تمتد جذوره إلى الماضى البعيد إلى عصر ما قبل الاسلام عندما كان التنافس على أشده بين بنى أمية وبنى هاشم فى سبيل السيادة .

ورفض معاوية بن أبى سفيان الامتثال للخليفة الجديد على بن أبى طالب الذى عزل ولاة عثمان جميعا ومن بينهم معاوية نفسه اذ نادى معاوية بأنه يجب أولا المطالبة بدم عثمان ثم الاتفاق على خليفة المسلمين وان الواجب يقتضى من الخليفة الجديد (على بن أبى طالب) أن يقوم بتسليم قتلة عثمان إلى معاوية الممثل الشرعى للبيت الاموى وصاحب الولاية للخليفة القتيل وكانت نائلة زوجة عثمان بن عفان قد بعثت بقميص زوجها المقتول وأصابعها التى قطعها الثوار قتلة الخليفة عثمان إلى معاوية بن أبى سفيان بالشام لتحرضه على الأخذ بثأر الخليفة وقد علق معاوية قميص الخليفة وأصابع نائلة على المنبر فى دمشق لتحريض أهل الشام على الأخذ بثأر الخليفة القتيل .

ووجدت فى هذا الموقف طائفة من كبار الصحابة لم تبايع عليا ولم تبايع غيره ولم تشترك فى الخلاف القائم وفضلت العزلة واستطاع الامام على أن ينتصر فى وقعة الجمل وأما معاوية فقد كان أصعب منالا اذ كان لديه جند الشام المنظم الطائع وكان بين على ومعاوية من وقعة صفين ما كان فلما أحس معاوية بأن الدائرة كادت تدور عليه أوعز إلى جنوده برفع المصاحف على رؤوس الرماح وطلب التحكيم إلى كتاب الله.

وكانت اجراءات التحكيم بين على بن أبى طالب ومعاوية قد دخلت فى دور



التنفيذ وقام عمرو بن العاص ممثلا لمعاوية بن أبى سفيان على حين كان على بن أبى طالب قد اختار أبا موسى الاشعرى ممثلا له وقد انتهت اجراءات التحكيم بالخدعة التى أقر فيها أبو موسى خلع على بن أبى طالب من الخلافة على حين ثبت عمرو بن العاص شخص معاوية فى الخلافة. ودبر الخوارج مؤامرة للفتك بعلى بن أبى طالب ومعاوية وعمرو بن العاص ولكن هذه المؤامرة لم تنجح الا بالقضاء على على وكان اغتياله عام ٤٠هـ على يد عبد الرحمن بن ملجم .

ولقد كان بن أبى طالب يعانى عناد خصمه وقوته ويعانى عناد الخوارج وقوتهم ويعانى تمرد أتباعه ونفاقهم وقعودهم عن نصرته وفى نفس الوقت كان معاوية مسموع الكلمة فى بلاد الشام وكذلك فى مصر التى استطاع أن ينتزعها من أيدى أنصار على بن أبى طالب فى شهر صفر عام ٣٨هـ. حيث غدت مصر منذ ذلك التاريخ قوة تشد أزر البيت الاموى وتساند قضاياه وهكذا أخذ شأن معاوية بن أبى سفيان السياسى يعلو يوما بعد يوم وباغتيال الخليفة الراشد الرابع على بن أبى طالب خلا الامر لمعاوية بن أبى سفيان. حيث كان معاوية قد قاد النضال فى عنف واصرار شديدين مستعملا كل ماأوتى من مكر ودهاء. فلم يكن الصراع بين على ومعاوية اذن صراعا للاخذ بثأر عثمان أو للانتقام من قتلته وانما كان حلقة جديدة فى سلسلة النزاع القديم فى سبيل السيادة بين بيتين كبيرين فى قريش هما بنو أمية وبنو هاشم .

وكان قد اتفق ثلاثة من الخوارج على قتل على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان وعمرو بن العاص وذلك فى يوم واحد هو السابع عشر من رمضان عام ٤٠هـ بينما نجح احد الخوارج وهو عبد الرحمن بن ملجم فى اغتيال على بن أبى طالب بينما فشل الخارجان الآخران فى اغتيال معاوية وعمرو بن العاص .

وبعد مقتل على قامت محاولة ضئيلة ترمى إلى البيعة للحسن بن على أو قل انه

قد بويع فعلا من بعض الشيعة ولكن هذا الأمل سرعان ما انطفأ فى نفس الحسن حينما أشيع أن قائده قيس بن سعد بن عبادة قد قتل فإذا ببعض أهل العراق ينهالون على بيت الحسن يهتكون حرماته وينهبون متاعه حتى نازعوه بساطا كان يجلس عليه ولم يسلم الحسن نفسه من بعض الاقوال منهم .

ولقد صارت الكوفة بالعراق مقر أنصار آل على بن أبى طالب والساخطين على الأمويين منذ أن اغتصب معاوية الخلافة لنفسه وهكذا انتشر التشيع فى المرحلة الاولى من مراحل تطور الدولة الاسلامية فى بلاد العراق التى ارتبط بها بيت على بن أبى طالب منذ أن خرج اليها لمحاربة طلحة والزبير واتخاذ الكوفة بتلك البلاد عاصمة له. ولقد كان أهل الكوفة يستجيبون لكل نداء للثورة، كأن الثورات أصبحت هدفا لذاتها واضطراب الامن أصبح هدفا مقصودا لذاته ومن أجل ذلك كانوا ينهزمون أو يصطنعون الهزيمة وهم من أجل ذلك أحيانا يقتلون زعيمهم الشيعى بأنفسهم يكونون معه ويدفعونه للثورة فإذا استجاب انقلبوا عليه وقتلوه. ولقد قال أحد الشعراء عن أهل الكوفة قلوبهم معك وسيوفهم عليك بل أكثر من ذلك فان قلوبهم كسيوفهم ليست مع الشيعة ولا مع المسلمين وبتلك السيوف قتل قادة الشيعة وكبارهم .

وكان مقتل على بن أبى طالب سببا فى بلورت فكرة الحزب الشيعى وهو الحزب الذى يضم من ينتصرون لعلى أو يتشيعون له وقد انضم إلى هذا الحزب كل المتذمرين من معاوية وآل أموية من العرب وغيرهم ومن الموالى بوجه خاص وصنع رجال هذا الحزب لانفسهم مبدأ خاصا وفلسفوا هذا المبدأ فلسفة تأثروا فيها إلى حد بعيد بنظريات الحكم عند الفرس التى كانت تؤمن بحق الملك المقدس وحجر الزاوية فى هذا المبدأ عقيدتهم فى الامامة .



## نشاط الشيعة فى العصر الاموى

بنى الشيعة عقيدتهم فى الامامة على حديث نبوى يقول إن الرسول ﷺ مر عند أوبته (عودته) من حجة الوداع بغدير (ضم) وهو مكان بين مكة والمدينة وعند هذا الغدير أخى بينه وبين ابن عمه على وقال ﷺ «على مولاى اللهم وآل من والاه وعاد من عاداه» .

وقالوا استنتاجا من هذا أن هذا الحديث يتضمن مبايعة ضمنية من الرسول «ﷺ» لعلى وأن عليا وصى الرسول «أوصى له بالامامة من بعد لشروط خاصة ينفرد بها ولعلوم لدينه تلقاها عنه ﷺ وأن الامامة يجب أن تنقل من على إلى أولاده الواحد بعد الآخر لان هذه الشروط والعلوم تتصل من نسل على بطريق الوراثة من الابن إلى الابن .

ولقد وقف أتباع هذا الحرب فيما بعد إلى جانب أولاد على يحرضونهم على المناداة بحقهم فى الخلافة فرشحوا أولا الحسن بن على ليعلى أمر المسلمين بعد مقتل أبيه ولكن الحسن كان رجلا بعيد النظر فرأى أن أهل الشام ومصر والحجاز واليمن قلوبهم مع معاوية ورأى أن أهل العراق الذين تقاعسوا عن نصرة أبيه لا يمكن مع تحمسهم لعلى وأولاده أن يتقدموا لنصرته ضد معاوية فآثر أن يسالم معاوية وقنع معه بمعاهدة عقدها معه فيها شروط خاصة له ولاتباعه واستقر بعد ذلك فى مدينة الرسول ﷺ .

ولبث معاوية يستميل الناس ويصطنعهم لنفسه ولاسرته بالسياسة واللين والكرم والعطاء تارة أخرى حتى استطاع أن يخمد دعوة الشيعة ويسكتها مؤقتا وحتى استطاع أن يرسى أسس الحكم والسيادة لبنى أمية على قواعد متينة بأن أخذ البيعة لابنه يزيد قبل موته وبهذا ابتنى للخلافة نظاما جديدا وقلبها من نظام شورى هو أقرب شئ إلى

النظام الجمهورى إلى نظام ملك وراثى. وكان إعلان تنازل الحسن بن على عن الخلافة لمعاوية اعلان بأنه خليفة المسلمين وصار هذا العام «عام الجماعة» حيث اجتمعت فيه كلمة المسلمين وبذاك بدأ عهد الخلافة الاموية فى الدولة الاسلامية .

ولقد كان نشاط الشيعة وثوراتهم خلال العهد الاموى ثورات متصلة متشابهة البواعث متشابهة الاهداف فبواعثها كراهية الامويين وأهدافهم اسقاط دولتهم بعد أن تنازل الحسن بن على لأنه كان قد عاصر المشكلات التى عاناها أبوه وعرف الحسن أن أباه لم يستطع أن يتغلب عليها وأن كان الامام على بما ملك من قدرات وصفات فلما تتوافر لغيره عجز عن حل هذه المشكلات فما أحرى بالحسن أن يطلب السلامة ايمانا منه بأن الاحداث كانت أقوى منه .

وكان معاوية قد دخل الكوفة بعد ذلك فى ربيع الثانى عام ٤١هـ. حيث التقى الحسن ومعاوية وبايع الناس معاوية وبايع معهم الحسن والحسين وعاد معاوية بعد ذلك إلى دمشق حيث اتخذها عاصمة للخلافة بعد أن كانت عاصمة امارته وعاد الحسن وأسرته إلى المدينة وبقى بها حتى توفى عام خمسين هجرية أو احدى ويقال إن زوجته قد وضعت له السم بايعاز من يزيد بن معاوية حتى يخلو له الجو بعد معاوية .

ولقد أراد معاوية أن يأخذ البيعة لابنه يزيد فبايعته الامصار ولم يبق أمامه الا الحجاز يقوده الحسين بن على وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبى بكر وعبد الله بن العباسى .



## بيعة يزيد بن معاوية بالخلافة ودور الشيعة

لقد ظل أهل الكوفة يعانون سخطهم للامويين لاغتصاب معاوية الخلافة لنفسه ومن ثم جاء بعده ابنه يزيد وقبل وفاة زياد بن أبيه عامل الخليفة معاوية بالعراق وقبضته الحديدية على مقاليد الامور لم تحل دون اعلان السخط ولكن اعلان رفض أبناء الصحابة لتعيين يزيد وهاجموا هذه الفكرة فاضطر معاوية أن يذهب بنفسه إلى المدينة وانتقل أبناء الصحابة الذين لم يبايعوا يزيد إلى مكة فلحق بهم معاوية ودعاهم لمبايعة ابن عمهم يزيد فنفروا وثاروا فتوعدهم معاوية. ولما مات معاوية تجددت البيعة ليزيد وامتنع عن البيعة الزعماء السابقون (الحسين بن على وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبى بكر وعبد الله بن العباس) لكن فيما بعد بايع ابن عمر وابن عباس وابن أبى بكر وامتنع الحسن وعبد الله بن الزبير وظلا على عنادهما وبذلك تغير الموقف وبات الامر يتطلب ثورة عاجلة نتيجة التطورات التى صاحبت بيت على بن أبى طالب فى جهاده من أجل الخلافة واقرار نظامها المثالى وكان أهم معالم تلك التطورات اشتراك الحسين بن على ابن أبى طالب فى الثورة على مبدأ الوراثة بالبيعة ليزيد ونقم زعماء المدينة وصاح عبد الرحمن بن أبى بكر قائلا ما الخيار ماذا أردتم لأمة محمد ولكنكم تريدون أن تجعلوها هرقلية كلما مات هرقل قام هرقل ووافقه على ذلك غيره من زعماء المدينة، لان يزيد لم يكن كفئا لهذا المنصب الهام لخلافة المسلمين وأما الحسين بن على فانه من الأرومة الطيبة وأنه قريب النسب بالمصفى صلوات الله عليه وابن فاطمة الزهراء وأنه الوحيد الذى لم يبايع ليزيد فى حياة معاوية ولذا وجد الحسين نفسه فى حل من الخروج على يزيد بعد وفاة معاوية فلم يكد يزيد يلى الخلافة حتى تجددت الفتنة وثارت أهم المدن الاسلامية وخاصة الكوفة ومكة المكرمة .

ففى الكوفة ثار الشيعة وأرسلوا للحسين بن على يطلبونه اليهم ويحرضونه على المطالبة بالخلافة فهو أحق بها من يزيد بن معاوية بل أنهم ألحوا عليه فى ترك الحجاز والقدوم اليهم ومبايعته بالخلافة .

ولما علم يزيد بن معاوية بذلك وكان الحسين بالمدينة لم يبارحها. وكان أهم مايطالب به يزيد أن تتم مبايعة الحسين له. ولذا أرسل إلى والى المدينة يطلب منه أخذ البيعة من الحسين وصحبه .

وكان الوالى ابن عم يزيد وهو الوليد بن عتبة بن أبى سفيان فاستدعى الوليد الحسين وطلب منه البيعة لكن الحسين خرج إلى مكة ليلا ومعه نساؤه وأهل بيته. وفى مكة وصلت رسائل أهل الكوفة يعدونه بالبيعة وتلقى الحسين خطابات أخرى كثيرة من جماعات الكوفة .

**الحسين بن على ومذبحة كربلاء وازدياد الدور الشيعى :**

أرسل جماعات الكوفة إلى الحسين خطابات تقول له فيها إن معك مائة ألف رجل كاملى العدة والسلاح لذا فاستجاب الحسين لهم وأرسل ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبى طالب إلى الكوفة للتحقق من الامر فالتف حوله الناس حين قدم اليهم وبايعوه للحسين واغتر مسلم بلقاء الشيعة الحماسى وبعث إلى الحسين يستعجل قدومه إلى الكوفة وأحست السلطات الاموية بما وقع فى الكوفة وأدرك يزيد بن معاوية أن الكوفة لابد أن تؤخذ بالشدة فبادر بعزل والى الكوفة وتعيين عبد الله بن زياد واليا عليها لقدرته على ضبط الامور على نحو ما سار عليه والده .

واستطاع الوالى الجديد تبديد شمل الشيعة وقتل زعماءهم ومن بينهم مسلم بن عقيل بن أبى طالب بعد أن انفض من حوله اثنى عشر ألف كانت قد بايعت للحسين



منذ أيام وكان مسلم قد قبض عليه وأرسل إلى عبد الله فى قصره وفى القصر قتل مسلم والقى جثمانه إلى الناس .

وفى تلك الاثناء كان الحسين يفكر فى اللحاق بابن عمه مسلم وكان قد غادر الحجاز فى طريقه إلى الكوفة دون أن يدرى بما حدث هناك. ولقد أهمل الحسين النصائح التى قدمت اليه لاسيما من عبد الله بن العباس الذى قال أن أهل العراق قوم غدر فلا تقربهم أقم بهذا البلد فأنت سيد أهل الحجاز واذا أردت الخروج فسر إلى اليمن فإن بها حصوناً وشعابا وهى أرض عريضة طويلة ولأبيك بها شيعة وأنت عن بنى أمية فى عزلة. ورغم ذلك قرر الحسين أن يذهب إلى الكوفة بل إن القرشيين والانصار لم يخرج واحد من المدينة فهم معه ولم يكن من شيعة الكوفة الا أفراد قلائل جدا .

وقد حذره العديد من الذين التقى بهم فى طريقه إلى الكوفة من الذهاب إلى تلك المدينة وعدم منازعة بنى أمية لانه لو طلب ما فى أيديهم لقتلوه وان قتلوه لا يهابون فى العرب أحدا بعده ولكن الحسين أبى أن يسمع ومضى إلى سبيله .

وقد لقى الحسين مصرعه على يد قوات الامويين عند كربلاء بالقرب من الكوفة فى ١٠ محرم ١٦١هـ ١٠ أكتوبر ٦٨٠م وذلك بعد أن سدت عليه قوات الامويين الطريق ودارت معركة غير متكافئة سقط الحسين فيها قتيلا وصارت هذه الحادثة تمثل نقطة تحول مهمة فى ظهور فرقة الشيعة وغذت هذه الحادثة بذور التشيع لآل على بن أبى طالب وتكون فرق الشيعة نفسها التى عملت على تنظيم قوتها المادية والمعنوية لمحاربة نظام الخلافة الوراثى للأمويين والعمل على مناهضة هذا النظام .

وكان لموقعة كربلاء أثر خطير جدا فى تطور الحوادث بعد ذلك فقد أصبح الحسين أبا للشهداء وأصبحت كربلاء رمزا للاستشهاد وهب الشيعة فى كل مكان يطالبون بثأر الحسين ولهذا نرى أن النزاع بين الامويين والعلويين قد اشتد واحتدم بعد

مقتل الحسين .

وظل الشيعة طوال العصر الاموى يطالبون بأحقية أولاد على فى الخلافة .

## المذهب الشيعى بعد كربلاء

لم ينج من هذه الفاجعة الأليمة فى تاريخ الاسلام والتى أطلق عليها المؤرخون مذبحة كربلاء التى أشعلت حمية الثورة وزادت فى حماس الفرس والتى أشاعت الذعر فى البلاد الاسلامية. الا خمسة أفراد من البيت العلوى هم زين العابدين وكان مريضا ولم يحضر المعركة وأخوه الاصغر عمر وعمتهما زينب بنت على بن أبى طالب وفاطمة وسكينة بنتا الحسين وحمل هؤلاء مع رأس الحسين إلى الطاغية ابن زياد فأرسل الجميع إلى يزيد وتروى كتب التاريخ أن يزيد بن معاوية بكى وبكت معه نساء بنى أمية وأكرم يزيد مثوى هؤلاء وجزاهم عما سلب منهم وردهم إلى المدينة .

ومهما يكن من أمر هذه المذبحة البشعة فقد كانت فتنة فتحت الباب واسعا للفرقة التى لازالت سائدة حتى اليوم فى العالم الاسلامى والتى أدت إلى التهام الآلاف من المسلمين فى صراعات مذهبية. وقد أخذ مدعو التشيع هذه الحادثة ليصنعوا حولها ألوانا من الخرافات .

وكان من أثر هذه المذبحة ظهور فرقة التوابون الشيعية فى الكوفة والذين اعترفوا بأنهم دعوا الحسين إلى بلادهم ثم انفضوا عنه ثم قتلوه وأرادوا أن يكفروا عن ذنبهم وأن يزيلوا خطيئتهم وكان سبيلهم إلى ذلك التوبة والثأر للحسين وبذلك سموا التوابين وذلك لادعائهم التوبة .

بل أن الفكرة تطورت فقال شيعة على أن الامامة ليست من المصالح العامة التى تفوض إلى نظر الامة بل هى ركن الدين ولا يجوز لنبى اغفالها ولا تفويضها إلى الامة



بل يجب عليه تعيين الامام لهم وان عليا رضى الله عنه هو الذى عينه صلوات الله وسلامه عليه بنصوص. ومن هنا نشأت فكرة الوصية ولقب على بالوصى وأن النبى أوصى لعلى فكان على ليس اماما بالانتخاب بل بطريق النص من رسول الله وعلى أوصى لمن بعده وهكذا كل امام وصى من قبله وانتشرت كلمة الوصى بين الشيعة واستعملوها .

وأضاف الشيعة قولهم بعصمة الأئمة بدءا من على ومن يأتى بعده لايصدر عنهم خطأ. ويؤكدون ذلك بأن رسول الله ﷺ قال لعلى «حربك حربى وسلمك سلمى» وانه قال اللهم وآل من والاه وعاد من عاداه وقال له لا يحبك الا مؤمن ولاينغصك الا منافق .

بل إن بعض الشيعة قالوا بأفضلية على وعصمته وأحقيته من أبى بكر وعمر وعثمان ومن شايعهم أخطأوا اذا رضوا أن يكونوا خلفاء مع علمهم بفضل على وانه خير منهم وانهم جحدوا وصية رسول الله ومنعوا الخلافة مستحقها وتزعم الشيعة أن رسول الله ﷺ كان يعلم موته وانه سير أبا بكر وعمر فى حملة أسامة بن زيد لتخل المدينة منهما ويصفوا الامر لعلى عليه السلام ويبايعه من تخلف فى المدينة من المسلمين وتثاقل جيش أسامه مع شدة رسول الله ﷺ فى حثه على السير .

وأساس نظرية الشيعة فى الحكم هى الامامة فعلى هو الامام بعد محمد ﷺ ثم بتسلسل الائمة بترتيب من عند الله والاعتراف بالإمام والطاعة له جزء من الايمان والامام الاول قد ورث علوم النبى ﷺ وهو ليس شخصا عاديا بل هو فوق الناس لانه معصوم من الخطأ .

أما النتائج العقائدية لمقتل الحسين بن على فى كربلاء فانها تتمثل فى تبلور حزب الشيعة عن عقيدة تقرر أحقية الخلافة فى الائمة من آل البيت فى على بن أبى

طالب وأولاده من بعده دون غيرهم من سائر قريش والناس جميعا على أن هذا الحزب صادف فى البداية الانقسام المتوالى لمن تكون الامامة من العلويين .

يقول الشيعة فى الخلافة (الامامة) بعد على باختلاف آرائهم فمنهم من جعلها فى ولد فاطمة بالنص عليهم واحدا بعد واحد على ما يذكر وهؤلاء يسمون الامامية نسبة إلى قولهم باشتراط معرفة الامام وتعيينه فى الايمان وهى أصل عندهم ومنهم من جعلها فى ولد فاطمة لكن بالاختيار مع الشيوخ ويشترط أن يكون الامام عندهم عالما زاهدا جوادا شجاعا ويخرج داعيا إلى امامته وهؤلاء الزيدية نسبة إلى صاحب المذهب وهو زيد بن على بن الحسين وابنه يحيى بن زيد وقد قتل زيد فى الكوفة عام ١٢٢هـ وقتل ابنه يحيى فى خراسان عام ١٢٥هـ .

والزيدية ينتسبون إلى زيد بن على بن زين العابدين بن الحسين ابن على بن أبى طالب رضى الله عنهم وكان زيد يضع شروطا للامامة هى أن يكون الامام فاطميا عالما زاهدا شجاعا شيخا وأن يخرج مطالبا للامامة فإن لم يخرج مطالبا للامامة فليس اماما وجاز تعيين غيره وقد أجاز المذهب الزيدى الذى ينتشر حاليا فى اليمن خلافة أبى بكر وعمر مع وجود على لأن عليا لم يخرج مدافعا عن حقه. وقد تتلمذ زيد على واصل بن عطاء فأخذ عنه الكثير من مبادئ المعتزلة .

وبدأ زيد يجمع حوله الانصار ويبث الدعاة واخطأ زيد كما أخطأ أجداده من قبل فاتخذ أهل الكوفة أنصارا له وأعلن الثورة لكن بعد فترة انفض من حوله أهل الكوفة وقتل زيد فى معركة ضد يوسف بن عمر والى هشام بن عبد الملك على العراق عام ١٢٢هـ. وهرب يحيى بن زيد بعد هذه المعركة واتجه إلى خراسان وأعلن الثورة ولكنه قتل وحرق عام ١٢٥هـ فى خلافة الوليد بن زيد .

والزيدية أقرب المذاهب إلى أهل السنة وأقربهم إلى الشيعة الحقيقيين لانهم لم



يطعنوا فى خلافة أبى بكر وعمر وأجازوا أن تكون الامامة فى غير أولاد على من فاطمة، إذ لم يقم هؤلاء بطلبها وانهم اشترطوا فى الامامة شروطا يوافقهم أهل السنة عليها. وكان من نتيجة هذا الموقف أن حقق فريقهم العديد من المكاسب على الساحة الاسلامية لان مذهبهم سلم من الغلو ولا يزال هذا المذهب له أتباع كثيرون حتى الآن فى اليمن .

ولقد كان من أولى ثمرات المذهب الشيعى الزيدى أن فرار يحيى بن زيد إلى اليمن قد حقق أهدافه وأن الثورات الزيدية لم تنتهى بل كان لانتقال ميدان الثورات الشيعية من الكوفة إلى خراسان أثر كبير اذ لم تهدأ خراسان وظلت تكافح الأمويين حتى أسقطتهم بقيام الدولة العباسية .

ونظرة الزيدية إلى الامامة نظرة عدل فليست هناك امامة بالنص ولم ينزل نص يعين الائمة بل كل فاطمى عالم قادر على القتال فى سبيل الحق وزاهد وشجاع يخرج للمطالبة بالامامة يصح أن يكون اماما ولهذا كانت الامامة عملية لا سلبية وهم لا يؤمنون بالخرافات التى ألصقت بالامام فجعلت له جزءا الهيا .

وصار الامام عند الشيعة يختلف عن الخليفة ويتفوق عليه أيضا فأوضح فقهاء الشيعة أن الشريعة التى جاء بها النبى ﷺ لابد من وصولها إلى الناس صحيحة بعد انتهاء عهده حتى يتم محاسبة الناس عليها وهذا يتطلب فى القائم على الشريعة وأئمتهم أن يكونوا معصومين كالانبياء فى كل حياتهم ولا تصدر عنهم معصية والامامة ليست كالخلافة واجبة على الامة ولكنها واجبة على الله .

وكان من أثر ذلك أن الفكر الشيعى ولد أكثره فى العصر الاموى وأن الحركات التى قام بها الشيعة للاستيلاء على الحكم فى العهد الاموى كانت أقوى وكانت الشيعة وأكثرها وتلك التى قامت باسم الشيعة لاقامة دولة علوية ولكن نتيجة الكفاح

نالها العباسيون لا العلويون .

ولما لم يكن بحثنا هذا عن دراسة المذهب الشيعى ونظرته إلى المسائل الدينية والفكر الشيعى والآراء التى يقولها الشيعة والفرق الشيعية حيث إن ذلك يخرجنا عن نطاق بحثنا التاريخى، لكن الامر يقتضى أن نعطى القارئ فكرة عميقة عن التشيع ومذاهبه والفرق التى عاشت حتى اليوم دون الدخول فى تفاصيل الفرق الأخرى التى لعبت أدواراً مختلفة على الساحة الاسلامية فى العصرين الاموى والعباسى ولكنها انقرضت فى الوقت الحاضر .

وسوف نتحدث عن الفرق التى لازالت تعيش حتى وقتنا الحاضر والتى كانت الدولة الفاطمية التى قامت فى المغرب العربى ثم انتقل إلى مصر أثر من آثار نشاط بعض هذه الفرق وهى الفرقة الاسماعيلية .

والفرق الشيعية التى استطاعت أن تعيش حتى زماننا هى الزيدية (اليمن) والاثنا عشرية (ايران) والاسماعيلية (الهند) وقد تطورت معتقدات هذه الفرق بسبب تأثرها بمدعى التشيع فالزيدية أقلها تأثرا والاثنا عشرية هى بعدها فى التأثر أما الاسماعيلية فأكثرها تأثرا والاثنا عشرية والاسماعيلية فرعان لفرقة الامامة. ومع اختلاف فرق الشيعة فى المعتقدات فانهم جميعا يتفقون فى أفضلية على على جميع الخلق ولايوافق الزيدية على هذا المعتقد .

والزيدية والاثنا عشرية والاسماعيلية ينكرون امامة محمد بن الحنفية لأن محمداً ليس من أبناء فاطمة إنما أمه امرأة من بنى حنيفة والزيدية ينكرونه فقط لانه لم يخرج على خلفاء العصر مطالبا بامامته .



**الاثنا عشرية :**

الاثنا عشرية أشهر فرق الامامية وتنتشر فى ايران ولها بعض الشيعة فى العراق والاثنا عشرية أقوى فرق الشيعة وهذه الفرقة تكونت بعد منتصف القرن الثالث الهجرى أى بعد أن أصبح الائمة اثنى عشر. وكان الامامية قد ساقوا الامامة من على إلى ابنه الحسن ثم إلى أخيه الحسين ثم إلى ابنه على زين العابدين ثم إلى ابنه محمد الباقر ثم إلى ابنه جعفر الصادق وثم بعد ذلك افترقوا فرقتين فرقة ساقوها إلى ولده اسماعيل ويعرفونه بهم بالامام وهم الاسماعيلية (سوف نتحدث عنهم عند الحديث عن قيام الدولة الفاطمية بالمغرب) وفرقة ساقوها إلى ابنه موسى الكاظم وهم الاثنى عشرية لوقوفهم عند الثانى عشر من الائمة وقولهم بغيبته إلى آخر الزمان والاثنا عشرية هؤلاء خصوا باسم الامامية عند المتأخرين (القرن الثالث الهجرى) فقالوا بإمامة موسى الكاظم بن جعفر الصادق لوفاة أخيه الأكبر اسماعيل الامام فى حياة ابيهما جعفر فنص على امامة موسى هذا ثم ابنه على الرضا الذى عهد اليه المأمون بالخلافة ومات قبله فلم يترك له الأمر ثم ابنه محمد النفس الذكية ثم ابنه على الهادى ثم ابنه محمد الحسن العسكرى ثم ابنه محمد المهدى المنتظر عام ٢٦٠هـ .

والامامية أطول فرق الشيعة عمرا وأكثرها قوة وأكثرها اتباعا.والامامية تقول بعودة امام منتظر باختلاف طوائفهم فيمن هو الامام المنتظر ففرقة ينتظرون جعفر الصادق وأخرى تنتظر محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن على بن أبى طالب وثالثة تنتظر محمد بن الحنفية وتزعم انه حى لم يمت والشيعة فشلوا أول الامر فى تكوين امامة (خلافة) ظاهرة على وجه الارض وعذبوا وشردوا فخلقوا لهم أملا فى الامام المنتظر أو المهدى المنتظر وجميع الشيعة متفقون على أن خلفاء بنى أمية مغتصبون ظالمون لانهم اضطهدوهم اضطهادا فاحشا فدسوا للحسن حتى طعن بخنجر فى جنبه

ولكنه لم يمت فدسوا السم له بعد أن أوقعوا الفشل فى جيشه حتى وادعهم ثم قتلوا الحسين فى كربلاء. ثم تتبعوا أهل البيت يستذلونهم ويمتهنونهم ويقتلونهم ويقطعون أيديهم وأرجلهم وكل من عرف بالتشيع لهم سجنوه أو نهبوا ماله أو هدموا داره واشتد بهم الامر فى أيام عبد الله بن زياد قاتل الحسن، وأتى بعده الحجاج فقتلهم كل قتلة. وأخافهم وقطع الايدى والارجل وسمل العيون وصلبهم على جذوع النخل وطردهم وشردهم عن الكوفة وكل العراق وكتب معاوية بن أبى سفيان إلى عماله فى كل البلاد ألا يجيزوا لأحد من شيعة على وأهل بيته شهادة حتى أن الرجل يقال له زنديق أو كافر أحب اليه من يقال له شيعة على .

لكن الذى أطال عمر الاثنى عشرية هو ميلها إلى السلم لذا كثر اتصالها بطوائف مدعى التشيع وكانوا أكثر تأثرا من الزيدية وأقل من الاسماعيلية ذلك لان موضوع الامامة والعصمة والتقية والرجعة والمهدية كلها موضوعات غريبة عن الفكر الاسلامى قال بها الاثنى عشرية .

ورغم ما لاقاه الشيعة من عسف الأمويين فقد ظلوا يتحينون الفرص للثورة فلما اضطربت شئون الخلافة فى الشام فى عهد ابراهيم بن الوليد وضعفت بالتالى سلطة عبد الله بن عمر بن عبد العزيز والى الكوفة استغل الشيعة فى تلك المدينة الفرصة وأغروا عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر ابن على بن أبى طالب بالدعوة لنفسه وبايعه الناس ثم خرجوا معه لقتال جند الشام فى المحرم ١٢٧ هـ، غير انهم فروا أثناء القتال ولم يثبت للحرب سوى ربيعة والزيدية الذين ظلوا يقاتلون حتى أخذوا لانفسهم ولعبد الله بن معاوية الامان على أن يرحلوا حيث شاءوا فنزل المدائن ولحق به كثير من أهل الكوفة فغلب على نواحى أصبهان ثم ارتحلوا منها عام ٢٢٨هـ إلى اصطخر فى فارس. واستطاع أن يبسط سلطاته على منطقة كبيرة ضمت بلاد الجبل والاهواز وفارس



وكرمان. غير أن والى العراق سير اليه القوات فحلت به الهزيمة ومضى ابن معاوية إلى خراسان طمعا فى انحياز أبى مسلم الخراسانى اليه لكن أبا مسلم أعرض عنه ثم قتل وهكذا فشلت آخر ثورة قام بها الشيعة عام ١٣٠هـ فى عهد الامويين .

وهكذا أوقع بنو أمية نكالا شديدا فى العلويين من بنى هاشم فأعطوا صورة مؤلمة للصراع القبلى وكلاهما فخد فى بطن واحد (عبد مناف) وكانت الامامة أو الخلافة محور الخلاف والعداء بينهما .

وقد اصطبغ التشيع بصبغة عقائدية وإن تفرقت الشيعة فرقا مختلف أسسها العرب وغذاها الموالى وجميعها تعادى الامويين وتعتبرهم مغتصبين للخلافة ويزيدهم حنقا وألما شتم على بن أبى طالب ولعنه على المنابر طوال العصر الأموى ما عدا عهد عمر بن عبد العزيز، ولم يكن شعار الرضا من آل محمد الا مناورة ذكية فى الدعوى العباسية تختص بها ذلك الشعور المعادى لدى الموالى وبخاصة للقضاء على السيادة العربية .

## الشيعة والخلافة العباسية

كان من أثر الاضطهادات التى تعرض لها الشيعة من البيت الاموى بعد أن كانوا يحاربون جهرا اذا أمكن فإن لم يكن فسرا وقال أكثرهم بالتقية وهى المداراة (السر) كان يحافظ الشخص على نفسه أو عرضه أو ماله بالتظاهر بعقيدة أو عمل لايعتقد بصحته وكذلك أحكام السرية ونظامها وكان الشيعة أقدر الفرق الاسلامية على العمل فى الخفاء وكتمان عملهم حتى يتمكنوا من عدوهم وهذه السرية استدعت الخداع والالتجاء إلى الرموز والتأويل ونحو ذلك وكان من أثر ذلك الاضطهاد تذكرهم للمصائب والآلام. وأكثر الشيعة يقولون بالتقية وحملوا بيعة على لابى بكر وعمر وعثمان على التقية وكانوا كثيرا من الشيعة يكتمون تشيعهم تقية ويعملون سرا .

واستغل العباسيون فرصة آلت اليهم ذلك لأنه بعد موت محمد ابن الحنفية عام ٨١هـ انتقل الامر بعده إلى ابنه هشام الذى عندما أحس بالموت وهو فى طريقه من دمشق إلى المدينة عرج على الحمية على بنى عمه من آل العباس حيث اقطاعهم من بنى أمية يستريح من وعكة ألمت به فيشتد علته ويحس بقرب منيته فيذيع فى أتباعه أنه أقام آل العباس أوصياء على دعوته. حيث كان قد أقام لدى على بن عبد الله بن العباس فأعلمه انه ميت وأوصى اليه وكان فى صحبته جماعة من الشيعة فسلمهم اليه وأوصاه فيهم ثم مات وبهذا يعتقد العباسيون انهم ورثوا على بن أبى طالب بالاضافة إلى حقهم بوصفهم ورثة العباس بن عبد المطلب عم النبى ﷺ .

واستغل العباسيون ضعف الشيعة العلوية وانقسامهم ومكروا بهم فجعلوا الدعوة عامة شاملة للرضا من آل محمد يريدون بذلك أن يضمنوا ولاء الشيعة العلوية من ناحية وأن يخفوا اسم صاحب دعوتهم حتى لايتبعهم الأمويون باضطهادهم وعذابهم .

وينتقل ولاء فرع هشام بن محمد الحنفية من الشيعة إلى آل العباس الذين عملوا بحكمة ودهاء على جمع العلويين والهاشميين والساخطين على الدولة الاموية من غير العلويين والهاشميين فى حركة واحدة يستردون بها السيطرة من الأمويين وكانت دعوة «للرضا من آل محمد» هى هدف جمع أنصارهم على اختلاف نزعاتهم وأجاد العباسيون وضع شعار واحد يمكن أن يعمل من ورائه جميع أصحاب المصالح المعادية للامويين ويحول فى نفس الوقت دون وقوع أية ثغرة فى صفوف القوى العاملة تحت لوائهم أو افساد خطتهم اذ كلفوا دعاتهم فى المرحلة الاولى من دعوتهم السرية رفع شعار العمل على اعادة الدين الحق، بعد أن انتقلت قيادة العمل السرى من محمد بن الحنفية العلوى إلى محمد بن عبد الله العباسى .

ولم يكن الدعاة يعرفون شخصية الامام الذى كانوا يدعون له وانما كانوا يدعون



للرضا من آل محمد وهى دعوة غامضة يظنها العلويون وأنصارهم انها من أجلهم ويعتقد الخراسانيون انها تعنى صاحب الحق الالهى .

ولقد كان ما أصاب العلويين أيام الامويين من الدوافع التى برر بها العباسيون خروجهم على الامويين .

لكن العلويين لم يكونوا مطمئنين إلى الدعوة «للرضا من آل محمد» كما كان كثيرا من أنصار الدعوة السرية يوافقون العلويين، بل إن «أبا مسلمة الخلال» وزير آل محمد كتب إلى ثلاثة من زعماء البيت العلوى هم جعفر الصادق، وعبد الله المحض وعمر بن زين العابدين. يدعوهم فيها واحداً بعد الآخر إلى قبول منصب الخلافة العلوية، ولكنه لم ينجح فى ذلك ولقد خدع العباسيون أنصار العلويين فى خراسان والعراق بهذا الشعار الغامض وأعلنت الخلافة العباسية ومن ثم ظهرت الدعوة العباسية وتم الخروج على الأمويين ودالت الدولة للهاشميين فأخذها منهم أبناء العباس وكانوا فى أول الأمر يدا واحدة مع أبناء عمهم العلوية وأن الدعوة العباسية هى التشيع بل هما شعبتان من أصل واحد. ولما وقع الانقسام بين العلويين والعباسيين وخرج محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب وهو الملقب بالنفس الذكية وبالمهدى على أبى جعفر المنصور أخى السفاح تبعه أهل المدينة وقاتلوا من دونه حتى قتل، ثم خرج أخوه ابراهيم فى البصرة طالبا البيعة له قبل أن يبلغه خبر قتل أخيه وأجاب دعوته خلق كثير وانهزم من أمامه سفيان بن معاوية أمير البصرة واستولى على الاهواز وواسط وسار إلى الكوفة وكاد يتم له الفوز لولا أنه قتل عام ١٤٥هـ .

ثم خرج الحسين بن على بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب وذلك فى خلافة الهادى بن المهدى العباس وكان ظهوره فى المدينة والتف عليه جماعة من آل البيت ومن أهل المدينة وبايعوه وخرج إلى مكة فالتقى بجماعة من بنى العباس

ومعهم من حج من رجالهم وقوادهم واقتتلوا ووقعت الهزيمة على الحسين وقتل وانهزم أصحابه وأفلت منهم ادريس بن عبد الله ابن الحسن بن على بن أبى طالب وأتى مصر واضح فأرسله واضح عامل البريد وكان شيعيا على البريد المغربى وبلغ ذلك الهادى فضرب عنق واضح وأسس دولة الادارسة بالمغرب (راجع الجزء الثانى من تلك الدراسة دولة الادارسة) .

وفى عام ٢٥٠هـ ظهر يحيى بن عمر بن يحيى بن حسين بن زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب بالكوفة واستولى عليها لكن جيوش العباسيين ظفرت به وقتل وحمل رأسه إلى الخليفة المستعين وفى نفس العام ٢٥٠هـ ظهر فى طبرستان الحسن بن زيد بن محمد بن اسماعيل بن زيد بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب الذى قام بطبرستان وكثر أنصاره واستولى على طبرستان وجرجان وسمى الداعى إلى الحق وظلت له السيطرة حتى قتل عام ٢٨٧هـ وقام بعده الناصر الحسن بن على المعروف بالاطروش وتوفى عام ٣٠٤هـ وقام بعده الحسين بن القاسم العلوى ويلقب بالداعى وقتل عام ٣١٦هـ وانقرض بموته ملك العلويين فى أواسط آسيا .

وامتنع محمد بن عبد الله النفس الذكية من بنى الحسن بن على بن أبى طالب عن بيعة العباس السفاح وأبى جعفر المنصور بعد أن كان قد اتخذ له ملجأ اختفى فيه عنهما لكن المنصور وجه اليه جيشا بقيادة ابن عمه (عيسى بن موسى) التقى بجيوش محمد النفس الذكية قريبا من المدينة وسقط الشريف العلوى فى ميدان المعركة بعد أن تركه أنصاره وكان مصرعه شبيهاً بمصرع الامام الحسين فى كربلاء .

لكن ابراهيم بن عبد الله بن الحسن بن على بن أبى طالب خرج بالبصرة نصيرا لأخيه محمد النفس الذكية وتقوية لحركته فى الحجاز لكن قتل بيد نفس القائد التى قتل أخاه .



وفى الحجاز موطن العلويون.. قامت ثورة أخرى عام ١٦٩هـ تشبه ثورة محمد بن عبد الله النفس الذكية وأخيه ابراهيم وان كانت أقل منها خطرا على العباسيين الذين تدعم سلطانهم بعد أن ركن العلويين إلى الهدوء لكن حدثت فتنة بالمدينة أدت إلى خروج الحسين بن على على الخليفة الهادى وإلى بيعة جمع من أهل المدينة له بالخلافة وقد انضم إلى هذه المعركة بعض الكوفيين الذين كانوا بالمدينة ثم خرج الجميع فى اتجاه مكة فقطع عليهم جيش العباسيين الطريق ودارت معركة بين الطرفين عند وادى فخ الذى يبعد عن مكة بحوالى ستة أميال انهزم فيها العلويون وكثر فيها ضحاياهم وبينهم الحسين بن على هذا غير الحسين بن على بن أبى طالب فى معركة كربلاء وقد بلغ من شدة النكيل بالعلويين أن قرنها المؤرخون بمذبحة كربلاء فقال بعضهم لم تكن مصيبة بعد كربلاء أشد وأفجع من فخ. ولقد نجا من مذبحة فخ اخوان علويان هما يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على فذهب إلى بلاد الديلم وجمع حوله الانصار ثم أعلن الثورة أيام «هارون الرشيد» الذى أرسل اليه جيشا بقيادة الفضل ابن يحيى البرمكى فى خمسين ألف انتهت الثورة وأعطى الامان ليحيى .

أما ادريس فقد فر إلى المغرب (انظر الموسوعة هذه: الجزء الثانى. دولة الادارسة) وقد أولى العباسيون الاوائل أبناء عمومتهم من العلويين الحرب والتنكيل كما كان هؤلاء ساخطين على أبناء عمومتهم ما وجدوا إلى ذلك سبيلا .

وقد اتبع بعض العباسيين سياسة المسالمة مع العلويين بعد أن قل نشاطهم وخطرهم. وكان المهدى شديد التسامح معهم فأطلق سراح المسجونين منهم. والمأمون أحسن علاقته بالعلويين وعوضهم عما أصابهم من ضرر فى العهود العباسية السابقة وقد بايع المأمون على الرضا بولاية العهد وزوجه ابنته، بل إنه ضرب الدراهم باسم على الرضا وأمر بذكر اسمه على المنابر ولبس الخضرة (الرداء الأخضر) شعار العلويين وخلع

السواد شعار العباسيين .

بل أكثر من ذلك فإن المأمون أوصى أخاه المعتصم بهم فقال له «هؤلاء بنو عمك أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه، فأحسن صحبتهم وتجاوز عن مسيئهم وأقبل من محسنهم وصلاتهم فلا تعقلهما فى كل سنة عند محلها فان حقوقهم تجب فى وجوه شتى» .

ورغم هذه الاعمال الطيبة الا أن طابع العصر العباسى كان استخدام العنف أضعاف ما كان يعنف بهم الأمويين فاضطهدوهم وطاردوهم وقاتلوهم فى كل مكان خرجوا فيه وفعلوا بهم أكثر مما فعل عبد الله بن زياد، زياد ابن أبيه، والحجاج بن يوسف الثقفى ولهذا تحولت الدعوة الشيعية عن العلن إلى السر تقية وصيانة لاشخاص الائمة أصحاب الدعوة .



# الباب الثانى

## الفرقة الاسماعيلية والدعوة فى المغرب

سبق القول أن الشيعية تفرقت إلى عدة فرق منها فرقة تنسب إلى جعفر الصادق ثم انقسمت إلى فرقتين إحداهما إلى ابنه اسماعيل ويعرفون بالاسماعيلية ويقول إلى أن الامامة انتقلت من اسماعيل إلى ابنه محمد المكتوم وهو أول الأئمة المستورين المتخفيين لان الامام عنده قد لا تكون له شوكة فيستتر ويكون دعائه ظاهرين على اقامة حجة على الخلق واذا كانت له شوكة ظهروا وأظهروا دعوته وانهم قالوا بعد محمد المكتوم جاء ابنه الصغير الصادق وبعده جاء ابنه محمد الحبيب وهو آخر المستورين .

وقد اقتضت الدعوة للامام المختفى أو المستور كما سماه الشيعة وضع مبدأ «التقية» التى صارت جزءا مكملا لتعاليم الشيعة وركنا هاما من مذهبهم وصارت هذه العقيدة هى النظام السرى عند الشيعة اذا ما أرادوا الاعداد لثورة على السلطات القائمة فكان دعاة الشيعة يكلفون عند الدعوة إلى الامام المستور بأن يطلبوا إلى أنصارهم الكتمان والتظاهر بالطاعة والولاء حتى اذا تمت الخطط المرسومة أعلنوا جهر الثورة ثم الطاعة للامام المستور .

وكان العمل السرى أشد حيطة أيام العباسيين الذين كانوا أبلغ فى التنكيل بالعلويين لانهم أعرف بخفاياهم لما كانوا يعملون معهم فى عهد بنى أمية .

والاسماعيلية سميت بهذا الاسم لانهم يقفون بأئمتهم عند اسماعيل ابن جعفر الصادق وهؤلاء لعبوا دورا طويلا فى تاريخ الاسلام وأخذوا مذهب الافلاطونية وطبقوه على مذهبهم الشيعى تطبيقا غريبا واستخدموا ما نقله اخوان الصفا فى رسائلهم من هذا

المذهب الافلاطونى ويقول بعض المؤرخين انهم وضعوا لهم تعاليم درجوها تسع درجات تبتدى بإثارة الشكوك فى الاسلام وقد سموا الباطنية وكان من آثار دعايتهم اقامة الدولة الفاطمية فى المغرب (والتى نحن بصدد دراستها فى هذا الجزء من موسوعة المغرب) ومصر ولا يزال لهم بقايا فى الشام وايران والهند» ورئيسهم الان «حفيد أغاخان» الزعيم الدينى المشهور وهو شاب أمريكى وهو سر أبيه وجده وهم يتعارضون مع الاثنى عشرية فى أن الامامة انتقلت إلى ابنه اسماعيل لا إلى ابنه موسى الكاظم ويسمون بالائمة المستورين بعد اسماعيل والاسماعيلية أكثر من الزيدية والاثنى عشرية تأثرا بضلالات مدعى التشيع وكان مذهبهم مشوبا بكثير من الضلالات وأشهر ألقابهم الباطنية وقد لزمهم هذا اللقب لقولهم بأن لكل ظاهر باطناً ويسمون بالعراق الباطنية والقرامطة والمزدكية وفى خراسان يسمون التعلية والمتحدة ويقولون نحن اسماعيلية وقد انفصلوا عن الاثنى عشرية بعد جعفر الصادق .

وقد خلطوا كلامهم ببعض كلام الفلاسفة وصنفوا كتبهم على هذا المنهاج وكانت لهم تعاليم ذات درجات متفاوتة تبدأ بالتشكيك وتنتهى بالكفر والتقرب إلى الله بقتل المسلمين ومن الواضح أن فرقة تسير على هذا المنهاج ليست من الاسلام فى شئ ولا تنبع مبادئها من روح الاسلام وليس لها من التشيع الا الاسم الذى ادعاه ليتستروا به هذه الضلالات .

وكان الاسماعيلية أنشط من غيرهم فقد بثوا الدعاة فى أنحاء الدولة الاسلامية المختلفة وفى الانحاء القاصية بوجه خاص مثل اليمن وبلاد المغرب .

ولقد لقيت حكاية استتار الامام اقبالا من نفر غفير من أبناء الامة لان الانسان اذا يئس من الواقع لجأ إلى الأمل وكان العلويون أملا ضخما تعلقت به قلوب الملايين نتيجة لعجز الدولة العباسية عن اقامة الحكم الصالح الذى بشر به الاسلام وفى خدمة



الامام المستتر قام الدعاة يبثون الدعوة فى الناس منتهزين فرصة اليأس الشامل الذى أثقل على القلوب والدعاة وهم جماعة من أهل الايمان بامامة على بن أبى طالب وأبنائه. وكانت هذه الفرقة تعمل جاهدة بشتى الوسائل لتحقيق أهدافها وأن تنظم حركتها السرية من أجل تحقيق أهدافها فى السيادة على العالم الاسلامى وقد استغل دعاة الشيعة رغبة المسلمين فى تحقيق العدالة والامن وتنفيذ تعاليم الاسلام الصحيح ووجدوا فى ذلك فرصة لبث دعوتهم واجتذاب الانصار والدعاة ودخلت فيهم جماعات من الفرس وغيرهم وقد تحرك الدعاة فى دعوتهم بين المسلمين من منطلق ايمانهم المطلق بأنهم يدعون إلى زعيم الشيعة المستور أو المختفى وان الامام مختفى فى مكان لايعرفه الا رئيسهم أو كبير الدعاة وسموه الوصى أو وصى الامام وهو مدير الدعوة ومنظمها وتحت يده داعى الدعاة ثم الدعاة وهم مراتب وأخذت الدعوة أسلوباً سرياً لتحقيق هدفها الاكبر وهو نقل الخلافة من بنى العباس الذين سلبوها من آل على أصحاب الحق الشرعى فى الخلافة دون سائر القرشيين .

وقالوا إن الامام كان أول الامر مستتراً فى فارس ثم انتقل سرا واتخذ مقرا جديدا له فى مدينة سلمية قرب حماة ببلاد الشام لنشر دعوتهم وهى عندهم مركز الدعوة والامام فيها حصين آمن له حرس وعيون وأرصاد فى قصر الخليفة العباسى وبيوت رجال الدولة وكل هؤلاء من شيعة آل البيت العلوى وهم يجمعون باسمه مالا كثيرا من الناس لان كل من يؤمن بالمذهب الشيعى الاسماعيلى ويعمل الدعوة له لاقامة دولة علوية على أنقاض الدولة العباسية فانه أصبح ملزما عليه بأن يؤدى الزكاة للامام مهما قل مبلغها فقد يتحصل منه فى أيدى الدعاة من صغيرهم إلى الوصى مال كبير ليصل فى نهاية الامر بعضا منه إلى الامام المستتر فى مدينة سلمة فيستعين به على تأمين نفسه من غدر الدولة العباسية ورجالها قيل إن الامام عبد الله المهدى الذى سيكون أول

الخلفاء الفاطميين فى المغرب كان يمتلك أموالا طائلة جعلها فى قصره فى سراديب تحت الارض .

ولقد كانت قلوب الناس ومحبتهم لآل البيت العلوى وعاطفتهم القوية لتأييد أقارب الرسول ﷺ وحبهم والولاء لهم من الاسباب القوية التى دفعت الناس للانجذاب للدعاة السريين الذين يدعون للامام المستتر لما تعرض له أبناء العلويين من اضطهاد على أيدى العباسيين لا سيما ما تذكره كتب التاريخ عن عامل الخليفة الهادى العباسى على المدينة (عمر بن عبد العزيز بن عبد الله ليس الخليفة الأموى) انه اتهم بعض العلويين ظلما بشرب الخمر ومنهم الحسن بن محمد النفس الذكية وأخذهم وأقام عليهم الحد ثم زاد فى تعذيبهم بأن جعل الحبال فى أعناقهم وطاف رجاله بهم فى المدينة فذهب اليه الحسين بن على بن الحسن محتجا على معاملة أهل رسول الله ﷺ بهذه الصورة البشعة فحبسهم يوما وليلة ثم أطلقهم على أن يظلوا تحت المراقبة وهكذا كانت الدولة العباسية تكيد لآل البيت العلوى وتحاول تشويه صورتهم أمام المسلمين لكى تبعد الانظار عنهم وتنظر اليهم نظرة لا تدعو للتقارب معهم ولكن للتنافر منهم ولكن الدعاة استطاعوا أن يذكروا الناس بما تحمله آل البيت من ظلم واضطهاد منذ مقتل الامام على بن أبى طالب حتى الوقت الحاضر الذى يدعون فيه لاقامة دولة علوية .

ولهذا كان الناس يتسترون على الدعاة من الشيعة وأنصارهم ومن لم يردعه تقواه عن افشاء سر العلويين فان الدعاة كانوا يلجأون إلى المال كأسلوب لابعاد العيون عنهم. وكلما زاد أمر الدولة العباسية سوءاً فى معاملة المسلمين ازداد دور الدعاة لآل البيت قوة وتماسكا حتى أصبح العالم الاسلامى من شرقه إلى مغربه خلال النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى شبكة سرية واسعة يتحرك فى أرجائها البعيدة دعاة



التشيع .

ولقد كان أحد الدعاة وهو عبد الله القداح الذى كان من كبار دعاة الشيعة قد سار من نواحى أصفهان إلى الاهواز والبصرة ثم إلى سلمية من أرض حمص مركز الدعوة الشيعية داعيا فكان قصده بلاد العرب وانه لو وجد استجابة فى هذه البلاد لما رحل إلى سلمية .

ففى بداية القرن الرابع/ العاشر الميلادى كانت بلاد الدولة العباسية تموج بالدعاة وكان أولئك الرجال يجتهدون فى اشاعة الخوف والقلق فى نفوس الناس حتى تتعلق الآمال بيوم الخلاص فى قيام دولة جديدة ويؤمنون بما يقول الدعاة وبما يدعون اليه وكان للشيعة تنظيم سرى واسع النطاق دون أن تملك قوة عسكرية تستطيع أن تحول التنظيم إلى كيان سياسى مناوئ للخلافة العباسية التى كانت رغم تدهور أحوالها الاقتصادية الاانها تملك جيشا تستطيع به القضاء على أية قوة مناوئة تظهر فى أى جزء من أرجاء الدولة الاسلامية سواء فى مصر أو الشام أو خراسان .

وكان رجال الدعوة الشيعية من الكياسة والفطانة وبعد النظر فى البحث عن بلد بعيد لم يكن فى متناول القوات العباسية أن تصل اليه الا بعد جهد جهيد وعن البلاد ذات المسالك والمداخل التى تستطيع أن تحتضن الدعوة فى شعابها .

وكان أحمد بن عبد الله القداح قد صحب معه من أهل الكوفة رستم بن حوشب الذى اختار لبث دعوته بلاد اليمن والتى كانت أبصارهم ترنو اليها منذ زمن بعيد وكانت بلاد اليمن تتوفر فيها كل الشروط الواجبة وصعوبة المسائل مع البعد الشاسع عن قلب الدولة وكانت بلاد اليمن حافلة بالرجال .

## اليمن مركز الدعوة الشيعية

كان رجال الشيعة قد استقر رأيهم على اختيار اليمن لكى تكون مركزا بعيدا عن أنظار الدولة العباسية حيث وجدوا فيه ضالتهم المنشودة من حيث الامن والبعد والرجال وصعوبة الوصول اليها وانه من الممكن أن يرتكز عليها التنظيم فى البحث عن الرجال الذين من الممكن أن تتألف منهم القوة العسكرية التى ستكون عدة المستقبل فى محاربة الدولة العباسية .

وفى أوائل القرن الرابع الهجرى صارت الوصاية إلى رجل ذكى يسمى رستم بن حوشب استعان بأموال رجل فارسى كاره للعرب يسمى «دندان» فاستقر رستم بن حوشب فى اليمن واتخذ بلدة «لاعة» سميت فيما بعد عدن لتكون مركزا لأعماله .

لكن ابن حوشب لم يجد بغيته من حيث وفرة الرجال فى اليمن وهداه تفكيره إلى أن القوة التى سوف تمكن له اقامة دولة شيعية علوية ليس الا فى بلاد المغرب العربى وذلك فى المناطق التى تقع غرب نهر شلف ولا تخضع لنفوذ الدولة العباسية وكانت شعوب البربر بقيادة عربية قد تمكنت من اقامة دول لها بعيدة عن سيطرة الخلافة العباسية (الادارسة وبنى رستم) انظر كتابنا هذا (الجزء الثانى) واختار ابن حوشب داعيين ذكيين يسميان سفيان والحلوانى وبعث بهما إلى طرابلس وتونس لنشر المذهب الشيعى ولم يكن يعرف شيئاً على وجه التحقيق عما حدث لهذين الرسولين سوى انهما وجدا ترحيبا لاسيما من قبيلة كتامة التى كانت تعيش حول قسنطينة الحالية حتى سنتيق واستقرا فى المنطقة التى كان يسكنها حلف القبائل البرنسية المسمى بكتامة وهو حلف قوى يسكن المناطق الجبلية الوعرة المتاخمة لبلاد الدولة العباسية من ناحية الغرب فلا يفصل منازل هؤلاء البربر عن بلاد الاغالبة حكام تونس من قبل الخلافة العباسية سوى مجرى نهر شلف .



وكان على هذين الرجلين التحرك السريع فى هذه الارض البكر التى تبحث قبائلها عن قيادة والتى يتعلق أهلها بحب بيت الرسول والعلويين. وكان من أثر عملها أن وجدا النفوس معدة لقبول الدخول فى الحركة الشيعية العلوية واقامة دولة لرجل من أهل بيت الرسول ﷺ يرتضيه الناس. وقد ساعد الحلوانى وسفيان على سرعة انتشار دعوتهما ان هذه القبائل من الكتاميين كانت قبائل كثيرة العدد وهم من البربر البرانس الذين يسكنون ما يعرف اليوم بمنطقة القبائل غربى مدينة الجزائر ويمتدون جنوبا فى جبال الاوراس وكانوا قوى تتملكهم العصبية والقوة وتطلع إلى السلطة والسلطان والايمان ببناء دولة قوية وهم يمتازون بالقوة والبأس وهم كما قال عنهم ابن خلدون (من أوفر قبائل البربر وهم أكثر أهل المغرب لهذا العهد) وما بعده لا يكاد قطر من أقطاره يخلو من بطن من بطونهم فى جبل أو بسيط، حتى لقد زعم كثير من الناس انهم الثلثان من البربر وكان لهم فى الحروب ذكر وفى الخروج على الامر شأن. ولقد حفزهم على الالتفاف حول الحلوانى وسفيان ما قد مكن جيرانهم من انشائه فى المغرب الاوسط حيث قيام دولة بنى رستم الخارجية الاباضية وما استطاع أهل المغرب الاقصى من انشاء دولة الادارسة العلوية الهاشمية السنية .

وكان كل ما قاما به سفيان والحلوانى هو ايجاد الارضية الملائمة والمناسبة لبذر بذور الدعوة الشيعية حيث هيأ الجو المناسب لنمو هذه البذرة ولم يكن الامر يحتاج أكثر من أن يأتى صاحب البذر لكى ينشر البذور فى الارض الممهدة وأن يرعاها حتى تنمو النمو الذى تتطلبه الدعوة وأن يكون القادم رجلا قادرا على تكوين القوة العسكرية التى تمكنه من اقامة دولة واسعة الارجاء ولم تكن دولة اقليمية كما هو الشأن فى الادارسة وبنى رستم انما الامر يتطلب القضاء على الخلافة العباسية لكى تكون الخلافة العلوية هى الخلافة الام فى العالم الاسلامى .

## رجل الدعوة أبو عبد الله الشيعى:

كان من بين الذين اتصل بهم ابن حوشب فى اليمن أبو عبد الله الشيعى حسن بن أحمد بن محمد بن زكريا الشيعى من أهل صنعاء وكان قد وقع اختيار ابن حوشب على هذا الرجل حيث وجد فيه الصفات التى يبحث عنها فهو علاوة على علمه الغزير وتفهمه الكامل للمذاهب الشيعى فهو خبير بمعاملة الناس ومن هنا لم يلبث أن أصبح من أحسن أصحاب ورجال ابن حوشب وقد كان بالفعل هو رجل الساعة والموقف وهو الذى تعقد عليه الحركة الشيعية الآمال وكان هذا الرجل قد جاء وقدم إلى المغرب بعد الحلوانى وسفيان وهو أهم رجل فى الدعوة الشيعية ذلك لان هذا الرجل هو المؤسس الحقيقى للدولة الفاطمية الاسماعيلية فى المغرب كما كان أبو مسلم الخراسانى المؤسس الحقيقى للدولة العباسية فى المشرق وكان أبو عبد الله الشيعى يمنى الاصل من مدينة صنعاء وقد ولى الحسبة يوما ما فى بغداد فى ظل الخلافة العباسية ثم ترك العراق ومنصبه وسار إلى اليمن داعية من دعاة الحركة الشيعية السرية حيث اتصل هناك بابن حوشب وأصبح من كبار أخصائه وأصدقائه فلما علم ابن حوشب بموت الحلوانى وأبى سفيان الداعيتين بالمغرب وكانت الانظار تتجه اليه حيث قال له ابن حوشب (ان أرض كتامة فى بلاد المغرب قد حرثها الحلوانى وسفيان وقد ماتا وليس لك غيرها فبادر فإنها موطأة ممهدة لك) .

وكان أبو عبد الله الشيعى رجلا موهوبا فى أكثر من مجال فكان ذكيا بعيد النظر حسن الفهم للرجال واسع الحلية ضليعا فى الفقه الشيعى وغيره من المذاهب الفقهية الاخرى وعندما عهد اليه مهمة الرحيل إلى المغرب ترك له أمر التصرف فى تنفيذها .



## كيفية الوصول إلى المغرب :

يذكر القاضى الشيعى أبو حنيفة النعمان محمد داعى الدعاة فى كتابه الممتع المسمى (ابتداء الدعوة) رواية تقليدية تقص علينا عن لقائه لرجال من قبيلة كتامة البربرية وكان أبو عبد الله قد خرج من اليمن إلى مكة المكرمة قاصدا الذهاب إلى المغرب حيث انتظر إلى موسم الحج وكان اتجاهه إلى الحجاز من أجل صحبة القوافل المغربية القادمة لاداء فريضه الحج وهناك فى مكة المكرمة أخذ يبحث فى دروبها ومنازلها ويتحرى ويستقصى عن حجاج من قبائل البربر المغربية وساعده الحظ اذ التقى بوفد من حجاج كتامة فجلس بجوارهم وآذانه صاغية إلى ما يجرى منهم من حديث – ويشكك بعض المؤرخين المحدثين فى هذه الواقعة التاريخية اذ يحاول أن ينفى هذه الرواية بقوله إن هؤلاء القوم اذا كانوا يتجاذبون أطراف الحديث فيما بينهم فلا يكون ذلك الا بلغتهم ولهجتهم البربرية والمفروض أن أبا عبد الله الشيعى لم يكن يعرف اللغة البربرية .

لكن هذا الشك مردود عليه ليس دفاعا عن الشيعة، ولكن عن الحقائق التاريخية اذ من المعروف أن زيارة أبا عبد الله الشيعى لمكة المكرمة كانت فيما بين عامى ٢٨٨هـ – ٢٨٩هـ وتلك فترة طويلة كان الاسلام قد امتدت جذوره فى بلاد المغرب وانتشرت اللغة العربية والدين الاسلامى على نطاق واسع فى المغرب وان الحجاج القادمين لاداء فريضة الحج فى تلك السنوات لم يكونوا من عامة الشعب الذين لم يتعمق المفهوم الاسلامى واللغة العربية بينهم ولكن لا شك انهم من العلماء أو طلاب العلم أو علية القوم الذين كانوا يتفاخرون بتعلمهم اللغة العربية وأن الذى يفكر فى أداء فريضة الحج وتحمل المصاعب والمشاق لابد أن يكون عميق الفهم للغة العربية فى ذلك الوقت من الدعوة الاسلامية حيث انه لم يكن قد مضى على استقرار الاسلام النهائى أكثر من مائة عام ولابد أن يكونوا من المتعمقين فى دراسة اللغة العربية والدين

الاسلامى ومن هنا كان حديثهم باللغة العربية أو البربرية أحيانا .

ثم اذا كان حديثهم باللغة العربية فنحن نعلم ان أبا عبد الله الشيعى قد ولى الحسبة فى بغداد فترة من الزمن ولا شك أنه كان يلم باللغة البربرية نظرا لتوليه الحسبة ومن هنا يكون قد فهم حديثهم. ومن هنا تقرب اليهم وتجاذب معهم أطراف الحديث وتظاهر بالزهد والورع والتقشف حتى أعجبوا به ووثقوا فيه بل لم يزل مجاورا لهؤلاء القوم حتى فهم ما يجرى بينهم من حديث وكانوا قد تأثروا به وبنسكه وتقواه ومن خلال محادثته معهم عرف بلادهم وأهلها وقبائلهم وطبائعهم وعاداتهم ثم بعد أن وثق هو بهم تمام الثقة أخذ يحدثهم عن آل البيت النبوى والاسرة العلوية ويذكرهم بمعركة كربلاء ومذبحة فخ وما تعرض له آل البيت من تعذيب واضطهاد وقتل خلال فترة حكم الدولة الاموية وفى العصر العباسى وحدثهم فى أمور القضاء والشريعة والدين حديثا عرفوا منه انه عالم ضليع فى هذه الأمور وتكرر اللقاء معهم يوميا أثناء فترة اقامتهم فى مكة فصار يلقى عليهم دروسه وكان يظهر عفافا وقناعة وزهدا وورعا وتعاونا دينيا وتفانى فى خدمتهم وتسهيل أمورهم وتحركاتهم حتى ازداد القوم فيه محبة وعندما حان موعد رحيل القوم وعودتهم إلى بلادهم المغرب قال لهم إن وجهته مصر يريد الذهاب اليها لكى يجد عملا فى وظيفة معلم أو محفظ للقرآن الكريم أو مدرسا فى احدى مدارسها المنتشرة فى البلاد حيث المدارس الكثيرة فى الفسطاط وأحس القوم من مرافقته لهم طوال الرحلة من مكة إلى مصر أنهم سوف يستفيدون من علمه وصحبته فكان قرارهم أن يصحبهم فى قافلتهم إلى بلاد المغرب حيث قبيلتهم كتامة .

وفى العودة وطوال السفر كان يجرى حديثا بينه وبين القوم الذين كانوا من خيرة شيوخ كتامة فاستطاع بما يملك من حنكة ودراية أن يعرف الكثير عن أمورهم وبلادهم وهم لا يعرفون عنه الا انه معلم مؤدب فى رحلة إلى مصر يلتمس لقمة



العيش. وكان يلقى اليهم السؤال ثم السؤال فى فطنة وذكاء وحنكة وهم يعطونه كل ما يسأل عنه دون أن يفهموا وراء قصده .

ووصلت القافلة إلى الفسطاط ودخلوا عاصمة مصر ثم تركهم فترة زاعما انه ذاهب للبحث عن عمل ولكنه بعد عدة أيام صارحهم بأنه لم يجد عملا فعرضوا عليه أن يمضى معهم إلى بلادهم حيث انهم فى حاجة إلى معلم يعلم أولادهم ويحفظهم وقرآن الكريم ويفقههم فى أمور الدين .

**أبو عبد الله الشيعى فى المغرب :**

لكثرة ما حصل عليه أبو عبد الله من معلومات وافرة عن بلاد كتامه وأهلها وأماكنهم وفروع قبيلتهم وكل ما يدور فيها من أمور فانه استطاع أن يحدد فى ذهنه المكان الذى سينزل فيه والقوم الذين سيعاشرهم ويعيش بينهم. وسارت الرحلة من مصر حتى وصلوا إلى قرب موقع من بلادهم وصاروا إلى بلدة صغيرة تسمى (ايكجان) وهى بلدة فى جبل وعر عرف أن هذه منازل قبيلة صغيرة بل بطن من بطون كتامة تدعى قبيلة (سكتاتة) وعندما مر ببطن فى الجبل يطلقون هم عليه «فج» قال لهم «أن هذا فج الاخيار» وانهم الذين صحبوه فى رحلته من الاخيار ثم قال لهم ان اسمهم كتامة وهو مشتق من الكتمان والكتمان أول شروط الدعوة فأعجبهم ذلك وفرحوا به وتجمع القوم حوله بعد أن استقر أبو عبد الله الشيعى فى بلدة ايكجان هذه حيث منازل قبيلة سكتاتة من بطون كتامه ونزل بهم وتسامعت به قبائل البربر ووفدت عليه من كل مكان بعد أن تمنع كثيرا من كثرة هذه الوفود وكان ذلك عام ٢٨٨هـ ولم يرض فى تجمع الناس حوله الا بعد أن ألحوا اليه كثيرا للاستزادة من علمه الفياض ونهجه القويم وتواضعه وتقشفه وأخيرا رضى أن يستقبلهم وينشر دعوته بينهم بعد أن تعهدوا له بأن ينصروه .

ونهج فى حياته نهج المعلم المؤدب الورع وسلك سلوك العفاف والطهر والتدين

وأخذ يعلم الناس أصول الدين الاسلامى والشريعة وفق المذهب الشيعى واشتهر أمره بالصلاح والتقوى والعدل ثم بعد أن استوثق منهم طور طريقة التدريس وتحول إلى مرشد لهؤلاء القوم ثم أخذ يحدثهم فى الامور السياسية ونظام الحكم ودور الاسلام فى الحكم بالشورى وفضل العلويين وأحقيتهم فى الحكم وهنا نجد أبا عبد الله الشيعى يعظم أمره ويكثر أنصاره بعد أن مهد لذلك بالسلوك الحسن والقدوة فى العمل ومن ثم صار كبير قبيلة سكتانة ويصلح أمورها وبدأت القبيلة متماسكة قوية وعند ذلك كشف عن شخصيته وأعلن عن أغراضه .

**الطور السياسى والعسكرى :**

بعد أن استطاع أبو عبد الله الشيعى أن يجتذب اليه سكان تلك القبيلة وبعض القبائل الاخرى الصغيرة المجاورة التى كانت تخضع لحكم أسرة الاغالبة التى كان يبغضها السكان هناك وقويت شوكة أبى عبد الله الشيعى. فان رجال القبيلة (سكتانة) أخذوا يغيرون على حدود دولة الاغالبة القريبة ومن ثم شكا حاكم اقليم الزاب الشرقى عدوان السكتانيين عليه وسعى رجال الاغالبة بكل الوسائل الممكنة لاقناع هؤلاء القوم باخراج هذا الرجل الداعية الشيعى من بلادهم ولكن القوم رفضوا اخراجه لان هذه القبيلة كانت أصل المنبت لاكبر دولة علوية شيعية فيما بعد. وكانت نصرة قبيلة كتامة له وعلى رأسها زعيمها (حسن بن هارون) قد قضت على المعارضين وكان هذا بداية الصراع الذى أدى إلى انتصار الشيعة .

لكن أبا عبد الله خاف هجوم الاغالبة عليه لاسيما أن قبيلة سكتانة قبيلة صغيرة لا قبل لها ببقية القبائل الكبرى فى كتامة مثل «مسالتة» ولهيعة، لكنه كان قد أنشأ لنفسه قاعدة واسعة بين القبائل وكثر حوله الانصار واحتل مكانة مرموقة بل مسموعة الكلمة بين القوم لما تحلى به من تقوى وورع وعدل واصلاح وحاز رضا ومحبة الجميع



بسعة علمه ومن هنا استطاع أن يقنع هؤلاء بفساد الحكم الاغلبى وانه لابد من محاربة هؤلاء القوم لبعدهم عن الشريعة الحقة والدين القويم وان الله سيورثهم ملك الأغالبة وحكم هذه البلاد .

لهذا حزم أبو عبد الله الشيعى أمره وأنصاره وانتقل إلى مكان حصين فى حضن جبل الاوراس فى بلدة «تازروت» وفى هذا الحصن المنيع جاءت الوفود من كل صوب فسارع إلى تحصين هذه البلدة وفرض على أتباعه جباية قليلة عبارة عن هبة أو منحة أو تبرع للحركة وجعل كل ما يجمع من هذه الاموال فى أيدى شيوخ كتامة وهم الذين يتصرفون فى صرفها .

وبعد ثلاث سنوات من وصوله إلى بلاد المغرب أى فى عام ٢٩١هـ/ ٩٠٣م بدأ جهوده الحربية بعد أن حض الناس على اقامة دولة الشورى والعدل يكون شيوخ كتامة سادتها بعد أن تستولى على أرض الاغالبة وبدأت الحملات على أقرب أماكن الدولة الاغلبية فى منازل كتامة فى بلاد الزاب وخضعت له مدن كثيرة ووفق فى حملاته الاولى وغنم غنائم كثيرة واشتد حماس القوم وساعده على هذا النجاح ما كان قد أصاب دولة الاغالبة صاحبة الحكم فى تونس فى ذلك الوقت من ضعف وانحلال حيث كان نجاح الحملات فى أواسط أيام حكم ابراهيم بن أحمد الاغلبى .

وكان لتحقيق الانتصار هذا على حدود دولة الاغالبة أثره الكبير فى نفسية أبا عبد الله الشيعى اذ كان تحوله إلى قائد سياسى عسكرى يقود الجيوش قد جعله يكشف الستار عما كانيخبئه فى نفسه فصارح القوم بأنه يدعو للرضا من آل البيت العلوى وانه قائم بالدعوة حتى يسلمها لصاحب الامر من آل رسول الله ﷺ وهو الامام المستتر صاحب الزمان والذى لايظهر الا لدعاته فقط وهو الذى سيعود للظهور بعد تحقيق هذا النصر .

وكان آخر المستورين عبيد الله المهدى بن محمد الحبيب الذى أظهر دعوته أبو عبد الله الشيعى هذا فى كتامة وتتابع الناس على دعوته وتم اخراجه من حصنه فى سلمية ببلاد الشام .

وأظهر أبو عبد الله من الكفاءة والحزم والشجاعة ما مكن له فعلا من جمع قيادة هذه القبائل تحت راية الشيعة واستطاع فى زمن قليل أن ينزع اقليم الزاب كله من أيدى الاغالبة ثم دخلت قواته افريقية وكان على رأس دولة الاغالبة ابراهيم الثانى بن أحمد الاغلبى فأرسل جيشا بقيادة ولده الاحول لكنه هزم ومنذ ذلك الوقت أخذ أبو عبد الله يشن الغارات على كل ما حوله مهددا من لا ينضم له وهرب الامير عبد الله الثانى حين هزمت جيوشه أمام أبى عبد الله الشيعى فقتله ابنه أبو زيادة الله الثالث وخلفه على العرش ولكنه وجه همه إلى ملذاته فصرف أخاه الاحول عن تتبع أبى عبد الله الشيعى الذى استولى على حصن طبنة وسجلماسة عام ٢٩٣هـ واحتل جميع النقاط الحربية التى تقع فى الطريق إلى تونس ودخل رقادة فى ٢٩٧ هجرية .

وهنا تزعزع حكم بنى الاغلب وأصبح فى طوره النهائى وكان القوم قد سئموا حكمهم وملوا ادارتهم للبلاد بعد الذى كان من حكم ابراهيم بن أحمد الاغلبى ثم ابنه العباس ثم أبى مضر الثالث قاتل أبيه وهو آخر الامراء الاغالبة وقد ارتكب أخطاء جسيمة فى حق أهل افريقية فمال الناس إلى دعوة أبى عبد الله الشيعى .

وفى أوائل جمادى الاولى عام ٢٩٦هـ/ ٩٠٩م سقطت مدينة الاريس فى يد قوات عبد الله الشيعى وهذه المدينة هى مفتاح دخول القيروان العاصمة السياسية للبلاد فعجل زيادة الله الأخير بالرحيل إلى مصر فى جمادى الآخرة عام ٢٩٦هـ ودخل عبد الله الشيعى القيروان .

(راجع كتابنا الجزء الثانى من هذه الموسوعة وبه عدة فصول عن دولة الأغالبة) .



وكان أبو مضر آخر أمراء الاغالبة قد خاضت قواته حروبا كثيرة مع أبى عبد الله الشيعى لكن موقعه الاريس قرب الكاف كانت هزيمتها قاسية بل ساحقة لقوات الاغلبة مما جعل أبى مضر أثر ذلك يفر إلى تونس فجمع أثقاله وخرج من رقادة ليلة٢٦ جمادى الثانية ٢٩٦هـ وقصد إلى المشرق مستنجدا ليطلب العون من الخليفة العباسى ويذكر أن الخليفة العباسى أمر والى مصر بامداده بالقوات اللازمة ولكن والى مصر تباطأ فى ذلك وحدد اقامة أبا مضر فى مدينة المرلة من بلاد فلسطين حيث مات هناك .

وأعلن أبو عبد الله الشيعى أن الامام الحقيقى للمسلمين هو عبيد الله المهدى وانه سوف يظهر قريبا فى بلاد المغرب ليحكم الناس بالعدل والحق والمساواة وينشر الطمأنينة ويرفع الظلم عن الناس، فانضم اليه بعض قواد أبى مضر وكاتبوه فوصل أتباعه فى مدة يسيرة به إلى مائتى ألف مقاتل لكى يدافعوا عن المذهب الشيعى والدولة الجديدة .

## بداية الكيان السياسى للدولة الشيعية

بعد رحيل أبى مضر آخر أمراء بنى الاغلب دخل أبو عبد الله الشيعى مدينة القيروان وأعلن قيام الدولة الشيعية الفاطمية وبدأ يستدعى الامام الفاطمى المستتر فى بلاد الشام بمدينة سليمة وهو عبيد الله المهدى لكى يتولى تقاليد الامور فى المغرب بعد أن وطد له أبو عبد الله الامور وجعلها مستقرة ومهياة للحكم .

وقد سار أبو عبد الله الشيعى فى أهل القيروان وبقية البلاد الخاضعة لنفوذه فى افريقية سيرة حسنة وطيبة وحرص على الا يصارح الناس بالدعوة الشيعية وأراد أن يتم ذلك عن طريق الاقناع ودارت مجالس مشهورة بين زعماء المذهب المالكى وخاصة أبى عثمان سعيد بن الحداد وأبى عبد الله الشيعى ودعاة المذهب وكل ذلك يدور فى مدينة

القيروان معقل المذهب المالكى وحصنه الحصين وفى أثناء المناقشات تبين لأبى عبد الله أن قناة أولئك أصحاب المذهب المالكى لن تلين وأن القوم من خلفهم على مذهب مالك فعدل عن الانصراف عن الدعوة الشيعية النشطة حتى يستتب له الامر ويقيم كيان الدولة الجديدة وقد غضب أبو عبد الله على أخيه أبى العباسى المخطوم وكان حاكم القيروان عندما لجأ إلى العنف مع بعض مناوئى الدعوة .

والذى دفع أبو العباس المخطوم إلى هذا الاسلوب انهم عندما دخلوا القيروان وبدأ الكيان السياسى للدولة الشيعية فى الظهور وجدوا فى هذه المدينة بيئة افريقية ثقافتها اسلامية مالكية موطدة بل ثقافة دينية ثابتة الجذور ورأوا شعب افريقية (تونس) كله متكتلا خلف فقهائهم المالكيين يهتدون يهديهم ويأتمرون بأمرهم فرأوا انه لا نجاح لدولتهم ولا بقاء لها الا بمحاولة التغلب على هذه الوطنية المغربية الدينية المالكية .

وكان الشيعة الفاطمية فى كل مكان يتسلحون فى نشر دعوتهم بالدعايه والمناظرة والعلم فلجأوا إلى مثل هذا فى القيروان وتوسلوا بالمناظرة وعقدوا المجالس وجلبوا أئمة المالكية وأخذوا يجادلونهم ويناقشونهم فلم يعتنقوا المذهب الشيعى وأغدقوا المال والجاه فلم ينفع المال أو الجاه فانقلب الشيعة وعلى رأسهم العباس المخطوم إلى طغاة مستبدين يستعينون بالعنف والشدة وضربوا الفقهاء بالسياط وقطعوا ألسنة البعض وضربوا الرقاب وقطعوا أجزاء الجسم إلى عدة أجزاء وصلبوا الفقهاء وصادروا الاموال وتفننوا فى وسائل التعذيب وتصور كتب الطبقات هذه الوسائل كما ذكر الدباغ فى كتابه معالم الايمان. بل انهم كانوا يبطحون الناس على ظهورهم ثم يأمرون (السودان الزنوج) بأن يدوسوهم بالأقدام ولذا عزل أبو عبد الله الشيعى أخاه عن القيروان أوقف المناظرة بين الشيعة والمالكية حسما للصراع الدينى لاسيما فى بداية تكوين الدولة. وصرف النظر عن المجادلة والمناظرة .



لذا فإننا نجد انه استطاع فى فترة زمنية وجيزة أن ينجح فى تثبيت دعائم الدولة ويثبت أقدامها ويرسى دعائمها وينظم أمورها ولقد كان العمود الفقرى الذى اعتمدت عليه دولة الشيعة فى ذلك الوقت هو زعيم قبيلة كتامة ،وأحد أنصار الدعوة الأوائل الأقوياء والذى بذل جهدا غير عادى فى مساعدة ومساندة أبى عبد الله الشيعى حتى نجح فى تقويض سلطان الاغالبة ذلك الزعيم البربرى (غزوية بن يوسف) وأخيه وبقية قومه .

# الباب الثالث

## الدولة الفاطمية كيان سياسى فى العالم الاسلامى

لما قويت شوكة أبى عبد الله الشيعى وأحس انه دعم أركان دولته وثبتت له الأوضاع فى الارجاء التى بسط نفوذه الشيعى عليها، فانه أرسل إلى عبيد الله المهدى الامام الاسماعيلى صاحب الدعوة وكان يقيم فى مدينة سلمية فى الشام. مستدعيه وطالبا منه للحضور إلى بلاد المغرب على وجه السرعة لتسلم مقاليد انشاء دولة شيعية علوية .

ويتفق المؤرخون فى حديثهم عن مبدأ دولة الشيعة أن أبا عبد الله المحتسب لما دعى بكتامة للرضى من آل محمد واشتهر خبره وأرسل إلى عبيد الله المهدى وابنه أبى القاسم فإنهما خشيا على أنفسهما فهربا من الشرق موطن الخلافة العباسية إلى بلاد المغرب واجتازا الاراضى المصرية إلى الاسكندرية فى زى التجار ونمى خبرهما إلى «عيسى النوشرى» عامل مصر والاسكندرية فشرع فى طلبهما رجال الخيالة حتى اذا أدركا قافلتهما خفى حالهما على تابعهما بما لبسوا من الزى البالى واستطاعا الافلات إلى المغرب ومن ثم فان الخليفة العباسى المعتضد أوعز إلى الاغالبة أمراء افريقيا والقيروان بالقبض عليهما كذلك أرسل إلى بنى مدرار أمراء سجلماسة أصحاب المذهب الخارجى الصفرى. يأخذ الآفاق عليهما واذكاء العيون فى طلبهما فعثر «اليشع» صاحب سجلماسة من آل مدرار على المكان الذى يختفيان فيه ببلده واعتقلهما مرضاة للخليفة العباسى رغم ما بينهما من خلاف سياسى توطئه لارسالهما إلى بغداد. وكان عبيد الله المهدى ومعه ابنه أبى القاسم قد لقيا كثيرا من المتاعب وقبض عليهما أكثر من مرة ولكنهما كانا يتمكنان من الافلات ببذل الهدايا عطف



رجال الدولة العباسية عليهما مما يقدم دليلا قويا على انضمام بعض الناس اليهما. وكان المهدى قد عرف كيف يستخدم هذه الاموال الطائلة التى حملها من سلمية معه وذلك فى تسهيل مهمة سفره، ويقال إن حاكم مصر (عيسى النوشرى) قد عاونهما وسهل مهمة خروجهما من مصر وكان المهدى وابنه أبى القاسم قد أحسا بعد وصولهما إلى برقة أن رجال بنى العباس علموا بأمرهما فاستعملا الحيلة بعد خروج الركب من برقة إلى طرابلس ودفع مالا كثيرا للمشرفين على ركب القافلة فحولوا اتجاهه جنوبا صوب سجلماسة فى أقصى الجنوب الغربى من بلاد فنجا من أيدى العباسيين وكما سبق القول فان صاحب سجلماسة من بنى مدرار تخوف من أمرهما فسجنهما .

ويقول فى ذلك الدكتور حسين مؤنس فى كتابه معالم تاريخ المغرب والاندلس ماالذى يدعو رجلا خارجيا صفريا هو صاحب سجلماسة إلى سجن رجل من أعداء الخلافة العباسية وهو منهم. فى حين نجد ابن خلدون يذكر فى المقدمة ص ٢١. أن الخليفة العباسى المعتضد أرسل إلى بنى مدرار أمراء سجلماسة بالبحث عنهما. ونحن نميل هنا إلى الأخذ برأى ابن خلدون فى صحة طلب الخليفة العباسى لانه كان يخشى من خطر الشيعة على الدولة العباسية .

وكان اسقاط دولة بنى الاغلب فى القيروان قد شدد من عزم أبى عبد الله الشيعى وقواته فانه ما أن علم بخبر وصول صاحب الدعوة المستتر وابنه أبى القاسم إلى سجلماسة وسجنهما فانه استطاع فى فترة وجيزة أن يجمع جيشا ضخما وخرج به من القيروان فى عام ٢٩٧هـ/٩١٠م قاصدا بلاد بنى مدرار حيث عاصمتهم سجلماسة واستطاع الوصول اليها وتمكن من فك أسر عبد الله المهدى هو وابنه وتخليصهما من السجن والقضاء على صاحب سجلماسة وتدمير المدينة وبويع عبيد الله المهدى بيعة عامة

فى سجلماسة وسلم اليه أبو عبد الله الشيعى الامر وسار بين يديه يحترمه وفى طريق العودة مر الجيش بتاهرت وأزال دولة بنى رستم، ذلك فى عام ٢٩٧هـ/ ٩١٠م وجعل المغرب الاوسط إلى تلمسان جزء من الدولة الفاطمية التى قامت نسبة إلى فاطمة الزهراء بنت الرسول ﷺ، وباعلان عبيد الله المهدى خليفة أول للدولة الفاطمية ببلاد المغرب وبدأت بخلافة المهدى تتكشف الاغراض الحقيقية للفاطميين وهو الحصول على السيادة العليا فى الدولة الفاطمية من دون الخلافة العباسية .

وكان قد تم فى عام ٢٩٧هـ لابى عبد الله النصر النهائى على الدويلات القائمة فى شمال افريقيا دولة بنى مدرار فى سجلماسة ودولة بنى رستم فى تاهرت ودولة الاغالبة فى افريقية (تونس) وقاد الجيش بنفسه ونزل مدينة القيروان وفى قصر من قصورها وفى يوم الجمعة خطب باسمه على منابر القيروان بعد أن قضى نهائيا على ملك الاغالبة ولقب بأمير المؤمنين عبيد الله المهدى .

وهكذا نجح الشيعة الاسماعيلية فى الوصول إلى عرش الخلافة بعد جهاد طويل مرير كان بعضه فى العلن إلى عهد محمد بن اسماعيل إلى نجاح الدولة وظهور عبيد الله المهدى ويعرف هذا العهد الثانى بعهد الكتمان فقد كتمت فيه أسماء الائمة تقية وخوفا وكان يقوم بالدعوة العلنية ويشرف على توجيهها الائمة المستورون من نسل عبد الله بن ميمون القداح ومن هنا ثار الجدال حول صحة النسب الفاطمى فقد أصبح كتمان أسماء الائمة المستقرين والمستترين من محمد بن اسماعيل إلى عبيد الله المهدى جزء من المذهب .

ولم يكن الخلفاء الفاطميون يسبقون اعلان هذه الاسماء حتى بعد نجاح الدعوة وتوليتهم الخلافة وفى هذه الثغرة دخل أعداء الدولة الفاطمية من العباسيين فى المشرق والامويين فى الاندلس للطعن فى نسب الائمة الفاطميين يريدون بذلك أن يقوضوا



الدعائم التى قامت عليها الدولة الفاطمية التى تتخذ اسمها من فاطمة الزهراء زوجة الامـام على بن أبى طالب وبنت رسول الله ﷺ وأم الحسـن والحسين سـبطى رسـول الله ﷺ .

ومن الأخبار الواهية ما يذهب اليه الكثير من المؤرخين فى الشك فى العبيديين خلفاء الشيعة فى القيروان من نفيهم الانتساب إلى أهل البيت صلوات الله عليهم والطعن فى نسبهم إلى اسماعيل الامام ابن جعفر الصادق يعتمدون فى ذلك على أحاديث لفقت للمستضعفين من خلفاء بنى العباسى تزلفا اليهم بالقدح فيمن ناصبهم العداء .

لكن ظهرت الدولة العلوية الفاطمية وهى أول دولة علوية حقيقية استقر لها الامر ولم تكن أيامها معدودة ولا فتنة خارج عن شرعية الدولة بل دولة فاطمية علوية راسخة قوية زاحمت دولة بنى العباس وقاسموهم ممالك الاسلام .

وكما سبق القول فقد سمى محمد بن اسماعيل الامام جد الخليفة الفاطمى الأول عبيد الله المهدى بالمكتوم سمته بذلك شيعتهم لما اتفقوا عليه من اخفائه حذرا من المتغلبين عليهم. لكن خلفاء بنى العباس عملوا على الطعن فى نسبهم وازدلفوا بهذا الرأى القائل للمستضعفين من خلفائهم وأعجب به أولياؤهم وأمراء دولتهم المتولين لحربهم مع الاعداء يدفعون به عن أنفسهم وسلطانهم معرة العجز عن المقاومة والمدافعة لمن غلبهم على الشام ومصر والحجاز من البربر الكتاميين شيعة العبيديين وأهل دعوتهم حتى لقد سجل القضاة ببغداد بنفيهم عن هذا النسب وشهد به عندهم من اعلام الناس. كذلك طعن فى نسب ملوك بنى أمية وراء البحر فى الاندلس .

لكن ابن خلدون يضيف القول بأن هذا النسب الفاطمى لم يكن أمر المهدى يتوقف عليه ولا اتبعه الناس ببيعته وانما كان اتباعهم له بعصبية كتامة والمصمودية

ومكانة منها ورسوخ شجرته فيها وكان ذلك النسب الفاطمى خفيا قد دس عند الناس وبقى عنده وعند عشيرته يتناقلونه بينهم ولان الناس يصدقون فى انتسابهم إلى البيت الفاطمى .

ولقد بويع عبيد الله المهدى بيعة عامة فى القيروان عاصمة الاغالبة ربيع الآخر عام ٢٩٧هـ/ ٩١٠م وبذلك أنتهت ولاية أبى عبد الله الشيعى بعد أن دامت عشر سنوات ٢٨٨هـ– ٢٩٧هـ. فقد أصبح وزيرا وخادما لهذا الخليفةالذى استقدمه من سليمة بالشام ولأول ولاية عبد الله المهدى فعل فعله شككت الكتاميين فى أصالته ومستوى تفكيره فقد استولى على كل الاموال التى كانوا قد جمعوها فى «ايكجان» وأخذها دون أن يكترث لرأى أحد. فبدأت نفوس كبار الكتاميين تتغير ويساورها الشك خاصة أبا عبد الله الشيعى شاركهم فى ذلك علانية واذا كان أبو عبد الله قد استطاع أن يكظم غيظه ويملك نفسه ويضبط مشاعره الا أن أخاه وشريكه فى الدعوة أبو العباس المخطوم لم يستطع ولذا فقد ساءت العلاقة بين الخليفة الفاطمى الجديد وأبى عبد الله الشيعى وأخيه فلجأ عبد الله إلى الغدر واستعان بأحد كبار الكتاميين (غزوية بن يوسف) فقتل عبد الله الشيعى وأخيه أبى العباسى ولكن بعض المؤرخون يرجعون الخلاف الذى ثار بين عبيد الله المهدى وقائده عبد الله الشيعى قد ثار حول النسب وليس خلافا ماليا كما أشار إلى ذلك بعض المؤرخين والامر الذى فى النهاية انتهى بقتل الاخير. وكان قتل الخليفة لداعيته الشيعى قبل أن يمضى عاما على توليه الخلافة لأنه كان قد بدأ يتآمر مع رؤساء كتامة لانه كما قيل وجد الشروط التى يجب توافرها فى عبيد الله المهدى لا تتوافر فيه وأولها مباشرة المعجزات ومنذ هذا اليوم انقلبت الدعوة الدينية إلى سياسية لايتدخل الدين فيها الا بمقدار ما يساعد على تثبيتها .

ولقد استحق عبد الله الشيعى القتل لان خطيئة حياته كانت فى دعوته عبد الله



المهدى من الشام فقد كان مستطيعا أن يمضى فى الدعوة وقيادتها تحت اسم الوصية ثم بعد فترة من الزمن يحوزها لنفسه لاسيما انه قضى عشر سنوات فى المغرب قبل أن ينصب المهدى خليفة ولكن الحذر يؤتى من مأمنه بالاضافة إلى أن أبا عبد الله الشيعى وكان داعيا للدعاة وصاحب الفضل فى اقامة الدولة لم يكن بعرف عبيد الله المهدى معرفة شخصية ولا هو رآه من قبل مهما كان يسهل له مهمة اعلان نفسه اماما للدعوة حتى انه يذكر انه عندما أخرجه من سجنه فى سجلماسة تقدم بطاعته إلى رجل آخر ثم عرف الحقيقة فعدل إلى عبد الله المهدى وابنه أبا القاسم ويلاحظ بعض المؤرخين أن سبب القتل يرجع إلى أن الخليفة الحقيقى للدولة الفاطمية هو أبا القاسم محمد بن عبيد الله المهدى وان عبيد الله المهدى كان راعيا له ولامره وربما لم يكن أبوه أصلا وربما تكون هذه أقوالا موضوعة من قبل العباسيين فى بغداد أو الامويين فى الاندلس.

ولقد أثار نجاح الفاطميين فى تكوين دولتهم عداء الخلافتين السنيتين القائمتين فى ذلك الوقت وهما الخلافة العباسية فى المشرق والاموية فى الاندلس فشنتا عليهم حربا شعواء كان قوامها الطعن فى نسبهم ومذهبهم واتهم الفاطميون بانتسابهم إلى أصل يهودى حينا وإلى أصل فارسى حينا آخر وأصبح الكلام فى النسب الفاطمى موضوعا من أهم الموضوعات التى تبادلها المؤرخون قدامى ومحدثون شرقيون ومستشرقون عند الكتابة عن تاريخ الفاطميين ومع هذا لم يصل واحد منهم حتى اليوم إلى رأى حاسم يمكن الاعتماد عليه والاخذ به ويرجع هذا إلى سببين أولهما اننا لانعرف على وجه التحديد متى بدأت الدعوة الاسماعيلية أو من بدأ بها فقد بدأت سرية وما كتبه المؤرخون السنيون عن أصولها ومبادئها فيه تناقض كثير واضطراب ويعتمد فى أكثره على الشائعات المغرضة وثانيهما أن الاسماعيلية أنفسهم لجأوا فى أول الامر إلى التقية فقد كان العهد عهد ستر وخضع الشيعة لعوامل الاضطهاد المختلفة من سجن وقتل

وتشريد ولهذا لم يؤرخ الاسماعيلية لحركتهم بأنفسهم لان الستر أصل من أصول مذهبهم ومن ضعف العقيدة عندهم كشف المستور وكانت النتيجة أن كل ما نعرفه عن عهد الستر وهو العهد الذى بدأ بوفاة جعفر الصادق وينتهى بقيام الدولة الفاطمية يسوده التناقض والاضطراب ولا يمكن الركوب اليه أو الموثوق فيه .

وكان لما تولدت عن الاسماعيلية قيام الدولة الفاطمية وظهرت هذه الاسرة للنور بعد أن عاش الاسماعيلية فى الستر عشرات السنين ومن ثم اضطر الفاطميون أن يقللوا من غلواتهم بعض الشئ ليضمنوا ولاء الناس لهم وليستطيعوا أن ينالوا لونا من الاستقرار ولعل الفاطميين قصدوا بذلك أن يقابلوا شعب المغرب بمبادئ يمكن نشرها.

ومن الواضح أنه ليس معنى الاعتدال هو اختفاء المذهب الاسماعيلى فى عهد الفاطميين ولكن المقصود هو تجاوزه عن الضالات الصارخة التى قال بها أكثر الاسماعيلية .

وكان ظهور الكيان السياسى للشيعة فى المغرب المتمثل فى الدولة الفاطمية ماهو الا ثمرة من ثمرات كفاح الشيعة من أجل نصرة العلويين بالاضافة إلى كونه من أسباب الازمات السياسية وصراع السلطة فى العالم الاسلامى لان بنى العباس أبناء عمومة العلويين والذين دخلوا التاريخ دخولا واسع المدى معلنين عن دولة العروبة والاسلام التى تملأ الدنيا عدلا وتقضى على الظلم والجور وتقيم القرآن والسنة إلى آخر الزمان ثم تستمر فى عنفوانها وقوتها الا قرنا واحدا ثم بدأ الضعف والانحلال والانهيار يدب فى أجزاء الدولة فاذا بها بعد ذلك تنحرف عن المسار الاسلامى الصحيح الذى يقوم على الشورى ويحقق للانسان المسلم كرامته .

بل أكثر من ذلك فانه أثناء صراع الامين والمأمون تخلى آل العباس عن قاعدة العروبة والاسلام فصاروا خلفاء عرب يسوسهم العجم الفرس وأصبح الخليفة هو كسرى



ولكن فى ثوب جديد وحكموا باسمه ومن ثم اضطرب الامر فى العالم الاسلامى وخاصة بعد خلافة المنتصر بالله بن المتوكل على الله (٢٤٧– ٢٤٨هـ– ٨٦١– ٨٦٢م اذ تحول الخليفة العباسى إلى موظف فى خدمة رئيس الجند وان حمل لقب الخلافة .

ومن هنا كانت الاجواء مهيأة لظهور الدولة الفاطمية فى المغرب وايجاد الفرص المناسبة أمام الدعاة لكى يعملوا على الدعوة للرضا من آل البيت النبوى الشريف الذى أثمر الدولة الفاطمية .

## عبيد الله المهدى [1] الخليفة الشيعى الأول

## ربيع الاخر ٢٩٧– ربيع الاول ٣٢٢هـ– ٩١٠– ٩٣٤م

بعد البيعة الثانية فى القيروان أخذ عبيد الله يوطد سلطته فى البلاد، لكنه أحس أنه غير مرغوب من أهل افريقية (تونس) ولاسيما سكان القيروان الذين ليس لديهم استعداد لقبول الفكر الشيعى والتخلى عن المذهب المالكى والخضوع لخلافة تقوم على أسس شيعية اسماعيلية كما صاغها دعاتها ومفكروها أثناء فترة الاستتار ودخلت فيها آراء غريبة عن مذهب السنة والجماعة لاسيما المذهب المالكى مذهب أهل افريقية .

ووقف رجال السنة من المالكية فى وجه الفاطميين كرجل واحد واعتبروا الفاطميين زنادقة ونادوا بقتلهم حيث وجدوه وأعلنوا عليهم المقاطعة السلبية لا يصلى فى مساجدهم ولا تدفع لهم الاموال ولا يتعاون معهم. وقد ألف أحد الفقهاء كتابا فى نسب الفاطميين فحاربه الناس حتى فر من القيروان وانتشرت المقاطعة فى المغرب كله بفضل الفقهاء المالكية وقامت الثورات والفتن فى وجه الفاطميين حيث كان فى أهل

(١) كان له اسم آخر هو : المهدى أبو محمد عبد الله (٤ ربيع الآخر ٢٩٧– ١٤ ربيع أول ٣٢٢هـ) .

افريقية صراحة وجراءة فجابهوا عبيد الله ورجاله فأحس الرجل انه ليس بين رعية وانما تجاه خصوم وانه لن يستطيع السيطرة على أولئك الناس ولم يكن كذلك يستطيع الثقة بالكتامين بعد أن استولى على أموالهم وقتل زعيمهم (غزوية بن يوسف) كما كان قد قتل من قبل أبى عبد الله الشيعى وأخيه أبى العباسى المخطوم ومن ثم تطلع إلى الاستعانة بقبائل غير الكتاميين وذلك بسبب تخوفه من الكتاميين بسبب قتله زعيمهم وكان يوجد تنافس قديم بين كتامة وصنهاجة ومن هذا فانه اتجه ببصره إلى هذه القبائل التى نقطن المغرب الاوسط وكان يتزعمهم «مصالة بن حبوس» .

بالاضافة إلى انه من الضرورى بناء عاصمة جديدة بدلا من القيروان لكى تكون حصنا له ولاسرته وآل الفاطمية وجنده وخدمه وأمواله ومتاعه لكى تكون عازلا لهم عن بقية شعب المغرب وكان بناء عاصمة جديدة هدفا أول للفاطميين فى المغرب فكان بناء المهدية عام ٣٠٥هـ/ ٩١٧م بعد أن تولى الخلافة ثمانية أعوام .

وكان التفكير فى بناء العاصمة الجديدة للدولة بعد أن زال المهدى الصعوبات الاولى التى اعترضت طريقه وبعد أن هدأت الفتن فى خلافته ودان له الجميع بالولاء ومن ثم كان التفكير فى بناء عاصمة جديدة لدولته لانه لم يكن يأمن لاهل القيروان عاصمة الاغالبة فخرج يرتاد موقعا قريبا على ساحل البحر فلم يجد أحسن ولا أحصن من موقع المهدية وهى جزيرة متصلة بالبر كهيئة كف متصل «بزند» وهى حصن منيع يقوم على رأس بارز فى الساحل الشرقى لتونس شمال سوسة وهو يشبه الكف كما يقول المؤرخون ولا يصل اليها البر الا عن طريق مدخل ضيق .

وقد بدأ البناء فى ذى الحجة عام ٣٠٣هـ وبنى حولها سورا شاهقا من الحجر الابيض لحمايتها والدفاع عنها وجعل للسور أبراجا وأبوابا عظيمة وكان عبيد الله يدرك أن دولته الجديدة لاتزال تحيط بها الاخطار من الداخل والخارج فاتخذ فى مدينته



الجديدة كل وسائل الدفاع التى يقتضيها عصره .

وقد ذكر البكرى أن عبيد الله المهدى شرع فى بناء المهدية عام ٣٠٠هـ واستكمل سورها عام ٣٠٥هـ ثم انتقل اليها فى شوال ٣٠٨هـ. كذلك ذكر بناءها فى عام ٣٠٣هـ ثم حوطها بسور فى عام ٣٠٥هـ ولما استكملت جميع مرافقها فى عام ٣٠٨هـ انتقل اليها واتخذها مقرا لدولته .

ويسجل انشاء مدينة المهدية عام ٣٠٣هـ أول اجراء عملى قام به الفاطميون لتطبيق سياسة بحرية قوية قادرة على حماية السواحل والعمل فى البحر المتوسط ومما لاشك فيه ان المهدية كانت تتمتع بموقع استراتيجى هام بين صفاقس والمستير فى جزيرة متصلة بالبر وبوجود مرسى منقور فى الحجر الصلد يتسع لثلاثين مركبا ويقوم على طرفيه برجان تمتد بينهما سلسلة من حديد تحميه من طروق مراكب الروم .

وكان المهدى قد أمر أن تنقر دار صناعة فى الجبل تسع مائتى شينى(نوع من السفن البحرية) وعليها باب مغلق وأنشأ فى باطن أرضها مخازن للطعام ومصانع ولما انتهى من انشاء هذه التحصينات بنى فيها الدور والقصور .

وكان بين السور والبحر قطعة أرض أقيمت فيها دار صناعة السفن ومخازن البحرية وهذه أيضا محصنة لا يوصل اليها بسهولة وقد جعل عبيد الله العمال والسوقة يعيشون خارج البلد فى موضع يسمى زويلة فلا يكونون فى المهدية الا نهارا فاذا هبط الليل مضوا إلى مدينتهم وأغلقت الاسوار .

وعندما فرغ عبيد الله من بناء تلك القلعة واستقر فيها قال «الآن آمنت على الفاطميات» أى إنه آمن على نفسه وأمواله ومضى يدير البلاد فى عاصمته الجديدة .

وقد كانت المهدية مركزا حصينا يعتمد على البحر اذا نشبت ثورة فى الداخل

كما كانت مركزا مناسبا لارسال الحملات البحرية المتتابعة لاخضاع الثورات التى قامت فى صقلية أو لمهاجمة شواطئ ايطاليا ومدنها الساحلية والجزر المحيطة بها مثل جزيرة كورسيكا وسردانية .

وكانت ثقة عبيد الله المهدى كلها فى جنده المرتزقة الذى استكثر منهم وعلى ذلك لم يكن الخلفاء الفاطميون يعيشون فى هدوء واستقرار بعد قيامها بل اعترضتها صعوبات كثيرة كان أكثرها وأخطرها ثورة البربر ومن هنا لم تكن حياتهم سعيدة ولم يستطع الخلفاء بذل الجهد اللازم لادارة الدولة واسعاد الناس وانما كان كل هم الخلفاء الفاطميين هو حماية أنفسهم واستغلال البلاد التى صارت فى عهدهم إلى أسوء صورة وحال .

وكان عامة البربر وهم قوم فى طبيعتهم حب للثورة والخروج على الشرعية ويميلون للحرب والقتال فلم يدينوا للفواطم بالولاء فيما عدا القبيلتين الكبيرتين فى المغرب وهما قبيلة كتامة وقبيلة صنهاجة، بل لعله اذاهم أن تنجح هذه الدولة العربية الوافدة من المشرق فى تكوين خلافة لها جديدة فى بلادهم .

ولم يكتف عبيد الله المهدى بما تم من انجاز معمارى وتكوين جيش قوى بل عمل على توطيد أركان الدولة وتوسيع نطاقها والقضاء على مصادر القلق والتوتر فنجد انه بعد أن استطاع اغراء زعيم صنهجة «مصالة بن حبوس» فانه أرسله على رأس جيش كبير لكى يغزو المغربين الاوسط والاقصى فأما فى المغرب الاوسط فقد بسط سيطرة الدولة الفاطمية على جماعات الزناتية التى كانت تسكن بعض نواحيه والذين استجاروا بالامويين فى الاندلس، ووصلت جيوش «مصالة بن حبوس» إلى المغرب الاقصى وبعض المصادر تنطق اسمه «مسالة بن حبوس الكتانى» الذى طرق أبواب دولة الادارسة عام ٣٠٥هـ/ ٩٠٧م كقائد جيش عبيد الله المهدى وفى محاولة يائسة حاول الامام يحيى



الثالث بن يحيى بن عمر بن ادريس الثانى وجيوشه مدافعة الجيوش الغازية الا أن الهزيمة لحقت به وفر إلى عاصمته فاس متحصنا بها ثم استسلم ووقع معاهدة صلح تم بمقتضاها أن يدفع يحيى مقدارا من المال ويصبح تابعا للعبيديين وهكذا دخلت دولة الادارسة مرحلة التبعية للدولة العبيدية .

(راجع الجزء الثانى من الموسوعة عند الحديث عن دولة الادارسة فى المغرب الاقصى) .

وقد جعل مسالة على منطقة فاس رجلا من أقاربه يدعى (موسى بن أبى العافية) واشترط أن يخضع الادارسة لطاعته لكن فى النهاية خضعت فاس لحكمه المباشر فنفى من كان فيها من بقايا الادارسة إلى قلعة «حجر النسر» شمال المغرب فى جبال الريف فتجمع الادارسة هناك وارتبطوا بالناس واختلطوا بهم وأصبحوا أسرة مغربية عربية .

وقد حكم عبيد الله المهدى خمسة وعشرين عاما ثبت خلالها قواعد البيت الفاطمى فى افريقية والمغرب الاوسط والاقصى بالقوة العسكرية وجمع مالا وفيرا ولقد كان فى حكمه بعيدا جدا عما كان الناس يتصورونه فى المهدى الذى يعيد العدل إلى الارض ويرفع الظلم عن الناس وقد اتخذ منه فقهاء المالكية موقفا مضادا .

ولقد انتشرت المقاومة فى المغرب كله بفضل الفقهاء المالكية وقامت الثورات والفتن فى وجه الفاطميين ولم يستطع اقرار السكينة فى البلاد بسبب موقف فقهاء المالكية. ولقد كان هذا سببا فى محاولتهم فتح ميدان جديد بالاتجاه شرقا صوب مصر اذا تضافرت ضدهم جميع القوى المتحكمة فى مصير المغرب، الامويين فى الاندلس، والادارسة والزناتيين فى المغرب الاقصى بآزرهم المالكية فى كل مكان انتصارا للمالكية ولسياسية المقاطعة السلبية والايجابية .

وكان أن قرر عبيد الله المهدى أن يخفف من نشاط الدعوة للمبادئ الشيعية لان الدعوة الفاطمية فى المغرب لم تكسب أرضية لها وكان ذلك حافزا للمهدى على التفكير فى الاتجاه شرقا والانتقال بأهله وماله وهيئته وجنده إلى مصر ومحاولة الاستيلاء عليها .

**عبيد الله المهدى ومحاولة الاستيلاء على مصر :**

أرسل الفاطميون حملة عام ٣٠٠هـ/٩١٣م استطاعت القضاء على سلطان العباسيين فى برقة وكانت تعتبر تابعة اداريا لمصر وذلك تمهيدا لتحقيق أهدافهم لغزو مصر، وفى عام ٣٠١هـ/ ٩١٤م زحف جيش فاطمى بقيادة ابن الخليفة وولى عهده أبى القاسم وزحف على الاسكندرية والجيزة والفيوم ولكن هذا الجيش انتهى بالعودة بعد أن تصدت له جيوش الخلافة العباسية بقيادة «مؤنس الخادم» .

وفى عام ٣٠٢هـ جاء جيش فاطمى آخر بقيادة «مسالمة بن حبوس الكتامى» واستولى على الاسكندرية مرة أخرى، وتمت هزيمة هذا الجيش الفاطمى على يد «مؤنس الخادم» أيضا ولقد كانت هذه الحملة الفاطمية الثانية سببا فى ظهور شخصية «محمد بن طغج الاخشيد» وكان أحد عمال الادارة العباسية فى مصر اذ أسهم فى صد تلك الحملة الفاطمية الثانية وأظهر مقدرة فائقة مما جعله يسيطر مستقبلا على مصر، وفى عام ٣٠٧هـ جاءت حملة أخرى بقيادة أبى القاسم الفاطمى ثم تتابعت الحملات الفاطمية وكان أشدها خطر عام ٣٢١هـ واستطاع العباسيون صد هذه الحملة بفضل جهود «محمد بن طغج الاخشيد» وتلك هى الحملات الفاطمية التى تم ارسالها لفتح مصر فى خلافة عبد الله المهدى أول خليفة فاطمى .

وقد اضطررنا للحديث عن هذه الاعمال باعتباره انها أعمال تمت فى عهد الخليفة عبيد الله المهدى دون الحديث عن الدولة الفاطمية فى مصر لان ذلك يخرج



عن نطاق البحث وهو الدولة الفاطمية فى المغرب، وذلك باختصار شديد .

**ثورة الخوارج بقيادة أبى يزيد :**

لم يكد يعلن أبو يزيد الخارجى العصيان والثورة على الدولة الفاطمية حتى التفت حوله معظم القبائل وناصروه مدة طويلة إلى أن تمكن خلفاء الفاطميين من القضاء على هذه الفتنة وثورة أبى يزيد فى الواقع هى ثورة قومية مذهبية فهى ثورة قومية كان البربر وهم السكان الاصليون للمغرب العربى قوامها. وقد قاموا للقضاء على هذا الغزو الخارجى والذى تصوره فى قدوم الشيعة من الشام ولاسترداد استقلالهم .

لكن لا يبدو أن هذا السبب قوميا ذلك لان قبيلة كتامة التى ناصرت الدعوة الفاطمية كانت تعيش فى حال من البداوة وبعيدة عن المدينة والدولة الاغلبية لا تحاول الاحتكاك بها كما انها لم تبد عداوة للعنصر العربى وقد نصرت الدولة الفاطمية كوسيلة لمقاومة العنصر العربى فكيف يقوم أبو يزيد بثورته لسبب قومى وكيف أن الدولة الفاطمية قامت على أكتاف البربر فكان الغرض من قيامها قومى فى ثوب اسلامى فكيف تكون ثورة الخارجى ثورة قومية .

لكن الحقيقة التاريخية أن أبا اليزيد الخارجى أعلن ثورته ومقصده قبيلة زناتة التى ربما تكون قد رأت فى نفوذ كتامة فى الدولة الجديدة من أسباب الثورة، لكن السبب الرئيسى أن أبا يزيد كان يريد حكما اسلاميا صحيحا قائما على الشورى والديمقراطية وحرية المسلمين فى اختيار خليفتهم وهو المبدأ الاول من مبادئ الخوارج (أنظر دولة بنى رستم فى تاهرت) الجزء الثانى من هذه الموسوعة وثورة أبى اليزيد ثورة مذهبية لان زعيمها كان من الخوارج النكارية فهو لا يؤمن بمبادئ الشيعة التى قامت على أسسها الدولة الفاطمية ومن هنا فهى ليست ثورة قومية مغربية ضد الفاطميين بقدر ما هى الا ثورة لقيام نظام حكم خارجى يخالف حكم الشيعة .

وقد ظهرت ثورة أبى اليزيد مخلد بن كيداد الناكرى فى عهد خلافة عبيد الله المهدى وبدأ يستكثر من الانصار فى عهد خليفته أبى القاسم والخليفة المنصور. فقد بدأ ثورته على الدولة فى عام ٣٢٢هـ. وكانت فتنة خطيرة كادت تقضى على الدولة فى مهدها. وقد لقب هذا بصاحب الحمار.

وكان أبو اليزيد هذا فى أول أمره معلم لتحفيظ القرآن الكريم وفى هذه المهنة قضى معظم وقته فلما شتد غليان أهل المغرب غضبا على الفاطميين بسبب السياسة المالية التى اتبعوها حين أثقلوا كاهل الاهالى بالضرائب التى فرضوها من أجل ايجاد موارد جديدة للدولة وكانت أكثر مما تعود الاهالى أن يدفعون أيام حكم الاغالبة .

وتزعم هذا الرجل وقبيلته الثورة وظهر الرجل فى أول أمره بمظهر الزهاد فكان يركب حمارا ينتقل به بين الجبال والقبائل فلقب بصاحب الحمار وكان الرجل مسنا عندما قاد الثورة اذ كانت سنه تقارب التسعين واستغل معارضة البربر للمذهب الشيعى لاسيما وأن الفاطميين بدأوا بلعن الشيخين أبى بكر وعمر فى خطبة الجمعة وقام أهالى المغربين الادنى والاوسط بالثورة التى اقتضت كثيرا من الضحايا والشهداء. وانضمت اليه القبائل فى حماس شديد وأيده أهل افريقية اذ لم يكشف عن نحلته الاباضية النكارية وانما أعلن انه ثائر للعدالة والاسلام وكراهية البدع التى أراد الفاطميون ادخالها على العقائد والعبادات .

وكانت هذه الثورات كما سبق القول ظهرت أيام المهدى الا انه لم يطل به العمر لسحقها .

وكان أبو اليزيد ابنا لتاجر من السودان درس مبادئ المذهب الاباضى حق الدراسة حتى أصبح عالما فيه وقام بنشر دعوته فى منطقة الجريد وهو راكب حمارا يتبعه أبناؤه وزوجته وانتقل إلى تاهرت وأفلح فى اقلاق جانب الفاطميين لا سيما فى منطقة أوراس



وقاد الناس بتقشفه ونسكه فنجح فى حصار القيروان بعد أن نجح فى سحق جيش شيعى أرسله له الخليفة من المهدية ولكن المدينة قاومت الحصار لمدة طويلة حتى انتصرت واضطر أبو اليزيد إلى فك الحصار ليركز قواته حول سوسة .

## الخليفة الفاطمى الثانى القائم بأمر الله أبو القاسم

## نزار بن عبيد الله الشيعى

## ١٤ ربيع الأول ٣٢٢-١٣ شوال ٣٣٤هـ-

## ٩٣٤- ٩٤٥م

بويع الخليفة القائم بأمر الله بعد وفاة والده عبيد الله الشيعى وهو الذى كان يصحبه عند قدومه من سلمية بالشام وعاش معه أحداث الدولة الشيعية ومن هنا كانت له كل الخبرة ومارس قيادة الجيوش وشئون الدولة وشارك والده فى كثير من المهام التى أدت إلى تثبيت دولتهم وكان قد استولى على طرابلس كما رأس حملتين وجهتا إلى مصر كما سبق القول وتابع أعمال والده فى جنوب فرنسا ومنطقة جنوه وسيطر عليها لبضعة أشهر ثم تركها بعد أن حمل منها عددا هائلا من الأسرى وكان قد عرف عليهم اطلاق الأسرى المسلمين عندهم فرفضوا فأخذ أسرى جنوه مقابل أسرى المسلمين .

فى عهده زاد اتساع الثورة التى يقودها أبا اليزيد قد بلغ حد أن اسم الخليفة أبى القاسم لم يذكر فى الخطبة كما لم يصدر سكة ممهورة باسمه لابى العباسى ونجحت قواته فى تخليص سوسة كما دخل القيروان وعفا عن أهلها .

وكان الخليفة أبو القاسم قد بذل جهودا جبارة فى مقاتلة أبى اليزيد وأتباعه وجيشه .

ولقد كانت حركة أبى اليزيد بدون خطة موضوعية ولم تكن لها أهداف لتكوين دولة فما أن بلغ هذا القدر من النصر حتى وقف حائرا وأساء السيرة مع كثيرا من القبائل مما قلل الثقة فيه ووفرت الكثير من القبائل من حوله .

وكان تنظيم الدولة الشيعية الجديدة وثورة أبى اليزيد قد استنفذت جهداً كبيراً من الخليفة الشيعى الثانى فى المغرب وشغلته عن التفكير الجدى فى توسيع سلطانه واخضاع بقية المغرب العربى بأقسامه الثلاثة الاوسط والاقصى بعد بسط النفوذ الشيعى على افريقية (تونس) .

وكانت ثورة أبى اليزيد قد استغرقت أربعة عشرة عاما شغلت عصر القائم بالله نزار كله وعامين من عهد ابنه أبى العباسى اسماعيل المنصور .

## الخليفة الشيعى الفاطمى الثالث (المنصور بنصر الله أبو الطاهر اسماعيل)

## (١٣ شوال ٣٣٤– ٢٩ شوال ٣٤١هـ– ٩٤٥– ٩٥٢م)

مات الخليفة الشيعى الثانى أبى القاسم وترك عرش الخلافة لابنه أبى العباسى اسماعيل والذى حكم سبع سنوات هجرية ركز كل جهوده فيها للقضاء النهائى على ثورة أبى اليزيد الخارجى ودخل القيروان بعد بضعة أيام من ارتقائه العرش. وكان الخارجى قد تمكن من اجتياح بلاد الفاطميين وألجأ المنصور الفاطمى إلى التخفى فى المهدية وحاصره فيها، لكن دارت المعركة التى انتصر فيها وأعقبها الخليفة بتتبع الثائر وأنصاره بقتلهم أينما وجدوا والتجأ أبو اليزيد إلى جبال خضنة وظل يقاوم مع قلة من



أنصاره المخلصين حتى مات من جراء ما أصابه من جراح قاتلة فى أغسطس عام ٩٤٧م.

وكان المنصور قد انتظر فى حصنه حتى اذا ما رأى أن ذلك الثائر يتفرق عنه رجاله ويضعف فانه أرسل اليه قائده (بلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى) (أنظر الجزء الرابع من الموسوعة. الدولة الزيرية) فأقبل برجاله وتغلبوا على الثائر الذى انصرف عنه الناس ففر إلى الجبال ومازال الفاطميون يتبعونه حتى قبضوا عليه فقتلوه وتمكنوا أخيرا من القضاء على هذه الفتنة وبذلك استقرت الدولة على أسس قوية متينة وبدأت توجه جهودها نحو توسيع ملكها غربا وشرقا .

لكن على الجانب الآخر من يقول انه بانتهاء ثورة أبى اليزيد انتهت أيضا قوى الفاطميين فى المغرب فقد تزعزعت دولتهم وخاف المنصور أن يسيطر عليه الصنهاجيون أصحاب القوة فى دولته فارتد إلى الكتاميين بعد طول انصراف عنهم .

وكان الخليفة السابق أبى القاسم قد قام ببناء مدينة جديدة أسماها المحمدية [1]، وكان الخليفة الثالث قد لقب نفسه بعد الانتصار على أبى اليزيد الخارجى لقب المنصور وبنى لنفسه عاصمة جديدة حملت اسم المنصورة أو المنصورية والتى أصبحت مركزا تجاريا هاما. وكانت المحمدية والمنصورية مدينتين داخليتين غير انه لم تكن لهاتين المدينتين من الشأن أو الاثر فى سياسة الدولة وحياتها قدر ما كان للمهدية .

وكان المغرب الاقصى قد انتهز فرصة الاضطرابات التى سادت دولة الفاطميين ليعترف بسلطة بنى أمية فى الاندلس عليه بقيادة موسى بن أبى العافية كما ثارت

(١) كانت مدينة المحمدية قد بنيت عام ٣١٥هـ وهى مدينة داخلية لم يكن لها شأن أو أثر فى سياسة الدولة أو حياتها قدر ما كان للمهدية العاصمة، فقد كانت المهدية مركزا حصينا يعتمد على البحر، وكانت المنصورية أو المنصورة التى بناها المنصور هذا مثل المحمدية .

تاهرت عاصمة بنى رستم لكن المنصور استطاع أن يحرز الانتصارات الرائعة على هذه المدينة وأن يقضى على الثورات وأن يعيد اليها الهدوء .

لكن قبائل زناتة استطاعت أن تنسحب إلى المغرب الاوسط بالقرب من المغرب الاقصى وتقيم لها حكومة مستقلة بجوار تلمسان تحت قيادة زعيمها محمد الكبير فأرسل المنصور قوات كبيرة نجحت فى سحقها فهاجر الثائرون إلى المغرب الاقصى وتحصنوا فيه حيث كان «حميد بن بعيل» يحكم باسم خلفاء قرطبة الامر الذى كاد أن يجعل حكم الفاطميين يكون محصورا فى الشرق فتقدم المنصور إلى المغرب وأقام حاكما جديدا فى تاهرت ينصره احدى أبناء صنهاجة هو «زيرى بن سناد» كما قضى على ثوار المغرب الأقصى وأعاد الهدوء اليه وبذلك امتد الحكم الفاطمى من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب وان كان قد اضطر من أجل ذلك إلى قبول مبدأ يتنافى مع المذهب الشيعى .

## الخليفة الفاطمى الرابع (المعز لدين الله أبو تميم سعد)

## (ذى القعدة ٣٤١– ربيع الاخر ٣٦٢هـ–

## ٩٥٢– ٩٧٢م)

حكم الخليفة الفاطمى الرابع والاخير فى المغرب أكثر من عشرين عاما هجريا. اذ انه عندما توفى الخليفة المنصور جاء بعده ابنه المعز لدين الله فانه رأى أن باب الخلاص من أزمات المغرب هو التفكير فى غزو مصر والتى كان جده الاكبر المهدى قد وضع أساس بناء الدولة الفاطمية بالاستيلاء على مصر ثم مزاحمة الدولة العباسية فى المشرق للسيطرة على مقاليد الامور فى بغداد .



لكن المعز لدين الله لما ولى عرش الخلافة استمال اليه بالسياسة والاحسان بقية الثائرين من قبائل البربر ففى عام ٣٤٧هـ أعد جيشا عظيما جعل قيادته لرجلين هما وزيره جوهر الصقلى وزيرى بن مناد الصنهاجى. وأمرهما بالمسير إلى المغرب الاقصى. وسار الجيش إلى أن وصل إلى فاس فاستعصت عليه قليلا فتركها إلى سجلماسة وكان يحكمها محمد بن واسول. وكان قد لقب نفسه بالشاكر لله وخوطب بأمير المؤمنين وضرب السكة باسمه مدة ستة عشر عاما فلما سمع بقدوم قوات الخليفة الفاطمى اليه فر من المدينة لكنه أسر وحمل إلى القائد الفاطمى بعد أن استولى على المدينة .

ومن الثابت أن الدولة الفاطمية التى بلغت ذلك المبلغ من القوة فى عهد خليفتها المعز لدين الله كانت لها أطماع جدية فى الاندلس يحدوها إلى ذلك دافع الاختلاف المذهبى الذى يكفى لان يكون السبب الرئيسى للقضاء على الحكم الاموى فيها. واقترنت مطامع الخليفة الفاطمى بخطوة عملية فى هذا الاطار عندما قام أحد أعوانه بمهمة خاصة فى الاندلس وهو الجغرافى المعروف (ابن حوقل) منتحلا شخصية تاجر ليدرس ظروف البلاد ومدى قوتها العسكرية ويبدو أن تحويل امارة الاندلس إلى خلافة وتسميةعبد الرحمن نفسه بأمير المؤمنين كان من الاسباب التى أثارت الخليفة الفاطمى المعز لدين الله ودفعته إلى محاولة التخلص من خصم سياسى ومذهبى مجاور ينافسه فى اللقب الذى يعتبره الفاطميون أحد مكتسباتهم الشرعية التى أجازتها لهم تلك الصلة السلالية مع الرسول ﷺ .

ولاشك أن الظروف كان لها دورها فى حسم هذا الصراع بان الخليفتين الفاطمى والاموى وانقاذ الاندلس من غزو مرتقب على يد الدولة الفاطمية النامية فى المغرب فهذه الاخيرة لم يكن الامويون وحدهم خصومها فى الاسلام بل كانت لها خصومة أخرى لاتقل ضراوة متمثلة فى الخلافة العباسية التى كانت علاقات الشيعة

معها تمتاز بنفس المرارة والبغضاء ولقد كانت هذه الاخيرة الهدف الرئيسى لنضال الدعوة الفاطمية الرامية إلى تزعم العالم الاسلامى بعد تحويله إلى المذهب الشيعى وكان الزمن فى صالح الفاطميين بعد سلسلة من الازمات السياسية التى عصفت بخلافة بغداد وكانت مصر التى خرجت عمليا من قبضة العباسيين تجتذب اهتمام الخليفة الفاطمى لتكون مركز دولته الفاطمية فكانت الانظار تتجه كليا نحو الشرق حيث سقطت مصر فى يد جوهر الصقلى كبير قواد المعز لدين الله الفاطمى .

وهكذا نرى كيف أن الدولة الفاطمية قضت فى المغرب أكثر من نصف قرن وتولى الحكم فى هذه الفترة أربعة من خلفائها وقد بذل هؤلاء الخلفاء جهودا كثيرة للتمكين للدولة وتقويتها بالعناصر المقيمة بها .

وكان الغرض الاساسى الذى سعى العلويون دائما لتحقيقه هو تكوين خلافة جديدة تقضى على الخلافة العباسية السنية وترثها فى ملك العالم الاسلامى وقد رأينا فى هذا الغرض كيف نجح الفاطميون فى تحقيق الشطر الاول من غرضهم فأقاموا دولتهم فى المغرب ولكنهم لم ينسوا بعد نجاحهم الشطر الثانى والاهم وهو القضاء وفى الدولة العباسية ومصر هى أول جزء من أملاك العباسيين يجاور الدولة الفاطمية من ناحية الشرق وقد اتجه هم الفاطميين منذ اللحظة الاولى لقيام دولتهم فى المغرب إلى عدم الاستقرار فيه لاسيما وانهم كانوا يعتمدون على قبيلة واحدة هى كتامة وهى وان انضمت اليها صنهاجة بعد ذلك رغبة فى مشاركة كتامة ماحصلت عليه من قوة الا انهما معا كانا أضعف من أن يصدا عن الدولة خطر القبائل البربرية الاخرى .

وقد رأينا فى العرض السابق الادوار التى قامت بها هذه القبائل وما أخذت من جهد الخلفاء قدرا كبيرا ومنعتها لان مد سلطانها إلى بقية المغرب الا بعد جهد كبير ومن هنا كان التفكير فى غزو مصر لان مصر أقرب إلى الحجاز من المغرب والقابض



على الحجاز مركز الحرمين الشريفين هو القابض على قلوب المسلمين .

فكان فتح مصر فى شعبان عام ٣٥٨هـ. وفى رمضان عام ٣٦٢هـ دخل المعز لدين الله الفاطمى القاهرة .

# الباب الرابع

## الانجازات الفاطمية فى المغرب فى عهد الخلفاء الاربعة

حكمت الخلافة الفاطمية بلاد المغرب فترة حكم الخلفاء الأربعة ما يقرب من خمس وستين عاما هجريا أو نحو ستين عاما ميلاديا فقد حكموا بلادا واسعة الاطراف تمتد من طرابلس فى ليبيا شرقا إلى منتصف المغرب الاوسط ولم تخرج عن سلطانهم الا منطقة تلمسان. وانطوأت تحت الشيعة قبائل مغربية عديدة وكانت قاعدة مالكهم مدينة المهدية فى أفريقية وهى قاعدة حضارية منذ فتحها عقبة بن نافع فى الفتح الاول. وكان سلطان الفاطميين فى المغرب واسعا وعريضا وكانوا يستطيعون أن يجعلوا أهلها يعيشون فى بحبوحة (سعة) من العيش. ولكنهم لم يعمروا من البلاد الا مدينة المهدية. وكانت قاعدة خاصة لهم. أما. القيروان وتونس وسوسة والحمامات والمتنزه وغيرها من المدن فلم يخلف الفاطميون فيها أثرا بل لم ينشؤا مسجدا باقيا لهم دون مسجد المهدية.

وكانت سياستهم تقوم على جمع المال بكل الطرق والوسائل. وكانت افريقية بالنسبة لهم مستقرا مؤقتا ومصدر ثروة وعندما غادروا المغرب إلى مصر خف حماسهم لمذهبهم الشيعى .

والشئ الوحيد الذى يمكن أن يذكر للفاطميين فى المغرب هو نشاطهم البحر فقد كانت أساطيلهم تسيطر على مياه البحر المتوسط .

### الفاطميون والبحرية

ولذا لم يكن الفاطميون منذ سيطرتهم على بلاد المغرب أقل اهتماما بشئون البحر من الدول التى بسطوا سلطانهم عليها؛ خاصة الأغالبة بل انهم فاقوا الاغالبة فى



الاهتمام بالاسطول. وذلك تدعيما لنفوذهم وتمكينا له فى بلاد المغرب وفى جزر البحر المتوسط الغربى .

ولقد كان انشاء المهدية كعاصمة لهم أثر عظيم فى تدعيم أسطول افريقية فقد كانت دار صناعة للسفن أكثر من دار الصناعة بتونس وكان المهدى حريصا على انشاء أسطول ضخم مزود بالرجال والعتاد .

فقد نجح المهدى فى ضم صقلية عام ٣٠٤هـ. كما أن المهدى سير السفن إلى مصر لنجدة ابنه القائم لفتحها ولكن هزم الاسطول الفاطمى وجاءت هذه الهزيمة حافزا للمهدى على زيادة العناية بالاسطول .

لكن بعد الهزيمة بأربع سنوات استعادت الاساطيل الفاطمية هيبتها ومن ذلك تحرك الاسطول للغزو فى البحر عام ٣١١هـ. ثم غزو جزيرة جربة ثم تطلع المهدى بعد ذلك إلى غزو ايطاليا فى صقلية فتم غزو اقليم قلورية والاستيلاء على مدينة «اغماش» وفى عام ٣١٣ تم غزو جنوب ايطاليا من صقلية وتم فتح مدينة «سدارى» وفى عام ٣١٥هـ تم غزو بعض السواحل الايطالية .

ولقد عكف الفاطميون على العناية بالاسطول وزيادته حتى لقد أصبحت المهدية من أهم الموانئ الحربية فى حوض البحر الابيض كما غزا الفاطميون سردانية عام ٣٣٣هـ وجنوه ومرسيليا فى جنوب فرنسا وأرسلوا حملة بقيادة سالم بن راشد عبرت مضيق مسينة وثبت سيادتهم فى جنوب ايطاليا وأرغمت الاهليين على دفع الجزية وقد فاقت الاساطيل الفاطمية غيرها من الاساطيل الاسلامية فى عنف هجومها وجرأتها .

وكان يتم الغزو المتواصل لجنوب ايطاليا باستمرار بل يكاد يكون سنويا، ويبدو أن هذا الغزو المتواصل الذى قام به الفاطميون من قواعدهم فى صقلية وأفريقية كان سببا

فى عودة ظهور القوة البحرية البيزنطية فى البحر التيرانى لمواجهة الغزو الفاطمى. لكن الفاطميين زادوا من قوة أساطيلهم فأرسل القائم بالله بن المهدى فى عام ٣٢٣هـ أسطولا كبيرا لتدعيم النفوذ الفاطمى فى مياه البحر التيرانى واستطاع هذا الاسطول ان يهاجم مدينة جنوة ويقتحمها وهاجم جزيرة سردانية ثم كورسيكا وأحرق كثيرا من السفن الراسية بها .

وما أن فرغ الفاطميون من اخماد ثورة «أبو اليزيد الخارجى» حتى عادوا من جديد إلى مهاجمة سواحل ايطاليا فخرج أسطول من صقلية هاجم بلاد قلورية ومدينة بارة وجراجة وقلعة قسانة الا أن الخليفة المنصور الثالث الفاطمى أرسل إلى حاكم صقلية يأمره بالعودة إلى قلورية فامتثل لامر الخليفة وعبر المجاز إلى «ريو» ثم إلى «جراجة» واشتبك المسلمون مع البيزنطيين فى ٩ ذى الحجة عام ٣٤٠هـ فانهزم الاسطول البيزنطى هزيمة نكراء وأكثر المسلمون فيهم القتل وغنموا غنائم هائلة وقتل البطريق وحاكم الاقليم وهكذا عجز البيزنطيون عن مواجهة المسلمين واضطر الامبراطور البيزنطى قسطنطين السابع إلى طلب الهدنة فهادنه المسلمون وعاد الحسن الكلبى حاكم صقلية إلى ريو وبنى بها مسجدا جامعا .

لكن التقارب السياسى بين بنى أمية فى الاندلس والبيزنطيين بسبب عدائهما المشترك للدولة الفاطمية قضى على السلام ومن ثم استأنف الفاطميون غزوهم لسواحل ايطالية وفى نفس الوقت هاجموا أسطول الاندلس فى مدينة المرية وأحرقوا جميع مافيها من السفن .

**الفاطميون وصقلية :**

لجأ إلى جزيرة صقلية كثيرا من المسلمين من أهل السنة من البلاط الاغلبى بعد خضوع افريقية للشيعة وفى صقلية انحاز إلى الدعوة الفاطمية وآل سابق على الجزيرة



كان قد عزل وهو على بن أحمد بن أبى الفوارس وتزعم الفتنة المناصرة للفاطميين وتغلب على بقايا الاغالبة وأقر المهدى عبيد الله الفاطمى على بن أحمد واليا على الجزيرة الا انه عزل وولى الفاطميون أحد رجالهم وهو أكثر اخلاصا وهو الحسن بن أحمد المعروف بابن أبى خنزير وبذلك توطد الحكم الفاطمى فى صقلية عمليا ونظريا الا انه قامت ثورة على الوالى الجديد لاسباب طائفية (شيعة وسنة) وأصدر المهدى قرارا بالعفو عن الثائرين ووافق على عزل ابن أبى خنزير وتولية على بن عمر البلوى .

لكن سادت عدة ثورات بالجزيمة استغرقت فترة مما اضطر المهدى أن يرسل جماعة من شيوخ قبيلة كتامة الذين يرجع اليهم الفضل فى تولى الفاطميين الحكم والذين كانوا يشكلون العمود الفقرى للجيش وتمكن هؤلاء البربر ومعهم الوالى الجديد «أبو سعيد موسى بن أحمد السقيف» من دخول العاصمة بلرم عام ٩١٧م. وألقى القبض على زعماء الثورة وأرسلوا إلى المهدية عاصمة الفاطميين حيث أعلن العفو عنهم. ومن ثم توطد النفوذ الفاطمى فى الجزيرة ولما فرغ أبو سعيد من مهمته التى أرسله المهدى من أجلها ترك الجزيرة وعاد إلى افريقية وولى بدلا منه سالم ابن راشد الذى حكم الجزيرة عشرين عاما (٩١٧– ٩٣٧م) وفى تلك الفترة توفى الخليفة المهدى عام ٦٣٤هـ وخلفه ابنه أبو القاسم محمد القائم (٦٣٤– ٩٤٦م) .

وكانت سياسة الفاطميين تقوم على استغلال الظروف وعلى التسامح وقد استمرت الدعوة الشيعية الاسماعيلية ولكن بكياسة كبيرة وتركت معظم المدن المسيحية وشأنها ومن الناحية الادارية أنشئ ديوانات أحدهما يتناول شئون الحرب والامن والنظام ويتناول الثانى بقية مجالات الادارة والسلطة الداخلية وكان هناك صاحب شرطة وزعيم محلى لبربر كتامة فى صقلية .

واستمرت الجزيزة تعيش بعض الثورات التى كان يشق فيها عصا الطاعة بعض

الثائرين لكن بعد الانتصار النهائى للفاطميين فى افريقية على أبى اليزيد الخارجى استعمل الخليفة الجديد المنصور بالله (والذى حكم ٩٤٦– ٩٥٤م) سبع سنوات القوة والشدة وولى الحسن بن على بن الحسن الكبلى .

وكانت الجماعات الاسلامية فى الجزيرة تفتقر إلى وحدة الكلمة وذلك ساعد على بقاء بعض المسيحيين فى الجزيرة، ويقارن مسلمو الجزيرة بالمولدين فى الاندلس فى كثرتهم ودخولهم الاسلام طوعا وحيا فى لا اله الا الله محمد رسول الله وكانت السيادة للنخبة العربية .

ولعل الولاة الكلبيين الذين كانوا على ولائهم للسيادة الفاطمية شيعة ظاهرين وكذلك بالنسبة لبعض الحكام الذين كانوا يتظاهرون باعتناق المذهب الشيعى الاسماعيلى. الا أن المذهب الشيعى قد تسرب إلى بعض العامة، وليس هناك دليل على وجود كتب فقيهة شيعية اسماعيلية ألفت فى الجزيرة وهذا يدل على أن صقلية فى عهد الكلبيين حكام الفاطميين حظيت بتسامح دينى فيما يتعلق بالمذاهب الاسلامية .

وكان عدد المساجد ببلرم العاصمة يزيد عن عددها فى أية مدينة أخرى وكان الناس يتباهون بأن لهم مساجد خاصة بعائلاتهم ومواليهم وكان سكان بلرم (بالرمو) من مختلف الاجناس كالعرب والبربر والسودان والصقلية والفرس والترك واليهود والايطاليين.

ولقد قام الكلبيون بدور كبير فى فتح جميع أجزاء صقلية وعملوا على الاستقلال بحكم الجزيرة ونشر الاسلام فيها ومقاومة البيزنطيين فى البحر الابيض المتوسط لمدة قرن من الزمان تقريبا حتى استولى على الجزيرة روجار النورماندى .

ويلاحظ أن أسماء الاماكن العربية الاسلامية والمزارع قد بقيت إلى يومنا هذا



تشير إلى تمكن الاسلام والعروبة فى الجزيرة وكانت صقلية احدى المراكز التى انتقلت منها الحضارة الاسلامية إلى أوربا وكانت المساجد مراكز للنشاط الفكرى والعلمى وكانت صقلية ملجأ أميناً يلجأ اليه العلماء المضطهدون فى المغرب وكان علماء صقلية يرحلون أيام الاضطربات إلى المغرب ومصر. بل انهم كانوا يرحلون إلى جهات أبعد شرقا طلبا للعلم أو لتأدية فريضة الحج. وان حركة العلماء هذه من صقلية واليها أبقت على الجزيرة فى المجرى الرئيسى لحركة العلوم الاسلامية وقد استفادت صقلية فى القرنين الرابع والخامس للهجرة على وجه الخصوص من التيارات الفكرية الاسلامية التى نمت فى القيروان لاسيما أيام حكم الاغالبة .

ولقد كان من الطبيعى أن تمارس صقلية العربية الاسلامية دورها الحضارى والثقافى والتعليمى لابناء أوربا وذلك لكونها قريبة من أوربا بالاضافة إلى انتشار اللغة العربية على نطاق واسع بين السكان والذين كانوا يتخاطبون بها .

فقد اشتهر فى صقلية العديد من العلماء ورجال الدين والفقه والحضارة والتاريخ والطب والهندسة والجغرافية بعد أن ازدهرت هذه العلوم بها بل اشتهر علم الكيمياء بها وكان يمارس تدريسه على نطاق واسع لاسيما فى تحويل المعادن .

ان الفاطميين الذين سلموا صقلية بعد أن آلت من حكم الاغالبة إلى الكلبيين الذين حكموها أكثر من تسعين عاما قد أدت دورا حضاريا لايقل عن الدور الذى لعبته الاندلس فى الحضارة الاوربية والذى استفاد منه النورمان الذين أسقطوا الحكم العربى الاسلامى الكيلى من الجزيرة وبذلك نرى أن انجاز الفاطميين فى المجال البحرى قد ساعد على توطيد النفوذ الفاطمى ولاسميا أثناء حكم الكلبيين .

وكان الانجاز الكبير بالاضافة إلى الانجاز البحرى وحكم صقلية هو فتح مصر واقامة خلافة فاطمية اسماعيلية شيعية على الترب المصرى .

## الفتح الفاطمى الشيعى لمصر :

تحدثنا سابقا عن المحاولات التى قام بها الخليفة الشيعى الاول المهدى لفتح مصر والمحاولات التى قام بها سلفه من الخلفاء حتى جاء الخليفة الرابع والاخير فى المغرب وهو المعز لدين الله. وكانت عينه على مصر يرقب ما يجرى بها وماهى الامور التى آلت اليها الاحوال بها .

وكان دعاة الشيعة الاسماعيلية ينتشرون فى ربوعها الواسعة ينشرون الدعوة الشيعية ويمهدون الطريق لقدوم المعز لدين الله فاتحا وكان هو نفسه يعد العدة للغزو المرتقب .

وبولايته بدأ فصل جديد فى حكم الجزيرة هو حكم أسرة الكلبيين؛ اذ أدت ولاية الحسن بن على الكلبى على جزيرة صقلية إلى تأسيس أسرة شبه مستقلة من أمراء الكلبيين حكمت الجزيرة أكثر من تسعين عاما وقد ظلت مقاطعة قلورية فى جنوب ايطاليا عرضة للغزو الاسلامى البحرى وكان توطيد حكم أسرة الكلبية تحت السيادة الفاطمية دافعا لتكرار الغزو والفتح الا انها كانت غزوات كر و فر لاسيما فى ايطاليا وجنوب فرنسا .

ولم يحدث تغير كبير على الخريطة السكانية لصقلية فى حكم الفاطميين للجزيرة وكانت كثافة السكان المسلمين ما زالت فى اقليم مآزر بدون زيادة وكان الوافدون المسلمون الجدد إلى الجزيرة من الصناع والجند والنازحين وقد ضم سكان الجزيرة الاحرار والتابعين والاقطاعيين والرقيق وكان الجزء الشرقى من الجزيرة يضم أغلبية مسيحية خصوصا أقليم «دمنش» ومما يذكر أن جوهرا قائد الفاطميين الشهير الذى وسع رقعة سلطان الفاطميين غربا فى المغرب وشرقا فى مصر كان من أصل صقلى بيزنطى لكنه أسلم وحسن أسلامه .



وقد شغل المسلمون الصقليون مناصب سامية فى الادارة الفاطمية فى افريقية ومن بينهم أبو الفتح حاكم مدينة طرابلس وكان أحد قواد الجيش واسمه بشرى وهو القائد الفاطمى ضد الثائر أبى اليزيد الخارجى وبعد أن أسس أسرة الكلبى عرشهم فى صقلية فان الوضع استقر بها وتم غزو البر الايطالى مرتين فى عامى ٩٥٠، ٩٥٢م. وعند وفاة الخليفة الشيعى الثالث فى المغرب المنصور وتولى ابنه المعز لدين الله العرش (٩٥٣م) توجه الحسن الكلبى إلى المهدية العاصمة للمثول فى البلاط الفاطمى تاركا ولاية صقلية فى أيدى ابنه أحمد بن الحسن . وفى عام ٣٤٤هـ/ ٩٥٦م سير المعز الفاطمى الحسن بن على الكلبى إلى الاندلس لقيادة الاسطول الفاطمى والذى أحرق الاسطول الاندلسى فى المرية .

وفى عام ٩٦٩م لم يكن فى نية الفاطميين تنصب الاسرة الكلبية كأسرة دائمة حاكمة بالوراثة لصقلية وكان الخليفة المعز لدين قد استدعى إلى افريقية جمع كبير من أفراد الاسرة الكلبية ومواليهم وأتباعهم وحاشيتهم وعهد بالولاية إلى (يعيش مونى الحسن بن على) لكن المعز اضطر إلى استدعاء يعيش وارسال أبى القاسم على بن الحسن الكلبى نائبا عن أخيه أحمد. وبذلك اعترف الفاطميون ضمنا بحكم الكلبيين للجزيرة الوراثى .

وفى عام ٣٦١هـ/ ٩٧٢م نقل المعز لدين العاصمة الفاطمية من المهدية إلى القاهرة وكان معنى ذلك أن الكلبيين فى صقلية حظوا بمزيد من الاستقلال، فالوالى الزيرى (أنظر الجزء الرابع من الموسوعة) حاكم افريقية باسم الخليفة الفاطمى لم يمنح سلطة على صقلية وكان رضا السكان المسلمين فى صقلية من عوامل تدعيم عرشهم الوراثى والهدوء النسبى فى الجزيرة والتوسع فى انشاء المدن الاسلامية وحاجة الفاطميين إلى جماعة وفية لهم فى صقلية يستفيدون منها فى خططها البحرية

والكلبيون ظلوا على ولائهم التام للفاطميين .

وخلال فترة حكم الكلبيين استمر النشاط البحرى والعسكرى الاسلامى من صقلية وغيرها ضد جنوب ايطاليا وكان معظم سكان صقلية من المسلمين فيما عدا اقليم دمنش وكانت سياسة الكلبيين زيادة عدد المدن الاسلامية فى اقليم دمنش ونطش اللذين كانت بها نسبة مسلمة قليلة العدد وزاد اعتناق السكان للدين الاسلامى بالاضافة إلى هجرة المسلمين من بلاد المغرب العربى وقد حدثت هجرة كبيرة إلى صقلية عام ١٠٠٤هـ وتلت ذلك هجرات كبيرة كما حدثت هجرة من جانب الشيعة الاسماعيلية الذين اضطرهم الامير الزيرى المعز بن باديس إلى الفرار وكان عدد سكان المسلمين فى صقلية يزيد عن مليون نسمة فى ذلك الوقت .

وكان المذهب المالكى هو مذهب معظم سكان صقلية من المسلمين، وان كان المقدسى يذكر أنه يوجد أكثرية على المذهب الحنفى مذهب الخلافة العباسية لكن انتشر المذهب الشيعى فى الجزيرة ولكن لم تكن له الغلبة والسيادة على المذاهب الاخرى اذ كان أكثر السكان على المذهب المالكى .

وكان غزو مصر والانتقال اليها هو الهدف الاساسى للخليفة الفاطمى الرابع فى المغرب وهو أبو تميم والملقب بالمعز لدين الله الذى تولى الخلافة شابا فى ذى القعدة عام ٣٤١هـ/ ٩٥٣م. ولقد كان المعز لدين الله أقدر الفاطميين وأبعدهم نظرا بعد أن رأى انه من المستحيل العيش فى المغرب بعد أن نفر الناس فى افريقية منهم واعتبروا الشيعة زنادقة. ثم أن محاولات السيطرة على المغرب الاوسط والاقصى لم تكن تؤدى إلى نتيجة، ذلك لان المغرب الاقصى كان أيام الامويين أصحاب الاندلس فى ظل حكم المنصر الذى خلف أباه عبد الرحمن الناصر لدين الله ٣٥٠/ ٩٦١م كانت لهم السيادة عليه وكان سكانه يرون أن الفاطميين خارجون عن الاسلام وحربهم جهاد



مقدس فكدس الجانب الكثير من قواته لحربهم فى المغرب وتمكن من طردهم من المغرب الاقصى والقضاء على أنصارهم فيه وفشل المذهب الشيعى فى أن يجد له مكان فى المغربين الاوسط والاقصى .

وكان المعز يعد العدوة لغزو مصر فجمع كل ما استطاع من مال حتى يقال انه صرف على إعداد الجيش أربعة وعشرين مليونا من الدنانير عدا ما حمله ألف حمل من صناديق الذهب للصرف منها على الحملة وحشد للجيش كل ما استطاع حشده من جنده حتى انه كان يزيد عن مائة ألف جندى وقد وصفه أحد المصريين عند رؤيته بأنه مثل جمع عرفات كثيرة وعدة .

ومن حسن حظ المعز لدين الله انه كان يخدمه شاب ذكى من خيرة صقالية الفاطميين هو جوهر الصقلى فقد كان قائدا ماهرا وجنديا مخلصا ورجلا صاحب سياسة ونظر وتدبر وبعد أن غزا المغرب كله إلى المحيط الاطلسى ودخل فاس عاصمة الادارسة مرة أخرى وضرب سجلماسة عاد ليبلغ سيده ألا أمل فى بقاء الفاطميين فى المغرب وان الامل الوحيد الباقى هو الاستيلاء على مصر .

ومن هنا كان اختيار المعز لدين الله لقيادة جيشه الذاهب إلى مصر قائده القدير (جوهر الصقلى) الذى مهد له ملك المغرب كله فقد كان يتفاءل به ويؤمن بقدرته الحربية حتى لقد قال مرة لزعماء المغرب (والله لو خرج جوهر هذا وحده لفتح مصر) ولم يكن من العسير على جوهر الاستيلاء على مصر. فقد وضع جوهر تحت تصرفه كل مالدى الفاطميين والكتاميين وكل ما حصلت عليه يداه من قوة ومال .

وكانت ظروف مصر الداخلية تؤهله للقيام بهذا العمل الحربى الذى سوف يحقق نجاحا باهرا فقد مات كافور الاخشيدى عام ٣٥٧هـ. فانهارت المقاومة وكثر الاضطراب وتعددت الفتن وكانت حروب كثيرة بين الجند والامراء قتل فيها خلق كثير وانتهيت

الاسواق وأحرقت مواقع كثيرة فاشتد خوف الناس وضاعت أموالهم وارتفعت الاسعار وتعذر وجود الاقوات واختلف العسكر فلحق الكثير منهم بالحسن بن عبد الله بن طغج وهو فى الرملة خارج حدود مصر، وكاتب الكثير منهم المعز لدين الله الفاطمى وتناقل الناس قدوم القرامطة إلى مصر وتواترت الاخبار بمجئ عساكر المعز من المغرب .

وانبعثت الخلافات بين الوزراء ووصل المغرب «يعقوب بن كلس» الذى كان وزيرا فى مصر يستحث المعز لفتح مصر بعد أن طرده عدوه ابن الفرات ومن ثم ركز المعز جهده فى الاسراع بالحملة لان مصر كانت حلم الفاطميين منذ اللحظة الاولى التى أقاموا فيها ملكهم فى المغرب .

وقد ساعده على الاسراع بالحملة أمور كثيرة منها ضعف الخلافة العباسية صاحبة السيادة على مصر وضعف الدولة الاخشيدية صاحبة السلطان الفعلى فى البلاد.

أما الخلافة العباسية فقد بدأت عوامل الضعف تتسلل إلى كيانها العباسى بعد أن انتقل الملك والدولة من آل العباس إلى آل بوية والذى بقى فى أيدى الدولة العباسية انما هو أمر دينى اعتقادى لا ملكى دنيوى كما ذكر ذلك البيرونى .

وخرج جيش جوهر الصقلى من المهدية فى اليوم الرابع عشر من شهر ربيع الثانى ٣٥٨هـ. فبراير ٩٦٩م وسار فى نفس الطريق الذى سلكه فيما بعد القائد الالمانى روميل (قائد معركة العلمين فى الحرب العالمية الثانية «١٩٣٩- ١٩٤٥م») ولكنه كان يعلم مبلغ ما يعانيه الجيش من صعاب وعقبات عند عبوره هذه الصحراء الممتدة الجدباء. ولهذا فقد عبر الطرق وحفر الآبار وبنى المنازل للاستراحة على طول الطريق من تونس إلى مصر .



ولم يكد شهر رجب ٣٥٨هـ. يهل حتى سقطت الاسكندرية ودخلها جوهر دون قتال، كما وصلت الاخبار بمقدمه إلى الفسطاط واضطرب أهلها وتملكهم الذعر واتفقوا مع الوزير جعفر بن الفرات أن يرسل فى طلب الصلح والامان، فكون الوزير وفدا من أعيان البلد وجعل على رأسه الشريف أبا جعفر بن مسلم بن عبد الله وسار الوفد حتى قابل جوهر وكان فى طريقه من الاسكندرية إلى الفسطاط فقبل دعوتهم وكتب لهم أمانا وعاد الوفد إلى الفسطاط فقرأوا العهد والامان على الوزير والجند وعلم به الناس أما العامة فقد رضيت به وأما الجند فقد انقسموا على أنفسهم وأصر الاخشيدية والكافورية على القتال وعبروا إلى الجيزة وتحصنوا بها غير انهم لم يكونوا على شئ من القوة كما كانت تنقصهم الوحدة والقيادة الحكيمة فهزموا وولوا الادبار مع أول بادرة قتال .

وخرج الوزير جعفر بن الفرات ومعه الاشراف ووجوه البلد يوم الثلاثاء السابع عشر من شعبان ٣٥٨هـ لمقابلة جوهر ودخل جوهر الفسطاط على رأس جيشه والشريف أبو جعفر عن يمينه والوزير ابن الفرات عن شماله وشق المدينة ونزل فى مناخة الذى هو موقع القاهرة الآن واستقر الحكم الفاطمى فى البلاد .

وتم تخطيط القاهرة بعد الفتح الفاطمى بعام وفى يوم السبت ٢٣ جمادة الآخر ٣٥٩هـ/ ٥ مايو ٩٧٠م بدأ جوهر عمارة الجامع الأزهر فى الجانب الشرقى من القصر الكبيرة ثم بناءه بعد عامين ففتح للصلاة لاول مرة فى شهر رمضان عام ٣٦٢هـ/ ٩٧٢م وظل جوهر يحكم مصر ويمهد الفتوح فى الاقاليم المجاورة نحو أربع سنوات ولما تم له اخضاع مصر والشام والحجاز وبعد أن أكمل تأسيس القاهرة وبناء القصر والمسجد الجامع أرسل للمعز يستدعيه إلى مصر .

وخرج المعز لدين الله من المنصورية (احدى المدن الفاطمية) يوم الاثنين ٨ شوال

٣٦١هـ وفى شعبان ٣٦٢هـ/ ٩٧٣م دخل الاسكندرية ولأول دخوله اياها أعلن فى بيان أذاعه على الشعب تخليه وتخلى دولته عن فرض المذهب الشيعى الاسماعيلى على أهل مصر. وفى يوم الثلاثاء الخامس من شهر رمضان ٣٦٢هـ وصل إلى القاهرة ولما دخل القصر خر ساجدا لله تعالى ثم صلى ركعتين .

وأحسن معاملة الناس ومناهم الخير الكثير والعدل الشامل فأطاعوا له . وبذلك بدأ فى تاريخ مصر عصر جديد هو العصر الفاطمى وأصبحت الخلافة الفاطمية خلافة مصرية أكثر مما هى مغربية وأصبح هدفها موجها إلى المزيد من الاستقرار فى مصر والشرق الاسلامى .

واستطاعت الدولة الفاطمية أن تحكم مصر ولما تم لها ذلك اضطر الفاطميون أن يقللوا من غلوائهم بعض الشئ ليضمنوا ولاء الناس لهم وليستطيعوا أن ينالوا لونا من الاستقرار ولكن ليس معنى هذا اختفاء المذهب الاسماعيلى فى عهد الفاطميين ولكن حد قربه من الاعتدال وتجاوزه عن الضلالات الصارخة التى قال بها أكثر الاسماعيلية.

وبذلك طويت صفحة الخلافة الفاطمية الشيعية فى المغرب وهذا ما قصدنا اليه من تلك الدراسة عن ظهور دولة الفاطميين فى المغرب العربى وما تلا ذلك من أحداث حتى ظهور دولة المرابطين على مسرح الاحداث فى بلاد المغرب العربى .



## الخلفاء الفاطميون الذين حكموا المغرب

المهدى أبو محمد عبيد الله

٤ ربيع الآخر ٢٩٧- ١٤ ربيع الاول ٣٢٢هـ

قائم بأمر الله أبو القاسم نزار

١٤ ربيع الاول ٣٢٢- ١٤ شوال ٣٣٤هـ

المنصور بالله أبو الطاهر اسماعيل

١٣ شوال ٣٣٤- ٢٩ شوال ٣٤١هـ

المعز لدين اللهأبو تميم معد

أول ذى القعدة ٣٤١- رمضان ٣٦٢هـ

دخل القاهرة فى رمضان ٣٦٢هـ. وبذلك انتهى حكمه فى بلاد المغرب من هذا التاريخ .

# الجزء الثانى

# خلافة المرابطين فى المغرب والاندلس



## الباب الخامس

## ظهور المرابطين

**قبائل صنهاجة الصحراء :**

المرابطون أو الملثمون قوم صحراويون من قبائل صنهاجة الثام خرجوا من صحراء موريتانيا برسالة دينية سامية تقوم على جهاد المارقين عن الدين الحنيف من قبائل براغوطة وغمارة فى بلاد المغرب شمالا .

وهم من صنهاجة الجنوب الضاربة فى الصحراء الغربية– صحراء شنقيط أو مايسمى اليوم بموريتانيا فى هذه الصحراء الشاسعة التى تشبه فى مجموعها البلاد «الحجازية أرضا وماشية ونباتا والتى تحدها من الجنوب بلاد السودان حيث مملكة غانا الكبيرة وفى الغرب المحيط الاطلسى وفى الشرق نهر النيجر» عندما يتجه شمالا إلى جهة تمبكتو وفى الشمال منطقة سجلماسة التى يقال لها اليوم «تافيلات» وفى هذه الصحراء كانت تعيش قبال صنهاجة اللثام البربرية ومن أشهرها قبيلة لمتونة فى شمال الصحراء وتليها جنوبا مسوفة ثم جدالة وهذه القبائل الصنهاجية كانت امتداداً لقبائل صنهاجة التى كانت فى الشمال والتى تكونت منها الدولة الزيرية الصنهاجية فى المغربين الادنى والاوسط .

ويلاحظ أنه قبل الفتح المرابطى للمغرب كانت قبائل غمارة تحتل الجزء الغربى الخصيب من الجبال التى عرفت باسمها وجاورتهم فيها صنهاجة البتر وامتدت ديارهم إلى شواطئ المحيط متصلة إلى مشارق جبل درن ثم بسائط تامسنا بين سلا واسفى وهى ديار براغوطة وتمتد منازل لمطة إلى الصحراء مجاورين لصنهاجة الصحراء مشتغلين

بالرعى وأقامت صنهاجة الجبل فى المنطقة الجبلية بين تازا وتادلا ومدن فازاز وبعض صنهاجة الجبل ظواعن فى دون إلى درعة وبعضهم فى نواحى مكناسة إلى وادى أم ربيع حيث يتصلون بدكالة التى لم تزل بين أم ربيع وتانسفيت وفى المنطقة الجبلية جاورت «هسكورة» .

وأما صنهاجة الصحراء فقد انتشرت بين العرق «أطلس الصحراء» وبلاد السودان فهم رعاة أبل بحكم بيئتهم حتى أن المرابطين لما فتحوا البلاد الغربية اختاروا مراكش عاصمة لهم لان موقعها مسرح خصيب لجمالهم .

وكان للفتح المرابطى تأثير كبير على مواطن القبائل ومركزها فاستقرت صنهاجة الصحراء فى سهول البلاد الغربية فنزلت لمتونة ومسوفة رحبة مراكش ثم توالت جموعهم فى الصحراء باستدعاء يوسف بن تاشفين لهم نيابة عن أبى بكر بن عمر .

وكانت فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى مجموعة تعيش فى أقصى جنوب فيما يلى نهر درعة جنوبا وفى الصحراء التى تليها جنوبا ويسميها البكمى صحراء «تنسر» التى تمتد إلى حوض السنغال من القبائل الصنهاجية تسمى بصنهاجة الصحراء أهمها جدالة ومسوفة ولمتونة وتارجة ولمطة وجزولة وبنو وارث، كانت تعيش فى الشريط الصحراوى الاطلسى بعد أن طردتها قبائل زناتة إلى أقصى الجنوب وأخرجوها من نواح مثل ستافيلات» وأصبحت فى صحرائها محصورة بين سور حوض السنغال وزناتة المغرب وكانت قبائل كثيرة العدد تعيش على الرعى وقليل من الزراعة. وكانت قد دخلت الاسلام ولكن اسلامها كان سطحيا فى حاجة إلى عمق وفهم وهذه القبائل وفيرة العدد وقيل انها تجاوزت السبعين قبيلة وقد تهيأ للقبائل الصنهاجية بحكم سعة انتشارها وكثرة عددها أن تتنوع حياتها الاجتماعية فقد كانت



بعض القبائل تحيا حياة الاستقرار كما كانت بعض القبائل الجبلية الاخرى تنتقل عادة نقلة الشتاء والصيف طالبا للرعى وكانت بعض البطون الاخرى تحيا حياة بدوية عريقة فى صحراء المغرب .

ورغم تفرق شعب صنهاجة فقد ظلت رابطة الدم والثقافة المشتركة تؤلف بين شتاتة .

وتمكنت قبائل صنهاجة بفضل هذه الحضارة التى أصابت منها بعض الشئ وبفضل هذا التنوع فى الحياة الاجتماعية وهذه الرابطة الاسرية الوثيقة من أن تكسب لنفسها فى المغرب تاريخا مجيدا فشرف صنهاجة أصيل ومجدهم اثيل ورياستهم قديمة فأسست صنهاجة الجيل الاول دولة بنى زيرى وأسست صنهاجة الجبل الثانى دولة المرابطين .

ولم تكن صنهاجة التى قامت على اكتافها دولة المرابطين مجرد قبيلة بل كانت شعبا عظيما يتألف من قبائل قيل انها بلغت السبعين عددا وانتشرت فى المغرب انتشارا بعيد المدى وقد قسمت القبائل الصنهاجية إلى قسمين قسم شرقى فى افريقية (تونس) والمغرب الاوسط (الجزائر) وقسم غربى فى المغرب الاقصى وكانت بطون صنهاجة فى الواقع تنتشر باقليم الجزائر فى ما بين الطريق الموصل بين مرطانية الطبيعية ومرطانية القيصرية وبعض القبائل فى الاطلس الوسطى ثم فى منحدرات الاطلس الكبرى الجنوبة وتوغل جنوبا فى الواحات الواقعة على أطراف الصحراء وتوغل فى المغرب الاقصى فى أقليم!! حتى طنجة .

ومن الغريب أن تنتسب هذه القبائل إلى العرب ولكن هذا الانتساب قد يكون بعد اسلامها ومحاولة أن تكون على قدم المساواة مع القبائل العربية حتى تستطيع

المشاركة فى الحياة السياسية الجديدة فأدعت لنفسها نسبا عربيا .

وقد انتشروا فى المغرب الاقصى بل توغلت بعض بعض قبائلهم فى غرب افريقيا حتى أدركت منحنى نهر النيجر وهم يمتازون بالقوة والبأس وهم كما قال ابن خلدون من أوفر قبائل البربر وهم أكثر أهل المغرب وما بعده ولا يكاد قطر من أقطاره يخلو من بطن من بطونهم فى جبل أو بسيط حتى لقد زعم انهم الثلثان من البربر ونزلت هذه القبائل فى النواحى الشمالية والسفوح الجبلية الصالحة للزراعة كما كانت تضرب فى النواحى الخصبة المحيطة بجبال اوراس وفى الجهات الجنوبية والوسطى من اقليم الجزائر وأوغلوا فى مراكش ونزلوا بالجزء الشرقى من جبال أطلس الكبرى بل تجاوزو ذلك النطاق الجبلى فاحتلوا ساحل المحيط الاطلسى حتى مصب نهر السنغال ومنحنى النيجر ووجدت بعض قبائلهم فى صحراء المغرب القريبة من مراكش حتى آلت الزعامة إلى صنهاجة الشمال مؤسسة دولة بنى زيرى ثم إلى صنهاجة الجنوب مؤسسة دولة المرابطين .

وقد اتخذت قبائل صنهاجة اللثام شعارا لها تميزا لها عن سائر قبائل المغرب فهى التى قامت على أكتافها دولة المرابطين بل يرجع لها الفضل فى نشر لواء الاسلام فى ربوع افريقية والسودان الغربى لانها ظلت بعد أن تم اسلامها قرونا طويلة تجاهد قبائل السودان وتحملها على الاسلام .

ثم استطاعت هذه القبائل بعد أن تم تحالفها أن ترفع لواء مذهب مالك فى أقاصى الصحراء وأن تخرج عن ديارها مجاهدة على احياء الاسلام ونشر لوائه وتأسست دولة المرابطين التى انبسط لوائها من منحنى النيجر فى الجنوب حتى البحر الابيض فى الشمال. وقد كانت الرياسة فى قبائل الملثمين لقبيلة لمتونة التى كانت تنازع جدالة



هذه الزعامة باستمرار كما كانت الرياسة فى لمتونة معقودة للفرع الذى أنجب المجاهد يوسف بن تاشفين .

وقد كانت هذه القبائل تدفع إلى الصحراء موجة أثر موجة وقد أذكت الغزوات العربية فى المغرب تيار الهجرة ففرت بعض القبائل الصنهاجية أمام الفاتحين إلى المغرب الاقصى ومن ثم فرت بعض القبائل الصنهاجية إلى الصحراء حتى انه يذكر أن موسى بن نصير لما أوغل فى بلاد السوس فى طلب البربر وجد فريقا من صنهاجة يحتل أطراف الصحراء جنوب جبال درن .

وكانت قبائل السودان الزنجية تتخطى منحنى النيجر موغلة نحو الشمال وكانت تقف حجر عثرة أمام هجرة القبائل الصنهاجية فلما انتشر الاسلام فى ديار صنهاجة أخذت تعمل على نشره بين قبائل السودان واتخذت هجرتها نحو الجنوب طابع الجهاد المقدس فأخذت تدفع السود نحو الجنوب دفعا حتى تم لها ادراك منحنى النيجر فى هجرتها .

لكن المؤرخين يحددون لهذه القبائل وطنا يمتد من غدامس جنوب طرابلس إلى المحيط الاطلسى فى المناطق الصحراوية التى تلى سلسلة الجبال المعروفة بجبال درن كما يمتد هذا الوطن من جبال درن فى الشمال حتى مصب نهر السنغال بل يمتد إلى منحنى النيجر أو يجاوره بقليل بل تتخطى مضاربهم هذا النهر إلى الشرق فتصل إلى تادمكة فى قلب الصحراء الكبرى وهذا هو الوطن الذى تتحرك فيه قبائل الملثمين وقد كانت قبيلة لمتونة أهم هذه القبائل وأقواها فهى تمتد من منطقة تلى منطقة لمطة وجزولة وتمتد من وادى نون على المحيط الاطلسى حتى رأس اقليم الصحراء التى تسيطر عليه المغرب «حاليا» والى الشرق من وادى نون تقع مدينة «اركى» وهى حصن لمتونة

بل إن هذه القبيلة تتوغل فى الصحراء شرقا حتى تدرك الطريق الموصل بين غانة وسجلماسة ولكنها لم تتوغل على ساحل المحيط حتى مصب السنغال ولا يستبعد أن تكون قد رحلت بعض بطونها حتى وصلت إلى قرب غانا وقد سيطرت هذه القبيلة على الطريق التجارى الهام الذى يسير بحذاء البحر المحيط وهو طريق غانة سجلماسة ومن هنا فقد كتب لهذه القبيلة السيادة على قبائل صنهاجة جميعها .

وإلى الجنوب من مضارب لمتونة تضرب قبيلة جدالة القوية التى وصل نفوذها حتى مصب نهر السنغال متخذة مدينة «وليلة» مركزا لها. وكانت هذه القبيلة أوفر مالا وأكثر استقرارا فهى قريبة من غانا وشعب سنغاى الواقع على الضفة اليسرى من منحنى النيجر وقريبة من أودغست وطريق سجلماسة لذا استطاعت جدالة أن تسير متاجرها عبر هذا الطريق وأن تجنى من وراء ذلك ثروات واسعة كما انها كانت أقرب ديار الملثمين من بلاد السودان، أما ثالثة هذه القبائل بعد لمتونة وجدالة فهى مسوفة وكانت مناطق نفوذها تقع بين سجلماسة فى الشمال وأدغست فى الجنوب وكانت بعض بطونها تتوغل شرقا حتى تصل إلى تادمكة وكوكو وكانت هذه القبيلة تسيطر على ذلك الطريق الحيوى للتجارة السودانية. ومن هنا فإنه يتبين لنا أن أهم قبائل الملثمين هى لمتونة وجدالة ومسوفة التى سيطرت على المساحات الواسعة من الصحراء وتحكمت فى طرق التجارة العالمية. كما أن هناك عديداً من الصفات التى أهلتها للظهور فى ميدان الصراع القبلى فى المغرب الاقصى .

وطول هذه الصحراء التى سكنتها قبائل صنهاجة الصحراء حوالى الالف كيلو متر تقطعها القوافل فى شهر لتصل إلى حرض نهر السنغال وهو أول أنهار افريقية المدارية الغربية شمالا ثم انه عند منابع نهر المولوية وحتى مجرى وادى درعة يمتد اقليم تافيلالت وهو اقليم واحات ومنابع مياه كثيرة أكبرها سجلماسة وكانت سجلماسة من



أكبر المحطات التجارية على أبواب الصحراء فاذا عبر التجار صحراء تنسر الواسعة وصلوا إلى محطة قوافل أخرى فى الحوض الاعلى لنهر السنغال تسمى أودغست وكانت سجلماسة وأدغست سوقا تجارية عظيمة يفد اليها التجار وتحط فيها القوافل وتجتمع فيها المتاجر والاموال .

وما دمنا نتحدث عن قبائل صنهاجة الصحراء الكبرى التى قامت على أكتافها دعوة المرابطين فان ذلك يتطلب الحديث عن انتشارها بعد الرحيل شمالا فقد كان للفتح المرابطى لديار المغرب تأثير كبير على مواطن القبائل ومركزها فاستقرت صنهاجة الصحراء فى سهول البلاد الغربية فنزلت لمتونة ومسوفة مراكش ثم توالت مراكزها من الصحراء باستدعاء يوسف بن تاشفين لهم نيابة عن ابن عمه أبى بكر بن عمر ثم أيام استقلاله .

وبينما كانت افريقية فى صراع متواصل مع عرب بنى هلال وبنى سليم ظهر المرابطون فى جنوب المغرب الاقصى وسرعان ما امتد نفوذهم إلى النصف الغربى من بلاد المغرب تاركين النصف الشرقى فى بلاد المغرب لاخوانهم بنى زيرى وبنى حماد الصنهاجيين ومنافسيهم من القبائل العربية الزاحفة. وقد انتشر الاسلام بين هذه القبائل الضاربة جنوبا عن طريق السرايا العسكرية التى أرسلها حكام المغرب الاوائل إلى هذه المنطقة وعن طريق التجار المسلمين الذين كانوا يمرون عبر هذه البلاد فى طريقهم إلى السودان وقد انتسبت هذه القبائل البربرية بعد اسلامها إلى العرب فاصطنعت أنسابا عربية حتى تتساوى مع القبائل العربية وتستطيع المشاركة فى الحياة السياسية الجديدة .

ولقد كانت المناطق التى تعيش فيها قبائل الملثمين مناطق عزلة تمكن لهذا القبائل أن تعيش مستقلة بعيدة عن أية مؤثرات وكان أهم ما تتميز به هذه القبائل

ارتداء لثام يستر الوجه كله فلا تبدو الا محاجر العين فسميت القبائل قبائل الملثمين ويعد لبس اللثام فى نظرهم مفخرة يمتدحون بها كما يمتدح العربى بسيفه وقد كان لثام المرابطين السواد .

وكما سبق العرض فإن قبيلة لمتونة كانت لها الرياسة زمن المرابطين وكان رجالها يديرون دفة الدولة ويحتكرون أغلب الحقوق السياسية كما كانت الرياسة فى لمتونة فى بيت (ورتا نطق) الذى أنجب يوسف بن تاشفين فالمتونة التى سادت فى القرن الخامس الهجرى أصبحت فى المجتمع الحديث قبيلة مسودة وانتقلت السيادة إلى قبيلة ترغة .

وقد جمعوا بين الشجاعة الفائقة والقوة البدنية وحسن استخدام الابل فى القتال وقد امتازت هذه القبائل بحب الاستقلال والشعور بالعزة والثقة فقد عاشت فى الصحراء لم تخضع لغزو أو فتح وفى القرن الخامس الهجرى ذكى عبد الله بن ياسين فى نفوسهم شعلة الاخلاص للاسلام وطهر نفوسهم من أدران الشر وحببهم فى الجهاد فى سبيل الله والدفاع عن دار الاسلام وردوا عدوان الفرنجة بل قضت الدولة نحبها دفاعا عن تراث الاسلام .

وليس هناك أدنى شك فى أن هذه القبائل لها تراث حضارى معروف قبل أن تنحدر من مواطنها فى شمال افريقية وانها أصابت من الحضارات الوافدة على المغرب قبل أن تتوغل فى الصحراء، كما أن المؤاثرات الحضارية لابد أن تكون قد نفذت اليها من ديارها الجديدة وأن قبيلة لمتونة كانت تنعم بلون من الاستقرار وكذلك قبيلة جدالة كانت ذات طابع مستقر نوعا ما، ولم تحتفظ بالصبغة البدوية الخالصة الا قبيلة مسوفة وقد آلت ثروات ضخمة إلى قبيلتى لمتونة وجدالة بعد تحول طريق التجارة إلى ديارها حيث كانت تمر بديار لمتونة وجدالة ثم تذهب إلى أودغست ثم إلى سجلماسة وبلاد



السودان، ومن ثم فان هذه القبائل كان لها دورها فى تاريخ المغرب .

واذا كانت قبائل صنهاجة الملثمين ذات طابع بدوى معروف الا انها كانت على النقيض من قبائل بنى هلال وزناتة فانها قبائل بدوية ذات نصيب من الحضارة ومن هنا كان قيامها بالدور الحضارى الاسلامى فى القرن الخامس الهجرى وتأسيسها دولة مستقرة فى بلاد السودان والمغرب والاندلس .

وكان قيام دولة الادارسة فى المغرب الاقصى ودورهم فى توحيد القبائل المتنافرة الضاربة فى المغرب الاقصى حيث أيدهم البتر والبرانس والمصامدة ونجح الادارسة فى اقامة حكومة مركزية قوية واستطاعوا بفضل هذه الوحدة أن ينجحوا فى اسلام البلاد جميعا وتكسبها الصبغة الاسلامية (راجع الجزء الثانى من الموسوعة باب عن دولة الادارسة) .

ولقد ظفر الادارسة بتأييد صنهاجة الجنوب أهل اللثام الذين نحن ندرس دورهم فى ظهور دولة المرابطين واشتد ساعد الاسلام فى بلاد المغرب الاقصى بهم وقد أصابت ديار الملثمين أنوار الثقافة العربية لان الادارسة بسطوا نفوذهم على البلاد كلها، كما بسطوا نفوذهم على النواحى الشمالية من ديار الملثمين بل ان عبد الله بن ادريس أخضع قبائل لمطة الضاربة على المحيط .

من هنا بين لنا أن مغاربة الملثمين فى جبال درن انطوت تحت لواء الادارسة ومن هنا فقد تعمق اسلام صنهاجة فى عهد الادارسة ووضح اسلام أهل اللثام وضوحا تماما فى القرن الثالث الهجرى. ولقد كان لذلك أثر بالغ فى تاريخ هذه القبائل وتاريخ المغرب والسودان اذ أدى تعمق الاسلام إلى قيام تحالف قوى بين قبائل الملثمين بزعامة لمتونة التى حسن اسلامها وأكسبها الدين الجديد القوة التى مكنتها من توحيد كلمتها. ومن

هنا كان عليها أن تقوم بدورها التاريخى لكى تلعب على الساحة الاسلامية أكبر الادوار التاريخية فى العالم الاسلامى .

وكان عليها أن تكسر الطوق الذى يحاصرها من الشمال والجنوب وقد كان عليها أن تعد العدة اما التوسع صوب الشمال باختراق جبال درن والاغارة فى سهول المغرب الاقصى أو التقدم صوب الجنوب حيث مملكة غانا الزنجية .

**وحدة صنهاجة الاولى بقيادة تيولوتان بن تيكلان :**

هكذا كانت قبائل الملثمين فى القرن الثالث الهجرى لم تكن تستطيع أن تتقدم شمالا حيث بلاد المغرب ذلك لان دولة الادارسة العلوية كانت فى تلك الفترة الزمنية لازالت فى قوتها وتستطيع أن تصد (تهزم) أى عدوان يأتى من الجنوب، كما أن القبائل الزناتية التى كانت تؤيد دولة الادارسة وتخضع لها تحتل مناطق فى المغرب الاقصى وتقف لقبائل الملثمين بالمرصاد لكى تمنعها من التقدم شمالا عبر أراضيها بالاضافة إلى أن قبائل المصامدة المعادية لصنهاجة الجنوب وهى من القبائل القوية لاتزال فى قمة قوتها وانها ليست على استعداد للتخلى عن الاراضى الخصبة التى تضع يدها عليها ومن هنا كان حلف الملثمين لم يستطع النفاذ شمالا ومن هنا كان الاتجاه للتوسع نحو الجنوب وكان الاتجاه جنوبا يعنى فى نظرهم تزعم حركة الجهاد الاسلامى والعمل على نشر لواء الاسلام بين القبائل الزنجية التى تقطن إلى الجنوب منهم .

وكانت قبائل لمتونة وجدالة ومسوفة فى قوة عنفوانها الاسلامى حيث انها كانت متحمسة لنشر هذا الدين الجديد ومن هنا وقع عليها عبء حركة الجهاد المقدس والعمل على القيام بدورها بين الوثنيين .



لكن على الجانب الآخر جنوبا كانت مملكة غانا الوثنية الزنجية تعيش أقصى عصور قوتها وازدهارها وأقصى درجة توسع لها فى جميع الجهات حيث امتد نفوذها من منحنى نهر النيجر جنوبا حتى الوصول إلى مدينة اركى شمالا وهذه المدينة على مسافة بسيطة من مضارب لمتونة، لكن الحظ حالف قبائل الملثمين اذ أصاب الوهن تلك المملكة فى نهاية القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى، ذلك لان شعب الصوصو الذى يقطن جنوبا من تلك المملكة قام بالاغارة من الجنوب ونجح شعب الصوصو فى طعن مملكة غانا من الخلف .

ومن هنا كان الطريق ممهدا أمام زحف الملثمين الذين ألهب الاسلام حماسهم وكان طلب الشهادة نصرا لهذا الدين الجديد لاسيما بين شعب الزنوج الوثنى ومن ذلك فقد نجح الغزو الملثمى فى الاتجاه جنوبا واستطاع احراز عدة انتصارات على شعب غانا ومضى الجهاد جنوبا فى توسعه حتى صار على مقربة من منحنى نهر النيجر كما وضع الملثمون أيديهم على مدينة أودغست التجارية وفرض الجزية على تلك البلاد واتخذ أودغست عاصمة جديدة لهم .

وقد استمر الحكم الاسلامى الملثمى لمدينة أودغست حتى عام ٣٠٦هـ. حيث عملت عوامل الفرقة عملها بين الشعب الصناجى حيث تفرقت القبائل شيعا وأحزابا وانتهزت غانا فرصة الضعف الذى أصاب صنهاجة وتفرق القبائل حتى استطاعت أن تستعيد مدينة أودغست من أيديهم ولكنها لم تستطع أن تسترد كل الاراضى التى استولت عليها صنهاجة بعد استقرار الملثمين فى البلاد التى فتوحها وكانت جدالة تعيش أقرب قبائل الملثمين من دولة الزنوج لكن غانا قنعت بالسيطرة على أودغست لان ذلك يمنحها فرصة السيطرة على الطريق التجارى المتجه إلى السودان والمغرب وسجلماسة .

لكنه لم تمض فترة طويلة حيث استطاعت لمتونة أن تبسط سيادتها من جديد على مدينة أودغست حيث زار ابن حوقل أودغست عام ٣٥٠هـ وهى تخضع لحكم الملثمين بعد أن تم رد عدوان غانا عنها وعادت صنهاجة تبسط سيطرتها على الاقليم الممتد من جبال درن شمالا حتى منحنى النيجر جنوبا. لكن فى ذلك الوقت كانت زناتة تبسط سيادتها على المغرب الاقصى وتتحكم فى مسالك الصحراء وكانت أوطان صنهاجة وزناتة متجاورة والعداء بينها قديم بل تقليدى حيث عرف تاريخ المغرب هذا العداء الذى ترك فى حياة المغرب آثارا واضحة .

لكن حديثنا فى الفصل السابق عن الدولة الشيعية الفاطمية التى ظهرت فى افريقية قامت على أكتاف كتامة وصنهاجة الشرق التى شطرتها زناتة إلى شطرين صنهاجة شرقى وأخرى غربى وكان ذلك فى القرن الرابع الهجرى. واستطاعت الدولة الفاطمية بعد ظهور أعداء زناتة لها أن تنتصر عليهم وتهزمهم شر هزيمة بعد فشل ثورة أبى يزيد بن مخلد بن كيداد وبعدها لاذت قبائل زناتة بأذيال الفرار وتلاشت قوتهم ومن أثر ذلك تركت جموع زناتة المغرب الاوسط وبدأت ترحل تدريجيا إلى المغرب الاقصى وهكذا أصبح المغرب الاوسط منذ الفتح الاسلامى الاول خاليا من زناتة بعد أن تم القضاء على الجيل الاول منها وهاجرت الفلول إلى المغرب الاقصى. وفى ذلك الوقت سيطرت صنهاجة على نواحى المغرب الاقصى وبدأ دورها فى ذلك الوقت يأخذ بعدا جديدا .

ومن ذلك فان قوات الاندلس عندما حاولت أن تغير على المغرب فان قبائل صنهاجة وقفت لها بالمرصاد، ثم انقسم الصنهاجيون على أنفسهم فى عهد باديس بن المصور فاستقل حماد بن بلكن بالمغرب الاوسط وأصبح المغرب الاقصى للبتر وشيعتهم لا ينازعهم فيه منازع .



ومع بداية القرن الخامس الهجرى انتشرت فكرة الايمان بالزهاد والاولياء ذلك الايمان الذى مهد لقيام دولة المرابطين والموحدين حيث اختفت الزعامة السياسية الحربية وحلت محلها زعامة دينية ينصاع لها الناس والمغاربة بطبعهم يخلصون للمبدأ الذى يؤمنون به. وهكذا فان هذه القبائل الصنهاجية القوية كانت فى انتظار زعيم يرد إلى الوحدة صفوفها بعد ترك الاجزاء الشمالية متجهين إلى الجنوب رغم اعتناقهم الاسلام ليعبروا عن سخطهم من حكم زناتة فسكنوا الاجزاء المرتفعة من جبال الاطلس والصحراء وفى الواحات إلى منحنى النيجر حيث وجدوا بعض أقاربهم من قبيلة لمتونة وكذلك بعض الموطنين الافريقيين الذين مازالوا على وثنيتهم، وحمل هؤلاء القادمون الدين الاسلامى والحضارة الاسلامية اليهم فكان من أثر هذا الاختلاط أن بدأت تظهر فى الاقاليم الجنوبية التى تشارف الصحراء حضارة اسلامية بربرية .

وقد كانت هذه الاجزاء بعيدة عن نفوذ الدولة فهى مقصد الخارجين عليها وقد أتاح هذا البعد لهذه القبائل وحنق بعضها أن تأخذ قبيلة لمتونة وجدالة ومسوفة التى تسكن شمال السنغال مكان الصدارة بين القبائل البربرية. لكن قبائل صنهاجة الشمال وهى من القبائل الكبرى كانت تعانى كثيرا من تلك السيادة الزناتية الطويلة وكان يسود شعبها شعور بالخوف على مصير قبيلتهم لان سيادة القبيلة على قبيلة أخرى لمدة طويلة تنتهى بهبوط القبيلة المستضعفة إلى مستوى الرعايا المحكومين الخاضعين وهذا نذير بزوال أمر القبيلة نتيجة لانكسار قوتها وطول العهد باستذلالها (ابن خلدون – المقدمة) .

لكن مع اطلالة القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) فان صنهاجة الجنوب كانت لاتزال كلمتها متفرقة ووحدتها مشتتة بعد أن انفرط عقد التحالف الملثمى الثانى فى القرن الرابع الهجرى حيث استطاع ملك غانا أن يبسط سلطانه على

مدينة أودغست مرة أخرى وتفرق شمل القبائل، لكن صنهاجة الجنوب لم تكن تستطيع أن تعيش فى ظل تفرق القبائل وتشتتها والاعداء يبسطون سيطرتهم على صنهاجة الشمال ويتربصون الدوائر بها حيث كانت أحلاف المصامدة وزناتة فى الشمال لاتزال تسد مسالك التسلل شمالا نحو المغرب بعد أن استطاعت تلك القبائل بسيطرتها على أودغست أن تجنى أرباحا طائلة اضافة إلى الموقع الجغرافى الممتاز فى طريق القوافل. وكانت غانة تهدد تجارة السودان التى هى مصدر ثورة القبائل الضاربة فى أطراف الصحراء الجنوبية بالاضافة إلى استقرارها على ساحل المحيط .

لكن أكبر هذه القبائل (لمتونة وجدالة ومسوفة) كان عليها أن توحد كلماتها لتقوية شوكتها وكان على لمتونة القوية التى تحتكر زعامة صنهاجة الجنوب. ومهما يكن من شئ فان سياسة الحلف الجديد كانت تقضى بمواصلة الجهود التى بذلت منذ اسلام صنهاجة والتى تقضى بالجهاد فى الجنوب ومدافعة غانا والمحافظة على طرق التجارة ولم يكن هذا التحالف الصنهاجى الذى بدأ مع بداية القرن الخامس الهجرى تضع فى سياستها النظر إلى المغرب والاتجاه شمالا ومحاربة زناتة ومصامدة وأحلافها فى المغرب الاقصى، لكن مع نهاية النصف الاول من القرن الخامس الهجرى كان هذا التحالف قد فشل فى محاربة غانة حيث قتل زعيمه وكانت هزيمة لمتونة فى معركة غانا قد جعلتها تتخلى عن زعامة الملثمين بعد أن ظلت زعامتها لصنهاجة أكثر من قرنين وآلت زعامة الملثمين إلى قبيلة جدالة التى كانت أقرب إلى غانا فخفت إلى أرض المعركة قبل أن تذهب رهبة الملثمين، لكن غانا عادت من جديد تزحف إلى الشمال للقضاء على الجهود التى بذلت فى نشر الاسلام فى ربوع صحراء المغرب الجنوبية وكانت قبيلة جدالة أقدر على كفاح الزنوج بقيادة غانا من أية قبيلة أخرى حيث كانت ديارها ملاصقة لهم وكانت أعرف بظروفهم وأحوالهم وطبائعهم وكيفية



التعامل معهم، ثم ان أحوالها المادية كانت تؤهلها لقيادة الكفاح لانها أغنى القبائل وأقواها بسبب اشتغالها بتجارة الملح والذهاب ومنتجات بلاد السودان الاخرى. ومن هنا وقع عبء الجهاد على قبيلة جدالة لكى تقود القبائل الصنهاجية نحو محاربة غانا والزحف شمالا لفتح المغرب وتكوين دولة المرابطين القوية .

# الباب السادس

## صنهاجة ودور عبد الله بن ياسين

اذا كان قد قدر لقبيلة لمتونة أن تترك زعامة ملثمى الجنوب لقبيلة جدالة الفرع الآخر القوى فان جدالة القبيلة القوية كان قدرها أن تتبنى حركة الجهاد الاسلامى التى انتهت بظهور دولة المرابطين على مسرح الاحداث السياسية فى العالم الاسلامى بعد أن كانت شهادة زعيم لمتونة فى صراعه الاخير مع غانا قد عقدت اللواء لزعيم جدالة الذى كان يسمى يحيى بن عمر ابن ابراهيم الجدالى .

وكان هذا الزعيم حريصا على أن تقوم جدالة بدورها الطليعى بين قبائل البربر لانه كان يخاف على سمعة صنهاجة، وكان هذا الخوف هو الذى دفعه إلى أن يبحث عن شيخ يعلم رجال قبيلته شريعة الاسلام وأحكام الفقه والدين حيث كان ذلك الزعيم يتمتع برجاحة عقل وبعد للنظر وصدق فى الايمان ورؤية واضحة لمستقبل هذا الشعب اذ توحدت كلمته مما جعله يفكر فى أن يكون لهم دور على نطاق العالم الاسلامى وليس على نطاق شعب المغرب لانه أدرك أن الاسلام يجمع كلمة القبائل وينير أبصارهم على أمور جديدة ويربطهم بسائر المجتمعات الاسلامية فى المغرب والسودان وبقية العالم الاسلامى فى المشرق .

ولا شك فى أن يحيى بن عمر بن ابراهيم هذا كان يدرك أن أية قبيلة بربرية تحركت للزعامة فى الماضى كان لها قائد دينى هو الذى هيأ قبيلته لانشاء دولة فتاقت نفسه للبحث عن قائد دينى يقود هذه الجموع لا سيما أن الذين أنشأوا الدول مثل الخطاب بن عبد الاعلى السمح المعافرى قامت على يديه دولة الخوارج الاباضية فى تاهرت وأبى عبد الله الشيعى قامت على يديه الدولة الفاطمية التى اتخذت المهدية عاصمة سياسية لها وادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب



أنشأ دولة الادارسة .

ومن ثم فقد حرص هذا الرجل على أن الوقت قد آن لهذه القبائل القوية أن تتألف وتتآزر على سياسة روحية والتمسك بالدين لانه أساس تكوين دولة قوية. وكان يحيى بن عمر هذا يرجو أن يدرك قومه من صنهاجة الصحراء خطر الحصار الذى يضربه عليهم من الجنوب أهل السودان ويسجنونهم فى الصحراء القاسية ويحولون بينهم وبين الانتشار فى الاراضى الخصبة فى وديان أنهار السودان الغربى .

وفى أثناء تجولات يحيى بن ابراهيم فى بلاد المغرب الاقصى أدرك البعد بين هذه البلاد وبيئه الصحراء الخالية من العلماء ورجال الدين لاسيما أن المغرب الاقصى فى ذلك الوقت كان حافلا بالمدارس والعلماء الذين يقصدهم الناس من كل فج ولقد تفوق المغرب الاقصى فى جميع المجالات العلمية والثقافية والحضارية فى حين خيم الجهل والظلام فى ربوع ديار الملثمين ولم يجرؤ العلماء على المخاطرة باختراق الصحراء وتعليم الناس مبادئ الدين الاسلامى فتاقت نفس يحيى بن ابراهيم أن يقوم بعض التجار والعلماء على تعليم القرآن الكريم والفقه لابناء القبيلة ومن هنا حرص على أن يخرج إلى بلاد المغرب الاقصى حيث ترك بلاد الملثمين لا طلبا لاداء فريضة الحج وانما بحثا عن حقيقة العلم والاسلام وأخذ يرتاد مدارس المغرب طلبا للعلم حتى يستطيع أن يعود إلى قومه فيوجد صفوفهم معتصمين بحبل الله القويم .

وكانت القيروان هدف يحيى حيث انها هى حاضرة المغرب الثقافية وكعبة القصاد من المغرب والاندلس وكان ذهاب يحيى بن ابراهيم إلى القيروان حيث هى مركز الفقه المالكى بعد انتصارها على الفاطميين والزبيريين وقصد فقيه المالكية فى المغرب العربى الذائع الصيت (أبا عمران الفاسى) الذى ذاع صيته وقصده الطلاب من فاس واغمات والاندلس كما قصده فقهاء المصامدة وصقلية. وكان أبو عمر قد برع فى

علم الاصول وعلم الكلام والمناظرة وكان من أحفظ الناس وأعلمهم بالمذهب المالكى والحديث وعلوم القرآن الكريم وتلقى الزعيم الصنهاجى يحيى بن ابراهيم على استاذه ابن عمران بالقيروان كل هذه العلوم واستطاع أن ينهل من هذا العلم الواسع وأن يعيش فى هذه البيئة القيروانية الزاهدة فى متاع الدنيا بيئة فقهاء المالكية الذين عرفوا بالشدة فى الحق والبعد عن الحكام والميل إلى التقشف والعبادة المتصلة، لكن يحيى كان يتألم لحال قومه والجهل الذى يعيشون فيه ويريد أن ينقذهم مما هم فيه وأن يجمعهم على التعاليم التى نالها فى مدرسة القيروان وأن يقيم وحدة صنهاجة من نوع جديد. فكان أن طلب من أستاذه «أبى عمران الفاسى» فقيها من تلاميذه المالكيين ليصحبه إلى بلاده لكى يكون عونا له فى هذه المهمة التى أراد أن يضطلع بها لاعلاء شأن قومه بعد أن صور لاستاذه وجوب اهتمام العلماء بهذه القبائل الجنوبية ذات الحظ الضئيل من الثقافة الاسلامية .

وقد رأى الامام أبو عمران أنه لابد لتحقيق طلب يحيى بن ابراهيم الجدالى على الوجه الاكمل فان المهمة لابد أن يقوم بها فقيه من البربر أنفسهم يعرف أحوالهم معرفة تامة ويلم بلسانهم حتى يستطيع النجاح فى أداء مهمته وأن يهدى القوم إلى سواء السبيل، فلما لم يجد فى تلاميذه من يحقق هذه الرغبة، فكتب أبو عمران الفاسى للزعيم الجدالى كتابا إلى أحد تلاميذه من فقهاء المغرب الاقصى ومن الذين يعملون فى سجلماسة وهو (وجاج ابن زلو اللمطى) وهو فقيه مالكى مشهور تتلمذ على أبى عمران ونهل من علم القيروان وتقاليدها وهو من احدى قبائل صنهاجة الصحراء وكان وجاج هذا فقيها ذا مكانة كبيرة حيث اتخذ مكانا يأوى اليه بعيدا عن



الناس يتزهد فيه ويتعبد وكان مريدوه وتلاميذه يفدون اليه من كل فج ويتلقون عنه تعاليم المذهب المالكى وهذا يدل على نفاذ التعاليم المالكية من القيروان إلى جنوب المغرب الاقصى وكان وجاج هذا فقيها لمطياً صنهاجيا من قبائل الملثمين أعرف الناس بطبائع قومه وأكثرهم خبرة بما ينفعهم وينصرهم .

وكان على الفقيه وجاج بن زلو اللمطى أن ينفذ رسالة امام القيروان أبى عمران الفاسى، وبذلك يكون الزعيم الجدالى قد أرضى رغبته وأوشك أن يحقق الهدف الذى سعى من أجله إلى القيروان وهو الآن فى سجلماسة على مقربة من أهله وأن الامل الذى طالما ساوره وهو هداية شعب الملثمين وتوحيدهم أصبح قاب قوسين أو أدنى للتحقيق .

وكان على دجاج أن يحقق رغبة أستاذه فوقع اختياره على تلميذ من تلاميذه صنهاجى الاصل يدعى عبد الله بن ياسين فلم يتردد عبد الله فى الاضطلاع بهذه المهمة بل أقبل عليها وتحمس لها ورأى فيها لونا من الجهاد فى سبيل الله واعلاء كلمة الاسلام لاسيما أن جميع زملائه قد أحجموا عن هذه المهمة خوفا من بعد المسافة ومشقة السفر وانهم أشفقوا على أنفسهم من مشاق الاقامة فى هذه البيئة وكان ابن أخ وجاج نفسه قد خشى مغبة المهمة .

## عبد الله بن ياسين ودوره فى بناء دولة المرابطين

كان قبول عبد الله بن ياسين لمطلب أستاذه وجاج بن زلو اللمطى بناء على كتاب فقيه القيروان أبى عمران الفاسى بداية صفحة جديدة فى تاريخ صنهاجة الجنوب بل فى تاريخ الاسلام فى بلاد السودان الغربى والمغرب العربى والاندلس بل فى العالم

الاسلامى. فقد استطاع أن ينهض بأداء المهمة الموكلة له لما توفر له من صفات وما وهبه الله من اخلاص غالبة واليه يرجع الفضل بعد الله فى جمع كلمة الملثمين ولم شملهم واقامة حلف قوى بل اقامة دولة واسعة الارجاء رفعت لواء الاسلام وشاركت فى حركة الجهاد الاسلامى وجمعت تراث الحضارة الاسلامية واستطاعت أن ترد كيد مسيحى الاندلس وأجلت وأخرت انهيار الاسلام به خمسة قرون .

وهو عبد الله بن ياسين بن مكوك بن سير بن على وهو من قبيلة جزولة الضاربة فى أقصى المغرب قرب جبال درن، بل أن جزولة تكتب خطأ بدلا من جدالة وقد ولد فى أطراف صحراء دولة غانة بالقرب من مدينة أودغست حيث كانت القبيلة تقيم بالقرب من السنغال وتوغلت جنوبا فى منحنى نهر النيجر ولهذا السبب أقبل عبد الله على التطوع لهذه المهمة دون تردد. وقد خرج من مسقط رأسه لطلب العلم إلى بلاد المغرب الاقصى ليتتلمذ على فقهاء المدارس التى انتشرت فى فى المغرب كله وربما يكون قد طلب العلم فى الاندلس ومكث هناك سبع سنوات وعاد بعد عام ٤٠٠هـ. إلى المغرب الاقصى واتصل باستاذه «وجاج بن زلو اللمطى» فقيه السوس وناسكها ومتعبدها. واذ كان عبد الله قد تتلمذ على وجاج بن زللو وهذا تتلمذ على أبى عمران فيكون عبد الله بن ياسين تلميذا لابى عمران وهو بذلك جمع علم الاندلس مع القيروان .

دخل عبد الله بن ياسين الصحراء بصحبة زعيم جدالة وتوجه إلى منازل قبيلة جدالة وكان شهما قوى النفس حازما ونشيطا وواسع المطامح .

فأخذ منذ دخوله ديار الملثمين يسعى لتحقيق الهدف الذى جاء من أجله مع



يحيى بن ابراهيم الجدالى وهو تأليف قلوب الملثمين وتعليم الجداليين شعائر الدين بل انه لم يكتف بالدرس بل صار يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر واستطاع بسبب معرفته اللهجات البربرية واخلاصه فى الدعوة أن يشد اليه الرجال من أقصى ديار الجنوب أن ينفذ إلى قلوب الناس بفضل ذكائه وخبرته بطباع الناس وسعة فقهه فأصبح قريبا من قلوبهم بعد أراد أن يهذب أخلاقهم ويخرجهم عن حياة الخشونة والبدائية التى كانوا يعيشون فيها ووضع لهم نظاما للآداب العامة وأخذهم بالشدة وانه أراد أن يقوم من أخلاقهم ما استطاع إلى ذلك سبيلا فأراد أن يقيم حدود الشرع وتغير المنكر ومعاقبة السارق ورجم الزانى ومحاربة الداء وأن يبسط المساواة بين الناس .

بعد أن اتخذ لنفسه نهج فقهاء القيروان وأن يشارك الملثمين حياتهم الخاصة وأن يتقشف ويلبس الخشن من الملابس ويتقرب إلى الله بالعبادة حتى غدا فى نظرهم فى مرتبة الاولياء والصالحين وكان علية القوم والزعماء والنبلاء بما يدعو اليه عبد الله بنقص من حقوقهم التقليدية وبنشر المساواة بين السادة والموالى فسخطوا عليه وتبرموا من حكم السنة اذ لم يألفوا الخضوع لمن يحد من شهواتهم لانهم كانوا أهل فوضى وجفوة وقلة نظام. فقاموا عليه فعزلوه عن الرأى والمشورة وطردوه وهدموا داره وأخرجوه من بلادهم لانهم لم يتحملوا عنفه وشدته وكانت القلة الحاكمة هى التى اعتدت عليه وأخرجته من الديار ظنا منها ان دعوته هذه هى القضاء على نفوذهم .

وخرج عبد الله بن ياسين قاصدا المغرب حيث مدينة السوس وأستاذه وجاج بن زلو لكى يشكو له ما يلقاه من أهل جدالة، لكن أمير جدالة يحيى بن ابراهيم تدخل ليغير مجرى الاحداث ويرد عبد الله عن اعتزال الدعوة لانه اذا تخلى عما يقوم به لأحبطت مشاريعه التى يسعى اليها وهى توحيد الملثمين .

ومن هنا الح عليه فى أن يصحبه إلى الجنوب وتوسل اليه ألا يتخلى عن رسالته

السامية وآثر أن يصحبه ثانية إلى الجنوب لعله يلقى التأييد وبذلك عاد عبد الله بن ياسين إلى جدالة مرة ثانية واتجه جنوبا حيث قدر للدور الايجابى أن يبدأ وأن تؤتى الجهود ثمارها لاقامة دولة المرابطين .

وكان عبد الله بن ياسين قد استشار شيخه وجاج بن زلو فطلب الاخير إلى يحيى بن عمر بن ابراهيم عقابهم على ما فعلوه فقام بذلك وجعلهم يطالبون بعودة عبد الله بن ياسين اليهم ولكنه كان قد رفض فنصحه وجاج بالذهاب وفى أثناء عودته مر فى طريقه بريف تامسنا ورأى كيف أن جماعات الصنهاجيين هناك ترزح تحت وطأة الزناتيين وقدر جنود الزناتيين هناك بما لا يزيد على ثلاثة آلاف جندى، وأدرك انه من الممكن التغلب عليهم واقامة دولة لصنهاجة هناك وبعد أن توجة إلى ديار لمتونة وجدالة عرف كيف يتحين الفرص لتحقيق ما يجول فى ذهنه وكان قد عرف أن يكسب محبة يحيى بن عمر بن ابراهيم الجدالى وكان جده ابراهيم قد صاهر اللمتونيين ودخل فيهم وانتسب اليهم وأصبح يعد نفسه من سلالة لمتونة وقد وصل هذا الرجل بذكائه ونشاطه إلى أن أصبح من زعماء لمتونة ثم أنجب أولاداً كثيرين أشهرهم اثنان (عمر وتاشفين) فأما تاشفين فهو والد يوسف الذى ستصير اليه زعامة المرابطين فيما بعد وأما عمر فقد أنجب أبا بكر ويحيى وهذا هو الذى ذهب إلى المشرق ثم إلى القيروان ولقائه مع أبى عمران الفاسى ثم لقائه مع وجاج بن زلو وعبد الله بن ياسين .

وكان عبد الله بن ياسين كما ذكرنا رجلا نشيطا وكان عظيم الايمان بالاسلام وكانت فيه شدة على حمل الناس على اقامة شعائر الدين حتى كان يوقع العقوبات البدنية على من يتراخى فى أدائها وقد أفاد يحيى بن عمر من مواهب عبد الله بن ياسين لان الشخصية المهيبة التى كان يتمتع بها كانت ترغم الناس على الطاعة ليحيى بن عمر وكان يحيى لا يدخر وسعا فى تقديم العون لعبد الله بن ياسين .



وعمد عبد الله بن ياسين مع سبعة من زعماء جدالة إلى بناء رباط فى جزيرة منعزلة يتعبد فيها ويجتمع مع أصحاب الصلاة ومن هنا حملت الجماعة اسم المرابطين وكان عبد الله عندما تأكد من أنه كون جماعة من المخلصين له خرج بهم إلى جزيرة المحيط قرب مصب نهر السنغال وهناك أنشأ رباطاً لم يلبث أن اتسع وكثر الناس فيه وكان يحيى بن ابراهيم الجدالى قد أشار عليه ببناء رباطا للعبادة وكانت الاربط قد انتشرت فى المغرب انتشارا واسعا كما انه تتلمذ فى رباط على أساتذة وجاج بن زلو وكان ليحيى بن ابراهيم الفضل فى اختيار أصلح مواقع لاقامة ذلك الرباط لانه يعرف مضارب قومه لانه اختار جزيرة صغيرة تقع فى مواجهة الشاطئ على مقربة من بلدة أوليلى قاعدة جدالة فى الخليج وتذهب بعض الآراء إلى أن هذه الجزيرة تقع فى مصب السنغال .

وقد كان يتعين على عبد الله بن ياسين أن يتخذ نهر السنغال لانه الحد الفاصل بين الملثمين والزنوج مدرا لرباطه بقصد الجهاد ونشر الاسلام بين الزنوج ووقف عدوانهم والاغارة على ديار الملثمين لاسيما وأن ديار جدالة قريبة من حوض السنغال وكانت هذه القبيلة تستطيع أن تحمى ظهر المرابطين فى الجزيرة اذا فكر الزنوج فى الاغارة عليها .

وكان المسلمون يرون فى الرباط لونا من ألوان الجهاد فى سبيل الله ويدركون أهمية الرباط فى الدفاع فكانوا يتسابقون إلى الرباط يحرسون المسلمين وأن هذه الاربطة حققت الهدف الذى أنشئت من أجله ومكنت للاسلام والحضارة الاسلامية وكان عبد الله بن ياسين قد اتخذ هذا الرباط ليس بعيدا عن جدالة وخوفا من الزنوج للإغارة على مكان العبادة ولكن كان من بين الاسباب لانشاء هذا الرباط الدفاع عن المسلمين والحيلولة بين الزنوج والعدوان على قبيلة جدالة .

وكانت الاربطة قد انتشرت فى بلاد المغرب الاقصى فقد أوغلت فى السواحل حتى أدركت المحيط الاطلسى وأوغلت فى قلب بلاد السوس حتى وصلت أطراف الصحراء وكانت تعمل على نشر الاسلام بين الناس .

وقد لعب رباط «نفيس» الذى أنشأه وجاج بن زلو اللمطى دورا هاما فى تاريخ دولة الملثمين ففى هذا الرباط تأدب عبد الله بن ياسين بأدب الرباط والاخلاص لله والجهاد فى سبيل الله .

وانتشرت حركة المرابطة انتشارا واسعا فى القرن الخامس الهجرى وكانت قبائل الزنوج فى الجنوب بقيادة غانا تنزل بالمسلمين أفدح الاضرار وتواصل تقدمها نحو السنغال بقصد القضاء على الجهود التى بذلها الملثمون فى الدعوة للاسلام ورسالته فى الصحراء وبلاد السودان .

ولم تكن حياة المرابطين فى السنغال تختلف عن حياة الاربطة الاخرى فقد كانوا يعتمدون على ما توافر بجزيرتهم من صيد البر والبحر وكان هذا الرباط بمثابة شعلة تسرب نورها فى ظلمة الصحراء وتسامع الملثمون المنتشرة قبائلهم من جبال درن فى الشمال حتى منحنى النيجر فى الجنوب بخبر عبد الله بن ياسين ورجاله وخير رفاقه المخلصين الذين تركوا الجاه والمال فى سبيل الشهادة والجهاد فى سبيل الله بحيث لم يكونوا يتغذون بغير الفواكه ونتاج الصيد من لحم طازج أو مجفف وكانت معيشتهم أقرب إلى النسك وكانت المساواة التامة نهجهم ودستورهم فى الحياة ولم يكن يتاح لاحد الانضمام إلى جماعتهم الا بعد امتحان قاس يثبت فيه رغبته فى مشاركتهم تقشفهم كما وزعوا العمل عليهم مع توقيع العقوبات على المقصر فى الاداء وطارت شهرة المرابطين إلى من حولهم من القبائل فتقاطر عليهم كثيرون يشاركونهم حياتهم وسرعان ما تطور هذا الرباط وأصبح علاوة على كونه مركزا دينيا مركزا اجتماعيا



وحربيا يصد غارات المعتدين من الزنوج فحملوا السلاح وتدربوا على استعماله وازدحم الرباط بالزاهدين، فلما كثر أنصاره بدأ رباط السنغال يدخل فى طور جديد فقد أحس عبد الله بن ياسين أنه ورجاله يكونون عنصرا فعالا فى تحقيق أهدافه التى كان يسعى إلى تحقيقها وهى توحيد قبائل الملثمين تحت لوائه وحملهم على حياة الجهاد والكفاح بعد أن استطاع أن يؤلف بين قلوبهم بعد أن أتم تثقيفهم وتعليمهم فكان يعلمهم القرآن الكريم وتفسيره والحديث وتفسيره وأحكام الدين والشريعة وطلب منهم أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر وأن يهيئوا أنفسهم لحياة من الجهاد والكفاح فى سبيل إعلاء كلمة الحق وتطهير المجتمع من الفساد وكان يلزمهم حدود الله ويفرض عليهم أحكام الدين ومن ثم أصبحوا قيادة صالحة فى مجتمع جديد وقد ازدادت جموعهم يوما بعد يوم وانهم فى كل هذه الامور كانوا يطيعون عبد الله ويؤمنون به ايمانا لا حدود له وسموا به ونسجوا حوله الكرامات والاساطير وكانوا يرضون بأحكامه ويطيعونه طاعة عمياء لا فرق بين كبير أو صغير فى ذلك. وقد قنع عبد الله بن ياسين بدور الامام الدينى الذى يقود الناس إلى الطريق الصحيح .

أما الدور السياسى أو الحاكم أو القيادة العسكرية فقد تركت للزعيم يحيى بن عمر بن ابراهيم اللمتونى الذى كان عليه أن ينفذ أوامر الامام فى تدريبهم على القتال وقيادتهم لمعركة الجهاد الكبرى التى لابد أن تؤتى ثمارها المرجوة فى بناء دولة المرابطين الكبرى التى تلعب دورها فى تاريخ الاسلام السياسى والاجتماعى والثقافى والاقتصادى .

## الصدع بالدعوة والخروج من الرباط

لما رأى عبد الله بن ياسين وفرة أعداد رجاله وحماسهم قال لهم «أخرجوا فأنتم المرابطون» وانه بناء على ذلك يكون هذا أول تسمية للمرابطين ولكن هناك من يقولون

أن عبد الله بن ياسين أطلق عليهم هذا اللقب بعد انتصارهم فى أحد معاركهم. وعندما اكتمل عدد هؤلاء الرجال الاشداء ألف رجل أمرهم عبد الله بن ياسين بالخروج من رباطهم فى الجزيرة إلى البر والسير للجهاد وانضمت اليهم أعداد غفيرة من الجداليين واللمتونيين وغيرهم وكان ذلك فى عام ٤٤٥هـ/ ١٠٥٣م وكانت القوة والقيادة فى تلك الجماعة المرابطية الاولى لقبائل لمتونة فبدأ اسم هذه القبيلة يظهر من بين القبائل الكثيرة التى تكونت منها مجموعة قبائل صنهاجة الصحراء .

ويذكر ابن أبى زرع قول عبد الله بن ياسين لرجاله أخرجوا على بركة الله تعالى وأنذروا قومكم وخوفوهم عقاب الله وأبلغوهم حجته فإن تابوا وأنابوا ورجعوا إلى الحق وأطاعوا فخلوا سبيلهم وان أبوا وتمادوا فى غيهم ولجوا فى طغيانهم استعنا بالله تعالى عليهم وجاهدناهم» وقيل أن عدد رجاله قد بلغ ثلاثة آلاف رجل وانه لم ياذن لهم بالخروج من الرباط الا بعد أن تم له تنظيم الجيش الذى كانت قيادته ليحيى بن عمر بن ابراهيم الجدالى. وبعد أن أتم عبد الله بن ياسين تنظيم مجتمعه فى الرباط وبايعوه على الموت والاستشهاد فى سبيل الدعوة والخروج للجهاد .

واتخذ عبد الله بن ياسين الدعاة يرسلهم إلى القبائل يحضون على الطاعة واحتواء مبادئ الدين ودخلت الحركة دورا ايجابيا لفرض اخضاع قبائل الملثمين بقيادة يحيى بن عمر. وكانت مملكة غانا لا تزال قوية تسيطر على مدينة أودغست وتتحكم فى أهم الطرق التجارية فكان أن اتجهت جموع المرابطين إلى الشرق نحو منحنى النيجر صوب مدينة أودغست لاستردادها من غانة ولحمل أهلها على اعتناق الاسلام والجهاد فى سبيل نشر الاسلام والاستيلاء على المدينة وللثائر لهزيمة الملثمين من قبل غانا وقد استشهد يحيى بن عمر فى هذه المعركة الفاصلة وانتصر المرابطون واستولوا على مدينة أودغست وأوغلوا فى توسعهم صوب الجنوب وقد حققت هذه الحملة آمال عبد الله بن



ياسين فقد تأكد للناس صدق جهاد المرابطين فى مدافعة ملك غانا وحمل أهلها على الاسلام وذاعت شهرة المرابطين لانهم عندما احتلوا أودغست عملوا على تمكين الاسلام ونشره بالدعوة الحسنى بين قبائل الزنوج التى أقبلت عليه أفواجا .

وأطمأن المرابطون على سيادتهم على الصحراء فبدأوا يطرقون أبواب المغرب وكان الاتجاه صوب ديار جدالة لانه لكى يواصلوا تقدمهم شمالا لابد أن يمروا بها حتى يقتربوا من ساحل المحيط فكان لابد من لقاء جدالة لانها تنكرت للدعوة أثر وفاة يحيى بن ابراهيم وحشد الجداليون مايقرب من ثلاثين ألف مقاتل وخاضت جيوش المرابطين المعركة واستطاع المرابطون أن يهزموا الجداليين شر هزيمة. ودخلت هذه القبيلة طائعة فى زمرة المرابطين .

وواصل عبد الله بن ياسين تقدمه فى اتجاه الشمال بعد أن أخضع جدالة لزعامة لمتونة مباشرة وانفضت جموع المرابطين على لمتونة وقد دخلت لمتونة فى طاعة المرابطين دون أن تكلفهم جهدا ويبدو أن دخولها كان سلما وهكذا استطاع عبد الله بن ياسين أن يخضع غانا وجدالة ولمتونة فى دعوة المرابطين ثم أخضعوا مسوفة ولمطة وجزولة وهكذا أقام حلف جديد من قبائل الملثمين .

وقد استطاع ابن ياسين أن يصنع المعجزة وأن يخضع ربوع الصحراء وأن ينشر لواء الاسلام على المنطقة الممتدة من جبال درن فى الشمال إلى منحنى النيجر فى الجنوب .

ومن ثم كان الاتجاه وراء جبال درن إلى المغرب ذلك لان أهل المغرب بدأوا يتطلعون إلى المرابطين لاسيما وأن علماء سجلماسة رفعوا أصواتهم بالشكوى مما وقع عليهم مما اعتقدوه ظلما وقع بهم وكتبوا إلى المرابطين فى الجنوب أن يطهروا البلاد من المنكرات والقضاء على الامراء. وعبر عبد الله بن ياسين على رأس رجاله الصحراء

متجها إلى الشمال فلما وصل إلى اقليم سجلماسة الذى كان يحكمه (مسعود بن وانودين) ورجاله من المغراويين الزناتيين الذين كانوا يسيطرون على المغرب الاقصى فانتصر عليهم واستخلص سجلماسة من أيديهم وفى المعارك قتل مسعود الزناتي. ودخلت المدينة فى طاعة المرابطين وهكذا التحم المرابطين بزناتة لاول مرة ثم بعد فتح سجلماسة ارتد إلى الجنوب فعبر الصحراء وهاجم أهل السودان الغربى فى حوض السنغال وانتصر عليهم وفتح بذلك أمام قبائل صنهاجة البربرية أبواب افريقية المدارية وكسر الحصار الذى كان مضروبا على صنهاجة وكذلك فتح أمامها أبواب التوسع شمالا وجنوبا فأخذت قبائل لمتونة وجدالة ومسوفة ولمطة وجزولة تتوسع جنوبا وبذلك كسر الاسلام النطاق ووصل إلى شعوب افريقية السوداء .

واذا كانت سياسة عبد الله بن ياسين من اذكاء العلم ورفع الروح المعنوية لهؤلاء القوم الا انه جعل أنصاره يقاتلون من أجل الدفاع عن الدين الاسلامى والعودة بالاسلام إلى مجده السابق .

واستطاع عبد الله بن ياسين أن يضع أساس دولة جديدة واتخذه لقومه أميرا يتولى أمورهم ويقود عسكرهم ورتب الجيوش وأمدها بالسلاح وأقام بيتا للمال وجبى الزكاة وأقام العدل وعمل على القضاء على كل ما يعانيه المجتمع من فساد وبعد عن معالم الطريق الاسلامى الصحيح .

وفى أثناء تلك الحروب قتل عبد الله بن ياسين عام ٤٥٧هـ/ ١٠٥٩م وبذلك اختفت تلك الشخصية الفريدة حيث انه كان رجل دين وسياسة وشخصية فريدة أوتيت القدرة على قيادة الرجال وصنع التاريخ .

وقام عبد الله بن ياسين بعمله كله معتزا بحياة يحيى بن عمر بن ابراهيم الجدالى أمير لمتونة وعندما مات يحيى بن عمر وخلفه فى الرياسة أخوه أبو بكر عمر



وقد حظى عبد الله بن ياسين بتأييده بل زادت مكانته عنده لأن عبد الله بن ياسين كان يعطى الامير حقه من الاجلال والتعظيم والطاعة. وعندما قتل عبد الله بن ياسين كان سلطان أبى بكر بن عمر وقبيلته لمتونة قد استقر وطاعت له كل قبائل لمتونة الصحراء ذلك لان عبد الله بن ياسين أتم رسالته قبل موته ووحد صفوف الصنهاجيين تحت راية الجهاد فى سبيل الله وقاد خطواتهم الاولى فى الانتصار على الزناتيين فى الشمال وقبائل افريقية المدارية فى الجنوب وقد ظل فترة يحج اليه الناس من كافة الجهات متبركين .

وكانت زناتة لم تصمد طويلا أمام زحف المرابطين الذين أوقعوا بهم هزيمة قاسية وتم للمرابطين الغلبة فأخضعوا المغرب الاوسط، ثم اتجه المرابطون بعد ذلك شرقا لمنازلة القبائل البربرية الاخرى تحدوهم النزعة القبلية ولكنهم خسروا قائدهم يحيى مما ألجأهم إلى البطء بعض الشئ حيث انتخبوا لزعامتهم أخاه أبا بكر بن عمر فتسلم من ابن ياسين القيادة .

وكان القضاء على زناتة فى المغرب الاوسط دافعا للقبائل البربرية الاخرى التى تسكن المغرب الاقصى وتعادى الزناتيين أن تنضم إلى المرابطين وتخف إلى نجدتهم وتقدم العون لهم .

وهكذا كان ابن ياسين قد سار على طريق السنة النبوية وقام يدعو إلى الحق ورد المظالم وقطع جميع المغارم وكان متمسكا بأهداف السنة عاملا على احيائها مالكى المذهب متمسكا بمذهبه حريصا عليه كل الحرص لم يتجاوز الحدود التى رسمتها السنة وما أجمع عليه أهل المذاهب وكانت حركتهم تحقيقا للاهداف السامية التى كان يسعى إلى تحقيقها من احياء الاسلام وبعث الروح من جديد .

# الباب السابع

## المرابطون بعد عبد الله بن ياسين ودورهم فى المغرب

### أبو بكر بن عمر

بدأت قبائل المرابطين تتجه للمغرب الاقصى فى وقت اشتدت فيه حاجة العالم الإسلامى فى المغرب إلى دماء جديدة ذلك لان دخولها بلاد المغرب قد فتح لها مجدا يؤذن ببداية دور من أدوار الاستقرار والتنظيم فى بلاد المغرب ذلك لان هزيمة الزنوج واخضاعهم ونشر الاسلام فى بلادهم جعل المرابطين لا يخشون أن تطعن ظهورهم من الخلف وكان لابد أن يتجه الملثمين إلى الشمال ذلك لان قبائل زناتة ظلت تسيطر على الاراضى الخصبة فى المغرب فترة طويلة كما انها كانت تسد مسالك البلاد وتقاسم الملثمين تجارة المغرب والسودان فكان على الملثمين أن يناضلوا زناتة ومن هنا كان خروج المرابطين لفتح المغرب الاقصى والقضاء على زناتة .

وكما سبق القول فانه تم القضاء على حكم مغراوة فى سجلماسة لانها كانت من أشد أعداء صنهاجة الجنوب اذ كانت تقف سدا مانعا لتدفق الملثمين صوب المغرب واستطاع المرابطون هزيمة زناتة ووطدوا أقدامهم فى اقليم الواحات وارتفع صوت المرابطين فى اقليم الواحات .

وكانت قبائل المصامدة تكره الزناتيين أشد الكره وتتحين الفرص للقضاء عليهم وتبحث عن حليف تشد أزره ومن هنا ساعدت قبائل المصامدة المرابطين وبذلك استطاعوا فى وقت قصير أن يجتاحوا اقليم السوس الاقصى .

لذلك يعتبر ولاء المصامدة للمرابطين عملا سياسيا باهرا كما يعتبر اجتياز نطاق



جبال درن عملا عسكريا ممتازا ذلك لان قبائل المصامدة تكون كتلة متماسكة قوية شديدة المراس صعبة المقاومة، وانها كانت تسيطر على اقليم السوس الاقصى، كما أن الجيش المرابطى كان وحدة متماسكة وقد أوغل المرابطون فى اقليم السوس حتى المحيط الاطلسى واستطاعوا أن يبسطوا نفوذهم على اقليم مراكش الجنوبية وسيطر المرابطون على مدينة اغمات واتخذوها حاضرة لهم بالمغرب ولم يتركوها الا بعد بناء مراكش .

وذلك بعد أن سار أبو بكر عمر بالحركة فى طريقها الذى رسمه ابن ياسين وكان يستعين فى فتوحات بأقربائه وأهل بيته وخاصة ابن عمه يوسف بن تاشفين شقيق عمر وحوالى عام ٤٦١هـ/١٠٦٩م كان نفوذ المرابطين قد استقر فى حوض نهر تانسيف الفسيح وبات ضروريا انشاء قاعدة سياسية فكان انشاء مدينة اغمات التى كانت تقع جنوبى مدينة مراكش وكانت جيوش المرابطين تتألف من صنهاجيين ومصامدة وان ظلت الرياسة فى يد الصنهاجيين وكانت كل قبيلة تريد انشاء اغمات لها لكن تم الامر فى انشاء اغمات واحدة .

ويبدو أن المرابطين بعد أن تم لهم النصر على اغمات وتادلة لم يواصلوا الفتح على الفور بل بقيت قواتهم فى مدينة اغمات بسبب قتل عبد الله بن ياسين قائد المرابطين .

وشرع أبو بكر بن عمر فى بناء قاعدته وأطلق عليها مراكش وهى بالبربرية مروكش ومعناه قصر الحجر لان بناء المدينة أقيمت بالحجر وهكذا نرى أن هذا الرجل الذى ولد فى حوض السنغال فى افريقية المدارية عرف بفضل ايمانه بالاسلام ودخوله فى حضارته أن يضيف إلى تاريخ الحضارة الاسلامية مدينة من أجمل مدائن الاسلام وهى مدينة مراكش .

ويبدو أن صدى المعارك الدائر بين صنهاجة وزناتة قد ذاع صيتها فى المغرب كله فنجد أن صنهاجة الشرق فى المغرب الاوسط بقيادة (بلكين الحمادى) زحفت إلى المغرب الاوسط لمساعدة صنهاجة الجنوب واستطاع بلكين الحمادى الوصول إلى فاس من الخلف ثم عاد أدراجه إلى المغرب الاوسط وكانت بطون صنهاجة المنتشرة فى أنحاء المغرب الاقصى تنضم للمرابطين وتقدم لهم الدعم والمساندة (انظر الجزء الرابع من الموسوعة) دولة بنى زيرى .

وكان أن توقفت حركة المرابطين للزحف شمالا للمرة الثانية حيث كانت الاولى بعد وفاة عبد الله بن ياسين أما الثانية فانه بينما كان أبو بكر بن عمر قائد جيوش المرابطين وامامهم يرقب العمل فى بناء مراكش العاصمة الجديدة بلغه خبر أن قبيلة جدالة وثبت بقبيلة لمتونة فى الصحراء وأنزلت بها مذبحة فقرر العودة مسرعا إلى منازل القبائل الصنهاجية فى الصحراء لنجدة لمتونة وقبل رحيله جمع رؤساء قومه وطلب منهم أن يختار من بينهم رئيسا لهم يقوم بأمرهم فى غيابه فاختاروا ابن عمه يوسف بن تاشفين وكان تاشفين والد يوسف شقيقا ليحيى وعمر بن ابراهيم .

لكن هناك أقوال تذكر أن سبب تقدم وعودة أبى بكر بن عمر إلى الجنوب هو بسبب ثورة قام بها الزنوج وليس جدالة .

كما يبدو أن سياسة المرابطين فى استرضاء قبائل المغرب قد أتت أكلها وأقبل المصامدة على الاشتراك فى الجيش وانخرطت فى سلكه الفرق الزناتية وبعض فرق برغواطة نفسها وبدأت الدولة تتخلص عن الطابع الصحراوى نهائيا وتتخذ طابع الدولة التى قامت على مسرح المغرب .

وكان أبو بكر بن عمر قد ترك ثلث القوات المرابطية مع يوسف بن تاشفين وأخذ باقى القوات ومضى إلى لمتونة وجدالة وراء الصحراء ومنذ ذلك الوقت انقسمت حركة



المرابطين إلى قسمين أحدهما شمالى بقيادة يوسف بن تاشفين فى مراكش وكان نشاطه فى المغرب والاندلس والثانى يعمل فى افريقية المدارية جنوب الصحراء الكبرى ونظرا لان الصحراء تفصل بين القسمين فقد مضى كل من القسمين يعمل بنشاط .

وكان على المرابطين أن يستعدوا للمرحلة القادمة فى الصراع مع زناتة لانه لاتطمئن قلوبهم وهذا العدو يسيطر على مدينة فاس بالاضافة إلى أن المرابطين كانوا يدركون أن مدينة فاس والوادى الذى تقع فيه مركز النقل فى المغرب الاقصى كله كما أن الذى يبسط نفوذه فى تلك المدينة يستطيع أن يتحكم فى السهول الشمالية كلها ولذا كان قرار المرابطين التقدم نحو فاس والسيطرة عليها مهما تكن التضحيات البشرية واستعد كلا الطرفين المرابطون والزناتيون لمواجهة المعركة المقبلة لكن الهزيمة حلت بالزناتيين ودخل المرابطون مدينة مكناسة واستطاعوا فتح الطريق نحو فاس .

وزحف المرابطون للاستيلاء على فاس وتم لها السيطرة عليها وتركوا بها حامية صغيرة وتقدموا صوب الشمال نحو بلاد غمارة للاستيلاء على طنجة وانتهز الزناتيون فرصة تقدم المرابطون شمالا واستطاعوا اقتحام مدينة فاس وقتلوا حامية المرابطين ونكلوا بها أشد تنكيل، لكن المرابطين ضربوا حصارا شديدا حول فاس لكن زناتة قاتلوا المرابطين خارج الاسوار وهزموهم وكادت تضيع جهود المرابطين فى الجزء الشمالى من المغرب وخاصة مدينة فاس، لكن قائد المرابطين اضطر أن يجمع قواته وعاد أدراجه نحو فاس وعزلها من جميع الجهات ودخلتها قوات المرابطين وفرت قوات زناتة إلى المغرب الاوسط كما تم هدم أسوار المدينة .

وهنا للمرة الاولى بعد فتح فاس يعلو نجم يوسف بن تاشفين ويظهر كبطل حربى ومقاتل ممتاز فى احاطة فاس احاطة السوار بالمعصم والشروع فى استرداد البلاد المحيطة بها من أيدى زناتة وبسقوط فاس تنتهى الحلقة الاخيرة من حلقات الصراع بين زناتة

والمرابطين وبسطت صنهاجة الجنوب سيطرتها كاملة على المغرب الاقصى وتفرق شمل زناتة ولم تعد بالمغرب الاقصى قوة تذكر سوى صنهاجة .

وبعد أن قضى المرابطون على قوة زناتة فى المغرب الاقصى كان لابد لهم أن يتتبعوا القوات التى آوت إلى المغرب الاوسط للقضاء عليها نهائيا بدلا من التحرك إلى السهول الشمالية لاتمام سيطرتهم على المغرب الاقصى، لا سيما أن بعضا من بطون زناتة فرت إلى المغرب الاوسط لتعيد تجمع نفسها مرة أخرى للقيام بجولة أخرى فى الصراع مع المرابطين فكان اتجاه المرابطين إلى المغرب الاوسط .

لذا كان الاتجاه شرقا حتى الوصول إلى اقليم الجزائر حيث تم الاستيلاء على وهران وتنس ووادى ملوية ووجدة وكان فى قدرة المرابطين فتح افريقية لكن تم تركها ابقاء لصلات القربى مع صنهاجة الشمال من بنى حماد وبذلك سيطر صنهاجة الشمال على افريقية (تونس) بينما سيطر صنهاجة الجنوب على المغربين الاوسط والاقصى وقد استمر صراعهم فى المغرب عشرين عاما (٤٤٧– ٤٦٧هـ) والذى أطال تلك الفتوحات فترة عشرين عاما أن المرابطين جاءوا من الجنوب وفتحوا الصحراء ثم توغلوا فى المغرب الاقصى وتم فتحه اقليما اقليما ولم يتركوا ناحية فيه الا وبسطوا سيطرتهم الكاملة عليه ومن هنا جاء فتح المغرب بصورة تامة وكاملة وبذلك صار المرابطون سادة المغرب بعد هذا الكفاح الطويل الذى استغرق عشرين عاما من عمر دولة المرابطين التى يطول عمرها لتصل إلى مائة عام منذ خروج عبد الله بن ياسين من رباطه حتى ظهور دعوة الموحدين التى عجلت بقصر عمر هذه الدولة الفتية (٤٤٧– ٥٤١هـ) .

لقد كان خروج المرابطين لفتح المغرب انما للقضاء على البدع والمذكرات التى تقصف بالمجتمع الاسلامى فى ذلك العصر بل هى المرة الاولى التى تخرج فيها قوات



اسلامية منذ الفتح الاسلامى للمغرب لا حبا فى الفتح والغزو أو السيطرة وبسط النفوذ، بل من أجل رفع لواء الدين الاسلامى وتطبيق الشرع والسنة والقضاء على البدع واقامة العدل واظهار السنة فى ربوع المغرب والاندلس .

وقد أحس القوم فى المغرب أثر هذه الاصلاحات التى رفعها المرابطون لاقامة مجتمعهم الجديد، مجتمع خال من البدع والعسف والظلم والجور ولا شك فى أن الغالبية العظمى من الشعب المغربى كانت فقيرة مستضعفة وتسعى إلى تأييد هذه الحركات الاصلاحية التى وضع أساسها عبد الله بن ياسين فقد كان المرابطون يقيمون العدل ويظهرون السنة واحياء الدين وتطهير المجتمع من الفساد وخلعهم لحكم الملوك وقصر الضرائب على الزكاة والعشور فقط. حتى لقد أصبحوا فى نظر الشعب المغربى المنقذين الذين بعثتهم العناية الالهية لانقاذ الناس من المذلة والفقر والعبودية .

وكانوا المرابطون يطبقون فى المغرب الاقصى نفس السياسة التى طبقوها فى الصحراء حيث كان وراء زحفهم أسباب دينية بقصد الاصلاح، بل أن المرابطين لم يضعفوا بسبب مقتل امامهم عبد الله بن ياسين بل انه حين أشرف على الهلاك اجتمعوا واختاروا اماما غير انه استشهد هو الآخر فى ساحة القتال مما اضطر أبو بكر بن عمر أن يقود المجاهدين من المرابطين وأن يمضى فى القتال قائدا عسكريا واماما حتى تفرقت قبائل براغوطة وأعلنوا الطاعة وأسلموا اسلاما تخلصوا بعده من البدع والخمور والمسكرات والمزامير واستأصلوا العقيدة الضالة واستطاع المرابطون بهذا النصر فتح الطريق إلى طنجة وبذلك أصبحوا على مقربة من عداوة الاندلس التى سيلعب المرابطون دورا فيها يسجله التاريخ بحروف من نور فخما واعزازا للدور الاسلامى الخالد فى الاندلس .

ولقد كانت حركة المرابطين ذات دوافع دينية جعلتهم يقومون بهذه الحركة ليكسروا شوكة العناصر الاسلامية التى أدخلت البدع على العقيدة فى المغرب ولتحويل

الزنوج من عبادة الاوثان فى السودان إلى اعتناق الاسلام .

وكان الملثمون عندما خرجوا للغزو يصحبون معهم نسائهم وأطفالهم ومن هنا كان بناء المعسكرات التى أقامها المرابطون مثل مراكش واغمات تبليلا انما كان بقصد العناية بهذه الاسرات المستقرة فى صنهاجة ولئن غلبت البدواة على المرابطين الا انهم نزلوا السهول الزراعية الرعوية وحلوا بها كطبقة حاكمة وجند مسيطر وكانت سيادتهم المحافظة على جماعة الملثمين كطبقة متميزة لاتخالط أهل المدن ولعل هذه السياسة تفسر تشيدهم للحصون قرب المدن للمحافظة على الطرق التجارية مثل حصن تادلا ومدينة النصر قرب مكناسة وحصن الرباط الذى شيدة تاشفين بن على قرب سلا وحصن قلعة مهدى بن توالى وحصن تاودا .

ويبدو أن الاستقرار المرابطى فى المدن والسهول كان فى بداية الامر على حساب القبائل الزناتية خاصة مغراوة وبنى يفرن الذين كانوا أهل السيادة على الدويلات فى سجلماسة واغمات وقلعة المهدى وفاس وهزمهم المرابطون وورثوا ملكهم فى البلاد الغربية .

وقد ذكر المؤرخون أن قائد المرابطين بالمغرب أرسل إلى قبائل لمتونة وجدالة ومسوفة يرغبهم فى الاستقرار فى البلاد التى فتحوها ويشجعهم للهجرة شمالا فأخذت القبائل تتلاحق للاستقرار فانتشرت قبائل صنهاجة فى هذه البلاد المفتوحة .

أما قبائل مغرواة فقد زحفت إلى الصحراء واستقرت جنوبا فى منطقة جدالة بعد أن فقدوا سلطانهم السياسى بعد أن طردتهم لمتونة وغلبتها على أمرها واحتلت ما بيدها من أراضى خصبة وان مغراوة طردت إلى الصحراء وان المهاجرين الجدد احتلوا المنطقة التى كانت جدالة تحتلها من قبل .



واذا كان المرابطين قد تمكنوا من القضاء على غالبية قبيلة براغوطة على ساحل المحيط الا أن هذه الامارة ظلت تسيطر على اقليم الساحل وتسيطر على مينائى سبتة وطنجة اللذين يتحكمان فى تجارة الاندلس ولها أسطول قوى يسيطر على المضايق وكان لابد للمرابطين من أن يبسطوا سيطرتهم على هذين الميائين لاتخاذهما ملجأ للاسطول المرابطى وتكوين أسطولا يحمى سواحلها ولم يكن الأمر يتطلب الا تجهيز حملة للسيطرة على السهول الساحلية وفتح طنجة وسبتة واستطاعت هذه القوات أن تدخل طنجة عام ٤٧١ هـ وقتلوا أميرها ثم اتجهوا شرقا للسيطرة على مدينة سبتة وحاصروها فى البر والبحر واستطاع المرابطون الاستيلاء على سبتة. وتعتبر هذه المعركة من المعارك الفاصلة فى تاريخ المرابطين بل فى تاريخ المغرب فهى أول معركة تخوضها سفن الاسطول المرابطى وبهذا بسطوا نفوذهم السياسى والحضارى فى أقصى الجنوب حيث افريقيا المدارية والصحراء الكبرى حتى ساحل البحر فى أقصى الشمال .

وقد حققوا هذه الانتصارات الواسعة فى تلك الحقبة الزمنية بفضل قائد عظيم أظهرته الاحداث على مسرحها ليكون بطل الفتوحات المغربية والاندلسية والذى سيقع عليه عبء الدفاع عن ديار الاسلام فى الاندلس وليحفظ كرامة الانسان المسلم على أرض الاندلس ذلك هو يوسف بن تاشفين اللمتونى الذى قامت الدولة على أكتافه. والذى لعب دورا بارزا ومؤثرا بل وفعالا فى تاريخ المرابطين. بل به الشخصية الوحيدة فى تاريخ هذه الدول بل هو العمود الفقرى الذى حفظ للدولة كيانها ونفوذها وسيادتها وكان من الشخصيات القليلة فى التاريخ المغربى بل فى التاريخ الاسلامى عامة .

# الباب الثامن

## يوسف بن تاشفين ودوره فى المغرب

يعتبر يوسف بن تاشفين من أعظم الرجال الذين أنجبهم المغرب الاسلامى بل العالم الاسلامى قاطبة فاذا كان عبد الله بن ياسين صاحب دعوة المرابطين وامامها فان يوسف بن تاشفين هو بانى ومؤسس دولة المرابطين حيث كان له أبعد الاثر فى توجيه تاريخ المرابطين والمغرب وقام بدور أساسى فى بناء المغرب الاقصى واعطائه حدوده الطبيعية التى ثبت عليها التاريخ فهو الذى وحد من الصحراء إلى ساحل البحر المتوسط ومد حدوده من سحل المحيط إلى شرق نهر المولوية وضم اليه اقليم تلمسان والجزء الغربى من المغرب الاوسط حتى مدينة الجزائر .

ولم تذكر المصادر التاريخية شيئا عن حياته فى الصحراء بل انه ذكر لاول مرة باعتباره قائد مقدمة الجيش المهاجم، ولما تم فتح اقليم الواحات ولاه ابن عمه أبى بكر بن عمر على سجلماسة وانه كان متشبعاً بمبادئ الامام عبد الله بن ياسين .

ولقد أصبح اسم المرابطين مرتبطاً بيوسف بن تاشفين وكان ابن تاشفين أسمر اللون متوسط القامة رشيقا وهو وان كان لا يميل إلى الحرب الا انه كان شجاعا ذا عزيمة قوية نشيطا كريما عازفا عن الملذات، عادلا، ظل طول حياته مواظبا على أكل اللحوم وشرب اللبن لايعرف غيرهما غذاء له وقد أحسن إلى الناس وعمل فى سبيل الاصلاح بقدر الطاقة .

ويمتاز يوسف بن تاشفين بالخصائص الأساسية التى تميز بها بناة دولة الاسلام وكان عميق الايمان بالاسلام وفضله ورسالته وشعوره بأنه يجب عليه أن يخدم هذا



الدين ويدافع عنه ويرد كيد الاعداء ويجاهد فى سبيله ويعمل على حماية عالمه من الاخطار والنظرة الثاقبة الواسعة إلى العالم الاسلامى .

ويرجع اليه الفضل فى فتح اقليم السوس الاقصى، فلما قتل عبد الله ابن ياسين وأجمع شيوخ المرابطين على مبايعة أبى بكر بن عمر وتشعبت وزادت مهامه اشتد اعتماده على ابن عمه يوسف بن تاشفين فقد اعتمد عليه فى قيادة القوات الملثمة المرابطة فى مدينة اغمات .

وعندما حملت الانباء من الجنوب تحفز ملوك الزنوج بقبيلة لمتونة فلم يجد أبو بكر أمامه الا الانحدار جنوبا ليوحد الملثمين والقضاء على القوات التى طعنتهم من الخلف فأخذ أبو بكر لابن عمه يوسف بن تاشفين البيعة على المغرب وفوض اليه أمه وقد أقره شيوخ المرابطين على هذا الاختيار فبرز يوسف بن تاشفين إلى القيادة وآلت اليه قيادة المرابطين فى المغرب فى ظروف عصيبة تتطلب مثل هذا القائد لمصارعة جميع القوى المعادية فى وقت واحد. فقد توافرت فيه الصفات التى جمعت حوله شيوخ قبائل المرابطين أصحاب عبد الله بن ياسين وكان من الشجاعة بحيث كان قراره مواجهة الاعداء جميعا دفعة واحدة تقوم القوات الصنهاجية كلها قومة رجل واحد تجاه الاعداء واليه يرجع الفضل فى فتح فاس واعادتها مرة ثانية من أيدى زناتة اذ اختص نفسه بمحاصرة منطقة فاس وما جاورها لانها قلب المقاومة وبهذا أخذت قلاع العدو تسقط واحدة تلو الاخرى وبدأت القوات المرابطية تأخذ زمام المبادرة بفضل قائدها يوسف الذى استطاع أن يذكى الحمية فى النفوس .

وبعد أن فرغ يوسف من انهاء وجود زناتة فى المغرب الاقصى وخاصة حول فاس

فإن أبا بكر بن عمر كان قد فرغ من القتال فى الجنوب ورد القبائل المتمردة وصارع ملوك الزنوج وعاد إلى المغرب الاقصى مرة أخرى وكانت عودة أبى بكر إلى المغرب عودة طبيعية حيث كان لايزال هو قائد المرابطين وأميرهم وامامهم بعد عبد الله بن ياسين لاسيما بعد أن فرغ من القتال فى الجنوب .

كما أن يوسف لم يكن يفكر فى اغتصاب الحكم من ابن عمه ولاقيادة الجيوش بل كان يعتبر نفسه قائدا من قبل أمير البيت اللمتونى وكان ابو بكر رجلا زاهدا يلبى المرابطون نداءه وكانت عودته إلى المغرب لا طمعا فى سلطة أو قيادة وإنما ليقف على الجهود التى بذلها يوسف ابن عمه .

وقد ترك أبو بكر بن عمر ليوسف أمر المغرب وعاد إلى الصحراء لانه كان رجلا زاهدا فى الدينا عزوفا عن السلطان وانه أحضر شيوخ لمتونة وأعيان الدولة وأمراء المصامدة والكتاب والشهود وأشهدهم بالتخلى عن أمر المغرب من تلقاء نفسه وان كانت النقود ظلت تسك (تضرب) باسمه منذ عودته عام ٤٦٥هـ حتى توفى عام ٤٨٠هـ باعتباره أمير الدولة وحاكمها الأوحد .

فحين تنازل أبو بكر ليوسف بن تاشفين عن حكم المغرب الاقصى كان أبو بكر المرئيس والامير والقائد ولكن فى عام ٤٥٣هـ/ ١٠٦١م اضطر للرجوع للصحراء والمغرب الاقصى لم يتم فتحه بعد، لان النزاع بين قبائل صنهاجة فى الصحراء والغزو الغانى من الجنوب هدد مواطن قبائلهم. فترك أبو بكر يوسف قائدا على المرابطين ليتم فتح البلاد الغربية وخلال غيبة أبى بكر كان يوسف يتصرف كنائب باسم أبى بكر، ولكن بعد تنازل أبى بكر اختلفت العلاقة بين الرجلين ويدل على ذلك أسباب تنازل



أبى بكر وتصرفات يوسف خلال فترة تابعيته ويبدو أن يوسف كان يعمل للاستقلال بالامر والتفرد بما يفتح من بلاد فأخذ فى عام ٤٦٤هـ/ ١٠٧٢م يكون جيشا من السودان والعرب والبربر والروم يكون ولاؤه له شخصيا كما شرع فى استدعاء المرابطين من الصحراء دون علم أبى بكر. هذا فضلا عن أن الجيش الذى تركه أبو بكر تحت إمرة يوسف أصبح ولاؤه ليوسف نتيجة انتصاراته فى المغرب وفتحه البلاد فوجدوا فيه البطل المحارب والقائد القاهر. وفى ضوء هذا يمكن فهم أسباب تنازل أبى بكر لما عاد إلى اغمات مرة ثانية من الصحراء، لقد اضطر للتنازل لما وجد ملكا قد شيد ودولة قد أست فى غيبته ومن صنع غيره فلم يكن أمامه الا التنازل واكتفى بحكم الصحراء ووعده يوسف بألا يبرم أمرا دونه أو يستأثر بخير عليه، وقد استقل يوسف بالمغرب استقلالاً تاما. غير انه حافظ على علاقات مودة بصنهاجة الصحراء حتى وفاة أبى بكر فى ٤٦٨هـ/ ١٠٧٥– ١٠٧٦م واستمرار الهدايا بينهما يشهد بذلك، لكن بعد فترة فى عام ٤٦٩هـ/ ١٠٧٦م جاء ابراهيم بن أبى بكر إلى مراكش مطالبا بحكم المغرب الاقصى فرد بالترهيب والترغيب فرجع إلى صحرائه محملا بالهدايا التى استمرت بعد ذلك عنوانا على حسن العلاقات بينهما وأغلب الظن أن المرابطين كانوا ينظرون إلى الصحراء نظرتهم إلى المناطق المستقلة عنهم اذ كانوا ينفون اليها غير المرغوب فيهم من الامراء مثلما كانوا ينفون هؤلاء إلى ميورقة قبل فتحها .

مهما يكن من شئ، فإن يوسف بن تاشفين يعتبر المؤسس الحقيقى لدولة المرابطين اذ أن اتمام فتح المغرب يرجع اليه فقد وطد نفوذ الملثمين وجعلهم يقيمون دولة بل إن البلاد كانت فى حاجة اليه .

وقد ورث يوسف بن تاشفين عند توليه قيادة المرابطين عام ٤٦٥هـ/ ١٠٧٤م

كل النتائج السياسية التى حققها من قبله فى المغرب عبد الله بن ياسين ويحيى بن عمر وأخيه أبو بكر فاختار لنفسه لقب أمير المسلمين وجعل من سجلماسة قاعدة جنوبية لدولته فأصبحت مركز تجمع الصنهاجيين القادمين من الصحراء. واهتم كذلك بمراكش وسلا فاتسع العمران فيها وأصبحت عاصمة دولة كبيرة وكثرت فيها المساجد والمنشأت وأصلح مدينة فاس بعد دخولها وجعلها مدينة واحدة بعد أن كانت مدينتين ولف حولها سورا حصينا وأكثر من انشاء المساجد فيها وأفلح يوسف فى القضاء على مقاومة القبائل التى كانت تقف فى طريق توحيد المغرب .

كما عمد إلى تنظيم الجيش تنظيما جيدا وجعل الجيش فرقا على رأس كل فرقة قائد من رجاله الذين يثق فى اخلاصهم حتى حقق ما أراد من نصر كما بنى الحصون والقلاع فى أرجاء المغرب الاقصى والاوسط وجعلها تمتد من مراكش جنوبا حتى مدينة فاس فى الشمال ومن تلمسان شرقا إلى طنجة غربا فاستطاع أن يطفىء نار الفتنة وأن ينشر الاسلام فى المغرب خاليا من البدع والضلالات ويقر الامن والسلام فى ربوعه .

وقد حكم يوسف بن تاشفين تلك الاقاليم الواسعة التى لم تجتمع لغيره من أهل المغرب من قبله بالحنكة والكياسة والفطانة والسياسة التى دلت على ملكات ادارية وتنظيمية كبيرة وكان أساس تنظيمه كله العدل أى إنه كان يتوخى بسط لواء العدل فى كل ما طاع له من البلاد والقبائل فكان يختار للولايات والامارات خيرة رجاله من أهل العدل والدين من رجال القبائل الصنهاجية ويضم إلى كل والٍ فقيه أو أكثر لكى تكون أحكام رجاله طبقا للشريعة الاسلامية والسنة النبوية .



بل إنه نظم الجيش وعمد إلى توزيع القيادة على فرسان صنهاجة فاختار أربعة قواد وسيرهم لقتال القبائل العاصية وهم محمد بن تميم الجدالى، عم بن سليمان المسوفى، ومدرك التلكاتى، وسير ابن أبى بكر اللمتونى وعقد منهم خمسة آلاف من قبيلته .

ورفع عن أهل البلاد فى المدن والقرى والقبائل المغارم والضرائب الباهظة التى كان يجمعها الزناتيون منهم وكان يوصى رجاله بالعدل والرفق بالناس وكانت له شخصية مهيبة فرضت نفسها على رجال القبائل الصنهاجية وأهمها لمتونة وجدالة ومسوفة ويليها فى الاهمية والقوة لمطة وجزولة وبنو وراث وتارجا وقد سرت روح الجهاد فى سبيل الدين فى نفوس أهل القبائل هذه كلها .

بل إن أهل الرجل لم يكد يقيم دولته حتى كتب إلى الخليفة العباسى يعلمه بالدخول فى طاعته ويظل برايته لان ذلك كان رمزا على وحدة العالم الاسلامى بل إنه كان يحكمه شعور دائم بضرورة نصرة الاسلام وحماية داره ما وسعه إلى ذلك داخل البلاد وخارجها بالاضافة إلى أنه كان يقرب اليه كبار الكتاب والادباء والعلماء وشجع العلماء والفقهاء وحثهم على نشر العلوم الاسلامية العربية ووضع الامكانيات الواسعة تحت أيديهم لنشر تعاليم الاسلام الصحيحة بين الرعية .

وكان يوسف بن تاشفين سلطان لمتونة لما ملك العدوتين (المغرب والاندلس) فانه قد نزع إلى الدخول فى طاعة الخليفة العباسى تكميلا لمراسيم دينه فخاطب المستظهر بالله العباسى وأخذ عليه بيعته عبد الله بن العربى وابنه القاضى أبا بكر من مشيخة أشبيلية يطلبان توليته اياها على المغرب وتقليده ذلك فانقلبوا اليه بعهد الخلافة له على

المغرب واستشعار زيهم الأسود فى لبوسه ورتبه وخاطبه فيه بأمير المؤمنين تشريفا واختصاصا فاتخذها لقبا له ويقال انه كان دعى له بأمير المؤمنين من قبل أدبا مع رتبة الخلافة لما له عليه قومه المرابطون من انتحال الدين واتباع السنة .

لا سيما أن يوسف كان قد جمع للدولة ثروة طائلة من الزكاة والعشور وغيرها من الدخول وقد عمل على تأليف قلوب زعماء الملثمين وولى رجالها الاعمال واستطاع بهذه السياسة البعيدة النظر أن يستميل الزعماء وأن يكسب ودهم فمالوا اليه ووقفوا إلى جانبه وعمد يوسف إلى مهادنة القبائل المغلوبة على أمرها فكان يستدعى زعماءها ويكرم وفادتهم ويجزل لهم العطاء ويؤلف قلوبهم .

وبذلك استطاع المجاهد يوسف بن تاشفين أن يتم فتح جميع أرجاء المغرب الاقصى وأن يعلى كلمة المرابطين فيه ويرفع من شأنهم وينشر الامن والرخاء فى ربوع البلاد بفضل السياسة الحكيمة التى انتهجها فبدأت الحياة تدب فى شتى مرافق الحياة وبدأت قبائل الملثمين تنتشر فى البلاد وتستقر فيها وبدأت قبائل الملثمين بعد هذا النصر العظيم على قبائل زناتة تشعر بقوتها وبدأت الموارد المالية تتدفق على بيت المال بعد كفاح دام عشرين عاما .

وعلى هذا فقد أتم يوسف بن تاشفين دور أستاذه ومعلمه الاول عبد الله بن ياسين كما انه شارك ابن عمه أبى بكر بن عمر مرحلة الفتح الاولى فى المغرب وأتم بمفرده فتح باقى أنحاء المغرب الاقصى حتى الساحل الشمالى وبذلك فاذا كان الفضل فى دعوة المرابطين وقيام دولتهم فى المقام الاول يعود إلى عبد الله بن ياسين وتعاليمه التى طهرت النفوس، فان الفضل يرجع إلى يوسف فى فتح بلاد المغرب كلها والانتقال



بالدولة من الطور الاول وهو الطور الصحراوى إلى الطور المتطور المستقر الراقى القائم على الادارة والتنظيم وبناء العاصمة واتخاذ الحصون والقصور وبناء الاساطيل وتخليص الدولة من طابعها الصحراوى البدوى إلى السمة المغربية الخالصة .

واذا كان شيوخ المرابطين قد اختاروا أبو بكر بن عمر خليفة لعبد الله ابن ياسين بعد قتله، فإن القوم قد وافقوا على اختيار يوسف وسلموا له بحق القيادة السياسية والزعامة الدينية ووثقوا فيه كل الثقة بأنه القائد القادر على قيادتهم فى الازمات وتحويل الهزيمة إلى نصر كما حدث فى معركة فاس وهو الذى يرفع لواء الجهاد فى سبيل نصرة الدين الاسلامى .

ولقد قام المرابطون فى المغرب بأعمال رائعة فعلا فقد جعلوا من أنفسهم سداً يحول بين الحكم الفاسد والضرائب الجائرة ولبى الناس معتصمين بالقرآن الكريم وتمكنوا بذلك عن طريق المدينة الحديثة مراكش أن يقيموا امبراطورية اسلامية ناجحة تسيطر على النصف الغربى والاوسط من المغرب لأن الجهاد كان عصب هذه الحركة والقوة التى دفعتها إلى الامام وكان يوسف بن تاشفين رائدا فى ذلك المضمار .

وانه لم ينته عام ٤٧٥هـ/ ١٠٨٢م حتى وصل يوسف بن تاشفين إلى ذروة قوته فى المغرب، أى انه تمكن من بناء هذه الدولة الكبيرة خلال اثنتى عشرة سنة من العمل الدؤوب وأقامها على أكتاف رجال من صميم المغرب وقيام هذه الدولة يمثل ذروة التطور السياسى فى المغرب منذ الفتح الاسلامى .

ولقد كان قيام دولة المرابطين أقوى التجارب فى المغرب وأنضجها جميعا مما يدل على أن الاسلام عندما دخل افريقية والمغرب أيقظ أهلها ووضعهم فى طريق التقدم

السياسى والاجتماعى حتى وصل بهم إلى هذا المستوى الذى وصل اليه يوسف بن تاشفين بالحركة المرابطية. وقد اشتهر ذكر يوسف بن تاشفين اذ ذاك فى العالم الاسلامى كله بأنه سلطان مسلم عادل ومجاهد ومخلص فى سبيل الله .

وكان الجهاد فى المغرب فى الصحراء قبل ذلك دستور الملثمين ورائد المرابطين .

ولقد كانت رسالة عبد الله بن ياسين هى عدم الخلود إلى الراحه والدعة ولو ركنت إلى الراحة بعد هذا الكفاح لتفرق شملها لأنها كانت تريد أن تبعث الامة الاسلامية بعثا جديدا ، بل إن دولة المرابطين كانت بأفعالها تقول للدول الاسلامية المعاصرة إنها دولة مجاهدة فى سبيل الاسلام وتعمل على رد أعداء الإسلام عن ديار الإسلام .

ومنذ ظهور دولة المرابطين توفرت فى البلاد المغربية حياة مستقرة كما أن مراكش أصبحت مركز الثقل السياسى فإليها يهرع المتعلم طلبا للعلم، والتجار بحثا عن سوق فتقاطرت جموع البربر والعرب والاندلسيين إلى تلك العاصمة .

ولما أتم المرابطون فتح المغرب نظروا إلى قبائل البربر التى فتحوا أرضها على انهم أنصار من الاصل ولم يقم المرابطون باسترقاق القبائل البربرية التى فتحوا أرضها، بل نظروا اليهم كأهل أو جيران .

وتحالف الفقهاء مع المرابطين منذ بداية ثورتهم وما اشراكهم فى الخمس الا مظهر من مظاهر هذا التحالف ولما تم فتح باقى أرجاء المغرب توثقت عرى الحلف فعمل الفقهاء مع الدولة الجديدة واحتلوا المراكز الاساسية فى الادارة .



وقد فرض المرابطون الامن فى أرجاء دولتهم منذ قيامهم وتأقلموا بسرعة مع الحضارة المغربية وقامت نهضة زراعية فى البلاد، وكل هذا كان من العوامل التى ساعدت على قيام صناعات جديدة وتطوير القديم منها وكانت مراكش هى مركز السلطان السياسى ومكان الصناعات الجديدة فقد نقلت الخبرات المغربية إلى هذه المدينة ولكن الدولة الجديدة لم تكن فى حاجة إلى كسب مادى فلم تكن فى حاجة إلى أن تكسب أرضا جديدة أو تمضى فى توسع جديد، انما كان المرابطون يهدفون إلى تنفيذ تعاليم عبد الله بن ياسين فى احياء الإسلام ورده إلى قوته الاولى ومحاربة البدع والفساد وبعث الامة الاسلامية بعثا جديدا .

وكان استيلاء المرابطين على مدينة طنجة وسبتة قد جعلها تطل على سواحل البحر المتوسط وأصبحت لها شواطئ طويلة معرضة لغارات الاساطيل الاجنبية من الفرنجة. ومن هنا بات فى فكر الدولة الجديدة أن تلقى بنظرها إلى ما يجرى فى البحر المتوسط وما خلفه من ديار اسلامية وما يجرى من صراع سياسى وحربى بين المسلمين والفرنجة من أجل السيادة البحرية بل إن الدولة الجديدة بدأت تطل بثاقب نظرة إلى الأندلس، وما يجرى فيه من أحداث مؤسفة بتات تحدق بالمسلمين من كل جانب بهذه الديار وكان ما يجرى فى حوض البحر الابيض المتوسط أو فى الاندلس تهلع له قلوب المسلمين وتنفطر له ديار الاسلام الذين يتابعون بألم وأسى ما يجرى لأخوانهم ولدينهم وتراثهم الاسلامى الخالد. ومن هنا بات قاب قوسين أو أدنى أن تدخل الدولة الجديدة فى المعركة الدائرة رحاها بين المسلمين والفرنجة والتى تنذر أحداثها بنذر خطيرة فى تاريخ المغرب والاندلس. لذا كان الواجب الاسلامى يقتضى التدخل المباشر فى ميدان الجهاد لمدافعة الفرنجة وردهم عن حياض المسلمين سواء فى حوض البحر الابيض أم

فى الاندلس .

لانه لم يكن من الممكن أن تقف مرحلة النضال عند حدود المغرب الاقصى لان قيام الدولة لم يكن فى الواقع الا حركة جهاد مستمرة بدأت مرحلتها الاولى فى الرباط الذى أنشأه عبد الله بن ياسين فى حوض السنغال ثم شملت الصحراء والمغرب وأخيرا الاندلس .

ذلك لانه فى تلك الاوقات العصيبة فان أمر المسلمين فى الاندلس قد وصل إلى درجة من الضعف والانهيار جعلت مصير الاسلام فى شبه الجزيرة فى حظر شديد حيث باتت الاخطار تحدق بالاندلس من الشمال والغرب بعد أن تقاسمت بلاد الاندلس جماعة من ملوك الطوائف أو المستبدين بأقاليمهم حيث كانوا فى الاصل عمال دولة الخلافة القرطبية أو قضاة فى اقاليمهم فقدمهم الناس الولاية حتى تتجلى غمرة الحرب الاهلية التى دارت رحاها حول الخلافة بعد سقوط العامريين ثم حولوا أنفسهم سلاطين صغار لكل منهم بلاط وحاشية .

وقد توج يوسف بن تاشفين عمله باعتباره حامى الاسلام بأن قاد جنده إلى الاندلس. ولقد كان قيام يوسف بن تاشفين بعبوره إلى الاندلس وقام بدور كبير فى انقاذه من الضياع خلال النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى، الحادى عشر الميلادى وكسب للاسلام فى صراعه مع النصرانية على مصير الاندلس انتصارات كبرى جعلته شخصية مشهورة لها مكانها فى تاريخ أوربا والمغرب كله وهو لهذا كله يعتبر من أفذاذ الرجال فى تاريخ الاسلام .

وبما يكن من شئ فإن الاوضاع فى الاندلس تناهت فى السوء وأصبحت الحالة



فيها شاقة عسيرة ووضح للناس أن النهاية آتية لا ريب فيها فتحكمت الذاتية فى أطماع الناس شعبا وحكاما وأصبح الامراء يعيشون لساعتهم لايحسبون حسابا لشعبهم ودينهم وظهرت روح الضعف فى صفوف ملوك الطوائف وانهارت القوى المعنوية للشعب وكاد يفتقد قدرته على المقاومة والنضال .

وكان الفقهاء والمفكرون يشاهدون هذه الفرقة الداهمة فيتألمون لما أصاب المجتمع من انحلال ويصورون هذه الحالة المفجعة بأسلوب مفعم بالألم والحسرة وكتبوا كثيرا إلى الامراء يدعونهم إلى الوحدة وتأليف القلوب لمواجهة ذلك العدو الذى زاد عدوانه وانتشر فى أنحاء كثيرة فى الاندلس. لكن لم يستجب لهم مستجيب الا أن جهودهم لم تذهب سوى فقد أخذوا يوضحون لاهل الاندلس الاحوال القائمة فى البلاد والحالة التى وصل اليها أمرهم من ضعف وانهيار ويلقون الضوء على الفساد. ويهيئون العقول لقبول تحول جديد فى تاريخ البلاد، ويمهدون الطريق لفتح صفحة جديدة فى تاريخ الأندلس أمام زحف المرابطين القادم من المغرب والذين رفعوا راية الجهاد الاسلامى من أفريقيا المدارية عبوراً للصحراء وصولا إلى المغرب وساحل البحر المتوسط ثم الخطوة القادمة مواصلة الجهاد فى الاندلس .

# الباب التاسع

## جهاد المرابطين فى الاندلس

بعد أن أتم يوسف بن تاشفين فتح بلاد المغرب أخذ يجوب أرجاءه محرضا القبائل على الجهاد فى سبيل الله محرضا لهم الانخراط فى سلك المجاهدين لانه كان يرى وجوب اتحاد القوة الاسلامية كلها خلف قوات المرابطين للقيام بعمل اسلامى واحد فى الدفاع عن حقوق اخوانهم فى الاندلس لانه كان يرفع شعار الجهاد فوق كل شعار لاسيما بعد حالة التردى التى وصل اليها حال المسلمين فى الاندلس .

وانتهز ملوك أسبانيا من النصارى فرصة الضعف والفرقة التى حلت بالمسلمين فعملوا على التوسع على حساب أولئك الامراء الضعاف الذين كانوا يعتمدون على قوات من الجند المرتزقة. وفى تلك الاثناء كان يوسف بن تاشفين بعد العدة للتدخل فى الاندلس لانه كان يسعى لتحقيق أهداف المرابطين فى الجهاد والتمكين للدولة الناشئة والدفاع عن القوى الاسلامية لانه وضع نصب عينيه الجهاد فى الاندلس وهو يسير قواته لفتح سبتة وطنجة وأصبح المرابطون بعد قرب الصلة بين المغرب والاندلس وقد أطلوا على هذه البلاد يشهدون ما يجرى فيها من أحداث ويرقبون المعركة الدائرة بين المسلمين والنصارى .

بالاضافة إلى أن الفقهاء والعلماء كانوا يرحلون من الاندلس إلى المغرب معتصمين بالمرابطين كما كان هؤلاء الفقهاء يرون الاحداث الدامية فى الاندلس لشيوخ المرابطين بل إن بعضا منهم كان يقابل يوسف بن تاشفين ويحضونه على وجوب التدخل بعد أن اشتدت وطأة الفرنجة عليهم .

وكان يوسف يضع أحوال المسلمين فى الأندلس من الاهداف الرئسية للجهاد



ومن هنا أعد العدة للتدخل فى تلك الديار ولوانه كان عازفا عن التدخل فى الاندلس لصرف هذه القوات لغزو افريقية والتوسع شرقا اضافة إلى أن ملوك الطوائف فى الاندلسى أحسوا باستعداد يوسف لدخول الاندلس فكاتبوا يوسف تحت ضغط الفقهاء الذين لعبوا دورا بالغا فى تدخل المرابطين اذ وضعوا قضية الوطن أمام الرأى العام الاندلس ودعوا لإيجاد وحدة بين القوى الاسلامية للوقوف فى وجه الخطر الفرنجى الزاحف لاسيما بعد سقوط طليطلة وازدياد نفوذ النصارى فى الاندلس ومن هنا عملوا على تأليب الرأى العام على ملوك الطوائف ويمهدون لجيوش المرابطين اذا هى تدخلت فى الصراع الدائر على أرض الاندلس حتى يلتف الشعب الاندلسى خلفها لاسيما أن القوى النصرانية تريد القضاء نهائيا على القوى الاسلامية .

وكان المرابطون يعدون العدة لخوض معركة الاندلس والجهاد مهما كلفهم ذلك من أضرار وخسائر اذ قال يوسف بن تاشفين فى هذا الصدد عند السيطرة على الجزيرة الخضراء فى الاندلس «انما كان غرضنا فى تملك هذه الجزيرة أن نستنقذها من أيدى الروم لما رأينا استبدادهم على أكثرها وغفلة ملوكهم واهمالهم للغزو وتواكلهم وتخاذلهم وايثارهم الراحة. ولئن عشت لأعيدن جميع البلاد التى ملكها الروم فى طول هذه الفتنة إلى المسلمين ولاملأنها عليهم خيلا ورجالا لا عهد لهم بالدعة ولاعلم عندهم برخاء العيش انما هم أحدهم فرس يروضه .

وكانت حركة الاسترداد فى عهد «فردناند» قد اتخذت صفة دولية وبدأ النصارى فى كافة أوربا ينظرون اليها كجهاد مقدس وكان الملك المسيحى يريد أن يلعب دورا عاليا ويبسط نفوذه لا على شبه جزيرة ايبريا فقط بل على كل غرب أوربا كلها ومضت حركة طرد المسلمين من ديارهم فى الاندلس حتى بلغت الذروة وأصبح يطالب بإخضاع جميع المسلمين واجلائهم عن الميلاد. فقد كان يعمل على ارهاب القوى

الاسلامية وبث الرعب فى قلوب المسلمين وبثقل على الناس والأمراء فى فرض الجزية والغرامات حتى اذا أضاف الامراء المسلمين وخافوا بطش زعيم النصرانية اضطروا إلى دفع الجزية والاستعانة بالاموال لدفع خطر الفرنجة وقد دفع الجزية صاحب طليطلة وأشبيلية وبطليوس وسرقسطة لأنهم لم يكونوا قادرين على الدفاع عن ديارهم ولم تكن لديهم الكفاءة القتالية ودارت الحرب وبدأ الصراع يشتد بين المسلمين والنصارى وأخذ كل صاحب قوة يجنح إلى استخدام قوته لتحقيق مجده الشخصى وضاع الحماس الدينى وطلب بعض الامراء المسلمين التحالف مع المسيحيين بل أصبحوا تابعين يدفعون الجزية وبلغت حركة طرد المسلمين ذروتها فى عهد «فردناند» وبدا للناس أن أيام المسلمين فى شبه الجزيرة معدودة، ولولا وفاة فردناند عام ١٠٦٥م وتفرق شمل ملكه عقب ذلك لانتهت دولة المسلمين بالاندلس نهائيا .

وفى تلك الظروف لم تستطع القوى الاسلامية أن تنبذ خلافاتها وتوحد قوتها وتنتهز فرصة الانهيار فى المجتمع المسيحى، لكن آلت الزعامة المسيحية إلى الملك ألفونس السادس الذى أخذ يعمل على طرد المسلمين بعد أن جمع ملك أبيه «فردناند» واستطاع أن يجعل الحرب الدائرة فى الاندلس حربا صليبية ترعاها كنسية روما وتجند المسيحيين من أجل المشاركة فيها بل أن البابا فى أوربا قال أن الحرب فى الاندلس لاتقل أهمية عن الحروب الصليبية فى الشرق .

وكانت أضعف الامارات الاسلامية فى الاندلس امارة طليطلة التى يحكمها أبناء «ذى النون» وكانت ولاية واسعة تمتد من حوض نهر تاجة إلى مشارف حوض الوادى الكبير بل كانت هذه الامارة تمثل ربع الاندلس وكان يحكمها أمير من بنى ذى النون يلقب بالمأمون كان يدفع اتاوة سنوية لملك قشتالة وليون المجاورتين له من الشمال والغرب .



وكان الملك «ألفونسو السادس» لما استقر على عرش بلاده بدأ يرمى ببصره إلى طليطلة ليحقق أهدافه فى الاستيلاء عليها وكان من أثر هذه السياسة أن سقطت مدينة طيطلة فى يده وانتزع من صاحبها بعض الحصون المحيطة بها ثم انقض على المدينة وضرب حولها حصارا فلم يكن بدا من التسليم وكان لسقوط طليطلة فى يد ألفونسو السادس أثر عظيم فى حركة طرد المسلمين وإلهاب حماس القوى النصرانية والعمل على القضاء على المسلمين نهائيا من الاندلس، وفت فى عضد المسلمين وبادروا يخطبون ود ألفونسو الذى كان يطمع فى الاستيلاء على قرطبة حاضرة الخلافة بعد أن بدأت الحصون الاسلامية تتهاوى أمامه دون أن يرتفع أمامه سيف واحد وهكذا استولى ألفونسو على ربع الاندلس دون أن يستعمل سلاحا .

ورغم هول الصدمة وشدة تأثيرها فى القوة الاسلامية مما جعل ملوك الطوائف يفيقون من غفلتهم ويدركون أن مصيرهم كلهم مثل طليطلة وصاحبها المأمون بن ذى النون، بعد أن تحولت مملكة قشتالة وليون إلى أكبر دولة فى شبه جزيرة أيبريا بعد استيلائها على طليطلة وانحدرت قواتها إلى الجنوب واستولت على معظم بلاد حوض الواديانة ودخلت قواتها قوربة والاشبونة وشنترين وأخذ ألفونس السادس يتأهب للاستيلاء على بطليوس وأشبيلية ولم يعد يقنع بالأتاوات التى يؤديها اليه أمراءها، كما أرسل إلى كل الامارات الأندلسية نوابا عنه ليفرضوا سلطانه ويرهبوا عدوه وضرب الحصار حول سرقسطة ورفض الاموال السخية وحاصرت قوات قشتالة مدينة غرناطة وبدأت الاحلام تراود النصارى فى أخذ قرطبة حاضرة الخلافة والملك .

بل إن بعض الروايات تذكر أن ألفونسو السادس سار جنوبا إلى أقصى جزيرة طريف فأدخل قوائم فرسه فى البحر وقال هذه إخر بلاد أجدادى .

ومن الغريب أن ملوك الطوائف قد أكسبوا سياسة اغتصاب امارتهم صفة شرعية

نظرا لقعوسهم عن الجهاد وتفرقهم لأن الفرقة كانت ظاهرة شاملة انتابت الشرق الاسلامى كله، لكنها فى الاندلس كانت كارثة، الفرقة فى العالم الاسلامى والوحدة والنهضة تدب فى أوصال أوربا فى القرن الحادى عشر الميلادى وأوائل القرن الثانى عشر وظهرت فى أوربا نهضة عظيمة بدأت تبسط سلطانها على غرب أوربا وتدفع القوى المسيحية المختلفة إلى خوض معركة حاسمة ضد القوى الاسلامية فى الشرق والغرب .

وكانت دعوة المرابطين قد أيدها رجال الدين الذين طالما سمعوا عن بساطة المرابطين وأيدهم الشعب وبدد المعتمد بن عباد الذى خلف أباه المعتضد على عرش أشبيلية شكوكهم حين قال انه لا يرغب فى أن يصفه نسله بأنه الرجل الذى ترك الاندلس فريسة لغير المؤمنين فسوف يلعن اسمى على كل المنابر، أما من ناحيتى فإنى أوثر أن أكون راعى ابل فى افريقيا على أن أكون ملكا فى قشتالة .

وهكذا تم استدعاء المرابطين للاندلس .

وعلى الطرف الآخر كانت قد انهارت القوى المعنوية للشعب المسلم فى الاندلس وكاد يفقد قدرته على المقاومة والنضال نظرا لفساد الحياة فى البلاد لأن الامراء خانوا الامانة على مرأى ومسمع من الناس .

لكن فى هذه الظروف الصعبة التى تمر بها الاندلس اضطر ملوك الطوائف إلى طلب النجدة من يوسف بن تاشفين وتوجه وفد من فقهاء الاندلس ولقى يوسف بن تاشفين واطلعه على خطورة الوضع وشرح أحوال ملوك الطوائف وطلب إلى الامير المرابطى إلى أن يعمل على انقاذ الاندلس وأدرك المجاهد خطورة الموقف ولبى داعى الجهاد الذى قامت حركة المرابطين على أساسه وهو الجهاد فى سبيل عزة الاسلام .

وفى عام ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م. عبرت قوات يوسف بن تاشفين بقيادة دواد بن



عائشة إلى الاندلس بجيش ضخم استطاع المرابطين الاستيلاء به على الجزيرة الخضراء بعد عبورهم المضيق واحتلت طلائع المرابطين الجزيرة الخضراء وبدأوا يتخذونها معسكرا كبيرا تتدفق اليه بقواتهم كما أخذوا يحشدون القوات ويعدون العدة وأخذت القوات تأمن نفسها وتقيم خطوط الاتصال مع المغرب وبدأت القوات تحتشد عند مدينة سبتة وعلت صيحة الجهاد فى الاندلس وقد عبر يوسف البحر ونزل بالجزيرة الخضراء وخرج اليه أهلها وسرت فى البلاد روح جديدة حيث قام الفقهاء والعلماء وقادة الفكر يجوبون البلاد ويعملون على توحيد الجهود أمام القوات القادمة من المغرب لانقاذهم وانقاذ الاندلس من نير التسلط المسيحى على رقابهم وأرواحهم وممتلكاتهم والذى يعمل على طردهم من ديارهم .

وبدأ المجتمع فى الاندلس وكأنه أفاق من نوم طويل وبدأ ينفض عن نفسه ماتراكم عليها من هموم وبدأت الحياة تدب فى أوصال المجتمع على يد هؤلاء المحاربين الاشداء الذين تاقت قلوبهم إلى الجهاد والاستشهاد، وبدا للناس كأن المعجزة التى طالما انتظروها قد تحققت وباتت كأن الاندلس قد أصبحت يدا واحدة بعد طول فرقة وتحاسد وبدا كأن جهود يوسف قد باتت تؤتى ثمارها المرجوة وأصبح الاندلس كأنه معسكر واحد كبير. وهكذا تحقق الهدف الذى كان يصبو اليه ابن تاشفين وهو حشد القوى الاسلامية وتكتل القوات والوقوف فى خندق واحد حتى انه لم يبق من ملوك الطوائف بالاندلس أحدا إلا بادر بالخروج بقواته وزحفت القوات عليه من أنحاء الاندلس. وأراد يوسف أن يبقى على هذه الوحدة فعاهد ملوك الطوائف على أن يكونوا يدا واحدة وأن تتوحد جهودهم لحفظ كرامة الاسلام والمسلمين فى هذه الديار والوقوف أمام الزحف الجارف والاطماع التى تحرك ألفونسو السادس بعد استيلائه على طليطلة ومحاولة القضاء المبرم على قوات المسلمين .

وجاءت القوات الشعبية من المتطوعين من سائر الجهات وأصبح المعسكر يعج بالمجاهدين والمتطوعين من كل فج وجاءت قوات المعتمد بن عباد والمتوكل بن الافطس وقوات ابن صمادح صاحب المرية وقوات غرناطة والثغر الاعلى وابن ذى النون وبنى عزون؛ مما اضطر يوسف أن يقسم القوات إلى معسكرين: معسكر المرابطين ومعسكر الاندلسيين .

وعلى الجانب الآخر أحس المعسكر المسيحى بأن الخطر الاسلامى يتهدده وان الجبهة الاسلامية قد توحدت ووقع فى الجبهة الاسلامية ما لا تحمد عقباه بالنسبة للقوى المسيحية وكان ألفونسو السادس يشدد الحصار على سرقسطة فاضطر إلى رفع الحصار. وبدأ يحشد القوى النصرانية ويطلب مساعدة الامم المسيحية وترددت أصوات النجدة فى أرجاء البلاد الاوربية وجاء دور الكنسية لكى تذكى الشعور المسيحى وتدفع المتطوعين بالحماس ورفع القس والرهبان والاساقفة صلبانهم ونشروا أناجيلهم وجاءت قوات أوربا من ايطاليا ومن فرنسا خلف جبال البرانس ومن قشتالة وارغونه وجليقة وليون واشترويس ورفع الحصار المسيحى الذى كان مضروبا حول امارة بلنسية الاسلامية .

وتم الاتفاق بين القوى الاسلامية على أن يتجه الجيش المرابطى ومن يرافقه من مقاتلة الاندلس نحو بطليوس فى غرب الاندلس لان ألفونسو السادس بعد أن استولى على قورية والاشبونة وشنترين كان يستعد للاستيلاء على امارة بطليوس وكانت تمثل مكانة فى غرب الاندلس .

وجاءت النذر بأن صداما لابد واقع بين القوى المسلمة المجاهدة التى تدافع عن وجودها ودينها وبين القوى النصرانية التى شدت أزرها كل أوربا وبذلك بلغت القوى المسيحية فى شبه الجزيرة أقصى مداها، وان المعركة التى سوف سيشترك فيها الطرفان



ستكون من المعارك الحاسمة والفاصلة فى تاريخ أوربا بل إن أثرها سينعكس على سير التاريخ بين القوى الاسلامية والقوى المسيحية لعدة قرون .

وكانت القوات الاسلامية قد دخلت أشبيلية وعادت القوات المسيحية إلى سرقسطة وأقام المرابطون وحلفاؤهم بعض الوقت فى أشبيلية وتحركت قواتهم صوب بطليوس وان الاتجاه هو التقدم نحو قورية ثم الانقضاض على طليطلة، لكن القوات المسيحية التى تدفقت سبقت المسلمين نحو قورية وسيطرت عليها .

وجاءت أحداث مغربية أخرت تقدم المسلمين نحو طليطلة والتى فكر المرابطون فى السير اليها مهما تكن التضحيات وطول المسافة والتوغل فى أراضى المسيحيين وبعد خطوط المواصلات واتخذت القوات الاسلامية قرارها بعدم مغادرة مدينة بطليوس واقامة المعسكر بالقرب منها نظرا للظروف التى ألمت بالامير يوسف بن تاشفين وبسبب تقدم القوات المسيحية صوب بطليوس لملاقاة المسلمين اذ أقبل ألفونسو السادس بحشوده وأخذت قواته تتقدم حتى صارت على بعد ثلاثة أميال من معسكر المسلمين فى الزلاقة وكان يفصل بينهم نهر بطليوس. وكان يوسف لا يطمئن إلى ملوك الطوائف كل الاطمئنان على حين كان فقهاء الاندلسيين يشكون فى أهل الاندلس ويحذرون المرابطين مغبة الثقة التامة فيهم وكان يوسف حذرا كل الحذر فى ذلك فكان لا يقبل على المخاطرة بقواته مع قوات الاندلسيين للقاء القوى النصرانية حيث كانوا حديثى عهد بلقاء النصارى لذا كان قراره بفصل معسكره إلى معسكرين عقب رحيله عن أشبيلية وتحركه إلى الشمال الغربى من المدينة قاصدا مدينة بطليوس فى انتظار لقاء الفرنجة لانه لا قدر الله اذا باءت جهود المسلمين بالفشل وأخفقوا فى هزيمة ألفونسو اعتصم المسلمون بقلعة المدينة فلا تكون الخسارة كبيرة فى قوات المسلمين .

## القوى الاسلامية تقهر قوات أوربا الصليبية

## معركة الزلاقة ودور المرابطين

فى صبيحة السبت الثالث عشر من رجب عام ٤٧٩هـ/ أكتوبر ١٠٨٦م على وجه التحديد دارت رحى أعظم معركة فى تاريخ الاندلس حيث كان لها صدى بعيد على مستوى العالمين الاسلامى والمسيحى ووصلت أصداءها إلى كل جهات العالم القديم تلك هى معركة الزلاقة التى وضعت حدا للتقدم السريع للقوات المسيحية لمحاولة طرد المسلمين من الاندلس والقضاء على دولة الاسلام بعد أن تفرقت الاندلس إلى عدة ولايات وملوك طوائف وكان قد نشب صراع عنيف بين القوى الاسلامية والقوى الصليبية فى وادى الزلاقة فى ذلك السهل المتسع جنوب غرب مدينة بطليوس حيث انتهى ذلك الصراع بنصر مؤزر أحرزه المرابطون على قوات ألفونسو السادس حيث كان مصير الاندلس والمغرب معلقا بهذا النصر الذى اضطلع المرابطون بالعبء الاكبر فى احرازه حيث أطبق المسلمون على القوات الصليبية من الامام والخلف فأصبحوا بين شقى الرحى وحاقت الهزيمة بالقوات الصليبية وجرح ألفونسو وفر فى جنح الظلام هربا من ميدان المعركة حيث وقع الرعب فى صفوفهم بسبب الروح الاسلامية الحقة التى كانت تضطرم بها نفوس المجاهدين من المرابطين من الحمية والتحمس للدين الاسلامى ومحاولة صد العدوان عنه والتسابق إلى الاستشهاد والموت فى سبيل الله وفى سبيل الدفاع عن دينه الحنيف وقد اشرك كثير من الفقهاء فى هذه الموقعة يشدون من أزر القوم وعزائمهم ويعظون الناس .

وقد حقق يوسف بن تاشفين من العمل ما جعله يرتفع إلى مرتبة أعظم قواد المسلمين حيث مكن لدولة المرابطين فى نفوس الشعب المغربى والاندلسى بل فى كل



شعوب العالم الاسلامى حيث وصلت اصداء تلك المعركة إلى بلاد المشرق حيث كان لهذا النصر صدى عظيم فى الشعور الاسلامى العام حيث تناقل الناس أخبار معركة الزلاقة فى المغرب والاندلس وعمت الفرحة بلاد المشرق الاسلامى وشبهها بعض المؤرخين بأنها معركة تشبه يوم القادسية فى العراق واليرموك فى الشام ومن أثر ذلك الصدى الواسع فى بلاد المشرق الاسلامى أن الامام الغزالى هنا الامير يوسف بن تاشفين بهذا النصر وكتب الامراء المعاصرون له يهنئونه بالنصر .

وكان لهذا النصر أثره الحاسم فى سير الحوادث فى الاندلس فقد تحطمت القوة الضاربة للقوات الصليبية لمملكة قشتالة وليون وتوقف تقدمها نحو الجنوب وارتد رجالها شمالا للدفاع عن طليطلة بعد أن أبيدت قوات قشتالة وليون واستعاد المسلمون مدينة الاشبونة وشنترين وتوقف تقدم البرتغال فى غرب الاندلس .

وقد أيقن أهل الاندلس بأن نصر الزلاقة يرجع الفضل فيه إلى يوسف بن تاشفين والمرابطين فوثقوا فيه وتألق نجمه وعلا ذكره فى الأندلس كما علا من قبل فى المغرب. وقد هز هذا النصر مشاعر يوسف بن تاشفين فأرسل الكتب إلى المغرب يشرح فيها سير المعركة وقد قرئت هذه الكتب على منابر جميع المساجد ببلاد المغرب وقد كانت خسارة المسيحيين يوم الزلاقة فادحة جدا .

وقد حاربت فى معركة الزلاقة مجموعات كبيرة من السودانيين وكانت جزءا من جيش المرابطين وحاربت كفرقة مستقلة هامة وقد اعتمد المرابطون على هذه الفرقة ورئيسها كان من أبناء السودان البيض وحمل السودانيون فى معاركهم بالاندلس السيوف الهندية وغيرها من آلات الحرب وتميزت الفرقة السوداء باستعمالها للطبول عندما كانت تسير إلى المعركة أو أثناء اشتباكها مع العدو وتلك عادة فى كل السودان وفى جميع أدوار تاريخه وقد تحدث أبو عبد الله البكرى عن اشتراك ملوك التكرور

أنفسهم مع المرابطين فى حروبهم فى الاندلس وقد أشار بصفة خاصة إلى معركة الزلاقة هذه التى انتصر فيها يوسف بن تاشفين على جيش ألفونسو السادس. وهذا يدل دلالة قاطعة على عمق الشعور الاسلامى لدى السودانيين ودفاعهم عن ديار الاسلام فى الاندلس التى هى ديارهم .

فقد أصبح هذا الانتصار العظيم فى الاندلس مناراً للمرابطين وقائدهم وللمبادئ التى دعا اليها امامهم عبد الله بن ياسين وأصبح يوسف أجدر الامراء لقيادة المرابطين وزعامتهم وأيقن الناس أن المرابطين قادرون على تحقيق الامن والامان لشعب الاندلس واعادة الطمأنينة إلى نفوسهم بعد أن ارتفعت روحه المعنوية وأيقن الشعب أن العدو النصرانى يمكن أن يقهر وأن يرد على أعقابه بعيدا عن ديار المسلمين واحتل المرابطون وقائدهم مكانة رفيعة فى نفوس الشعب الاندلسى .

وكان لانتصار الزلاقة أثر معاكس فى نفسية المعسكر المسيحى اذ تركت تلك المعركة جرحا غائرا فى نفسية قائدهم ألفونس السادس الذى كان الزهو والغرور قد اختمر فى رأسه بضرورة طرد المسلمين من الاندلس نهائيا واتخذ لقب ذى الملتين وصار يكاتب امراء المسلمين قائلا من الامبراطور ذى الملتين (الاسلام والمسيحية) وبدأت تراوده الآمال التى راودت أباه من قبل وهى طرد العرب من الاندلس نهائياً، لكن تلك المعركة قد خلفت ظنه بعد أن تقابل فى ميدان القتال مع عصبة مجاهدة مؤمنة برسالة الاسلام عاملة فى ميدان الجهاد ووقفت ضد أطماعه فى أن يبسط ظله على شبه الجزيرة كلها، لكن هذا النصر جعله يحس انه أمام جبهة متحدة من المغرب والاندلس وهى تقف له بالمرصاد وتهدده تهديدا خطيرا، بل انه أيقن تمام التيقن بأن المعسكر الاسلامى سوف يسترد كل ما استولى عليه من قلاع وحصون وانهم ربما ينقضون على طليطلة ويخلصونها من يده، بعد أن بدأ الامراء المسلمون الذين كانوا يدينون له



بالطاعة يتألبون عليه ويكفون عن دفع الجزية التى كانوا يدفعونها فى صغار وذلة .

أما المعسكر الصليبى فى أوربا بزعامة بابا كنيسة روما فقد كان لنصر الزلاقة رد فعل عنيف عنده اذ بدأت القوى النصرانية المختلفة تعقد العزم على مدافعة المسلمين والاستعداد للمعركة القادمة والعمل على طرد المسلمين من الاندلس نهائيا .

وبدا للناس كأن معركة الزلاقة لم تكن حاسمة فى تاريخ الاندلس لأنها لم تقض على القوى النصرانية قضاءا نهائيا فقد أخذت القوى المسيحية تسترد قوتها وتعمل على مواصلة العدوان والثأر لمعركة الزلاقة من المرابطين وأخذ ألفونسو ينظم قواته ويزيل ما لحق بجيشه فى موقعة الزلاقة وأخذ يعاود الهجوم من جديد وأخذت قواته تهدد أشبيلية وتثير الذعر فى نفوس أهلها .

ويبدو أن يوسف بن تاشفين لم يستطع أن يستفيد من ذلك النصر العظيم الذى حازه ولو أن أمراء الاندلس وقفوا إلى جواره وأمدوه بكل قوتهم لتقدم إلى طيطلة واستولى عليها وهذا ما كان يخشاه ألفونسو السادس وأعاد الميزان إلى نصابه فى الاندلس ، لان الانتصارات العسكرية مهما عظمت فانها تظل غير ذات قيمة عملية كبيرة اذا لم تستغل سياسيا وعسكريا .

وبعد المعركة بفترة قصيرة توفى الامير أبو بكر بن عمر زعيم المرابطين وابن عم يوسف بن تاشفين عام ٤٨٠هـ فقد بلغت يوسف هذه الوفاة فأراد أن يرجع إلى المغرب وعاد يوسف وترك ميدان المعركة فجأة دون أن يتعقب العدو المهزوم ويجهز عليه قبل أن يجمع صفوفه وذلك لان يوسف كان أميرا من الامراء الذين يخضعون للزعيم أبو بكر وانه لم يزل أميراً من قبل أبى بكر بن عمر وأراد العودة لأخذ البيعة لنفسه بدلا من أن تؤول لغيره من الامراء، ثم يجد نفسه معزولا عن المغرب والاندلس لاسيما أن ابراهيم ابن أبى بكر بن عمر قد طمع فى أن يكون الملك له بعد وفاة أبيه منتهزا فرصة

وجود يوسف وغيابه بالاندلس واشتغاله بالصراع مع المسيحيين فى الاندلس. فلما علم يوسف بذلك هرع إلى المغرب ليقطع على ابراهيم خط الرجعة وقد يكون ذلك السبب المباشر لعدم ملاحقة قوات يوسف لألفونسو السادس والقضاء عليه نهائيا مما جعل لمعركة الزلاقة صدى دون استعادة طليطلة عاصمة الخلافة الاموية القديمة وعاصمة القوط .

وكان يوسف بن تاشفين قد أدرك أثناء المعركة أن أمراء الاندلس لا أمل فيهم بعد أن تركوه فى ميدان معركة الزلاقة وحيدا أمام قوات ألفونسو كما لمس بنفسه مدى الفرقة بين صفوف زعماء الطوائف، لذلك ما كادت تنتهى المعركة حتى جمعهم وأمرهم بالاتفاق حتى لاتضيع ثمار النصر الذى أحرزه المرابطون فى تلك المعركة وعاد يوسف بن تاشفين إلى المغرب فتنفست مملكة قشتالة وليون الصعداء وبدأ أمراء الطوائف يتصلون ببعضهم متخوفين على بلادهم من وجود المرابطين أما يوسف فكان يشعر بأنه لابد من العودة للأندلس لاستكمال النصر، لكن يوسف ترك بلاد الأندلس وهو مطمئن على خطواته فى البلاد لاسيما انه لازال مستوليا على الجزيرة الخضراء صلة الربط والصلة بين المغرب والاندلس ومن ثم بدأ يعد العدة لجولة أخرى فى الجهاد لا تقل عن معركة الزلاقة .

لكن أثناء وجود يوسف فى المغرب وبعد أن تمت البيعة فقد بدأت الاوضاع تضطرب فى الاندلس وكانت تهدد بالقضاء على الجهود التى بذلها المرابطون فى وقف الزحف المسيحى وكان يوسف يرى انه لابد من التدخل حتى لاتضيع الجهود التى بذلها الا انه لم يكن له وضع قانونى فى البلاد فهو ليس الا ضيفا حل على البلاد وهو لايسيطر الا على الجزيرة الخضراء. لكن يوسف كان عليه أن يواصل المعركة وأن يخف إلى الجهاد وانه لابد أن يعبر البحر الاندلسى وكانت أهداف يوسف هذه المرة



تختلف عن المرة الاولى، حيث لم تتح له سابقا فرصة الاستفادة من الانتصار الذى حققه وكذلك حتى ينشئ فى الاندلس دولة الوحدة الاسلامية التى حطمها الصراع بين دويلاتها المتنافسة (ملوك الطوائف). بعد أن انصرف كل أمير إلى بلده وأصبحت البلاد فى حالة لا تمكنها من الدفاع عن نفسها .

وكان أن رحل المعتمد بن عباد إلى المغرب لمقابلة يوسف بن تاشفين ليطلع يوسف على الاوضاع السيئة فى شرق الاندلس خاصة ان المعتمد بن عباد أمير شرق الاندلس كان أكثر الامراء خوفا من الخطر النصرانى المحدق من الشرق وكان يخشى أن يصبح أول ضحية للمعركة القادمة. وفى ذلك فانه قال قولا يذكر له قبل رحيله إلى المغرب حيث قال «رعى الجمال خير من رعى الخنازير» وهذا التصريح يدل بوضوح على تفضيل عرب الاندلس للسيادة الاسلامية بطبيعة الحال .

وكان عبور يوسف للمرة الثانية إلى الاندلس فى عام ٤٨١هـ. وكان أن حل واستقر فى الجزيرة الخضراء حيث كتب لملوك الطوائف يدعوهم لتوحيد الجهود لتخليص بعض المعاقل النصرانية فى الجنوب الشرقى من البلاد. وقد لبى أمراء الاندلس نداء يوسف للاشتراك فى المعركة القادمة بعد أن رأوا بسالته فى معركة الزلاقة السابقة حيث أطبق المسلمون على حصن لبيط الذى اعتصم به القشتاليين الذين كانوا يخرجون من حصنهم ويسلبون وينهبون ما تصل اليه أيديهم من أملاك المسلمين وقد ضيق المسلمون الخناق على الحصن، حتى لم يبق من الفرسان غير بضع مئات أوشكوا على الموت جوعا وعطشا وقد انسحب المسلمون تاركين الحصن الذى حطمه ألفونسو وقضى على حصن لبيط، لكن يوسف لم يكن همه فى هذا العبور الثانى الفتح بقدر ما كان توحيد القوى الاسلامية فى الاندلس بل فى المغرب والمجتمع الاسلامى لمواجهة الصراع المسيحى لاستعادة ما كان للمسلمين من قوة وسيادة. لكنه أدرك أنه لا يمكن

الاعتماد على ملوك الطوائف فى مواجهة العدو وانه لابد أن يضطلع بالجهاد اعتمادا على قواته وحدها وأن يحقق الاهداف التى وضعها أمامه عبد الله بن ياسين بعد أن رأى استحالة توحيد قوى ملوك الطوائف ولم يكن خط الجهاد الاسلامى الذى تربى عليه يسمح له أن ينسحب من الميدان ويترك أهل الاندلس يقعون فريسة فى أيدى العدو .

**يوسف بن تاشفين وعزل ملوك الطوائف وتوحيد الاندلس :**

لقد تبين ليوسف بن تاشفين بعد حصار حصن لبيط أن ملوك الطوائف غير مخلصين فى جهادهم ضد العدو الذى يتربص بهم ويريد أن يلتهم كل الاندلس بعد أن لاحظ سابقا انهم تخلوا عنه فى صراعه مع ألفونسو السادس فى معركة الزلاقة وانهم لم يقاوموا هجوم الفرنجة بل أن بعضا منهم طلب العون من ألفونسو السادس. بل انهم تركوا ألفونسو يهدد اماراتهم ويطلب الجزية المتأخرة عندهم عندما علم بعودة يوسف إلى المغرب فلم يوجد بينهم أدنى اتحاد ووحدة ولم تبد منهم بادرة لمواجهة الخطر وحماية الجبهة الاسلامية، بل إن كل أمراء الاندلس لم يعد بقدرتهم قوة لوقف تقدم النصارى جنوبا وشرقا بل انهم وقفوا موقفا يتسم بالجبن والخوف وعدم صون كرامتهم ودينهم الاسلامى الحنيف .

ومن هنا فقد تأكد لابن تاشفين أن هؤلاء الامراء ليسوا بقادرين على صون كرامة بلادهم ومواطنيهم بل أصبح متأكداً له انه لم يعد يؤتمن جانبهم. ومن هنا عقد المرابطون العزم على تصفية ملوك الطوائف ومواجهة مصير البلاد فعزل هؤلاء الملوك الذين نكصوا على عهدهم بل إن منهم من تحالف ضد ابن تاشفين وخانوا أمانة الاسلام واجب ومن هنا حق عليهم العقاب .

ولقد لعب الفقهاء وعلماء الدين الاسلامى دورا كبيرا فى خلع ملوك الطوائف بعد أن أدرك الفقهاء أن أمراء الاندلس لم يعد يرجى منهم خيرا بعد تركهم يوسف



يواجه حربا ضد النصارى وحيدا ولم يتردد فقهاء الاندلس الذين بدأ الشعب الاندلسى يتطلع اليهم باعتبارهم القادة الحقيقيين والذين يحسون بمشاعر الشعب وغضبهم وكرههم لاعمال الامراء وبعد أن أفتى علماء المشرق بضرورة خلع هؤلاء الملوك الذين خانوا الأمانة وتهاونوا فى حق شعوبهم وتخاذلوا فى الدفاع عن المقدسات والحرمات الاسلامية ومن ثم فلابد من خلعهم وتخليص البلاد من شرورهم وقيام المرابطين بعد توحيد القوى الاسلامية فى المغرب والاندلس بعبء الدفاع عن العقيدة الاسلامية والجهاد فى سبيل رفعة الدين الاسلامى واعلاء راية التوحيد .

وكان للمرابطين ما أرادوا فقد استولوا على طليطلة ثم غرناطة والبيرة ومالقة ثم استولوا على أشبيلية ثم قرطبة والمرية ثم بطليوس ثم استولوا على قرمونة ورندة وشلب ويابرة كما استولوا أيضا على السهلة وممسية ودانية وشاطبة وبلنسية واستطاع المرابطون تحت قيادة داود ابن عائشة وسير بن أبى بكر وأبو عبد الله محمد بن الحاج وغيرهم من قواد المرابطين الاكفاء الذين وضع يوسف بن تاشفين كل ثقته بهم وأخذ يوجههم للاستيلاء على امارات الاندلس واستطاعوا أن يبسطوا لواء المرابطين على هذه الولايات التى كانت تخضع لامراء متعددين ولكن منذ تلك الفترة فان هذه الامارات أصبحت تخضع لادارة مرابطية واحدة وتم للمرابطين ما أرادوا من توحيد الجبهة الاسلامية الاندلسية وتوحيد الشعب الاندلسى تحت قيادة مرابطية .

ولقد كان الموقف السياسى والعسكرى فى الاندلس يقتضى من المرابطين الحذر والحيطة قبل القوات المسيحية التى كانت ترقب الموقف عن كثب ولاترغب التدخل فى القتال فى معركة الزلاقة ومحاصرة حصن لبيط .

وكانت احدى القوى الاندلسية (إمارة أشبيلية وكذلك امارة طليطلة والمعتمد بن عباد) قد استنجدوا بألفونسو السادس لانقاذهم من أيدى المرابطين لكن القوات المرابطين بقيادة الامير ابراهيم بن اسحاق اللمتونى كانت بالمرصاد

والترقب والحيطة بحيث ما كادت هذه القوات تتقدم جنوبا بقيادة «البرهانس» حتى التحمت معها قوات المرابطين ونشبت معركة حامية الوطيس لا تقل أهمية عن معركة الزلاقة وأوقع المرابطون هزيمة قاسية بقوات ألفونسو وهزمت أيضا قوات قشتالة ووحدوا القوى الاسلامية الاندلسية ووقفوا بالمرصاد للقوات المسيحية التى تلقنت درسا قاسيا وتفرق شملها ولم تدرك عاقبة التدخل بعد أن منيت بتلك الهزيمة وقهرت قوات ألفونسو .

ونتيجة ذلك وقع عبء القتال والجهاد الاسلامى على عاتق القوات المرابطية التى بدأت نظرتها للحياة فى الاندلس تأخذ بعدا جديدا فى ميدان الجهاد وبدأت معركة الجهاد تدخل طورا جديدا لا يقل عن الاطوار السابقة التى قاد فيها المرابطون حركة الجهاد فى المغرب والاندلس والذين رأوا انه لكى يوطدوا نفوذهم فى الاندلس بعد عزل ولاة الطوائف فإنه لابد من التصدى للقوى الصليبية بعد أن فرض الاندلس على المرابطين مسئولية ثقيلة فقد كان عليهم أن يواصلوا الحرب والجهاد وحدهم على جبهة عريضة شمال خط الوادييانة لانهم دخلوا الاندلس مجاهدين كما فعلوا سابقا فى المغرب وكان عليهم أن يستمروا فى هذا الصراع .

وبهذا اتسعت دولة المرابطين اتساعا جعل منها دولة كبرى تمتد فى قارتين وكان على المرابطين أن يواصلوا جهادا دينيا. واذ كان المرابطون قد أسقطوا ملوك الطوائف الا أن شرق الاندلس كان يتعرض أيضا للخطر من جانب القوى المعادية واسترد المرابطون بلنسية بعد أن كان قد سيطر عليها السيد القمبيطور (القشتالى رودر بجودى بيار) واستعاد المرابطون عددا من المدن فى شرق الاندلس منها المنارة والسهلة، وربيطر وانتصرت قواتهم بقيادة القائد المرابطى تميم بن يوسف بن تاشفين على قوات قشتالة



وقتل فى هذه المعركة عددا كبيرا من قوات النصارى منهم سبعة من الاكناد وقد سميت معركة «الاكناد السبعة» وبذلك امتدت دولة المرابطين من المحيط الاطلسى غربا حتى حدود دولة بنى حماد شرقا ومن بلاد النيجر جنوبا حتى نهر ابرو فى الاندلس شمالا (نهر تاجة) .

وقد استطاع المرابطون بعد كفاح طويل فى شرق الاندلس دام أكثر من عشر سنوات أن يحرزوا العديد من الانتصارات وأن يحرروا العديد من المدن وأن يعيقوا تقدم القمبيطور وأن يحرزوا فى معركة «بلنسية» نصرا مدويا وظفرا اسلاميا لا يقل عن نصر الزلاقة وكان لنصر بلنسية وسقوط تلك المدينة فى أيدى المرابطين أثرا بالغا فى سير معركة الجهاد فى شرق الاندلس اذ انهارت الجبهة النصرانية فى شرق الاندلس وأوغلت قوات المرابطين فى تلك الانحاء. ولقد كان تعاون «بنو هود» فى شرق الاندلس مع المرابطين له من الاثر الكبير فى توطيد النفوذ الاسلامى ونجاح حركة الجهاد الاسلامى فى شرق الاندلس، لذا أبقى يوسف على بنى هود بعد أن ثبت تعاونهم الوثيق معه ودورهم فى المساعدة لصد عدوان الفرنجة والوقوف بالمرصاد لكل حركة معادية للاسلام بعد أن وطدوا أقدامهم فى تلك المناطق الشرقية وشغلوا بالجهاد وبذلك فقدت حركة استرداد الاندلس بطليها ألفونسو السادس والقمبيطور فى سنوات متلاحقة واتحدت كلمة المسلمين فى الاندلس .

**يوسف بن تاشفين وبناء الدولة الجديدة فى المغرب والاندلس :**

عبر يوسف بن تاشفين من المغرب إلى الاندلس للمرة الرابعة والاخيرة عام ٤٩٧هـ/ ١١٠٣م. ليضع الاسس القوية والثابتة لبناء الدولة الجديدة التى توحد بين

المغرب والاندلس بعد أن أرسى دعائم وأسس الوحدة القوية الاسلامية التى تستطيع أن تقف فى وجه الزحف الصليبى بعد أن كان قد رأى أن الحرب المقدسة قد آتت ثمارها المرجوة وأنها قد تضيع من أيدى المسلمين نظرا لحركة الاسترداد التى قادها ألفونسو السادس والقمبيطور والتى ظلت طوال عشرين عاما كاملة استطاعت القوى الاسلامية بقيادة المرابطين أن تحقق الاهداف التى بدأت تتطلع اليها آمال المسلمين فى بقاع العالم الاسلامى فقد تحطمت أحلام القوى المسيحية وأصبح يوسف بن تاشفين أعظم شخصية فى المغرب الاسلامى. لكنه رأى أن العمر قد تقدم به لاسيما انه قد تجاوز المائة عام ومن ثم أخذ البيعة من كبار المرابطين لابنه على بتوليته العهد احساسا منه بقرب الخاتمة وانه عاد إلى المغرب عام ٤٩٨هـ فمرض ومات بمراكش عام ٥٠٠هـ/ ١١٠٧م. وخلفه ابنه على وبوفاة يوسف بن تاشفين اختفت شخصية من أجل شخصيات التاريخ الاسلامى. وقد تجاوز سنه المائة عام وترك ثروة طائلة وكان الامام الغزالى العالم الاسلامى المشهور قد سمع عنه فرأى فيه البطل الذى يود أن تحققه الايام وأراد أن يراه ولكنه سمع بوفاته وهو لا يزال فى الاسكندرية فعاد من حيث أتى.

واستطاع يوسف أن يؤسس دولة مرابطية موحدة بين المغرب والاندلس. وقد اعترف الخليفة العباسى فى بغداد بيوسف بن تاشفين عاملا له فى المغرب والاندلس واعترف يوسف بالخلافة العباسية معتزا بتبعيته لها وكتب يوسف إلى الخليفة ينوه بالدور الذى اضطلع به فى معركة الجهاد وتردد اسم يوسف مقترنا باسم الخليفة العباسى على منابر الاندلس والمغرب كما نقش اسم الخليفة على السكة وبذلك تكون دولة المرابطين قد جمعت بين المغرب والاندلس واعتراف الخلافة العباسية بها وبذلك طويت صفحة حافلة بالجهاد الاسلامى قادها الزعيم الدينى يوسف بن تاشفين وقد



كان يوسف من صناع التاريخ فى المغرب الاسلامى فقد أعاد إلى الاذهان سيرة موسى بن نصير وعبد الرحمن الناصر وغيرهم من أبطال الاسلام الذين لعبوا دورا كبيرا وبارزا فى تاريخ المغرب، نعم كان يوسف بن تاشفين الشخصية التى دفعت بها العناية الالهية لكى يلعب دورا حاسما فى الوقوف فى وقف حركة الاسترداد فى الاندلس ومحاولة اطفاء الانوار الاسلامية فى الاندلس. نعم كان يوسف معجزة حققها عبد الله بن ياسين باعث دعوة المرابطين ومخرج فكرة الجهاد الاسلامى فى حركة دامت خمسين عاما، اذ استطاع الدين الاسلامى الذى تعلمه يوسف وتعاليم عبد الله بن ياسين أن تجعل هذا الرجل الصحراوى بطلا من أبطال التاريخ الاسلامى قاد معركة الجهاد طوال خمسين عاما صارع فيها أقوى رجلين فى الاندلس هما ألفونسو السادس والقمبيطور والبابوية المسيحية فى روما والقوات الاوربية الاخرى التى وقفت خلفها تشد من أزرهما فى الصراع الدائر على أرض الاندلس، لكن شخصية يوسف المجاهدة الزاهدة المتقشفة العادلة الصادقة استطاعت أن تلعب دورها الذى دفعه القدر لكى يقوم به وقد راعته العناية الالهية خير عناية فى ذلك .

## البحرية الاسلامية فى عهد المرابطين

سيطر المرابطون على جميع بلاد المغرب الاقصى ما عدا بعض الثغور الشمالية ، لذا كان عليهم لكى يوطدوا أقدامهم فى المغرب أن يتجهوا صوب اقليم الساحل لاتمام فتحه والاستيلاء على موانيه الهامة مثل سبتة وطنجة فقد كان هذان الميناءين فى الواقع مفتاح المغرب وهمزة الوصل بين المغرب والاندلس وكانت تسيطر عليهما امارة بحرية قوية هى امارة البرغواطين التى استطاعت بعد سقوط الخلافة الاموية اقامة امارة لهم بطنجة وسبتة .

ورغم قضاء المرابطين على غالبية براغوطة الا أن هذه الامارة ظلت تسيطر على اقليم الساحل وتشرف على منطقة المضايق وتتحكم فى تجارة المغرب والاندلس ولم يكن من المعقول أن يترك المرابطون هؤلاء الحكام يتحكمون فى الساحل. لكن دراية المرابطين بالشئون البحرية قليلة فى ذلك الوقت لهذا لم يتمكنوا من احتلال هذين الثغرين. لكن كانت الظروف السياسية تحتم على المرابطين فتح طنجة وسبتة وبسط نفوذهم على اقليم الساحل أو اقليم الريف. ومن ثم شرع يوسف بن تاشفين فى اعداد أسطول لهذا الغرض كما ساعدته أساطيل جيرانه من الاندلس واستطاعت قوات المرابطين دخول طنجة ٤٧١هـ. ثم انهم بعد فتح طنجة اتجهوا صوب الشرق وأطبقوا على مدينة سبتة وحاصروها من البر واشتركت بعض سفنهم فى حصارها من البحر وقد أفلح المرابطون فى الاستيلاء على سبتة وقتل المعز بن سقوت وتعتبر هذه المعركة من المعارك الفاصلة فى تاريخ المغرب والمرابطين اذ انها أول معركة يخوضها أسطول المرابطين كما انها كانت بداية انشاء أسطول مرابطى قوى، اذ كان بسط النفوذ المرابطى على هذه الموانئ الشمالية خطوة ايجابية فى بناء أسطول مغربى قوى اذ انهم استفادوا من دور صناعة السفن فى طنجة وسبتة .

وهكذا رأينا ابن تاشفين بعد أن فتح مدينة سبتة وطنجة يحاول احياء البحرية الاسلامية التى كانت قدر درست معالمها وذهبت ريحها ويبد أن جهود المرابطين فى احياء البحرية كللت بالنجاح وسنرى كيف أن فتح بلاد الاندلس قد أعاد إلى الاذهان جهود موسى بن نصير فى احياء البحرية الاسلامية فقد استطاعت الاساطيل المرابطية عام ٥١٧هـ أن تشترك فى حرب نظمتها القوى الاسلامية فى المغرب لمهاجمة النورمان واشتركت القوى الاسلامية فيما يمكن أن تسميه حربا صليبية وكانت



الحروب الصليبية قد بدأت فى المغرب قبل أن تبدأ فى الشرق .

وقد استفاد المرابطون من خبرة أهل السواحل المشتغلين بركوب البحر كما أفادوا من دور الصناعة المنتشرة فى هذه الموانئ فبدأ يبنون أسطولا فى عهد يوسف بن تاشفين وهو لم يزل أميرا على المغرب ويبدو أن النواة الاولى لاسطول المرابطين قد اشتركت فى حصار سبتة ومد يد العون للقوات البرية التى كانت تقاتل البرغواطى .

وقد أدرك يوسف بعد انتصاره فى معركة سبتة أهمية العامل البحرى فى كسب المعارك فبدأ يهتم بأمر الاسطول ويوليه عناية خاصة وقد استعان ببحارة من الاندلس كما استعانوا بدور صناعتها فى تدعيم الاسطول وتنظيم أفراده وقد استطاع الاسطول الجديد أن يساعد القوات المرابطية وهى تجتاز البحر لاول مرة إلى الاندلس كما انهم وضعوا أيديهم على أهم الموانئ فى حوض البحر الابيض الغربى واستولوا على دور صناعة ذات شهرة فى فنون البحر وصناعة السفن وهكذا ظهر الاسطول المرابطى كعنصر فعال فى حركة الجهاد من أجل السيطرة على الاندلس فاشترك الاسطول المرابطى فى الاستيلاء على بلنسية ضد القمبيطور وان السفن البحرية عاونت القوات البرية فى شرق الاندلس. كما أن الاسطول زاد قوة فى عهد ابنه على بن يوسف وأن الاسطول كان يتألف من سفن عدة وكان له نشاط فى معركة البحر الابيض المتوسط. وظهر الاسطول المرابطى فى عهد على بن يوسف فى معركة ميورقة حيث أنزلت بالفرنجة هزيمة ساحقة .

وقد كان أول عمل اهتم به يوسف بن تاشفين بعد دخول المرابطين سبتة هو

اصلاح أحوالها سفنها ولقد اهتم المرابطون ببناء أسطول النقل لا بناء سفن القتال لانهم كانوا يرنون بأبصارهم إلى الاندلس ومن هنا كان اعتمادهم على سفن النقل للربط بين العدوتين (الاندلس والمغرب) لان الغرض الاساسى من الاسطول فى تلك المرحلة كان نقل الجنود والمعدات وحفظ المواصلات بين المغرب والاندلس. وعندما عبر المرابطون إلى الاندلس بعد سيطرتهم على الجزيرة الخضراء استطاعوا احراز النصر على قوات ألفونسو السادس فى معركة الزلاقة المشهورة غرب الاندلس فى عام ٤٧٦هـ/ ١٠٨٦م فان ذلك النصر مكنهم من بسط نفوذهم ولا شك انهم استفادوا بما كان فى الاندلس من امكانيات مادية وكفاية بشرية فى الشئون البحرية فأولوها عنايتهم وقد أشار الادريسى الذى كان معاصرا للمرابطين إلى دور صناعة السفن التى أقامها المرابطون فى طرطوشة ودانية وقصر ابن دانس وشلب التى كانت محاطة بغابات تصلح أخشابها لبناء السفن، والذين استطاعوا خلق قوة بحرية منظمة وموحدة وقيادة بحرية حكيمة ماهرة استطاعت أن تقود الاساطيل المرابطية إلى النصر الحاسم فى معظم المعارك التى خاضتها القوات البحرية المرابطية فى صراعها مع الاوربيين لاسيما النورمانديين فى صقلية .

وقد أشار ابن خلدون إلى قوة الاسطول المرابطى ودوره فى حركة الجهاد الاسلامى فى غرب البحر المتوسط. اذ كان الجانب الغربى من هذا البحر موفور الاساطيل ثابت القوة وكانت لهم به كرة فقد كان الاسطول به لعهد لمتونة من بنى ميمون وانتهى عدد أساطيلهم إلى المائة فى بلاد المغرب والاندلس .

وقد زاد عدد القطع البحرية المرابطية فقد جهز على بن يوسف بن تاشفين ثلاثمائة سفينة لانقاذ جزيرة ميورقة من هجوم النورمانديين والفرنجة. كذلك فان



الاساطيل المرابطية قد استخدمت فى بعض العمليات فى جزر البليار فى عام ٥٠٩هـ وكذلك فى جزيرة صقلية عام ٥١٦هـ.

وقد اشترك الاسطول المرابطى فى صد غارات الامم الاوربية على جزر البليار حيث اشتركت أساطيل من جنوه وبيزا وبرشلونة وفرنسا وناربون فى الهجوم على جزيرة يابسة فاستولت عليها ثم اتجهت القوى الاوربية إلى محاصرة ميورقة كبرى هذه الجزر وضربت حصارا حول عاصمتها مدينة ميورقة لكن حاكم الجزيرة كتب إلى الامير على بن يوسف بن تاشفين الذى أمر بتجهيز ثلاثمائة قطعة بحرية وذلك لمنازلة العدو وفك الحصار عن جزيرة ميورقة، فلما شعر العدو الاوربى بخروج ذلك الاسطول المرابطى فك التحالف الاوربى حصاره للجزيرة فلما وصل الاسطول المرابطى وجد المدينة خالية فعمرها قائد الاسطول المرابطى وجلب لها من كان قد فر إلى الجبال فاستوطنوها وعمروها وسكنوها وانصرف الاسطول إلى مكانه .

وهكذا بسط المرابطون نفوذهم على جزر البليار دون قتال وذلك عام ٥٠٩هـ/ ١١١٦م فى عهد يوسف بن تاشفين وقد تعاقب على حكم هذه الجزر بعد ذلك عدد من المرابطين حتى آل حكم الجزر هذه إلى آل غانية حيث تولوا الحكم عام ٥٢٠هـ/ ١١٢٦م القائد المرابطى محمد بن على بن غانية المستوفى مؤسس أسرة بنى غانية التى ظل حكم هذه الجزر من بعده فى أسرته .

ولم يقتصر نشاط الاسطول المرابطى على محاربة أطماع الايطاليين والفرنسيين والقطلانيين بل حاول أيضا وقف أطماع النورمانديين فى السيطرة على سواحل دولة بنى زيرى طمعا فى احتلال عاصمتهم المهدية، فقام أبناء صنهاجة من الزيريين بطلب

النجدة من أبناء عمومتهم المرابطين، فقام الامير على بن يوسف بن تاشفين بأمر قائد أسطوله أبى عبد الله بن ميمون بالتوجه إلى صقلية عام ٥١٦هـ/ ١١٢٢م بشن غارة واسعة على جزيرة صقلية استولت على بعض المدن واستطاعت أن تكبد النورمانديين خسائر كبيرة. وقد أدرك الملك «روجار الثانى» ملك صقلية أن المرابطين هم وراء هذه الحملة البحرية الا انه كان يعمل ألف حساب لقوة المرابطين فيعدل عن خططه بمهاجمة المهدية عاصمة بنى زيرى. وقد ظل روجار الثانى لا يفكر فى الهجوم على سواحل افريقية الا بعد سقوط دولة المرابطين وقيام دولة الموحدين، حيث استنفر روجار الثانى أهل بلاد الروم قاطبه ضد بنى زيرى واستطاع الاستيلاء على المهدية عاصمتهم عام ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م أى بعد سقوط دولة المرابطين بعامين فقط .

ولقد كان سقوط دولة المرابطين سببا فى اندحار القوة البحرية المرابطية وظهور الاساطيل الاوربية بصورة قوية فى بداية عهد الموحدين .

وكان المرابطون بعد أن بسطوا نفوذهم على جزيرة ميورقة بأوا يدخلون طورا جديدا من أطار قوتهم البحرية وتفوق هذه القوة البحرية على معاصريها من الدول الاوربية والاسلامية فأعدوا عدتهم للدخول فى أى صراع بحرى كاشتراك أسطولهم فى معركة المهدية وظهرت سفنهم فى مياه صقلية ودخلت ميدان البحر الابيض الشرقى وبدأت تصارع أساطيل البيزنطيين والنورماند وقامت بالغزو فى جزر البحر المتوسط وجنوب ايطاليا، بل وصلت إلى بلاد الشام ومشاركة صلاح الدين الايوبى فى حصار موانى الصليبيين فى الشام وأغاروا على شواطئ فرنسا الجنوبية وأصبحت الدول الاوربية تخشى الاسطول المرابطى فى حوض البحر المتوسط، بعد أن أصبح ذلك الاسطول قوة هائلة متفوقة على غيرها من الاساطيل وبدأ الاعداء يعملون له ألف حساب كما ظهرت



شهرة قادة هذا الاسطول وبدأ المؤرخون يتحدثون عن بلاء وشجاعة أفراد القوات البحرية المرابطية .

كما ان نمو البحرية المرابطية وظهورها فى ميدان الصراع الدولى قد ساعد على ازدهار التجارة الخارجية فى عهد المرابطين حتى أصبحت دولة المرابطين تنافس جمهوريات ايطاليا والنورماند كما أن أسطولهم قام بدور عظيم فى تأمين تجارة المغرب الذاهبة إلى الاندلس وإلى الاسواق العالمية الاخرى ذلك لان البحرية المرابطية القوية كان فى مقدورها أن تعلن حربا ضد القراصنة .

وقد ارتبطت نهاية دولة المرابطين بالاسطول اذ عندما حاول تاشفين ابن على بن يوسف بن تاشفين الفرار من المغرب إلى الاندلس فإنه استعان بالاسطول المرابطى للفرار الذى كان يقوده فى ذلك الوقت أبو الحسن على بن عيسى بن ميمون. الا أن الموحدين حالوا دون وصوله إلى الاسطول حيث تردى من حافة احدى الجبال فمات .

وقد قام المرابطون بأعمال حربية وبحرية مجيدة تذكر لهم بكل فخار ومن ذلك سلسلة الرباطات والمحارس التى انتشرت فى أيامهم على طول السواحل المغربية والاندلسية ولعل من أهمها المحارس التى بنيت فى طنجة وسبتة وكان المحرس أو الطالع العظيم الذى بنوه فى سبتة يشرف على حركة الملاحة فى مضيق جبل طارق وهذا الطالع من أعجب الطلائع لكونه يكشف ويشرف على العدوتين الاندلسية والمغربية وقد تحكم فى حركة المرور فى المضيق من باديس فى بر الريف ومن مالقة شرقا إلى ما وراء طريف غربا .

وهنا يحق لنا أن نسأل كيف تم للمرابطين بناء أسطول بحرى فى هذا الوقت القصير وهم قوم بدو صحراويون ليست لهم خبرة بركوب البحر فليس ببعيد أن يكون المرابطون قد استطاعوا بعد أن بسطوا سيطرتهم على الساحل المغربى والاندلسى أن يكون لهم أسطول يضارع الاساطيل المعاصرة قوة وعدة وعتاد ولا شك أنهم استعانوا بالاسطول الاندلسى وأسطول بنى غانية فى جزر البليار الذين كان لهم شأن فى المدافعة عن المسلمين فى البحر المتوسط ضد القراصنة الذين كانوا يتعرضون لسفن المسلمين بالسلب والنهب والاغارة على الموانئ الاسلامية .

وهكذا قدم المرابطون خدمات جليلة للبحرية العربية الاسلامية سواء فى المغرب أو الاندلس طوال فترة حكمهم القصيرة. وقد ترك ظهور دولة المرابطين أثرا بعيدا فى توازن القوى العالمية فى غرب البحر الابيض المتوسط اذ ظهر فى ذلك الوقت النورمان وبدأوا يمكنون لانفسهم فى الوقت الذى عمدت فيه أساطيل جمهوريات ايطاليا إلى تهديد حرية الملاحة فى هذه المنطقة وراحت مملكة قشتالة وليون تبسط نفوذها فى الاندلس وكانت البابوية قد نهضت ترفع الصليب وتنبه الاذهان لمعركة صليبية وبذلك اهتم المرابطون بالبحر واستطاعوا أن يؤخروا سقوط شبه جزيرة أيبريا فى أيدى القوى المسيحية بضعة قرون. واتخذ المرابطون من موانئ الاندلس قواعد لاسطولهم الناشئ الذى أخذ ينشط فى حوض البحر الابيض المتوسط ويظهر تفوقه ويغير على بلاد الفرنجة محاولا أن يستعيد السيادة الاسلامية التى كان قد انتهى أمرها واشترك الاسطول المرابطى فى العديد من الغزوات .

بل لقد لعبت دولة المرابطين دورا بالغ الاثر فى الحروب الصليبية اذ أن دخولهم إلى الاندلس قد نجح فى الحيلولة دون قيام الممالك المسيحية الاندلسية فى أن تساهم



فى الحملات الصليبية التى كانت تتجه إلى بلاد الشام للاستيلاء على بيت المقدس حيث شغلت هذه الامارات بالدفاع عن نفسها أمام الوجود المرابطى الذى بسط على المغرب والاندلس. بل إن ظهور المرابطين فى تلك المرحلة التاريخية فى المغرب العربى والاندلس قد حال دون اشتراك القوى الاوربية بكل ثقلها فى الحرب الصليبية فى الشرق وقد تكون مدافعة المرابطين للخطر الصليبى واقتسام القوى الاوربية بين الشرق والمغرب قد أدت خدمات جليلة للشرق الاسلامى، كما انه أثار مشاعر المسلمين فى الشرق حيث أدركوا أن القوى الاسلامية المغربية الاندلسية استطاعت أن تحقق انتصارات باهرة فى معركة الزلاقة وغيرها من المعارك الاخرى التى خاضها جند المرابطين فى الاندلس، بل إن بعض المرابطين رحلوا بعد الحملة الصليبية الاولى إلى بغداد وخطبوا فى الناس ينتهضون الهمم ويلهبون الحماس فى النفوس ويدعون إلى الجهاد فى الشرق كما دعوا اليه فى المغرب. وهكذا قدم المرابطون الخير كل الخير للعالم الاسلامى .

**الدولة بعد يوسف :**

تولى أمور المرابطين بعد يوسف ابنه على والذى من حسن حظ الامة الاسلامية أن ابنه كان على شاكلته من ناحية صدق الايمان والاخلاص للإسلام وكان حسن التكوين والتدريب حيث شب أميرا عالما مجاهدا يتميز بالعدل والصلابة فى الحق وحسن الخلق ويتمتع بثقافة عالية وسار على نهج أبيه فى كل ميادين العمل وكان أهم ميدان له هو الجهاد فى الاندلس. وقد ورث على بن يوسف دولة موطدة الاركان

(١) كانت هذه القوات القليلة العدد اضافة جديدة للقوات المرابطية الضخمة التى كانت ترابط فى مختلف بلاد الاندلس التى تخضع للحكم المرابطى ومن هنا لم تكن هذه القوات الا دعما للوجود العسكرى المكثف .

فعمل على تثبيتها رغم الاخطار التى تتهددها لاسيما من ناحية أمراء إسبانيا المسيحيين. وقد انتهز فرصة الخلاف الذى وقع بينهم وعبر إلى الاندلس عام ٥٠٠هـ/ ١١١١م على رأس سبعمائة فارس [1] واستولى على طليطلة ومدريد ووادى الحمارة ثم عاد إلى افريقيا بعد أن ترك بالاندلس جيشا اسلاميا ضخما. لكن سرعان مانشب الخلاف بين المرابطين والمسيحيين مما دعا على بن يوسف إلى أن يعود إلى الاندلس عام ٥١٥هـ/ ١١٣٤م ولكنه لم يلبث أن عاد إلى المغرب وترك أخاه تميم بن يوسف.

وبينما كان على بن يوسف يواصل جهوده فى المغرب والاندلس بدأت الاخطار تحدق بالدولة من قبل الذين يدعون لدولة الموحدين والذين عملوا ضد المرابطين واجتهدوا فى تشويه سمعتهم وقد نجحت دعايتهم بالاضافة إلى قيام ثورة فى قرطبة على المرابطين وعجز تميم بن يوسف عن سحقهم فى الوقت الذى كانت فيه ثورة الموحدين فى المغرب على أشدها فانتهز المسيحيون الفرصة وهاجموا المسلمين وتوفى على بن يوسف عام ٥٣٧هـ/ ١١٤٢م بعد أن حكم سبع وثلاثين عاما قضاها فى مواجهة المشاكل فى المغرب والاندلس .

وتولى ادارة شئون البلاد من بعده ابنه تاشفين بن على بن يوسف وقد ورث هذا الملك العريض والحافل بالمشاكل والمصاعب وكان شابا حسن الاستعداد ولكن الظروف التى تولى فيها كانت عسيرة تحتاج إلى رجل ذى تجربة واسعة، ذلك لان محمد بن تومرت استعمل أساليب غاية فى العنف والقسوة والبعد عن المألوف فى محاربة المرابطين معتمدا على قبائل أكبر وأضخم وأقوى من قبائلهم حيث ناصرته صنهاجة ودرعة وغيانة .



وقد اضطر المرابطون إلى توجيه كل قواهم إلى صراع الموحدين فى المغرب دفاعا عن كيانهم وبهذا حرم الاندلس من جهود المرابطين وتوفى تاشفين بن على بن يوسف عام ٥٤٠هـ/ ١١٤٥م وتولى بعده ابنه ابراهيم ابن تاشفين ثم اسحق بن على بن يوسف الذى عزل فى نفس العام الذى توفى فيه أخيه ابراهيم. وقد تلاقت الدولتان المرابطية والموحدية فى النصف الاول من القرن السادس الهجرى ولو تأخر ظهور دولة الموحدين نصف قرن من الزمان لتعاقبتا على الجهاد ولكن هكذا شاءت الاقدار وخسر المسلمون من هذا التعاصر الشئ الكثير ولكن كان ظهور المرابطين فى المغرب العربى سببا فى ظهور فكرة المغرب الموحد فى دولة واحدة على أيدى المرابطين أولا ثم الموحدين بعدهم .

ويعتبر قيام دولة المرابطين رسوخا للدين ولدور البربر الذين أصبحوا أصحاب الكلمة فى المغرب حيث قامت دولة المرابطين فى وقت انتهى فيه نفوذ العرب فى المغرب وافريقية بانتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر وسقوط الدولة الاموية فخلا الجو أمام البربر وانتهى الامر بأن أقاموا خلافة مغربية فى عهد الموحدين عندما اتخذوا لقب أمير المؤمنين، كما أن قيام الدولة وتوسعها فى الاندلس يمثل ظاهرة فريدة فى تاريخ المغرب الاسلامى .

# الباب العاشر

## مآثر المرابطين فى المغرب والاندلس

لعب المرابطون فى المغرب الاسلامى (المغرب والاندلس) دورا كبيرا فى صد الهجوم الصليبى المنطلق من شمال الاندلس دورا لا يقل عن الدور الذى لعبه – الايوبيون والمماليك» فى صد الهجوم الصليبى على بلاد الشام، بل إن قيامهم بالواجب الاسلامى فى غرب العالم الاسلامى فى صد هجمات الإسبان والبرتغاليين فى بلاد الاندلس كان له دور فى ابطاء الهجوم الصليبى على بلاد الشام بل الاقلال من قوة الهجوم الصليبى لاحتلال الديار المقدسة فى الشام بل إن هناك بعض المرابطين الذين قدموا إلى الشرق الاسلامى لشد أزر اخوانهم فى العقيدة للدفاع عن المقدسات الاسلامية، ومن هنا لم تكن مآثر المرابطين تقتصر على المغرب الاسلامى بها أن أثر قيامها على مسرح الاحداث السياسية ترك تأثيرا على مجرى الاحداث السياسية فى العالم الاسلامى بأسره فلم يكن ظهور دولة المرابطين التى كانت أقصر دولة فى تاريخ المغرب حيث إنها ظهرت كقوة سياسية منذ أن أخذ يوسف بن تاشفين بزمام الامور عام ٤٨٠هـ/ ١٠٧٨م وانتهت عام ٥٤٠هـ/ ١١٤٥م ومن هنا فان عمرها الزمنى لم يزد عن ستين عاما منذ أن بسطت ألويتها على المغرب والاندلس اضافة إلى أنها لم تزد عن المائة عام منذ تولى أمرها أبو بكر عمر اللمتونى وتلك الفترة الزمنية القصيرة حققت فيها دولة المرابطين العديد من الانجازات السياسية والعسكرية والاقتصادية والثقافية مما ترك بصمات واضحة قوية فى هذه المجالات .

فلقد تركت دولة المرابطين أول مظهر حضارى هو تغير الحياة الاقتصادية والحضارية وسيادة المرابطين خلال القرن السادس الهجرى الحادى عشر متخذين من



المغرب الاقصى مركزا للنشاط الاقتصادى فى الاندلس أيضا ذلك لان أندلس ما قبل الزلاقة ليس بعدها ومن هنا كانت الاهمية العظمى للانتصار المرابطى فى الزلاقة اذ تيسر السيطرة السياسية للمرابطين على الاندلس فالزلاقة أصبح يؤرخ بها وبعدها ضم المرابطون الاندلس إلى دولتهم .

ولقد كان من أثر قيام دولة المرابطين فى المغرب والاندلس أن بدأ الاندلسيون فى القرن السادس بالهجرة إلى البلاد المغربية حيث خضع القطران لحكومة واحدة وهذه الهجرة حلقة فى سلسلة بدأت منذ فترة قبل ذلك بدافع التجارة أو العلم أو الحجج، غير أن حركة الجلاء اتخذت صورة جماعية فى الاندلس خلال عصر ملوك الطوائف نتيجة سقوط مدينة فى حرب داخلية أو عدوان خارجى أو هربا من الظلم أو أعباء الضرائب أو الصراع العنصرى. ولكن منذ الدولة المرابطية توفرت فى البلاد الغربية حياة مستقرة أفضل من الاندلس كما أن مراكش أصبحت مركز الثقل السياسى فإليها يهرع المتعلم لتولى حظه وبرع التجار بحثا عن سوق فتقاطرت جموع الاندلسيين إلى البلاد الغربية خلال القرن السادس الهجرى .

ولقد استطاع المرابطون القضاء على هذه الدويلات وتلك الدول فى محاولة لوضع حد لآثارها على الاقتصاد المغربى، الا أن المرابطين أنفسهم لم يلبثوا أن أصبحوا فى الدور الثانى خطرا جديدا على النشاط الاقتصادى بما فرضوا من ضرائب باهظة على الزراعة والصناعة والتجارة الامر الذى شل هذا النشاط إلى درجة كبيرة. ولئن أتيح للمرابطين أن يضعوا حدا للفوضى التى حدثت فى وجود دول الطوائف الاندلسية ودويلات زناتة وكذلك فإنهم عجزوا عن القضاء نهائيا على زحف نصارى أسبانيا جنوبا وسيطرة القوى الاوربية على البحر المتوسط. ومع أن المرابطين تدخلوا فى الاندلس تلبية لدعوة الاندلسيين وحاولوا وقف تقدم نصارى إسبانيا وقد نجحوا فى ذلك بعض

الشئ ومع انهم بذلوا جهودا مضنية لتعمير المدن التى هجرها أهلها مثل قرطبة وباجة وشلب فان كل هذه الجهود قد ذهبت أدراج الرياح.

لقد كانت سيطرة المرابطين على الاندلس ذات طابع معكوس اذ انقلبت الاوضاع وأصبحت الغلبة من نصيب أهل المغرب وكتب لهم السياد على الاندلس وأصبحت شئون تلك البلاد تصرفها حاضرة واحدة هى مراكش. بل إن مراكش بسطت نفوذها حتى اقليم السنغال والنيجر وجمعت بين المؤثرات الاندلسية والمغربية والسودانية وألفت بين التراث الاندلسى والمغربى والسودانى وطبع ذلك المزيج من المؤثرات الحضارية بطابع اسلامى وثقافة اسلامية أخذت من كل جانب بقسط وصاغتها فى قالب الثقافة الاسلامية مما جعل التأثير الحضارى بين البيئات الثلاث. وحدة شكلت مجتمعا جديدا يختلف اختلافا واضحا عن غيره من المجتمعات السابقة .

ومن هنا فانه يتبين لنا أن الدولة المرابطية كانت أمينة على تراثها القبلى عاملة على أن تؤلف بين قلوب الامراء والاشراف وشيوخ القبائل والعشائر حتى يظل تحالف القوى الثلاث (المغرب– الاندلس– السودان) قويا متماسكا لا يتفرق شمله وربما قد أثارت هذه السياسة أهل الاندلس الذين كانوا يطمعون فى بسط نفوذهم فى الدولة الجديدة ولاسيما من الناحية الثقافية والفكرية .

وقد تأثرت دولة المرابطين بهذه الروح المتعاونة تأثرا عظيما حتى لقد كان نظام الحكم فى عهد المرابطين نظاماً لامركزى يتمتع فيه حكام الاقاليم بسلطة محلية مطلقة سواء فى الاندلس أو المغرب والسودان لاتربطهم بولى الامر الا رابطة الولاء من ناحية ورابطة القرابة من ناحية أخرى وقد كان أمير المؤمنين يعين هؤلاء الامراء لفترات محدودة ويضعهم تحت الاختبار وقد استخدم المرابطون رجالا من غير قبيلة صنهاجة واستعانوا فى المغرب بأهل الاخرى التى دانت لهم بالطاعة كما استعانوا بالاندلسيين



الوافدين على المغرب والمقيمين فيه بعد الوحدة .

فقد تدفقت ثقافة الاندلس على بلاد المغرب وعملت على خلق تراث فكرى كما أن هذه الثقافة الاسلامية استطاعت أن تجعل المرابطين يشاركون العالم الاسلامى ثمار هذه الحضارة التى جمعت تحت ظلالها البيئات الاسلامية الثلاث الاندلسية والمغربية والسودانية .

ولقد كان المرابطون يعتمدون على رجال الدين بل ينظرون اليهم نظرة تقدير واجلال واحترام ومن هنا فانه يمكن القول أن الدولة كانت دولة الفقهاء المرابطين، الذين كانوا يعتمدون على الفقهاء والقضاء فى تطبيق مبدأ الشورى وقد أجرى يوسف بن تاشفين عليهم الارزاق وكان على بن يوسف أكثر من أبيه برا بالفقهاء والعلماء بل انه انصرف إلى تحالفهم ومجالستهم وكان القضاء يحكمون وفق الشرع فلم يكن عليه سلطان لغير قانون السماء لايخالفه ولايخرج عليه، ومن هنا ارتفع شأن القضاء وزاد قدرهم وعظم سلطانهم والتف الناس حولهم، بل ان القاضى كان يتدخل فى كل صغيرة وكبيرة فى شئون المدينة، وكان أمير المؤمنين يعين كبير القضاة فى بلاد الاندلس والمغرب والسودان .

وهكذا كان لدولة المرابطين دور واضح فى مفهوم الحكم والقضاء والثقافة الاسلامية وظهور أنماط ثقافية ذات أبعاد واحدة جمعت أقطارا واسعة، لكنها متوحدة المصدر، ذلك لان التقاليد الاسلامية السمحة التى بها عبد الله بن ياسين جعلت من المرابطين حكاما يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وينادون بالمساواة بين الناس ويجلون العلماء والفقهاء والقضاء .

ثم ألم يكن للمرابطين أكبر الأثر فى دعوتهم التى خرجوا من أجلها يبشرون بمبادئ الدين الاسلامى الحنيف وتخليصه من البدع والضلالات والخرافات بل تطهير

المجتمع الاسلامى ورفع صيحة الامر بالمعروف والنهى عن المنكر فى المغرب والاندلس تلك ميزة من مميزات دعوة المرابطين الداخلية بالاضافة إلى تخليص شعب الاندلس والمغرب مما يعانيه من بؤس وشقاء وظلم الحكام والقضاء على كل الموبقات التى كادت تقصف بالمجتمع الاسلامى فى ذلك العصر .

كذلك عندما تحقق نصر المرابطين فى الزلاقة فان أهل الاندلس قد شهدوا عن قرب عدل المرابطين وتمسكهم بالكتاب والسنة وعملهم على احياء الدين وكيف انهم ينشرون مبدأ المساواة بين الناس ويخففون عن كواهلهم أعباء الضرائب الفادحة التى فرضها عليهم الامراء .

لقد قام المرابطون بواجب الجهاد فى سبيل الله ورفع لواء الدين الاسلامى. وجعل هذا الهدف المرابطين قوة يخشى بأسها فى المجتمع العربى فى القرنين الخامس والسادس الهجرى، وقد ظهرت روح الجهاد فى كفاحهم فى المغرب الاقصى والاندلس فقد أدرك ابن تاشفين أن نجاح دعوة الجهاد يقتضى تنظيم قوى المرابطين فى كفاحهم لجمع وحدة المغرب والاندلس فقد كان توحد قوى المغرب واخضاع قبائله تحت قيادة لمتونة ويوسف بن تاشفين هى بداية الاستعداد والانتصار فى معركة الزلاقة فقد كان تحالف والتحام صنهاجة ولمتونة ولمطة وغيرها من قبائل الملثمين قد مكنت ليوسف الانتصار حيث أسدت هذه القبائل للمرابطين دورا كبيرا فى حركة الجهاد الاسلامى كما أن أبناء السودان لهم دور كبير فى تحقيق أهداف الجهاد الاسلامى بما لعبوه من تضحية وفداء فى معركة الزلاقة .

وقد كان من الطبيعى بعد أن خضعت الاندلس للسيادة المرابطية وتعددت الجيوش المرابطية المشتركة فى معركة الجهاد أن تتوحد قيادة هذه القوات وان يعقد لوائها لقائد واحد هو حاكم الاندلس من قبل أمير المسلمين فى مراكش .



وكانت مآثر المرابطين واضحة جلية فى فن بناء الحصون والقلاع وشحنها بالجنود والعتاد والاطعمة وترتيب العساكر بها حيث كانت فلسفة بناء الحصون منذ انطلاق الدعوة فى جنوب الصحراء الكبرى حيث كان بناء الحصون أول عمل من أعمالهم وما بناء مدينة مراكش الا لكى تكون حصنا لتحقيق الاهداف العسكرية للمرابطين ومن هنا كان بناء سلسلة كبيرة من الحصون، كما أن على بن يوسف تابع سياسة والده وأحس أن الحصون السابقة لم تحقق الهدف فى حماية أمن الدولة لذا استعان ببعض أهل الاندلس لبناء عدة حصون وقلاع، وكانت هذه الحصون والقلاع عبارة عن خط دفاع أول عن الدولة حيث كانت من الصعوبة الوصول اليها لان بها أبراج مراقبة وبها من الاطعمة والعتاد والافراد ما يمكنها من مقاومة الحصار لفترة طويلة ولقد كانت أعداد هذه الحصون تزيد عن عشرين حصنا بل أن بعضا منها لازال باقيا فى المغرب الاقصى .

كما أن الدعوة الدينية التى قامت على أساسها دعوة المرابطين قد أشاعت فى الناس روح الامانة والثقة وكان الامراء والسلاطين والملوك قدوة للرعية والولاة ورجال الادارة والعمال. وقد كان يوسف بن تاشفين أمير المسلمين نفسه زاهدا فى طلب الدنيا متورعا متقشفا على ما فتح الله عليه، كما أن المرابطين لم يفرضوا على الناس الا ما أمر الله تعالى به واجبه فى الكتاب والسنة من الزكاة والعشور وجزية أهل الذمة واخماس الغنائم من المشركين ومن هنا انتشر الرخاء وأصبح الناس فى المغرب والاندلس والصحراء يعيشون عيشة ميسورة فى ظل الحكم المرابطى الذى جاء الموحدون لينقضوا عليه .

ولقد قدم المرابطون للحضارة الاسلامية الشئ الكثير الذى لازالت آثاره خالدة فى حضارة الاسلام فقد حافظوا على حضارة المغرب الاوسط والاقصى من الضياع ووقفوا

بالمرصاد لكل من يحاول أن يعبث بتلك الحضارة بل انهم صانوا التراث وقربوا العلماء والفقهاء ورجال العلم وتألق فى عهد المرابطين نجم جامعة فاس ومسجد القرويين الذى لازال دوره حتى كتابة هذه السطور حيا فى عالم المغرب العربى وافريقيا بعد أن ورثت جامعة فاس جامعة القيروان بعد الغزو الهلالى لتونس، كما أن سيطرة المرابطين على الاندلس قد كانت سببا فى ظهور حضارة مغربية أندلسية حيث اختلطت المؤثرات الاندلسية بالمؤثرات المغربية وساعد ذلك على تقدم الفن والثقافة والحضارة والعلوم فى المغرب. وقد عمل سلاطين المرابطين على تشجيع العلماء الاندلسيين فى القدوم إلى المغرب ووفدت منهم طائفة كبيرة فى عهد الامير على بن يوسف بن تاشفين إلى مراكش حيث أشاعوا نوعا من ألوان الحضارة الاندلسية كالادب والعمارة والفنون والصناعات والفقهاء والعلماء بل وفد إلى المغرب الاطباء والفلاسفة ولقى هؤلاء تشجيعا من أمراء المرابطين حيث أقاموا صرح حضارة مغربية متطورة تأخذ بأسباب التقدم فى جميع المجالات حيث لقى تشجيع المرابطين ازدهارا لكل هذه العلوم. كما انه على الجانب الآخر قدم المغاربة إلى الاندلس يحاضرون فى مدارسه ومعاهده وجلسوا للدرس والتدريس وتحلق الطلاب حول علماء المغرب الذين عادوا بعد ذلك إلى بلادهم بذخيرة علمية عظيمة ينتفع بها الناس وقد ظهر المغرب كمركز من مراكز نشر الثقافة والحضارة الاسلامية بل ان المبدعات الفكرية والثقافية والعلمية تفوقت على ما كان يصدر فى بلاد المشرق الاسلامى وبدأ علماء المغرب ينافسون علماء المشرق فى كل المجالات وأصبحت مدرسة مراكش كعبة العلم والعلماء يقصدها العلماء فى عهد المرابطين من كل فج عميق ليمارسوا نشاطهم العلمى والفكرى والثقافى كما أن مدارس الاندلس نهضت نفس النهضة بل أكثر من المغرب وشهدت مدرسة قرطبة ظهور العديد من العلماء والفلاسفة والاطباء .



كما خطت العلوم العربية خطوات واسعة الانتشار وظهرت فى بلاد الاندلس طائفة كبيرة ممن فهموا أسرار اللغة العربية وبرعوا فيها، وكما ارتفع شأن العلوم العربية حظيت العلوم الدينية بالرعاية الكاملة وزاد الاهتمام بالفقه والشريعة وعلوم القرآن الكريم والحديث والشعر والادب وتفوقت علوم الفلسفة والطب وبدأت العلوم العقلية تزدهر فتركت بصماتها واضحة جلية فى شعب المرابطين الذين أقبلوا على النهل من الثقافة الجديدة والتى لم تكن متاحة لهم فى بلاد المغرب واستفادت من الحضارة الاندلسية الوافدة على المغرب وبذلك لم يتخلف المرابطون أبناء المغرب العربى عن مسايرة التطور واللحاق بركب التطور الاسلامى بل انكبوا على الثقافة والعلم وأخذوا منها بنصيب وافر. وأقبل الجميع على العلوم الاسلامية ينهلون منها كل منهل حتى انه لم يمض نصف قرن من الزمان على توحيد المغرب والاندلس حتى بدأت ثمار الحضارة الاسلامية التى جمعت بين تقاليد الاندلس والمغرب والسودان تؤتى أكلها شهية للشعب المسلم الذى فاقت حضارته العربية الاسلامية حضارة المشرق، ولم يكن العلماء وأفراد الشعب وحدهم الذين أقبلوا على ينابيع الحضارة الاسلامية بل شاركها فيها الامراء والنبلاء والسلاطين بل إن هناك بعضا من الامراء رحلوا إلى مصر ومكة المكرمة وبغداد للاستزادة من علوم الدين الاسلامى واللغة العربية والعلوم العصرية كالفلك والطب والهندسة والفلسفة والعلوم الصناعية والزراعية .

لقد كان من أهم مآثر المرابطين انهم صنعوا وحدة المغرب الاقصى على الاساس الذى يثبت به التاريخ فقد ظلت المغرب منذ ذلك الحين تشمل البلاد الممتدة من ساحل البحر المتوسط إلى وادى درعة وامتد شرقا من المحيط الاطلسى إلى شرق نهر المولوية ولقد وحد المرابطون هذا المغرب سياسيا ثم دينيا فقد قضوا على بقايا المذاهب المنحرفة وقطعوا دابر المذهبين الاباضى والشيعى بل إلى المرابطين يرجع الفضل فى

الوحدة العقائدية السنة التى تميز المغرب الاقصى .

وأتم المربطون وحدة المغرب الاقصى الثقافية فكان قيام عبد الله بن ياسين بحركته الدينية فقد عمل على نشر الاسلام والقرآن ولغة القرآن وثقافة هذه اللغة وذلك وبعد أن تحولت الحركة إلى حركة سياسية ووحدوا المغرب كما أن العصر المرابطى يعتبر العصر الذهبى للتراث الفنى فى المغرب والاندلس. ففى الاندلس أوقفوا التقدم النصرانى بانتصارهم فى معركة الزلاقة عام ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م وكسروا بذلك الموجة التى كان يقودها ألفونسو بانتصارهم عليه فى معركة افراغة بعد ذلك بثمانية وأربعين سنة ٥٢٨هـ/ ١٣٤م ولم يكن ألفونسو الاول بأقل خطرا من ألفونسو السادس اضافة إلى انتصار المرابطين فى مواقع أخرى مكن لهم الثبات فى شرق الاندلس .

كل ذلك أدى إلى ثبات جبهة الاسلام فى الاندلس بعد أن أوشكت على الانهيار قبل دخولهم واذا كان عمر الاسلام قد امتد بعد ذلك نحو أربعة قرون فى الاندلس فان الفضل كل الفضل فى ذلك يعود إلى الدور المجاهد الذى بذله المرابطون .

وخلال هذه القرون الاربعة التى أضافها المرابطون إلى عمر الاسلام فى الاندلس كتب أهل الاندلس صفحات خالدة فى تاريخ الاسلام .

بل أكثر من ذلك فقد توالت على الجامعات الاندلسية البعثات الاوربية لتلقى العلوم والفنون والصناعات حتى أن ملوك انجلترا أرسلوا البعثات لدراسة نظام الدولة والحكم وآداب السلوك وكل ما يؤدى إلى سير الامور فى الدولة والسير بها فى مضمار الحضارة والتقدم .

ومهما يكن من أمر فان القرن الخامس الهجرى وأوائل القرن السادس قد شهدا ظهور نهضة ثقافية شاملة عمت بلاد المغرب والاندلس على الكتب الاسلامية .



ولقد تركت المؤثرات المختلفة بصماتها على الثقافة الاسلامية فى عصر المرابطين وبدأت المؤثرات الفنية الوافدة من الشرق والمغرب والسودان تتفاعل فى مدرسة الاندلس. وبدأ يظهر فن اسلامى أندلسى رفيع المستوى وبدأت الصلة بين المغرب والاندلس تتضح آثارها وبدأ زعماء البربر يفدون على قرطبة واشتد تأثير الاندلس فلم يعد قاصرا على مدن الساحل الافريقى واقليم الريف بل نفذت تلك المؤثرات الاندلسية إلى اقليم الصحراء جنوبا بعد أن تخطت اغمات ومراكش وظهر الصناع الاندلسيون فى تلك البقاع واستفادت الصحراء والمغرب من خبرتهم ومهارتهم فى بناء المساجد والحصون وغيرها من المؤسسات التى لم تكن معروفة بهذه الصورة من الروعة سابقا .

وقد تأثر على بن تاشفين (٥٠٠- ٥٣٧هـ/ ١١٠٦- ١١٤٢م) فقد تتلمذ على الحضارة العربية وأمعن فى الاستعانة بالاندلسيين فى شتى المجالات فانتشروا فى طول البلاد وعرضها واستفادت منهم مدن المغرب ومؤسساته وأصبحت المؤسسات الادارية والحكومية فى مراكش وفاس وتلمسان تضارع مؤسسات قرطبة وطليطلة وأشبيلية وكان الفن فى عهد المرابطين هو فن أندلسى على أرض مغربية .

وقد شهدت دولة المرابطين (الاندلس والمغرب والصحراء) فى عهد يوسف بن تاشفين وعهد على ابنه أمنا واستقرارا وطمأنينة ساعدت على ازدهار الحضارة الاسلامية .

وهكذا أهدى الفكر العلمى الاسلامى فى تلك العصور الزاهرة إلى الانسانية كثيرا من مظاهر التقدم والرقى والحضارة والرفاهية بل أكثر من ذلك فان مساجد فاس لم تكن مخصصة للعبادة فقط بل كانت دار علم .

بل إن أقدم جامعة فى العالم ليست فى أوربا كما كان يظن العالم يتلقى فيها الطلبة من كافة البلاد مختلف العلوم التى لم تكن قاصرة على علوم الدين والقرآن

والحديث والتفسير والفقه وانما كان يدرس فيها علوم الرياضة والفلك والجغرافيا وقد أطلق على هذا المسجد اسم «جامعة القرويين» وهى أول جامعة اسلامية كانت تدرس فيها مختلف العلوم لكافة المراحل .

بل فى افريقيا فى مدينة فاس عاصمة المغرب وقد تخرج فى هذه الجامعة الأم عشرات من الطلبة الاجانب الاوربيين من غير المسلمين .

ويسجل التاريخ للمسلمين انهم كانوا أصحاب رسالة ومن أسباب النهضة العلمية فى أوربا. وهكذا أصبحت مدينة فاس من أهم مراكز الفن والعلوم فى المغرب فى عهد المرابطين .

وقد تركت دولة المرابطين التى لم يصل عمرها الزمنى إلى مائة عام وهى فترة قصيرة فى عمر الدول بصماتها واضحة جلية فى جميع المجالات بل إن تلك المآثر الحضارية تعدت حدود دولة المرابطين إلى أرجاء أخرى من العالم الاسلامى ولولا ظهور دولة الموحدين وانقضاضها بعنف على دولة المرابطين ٤٤٨- ٥٤٠هـ/ ١٠٥٦- ١١٤٥م لكانت المآثر الحضارية والثقافية والسياسية والعسكرية أكثر تأثيرا فى تلك البقاع التى ظهرت فيها دولة المرابطين وهكذا شهد عام ٥٤١هـ/ ١١٤٥ انطواء صفحة جليلة فى تاريخ المرابطين فى المغرب الاسلامى .



## خلفاء المرابطين

أبو بكر عمر اللمتونى

٤٤٨- ٤٨٠هـ- ١٠٥٦- ١٠٧٨م

يوسف بن تاشفين

٤٨٠- ٥٠٠هـ- ١٠٧٨- ١١٠٦م

على بن يوسف بن تاشفين

٥٠٠- ٥٣٧هـ- ١١٠٦- ١١٤٢م

تاشفين بن على

٥٣٧- ٥٤٠هـ- ١١٤٢- ١١٤٥م

ابراهيم بن تاشفين بن على

٥٤٠هـ- ١١٤٥م

# الجزء الثالث

# ظهور دولة الموحدين على مسرح الأحداث

# فى المغرب والأندلس



## الباب الحادي عشر

## ظهور دولة الموحدين على مسرح الأحداث

### دور الفقيه محمد بن تومرت

كان النجاح الذى حققته قبيلة لمتونة بقيام دولة المرابطين تلك الدولة القوية التى لعبت دورا هاما بفضل الدور الذى لعبه عبد الله بن ياسين دافعا لكى تتحرك إحدى قبائل الجبل وهى قبيلة المصامدة لكى تتحرك هى الأخرى لإقامة كيان سياسى على غرار دولة المرابطين . وكان يوسف ابن تاشفين مؤسس دولة المرابطين قد أدخل المصامدة فى طاعته وساد بلادهم . وكانت قبائل المصامدة تسيطر على اقليم السوس الاقصى وتكون كتلة قوية المراس صعبة المقاومة وكانت قبائل المصامدة تكره زناتة وتتوق إلى حليف تشد أرزه وقد وجدت ذلك الحليف فى قبائل المرابطين الزاحفة من الواحات ويروى المؤرخون أن المصامدة لم يقاوموا المرابطين بل ساعدوهم فى القضاء على زناتة ولن يتسير ذلك للمرابطين إلا بعد استرضاء قبائل المصامدة ، لذا يعتبر استرضاء المصامدة عملا سياسيا ممتازا .

ولقد كان ذلك باعثا حرك فى نفوس المصامدة الرغبة فى انشاء دولة لهم فهم قبائل ضخمة قوية يشكلون معظم سكان المغرب الأقصى وتمتد ديارهم من شمال المغرب الأقصى إلى جنوبه ولم تكن تلك الجموع إلا فى حاجة إلى شخصية قوية قيادية قادرة على توحيد الصفوف والقيادة وقد أتاحت الظروف لظهور تلك الدولة على مسرح الأحداث السياسية فى المغرب والأندلس لكى تخلف دولة المرابطين فى الزعامة بفضل ظهور شخصية فقيه مصمودى من قبيلة هرغة التى تسكن فى نواحى جبال الأطلس العليا فى سهل السوس وهى قبيلة من قبائل البربر المقيمة فى جبال الأطلس المراكشية .

وقد أصبحوا بمثابة الخلية الأولى التى تدعو إلى صفاء التوحيد الإلهى من الشوائب . بعد أن فقد المرابطون المجاهدون تقشفهم وحياة الصحراء ولم يستطيعوا الصمود أمام تأثير الحضارة الأندلسية ومن هنا استطاعت دولة الموحدين أن تخلف المرابطين فى حكم المغرب والاندلس وقد قامت هذه الدولة على أساس دعوة دينية إصلاحية طابعها التجديد والعظمة وهدفها تحقيق وحدة إسلامية شاملة .

ومؤسس هذه الدعوة هو الفقيه عبد الله بن محمد بن تومرت الهرغى المصمودى السوسى وواضح من اسمه أنه من قبيلة هرغة إحدى بطون مصمودة التى كانت ديارها تقع فى بلاد السوس بجبال الأطلس الجبلية الضاربة بالمغرب الأقصى . هذه القبيلة التى عرفت فى تاريخها الطويل بشدة مراسها وكرهها الشديد لبدو الصحراء الذين يغيرون على مواطنها وكان قد أخضعها المرابطون بعد فتح المغرب واستكانت للغلبة ولكنها ظلت تضمر الحقد والكراهية للملثمين وتتلمس السبل المؤدية إلى الثأر مما نالها من أذى والخلاص مما تتردى فيه من مذلة وخضوع .

وقد ولد محمد بن تومرت الهرغى فى عام ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م على وجه التقريب فى بيت يغلب عليه طلب العلم . وكانت ولادته فى قرية اجليز الصغيرة إحدى قرى جبال الأطلس فى الجنوب الغربى من السوس وكان أبوه زعيم هذه القرية ورئيسها وكانت قبيلة غنية قوية فعرف منذ صغره بغيرته الدينية وكان كثير التردد على المسجد مقبلا على مجالس العلم فيه فسرعان ما كسب سمعة بين مواطنيه أهلته لزعامتهم .

ولكن كان لابد أن تستند خلافتهم أيضا على الأسس الشرعية اللازمة كالنسب النبوى أو الأصل العربى فقالوا بانتماء كل من المهدى وخليفته عبد المؤمن إلى الرسول ﷺ عن طريق الادارسة واتخذوا اللون الأخضر شعارا لهم كى يظهروا ميلهم إلى الدعوة العلوية . وقد أشار تلميذه أبو بكر الصنهاجى إلى نسبه بأنه شريف حسنى رغم أن



هناك بعض الشكوك فى ذلك النسب . وإن كان ابن خلدون يذكر أن الإمام المهدى صاحب دولة الموحدين ينتمى نسبه إلى أهل البيت وأن القدح فى النسب جاء من حسد بعض الفقهاء على شأنه لانهم رأوا فيه متبوع الرأى مسموع القول . وقد نادى فى قومه ودعا إلى جهادهم فاقتلع الدولة من أصولها وكانت له قوة وشدة وشوكة واعز أنصارا وحامية .

وقد بايعه أنصاره على الموت ووقوه بأنفسهم حتى علت كلمتهم وسيطروا على العدوتين وقد رأس هذا الرجل سائر المصامدة ودانوا باتباعه والانقياد إليه وإلى جماعته من هرغة حتى أتم أمر الله فى دعوته ومهما يكن النسب العلوى الحسنى فلم يكن أمر المهدى يتوقف عليه ولا اتباعه الناس بسببه وإنما كان اتباعهم له بعصبة الهرغية والمصمودية ومكانه منها ورسوخ شجرته فيها .

كذلك يروى ابن الأثير عن الأصل العربى القرشى فيروى أن ابن تومرت حينما سأل عبد المؤمن عن نسبه فى أول لقاء لهما أخبره بأنه من قيس عيلان ثم من بنى سليم وأن سليم وقيساً ينتميان إلى مصر التى منها قريش . كذلك يروى المؤرخون أن عبد المؤمن بن على كان يقول لمن يذكر له اسم قبيلة كومية البربرية التى ينتمى إليها وهى من بطون زناتة بنواحى تلمسان أنا لست منهم وإنما نحن لقيس عيلان ولكومية علينا حق الولادة بينهم والمنشأ فيهم وهم الأخوال وقد حرص مؤرخو هذا العصر على اثبات هذا الأصل العربى فى كتاباتهم فأطلقوا على عبد المؤمن كنية القيسى بدلا من الكومى كذلك استغل الموحدون هذا النسب العربى القرشى فى اخضاع القبائل العربية المقيمة فى افريقية ( تونس ) وبهذا يكون ابن تومرت من أصل مرموق .

واتجه ابن تومرت إلى الدراسة والعلم فدرس فى بلده الصغيرة أولا ثم فى مراكش ورحل ابن تومرت المصمودى إلى الاندلس والشرق واغترف من معين الثقافة الإسلامية فى المدرسة النظامية ببغداد ثم عاد إلى المغرب يأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وباطنها

التعصب المصمودى وكره للمرابطين وتشويه لدعوتهم ولتاريخهم المجيد .

ومن ثم أخذ يهاجم أمراء العصر ونقم على أهل الدولة ما نقم من أحوالهم وخالف اجتهاده فقهاؤهم حتى علت كلمته على الكلم وأخذ يشدد على المرابطين ويتهمهم بأنهم مسؤلون عما حل بالمجتمع من مصائب وأعلن عليهم حربا لا رحمة فيها ولا هوادة وقد توسل بوسائل كثيرة لكسب الأنصار لدعوته الجديدة فادعى الانتساب إلى بنى هاشم ( ابن خلدون لا يشك فى النسب ) واتخذ لنفسه اسم محمد بن عبد الله العربى القرشى الهاشمى الفاطمى المحمدى ووصل نسبه بعبد الله بن الحسن بن على بن أبى طالب بل لقب نفسه بالمهدى وظل يؤلب قبائل المصامدة ويوغر صدورهم على الدولة المرابطية التى دافعت عن العقيدة الإسلامية وأقامت أعز دولة فى الأندلس والمغرب والصحراء واستطاع بعد جهاد طويل أن ينال من الدولة وهو فى سبيل ذلك يكفر المرابطين ويتهمهم بالزندقة ومن هنا ما كاد يرفع علم المقاومة ويحمل لواء الجهاد حتى كانت قبائل المصامدة من خلفه وتتبنى حركته وتشد أزره وتنصره وكان قد أعلن للناس أنه المهدى المنتظر الذى بعث لانقاذ المجتمع بل ذهب إلى أكثر من ذلك فى القول أنه الإمام المعصوم .

ولا شك فى أن محمد بن تومرت كان رجلا غير عادى الذكاء ولكن مواهبه الحقيقية كانت سياسية لا علمية وكان العلم بداية وطريقا يوصله إلى تحقيق غاياته السياسية وكلما سار فى الطريق شوطا اتضحت مكانته الحقيقية بين شعبه بعد أن أصبح لا يميل إلى الاجتهاد ولا يأخذ إلا بالكتاب والسنة والإجماع وأقبل يدعو إلى التشدد وكسر قوارير الخمر بل أخذ ينعى على المرابطين ظهور نسائهم وجهر ينقدهم واتخذ له حلقة فى قسطنينة وأقبل عليه الناس يتعلمون منه ونصرته قبيلته وبذلت له المساعدة . بعد أن وضع كل ما حصله من علم فى خدمة غاياته السياسية فقد استطاع اسقاط دولة كبرى هى دولة المرابطين وإقامة كيان سياسى دينى فريد فى تاريخ الإسلام



هو دولة الموحدين ، ولقد كان ذلك الرجل زاهدا لا يتمسك بأى مظهر من مظاهر الجاه أو السلطان وأنه كان يسعى لإقامة دولة للشعب المصمودى بعد أن أقنعهم بأنه المهدى المكلف بحركة إعادة المسلمين إلى العقائد الأولى الصحيحة المبنية على الإسلام والسنة وأنه صاحب الحق دون غيره فى تفسير الشريعة .

وفى حوالى عام ١١٢٥ م شيد ابن تومرت الرباط وفشل المرابطون فى الوقوف أمامه بصورة سريعة كما أن الفكرة التى كان يتبناها وهى فكرة الموحدين قد لقيت تأييدا كبيرا بين القبائل الجبلية المعادية لصنهاجة .

وقد دخل هذا الرجل التاريخ فى صورة فقيه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وهى بداية تتفق مع خطته التى رسمها لنفسه وهو الظهور بمظهر المصلح الدينى الثائر ذلك لأنه عندما يصل إلى تلمسان فيلتقى بعبد المؤمن ابن على من قبيلة كومية الصغيرة فيرتبط الرجلان برباط قوى فيصبح عبد المؤمن كبير تلاميذ فقيه السوس ومن تلمسان سار ركب الفقيه من السوس إلى وجدة ثم فاس ثم إلى مراكش وينشر صيته فى تلك المدينة وهاجم المرابطين فى المدينة وكان نقد ابن تومرت للمرابطين على غير حق ولكنه كان لايخاف السلطة وكان يرى أن الأمير مسئول أمام الله عن الفساد وأنه باستطاعته أن يرد المعاصى فلما دخل مراكش وغظ على بن يوسف وأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر بشدة ثم التحم مع الفقهاء المالكيين المحيطين بعلى بن يوسف فى مناظرة عنيفة استخدم فيها علم الكلام وتعاليم المدرسة النظامية ببغداد وانتصر عليهم لكن العلماء حرضوا على بن يوسف على اخراجه من المدينة وبعد اخراجه أعلن حربا ضد المرابطين ومن ثم بدأت حملاته تشتد ويرمى المرابطين بالزيغ والمروق على الدين لان الناس فى تلك العصور يستهويهم مثل هذا الشخص سواء أكان على حق أو باطل لأن الفكرة العامة كانت أن رجال الدولة دائما على باطل ومن ثم فان كل ناقد لهم يكون على صواب لان الأمراء المرابطين بدأوا يستبدون ببعض الأطراف ويهددون الدولة بالانقسام والزوال .

وبعد أن تأكد ابن تومرت من تكوين جماعة قوية من الاتباع انتقل بهم إلى موقع فى قلب جبال الأطلس قريبا من منابع وادى « نفيس » فاجتمعت له القبائل تنصره ويعلمهم ودخلوا فى بيعته وكان معظمهم من بنى حفص ومن الموقع الحصين الذى أخذه له ولاتباعه أخذ يناوش النواحى القريبة منه من البلاد الخاضعة للمرابطين وفى نفس الوقت يرتب أنصاره ويقبض بيد من حديد على أنصاره فانه بواسطتهم يستطيع السيطرة على قبائلهم مما جعل منه رجلا مطلعا على كل شئ لهذا نرى أصحابه ينفذون أوامره مهما بلغت من رهبة شديدة فى النفوس ومهما بلغت من الصعوبة أو القسوة ولهذا نجد أن هذا الرجل يصبح سيدا مطاعا ومرهوبا من جماعة كبيرة من المصامدة تطيعه طاعة عمياء وتخاف منه خوفا شديدا وهذه المكانة الرفيعة التى وصل إليها جعلته على حق فى أن يتخذ لنفسه لقب الإمام المهدى بعد أن رأى تعاليم الإسلام الأول التى هى تعاليم حكومة الرسول ﷺ التى أقامها بالمدينة المنورة هى التى يجب أن يسير عليها دون سواها . بعد أن أنكر المذاهب كلها وحارب الفرق التى قسمت العالم الإسلامى إلى فرق متعددة ومالت نفسه إلى تبسيط الدين الإسلامى ليكون فى متناول العامة فلا يكون فهمه على العلماء وحينئذ يسهل توحيدهم فى جهة واحدة ولذا أطلق على كل من آمن بدعوته اسم الموحد وأصبحوا جميعهم موحدين .

وكان اتخاذه المقام الجديد فى وادى نفيس فى قرية « تنهمل » على حدود الجبل الشرقى تشرف على السهل فى وادى نفيس فجمعت بين حياة السهل الذى يرغب فى سحقها وحياة الجبل التى تعود عليها والتى يريد نصرتها ومنذ أن استقر فى هذه القرية دخل فى الدور الايجابى حين بدأ حربه المقدسة ضد المرابطين وأخذ فى تنظيم جماعته على نموذج ما فعل محمد ﷺ فكان هو القائد الروحى والقائد العسكرى والفقيه والقاضى وجعل جماعته طبقات وجعل مجلس العشرة وهم أول تلاميذه وأكثرهم حماسا فى نصرته وهم الذين يتناولون أسرار الجماعة العليا وينتهون إلى القرار الذى يسير عليه رئيسهم وكانوا هؤلاء بمثابة مستشاريه .



وكانت الطبقة الثانية هى « مجلس الخمسين » وهم شيوخ القبائل والبطون وكان الطلبة هم الطبقة الثالثة والصفوة المثقفة من أتباعه ويأتى بعدهم الحفاظ وهم صغار الطلبة الذين لم يصلوا بعد إلى درجة خاصة من العلم وأخيرا الطبقة الخامسة وهم أتباعه الخصوصيون ، ثم تأتى بعد ذلك خمس طبقات أخرى تضم جميع من آمن بدعوته وأخيرا يأتى الجند . وكانت هناك قوانين تنظم العلاقة بين هذه الطبقات وهى قوانين صارمة يقوم المهدى نفسه بمراعاتها بدقة تامة وكانت هذه القوانين عبارة عن تقاليد بربرية مدعمة بالتعاليم والشرع الإسلامى والسنة النبوية وكانت الفروض الروحية واجبة على الجميع والإهمال فيها يعرض المهمل لعقوبات مختلفة تصل إلى حد الاعدام بعد أن استطاع ابن تومرت أن يحكم سيطرته على جماعته وأن الخطوة القادمة لابد أن تكون حاسمة فى تحقيق حلمه السياسى الكبير الذى ظل عدة أعوام يدعو له لكى تظهر قبيلة مصمودة على مسرح الأحداث السياسية فى المغرب الأقصى وليكون لها الدور فى مستقبل الحركة التاريخية والسياسية فى تلك البقعة من العالم الإسلامى توطئة لتوحيد العالم الإسلامى تحت راية الموحدين وهو الحلم الذى بدأ يتحرك لتحقيقه فى الصدام مع المرابطين وجها لوجه .

**الصدام الموحدى مع المرابطين :**

استطاع ابن تومرت وهو لايزال فى جبال أطلس أن ينظم شبه حكومة تقوم على مصاريفها موارد محدودة وفى حدود هذه الموارد ينظم جيشه ويدربه كما استطاع بخطاب ملتهب من خطبه ووعظه ألقاه باللغة البربرية أن يلهب مشاعر جيش ذوى الحمية والهمة وقادهم نائبه عبد المؤمن لمحاربة المرابطين المتهمين بالشرك . ولم تلبث الوقائع أن دارت بين الموحدين والمرابطين ولكن نتائجها لم تكن فى صالحه .

ذلك لانه فى أوائل عام ٥٢٤ هـ / ١١٢٩ م قرر محمد بن تومرت قائد الموحدين وفيلسوف دعوتهم وفقيه عقيدتهم أن يتحدى قوة المرابطين عندما شعر أن

لديه قوة ضخمة تزيد عن الأربعين ألف جندى من الموحدين تصور أنه قادر بهذه القوة على تحدى قوات المرابطين وكانت دولة المرابطين فى ذلك الوقت تحت قيادة على ابن يوسف بن تاشفين وكانت الدولة لاتزال فى قوتها وتستطيع أن تتحدى القوة الموحدية الناهضة ولم تكن قوات الموحدين توجه لعلى بن يوسف بل كانت موجهة إلى كل المرابطين على وجه العموم وكان على رأس هذه القوات تلميذه الوفى عبد المؤمن بن على ، ولم تكن قرارات الموحدين فى تلك الأونة فى مواجهة المرابطين تقدر قوة المرابطين فقد أخطأ ابن تومرت التقدير لان هذا الجيش الموحدى لقى هزيمة قاسية وفقد جل قادته الكبار وكانت صدمة شديدة لمحمد بن تومرت إذ هلك فى تلك المعركة صفوة رجاله المخلصون وقد سميت تلك المعركة معركة البحيرة لكن الدماء سالت فيها مكونة بحيرة من الدم بعد أن لم ينجو من هذه الأعداد الموحدية إلا أعداد قليلة كان على رأسهم عبد المؤمن بن على الذى استطاع أن ينجو من المعركة بأعجوبة وكانت نجاة عبد المؤمن ابن على سببا فى أن يتناسى ابن تومرت أحزانه على قادة الموحدين .

لكن لم تمض إلا فترة وجيزة على تلك الهزيمة القاسية التى هزت وجدان ابن تومرت وقد فارق بعدها الحياة فى ١٩ رمضان عام ٥٢٤ هـ / ٢٦ أغسطس ١١٣٠م. وكان ابن تومرت بعد أن هزم فى أول لقاء معهم قد أحس بالخوف بعد فقده لمعظم قواته بأن يكروا عليه فيقضون على دعوته وهى لم تزل بكراً ومن ثم بدأ فى تحصين مدينة اغمات والمدن التى كان قد استولى عليها قبل هذه المعركة من المرابطين ولكنه لم يكد يمضى فى ذلك حتى نزل به المرض فاعتزل فى قريته فمات بعد أن أسلم قيادة الحركة لعبد المؤمن بن على وقد كان فقيرا وحيدا دون أن يترك عقبا له .

وكان عبد المؤمن بن على وأبو حفص عمر الهنتاتى ثانى شخصية فى الدولة الموحدية خاصة وهو رئيس قبيلة هتاتة أقوى قبائل المصامدة وبقية قادة الحركة الموحدية قد أخفوا خبر موته ثلاث سنوات فلم يعلنوه إلا عام ٥٢٧ هـ . وبعد أن استطاع عبد المؤمن بن على أن يكسب ثقة قبيلة أبى حفص وعلى رأسهم شيخها الذى كان أحد



الشيوخ الأقوياء وبعد أن تأكد أن السلطة كلها قد انتقلت إليه ومن ثم أظهر نفسه بصفته منفذا لإرادة المهدى من تومرت الذى كان قد أوصى أن يصبح عبد المؤمن خليفة له . وظهرت هذه الإرادة فى شكل قرارات اتخذها مجلس العشرة وثم بعد ذلك مجلس الخمسين واتخذ له لقب خليفة تشبها بالخليفة الراشد الأول أبى بكر الصديق .

وكانت تلك المصادمات القوية التى حاول الموحدون القيام بها بقيادة عبد المؤمن بن على فى أواخر أيام محمد بن تومرت من أجل الاستيلاء على مراكش عاصمة المرابطين لكنهم ارتدوا على أعقابهم بعد أن منوا بخسائر كبيرة . وكانت قوات المرابطين التى حققت هذه الانتصارات الرائعة بقيادة الزبير بن على بن يوسف بن تاشفين وكان والى المدينة من قبل والده أمير المؤمنين .

وكان لقب الموحدين الذى أطلقه ابن تومرت على أتباعه قد أطلق اثناء الاستعداد لهذه الغارة إذ أنه كان يحسب أنهم يستطيعون دخول مراكش والقضاء على المرابطين بسهولة فسماهم الموحدين ولم تكن ذات معنى لان كل المسلمين موحدون . وقد سماهم بصورة رسمية زيادة فى حماسهم وبذلك سمى جيشهم بجيش المؤمنين وسمى عبد المؤمن بن على بأمير المؤمنين . بل أن تلك التسمية أراد بها ابن تومرت أن يوهم الناس أن دعوته تتجه إلى احياء عقيدة التوحيد . ومن هنا فان الصورة التى انتهجتها تلك الحركة التى قادها ابن تومرت هى صورة دولة قبلية مصمودية لانها دعوة أزكتها العصبية القبلية .

وللحقيقة التاريخية دون تجنى على دعوة ابن تومرت أنه كان يعرف تمام المعرفة أن المرابطين لم يكونوا أقل جهادا من رجاله فى سبيل إعلاء كلمة الدين الإسلامى فى المغرب والأندلس وأن جهادهم فى الأندلس صورة مشرفة لهم لكن ذلك الرجل كانت العصبية القبلية تملك عليه كل فكره بغض النظر عن نظرته الدينية وعلم المناظرة والكلام الذى تعلمه على أيدى المعتزلة فى بغداد إلا أنه كان مصموديا من

أخمص قدميه إلى قمة رأسه وأن حافزه إلى العمل والحركة كان الرغبة فى تجميع المصامدة وتوحيد قوتهم لإنشاء دولة مصمودية على غرار الدول التى قامت على أكتاف القبائل مثل صنهاجة ولمتونة والقبائل التى قامت على أكتافها دولة الادارسة وبنى رستم وغيرها من دول المغرب .

وأنه إذا نظرنا إلى العمل الكبير الذى بذل فيه ابن تومرت جهودا جبارة منذ عودته إلى المغرب من زيارته للمشرق الإسلامى والاندلس إلى وفاته لأدركنا أنه كان رجلا من الرجال القلائل الذين دخلوا التاريخ بل صنعوا لأنفسهم مكانة تاريخية فى بلاد المغرب رغم ما ارتكب من أخطاء وما قام به من أعمال تتسم بالعنف والقتال والتصفية الجسدية البشعة وقد استطاع ذلك الرجل أن يقوم بالعديد من الأعمال التى تتلاءم مع طبيعة العصر حتى استطاع أن يصل إلى تلك النتيجة المرجوة فى تلك الفترة القصيرة نسبيا من الزمن . بل أنه كان يستغل أبشع الاستغلال ثقة عوام الشعب فيه وظنهم فيه ولى من أولياء الصاحين بل أنه المهدى المنتظر الذى يقيم العدل ويزيل المفاسد ويقيم دولة الدين والعدل والإيمان والمساواة وأنه قادم لكى يملأ الدنيا عدلا وطمأنينة وسلاما وأمنا بعد أن ملئت جورا ، بل إنه الإمام المعصوم الذى دعا الموحدين إلى المحافظة على عقيدتهم فى المهدى المعصوم على اعتبار أن ذلك كان الأساس العقائدى للدولة الموحدية كلها .

ولقد كان ابن تومرت واسع النشاط بل كان ذا قدرة غير عادية بل خارق الذكاء وإلا فكيف تيسر له أن يقيم دولة واسعة موحدة الأركان وضع أساسها لمن حملوا راية التوحيد من بعده ولقد كان حسن الاختيار حين وضع ثقته فى عبد المؤمن بن على الذى رأى فيه أنه الرجل القوى القدير بقيادة الموحدين والقادر على أن يتحرك برجال مصمودة نحو هدفهم المنشود فى إقامة دولة والقضاء على الكيان السياسى لدولة المرابطين التى قدر للموحدين القضاء عليها فى عنفوان قوتها وهى تخدم قضايا الإسلام فى الأندلس وتصون دياره من النصارى .



# الباب الثاني عشر

## عبد المؤمن بن على والكيان السياسى للموحدين

بعد موت محمد بن تومرت مؤسس كيان الموحدين الدينى والقبلى والسياسى فان القيادة انتقلت إلى عبد المؤمن بن على صديقه وتلميذه الأول وعمل هذا على البقاء على جميع التنظيمات التى أقامها المهدى فقد وضعها معه ، كما أنها وافقت على تنصيبه قائد دينيا وسياسيا وروحيا للموحدين . وقد ساعدت التكوينات السياسية أو التنظيمية التى أقامها ابن تومرت على بناء قوة سياسية تتركز فى يد المهدى ومن يرشحه للخلافة من بعده فالقول بالتوحيد والمهدية وعصمة الإمام وغيرها من الأمور التى رفع الموحدين شعارها واتهام المرابطين بالبعد عن الدين الإسلامى والمروق وشرعية قتالهم لم تكن إلا هدفا للبناء السياسى لقبيلة المصامدة .

وعبد المؤمن خليفة المهدى والذى حمل هذا اللقب من قبيلة زناتة بل إن قبيلته فرع من زناتة هى قبيلة كومية التى ليست من قبائل المصامدة الكبرى وهى من الفروع التى كانت تسكن غرب تلمسان وبدأت صداقته مع ابن تومرت إثر عودة الأخير من رحلته إلى بلاد المشرق حيث لقيه إثر عودته فى طريقه إلى المغرب وكان أن اتصل ابن تومرت بالثعالبة عرب الجزائر الذين كانوا أولى قبائل العربية التى ناصرت الدعوة الموحدية وأهدت له حمارا فارها كان يركبه حيث أنه كان يسعى على قدميه وقد أهداه المهدى بدوره لعبد المؤمن موضحا لمريديه أن عبد المؤمن هو الذى ستقوم الدولة وتتسع على يديه وقد ربطتهما صداقة حميمة حيث رأى ابن تومرت فيه خليفته فعمل على دفعه لمكان القيادة .

وقد عمل صاحب الدعوة على أن يكون عبد المؤمن صورة حقيقية له لأن عبد المؤمن لم يكن صاحب كفاءة قيادية أو دينية ولم يكن يملك من المواهب التى تؤهله

لكى ينشئ دولة ، ولكن ابن تومرت أعده الإعداد اللازم للقيادة والزعامة والرياسة وعلمه فأحسن تعليمه ودربه أحسن تدريب وأمر أتباعه بإطاعة عبد المؤمن فى كل مايقوله وأن يقتدوا به فى كل ما يفعله وقد كان عند الأخير استعداد لكى يتقن كل مايقال له من تعليم وتدريب فعرف كيف ينهض بالخلافة وينظم الدولة ويسير بها إلى الطريق الذى رسمه لها ابن تومرت وأن يخطو بها خطوات ناجحة لكى تتبوأ القيادة والزعامة السياسية فى عالم المغرب العربى والأندلس .

وقد احتاج عبد المؤمن بن على إلى فترة زمنية طويلة لكى يثبت دعائم الكيان السياسى لدولة الموحدين فإذا كان ابن تومرت كما سبق القول قد مات عام ٥٢٤ هـ وأعلنت وفاته رسميا على أتباعه عام ٥٢٧ هـ فانه خلال هذه السنوات لم يقم بأدنى عمل عسكرى أو عمل يذكر له سوى تنظيم البيت الموحدى من الداخل استعدادا للتصادم مع المرابطين ولم تمض على وفاة ابن تومرت عشرة سنوات إلا وكان عبد المؤمن قد بدأ التصادم الفعلى القوى مع المرابطين حيث اشترك عام ٥٣٣ هـ / ١١٣٩ م فى معركة حاسمة مع تاشفين بن على بن يوسف وقد شغل طوال هذه الأعوام بالاستيلاء على حصون مرابطية صغيرة تقع فى الطريق إلى مراكش عاصمة المرابطين وبدأ يهاجمهم وإن كان لاينزل إلى سهولهم ولكنه يتحرش بهم للقدوم إليه فى معاقله الجبلية وكانت وسيلة ذلك الغارات الصغيرة الموفقة التى تدفع بأعدائه إلى تعقب المغيرين للانتقام منهم حيث يقطنون القمم الجبلية .

وقد أبدى المرابطين بسالة كبيرة فى الدفاع عن الأراضى التى تقع فى قبضتهم مما اضطرهم إلى توجيه كل قواهم إلى صراع الموحدين فى المغرب دفاعا عن كيانهم وبهذا حرم الاندلس من جهودهم الإسلامية المجاهدة ولكنهم رغم الظروف الصعبة التى أحاطت بهم فإنهم نجحوا فى الوقوف بحزم وقوة أمام الزحف المكثف لقبائل المصامدة التى كانت قواتها تزيد عن سبعين ألف رجل . وكانت خطة عبد المؤمن تعتمد على



عدم الدخول فى قتال مباشر مع المرابطين فى مراكز سلطانهم فى سهل مراكش وما يليه شمالا فاتخذ تخطيطا حربيا يساعده على تحقيق الانتصار بأقل أعداد بعد أن كاد أن يقتل فى معركة البحيرة عام ٥٢٤ هـ وهو الآن يقاتل نفس العدو بعد مضى عشرة سنوات ولابد أنه استفاد من التجارب السابقة فنجد أنه يسير جيوشه شرقى جبال درن ويخترق ممر تازا ويصعد شمالا إلى تلمسان وقد تمكن بذلك من بسط سلطانه على مساحة واسعة فى المغرب الأوسط وفى عام ٥٣٧ هـ / ١١٤٢ م مات على بن يوسف بن تاشفين وخلفه ابنه تاشفين بن على وكان شابا صغيرا قليل الخبرة ولكنه كان شديد الحماس للدفاع عن دولته التى أقامها أسلافه .

لكن نفوذ الموحدين انتشر على الجزء الجنوبى الغربى من مراكش وأخذ يزحف نحو الريف فى الشمال وكان ذلك أيام تاشفين بن على الذى جمع المرابطين لمعاونته بعد أن ناصرته بعضا من القبائل من زناتة بل ناصره أيضا بعض آل حماد ولكن عبد المؤمن انتصر عليهم فى عام ٥٣٨ هـ / ١١٤٣ م وذلك قرب تلمسان .

ولقد كان موت تاشفين بن على على أيدى الموحدين قد وضع نهاية لدولة المرابطين وذلك عندما حاول السلطان المرابطى تاشفين بن على بن يوسف بن تاشفين ان يستعين بالأسطول المرابطى للفرار إلى الاندلس فرحل إلى وهران بالجزائر وأقام هناك ينتظر قائد أسطوله أبا الحسن على بن عيسى بن ميمون الذى وصل إليه فى عشر سفن حربية فأرسى قريبا من معسكره غير أن الموحدين بقيادة عبد المؤمن بن على أحاطوا بالمدينة من كل جانب ولجأ تاشفين إلى ربوة هناك مشرفة على البحر حتى إذا غشى الليل خرج تاشفين من الحصن راكبا فرسه فتردى من بعض حافات الجبل فمات فى ١٧ رمضان عام ٣٩ هـ / فبراير ٢١٤٥ م . وقد مات هذا الشاب صريعا وهو يحارب الموحدين ويدفعهم عن وهران وبموته سقطت وهران وتلمسان وأخذ كيان دولة المرابطين يتداعى تحت ضربات عبد المؤمن وقواته . وعثر الموحدون على جثة تاشفين فقطعوا

رأسه وبعثوا بها إلى قرية « تينمال » موطن الدعوة الموحدية فبعث فى أهلها الحماس وكان ذلك إيذانا بمولد دولة الموحدين وبموت تاشفين خلفه ابنه ابراهيم بن تاشفين وقد قتل هذا عام ٥٤٠ هـ وهو يقاتل الموحدين فآلت زعامة المرابطين إلى عمه اسحاق بن على بن يوسف وفى عهده تحول عبد المؤمن إلى فاس وحاصرها تسعة أشهر وكان حصارا شديدا أو حربا طويلة دافع فيها المرابطون عن فاس دفاعا شديدا وباسلا لكن فى شهر محرم ٥٤١ هـ / يونيو ١١٤٦ م دخل عبد المؤمن مراكش وقتل اسحاق بن على بن يوسف وجماعة كبيرة من زعماء المرابطين وقتل من أهلها أعداداً كبيرة وبانتهاء دولة المرابطين بعد دخولهم مراكش أصبح الموحدون سادة المغرب الأقصى وجزء كبير من المغرب الأوسط .

وبذلك تنتهى هذه الدولة المجاهدة حيث كان المرابطون قوما مجاهدين عرفوا جيدا المعانى النبيلة لمعنى الرباط والمرابطة فى سبيل الجهاد لله . وكان التفافها حول ذلك مما جعل لها اسما علما لهم ، كما صارت كلمة مرابط وسام شرف عسكرياً يمنحه كل سلطان مرابطى لأتباعه المجاهدين الذين جاهوا فى سبيل الله حق الجهاد لكن جاءت العصبية المصمودية بقيادة محمد بن تومرت لتقضى على دولة فتية لم يمهل لها الزمن لكى يحصد العالم الإسلامى ثمار جهدها الحربى فى المغرب والأندلس .

وبعد أن سقطت مراكش فى أيدى الموحدين وجعل سلطانهم إلى ساحل البحر المتوسط وشمل المغرب الأقصى كله من البحر المتوسط إلى وادى درعة إذ إن المدن والقبائل فى المغرب كله حتى طنجة وسبتة فى الشمال سارعت إلى الدخول فى طاعة الدولة الجديدة وكان لما قامت الدولة الموحدية أن سيطرت قبائلهم على ما فى قبضة المرابطين من سهول ، بيد أن نزعة المصامدة إلى الاستقرار دفعت جموعهم إلى استيطان المدن وكانوا عندما يفتحون بلدا يأمرون بعض الموحدين بعمارته والاستقرار فى قراه ويبدو أن سياسة عبد المؤمن ومن خلفه من الموحدين اتجهت إلى توطين قبائل



الموحدين البادية فقد تم استدعاء بعض القبائل للسكنى فى مراكش ووسع المدينة لاستيعابهم كما أن بعضا منهم سكن فاس .

وكان لهذه السياسة الموحدية وتلك النزعة الاستقرارية أثر كبير فى غلبة العناصر البربرية فى مدن البلاد الغربية وبعض البلاد الشرقية وتوضح هذه الهجرة المصمودية من الريف إلى المدن النهج الذى سلكه الموحدون فى تعيين أئمة الحواضر الكبرى كفاس وخطبائها . وبفضل العدد الكبير الذى نقل إلى تونس استطاع حفصيو تونس تأسيس دولتهم التى تعتبر امتدادا للدولة الموحدية .

وقد سار الموحدين فى سياسة التوطن هذه التى ظهرت بدايتها مع المرابطين خطوات واسعة فلا عجب أن زادت نسبة البربر فى مدن البلاد الغربية وخبر مثل على ذلك مدينة فاس ولكن ليس معنى هذا خلو أرياف البلاد العربية من المصامدة .

## عبد المؤمن بن على بين أعوام
## ٥٤١ – ٥٥٨ هـ – ١١٤٦ – ١١٦٣ م

فى عام ٥٤١ هـ صار عبد المؤمن خليفة مراكش والمغرب وبعد بضعة شهور صار مسيطرا على الأندلس أيضا لانه حل محل المرابطين فى هذه الأقطار بصورة سريعة . وكان نفرا من رؤساء الأندلس الإسلامى قد انتهزوا فرصة انشغال المرابطين بحرب الموحدين فى المغرب وسحبهم لمعظم قواتهم الحربية فثاروا عليهم وطرد الولاه الذين يحكمون من قبلهم وأعلنوا أنفسهم حكاما مستقلين فى بلادهم . وعاد الاندلس مرة أخرى موزعا بين أمراء محليين ولذا يطلق على الفترة من عام ٥٣٩ – ٥٥٢ هـ وهى فترة الصراع بين المرابطين بالموحدين بفترة ملوك الطوائف الثانية فى الأندلس .

وكان عام ٥٢٢ هـ هو بداية توحيد الاندلس مرة أخرى تحت قيادة موحدية

واحدة إذ استطاع الموحدون استعادة المرية من أيدى النصارى بعد سقوطها أثناء الصراع بينهم وبين المرابطين وبعودة المرية إلى السيادة الإسلامية توحد الأندلس تحت قيادة الموحدين وكان ملوك الطوائف قد بدأوا يتطلعون إلى الموحدين بعد سقوط المرية فانضم إليهم على بن عيسى بن ميمون قائد أسطول المرابطين فمكن ذلك الموحدين من أن يصبحوا أصحاب قوة بحرية وبرية عظيمة وقد قام عبد المؤمن بمحاصرة أشبيلية برا وبحرا حتى فتحها عام ٥٤٧ هـ ثم سار إلى المرية وقرطبة فكان ان استسلم أغلب ملوك الطوائف بعد أن دخل بعض منهم فى طاعة الموحدين دون حرب ولكن بعضا منهم دخل فى حرب معهم من أجل التسليم ولقد وجه الموحدون اهتمامهم بغرب الأندلس منذ عام ٥٤١هـ/١١٤٦م وكان غرب الأندلس محط اهتمامهم طوال الحكم الموحدى للبلاد فقد كانت أشبيلية هى عاصمتهم فى الأندلس وفى تلك المناطق خاضوا معاركهم الكبرى ولقد كان عليهم الاهتمام بشرق ووسط الأندلس لكن لم تكن الأوضاع السياسية تساعدهم على ذلك ، لكن غرب الأندلس شهد معاركهم الباهرة وثبت جبهة الإسلام قوية فى تلك الأماكن . وتذكر بعض المصادر أن عبد المؤمن لم يلق صعوبة فى ضم الأجزاء الغربية والوسطى من الأندلس إذ كان من الطبيعى لهذه القوة الموحدية الفتية أن ترنو بأبصارها شمالا عبر المضيق نحو الأندلس وشرقا عبر المغرب العربى الكبير كى يتم لها توحيد المغرب الإسلامى وتكتيله ضد القوى الصليبية فى البر والبحر . وقد سارع امراء مناطق غرب ووسط البلاد بإعلان ولائهم وانضمامهم إلى الموحدين .

وكانت ولاية (جريز أو شريش ) فى طليعة هذه الولايات (٥٣٩ هـ/ ١١٤٤م ) ولذا سمى أهلها بالسابقين الأولين ، كذلك انضم عام ٥٤٠ هـ/ ١١٤٥م أمير البحر على بن عيسى بن ميمون قائد أسطول المرابطين الذى كان قد استقل بمدينة قادس عقب سقوط دولتهم كذلك انضمت أشبيلية إلى الموحدين وسافر وفد من أعيانها



برئاسة القاضى أبى بكر بن العربى المعافرى إلى العاصمة مراكش لمبايعة الخليفة عبد المؤمن بن على .

أما الأقليم الشرقى للأندلس فقد عارض أمراؤه فكرة الوحدة مع المغرب وأعلنوا استقلالهم بإماراتهم ومثال ذلك مدينة المرية التى استقل بها أهلها من رجال الأسطول وغزاة البحر وكونوا فيها إمارة بحرية مستقلة وصاروا يغيرون منها بأساطيلهم على شواطئ إسبانيا المسيحية وفرنسا وإيطاليا . ولقد تكالبت على هذه الإمارة البحرية أساطيل برشلونة ومونبليه وجنوا وبيزا بالإضافة إلى جيوش قشتالة وقطلونيا ونفارا وجليقة واشتوريش ، التى حاصرت المرية من البر والبحر مدة ثلاثة أشهر ثم احتلها عنوة عام ٥٤٢ هـ / ١١٤٧ م وسلمتها لملك قشتالة وليون ألفونسو السابع الملقب بالسليطن وكان ذلك أسوأ ما نجم من أعمال امراء الطوائف فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين هو سقوط المرية فى يد ألفونسو السابع ابن ريمودنا الملقب بالسليطن . غير أن هذا الاحتلال الصليبى لم يدم أكثر من عشر سنوات إذ تمكنت جيوش الموحدين من استعادة المرية عام ٥٥٢ هـ بعد أن صمد الموحدون لاسترجاعها .

وقد حاول ألفونسو السابع الدفاع عنها قدر ما استطاع وكان يعاونه فى حرب الموحدين زعيم الأندلس وهو « محمد بن سعد مرادينش » وكانت قوات الموحدين بقيادة ابن الخليفة عبد المؤمن وهو « أبو سعيد عثمان بن عبد المؤمن » الذى كان حاكم أشبيلية مما جعل ابن مرادينش يساعد قوات الموحدين عندما شاهد بسالتهم فى الدفاع عن المرية وعندما تحقق النصر وكانت استعادة المرية بداية توحيد بقية الأندلس الإسلامى تحت سلطانهم فجعل عبد المؤمن ابنه أبا سعيد بن عثمان واليا على الأندلس جميعه وفى عام ٥٥٥هـ/١١٦٠م أمر عبد المؤمن ببناء حصن ومدينة على سفح جبل طارق سمى حصن الفتح . وقد عبر عبد المؤمن بن على إلى الأندلس وكان له فى جبل الفتح استقبال مشهور وتمت له السيطرة على الاندلس عام ٥٥٦هـ/ ١١٦١م.

وعاد عبد المؤمن إلى افريقيا ( المغرب ) ليقضى على الشبح الأخير لدولة المرابطين فاتجه إلى تلمسان ووهران واستولى عليها ، ثم استدار ليحطم الحماديين ولكنه لم ينجح فى ذلك إلا بعد استعداد دام سبع سنوات وكان الحماديون قد أصبحوا على درجة من الضعف بعد أن كان عبد المؤمن يشعر أن الخطر يأتى من الشرق فقد كانت هناك ممالك صنهاجة التى تعادى ذلك التحالف بين زناتة ومصمودة بالإضافة إلى عمليات التخريب التى يقوم بها البدو وفى عام ١١٥٩ م دخل عبد المؤمن تونس لينضم بذلك المغرب كله تحت لواء حكومة بربرية واحدة وأصبح الآن المغرب قوة عظيمة للعالم الإسلامى وعالم البحر المتوسط بعد أن احتل الموانئ الواقعة فيما بين طرابلس وتونس حتى يطمئن السيطرة على تجارة البحر المتوسط وكان الموقف مهيئاً للتدخل من قبل الموحدين فلم يتوان عبد المؤمن على أن يقضى أولا على المملكة الحمادية . وكان الدافع إلى التحرك للاستيلاء على هذه المناطق من المغرب وقد شغلته عقب دخول مراكش فقد ترامى إلى سمعه أن النورمان قد استولوا على المهدية من أيدى امراء بنى زيرى . فسار عبد المؤمن بن على بجيش موحدى ضخم استولى على تلمسان وبقية المغرب والأوسط ثم دخل افريقية والقيروان ثم قصد إلى المهدية واسترجعها من أيديهم عام ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م . وهى سنة توحيد المغرب كله من المحيط الأطلسى إلى فقصة تحت لواء واحد ولم تلبث طرابلس أن دخلت فى طاعتهم ومعنى ذلك أن الخلافة الموحدية شملت المغرب العربى كله فجمع بذلك المغرب والأندلس تحت لواء الموحدين .

وقد ساعدته الظروف السياسية السائدة فى تلك البلاد على أن يتشجع إلى ضمها ذلك لان الصراع الناشئ بين القبائل العربية التى هاجرت إلى افريقية والدولة الزيرية بشعبيتها فى القيروان والقلعة إلى انحلال الدولة حتى غدت السلطة الزيرية اسمية فتمكن النورمانديون من الاستيلاء على بعض ثغور افريقية مثل صفاقس وسوسة والمهدية واستقل شيوخ العرب كل بناحيتهم . وكان أن شهد عام ٥٤١ هـ / ١١٤٦



م تحرك الجيوش الموحدية إلى المغرب الأوسط بقيادة عبد المؤمن بن على واستولت قواته على بجاية ثم تقدمت قوات الموحدين بقيادة عبد الله بن عبد المؤمن والتى كانت أعدادها تزيد عن ثلاثين ألف فارس واستطاع الاستيلاء على تلك المناطق . لكن الهلاليين أنصار المرابطين قاوموا قواته وعند نهر ستيف دارت الموقعة وانتصر الموحدون على الهلاليين . أما فى الشرق فلم تكن هزيمة نهر ستيف لتضع حد الغارات الهلالية وإن كان الخليفة قد قنع بتنصيب وال على باجية ، فإن زناتة التى كانت تقطن المغرب الأوسط ظلت تحاول أن تقتطع طرابلس وتونس ، أما طرابلس فقد سكنها الهلاليون واختلطوا بالأهالى وأصبح أثرهم ظاهرا فى هذا الجزء من العالم الإسلامى .

ولما عاد عبد المؤمن بن على إلى افريقية فى عام ٥٥٣ هـ / ١١٥٨ م بجيوش من الموحدين وقبائل العرب لمحاربة بطون رباح والذين سبق لهم ايقاع الهزيمة بجيوش الموحدين بقيادة عبد الله بن عبد المؤمن حول تونس وتمكن عبد المؤمن بسهولة من دخول المدينة ثم حاصر المهدية واستولى عليها وافتتح جميع بلاد افريقية وأدخل فى طاعته أهالى المنطقة الممتدة من برقة شرقا إلى بلاد نول من السوس الأقصى غربا وأحضر أمراء العرب وأحلفهم على مصحف عثمان بن عفان على السمع والطاعة والاشتراك فى الجيوش الموحدية للجهاد فى الاندلس ومما يذكر للقبائل العربية بالفخر انهم لم يقاوموا جيوش عبد المؤمن المتقدمة شرقا بل ساعدتهم وكان وصوله إلى تونس معلنا نهاية الفوضى إذ أعطى الحماية لجميع السكان ولم تحل عام ٥٥٥ هـ/ ١١٦٠ م حتى كان عبد المؤمن قد مد رواق الدولة الموحدية إلى حدود طرابلس ومكن لسلطان الموحدين بها وقد تم له ذلك فى نفس السنة وبذلك تكون هذه السنة تاريخا فاصلا فى تاريخ المغرب كله فهى السنة التى تحققت فيها وحدة المغرب السياسية ودخل كله من حدود طرابلس إلى المحيط فى دولة واحدة يحكمها خليفة واحد فى مراكش . وفى ذلك الحين كانت تلك الخلافة الموحدية المغربية أقوى الدول الإسلامية وأوسعها سلطانا ، فان الدولة العباسية كانت قد هبطت إلى درك سحيق من الضعف .

وبعد أن توطدت دولة الموحدين فى المغرب فان امراء الاندلس استنجدوا به مرة ثانية بعد أن هاجم ابن مردانش وهو أسبانى من أصل مسيحى فصمم على الذهاب إلى هناك ولكن قبل أن يرحل استوثق من الهلاليين بأن يبذل لهم الوعود والهدايا وكانت أواخر أيام عبد المؤمن قد شهدت أمر ثائر يسمى ابراهيم بن همشك وعاونه فى ذلك جده محمد بن سعد بن مرادنيش ونفر من رؤساء الجند فى الأندلس واستطاع عبد المؤمن أن يقضى على حركات التمرد ويثبت أقدام دولته هناك وانتصر على الثورة ودفع ابن مردانش إلى الشرق وأخذ منه غرناطة واسترد حصن رياح القدح الذى كان قد أقامه عام ١١٥٠ وأسكن فيه بعض فرقه المحاربة بعد أن أوصى ابنه بنقل عرب تونس إلى المغرب كى يخلق قوة احتياطية تستطيع أن تنتقل بسرعة إلى الاندلس ليعملوا ضد ابن مردانش حيث كان عبد المؤمن قد قرر ترحيل ألف من كل قبيلة من قبائل العرب بعيالهم إلى المغرب من عرب رياح وبنى عدى وبنى جشم وكانوا من الكثرة هادفا أبعادهم عن تونس واستقرارهم بغرب عاصمته مستقلا شجاعتهم وحبهم للجهاد فى الاندلس ويبدو أن عبد المؤمن تمكن من كسر شوكة القبائل العربية فى تونس وأن نصره عليهم كان ساحقا .

وكان عبد المؤمن قد عاد إلى المغرب وعندما وصل إلى سلا نزل به المرض ولم تزل العلة تثقل به حتى قضى نحبه فى ٢٧ حمادى الآخرة عام ٥٥٨ هـ / يونيو ١١٦٣ م وبينما كان عبد المؤمن مقيما فى مدينة سلا والجيوش تحتشد والأساطيل تستعد لنقلها إلى الاندلس فاجأه الموت بعد فترة مرض قصيرة فلم يمهله حتى يحقق عزمه ونقل جثمانه إلى مدينة تيتملل بجبال أطلس حيث دفن بجوار أستاذه ابن تومرت عام ٥٥٨ هـ / ١١٦٣ م .

حكم عبد المؤمن بن على أربع وثلاثين عاما تعتبر فاتحة عصر الازدهار فى التاريخ المغربى ، لقد ورث عبد المؤمن عن محمد بن تومرت قوة عسكرية وسياسية



ضخمة فعرف كيف يستخدمها فى انشاء أكبر دولة عرفها تاريخ المغرب فى العصور الوسطى فقد امتدت من خط الواديانة فى الأندلس إلى وادى درعة فى جنوب المغرب وترامت من المحيط إلى أحواز طرابلس وقد أبدى الرجل نشاطا واسعا وذكاءٍ كبيراً فى نشأة هذه الدولة حقا أن الرجال الذين تولوا قيادتهم كانوا من خيرة شعوب العالم الإسلامى وأقواها وأشدها إصلاحا للدين فى ذلك الوقت وقد تيسر ذلك لعبد المؤمن بمواهبه التى عرف بها أن يستفيد من مواهب زملائه من كبار أصحاب محمد بن تومرت وكانوا جميعا رجالا ذوى ملكات وإخلاص وقد اعتمد عليهم وعلى أبنائهم والذين يرجع إليهم الفضل فيما وصلت إليه دولة الموحدين من قوة واتساع .

وهكذا كانت السنوات هذه التى قضاها عبد المؤمن فى توحيد دعائم الدولة الموحدية التى امتدت هذا الامتداد الواسع العريض السابق الإشارة إليه والتى ضمت إليها مساحة واسعة من الأراضى والأقاليم لم يقدر لدولة مغربية سبقتها أن بلغت مثل هذا الاتساع والمساحة والقوة ومن هنا وضع عبد المؤمن قواعد وأركان دولة قوية بعد أن كان محمد بن تومرت قد مهد الطريق لقيام هذه الدولة وبذلك يكون عبد المؤمن بن على الذى حكم أربعة وثلاثين عاما العمود الفقرى الذى قامت عليه الدولة ولولا الجهود الجبارة التى قام بها ما كانت قد ظهرت على سطح الأحداث السياسية فى المغرب دولة الموحدين ولما قدر لها أن تقضى على دولة المرابطين .

## الموحدون بعد عبد المؤمن بن على

## أبناء وأحفاد عبد المؤمن

## أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن

## ( ٥٥٨ – ٥٨٠ هـ / ١١٦٣ – ١١٨٤ م )

قبل أن يموت عبد المؤمن كان قد جمع مشيخة الموحدين وهى التى تمثل هيئة قيادتهم وقد تألفت هذه المشيخة من أهل عشرة أدايت عشرة وهيئة الخمسين (ايت خمسين) وكانت مشيخة الموحدين عصب قوة الدولة والذين كانوا يسيطرون على قبائلهم ومعهم طائفة العلماء والذين كان منهم أبو حفص وأبو يحيى أبى بكر ، وأبو ابراهيم اسماعيل الهزرجى ، وعمر ابن عبد الله المعروف بعجراز تاج وغيرهم وأخذ منهم البيعة لابنه أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن . ولم يكن يوسف هذا بأكبر أبناء عبد المؤمن ولكنه كان أصلحهم وذلك بإجماع رجال مشيخة الموحدين ولذا اعتلى أبو يعقوب عرش الموحدين دون صعوبة وكان ذلك فى عام ٥٥٨ هـ / ١١٦٣ م وبذلك كان رئيسا لدولة تمتد من حدود مصر الغربية حتى المحيط الأطلسى بل تمتد أيضا إلى الاندلس فتضم كل الأراضى التى لم تستطع أيدى الإسبانيين السيطرة عليها .

وكان أبو يعقوب يوسف عندما تم اختياره من قبل مشيخة الموحدين لم يصل إلى ثلاثين عاما من العمر لكنه خلال هذه السنوات كان قد تمرس على العديد من الأعمال والمهام التى تؤهله لقيادة دولة بهذا الاتساع حيث كان قد قضى سنوات طويلة فى الاندلس حاكما لأشبيلية من قبل والده فتدرب على قيادة الأمور بالإضافة إلى علمه الغزير وثقافته الإسلامية الواسعة وعمق فى الإيمان وقدرات عسكرية لكنه لم يكن يملك من المؤهلات السياسية ما تمكنه من قيادة دولة واسعة كدولة الموحدين وكان قد تأثر برقة الحياة فى الاندلس وحضارتها ومعيشتها بعد أن درس على كثير من



علماء الأندلس فى اللغة والنحو والقرآن الكريم والأحاديث النبوية والفلسفة فزالت عنه جفوة البربر وكان أعرف الناس بكلام العرب وأحفظهم لأيامها فى الجاهلية والإسلام وعدد من أبطال الفرسان مما ساعد على مبايعة أهل المشيخة وأخوته له وكذلك رؤساء القبائل العربية .

ولقد حرص الخليفة الجديد على الاستمرار فى سياسة والده التى ترمى إلى اصطناع العرب والاستعانة بهم فى حروبه بالاندلس . كما أنه بذل أقصى جهده فى القيام بأمرها وسايس الأمور فى حزم واجتهاد وقوة فوفق فى المحافظة على الميراث الضخم الذى آل إليه فى دولة واسعة كدولة الموحدين تتكون من أقاليم واسعة لم يسبق دخولها تحت لواء دولة من قبل مثل الاندلس أو المغرب الأقصى أو المغرب الأوسط أو افريقية (تونس) .

ولقد واجه أبى يعقوب يوسف العديد من الثورات والمشاكل حيث لم تخلو سنة من سنوات حكمه من قيام ثائر فى ناحية من نواحى الدولة وكان عليه ألا يتأخر فى الإسراع للقضاء على الفتنة أو الثورة والمحافظة على النظام والعدل والأمان فى ربوع الدولة الواسعة .

وكانت أول القلاقل والثورات التى واجهته هو تعرض دولته لخطر خارجى قادم من الشرق من قبل مصر حيث وفد جماعة من الأيوبيين مع جندهم بقصد ضم تونس وبرقة وطرابلس للحكم الأيوبى بزعامة صلاح الدين الأيوبى ولقد كان دافع الأيوبيين إلى الاتجاه غربا نحو تونس وبرقة وطرابلس هو نجاح الغزو الأيوبى الذى قام به توران شاه بن أيوب شقيق صلاح الدين فى فتح اليمن ومحاولة تقى الدين بن شاهنشاه تقليده فى فتح المغرب ولكنه تراجع حينما أدرك أن الذى يحول بينه وبين تحقيق أمله المنشود عاملان الأول الموحدون الذين بسطوا سلطانهم على المغرب والأندلس والثانى القبائل العربية التى تبسط سيطرتها على هذه المناطق ولكن ثورة العرب الهلاليين

جعلت هذا الطرف الشرقى من الدولة مصدراً للقلاقل والاضطرابات وقد بذل يوسف جهدا كبيرا فى القضاء على الفتن التى قامت هناك لكن الحملة الأيوبية قد تركت صداها بين قوات الايوبيين والذين عرفوا خبر تقى الدين الأيوبى من الغاء هذه الحملة فقد تحرك نحو جبال نفوسة أبو عربى وهو من أصل أرمنى ويكنى قراقوش يريد السيطرة على تونس وضمها للديار المصرية ونزعها من أيدى الموحدين . وكان قراقوش الأرمنى قد تحرك معه ( ابراهيم بن قرايكن ) ومعهما جمع من الجنود إلى المغرب وانقسما إلى مجموعتين كل مجموعة مستقلة عن الأخرى بما تغزوه وتملكه . وتمكنت المجموعة الأولى بقيادة قراقوش الأرمنى من الاستيلاء على دولة بنى خطاب الهواريين فى بلاد فزان وعاصمتها زويلة والتحالف مع عرب دياب وفتح جبل نفوسة وجعل هذه المناطق تخرج عن طاعة دولة الموحدين وتمكنوا من الاستيلاء على طرابلس وأقام دولة تخرج عن نطاق حكم الموحدين ولا تخضع للحكم المصرى الأيوبى فى القاهرة ، أما المجموعة الثانية بقيادة ابراهيم بن قرايكن فقد دخلت فى طاعة الجيش الموحدى .

وقامت كذلك فتن كثيرة فى الاندلس أثارها محمد بن سعد بن مرادنيش كبير ثوار شرق الأندلس وقد تولى قتاله أخوه أبو يعقوب أبو سعيد وأبو جعفر من أبناء عبد المؤمن وقد تمكنا من ايقاف خطر ابن مرادنيش عام ٥٦١ هـ / ١١٦٦ م أى بعد ثلاث سنوات من وفاة عبد المؤمن وولاية ابنه أبى يعقوب يوسف لكن أبى يعقوب أحس أن الخطر الحقيقى فى الاندلس لابد من القضاء عليه ووقف تقدم القوى المعادية للإسلام لاسيما إمارة ليون وقشتالة وكذلك إمارة البرتغال التى كانت تتحرك لتصبح قوة فى غرب الاندلس وكانت تخضع لحكم ( ألفونسو ايزوكى ) وتطلق عليه المصادر العربية « ابن الرنق » .

وقد سار أبو يعقوب على سياسة عدم مواجهة القوى المعادية مجتمعة لكنه عمل على سياسة فرق تسد حين كان يتحالف مع الطرف القوى للقضاء على الطرف



الضعيف ثم الانقضاض عليه ولذا نجد أنه تحالف مع « فرناند الثانى » ملك ليون وقشتالة للقضاء على ثورة ابن مرادنيش صاحب مرسية فى شرق الاندلس واستطاع القضاء عليه بعد حرب طويلة ومضنية .

لكن العلاقات الموحدية مع ليون وقشتالة بدأت تسوء بعد وفاة فرناندو الثانى وتولى ألفونسو الثامن عرش هذه البلاد وكان يخشى قوة وخطر المسلمين وكان أبو يعقوب يدرك خطر التحالف بين هذه الدولة وبين البرتغال فكان عليه أن يستعد لدرء خطر البرتغال والقيام بحملة إسلامية موحدية لضرب الاندلس لوقف الزحف الصليبى والقضاء على خطر البرتغال وكان لابد من المواجهة العسكرية الحاسمة والاشتباك معهم فتوجه نحو شنترين أكبر قواعد البرتغال فى غرب الاندلس وكان البرتغاليون قد استولوا عليها عام ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م عام سقوط دولة المرابطين وأدرك حاكم البرتغال خطر المسلمين عليه فحصنها وزودها بالرجال والعتاد لكن الموحدين على كثرة جيوشهم كانت مواهبهم محدودة فى ميدان القتال العسكرى عكس المرابطين الذين كان بينهم قواد عظماء وكان الاستيلاء على مدينة شنترين معناه السيطرة على وادى التاجور فى غرب الأندلس ولكن الخليفة الموحدى أخطأ فى تقسيم قواته إذ أرسل ابنه اسحاق لغزو مدينة اشبونة وشن الغارات على أنحائها ويتحرك إليها بقوات الاندلس فقط وأن يكون رحيله نهارا فسار إليهم ورحل ليلا ، فاتبعته القوات الموحدية ، حيث أصدر غير الخليفة أمرا برفع الحصار والانتقال إلى مدينة اشبونة وصدر هذا الأمر فجأة ودون ابلاغه إلى بقية الجنود بالطرق التى تقتضيها النظم العسكرية . وجاء صباح اليوم التالى وفوجئ الجنود برجال الخليفة يرحلون على عجل ليجد الخليفة نفسه وحيدا بدون جنده بعد أن فروا من حوله وظنوا أنها الهزيمة وتبادروا إلى الفرار وانتهز العدو الفرصة واستغل المسيحيون الفرصة وهاجموا بقية معسكر الخليفة الضخم ونزلت به خسائر فادحة وحمل الخليفة الجريح فى محفة وعاد الجيش أدراجه وبعد ليلتين من السير مات الخليفة أبو يعقوب يوسف فى ٧ رجب ٥٨٠ هـ / ١١٨٤ م وهكذا وافته منيته نتيجة

لهذه الاصابة القاتلة أثناء حروبه مع البرتغاليين فى غرب الاندلس .

وهكذا نرى أن الموحدين اعتمدوا على العرب اعتمادا كبيرا فى الجيوش المحررة للاندلس وأسندوا إليها حماية المدن الاندلسية من أعدائها حتى أن الدولة الموحدية نوهت بدورهم فى الجهاد فى الاندلس وحمايته بل أكثر من ذلك فانه فى عام ٥٦١هـ / ١١٧٧ م اختار الموحدون شيخا من شيوخ الموحدين ليكون واليا على أشبيلية فاصطحب هذا معه أعداداً كبيرة من العرب والموحدين لحمايتها وتمكن بمساعدتهم من هزيمة حكام شنترين وإجبارهم على رد ما سبق أن سلبوه من مدينة طليطلة وكذلك أسر بعض جنودهم .

كذلك فان الخليفة الموحدى الذى قتل فى غرب الاندلس ( أبى يوسف ابن عبد المؤمن ) تمكن من الاستفادة بالقبائل العربية الموجودة فى المغرب ضمن الجيش الموحدى فى الجهاد فى الاندلس والاستقرار فى أراضيها .

ولقد كانت وفاة أبى يعقوب يوسف من أثر اصابته فى حصار مدينة شنترين أنه كان غيورا على ديار الإسلام مجاهدا فى الاندلس وكانت الأنباء التى تواترت إليه أن الأحوال قد ساءت من جديد فى الاندلس إذ تمكن القشتاليون بمساعدة ألفونسو الثامن ملك أرغون الاستيلاء على « تونكة » ثم أخذت ضربات مسيحى الأندلس تتوالى على إمارات المسلمين فعزم أبو يعقوب على الجوار إلى الاندلس فأخذ فى استدعاء العرب من ( تونس ) افريقية فوفدت عليه القبائل فى جيش عظيم وبعد أن جهز الجيش بالمجانيق والسلاح والخيول والأموال اللازمة ميز أبو يعقوب الموحدين والعرب فى جمادى الآخرة عام ٥٧٩ هـ / ١١٨٤ م تمهيدا للغزو ومن ثم تتابعت الوفود العربية والذين أيدوا حملته هذه بثلاثين ألف من الفرسان والمشاه .

توفى أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن وهو فى سن السابعة والأربعين من عمره وكان رجلا شهما نشيطا بذل قصارى جهده فى فترة حكمه التى تقدر باثنين وعشرين



عاما هجريا وإحدى وعشرين عاما ميلادياً فى القيام بالمهام الملقاة على عاتقه باعتباره خليفة دولة الموحدين ومن ثم خطا خطوات واسعة بالدولة نحو التقدم والازدهار وكان له وزنه التاريخى والسياسى فى المغرب بل هو من السلاطين والخلفاء القلائل الذين لعبوا دورا هاما على مسرح الأحداث السياسية كما أنه قام بالعديد من الأعمال التى تذكر له بالفخار والإعجاب حيث أدخل العديد من النظم الإدارية والصناعية والزراعية والحربية والعسكرية .

بالإضافة إلى أنه كان رجلا بعيد النظر لانه رأى أن يركز حملاته على الجبهة الغربية البرتغالية لانها كانت أقرب وأشد الممالك الأوربية وطأة على المسلمين ثم لانها كانت معبرا إلى قلب مملكة قشتالة التى كان ملكها ألفونسو الثالث قد أخذ هو الآخر يغير على الأراضى الإسلامية المتأخمة له .

# الباب الثالث عشر

## الدولة الموحدية فى عصر ازدهارها

## أبو يعقوب يوسف المنصور

## ( ٥٨٠ – ٥٩٥ هـ / ١١٨٤ – ١١٩٩ م )

بعد وفاة أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن تم أخذ البيعة لابنه أبى يوسف يعقوب المنصور من شيوخ الموحدين ووفود كل بلد بحضور شيوخ العرب وموافقتهم وبعد أن تولى أبو يعقوب الحكم (٥٨٠ – ٥٩٥ هـ/ ١١٨٤– ١١٩٩م ) كان أول من بايعه أعيان تلمسان ومن معهم من العرب بقصر مصمودة . ولقد سار على سياسة أبيه وجده فى ضرورة توحيد المغرب الكبير وتدعيم أركان الدولة وقضى على ثورات افريقية ونظم أمورها وتعتبر سنوات حكمه البالغة خمس عشر عاما العصر الذهبى للدولة الموحدية لانها وصلت إلى قمة تطورها السياسى لأنها تعتبر الدولة الكبرى فى العصور الوسطى .

ولقد أولى المشكلات التى واجهته مثل ثورة افريقية والقبائل العربية كل الاهتمام حيث استطاعت هذه القبائل بمساعدة بنى غانية والممالك هزيمة قوات الموحدين هزيمة قاسية كان لها صدى بعيد فى بلاد المغرب والاندلس لدرجة أن عم الخليفة والى تادلا وأخاه أبا حفص والى مرسية قاما بإسقاط دعوته ومناداة كل منهما بنفسه خليفة للموحدين فأمر الخليفة باعتقالهما وقتلهما ولم تمض ثلاث سنوات على توليه شئون الخلافة الموحدية إلا والخليفة المنصور أبى يعقوب يقوم بجمع قواته ويخرج بنفسه لملاقاة الخارجين على الدولة فتوجه من تونس إلى القيروان حيث التقى بالأعداء وأوقع بهم فى ٩ شعبان ٥٨٣ هـ / ١٨١٧ م هزيمة قاسية وهرب ابن غانية جريحا حتى مات . ثم استولى المنصور على قفصة وقابس ثم اتجه إلى بلاد الجريد متتبعا العرب وبنى غانى بلدا بعد بلد حتى ألجأهم إلى الصحراء .



ولقد كانت تحت أمرة الخليفة حشود من الجند القوى القادر على كسب المعارك فقد كانت جيوش الموحدين تعج بحشود من أبناء خيرة القبائل المغربية من المصامدة والصنهاجيين بل الزناتيين أيضا ثم أضيفت إلى هؤلاء حشود من العرب الهلاليين الذين انضموا تحت لواء الدولة الكبيرة وكذلك قوات أندلسية ذات قدرة ومهارة قتالية فائقة لان شعب الاندلس ظل قويا مؤمنا بحقه فى بلاده بالإضافة إلى أن الموحدين انشئوا قوة من الحرس للخليفة من السودان وكان هؤلاء السودان قوة عسكرية لها خطرها أثناء الحرب .

وقد حاربت دائما فى قوة وحماس وإخلاص ودافعت عن الخلفاء حتى الموت . ويذكر أن الخليفة أبا يعقوب يوسف المنصور من القواد العسكريين الموحدين القلائل الذين استطاعوا أن يقودوا هذه الجيوش قيادة سليمة حكيمة وكان الرجل رجلا حازما موهوبا فى شئون الإدارة والقيادة العسكرية وكان شديد الإيمان بغية الدفاع عن القضايا الإسلامية فى الاندلس والجهاد فى سبيل الله فانتقل هذا الإيمان إلى رجاله وقواده من الموحدين .

كما أن الخليفة المنصور قد قام بنقل العرب إلى المغرب الأقصى وهو يعرف أنهم أهل إفساد لكن صنيعه هذا قد أدى إلى استكمال عروبته وصبغه بالدماء العربية حيث سبق أن قامت الدولة الادريسية بإدخال الحضارة الإسلامية والدماء العربية إليه .

وقد استغرقت الحرب مع البرتغال فترة طويلة اضطرت الخليفة إلى أن يعمل على تحصين البلدان الغربية الاندلسية التى كانت عرضة لغارات هذا العدو برا وبحرا عن طريق الوادى الكبير واهتم الخليفة بصفة خاصة بمدينة أشبيلية حاضرة الموحدين المفضلة بالأندلس .

### الصراع مع بنى غانية المرابطين :

لم تلبث أن قامت ثورة فى المغرب الأوسط ضد الخليفة أبى يعقوب يوسف المنصور قادما بعض أنصار المرابطين من بنى غانية وعلى رأسهم ابن غانية إذ أغراه ضعف حامية الموحدين هناك فقاد أربعة آلاف من الطوارق الملثمين واحتل مدينة باجية وكان من سوء حظ دولة الموحدين أن ابتليت بمشكلة بنى غانية التى لم تقدرها الدولة حق تقديرها وأصبحت فى النهاية من أسباب سقوط الدولة .

وكان زكريا بن يحيى بن غانية قد تولى بعض الأعمال فى قرطبة فى عهد الخليفة المرابطى على بن يوسف بن تاشفين ثم تولى أخاه محمد ابن غانية حكم جزر البليار وهى الجزر الشرقية منذ عام ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م وظل يحكمها حتى سقطت دولة المرابطين وعندما بسط الموحدون سلطانهم على الاندلس ظل بنى غانية لايخضعون لسيطرتهم وظل عدم خضوعهم حتى موت محمد بن مرادنش عام ٥٦٧ هـ / ١١٧١م وبسط الموحدون سيطرتهم على بلنسية ومرسية وشاطبة وبلاد الساحل الشرقى وكان على حكم جزر البليار فى ذلك الوقت محمد بن اسحق بن محمد بن غانية وقد كان يريد الدخول فى طاعة الموحدين لكن اخوته عزلوه ورفضوا ذلك وولوا بدلا منه أخاه على بن اسحق فأسرع هذا بإعلان الثورة على الموحدين وقرر أن يخوض معهم معركة طويلة .

وبنو غانية كانوا فى الأصل من قبيلة مسوفة الصنهاجية ومن كبار قواد المرابطين فى الاندلس ويقال إنهم عرفوا بنى غانية على اسم أمهم الغانية وأمثال هذه التسميات كانت معروفة عند المرابطين . ولقد ظل بنو غانية شوكة فى جنب الدولة الموحدية مدة طويلة إلا أنهم كانوا فى نفس الوقت غزاة بحريين ضد القوى الصليبية فى حوض البحر المتوسط فكثيرا ما أغاروا بأساطيلهم على سواحل قطلونيا وجنوب فرنسا وهاجموا سفنهم فى البحر . وعلى الرغم من أنهم ساروا على سنة أسلافهم المرابطين فى الدعاء للخلفاء العباسيين فى بغداد واتخاذ ألويتهم السوداء شعارا لهم إلا أنهم هادنوا الموحدين



بعض الوقت حتى كانت ولاية على بن اسحق بن محمد بن غانية .

ولقد كانت وفاة الخليفة الموحدى أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بهذه الصورة المفاجئة ضربة قاسية أصابت حركة الموحدين بنكسة قوية فى المغرب والأندلس إذ استغل أعداؤهم هذه الفرصة لتحقيق أطماعهم ومن ذلك بنو غانية هؤلاء حكام الجزر الشرقية ( البليار ) الذين خرجوا عن سياسة مهادنة الموحدين وأظهروا الغدر والعصيان وذلك باستيلائهم على أسطول موحدى كان فى زيارة الجزر الشرقية ثم خرجوا بأساطيلهم ورجالهم إلى الساحل الافريقى حيث استولوا على مدينة بجاية بالمغرب الأوسط عام ٥٨١ هـ / ١١٨٥ م ومن هناك أخذوا فى اثارة الفتن والاضطرابات ضد نفوذ الموحدين وتحالفوا مع قبائل العرب من بنى هلال وبنى سليم فى شرق المغرب وكذلك مع جنود الغزو المملوكى الأيوبى الذين قدموا من مصر واستقروا فى قابس بقيادة الأمير المملوكى قراقوش الأرمنى واستطاعت هذه القوى المتحالفة بزعامة بنى غانية أن تسيطر على بلدان المغرب الأدنى والأوسط وأن تدعو على منابرها لبنى العباس أعداء الموحدين . والذى ساعد بنى غانية على الخروج على الموحدين انهم أسسوا لهم حكما قويا فى تلك الجزر إذ إنهم يحكمونها منذ عام ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م حيث تولى القائد المرابطى محمد بن على بن غانية المسوفى مؤسس أسرة غانية التى ظل فيها حكم هذه الجزر بعده حتى عام ٥٨١ هـ تاريخ قيامهم بالثورة ضد الموحدين .

وهكذا نجد أن سلطان الموحدين فى المغرب والأندلس قد أصيب بنكسة شديدة استمرت عدة سنوات بعد استشهاد عائلهم أبى يعقوب يوسف وفى خلال هذه الفترة كان الموحدون قد بايعوا بالخلافة لولده المجاهد الكبير أبى يوسف يعقوب المنصور وكان أول عمل اهتم به المنصور منذ توليه الحكم هو إعادة الوحدة المغربية والضرب على أيدى المعتدين فيها أمثال بنى غانية وحلفائهم العز ( الاعزاز ) والاعراب فى المغرب

لم تلبث أن قامت ثورة فى المغرب الأوسط ضد الخليفة أبى يعقوب يوسف المنصور قادما بعض أنصار المرابطين من بنى غانية وعلى رأسهم ابن غانية إذ أغراه ضعف حامية الموحدين هناك فقاد أربعة آلاف من الطوارق الملثمين واحتل مدينة باجية وكان من سوء حظ دولة الموحدين أن ابتليت بمشكلة بنى غانية التى لم تقدرها الدولة حق تقديرها وأصبحت فى النهاية من أسباب سقوط الدولة .

وكان زكريا بن يحيى بن غانية قد تولى بعض الأعمال فى قرطبة فى عهد الخليفة المرابطى على بن يوسف بن تاشفين ثم تولى أخاه محمد ابن غانية حكم جزر البليار وهى الجزر الشرقية منذ عام ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م وظل يحكمها حتى سقطت دولة المرابطين وعندما بسط الموحدون سلطانهم على الاندلس ظل بنى غانية لايخضعون لسيطرتهم وظل عدم خضوعهم حتى موت محمد بن مرادنش عام ٥٦٧ هـ / ١١٧١م وبسط الموحدون سيطرتهم على بلنسية ومرسية وشاطبة وبلاد الساحل الشرقى وكان على حكم جزر البليار فى ذلك الوقت محمد بن اسحق بن محمد بن غانية وقد كان يريد الدخول فى طاعة الموحدين لكن اخوته عزلوه ورفضوا ذلك وولوا بدلا منه أخاه على بن اسحق فأسرع هذا بإعلان الثورة على الموحدين وقرر أن يخوض معهم معركة طويلة .

وبنو غانية كانوا فى الأصل من قبيلة مسوفة الصنهاجية ومن كبار قواد المرابطين فى الاندلس ويقال إنهم عرفوا بنى غانية على اسم أمهم الغانية وأمثال هذه التسميات كانت معروفة عند المرابطين . ولقد ظل بنو غانية شوكة فى جنب الدولة الموحدية مدة طويلة إلا أنهم كانوا فى نفس الوقت غزاة بحريين ضد القوى الصليبية فى حوض البحر المتوسط فكثيرا ما أغاروا بأساطيلهم على سواحل قطلونيا وجنوب فرنسا وهاجموا سفنهم فى البحر . وعلى الرغم من أنهم ساروا على سنة أسلافهم المرابطين فى الدعاء للخلفاء العباسيين فى بغداد واتخاذ ألويتهم السوداء شعارا لهم إلا أنهم هادنوا الموحدين





بعض الوقت حتى كانت ولاية على بن اسحق بن محمد بن غانية .

ولقد كانت وفاة الخليفة الموحدى أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بهذه الصورة المفاجئة ضربة قاسية أصابت حركة الموحدين بنكسة قوية فى المغرب والأندلس إذ استغل أعداؤهم هذه الفرصة لتحقيق أطماعهم ومن ذلك بنو غانية هؤلاء حكام الجزر الشرقية ( البليار ) الذين خرجوا عن سياسة مهادنة الموحدين وأظهروا الغدر والعصيان وذلك باستيلائهم على أسطول موحدى كان فى زيارة الجزر الشرقية ثم خرجوا بأساطيلهم ورجالهم إلى الساحل الافريقى حيث استولوا على مدينة بجاية بالمغرب الأوسط عام ٥٨١ هـ / ١١٨٥ م ومن هناك أخذوا فى اثارة الفتن والاضطرابات ضد نفوذ الموحدين وتحالفوا مع قبائل العرب من بنى هلال وبنى سليم فى شرق المغرب وكذلك مع جنود الغزو المملوكى الأيوبى الذين قدموا من مصر واستقروا فى قابس بقيادة الأمير المملوكى قراقوش الأرمنى واستطاعت هذه القوى المتحالفة بزعامة بنى غانية أن تسيطر على بلدان المغرب الأدنى والأوسط وأن تدعو على منابرها لبنى العباس أعداء الموحدين . والذى ساعد بنى غانية على الخروج على الموحدين انهم أسسوا لهم حكما قويا فى تلك الجزر إذ إنهم يحكمونها منذ عام ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م حيث تولى القائد المرابطى محمد بن على بن غانية المسوفى مؤسس أسرة غانية التى ظل فيها حكم هذه الجزر بعده حتى عام ٥٨١ هـ تاريخ قيامهم بالثورة ضد الموحدين .

وهكذا نجد أن سلطان الموحدين فى المغرب والأندلس قد أصيب بنكسة شديدة استمرت عدة سنوات بعد استشهاد عائلهم أبى يعقوب يوسف وفى خلال هذه الفترة كان الموحدون قد بايعوا بالخلافة لولده المجاهد الكبير أبى يوسف يعقوب المنصور وكان أول عمل اهتم به المنصور منذ توليه الحكم هو إعادة الوحدة المغربية والضرب على أيدى المعتدين فيها أمثال بنى غانية وحلفائهم العز ( الاعزاز ) والاعراب فى المغرب

الشرقى فقام فى الحال بتعبئته قواته البرية والبحرية لغزو تلك الجهات وأسند قيادة القوات البرية إلى أبى زيد بن أبى حفص .

وكان المنصور قد قرر القضاء النهائى على بنى غانية لأن علياً بن أبى ابراهيم بن اسحق بن محمد خرج بأسطوله إلى العدوة المغربية وقصد مدينة بجاية حين راسله جماعة من أعيانها يدعونه إلى أن يملكوه ولولا ذلك لم يجسر على الخروج لانه أدرك أن الخلاف حول عرش الموحدين سوف ينشأ . ويبدو أن من راسله من أعيان المدينة كان من نسل بعض العائلات العربية التى استقرت بالمغرب وتنقلت من مدينة إلى أخرى وراء العلم والرزق وتتبع بنو غانية الموحدين الفارين والتقوا بهم فى معركة حاسمة وانسحب العرب من صفوف الموحدين لينضموا إلى بنى غانية فأنزلوا هزيمة ساحقة بالموحدين الذين فروا إلى تلمسان . ومن ذلك فقد تفوق بنو غانية بما غنموه من أموال وأسلحة واستولوا على الجزء الشرقى من المغرب الأوسط ابتداء من الجزائر حتى قسطنطينة وقلعة بنو حماد وما جاورها من قلاع ثم تمكنوا بمحالفة عرب افريقية من الاستيلاء على مدنها بما فى ذلك قفصة وتوه بنو غانية بتحالفهم مع العرب حتى ادعوا أن المنطقة الممتدة من بلاد الحجاز إلى افريقية تموج بالقبائل العربية التى تؤيدهم وأن دولة المرابطين سوف تبعث من جديد معتمدة على العصبية العربية .

لكن سرعان ما حسم الموحدون خطر بنى غانية فى افريقية فكان رد الفعل سريعا وعنيفا إذ فى نفس العام مهد المنصور لحملة قوية بأن أرسل عيونه وأعوانه إلى تلك الجهات التى خضعت لحكم بنى غانية وفى ذلك يقول ابن عذارى المراكشى « وكان أبو يوسف المنصور قد اتبع أمراء الجيوش البرية والبحرية كتبا لأهل سائر البلاد المغلوب عليها بالأمن والأمان والصفح والإحسان ولما دنت الحملة من البلاد ، دسوا بالكتب جواسيس رحلوا بها ليلا إلى البلاد واجتمعوا بها مع من يوثق به للأمن ، وكان الخليفة المنصور الموحدى قد اهتم أشد الاهتمام ببنى غانية ومضوا يرسلون الحملات تلو



الحملات على افريقية فأنقذوا الألوف من خيرة رجالهم وأنفقوا الملايين فى هذه الحروب لان بنى غانية وأحلافهم من العرب جعلوا الصحراء ملجأهم فكلما ضيق الموحدون عليهم الخناق فروا إلى الصحراء ، ثم لايلبثون أن يعودوا من جديد واستمرت هذه المطاردات سنوات طويلة ، لكن الخليفة المنصور سحق ثورتهم وقبض على على وأخيه يحيى بن اسحق فى ناحية بلاد الجريد لاعترافه بالخلافة العباسية وخروجها بالثورة وقضى على هذا كله بعد أن حطم جيوش أعدائه بالقرب من قابس ونقل جانبا كبيرا من المرابطين إلى مراكش وكان ذلك عام ٥٨١ هـ . وتم القبض على يحيى صاحب الجزائر ثم على بدر بن عائشة صاحب مليانة ، لكن يحيى شقيق على بن اسحق بن غانية فر من الأسر وتابع ثورة أخيه يعاونه بنو سليم والتركمان واستولى على المهدية وحصن قابس بعد أن استردها واتخذها عاصمة واحتل بجاية وبسكرة والقيروان وبونة حتى انتهى إلى تونس عام ٥٨١ هـ وبذلك أقام دولة جديدة للمرابطين امتدت من بونة غربا حتى جبل نفوسة وتوغل نحو الجنوب حتى بسكرة واضطر المنصور إلى أن يحشد جميع قواته ليحول دون تقدم الثوار . وكان أن توجه الخليفة المنصور إلى افريقية عام ٥٨٢ هـ / ١١٨٦ م حيث تولى قيادة العمليات العسكرية بنفسه واتخذ من مدينة تونس مقرا لقيادته واستطاع بفضل شجاعته وحزمه أن ينتصر على خصومه وفر على بن غانية إلى الصحراء وظل بها إلى أن مات عام ٥٨٤ هـ / ١١٨٨م ، أما قراقوش الأرمنى وجنوده وحلفائهم الأعراب فقد انضموا إلى جيوش الموحدين وأرسل المنصور أعداداً كبيرة منهم إلى المغرب والاندلس ومن ثم تقدم إلى المهدية واستولى عليها عام ٥٦٠ هـ بعد أن سلط عليها أدوات الحصار القوى المحكمة وأنزل بهم هزيمة قاسية فى شعبان ٨٣٥ هـ / أكتوبر ١١٨٧ م وهرب بنو غانية وحلفائهم العرب وأنزل بهم العقاب لما بدر من استدعاء وتأييد بنى غانية ففروا للاحتماء بقنن الجبال والأوعار وكذلك بأحياء العرب بالجوار .

وهكذا نرى أن الخليفة المنصور الموحدى قد نجح فى إعادة توحيد المغرب الكبير

من ليبيا شرقا إلى المحيط الأطلسى غربا وبذلك أصبح فى مقدوره أن يعبر فى اطمئنان إلى الأندلس لجهاد الممالك الأسبانية المعادية كالبرتغال وقشتالة . ولقد اختار المنصور مدينة المهدية التى أسسها والده أبو يعقوب يوسف على ساحل المحيط وبنى قصبتها جده عبد المؤمن من قبل وكانت اقامته بالمهدية قبل أن يعود إلى المغرب ريثما يضع القوانين اللازمة لتنظيم اقطاعات القبائل العربية بأفريقية وعفا عن المماليك المصريين وكان اتخاذ مدينة المهدية لكى تكون القاعدة التى تتجمع فيها جيوش الموحدين قبل أن تتجه إلى الاندلس للجهاد والفتح .

وإن كانت بعض الآراء تذكر أن أفضل ما كان يعمله الموحدون فى هذا الظرف وهم أمام عدو خطر هو دول إسبانيا النصرانية أن يدعو جانبا موضوع بنى غانية وألا يشغلوا أنفسهم كثيرا بأمر افريقية حتى يفرغوا من العدو النصرانى ولكن الذى حدث هو انهم لم يتخذوا هذه السياسة ( أقوال دكتور حسين مؤنس ) ولكننا هنا نخالفه الرأى إذ أن القضاء على الثورة الداخلية من بنى غانية والأعراب والمماليك المصريين كان أهم عمل داخلى قام به أبو يعقوب يوسف المنصور ، إذ أن تأمين خط الظهر وتوحيد الجبهة الداخلية وإعادة تنظيم البيت المغربى الموحدى من الداخل وتأمين خط القبائل العربية والاستعانة بها فى حربه فى الأندلس وترحيل بعضا منها إلى المغرب الأقصى كان من أهم الأعمال والانجازات حتى يتفرغ للجبهة الخارجية فى الاندلس وأن المنصور الذى كان أعظم قواد الموحدين وصاحب أكبر نصر حربى على أرض الأندلس ( معركة الأرك ) ما كان له أن يستطيع تحقيق هذا النصر الكبير فى الاندلس لولا أنه قام بهذا العمل الحاسم والقوى فى توحيد الجبهة الداخلية حتى يأمن ظهره وخطر الداخل وهو يعبر إلى الاندلس إذ أن السبب القوى الذى جعل المرابطين ينهارون هو سحبهم لقواتهم من الاندلس لحماية أنفسهم من الداخل . وأنه لولا أن فعل ذلك لما كان أن يستطيع أن يقاتل النصارى فى الاندلس وهو مطمئن تمام الاطمئنان إلى قوة المغرب والجبهة الداخلية وعدم وجود مشاكل أو أخطار داخلية تهدد الاتجاه للاندلس ومن هنا كان



تفكيره فى أرجاء موضوع الاندلس إلى الانتهاء من مشاكل بنى غانية وحلفائهم أهم عمل قام به المنصور الذى يعد من أعظم قواد التاريخ الإسلامى لانتصاره الرائع فى الاندلس على قوات ألفونسو الثامن الذى كان يسعى لطرد المسلمين نهائيا من الاندلس والقضاء على الوجود الإسلامى .

ومن هنا كان تفكير المنصور ومن ساعده من قواد الموحدين فى سحق التمرد الداخلى واخضاع القبائل الثائرة والقضاء نهائيا على شوكة بنى غانية المرابطين وادخال المماليك المصريين تحت قيادته العسكرية أهم الانجازات التى تشهد له على مر التاريخ وليست حربا عقيمة كما قال الدكتور مؤنس لانه استطاع فى النهاية النجاح فى خطته العسكرية .

## الخليفة المنصور الموحدى وجهاده فى الاندلس

لم تكن الحالة فى الاندلس أقل خطورة من المغرب إذ انتهز البرتغاليون فرصة الاضطرابات التى حلت بصفوف الموحدين عقب استشهاد خليفتهم السابق أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن وأخذوا يضايقون غرب الأندلس برا وبحرا وقد ساعدتهم الظروف فى ذلك الوقت . لكن على الجانب الآخر فبعد أن نظم الخليفة المنصور أمور الدولة فانه رأى أن الوقت قد حان للانتقام لهزيمة أبيه ومقتله فى الاندلس ففتح باب التطوع لجميع المسلمين من بربر وعرب وغيرهم من جبال وسهول والمغرب فأتته معظم القبائل العربية . وفى عام ٥٨٦ هـ / ١١٩٠ م حينما علم مسيحو الاندلس بانشغاله فى بلاد افريقية هاجموا مدينة شلب وباجة وبايرة من غرب الأندلس . وقد ساعدتهم الظروف فى ذلك الوقت إذ أن قوات صليبية كبيرة من الألمان والانجليز والفلمنكيين ( سكان الأراضى المنخفضة وهى هولندا ) قد أخذت تتجه تباعا إلى فلسطين عقب سقوط بيت المقدس فى يد صلاح الدين عام ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م وكانت هذه الأساطيل الصليبية كثيرا ما ترسو فى الموانى البرتغالية إما رغبة أو اضطرارا فتصادف فى عام ٥٨٥هـ / ١١٨٩ م أن أسطولا من خمسين سفينة فرنسية عليها جماعة كبيرة من هؤلاء الصليبيين الألمان والفلمنك اضطر للرسو فى ثغر ( شبونة ) فانتهز ملك البرتغال سانشو الأول [1] هذه الفرصة وطلب من هؤلاء الصليبيين مساعدته فى قتال جيرانه المسلمين فاستجابوا لندائه وتقدموا جميعا نحو مدينة شلب واضطرت المدينة إلى الاستسلام بعد أن تمكن العدو من الاستيلاء على البئر الذى يمد المدينة بالمياه ، فاستعظم المنصور ذلك وكتب إلى امراء الأندلس يأمرهم بضرورة مواجهة العدو. وتظهر براعة هذا المجاهد الكبير فى انه استطاع أن يتجنب لقاء الأمراء المسيحيين فى الاندلس

(١) كان يدعى شنجة الأول أو سانشو Sengha I وكان قد قام بعمليات حربية لاجتياح بعض المواقع الإسلامية المتاخمة لحدود دولته حيث أجرى مذبحة وحشية فى هذه المدن الإسلامية بالغدر بقدر ما كان متعطشا للدماء الإسلامية .



مجتمعين وأن ينفرد بهم واحدا بعد الآخر وهذه الخطة هى التى سار عليها نابليون بونابرت فى العصور الحديثة وكانت سر عظمته وقد شرح المنصور هذه السياسة فى خطاباته الرسمية التى وجهها إلى رعاياه إذ بين فيها أنه قد آثر التحالف مع ملكى قشتالة وأراجون كى يتفرغ لمحاربة ملك البرتغال ثم رأى أن يتحالف مع ملكى ليون وأراجون كى ينفرد بملك قشتالة فى المعركة .

وكان الخليفة المنصور قد انتهز فرصة الفراغ من بنى غانية واتجه بقواه نحو الاندلس وكان الموقف قد عاد إلى التحرج فيه إذ إن الضغط النصرانى على الاندلس كان قد أصبح كالسيل المتدفق الذى يحرق أمامه كل شئ . ولم يعد ينفع فيه إلا عمل حاسم من الأعمال الكبرى التى تقف ذلك الطغيان الصليبى على ديار المسلمين فى الاندلس كتلك الأعمال التى قام بها صلاح الدين الأيوبى فى الشام حيث انتصر فى معركة حطين على الصليبيين عام ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م وكان صلاح الدين معاصرا للخليفة أبى يوسف يعقوب المنصور .

وبدأ المنصور حركته الجهادية عام ٥٨٧ هـ / ١١٩١ م بمملكة البرتغال التى سبق وأن استشهد فيها والده أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن فهاجموا برا وبحرا واكتسح أراضيها ولم يجرؤ ملكها ( سانشو انريكث ) على مواجهة المنصور فى معركة عامة مكشوفة بل ظل مختفيا وراء جدرانه واستطاع الاسطول الموحدى أن يأسر بعض سفن البرتغال عام ٥٨٦ هـ / ويجعلها سفن إسلامية بعد أن أسر جميع من كان بها من البحارة وقد انتهت هذه العمليات باسترداد مدينة شلب عام ٥٨٧ هـ / ١١٩١ م ويبدو أن قوة البرتغاليين قد انهارت تماما بعد هذه الحملة بدليل إننا لم نعد نسمع بعد ذلك عن دخولهم فى حرب ضد المنصور بعد أن حطم قواها وضرب حصونها وديارها واكتسح أراضيها وهى الدولة التى كانت أشد الممالك الإسلامية خطورة على المسلمين وسبق أن استشهد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن والد المنصور على أراضيها .

وكان ألفونسو الريكى ملك البرتغال السابق قد توفى عام ٥٨١ هـ / أواخر عام ١١٨٥ م وخلفه ابنه الذى لم يستطع أن يواجه المنصور ( سانشو الثانى ) ملك البرتغال وقد عقد العزم على طرد المسلمين من الأراضى المجاورة له والاستيلاء على بعض بلاد غرب الأندلس وقد اشتد ساعده بالمساعدات العسكرية الخارجية من أوربا الغربية والتى كانت فى طريقها إلى بلاد الشام وتمكن عن طريقها من الاستيلاء على مدينة «شلب» كما سبق القول وكانت من أكبر الموانئ التى بقيت فى أيدى الموحدين فى غرب الاندلس ، وكان سقوط شلب قد حرك فى نفس المنصور شعورا اسلاميا جارفا بضوروة العمل الحاسم فقرر أن يقوم بغزوة كبرى على غرب الأندلس يعيد بها الأمور إلى نصابها .

وكان الخليفة المنصور قد احتفل احتفالا كبيرا بغزوته لغرب الأندلس هذه فاستقر الناس فى كل النواحى وأعد أحسن فرق جنده ودعا العرب إلى الاشتراك معه فى الجهاد ولا شك أن أخبار انتصار صلاح الدين على الصليبيين فى حطين واستعادة مدينة القدس من أيدى الصليبيين قد زاد فى حماسه وأثار فى المسلمين موجة متدفقة من الحماس فتقاطر الناس على المعسكرات وفى أواخر المحرم عام ٥٨٦ هـ / ١١٩٠ م تحرك المنصور من رباط الفتح نحو الاندلس بعد أن أصدر أمره إلى الحشود بموافاته فى أشبيلية وأخذت الألوف من المسلمين طريقها إلى المكان المحدد للقاء ومن المعروف أن قوات المتطوعين التى خرجت تجاهد فى سبيل الله ونصرة دينه كانت تعادل قوات الجيوش النظامية أو تزيد قليلا وقد تمكن المنصور من استعادة مدينة شلب من أيدى سانشو الأول وعدد آخر من الحصون عام ٥٨٧ هـ / ١١٩١ م ثم شغلته شواغل أخرى وألم به مرض طويل فتعطل اتمام غزوته الكبرى فى الاندلس . وعاد المنصور إلى المغرب بعد أن صالحه صاحب قشتالة ووقوع الخليفة فريسة لمرضه مما أيأس الأطباء فطمع فيه المجاورون له وتربص به ملك قشتالة وثار العرب فى افريقية وعادت الأحوال إلى الاشتعال .



ثم شفى الخليفة من مرضه وعزم على الخروج بنفسه لمحاربة الخارجين عليه واضطر إلى البدء بالجبهة القشتالية ومن ثم كان تحول المنصور نحو مملكة قشتالة فى قلب الاندلس . بعد أن كانت قد شهدت بداية عام ٥٩١ هـ / ١١٩٤ م اكتمال أهبة الاستعداد لغزوته الكبرى فعبر إلى الاندلس بحشود ضخمة وأخذت القوات الأخرى المساعدة له تتوافد على أشبيلية وهكذا صار هنا جيش كبير من الموحدين والعرب والاندلسيين والمتطوعين من أنحاء بعيدة جهادا فى سبيل الله والاستشهاد .

وعندما علم ألفونسو الثامن ملك قشتالة بذلك والذى كان قد نقض المصالحة التى تمت بينه وبين المنصور لمدة خمس سنوات وتربص بالمسلمين فى الأندلس فانه بدوره أسرع الى استنفار كل ملوك أسبانيا المسيحية واستصرخ البابا فى روما وقدمت إليه جيوش من فرنسا وألمانيا وهولندا وغيرها من الديار الأوربية ووافته جنود أوربية كبيرة يقودها فرسان ذوو خبرة عسكرية طويلة وتجربة ماهرة وممتازة فى الحروب ضد المسلمين حتى لقد قدرت القوات الأوربية التى احتشدت فى مواجهة القوات الإسلامية بأنها تزيد عن أكثر من مائة وخمسين ألف جندى ( ١٥٠ ألف جندى ) تزيد عن ثلاث أضعاف القوات الإسلامية . وكانت قوات الموحدين قد زحفت شمالا حتى انتهت إلى الموقع المعروف « بالأرك » وتقدمت الحشود الصليبية الأوربية الكبيرة إلى مكانها فى سهل فسيح حول حصن يسمى الأرك .

**نجاح الجهاد الموحدى وانتصار الأرك الباهر :**

بالقرب من قلعة رباح عسكر المسلمون على حفة وادى آنة ، وإلى الغرب من مدينة ( ثيوداد ريال ) الحالية وهناك عقد المنصور مجلسه الاستشارى المكون من شيوخ العرب والموحدين للتشاور فى كيفية إدارة الحرب مع المسلمين . وعقد للقائد «ابن صناديد » على جيش الاندلس ولجرمون بن رباح على القبائل العربية ولنديل بن عبد الرحمن المغراوى على قبائل مغراوة ولمحيوا بن أبى بكر بن حمامة المرينى على قبائل

بنى مرين ولجابر بن يوسف على قبائل بنى عبد الواد ولعباس بن عطية على قبائل بنى توجين وليحيى بن على على قبائل مسكورة وسائر المصامدة ولمحمد بن منفاذ على قبائل غمارة والفقيه الصالح أبى خرز يخلف بن حرز الأوربى على المتطوعة ولجميع هؤلاء تحت قيادة أبى يحيى بن أبى حفص زعيم قبيلة هنتاتة .

ووزع القائد يحيى بن أبى حفص الرايات على رؤساء القبائل وقسم عسكره على النحو التالى عسكر الأندلس فى الميمنة وزناتة والمصامدة والعرب وسائر قبائل المغرب فى الميسرة والمتطوعة والمماليك الاعزاز والرماه فى المقدمة وبقى هو وقبيلته هنتاتة فى القلب. وبعد توزيع القوات فى ميدان القتال تقدمت فجأة مجموعة من فرسان مسيحى إسبانيا تقدر بنحو عشرة آلاف جندى أو يزيد عن خمسة عشر مدججين بالسلاح مدرعين بالحديد لإلقاء الرعب فى نفوس المسلمين وبرز زعماء الموحدين لصدهم إلا أن جموع الفرسان كانوا قد تقدموا من الميسرة ونجحوا فى اختراق القلب وقتل قائد الجيوش الإسلامية أبو يحيى بن أبى حفص إلا أن القوات العربية وزعماء قبائلها والمتطوعة الذين خذو حذر القبائل العربية تمكنوا من الالتفاف حول جميع هذه القوات والاحاطة بهم من جميع الجهات ووقع فرسان إسبانيا المسيحية بين شقى الرحى تطحنهم وتحصدهم القوات الإسلامية حصدا وطحنا فانكسرت شوكة جيش ألفونسو الثامن الملقب بالصغير حيث كان جل اعتماده على هؤلاء الفرسان الذين لم ينجو منهم أحدا فى هذه المعركة التى حصدوا فيها حصدا بعد أن حمى وطيس المعركة . وكانت تلك المعركة قد دارت رحاها فى ٩ شعبان عام ٥٩١ هـ / ١٨ يونيو ١١٩٥م وانجلت عن انتصار رائع وعظيم وباهر للمسلمين وأفلت ألفونسو الثامن بعدد قليل من فرسانه ولاذ بالفرار نحو طليطلة وكان لهذه المعركة أثر بعيد يشبه أثر معركة الزلاقة فى تاريخ الاندلس .

وفى نفس الوقت أظهر المنصور فى هذه المعركة شجاعة وبسالة نادرة مهدت له



النصر فيروى ابن عذارى المراكشى أنه حينما رأى انكسار مقدمته أمام هجمات العدو ترك مقر قيادته وسار منفردا إلى الصفوف الأمامية يعطى تعاليمه ونصائحه العسكرية وتوجهاته مما كان له أكبر الأثر فى نفوس قواته فحملوا على العدو حملة انتهت بالنصر وأسرع بعض فرسان العرب إلى المنصور يبشرونه بهزيمة العدو وهكذا تمكن العرب عن طريق اندفاعهم فى اللحظة المناسبة من العمل على احراز النصر فى موقعة الأرك .

وبعد ذلك النصر الذى ثبت فيه حدود الإسلام فى الاندلس على خط الوادى (آنة) أرسل المنصور فرقا من الجيش الموحدى استعادت الكثير من حصون غرب الأندلس وتوجه المنصور ببقية قواته نحو طليطلة عاقدا العزم على الاستيلاء عليها ولكن الشتاء كان قد حل فلم يزد المنصور عن تخريب بعض الحصون التى كانت تمثل خطرا على الوجود الإسلامى واسترد المسلمون بعض الحصون القشتالية مثل (ملجون)، بنافنتى ، كاراكويل ، قلعة رباح) ويذكر مؤرخو الغرب المسيحى أن أسباب هزيمة القشتاليين بأن جيش الموحدين كان يحسن الكر والفر، ويجيد الرماية بالسهام وهى صفات تتوافر فى العرب وتتفق مع طريقتهم فى القتال ولقد بقى المنصور بالاندلس حتى عام ٥٩٢ هـ/ ١١٩٦م وتمكن من الاستيلاء على حصن منتانـجش Montanchez بعد استسلام حاميته وتأمين الخليفة المنصور لهم وكذلك استولى على حصن ترجالة Trajillo وعم الخراب والدمار بأنحاء مملكة قشتالة مما دفع ملكها إلى طلب السلم والمهادنة لمدة عشر سنوات فوافق يعقوب المنصور وعاد إلى مراكش بعد أن كان قد أعقب انتصاراته هذه سلسلة من الانتصارات الأخرى فى شمال قشتالة ودمر نواحى طليطلة واستولى على بعض الحصون المحيطة بها مثل مجريط ووادى الحجارة ووصل إلى أراض لم تطأها أقدام المسلمين منذ أيام المنصور بن أبى عامر ولعل هذا هو السبب الذى جعل المؤرخين يشبهون المنصور الموحدى بالمنصور بن أبى عامر .

وكـان فى نفس الوقت قـد قـام ألفـونسـو التـاسع ملك ليـون وحليف المنصـور

بمهاجمة قشتالة واجتياحها ومن الغريب أن المنصور لم يحاول الاستيلاء على طليطلة ولو أراد لفعل دون مشقة كبيرة فقد أتاح المنصور بعد استيلائه على طليطلة لأدفونسو الثامن بتجميع قواه ويأخذ بثأره فيما بعد .

وقد عاد المنصور بعد ذلك مرة أخرى إلى الاندلس ولكنه لم يقم بأى عمل عسكرى كبير يذكر له. واكتفى بأعمال التنظيم والإدارة ومحاسبة العمال ورجال المال.

ومات المجاهد الكبير المنصور فى الثانى من ربيع الأول عام ٥٩٥ هـ / ٢ يناير ١١٩٩ م بعد أن كان قد تجاوز عمره التاسعة والثلاثين بعدة أيام قليلة فقط فقد ولد فى أواخر ذى الحجة عام ٥٥٤ هـ / يناير ١١٦٠ م .

وهكذا مات المجاهد الموحدى بعد أن سجل فى صفحات التاريخ الإسلامى والجهاد فى الأندلس صفحة ناصعة وارتبط اسمه بمعركة الأرك ووقف تقدم المسيحيين وهكذا خلد اسمه بكسبه معركة الأرك إلا أنه مما يؤخذ على قادة المجاهدين من المرابطين والموحدين أنهم لم يحاولوا استثمار ثمرة نجاحهم فى هذه المعارك مثلما فعل صلاح الدين فى حطين والاستيلاء على مدينة القدس عام ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م لكن المنصور مات فى عنفوان شبابه إذ لم يصل إلى الأربعين عاما وأنه لو قدر له أن يعيش وهو فى تمام صحته لانه كان ضعيف البنية مصابا بأمراض وقف الأطباء يأسا دون علاجها لاستطاع فيما بعد أن يقوم بأعمال تفوق كثيرا ما قام به فى معركة الأرك . ذلك لانه كان قد خبر قتال المسيحيين فى الاندلس وعرف نقط الضعف فى قواتهم وكيفية مواجهتهم ومحاولة كسر شوكتهم . ولقد مات هذا المجاهد الموحدى صاحب معركة الأرك وهو فى شبابه ، ذلك لان الخلفاء والسلاطين يبدو أن دائما تولى مهام أعمالهم فى السنة التى مات فيها المنصور إذ أن سن التاسعة والثلاثين لم يكن من الأعمار التى يستطيع صاحبها أن يفعل الشئ الكبير لبلاده ولكن هكذا أعمال رجال الدولة الموحدية إذ أننا نجد العديد منهم يتوفون وهم دون الخمسين عاما .



لكن مهما يكن من القول فان الخليفة أبا يعقوب يوسف المنصور الموحدى استطاع أن يقوم بالأعباء الملقاة على عاتقه واستطاع أن يوطد الأمن والأمان فى داخل البلاد ويوطد أركان الدولة ويقضى على الثورات الداخلية ويبسط نفوذ الدولة على كل الأراضى الواقعة من ليبيا شرقا إلى المحيط الأطلسى غربا وأن يجمع كلمة المغرب العربى الكبير تحت لواء الوحدة الموحدية وأن يجعل أنظار العالم الإسلامى تتجه إلى المغرب العربى بعد معركة الأرك فى الوقت الذى اتجه فيه المغاربة إلى المشرق حيث انتصار صلاح الدين الأيوبى على الصليبيين فى معركة حطين ٥٨٣ هـ / ١١٨٧م .

# الباب الرابع عشر

## بداية انهيار الدولة الموحدية

## الخليفة الموحدى الرابع

## أبو محمد عبد الله الناصر

## وموقعة العقاب وضعف السيادة الإسلامية

## ( ٥٩٥ – ٦١٠ هـ – ١١٩٩ – ١٢١٣ م )

توفى الخليفة يعقوب المنصور عام ٥٩٥ هـ / ١١٩٩ م وقد أثارت وفاته حزنا عميقا فى الأوساط الإسلامية ذلك لان الكثير من الناس كذبوا وفاته وقال البعض أنه قد تخلى عن الملك وذهب خفية إلى الاندلس حيث يرابط فى ثغورنا لجهاد الكفار وقال البعض الآخر بل إنه توجه إلى البيت الحرام وجاور فى المدينة عند قبر الرسول ﷺ حيث يخفى أمره وقال فريق ثالث بل إنه رحل إلى الأراضى المقدسة بفلسطين لجهاد الصليبيين هناك . وقد كذب المؤرخون هذه الروايات وقالوا بأن المنصور مات فى المغرب ودفن بجوار أبائه فى تيتملل ، إلا أنه فى الوقت نفسه حركت وفاته أطماع الطامعين من أعداء الدولة من جديد . وخلفه أبو محمد عبد الله الملقب بالناصر وكان عمره يوم ارتقاء عرش سلطنة المغرب والأندلس ثمانية عشرة عاما حيث إنه ولد فى عام ٥٧٦هـ/ ١١٨٠ م .

وتولى الحكم عام ٥٩٥ هـ / ١١٩٩ م وقد كان شابا قليل الذكاء . وكان أبوه قد أطلعه على سير الأمور فى البلاد ونصحه بألا يقطع برأى حاسم يهم البلاد دون مشاورة أبى حفص محمد بن أبى حفص وكان هذا الرجل كبير السن وذا فطنة وحنكة ودراية ، لكن هذا الشاب تجلت قلة ذكائه فى صورة استبداده بالأمر ورفض النصيحة من أقرب المقربين من رجاله .



وكانت بداية فترة حكمه قد شهدت عودة بنى غانية الميورقيون إلى شن غاراتهم على افريقية وتمكنوا من الاستيلاء على تونس والمهدية وبلاد الجريد والدعاء فيها للخليفة العباسى جريا على عادة أسلافهم المرابطين وكان عبد الله بن غانية قد حاول فى عام ٥٩٦ هـ / ١٢٠٠ م أن يسترد جزيرة يابسة من الموحدين وكان قائد الخليفة المنصور ( والد الناصر ) أبو الحسن على ابن الزبير قد قام بانقلاب فى الجزيرة ضد حكم بنى غانية وأقام بمساعدة الثوار حاكما على الجزيرة باسم الموحدين ، إلا أن نفوذ الموحدين على جزيرة ميورقة لم يدم طويلا إذ سرعان ما علم بنو غانية فى افريقية بأخبار هذا الانقلاب ورجع الأمير عبد الله بن غانية إلى الجزيرة فورا عن طريق صقلية واستطاع الأمير عبد الله بن غانية بمساعدة مواليه وجنده أن يحتل الجزيرة ويطرد منها أخيه محمد بن غانية إلى الاندلس حيث ولاه الموحدون مدينة دانيه . وحاول الخليفة المنصورأن يعيد احتلال الجزيرة إلا أن الموقف كان قد أفلت منه إلا أنه نجح فى احتلال جزيرة يابسة عام ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م . وتحرك ابن غانية بأسطوله من جزيرة ميورقة لمحاصرة جزيرة يابسة من جميع الجهات ولكن أهلها قاوموه بشدة واستنجدوا بأسطول الموحدين الذى كان قريبا منهم فأسرع لنجدتهم واستطاع الانتصار على ابن غانية ورجع ابن غانية خائب الوجه ورأى الخليفة الموحدى الجديد أبو عبد الله محمد الناصر لدين الله ابن المنصور أن استقرار نفوذ الموحدين فى افريقية لن يستتب إلا إذا استولى على جزر البليار قاعدة بنى غانية ومصدر المتاعب التى يواجهها الموحدون فى افريقية لهذا صمم الناصر على احتلالها كلها .

ففى خلال فترة حكم الناصر لدين الله انتكست صورة التحالف الموحدى العربى فأصبح صوريا بقدر ما يحفظ على العرب استقلالهم الذاتى ففى عام ٥٩٦ هـ / ١٢٠٠ م توالت أنباء افريقية عن خروج العرب عن طاعة الخليفة بمراكش وبسط العرب سلطانهم على مدنها وتحالفوا مع يحيى ابن غانية . وكان الناصر لدين الله قد بدأ حكمه بداية طيبة فقد رأى ضرورة القضاء على ثورة بنى غانية وأحلافهم من

العرب فى الجزائر الشرقية وافريقية وكان اسحق بن على بن غانية قد تمكن فى عام ٥٩٥ هـ / ١١٩٩ م من الاستيلاء على تونس فزاد أمر الثورة خطورة وبدأ أبو محمد الناصر بتوجيه حملة بحرية كبرى إلى الجزائر الشرقية كان قد أعدها لهذا الغرض فى ثغر دانية وأسند قيادة الأسطول فيها إلى عمه أبى العلاء إدريس بن يوسف ابن عبد المؤمن كما أسند قيادة الجيش إلى شيخ الموحدين أبى سعيد عثمان ابن حفص .

وكانت الحملة تتكون من ألفين ومائتى فارس وسبعمائة من الرماة وخمسة عشر ألف من الرجال غير رجال الأسطول وكان الأسطول فى ثلاثمائة جفن ( سفينة ) (أو نوع من السفن ) وأقلعوا يوم السبت ٢٤ ذى الحجة ٥٩٩ هـ / ١٢٠٣ م من جزيرة يابسة قاصدين ميورقة ونزلوا فيها وأحاطوا بها وخرج إليهم عبد الله بن غانية لكنه هزم وقتل وتغلب رجال الأسطول والجيش على المدينة ودخل أبو العلاء ادريس قائد الأسطول والشيخ أبى سعيد عثمان قائد الجيش ثم تحرك الأسطول إلى جزيرة منورقة فدخل البلد عنوة وأرسل حاكمها إلى العاصمة مراكش وبذلك تم للموحدين احتلال الجزر الشرقية أو جزر البليار وتم لهم ذلك فى ربيع الأول عام ٦٠٠ هـ / ديسمبر ١٢٠٣ م وأقيم عليها عبد الله ابن طاع الله الكومى واليا وبذلك يكون الموحدون قد قطعوا جذور بنى غانية فى الجزر الشرقية ( جزر البليار وهى ميورقة ومنورقة ويابسة ) وبقى عليهم أن يقطعوا جذورهم بل فروعهم فى افريقية والمغرب الأوسط . حيث كان من الطبيعى بعد ذلك أن يتتبع الخليفة الناصر فلول بنى غانية فى افريقية فتحرك إليهم بجيشه وأسطوله عام ٦٠١ هـ / ١٢٠٤ م واستولى على تونس والمهدية وفر يحيى بن غانية بأهله وولده إلى صحراء طرابلس ثم رأى الناصر أن استمرار بقاء نفوذ الموحدين فى افريقية توقف على اقامة حاكم دائم فيها يكون له مطلق التصرف فى إدارتها فاختار لهذا الغرض واليا من أقاربه هو الشيخ « عبد الواحد بن أبى حفص الهنتاتى » جد الملوك الحفصيين ( انظر دولة بن حفص ، الجزء الخامس من الموسوعة ) وفى ربيع الأول عام ٦٠٢ هـ / ١٢٠٥ م أنزل الموحدون بنى غانية وأحلافهم بقيادة يحيى بن



اسحاق الميورقى هزيمة ساحقة فى تاجرا قرب قابس وأعقب ذلك دخول الموحدين تونس والمهدية والقضاء نهائيا على فتنة بنى غانية وغنم الموحدون أسلابا أضاع القرب عشرين عاما فى جمعها من طرابلس إلى بجاية وفى نفس الوقت استسلم عرب المهدية وعاد الناصر إلى تونس عام ٦٠٣ هـ / ١٢٠٦ م ليعيد الهدوء إلى افريقية ولينظم شئونها ويعمل على إصلاح ما فسد ، لكن بنى غانية لم يستسلموا للهزائم التى أنزلها بهم الموحدون خصوصا بعد مساعدات بنى سليم وعرب الزواودة لهم وتمكن بنى غانية من مواجهة الجيش الموحدى بقيادة أبى محمد بن أبى حفص بنواحى تونس وفى عام ٦٠٧ هـ / ١٢١٠ م . أغار أبو محمد عبد الواحد على قبائل سليم ليرغم العرب على الطاعة والتخلى عن مناصرة بنى غانية . ولاشك أن هذه الاضطرابات التى لعبت فيها القبائل العربية دورا واضحا فى افريقية أدت إلى تعيين أبى حفص واليا دائما على افريقية مما ساعد على تدعيم النفوذ الموحدى فى تلك الجهات من جهة ثم قيام الدولة الحفصية المستقلة بعد ذلك من جهة أخرى .

ولكن يحيى بن اسحاق بن غانية الميورقى انتهز فرصة عودة الخليفة إلى المغرب لتجديد غاراته لكن أبو محمد الحفصى أوقع به هزيمة قاصمة فى اقليم الزاب فى ٣ ربيع أول ٦٠٤ هـ / أكتوبر ١٢٠٧ م وتعتبر موقعة الزاب النهاية الحقيقية لنشاط بنى غانية فى افريقية .

وكان أبو محمد الحفصى هذا جديرا بهذه المهمة فأخذ يتعقب جيوش يحيى بن غانية وينهكها فى الوقت الذى كانت فيه زناتة تنفض من حوله وكانت معركة جبل نفوسة هى التى آتت على قوة يحيى فلم يجد خيراً من أن يهرب إلى الجنوب من جديد ويتجه إلى واحة الجفرة فى عام ٦٠٤ هـ .

لكن بنو غانية وحلفاؤهم من العرب الهلالية اتجهوا نحو المغرب الأوسط وهاجموا تلمسان فأسرع أبو محمد الحفصى وأنزل بهم هزيمة قاصمة أخرى فى جبل نفوسة

العرب فى الجزائر الشرقية وافريقية وكان اسحق بن على بن غانية قد تمكن فى عام ٥٩٥ هـ / ١١٩٩ م من الاستيلاء على تونس فزاد أمر الثورة خطورة وبدأ أبو محمد الناصر بتوجيه حملة بحرية كبرى إلى الجزائر الشرقية كان قد أعدها لهذا الغرض فى ثغر دانية وأسند قيادة الأسطول فيها إلى عمه أبى العلاء إدريس بن يوسف ابن عبد المؤمن كما أسند قيادة الجيش إلى شيخ الموحدين أبى سعيد عثمان ابن حفص .

وكانت الحملة تتكون من ألفين ومائتى فارس وسبعمائة من الرماة وخمسة عشر ألف من الرجال غير رجال الأسطول وكان الأسطول فى ثلاثمائة جفن ( سفينة ) (أو نوع من السفن ) وأقلعوا يوم السبت ٢٤ ذى الحجة ٥٩٩ هـ / ١٢٠٣ م من جزيرة يابسة قاصدين ميورقة ونزلوا فيها وأحاطوا بها وخرج إليهم عبد الله بن غانية لكنه هزم وقتل وتغلب رجال الأسطول والجيش على المدينة ودخل أبو العلاء ادريس قائد الأسطول والشيخ أبى سعيد عثمان قائد الجيش ثم تحرك الأسطول إلى جزيرة منورقة فدخل البلد عنوة وأرسل حاكمها إلى العاصمة مراكش وبذلك تم للموحدين احتلال الجزر الشرقية أو جزر البليار وتم لهم ذلك فى ربيع الأول عام ٦٠٠ هـ / ديسمبر ١٢٠٣ م وأقيم عليها عبد الله ابن طاع الله الكومى واليا وبذلك يكون الموحدون قد قطعوا جذور بنى غانية فى الجزر الشرقية ( جزر البليار وهى ميورقة ومنورقة ويابسة ) وبقى عليهم أن يقطعوا جذورهم بل فروعهم فى افريقية والمغرب الأوسط . حيث كان من الطبيعى بعد ذلك أن يتتبع الخليفة الناصر فلول بنى غانية فى افريقية فتحرك إليهم بجيشه وأسطوله عام ٦٠١ هـ / ١٢٠٤ م واستولى على تونس والمهدية وفر يحيى بن غانية بأهله وولده إلى صحراء طرابلس ثم رأى الناصر أن استمرار بقاء نفوذ الموحدين فى افريقية توقف على اقامة حاكم دائم فيها يكون له مطلق التصرف فى إدارتها فاختار لهذا الغرض واليا من أقاربه هو الشيخ « عبد الواحد بن أبى حفص الهنتاتى » جد الملوك الحفصيين ( انظر دولة بن حفص ، الجزء الخامس من الموسوعة ) وفى ربيع الأول عام ٦٠٢ هـ / ١٢٠٥ م أنزل الموحدون بنى غانية وأحلافهم بقيادة يحيى بن



اسحاق الميورقى هزيمة ساحقة فى تاجرا قرب قابس وأعقب ذلك دخول الموحدين تونس والمهدية والقضاء نهائيا على فتنة بنى غانية وغنم الموحدون أسلابا أضاع القرب عشرين عاما فى جمعها من طرابلس إلى بجاية وفى نفس الوقت استسلم عرب المهدية وعاد الناصر إلى تونس عام ٦٠٣ هـ / ١٢٠٦ م ليعيد الهدوء إلى افريقية ولينظم شئونها ويعمل على إصلاح ما فسد ، لكن بنى غانية لم يستسلموا للهزائم التى أنزلها بهم الموحدون خصوصا بعد مساعدات بنى سليم وعرب الزواودة لهم وتمكن بنى غانية من مواجهة الجيش الموحدى بقيادة أبى محمد بن أبى حفص بنواحى تونس وفى عام ٦٠٧ هـ / ١٢١٠ م . أغار أبو محمد عبد الواحد على قبائل سليم ليرغم العرب على الطاعة والتخلى عن مناصرة بنى غانية . ولاشك أن هذه الاضطرابات التى لعبت فيها القبائل العربية دورا واضحا فى افريقية أدت إلى تعيين أبى حفص واليا دائما على افريقية مما ساعد على تدعيم النفوذ الموحدى فى تلك الجهات من جهة ثم قيام الدولة الحفصية المستقلة بعد ذلك من جهة أخرى .

ولكن يحيى بن اسحاق بن غانية الميورقى انتهز فرصة عودة الخليفة إلى المغرب لتجديد غاراته لكن أبو محمد الحفصى أوقع به هزيمة قاصمة فى اقليم الزاب فى ٣ ربيع أول ٦٠٤ هـ / أكتوبر ١٢٠٧ م وتعتبر موقعة الزاب النهاية الحقيقية لنشاط بنى غانية فى افريقية .

وكان أبو محمد الحفصى هذا جديرا بهذه المهمة فأخذ يتعقب جيوش يحيى بن غانية وينهكها فى الوقت الذى كانت فيه زناتة تنفض من حوله وكانت معركة جبل نفوسة هى التى آتت على قوة يحيى فلم يجد خيراً من أن يهرب إلى الجنوب من جديد ويتجه إلى واحة الجفرة فى عام ٦٠٤ هـ .

لكن بنو غانية وحلفاؤهم من العرب الهلالية اتجهوا نحو المغرب الأوسط وهاجموا تلمسان فأسرع أبو محمد الحفصى وأنزل بهم هزيمة قاصمة أخرى فى جبل نفوسة

وقد انجلت هذه المعركة عن نهاية كل شئ كان يملكه بنى غانية . ولقد حاول يحيى بن غانية بعد ذلك الاغارة على افريقية لكنه لم ينجح رغم انهم كانوا يغيرون على البلاد ثم يفرون إلى الصحراء وكانوا أحيانا يعتصمون فى تلمسان وأحيانا فى سجلماسة.

وفى عام ٦٣١ هـ / أو ٦٣٣ هـ / ١٣٣٤ أو ١٢٣٦ م توفى يحيى بن اسحق ابن غانية فى مدينة مليانة على نهر شلف فى الجزائر وكان هذه نهاية ثوار المرابطين الذين قضوا حياتهم فى معارك طاحنة مع الموحدين . وقد أضعفت هذه الحركة قوات الموحدين نحو نصف قرن من الزمان .

## جهاد الناصر لدين الله فى الاندلس

لم ينس ألفونسو الثامن ملك قشتالة هزيمة الموحدين له فى الأرك فظل يفكر فى محو اثار الهزيمة وبدأ يحصن قلاع بلاده الواقعة على الحدود الإسلامية وتحالف مع كل من ملكى نبرة وأرغون وفى عام ٦٠٧ هـ ١٢١٠ م نقض القشتاليون الهدنة القائمة بينهم وبين الموحدين ، لذا لم يكد الخليفة الناصر لدين الله يستريح بعض الشئ من متاعب المغرب الأوسط وافريقية معتمدا على محمد بن حفص الهنتاتى حتى سمع باستعداد ألفونسو فى الاندلس مستنجدا بالملوك المسيحيين ومنهم ملك البرتغال ، ذلك لأن الأوضاع السياسية فى إسبانيا فى ذلك الوقت قد تغيرت عما كانت عليه فى عهد المنصور ، ذلك لأن الإسبان لم يكتفوا بتوحيد صفوفهم بل أعلنوا الدعوة لحرب صليبية فى أوربا وبارك البابا أنوسنت الثالث حركتهم فجاءتهم جيوش جرارة من ايطاليا وفرنسا وألمانيا .

فكتب الناصر إلى جميع بلاد افريقية والمغرب وبلاد المسلمين يستنفر المسلمين للغزو فأجابه خلق كثير وألزم كل قبيلة من القبائل العربية ببلاد المغرب بحصة من الخيل والفرسان والرجال للانضمام إلى الجيش الموحدى والخروج معه للجهاد بالأندلس



ولما تكاملت معه الحشود تحرك إلى الاندلس فى ٩ شعبان عام ٦٠٧ هـ / ١٢١١ م ووصل إلى أشبيلية وأقام بها استعدادا للغزو فاجتمع له فى هذه الغزوة من أهل المغرب والاندلس العديد من المقاتلين وما كان ألفونسو الثامن يشعر بتحرك الجيوش الموحدية الكبيرة إلى الاندلس ومن ثم فانه أخذ يغير من جديد على أطراف الأندلس الإسلامى وقد بدأ فى هذا بعد انتهاء هدنة كان قد عقدها مع المنصور الموحدى وكانت نهاية الهدنة عام ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م وأراد المنصور أن يجاهد فى سبيل الحفاظ على الديار الإسلامية فى الاندلس وتحقيق نصر كما حقق والده المنصور نصر الأرك على قوات قشتالة ، فكان قرار العبور إلى الاندلس وجهاد القوات النصرانية فجمع حشودا هائلة وعبر إلى الاندلس فى نهاية عام ٦٠٧ هـ / يونيو ١٢١٠ م وأخذت الجيوش تتوافد عليه حتى أصبح جيشه يعادل جيش أبيه الذى كسب موقعة الأرك وقسم الجيش الإسلامى إلى خمس فرق : الأولى من العرب والثانية من زناتة وصنهاجة والمصامدة وغمارة وسائر أصناف قبائل المغرب والثالثة من المتطوعة والرابعة من جيش الأندلس والخامسة من الموحدين وأنزل كل فرقة منهم بناحية ولما انتهى من تنظيم جيشه تحرك فى أوائل عام ٦٠٨ هـ / ١٢١١ م إلى بلاد قشتالة واستولى على قلعتى اللج وشلبطرة معتمدا فى ذلك على الفرقة العربية من جيشه لكن إذ كان المنصور محقق انتصار الأرك رجلا ذكيا حكيما عرف كيف يستفيد من القوات التى كانت معه فى حين عجز ذلك الشاب عن ذلك .

زحفت الجيوش المسيحية من طليطلة فى عام ٦٠٩ هـ / ٢٠ يونيو ١٢١٢ م واستولت على ملجون وقلعة رباح بعد أن حاصرتها ويئس قائد حاميتها من نجدة الناصر ففضل تسليمها فغضب الناصر لذلك وأمر بقتله فى أشبيلية مما أثار غضب الفرقة الرابعة الاندلسية فى جيشه فعزل قوادهم ولقد أخطأ فى ذلك لتعود قواد الاندلس لمحاربة المسيحيين بها وخبرتهم الطويلة فى القتال .

وعلى الجانب الآخر كان ألفونسو الثامن قد عقد العزم على الأخذ بثأر هزيمته فى معركة الأرك فعقد معاهدات ساعدته على توحيد الجبهة المسيحية الإسبانية وأتته أمداد كبيرة من بقية أوربا وبذلك كان الناصر لدين الله يواجه حملة صليبية كبرى .

وكانت خطة الناصر لدين الله تقتضى الإسراع بالاستيلاء على الباب المؤدى إلى قشتالة وهو حوض الوادى الكبير وذلك للحيلولة دون دخول النصارى إلى الاندلس بقوات كبيرة وفى أوائل عام ٦٠٨ هـ / ١٢١١ م تحرك الناصر بجيش جرار ولكن بحذر ودخل مدينة جبان ، وحصنها ثم تركها وعسكر فى السهل الواقع أمام مخرج المضيق وهو سهل ملئ بالتلال الصخرية وتسمى العقاب وتمكن الناصر من الاستيلاء على الحصون القريبة من بلده ابدة Ubeda وكان معقل فرسان الداوية ثم عاد الناصر إلى أشبيلية ليستكمل استعداده وفى محرم ٦٠٩ هـ يونيو ١٢١٢ م . تحرك نحو مخرج المضيق ويسميه العرب « مطرد الكلب » وفى نفس الوقت اتجهت قوات نصرانية نحو هذا الموقع والتقى الجيشان وجيش المسلمين على هذه الحالة من التفكك بموقع يقال له فى المصادر العربية باسم القاب وفى المصادر الأسبانية معركة تولوسا Les Nevesde Tobsa ولم يكن أن اجتمعت لحرب المسلمين قوات نصرانية كهذه من قبل بل منذ دخول المسلمين الاندلس فقد كان فيها ملوك قشتالة وليون ونافارا وأرجون ومعظم كبار فرسان أسبانيا وقوات ألمانية وفرنسية وبرتغالية وايطالية وتمكنت هذه القوات من الاستيلاء على كل المواقع الإسلامية التى صادفتها فى طريقها .

وقامت الفرقة الثالثة من جيش الناصر لدين الله وهى المتطوعة بهجوم خاطف ولكن القوات المسيحية تمكنت من امتصاص الفرقة بأكملها بداخلها ورغم تفانى المتطوعة فى القتال فقد استشهدوا عن آخرهم ولكن باقى فرقة الجيش الموحدى لم يمدوا لهم يد العون والمساعدة ولم يعرف السبب فى ذلك وبعد أن فرغ المسيحيون من فرقة المتطوعة والذين كانت المعركة قد بدأت معهم فحاولوا زحزحة القوات الإسلامية



من الجانب الغربى من الميدان لكن النصارى فشلوا فحاولوا النفاذ من الناحية الشرقية التى كان يعسكر فيها الاندلسيون والعرب فهرب الاندلسيون بعد أن قرروا أن يغدروا بالناصر فى المعركة من أثر عزله قوادهم وفعلا غدروا به فى المعركة الفاصلة بعد أن دار القتال عنيفا وولت الأدبار انتقاما بما فعله الناصر بقوادهم فكان بداية الهزيمة لجيش الموحدين وفرت فرق القبائل البربرية من المعركة ثم تلتها فرقة الموحدين وكان آخر من ترك ميدان المعركة الفرقة الأولى التى تتشكل من العرب التى اشتبكت وتلاحمت بالسيوف مع المسيحيين مدافعة عن الناصر لدين الله ورغم ذلك تمكن المسيحيون من الوصول إلى الدائرة التى تحيط به وقتلوا من عبيد دائرته نحو عشرة آلاف فارس واخترقت القوات النصرانية صفوف الجيش الموحدى فاضطرب نظامه ووصلت بعض فرق منهم إلى فسطاط الناصر نفسه وبدأت مذبحة كبرى انتهت بتبدد الجيش الموحدى الضخم وبتبدده تلاشى الأمل فى تمكن المسلمين من الثبات فى هذه البلاد الأندلسية وقد هلك فى هذه المعركة آلاف من خيرة محاربى المسلمين وعشرات الألوف من خيرة المغاربة ولهذا تعتبر هذه الهزيمة النهاية الحقيقية لقوة الإسلام فى الاندلس . وكانت الفرقة العربية قد أدركت أن الهزيمة قد حاقت بالجيش الموحدى وأن المسيحيين قد أوشكوا على قتل الخليفة الناصر لدين الله فقام أحد فرسان العرب بمعاونة الخليفة على الفرار حتى تخلى أحدهم عن فرسه العربى الأصيل للناصر لبدانة فرسه وثقله قائلا له . أركب هذه الحرة فأنها لا ترضى بعار فلعل الله ينجيك عليها فان فى سلامتك الخير كله فركبها الناصر تتقدمه نخبة من فرسان العرب ويحيط به عبيده والقوات المسيحية فى أعقابهم حتى تمكنوا من الفرار به وقضى على معظم الجيش الموحدى وعاد الناصر إلى مراكش حزينا حيث احتجب عن الناس فى قصره إلى أن توفى فى ١٠ شعبان ٦١٠ هـ / ٥ يناير ١٢١٣ أى بعد سبعة شهور من هزيمة العقاب .

ولقد انهار تماما نفوذ الموحدين فى الاندلس بعد هذه الكارثة التى حلت بالمسلمين فى الاندلس بل بالعالم الإسلامى الغربى وأخذت المدن الاندلسية التى دافع

عن بقائها المرابطون وأسلاف الناصر لدين الله من الموحدين تتساقط فى أيدى المسيحيين ويسجل تاريخ الإسلام فى الاندلس وفاة الناصر لدين الله بداية انهيار دولة الموحدين وقد شجعت هذه المعركة والهزيمة القاسية التى حلت بالموحدين رؤساء بعض المدن الاندلسية على القيام بمحاولة الاستقلال بحكم الاندلس بغية انقاذها من هذه النكسة القاسية .

ولقد كانت تلك الهزيمة القاسية سببا فى تكالب امراء قشتالة وأرجون على أراضى المسلمين بالاندلس .

لقد كان ترك المسيحيون الاندلسيون من العوامل الأساسية التى قضت بتعجل انتهاء الدولة الموحدية أثر معركة العقاب إذ بدأت القوى الإسلامية تتساقط ، كما أن ثورة بنى غانية التى طال الصراع بينهم وبين بنى عبد المؤمن لأكثر من نصف قرن من الأسباب التى أنهكت الدولة وجعلها لاتستطيع أن تصرف همها وجهودها للقضاء على البؤر الشمالية الغربية المسيحية الإسبانية ، كذلك وقف العرب فى المغرب فى وجه الاتجاه الكامل للصراع الإسلامى المسيحى لكن الموحدين تمكنوا من اصطناع القبائل العربية سواء بنقلهم إلى المغرب الأقصى والعمل على استقرارهم به وادخالهم فى خدمتهم وضمهم للجيش ورغم ذلك فلم تكن جميع هذه القبائل تعطى الود الخالص للموحدين فما أن تضطرب الأحوال السياسية للدولة حتى نراهم ثائرين مؤيدين للحركات الخارجة على شرعية الدولة وتركزت ثورات القبائل العربية فى افريقية ومناطق استقرارها فى المغرب .

ولقد تعددت ثورات العرب منذ قيام الدولة الموحدية عام ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م فلم تمر فترة قصيرة إلا وكانت القبائل العربية فى المغرب وتعلن الثورة والخروج عن طاعة الخليفة وفى كل مرة من هذه المرات كانت الدولة الموحدية تبذل قصارى جهدها فى القضاء على هذه الثورات سواء بالمال أو الاستمالة بالهدايا .



بل أكثر من ذلك فانه اثناء فترة حكم الخليفة الناصر لدين الله فانه فى عام ٦٠٠ هـ / ١٢٠٤ م ظهر بجبال ورغة بالقرب من فاس ثائر هو محمد بن عبد الله العاضد وهو حفيد العاضد آخر الخلفاء الفاطميين فى مصر وذلك بعد ثلاث وثلاثين عاما من قضاء صلاح الدين على الدولة الفاطمية الشيعية بمصر لكن الدولة الموحدية تمكنت من القضاء عليه فى عهد الناصر لدين الله عام ٦١٠ هـ / ١٢١٣ م .

# الباب الخامس عشر

## الدولة الموحدية بعد الناصر لدين الله

### يوسف المستنصر ( ١٢٧ – ٦٢٠ هـ / ١٢١٥ – ١٢٢٤ م )

بعد هزيمة العقاب القاسية على المسلمين فى بلاد الغرب الإسلامية وعلى الموحدين والاندلسيين بصفة خاصة . فقد خلف أبو يعقوب يوسف بن محمد الناصر ابنه يوسف والذى تلقب بالمستنصر ، لكن عهده شهد ظهور الحروب الأهلية والمنافسات العائلية وقيام أقربائه عليه فى الاندلس والمغرب . بالإضافة إلى الخطر الأساسى للمسلمين فى الاندلس وهم مسيحو الاندلس إذ نجد أن ملك قشتالة وليون فارناندو الثالث الملقب بالقديس يستولى على نهر الوادى الكبير بما عليه من عواصم ومدن هامة مثل قرطبة وأشبيلية وقادس وشرس .

وفى عهد المستنصر ظهر ببلاد جزولة بالمغرب الأقصى رجلا من العبيديين ادعى الانتساب إلى العاضد آخر الخلفاء الفاطميين فى مصر وتسمى بالمهدى ووصلت قواته حتى فاس بمساعدة القبائل العربية ولكن عامل المستنصر على فاس تمكن من القضاء عليه رغم اعتماده على العناصر العربية المختلفة من بقايا الدولة الادريسية بالمغرب الأقصى فى مدينة فاس وما حولها والفاطميون وأتباعهم الذين سبق لهم النزوح من مصر إلى المغرب بسبب الصراع الدامى بين عناصر الجند من المغاربة والسودانيين والاتراك والعرب وغيرهم .

ولما توفى المستنصر بعد حكم دام ثمانى سنوات كانت فيها الدولة تتعرض للأخطار الداخلية والخارجية ولم تكن مواهبه ولا قواته ولا موارد الدولة تمكنه من القيام بأى عمل من شأنه أن يعيد نفوذ القوة للدولة ويجعل القبائل تخضع لها بالإضافة إلى أنه لم يتحرك نحو الاندلس لوضع حد لسقوط المدن والمعاقل الإسلامية فى تلك الديار الإسلامية .



وبعد وفاة المستنصر تولى الخلافة عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن (٦٢٠– ٦٢١ هـ / ١٢٢٤ م ) واتسم عهده بالفوضى وتفرق أمر الموحدين وظهر التصارع على السلطة بصورة واضحة فاستقل أبو محمد عبد الله بن يعقوب المنصور بأمر الموحدين بالاندلس وأيده بعض أعيانهم بالمغرب فخلعوا عبد الواحد وقتلوه بعد شهور من ولايته واستدعوا أبو محمد من الاندلس وتلقب بالعادل .

### أبو محمد عبد الله بن يعقوب المنصور ( العادل )
### ( ٦٢١ – ٦٢٤ هـ / ١٢٢٤ – ١٢٢٧ م )

استعان الخليفة العادل الموحدى بشيوخ العرب المستقرين بالمغرب الأقصى وخاصة الذين يتركزوا حول العاصمة مراكش بعد كان أعيانهم قد استدعوه من الأندلس وبهم استطاع دخول مراكش لكنه قاسى كثيرا من المتاعب وخاصة من العرب المستقرين فى المنطقة الممتدة ما بين سلا ومراكش بالإضافة إلى تخلى أعوانه عنه وأخذوا يغيرون على نواحى مراكش ولم يكن أمام الخليفة العادل من وسيلة إلا أن يدخل معهم فى صراع عسكرى فأرسل إليهم قواته كلها ولم تستطع أن تحقق نصرا حاسما لاسيما بعد أن تحالفت هذه القبائل مع قبائل عربية وبربرية أخرى بل مع بعض الموحدين الذين تعاونوا جميعا على خلعه فهاجموا مراكش بعد أن حاصروها حصارا قاسيا واستطاعوا بعد أن قطعوا عنها الامدادات أن يقتحموا قصر الخليفة العادل وأن ينهبوه وقتلوا العادل خنقا فى عام ٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م . وهكذا نلاحظ كيف أن الأمور فى الدولة قد أخذت تسير من سيئ إلى أسوأ وبدأت القبائل تستهين بالخليفة وكثير الخروج عليه بل قتله فى قصره وهكذا تكون أقدار الدول التى تقوم على أكتاف رجال أقوياء لكن سرعان ماتصاب برجال ضعفاء يخذلون أسلافهم ويضيعون ما بذلوا من جهد ومال ودماء من أجل اقامة الدولة .

## يحيى بن الناصر ( ٦٢٤ – ٦٢٧ هـ / ١٢٢٧ – ١٢٣٠ م )

تشجع ملوك النصارى ومضوا يستولون على الحصون الإسلامية دون مقاومة تذكر وذلك بعد الصراع الدامى بين خلفاء الموحدين عندما قام أبو العلا أدريس عامل أشبيلية بالمناداة بنفسه خليفة للموحدين منافسة لأبى زكريا يحيى بن الناصر الذى بويع فى مراكش فى ذلك الوقت وكذلك منافسا لأخيه أبى عبد الله محمد الذى كان واليا على مرسية بشرق الاندلس . فترك ولايته ومضى إلى مراكش ، لكن الموحدين كانوا قد أجمعوا على مبايعة زكريا يحيى بن الناصر ودخل مراكش وبايعته عرب الخلط بقيادة أميرها وذلك منافسا لأدريس بن المأمون بن المنصور الذى رحب بذلك وأشاد بالعرب . وبينما كانت جيوش الموحدين تهاجم العرب ( عرب الخلط ) لترغمهم بالقوة على المبايعة أخذ يحيى بن الناصر فى التنديد والتعريض بهم . لكن القوات الموحدية فشلت فى كسر شوكة العرب الثائرين الذين أخذوا فى شن الغارات على أطراف مراكش .

والذى يقلب صفحات تاريخ تلك الفترة من الدولة الموحدية يدرك مدى الخزى والعار والاستهانة بديار المسلمين من أجل تحقيق مصالح شخصية على حساب الشعوب والعقيدة والمقدرات وهكذا توضع أمور الدول فى يد أشخاص يخنون الله ورسوله وقرآنه وشعوبهم بعد أن ماتت ضمائرهم . فنجد هنا أدريس المأمون بن المنصور يزحف من الاندلس ويقرر العبور إلى المغرب معتمدا على محالفة العرب ومعاونة قوات مسيحية من جنود قشتالة يقدر عددها بخمسمائة فارس ( مدى الجبن والخزى والعار ) مقابل التنازل عن عشرة حصون بالاندلس لمملكة قشتالة ، بل أكثر من ذلك قبوله القيام ببناء ( كنيسة بمراكش حيث تجاور جامع القرويين ) حتى يتمكن المسيحيون من مباشرة شعائرهم الدينية وتصارع المتنافسان على السلطة بالقرب من مراكش لكن قوات يحيى بن الناصر هزمت عام ٦٢٧ هـ / ١٢٣٠ م . وانسحب يحيى بأتباعه ودخل المأمون مراكش وقتل بعضا من شيوخ الموحدين وأذن للمسيحيين القادمين معه ببناء



كنيسة وسط مراكش . لكن فى غياب المأمون عن مراكش فى عام ٦٢٩ هـ / ١٢٣٢ م لصراعه مع أخيه موسى عمران هاجم يحيى بن الناصر وأعوانه من العرب مراكش ودخلوا المدينة وهدموا كنيسة النصارى لانها لم تكن لها رعية مسيحية تؤدى بها الصلاة المسيحية ولم تكن هناك جالية مسيحية مغربية وانسحبوا إلى مقرهم بجوار مراكش ولما علم المأمون بما حدث رجع إلى مراكش ولكنه توفى فى الطريق عام ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢ م .

## الخليفة المأمون بن المنصور

## ( ٦٢٧ – ٦٣٠ هـ / ١٢٣١ – ١٢٣٢ م )

تكتمت زوجته التى كانت فى الأصل جارية مسيحية أسبانية خبر وفاته وأخذت البيعة لابنها الرشيد .

## الرشيد بن ادريس المأمون بن المنصور

## ( ٦٣٠ هـ – ٦٤٠ هـ / ١٢٣٢ – ١٢٤٢ م )

وكان المأمون والد الرشيد هذا قد حمل معه من قوات الاندلس ما استطاع وترك البلاد عارية بدون حماية وعبر إلى مراكش ليطالب بالخلافة فأخذت المدن الإسلامية بالاندلس تسقط وتنهار وانهار خط الوادى الكبير وفيما بين عام ٦٣٣ – ٦٤١ هـ/ ١٢٣٦ – ١٢٤٣ م سقطت قرطبة وأشبيلية وجيان ومرسية وبلنسية وجزر البليار فكانت تصفية بل مخزية ويكفى أن نذكر أن قرطبة التى كانت عاصمة الخلافة الأموية والاندلس الزاهرة سقطت فى ٢٢ شوال ٦٣٣ هـ / ٢٩ يونيو ١٢٣٦ م فى يد فرناندو الثالث ملك قشتالة الملقب بالقديس دون أن يدافع عنها أحد وبذلك صار للمسيحيين منفذ على مضيق جبل طارق بعد أن كان التحكم فيه للملسمين فقط ، أما ملك

أرجون ( خايمى الأول الملقب بالفاتح ( ١٢١٣ – ١٢٧٦ م ) فقد أغار على شرق الاندلس وحاصر مدينة بلنسية ولم تلبث بلنسية أن سقطت فى يد العدو وفى نفس العام الذى سقطت فيه بلنسية هاجم أسطول جنوا ميناء سبتة لفصل المغرب عن الاندلس والتحكم فى مضيق جبل طارق من جانبيه لكن المحاولة فشلت لكنهم كرروا المحاولة مرة ثانية فى مائة مركب للانتقام لضحاياهم فى المرة السابقة وحاصروها ونصبوا المجانيق عليها لكنهم لم يتمكنوا منها واضطروا لرفع الحصار عنها .

وفى اثناء ولاية الرشيد فانه لجأ إلى استمالة جميع زعماء الموحدين ليقلل من نفوذ العرب لكن فى نفس الوقت كان العرب يتعاونون فيما بينهم على التآمر والثورة على الرشيد بعد أن خدع العرب وقتل كبار شيوخهم فما كان من العرب إلا أن يلتفوا حول يحيى بن الناصر مبايعين اياه مرة أخرى زاحفين به لحصار مراكش وحاصروا العاصمة وذاق المحاصرون فى المدينة أشد العذاب لان الرشيد كان يستعين بالمسيحيين وفرسانهم فى قواته ولما رأى الرشيد شدة الحصار دفع هذه القوات المسيحية وبعض القوات الموحدية لمواجهة العرب ولكن العرب حاصرتهم وأفنت جموعهم . ولقد عمت الفوضى فى العاصمة أثر هذه الهزيمة واستهان السكان بالخليفة وجنوده مما دفعه إلى الهروب من المدينة إلى سجلماسة ودخل يحيى بن الناصر العاصمة .

لكن الرشيد تحالف مع أمير عرب سفيان وخرج عام ٦٣٣ هـ / ١٢٣٥ م ليهاجم مراكش واستمرت الحرب مع قوات يحيى عشرة أيام انتهت بهزيمته وقواته ودخول الرشيد للعاصمة مرة أخرى وكان من أثر هذه الهزيمة ان انفضت قبائل العرب من الخلط من حول يحيى بن الناصر فلجأ يحيى فارا إلى عرب المعقل الذين قتلوه وحملوا رأسه إلى الرشيد بفاس لكن الرشيد أرسلهم إلى مراكش حيث أمر بقتل جميع من قتلوا الخليفة السابق يحيى بن الناصر . وكان قتل يحيى بن الناصر سببا فى دخول العرب فى طاعة الرشيد فما كان منه إلا أن استدعاهم حيث قبض على رؤسائهم عام



٦٣٤ هـ / ١٢٣٦ م وأمر بقتلهم وبذلك كسر الرشيد شوكة العرب ونقل بعضا منهم إلى السوس بعيدا عن مراكش . لكن الرشيد توفى عام ٦٤٠ هـ / ١٢٤٥ م فخلفه أخوه على السعيد ( أبو الحسن ) ٦٤٠ – ٦٤٦ هـ / ١٢٤٢ – ١٢٤٨ م وكان أول عمل قام به هو القبض على معظم شيوخ الموحدين وصادر أموالهم وأعاد العرب من بلاد السوس إلى مراكش وقرب أمراء العرب إليه حتى اتخذ مستشاره الخاص من العرب وحدث فى عام ٦٤٢ هـ / ١٢٤٤ م أن ثار عامل سجلماسة من قبل الموحدين وخرج عن طاعتهم وبايع الحفصيين فى تونس لذا فان السعيد هاجم سجلماسة . بل إنه فى نفس العام قام بالقبض على كبار رجال الدولة وفى عام ٦٤٣ هـ / ١٢٤٥ م أعلن عرب سفيان ثورتهم على الخليفة الموحدى السعيد مما اضطر السعيد إلى طلب عون بعض القبائل العربية الأرى وتمكن السعيد من هزيمة بنى مرين (المرنيين ) .

ولقد كان من أثر تحالف الحفصيين فى تونس مع بنى عبد الواد ضد الموحدين أن اندفع السعيد لتحسين علاقاته مع عرب بنى سفيان وقام السعيد عام ٦٤٥ هـ / ١٢٤٧ م بمهاجمة تلمسان وانسحب منها بنو عبد الواد إلى شعاب الجبال بجوار وجدة لكن العرب انقلبوا على السعيد واستولوا على أمواله وقتلوا زعيم سفيان وتفرقت القوات الموحدية وبعد قتل السعيد تولى خلافة الموحدين الخليفة .

## أبو حفص عمر وتلقب بالمرتضى (٦٤٦ – ٦٦٥هـ/ ١٢٤٨ – ١٢٦٦م ):

وكان هذا الأمير الذى دامت فترة حكمه ثمانية عشرة عاما ميلاديا يقيم فى مدينة سلا حيث كان واليا على حصن الفتح فأرسلوا إليه واستقدموه وبايعوه واستقبلوه أحسن استقبال وعلى رأسهم شيوخ عرب المغرب .

وكان أول عمل قام به الخليفة أبو حفص عمر هو تعيين مشايخ العرب على اماراتهم وكسب ودهم ومن ثم توجه إلى مراكش ببلاطه وحاشيته وهيئته الخلافة

ووزرائه وأمراء العرب . وقد شهدت فترة حكمه الأولى بداية ظهور قوة بنى مرين إذ استطاعوا الاستيلاء على حصن تازا ومكناسة وفاس وضواحيها بعد مقتل الخليفة السابق السعيد مباشرة وذلك عام ٦٤٧ هـ / ١٢٤٦ م واقتطعوا من الخليفة كثيرا من أنحاء المغرب ولم يبق غير بلاد الحوز من سلا إلى السوس واستولى أبو بكر المرينى على بلاد رباط الفتح مما دفع الخليفة المرتضى إلى الخروج لمحاربة « بنى مرين » وعلى الرغم من أن مجلس السلام الذى عضده بنى مرين وبعض زناتة والعرب طالبوا بالصلح مع المرتضى إلا أن الخليفة الموحدى رفض الصلح لانه لم يجد مبررا لوجود خليفتين فى اقليم واحد والتقى الجيشان إلا أن ظروف المعركة جعلت الصلح أفضل لقائد جيش الخليفة الموحدى بعد أن كان قد رفضه هو ووزراءه بمراكش . وفى عام ٦٥١ هـ / ١٢٥٣ م هرب أحد أعوان وزير المرتضى إلى السوس وتحصن بجبالها وتمكن من هزيمة جيوش المرتضى التى أرسلها إليه واستمرت سيطرته على بلاد السوس طوال عهد المرتضى وفى عام ٦٥٢ هـ / ١٢٥٤ م ثارت بعض القبائل العربية فأرسل الخليفة المرتضى إليهم جيشا استطاع القضاء على ثورة هؤلاء الأعراب واستدعى المرتضى كبير مشيخة عرب الخلط إلى مراكش وقتلهم انتقاما منهم لدورهم فى قتل السعيد الخليفة السابق وفى العام التالى ٦٥٣ هـ / ١٢٥٥ م جهز الخليفة المرتضى جيشا يقدر بثمانين ألف فارس مدن الموحدين والعرب وغيرهم لاسترجاع فاس من قبضة بنى مرين لكن هذه الحملة فشلت . لكن فى عام ٦٥٥ هـ / ١٢٥٧ م تم استقطاع سجلماسة من خلافة الموحدين بعد أن استولى محمد القطرانى المرينى بمساعدة عرب المعقل عليها ولقد شهدت الأعوام التالية استفحال أمر وخطر بنى مرين حيث تقدموا للاستيلاء على سهول تامسنا فخرج الموحدون إليهم وتقابلوا بوادى الربيع فى عام ٦٦٠ هـ / ١٢٦٢ م وانهزم الموحدون بسبب بعض الخيانات من جانب القبائل التى انحازت إلى بنى مرين .

وبعد ذلك زاد اعتماد الخليفة المرتضى على عرب سفيان لكن حدث انقسام فى





صفوف عرب سفيان مما جعل بعضا منهم يلجأ إلى بنى مرين لكنهم عادوا مرة أخرى إلى طاعة الموحدين مما دفع الخليفة المرتضى إلى القبض عليهم فقتلهم لتذبذبهم فى الطاعة بين الموحدين وبنى مرين .

وإلى جانب الثورات العربية والحروب ضد بنى مرين وبعض المصاعب والمتاعب التى كانت تواجه الخليفة الموحدى المرتضى فإنه لم يسلم من أذى بعض أقربائه إذ تآمر عليه قائد جنده وابن عمه أبو العلا الملقب بأبى دبوس وتحالف مع بنى مرين الذين أمدوه بالآلات والرجال ضد الخليفة؛ مما دفع الخليفة المرتضى إلى القبض على بعض شيوخ العرب خوفا من مساندتهم ومبايعتهم لابى دبوس ورغم ذلك فقد انحاز الكثير من قومهم إليه مما دفع الكثير من العرب إلى السير جميعا نحو مراكش فى عام ٦٦٥هـ / ١٢٦٦ م وتسور العرب سور المدينة وفر المرتضى إلى أزمور حيث قبض عليه وأرسل أبو دبوس من قتله واستقل بالحكم وتلقب أبو دبوس بالواثق بالله والمعتمد على الله ٦٦٥ – ٦٦٨ هـ / ١٢٦٦ – ١٢٦٩ م . على أن استيلاء أبى دبوس على الحكم وتأييد بعض القبائل العربية له لم ينقذ دولة الموحدين من الانهيار أمام هجمات بنى مرين الذين احتلوا العاصمة مراكش عام ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩ م . وبهذا سقطت دولة الموحدين بعد فترة طويلة من الصراع والانحدار والضعف رغم أن الدولة كانت قد انتهت فعلا فى عام ١٢١٢ م وليس عام ١٢٦٩ م إذ إن الدولة استمرت تمارس وجودها طوال سبعة وخمسين عاما بعد معركة العقاب ولكنها لم تكن دولة بمعنى الكلمة إذ بدأت عوامل الانهيار والانقسام والتفكك تنتاب الدولة وأخذت تتهاوى مع الأيام حتى كانت أيامها الأخيرة على أيدى بنى مرين ومن قبلهم بنى عبد الواد فى تلمسان وبنى حفص فى تونس .

## الموحدون وبناء القوة البحرية
## ( ٥٤٠ – ٦٦٨ هـ / ١١٤٥ – ١٢٧٠ م )

ورث الموحدون دولة المرابطين وكذلك ورثوا أسطولهم القوى وذلك بعد انضمام أمير البحر على بن عيسى بن ميمون قائد أسطول المرابطين وبذلك صارت للموحدين قوة بحرية وأسطول بعد فترة قصيرة من تولى الخليفة الموحدى الأول عبد المؤمن . ولقد قام عبد المؤمن بن على منذ عام ٥٤٦ هـ / ١١٥١ م بعمليات عسكرية بحرية واسعة النطاق لتوحيد المغرب لأول مرة منذ الفتح العربى له ولقد شارك الأسطول الموحدى مشاركة فعالة فى العمليات الحربية التى قام بها الموحدون لاسيما فى الفاطمية «المهدية » التى كانت محاطة بالبحر من معظم جهاتها وكان قائد البحر القائد المشهور محمد بن عبد العزيز بن ميمون وهو من بيت مشهود له بالجهاد فى البحر ولهم قدرا فى قيادة البحر وكان الخليفة الموحدى عبد المؤمن قد ركب سفينة حربية من أسطوله وطاف بالمدينة من ناحية البحر تشجيعا للمقاتلين .

ولقد دخل الأسطول الموحدى فى صراع مع أسطول ملك صقلية النورماندى وليام بن رجار ( ١١٥٤ – ١١٦٦ م ) إذ أرسل الخليفة عبد المؤمن أسطولا كبيرا من مائة وخمسين سفينة غير الطرائد وكان الاسطول الفرنجى يقصد المهدية فخرج إليهم أسطول عبد المؤمن فدخل الرعب قلوبهم فانهزمت شوانى الفرنج وتتبعهم أسطول الموحدون وعاد أسطول المسلمين ظافرا .

ولقد وجه عبد المؤمن عنايته نحو انشاء وتعمير المراسى ودور الصناعة المنتشرة على طول السواحل المغربية والاندلسية ولاشك أن اهتمام الخليفة عبد المؤمن بانشاء بحرية قوية كان ضرورة حتمية فرضته عليه طبيعة حركة الموحدين والطابع الدينى



الإسلامى والزعامة الإسلامية ، ومن ثم استطاع ان ينشئ أقوى أسطول فى البحر المتوسط وفى ذلك يقول اندريان فى كتابه تاريخ افريقيا الشمالية .

لقد أنتجت دور صناعة السفن أسطولا من أربعمائة قطعة وفى ذلك دلالة على مدى الاستعداد والقوة والرخاء .

كذلك اهتم عبد المؤمن بوسائل الدفاع الساحلية لمنع نزول الصليبيين الأراضى المغربية فأنشأ القصور والقلاع والرباطات ذات المناور .

على أن العمل العسكرى العام الذى توج أعمال عبد المؤمن هو تلك المدينة البحرية التى بناها على سفح جبل طارق عام ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م وقام ببناء هذه القلعة البحرية عدد كبير من الاندلسيين . وليس أدل على اهتمام عبد المؤمن برجال البحرية الموحدية من قيامه بانشاء بحيرة خاصة بالقرب من قصره وأعد فيها طائفة من السفن الكبيرة والصغيرة ليتمرن الشباب فيها على القتال فى البحر والتجديف وقيادة السفن والوثوب إلى سفن الأعداء .

وهكذا استطاع المجاهد الموحدى عبد المؤمن بن على أن يخلق من المغرب العربى الإسلامى قوة موحدة مجاهدة فى البر والبحر تمهيدا لغزو الاندلس والوقوف ضد التقدم المسيحى فى الأراضى الإسلامية الاندلسية وفى عهد أبو يعقوب يوسف ( ٥٥٨ – ٥٨٠ هـ / ١١٦٣ – ١١٨٤ م ) فقد تفوق الأسطول الموحدى فى عهده تفوقا ملحوظا وانتهت أساطيل المسلمين على عهده فى الكثرة والاستجادة لم تبلغه من قبل ولا بعد . هذا ويلاحظ أن مهمة الأسطول الموحدى منذ عصر عبد المؤمن بن على لم تقتصر على جهاد الصليبيين بل أخذ على عاتقه أيضا مهمة قمع حركة القرصنة . وقد شارك الأسطول الموحدى فى معظم العمليات الحربية التى دارت ضد القوى المسيحية فى الاندلس وقد نشبت عدة معارة بحرية أحرز الأسطول الموحدى فيها كثيرا من التفوق والانتصار وخاصة فى غرب الاندلس حيث مملكة البرتغال .

وفى عهد الخليفة أبو يعقوب يوسف التحمت أساطيل الموحدين بأساطيل البرتغال فى معارك بحرية وقد حدث فى عام ٥٧٥ هـ / ١١٧٩ م أن اشتدت هجمات البرتغاليين فولى الخليفة يعقوب بن يوسف أمير البحر غانم بن مردنيس ، قاد الاسطول وعبر البحر غازيا إلى لشبونة وهزم القطع البحرية البرتغالية وعاد إلى سبتة وفى عام ٥٧٧ هـ / ١١٨١ م هاجم أسطول الموحدين الأسطول البرتغالى .

ولقد كان للأسطول الموحدى سبق السيف فى الحملات الحربية ضد البرتغال إذ أن عهد الخليفة المنصور قد شهد عام ٥٨٧ هـ / ١١٩١ م انتصار الأسطول الموحدى على الأسطول البرتغالى وتم أسر عدة سفن من أسطوله وكذلك أسر جميع من كان عليها من البحارة كذلك شاركت البحرية الموحدية خلال هذه الحملة بنقل المعدات وآلات الحصار والتعاون مع القوات البرية فى الهجوم على الثغور الساحلية البرتغالية وتم للأسطول الموحدى الاستيلاء على القاعدة البحرية البرتغالية فى قصر أبى دانس عام ٥٨٧ هـ / ١١٩١ م ويبدو أن قوة البرتغال البحرية قد انهارت تماما بعد هذه الحملة بدليل إننا لم نعد نسمع بعد ذلك عن دخولهم فى حرب ضد المنصور .

ولعل أكبر دليل على تفوق أسطول الموحدين ووصوله إلى سمعة عالية وعالمية فى ذلك الوقت ووصوله إلى مرتبة أكبر بحيث صار أقوى أسطول فى العالم الإسلامى ما ترويه المصادر من أن عامل مصر صلاح الدين الأيوبى أرسل فى عام ٥٨٦ هـ / ١١٩٠ م سفيرا من قبله وهو الأمير عبد الرحمن بن منقد إلى خليفة المغرب يعقوب المنصور بطلب اعانته بالأساطيل البحرية لتحول بين الصليبيين وبين امداد النصرانية بالشام ولمنازلة ثغور عكا وصور وطرابلس التى سقطت فى أيدى الصليبيين وعلى الرغم مما قيل من أن المنصور قد رفض هذا الطلب لان صلاح الدين الأيوبى لم يلقبه فى رسالته بلقب أمير المؤمنين أى لم يعترف بخلافة الموحدين . لكن هناك بعض المصادر تذكر أن الخليفة المنصور الموحدى قد شارك فى حركة الجهاد الإسلامى ضد الصليبيين



فى بلاد الشام بأن أرسل لصلاح الدين مائة وثمانين سفينة حربية لمنع الصليبيين من الوصول إلى سواحل الشام ولمساعدة اخوانهم المشارقة فى صد الهجوم الصليبى . ويذكر ابن سعيد المغربى أن المغاربة المقيمين فى مصر اشتركوا فى العمليات البحرية التى كان يقوم بها الأسطول المغربى استنادا إلى الفكرة التى كانت شائعة فى الشرق عن اختصاصهم بهذا العمل البحرى لمعرفتهم بمعاناة الحرب والبحر . كذلك ليس أدل على دور المنصور الموحدى فى تنمية قواتهم البحرية من تلك الرسالة التى أرسلها له ألفونسو الثامن ملك قشتالة يطلب فيها منه أن يرسل له الأسطول الموحدى من المراكب والشوانى والطرائد والمسطحات كى يجوز إليه بجيشه ويقاتله فى بلده . وأن تلك الرسالة ما هى إلا دليل حيوى على قوة الأسطول الموحدى وسمعته العالية وهيبة ملك قشتالة من استخدامه لسفنه خوفا من اغراقها على أيدى القوات الموحدية .

كذلك شارك الأسطول الموحدى فى محاربة بنى غانية بقايا المرابطين عام ٥٩٦هـ / ١٢٠٠ م عندما حاول عبد الله بن غانية استعادة جزيرة يابسة إحدى جذر البليار من أيدى الموحدين فتحرك الأسطول الموحدى بقيادة أمير البحر ابن ميمون بعد أن استنجد به أهلها واشتبك مع ابن غانية فى معركة بحرية انتصر فيها الموحدون واستولى على طرادين من ابن غانية وخرج من المعركة خائب الوجه .

كذلك فان الخليفة الموحدى الناصر لدين الله ابن المنصور ( ٥٩٥ – ٦١١ هـ / ١١٩٩ – ١٢١٤ م أراد أن يستولى على كل جزر البليار الباقية ( ميورقة ، منورقة) بعد السيطرة السابقة على يابسة . فأعد أسطولا بقيادة عمه أبى العلاء ادريس بن يوسف بن عبد المؤمن وكان الأسطول يتكون من ثلاثمائة جفن واستولى الأسطول على ميورقة فى ٢٤ ذى الحجة عام ٥٩٩ هـ / ١٢٠٣ م ثم بعد ذلك تحرك الأسطول الموحدى بقيادة أبى العلاء ادريس إلى الجزيرة الثانية ميورقة واستطاع الاستيلاء عليها وبذلك تم للموحدين السيطرة على الجزر الشرقية أو جزر البليار

(يابسة ، ميورقة ، منورقة ) .

وكذلك استطاع الأسطول الموحدى عام ٦٠٧ هـ / ١٢١٠ م أن يحرز نصرا باهرا على اسطول أراجون الأسبانية بقيادة أبى العلاء ادريس نفسه وكانت أحسن معركة للمسلمين حيث أوقع خسارة فادحة بقلوب مسيحى برشلونة .

لكن معركة العقاب عام ٦٠٩ هـ / ١٢١٢ م وضعت حدا لقوة الأسطول الموحدى فلم نعد نسمع عن معركة بحرية فعالة يقوم بها الأسطول ضد القوى الإسبانية المعادية .

ويتحدث ابن خلدون عن أسطول الموحدين فيقول عنه استفحلت دولة الموحدين فى المائة السادسة ( القرن السادس الهجرى ) وملكوا العدوتين ( المغرب والاندلس ) وأقاموا خطة الأسطول على أتم ما عرف وأعظم ما عهد وكان قائد أسطولهم أحمد الصقلى ثم عين ابنه الذى أجاز إلى مراكش فتلقاه الخليفة يوسف بن عبد المؤمن وقلده أمر الأسطول كما كان والده أحمد الصقلى مجاهد الأمم النصرانية أحسن جهاد وكانت له آثار وأخبار ومقامات مذكورة فى دولة الموحدين وانتهت أساطيل المسلمين فى عهده فى الكثرة والاستنجاد والتى ما لم تبلغه من قبل ولا بعد فيما عهدناه .

كذلك يضيف ابن خلدون مؤيدا قوة أسطول الموحدين بأنه لما قام صلاح الدين بن يوسف بن أيوب ملك مصر والشام لعهده باسترجاع ثغور الشام من يد أمم النصرانية وتطهير بيت المقدس تتابعت أساطيلهم بالمدد لتلك الثغور من كل ناحية قريبة لبيت المقدس الذى كانوا قد استولوا عليه فأمدوهم بالعدد . ولقد أوفد صلاح الدين إلى أبى يعقوب المنصور سلطان المغرب لعهدة من الموحدين رسوله عبد الكريم بن منقذ من بيت بنى منقذ هذا إلى ملك المغرب طالبا مدد الأساطيل لتحول فى البحر بين أساطيل الأجانب وبين مراميهم من امداد النصرانية بثغور الشام . لكن لما هلك أبو يعقوب



المنصور واعتلت دولة الموحدين واستولت الأمم المسيحية على أكثر بلاد الاندلس وألجأوا المسلمين إلى سيف البحر وملكوا الجزائر التى بالجانب الغربى من البحر الرومى واشتدت شوكتهم وكثرت فى البحر الرومى أساطيلهم وتراجعت قوة المسلمين فيه ثم تراجعت بعد ذلك قوة المسلمين فى الأساطيل لضعف الدولة .

وهكذا نرى كيف أن دولة الموحدين وهى فى عنفوان قوتها ولا سيما فى عصر عبد المؤمن بن على وابنه أبى يعقوب يوسف ثم حفيده أبى يوسف يعقوب المنصور صاحب انتصار معركة الأرك كانت البحرية الموحدية فى عهد ازدهارها القوى كذلك استمرت تلك القوة البحرية أيضا تمارس نشاطها البحرى فى عهد سلفه الناصر لدين الله الذى وضعت معركة العقاب التى وقعت أحداثها يوم الاثنين ١٥ صفر ٦٠٩ هـ / ١٧ يوليو ١٢١٢ م نهاية فاصلة للقوة البحرية الموحدية التى لعبت دورا هاما لايقل عن دور القوات البرية فى حركة الجهاد الإسلامى إن لم تفقها وبذلك اسدل الستار على دور البحرية الموحدية مع معركة العقاب .

# الباب السادس عشر

## مآثر الموحدين الحضارية فى المغرب والاندلس

( ٥٤٠ – ٦٦٨ هـ / ١١٤٥ – ١٢٧٠ م )

لايوجد أدنى خلاف فى أن دولة الموحدين التى مارست وجودها السياسى والاقتصادى والثقافى والحضارى فى المغرب والاندلس طوال قرن وربع من الزمان استطاعت فى تلك الحقبة الزمنية القصيرة أن تترك بصماتها واضحة جلية فى شتى الميادين والمحافل ، بل انها ضربت بسهم وافر ومتميز فى هذه الميادين التى قد تكون الثمار أطول وأدوم لو قدر لها أن تعيش عمرها الزمنى بلا مشاكل داخلية ، ذلك لانها إذ كانت تواجه الخطر الصليبى فى الاندلس فان الخطر الداخلى من العرب والغز وبنى غانية وثورة القبائل البربرية الأخرى قد حال دون تفرغ الدولة للميادين المختلفة إنما كان التوجه الأكبر عسكريا حيث أنها ما كادت تفرغ من القضاء على ثورة أو تمرد أو هجوم على المدن حتى تجد نفسها تواجه نفس ما حدث فى الماضى .

لكن مهما يكن الأمر فإنها تعتبر من أعظم الدول فى التاريخ الإسلامى ذلك لانها بلغت بتاريخ المغرب ذروته خلال العصور الوسطى وتمكنت من تحقيق وحدته وحكمته بالفعل لفترة طويلة من طرابلس شرقا إلى المحيط الأطلسى غربا ومن ساحل البحر الأبيض المتوسط شمالا إلى مشارف افريقية المدارية جنوبا هذا بالإضافة إلى الاندلس . فانه إذا كان فى القرن الخامس الهجرى قد تقاسم المغرب ثلاث دول إلا أن الموحدين فى القرن السادس والسابع وحدوه ومغرب القرن السادس هو ما بسط الموحدون عليه سلطتهم السياسية وهو ما اصطلح على تسميته بالمغرب الأقصى والمغربين الأوسط والأدنى وإذ كانت الاندلس تتميز عن المغرب بتقدمها الحضارى إلا أنها منيت فى القرن السادس الهجرى بسيطرة البلاد الغربية عليها سياسيا . كذلك شهدت فترة حكم



الموحدين صراعا بين مسلمى المغرب ونصارى إسبانيا يدور حول السيطرة على وادى بانة فالحصون الممتدة على هذا الوادى أو قريبة منه تكون تارة فى قبضة هؤلاء وطورا فى يد أولئك كقلعة رباح وقونكة بل إن بطليموس أصبحت فى القرن السادس الهجرى ثغرا يدافع عنه بعد أن كانت أيام الطوائف مركز إمارة مستقلة ، بل إن المنطقة غربى بطليوش شهدت معارك عنيفة من جانب الموحدين لاستردادها خاصة شنترين ، فى حال الموحدين ويلاحظ أن قصر أبى دانس هو الحدود بين باجة الإسلامية واشبونة النصرانية .

وقد قام الموحدون عندما فتحوا الاندلس بالسير على نهج أسلافهم فأسكنوا الموحدون مدن الاندلس وثغوره فبدأ عبد المؤمن هذه السياسة واستمر خلفاؤه عليها . كذلك قام الموحدون باتباع نظم سياسية واقتصادية وعسكرية مع العرب لترحيلهم من البلاد الشرقية إلى البلاد الغربية والاندلسية فقد أراد عبد المؤمن استثمار طاقات البدو هؤلاء فى مجابهة نصارى إسبانيا كما عمل على استغلال القبائل العربية فى عملية حفظ التوازن القبلى فى دولته المصمودية وهو غريب عن المصامدة .

ولقد كان أول مظهر من عملية نقل العرب إلى الأرجاء الغربية هو نشر المظاهر الحضارية العربية ونشر اللسان العربى على نطاق واسع . فقد أنشأ عبد المؤمن هيئة أشياخ العرب إلى جانب هيئتى أشياخ الموحدين والاندلسيين وذلك لكى يكون حكم الخلافة بالشورى . ذلك قام من تلى عبد المؤمن فى حكم البلاد مثل يوسف ، والمنصور والناصر بنقل أعداد كبيرة من العرب لنشر اللسان العربى والحضارة الإسلامية.

ونتيجة لهذه السياسة فقد نقل خلفاء الموحدين الأربعة الأول أعداداً من العرب إلى البلاد الغربية الاندلسية وقد أنزل عبد المؤمن العرب فى قرطبة وأشبيلية وشريش وكان ابنه يوسف يرسل مجموعات بصورة مستمرة إلى ثغور الاندلس ولما أخذ يوسف شرق الاندلس من بنى مردنيش أسكن العرب فى بلنسية والأصح أن تعدد العرب الذين

نقلهم عبد المؤمن ويوسف إلى الاندلس كان كبيرا كما أنه فى عام ٦٥٠ هـ / ١١٦٥ م أرسل يوسف حملة من العرب إلى الاندلس لحمايتها ولقد ظل للقبائل العربية وجود قوى فى المناطق الساحلية والسهول لاسيما فى وادى سبو ووادى أم ربيع وبكالة وازمور ونتيجة لهذه الموجة العربية فقد تعربت بادية البلاد الغربية فطبعت بالطابع العربى وهذا أول مظهر حضارى إسلامى عربى من جانب الموحدين لطبع المغرب والاندلس بالصبغة العربية ولم يكن هذا الهدف من نقل العرب إلا لنشر الطابع الحضارى العربى وتعريف تلك البلاد .

وسار المنصور على سياسة أسلافه فى إرسال العرب إلى الاندلس حياطة لها من النصارى إلى جانب سياسة التوطين التى اتبعها فى البلاد الغربية لطبع البلاد بالطابع العربى ونشر اللسان العربى ويبدو أن وجود العرب مع قبائل الموحدين فى الاندلس كان دافعا لخوف العناصر المسيحية للدخول فى صراع معهم .

ولما بسط الموحدون سيطرتهم على المغرب كله تبدل مفهوم التوحيد واطمأن الناس على أموالهم واقتنوا الدور والضياع وازداد زحف الاندلسيين نحو البلاد المغربية مشترين للضياع بسبب الاستقرار الذى شهدته البلاد وربما اشتروا فى الاندلس ذاتها للسبب نفسه فى بعض الأوقات .

وقد أولت الدولة الموحدية أولى اهتمامها بالزراعة فقد أمر عبد المؤمن أهل البلاد الغربية بالعودة إلى أوطانهم وفلاحتها وقد اتسعت الزراعة فى المغرب كله وعم الرخاء خاصة فى خلافتى يوسف والمنصور . وكان عبد المؤمن قد لعب دور الحاكم الصالح فمسح جميع الأراضى من برقة حتى المحيط وأخرج منها الجبال والأنهار والبحيرات المالحة والصحروات ووضع الخراج على ما بقى وحتم على كل قبيلة مبلغا معينا من الحبوب أو المال كل عام .

وفى الاندلس حاول الموحدون نقل الصراع إلى مناطق نصارى الاندلس وذلك



محافظة على المصالح الاقتصادية للمسلمين وبذلوا جهودا فى إقامة الحصون وتجديد المدن بل انه نتيجة لهذه الحروب تقلصت مساحات الزراعة فى شرق الاندلس وغربها وفى قرطبة وبطليموس ومما يدل على عدم استقرار الزراعة فى الاندلس أن الأزواد ظلت ترد إليها من البلاد الغربية . وقد ساعد ذلك على امتداد الأزمة المالية إذ أن الدولة الموحدية ضاعفت من التزامات الدولة العسكرية وأصبحت الدولة تفرض على الرعايا فى المغرب والاندلس عدد الجند الذى يصد عدوان نصارى إسبانيا بسلاحهم ونفقاتهم .

ومن الناحية المالية فانه يبدو أن الموحدين قد اقتصروا على الزكاة والعشور وأخماس المعادن والغنائم والخراج وذكر عبد المؤمن أيام الثورة وبعد قيام الدولة فانه طلب من الأهالى طاعة الموحدين والا يطالبون إلا بما توجبه السنة النبوية وتطلبه والتزم يوسف والناصر بهذه السياسة ولم يرد أن الموحدين قد فرضوا شيئا إلا ماجاء فى الكتاب والسنة .

هذا بالإضافة إلى أن الموحدين لم يكونوا فى حاجة إلى موارد جديدة عندما تنتابهم ضائقة مالية بل كانوا فى أشد الحاجة إلى تنظيم الجباية وهذا يتوافق مع تنظيمات الموحدين ونظم دولتهم التى قامت على التنظيم القبلى .

ولقد اهتم عبد المؤمن وخلفاؤه خلال القرن السادس / الثانى عشر بتعقب عمال الجباية ومحاسبتهم فكانوا يسألون الرعية عنهم ويبدو أن هذه السياسة كانت من أسباب تشجيع الناس على الزراعة والتعلق بالدولة الموحدية وقد تيسر محاسبة العمال على أعمالهم فلا يعتدون على الناس ظلما ولاينهبون أموال الدولة وإن فعلوا نكبوا .

هذا بالإضافة إلى قيام الموحدين بنقل عمال الجباية من مكان إلى آخر . وقد شهد العصر الموحدى جهودا كبيرة لتوفير المياه جلب عبد المؤمن المياه إلى مراكش وسلا والرباط وجلب يوسف المياه إلى أشبيلية وفاس وسبتة والرباط وفعل المنصور نفس الشئ فى مراكش وفاس وجلبها الناصر إلى فاس أيضا وكانت المياه تحفظ فى آبار أو

«برك » أو صهاريج بالإضافة إلى أن الموحدين قد شيدوا نواعير خاصة على نهر أشبيلية ولا يستبعد أن يكونوا قد استفادوا من خبرتهم فى تشييد السدود لأغراض عسكرية فى أعمال الرى أيضا .

وقد كثر اهتمام الناس بالرأى فشيدوا النواعير وحفروا الآبار وفرعوا النهيرات جداول ومن ذلك فقد زادت الأراضى الزراعية وقد أنشأ الموحدون بحيرات كثيرة فى السهول والجبال فى شتى أقسام المغرب الثلاث وقد شجع الموحدون الناس على الزراعة وأخذوا يزرعون أراض لم تكن زراعية وبذلك الدخل عم الرخاء فى شتى البلاد تحت حكم الموحدين الذين كانت فترة حكمهم من أحسن فترات التاريخ الإسلامى فى المغرب إذ ساعد الرخاء الاقتصادى وكثرة الدخل على التقدم الحضارى فى مختلف الميادين الأخرى وذلك لأن الموحدين حافظوا وضاعفوا انتاج المحاصيل فى مختلف المناطق الخاضعة لحكمهم ، كما اهتموا بتربية الخيول والبغال والجمال وقد حرصوا على هذه الدواب لاستخدامها للناحية العسكرية لانها كانت قوة الموحدين .

وكما اهتم الموحدون بالزراعة وما تدره من انتاج ودخل فقد اهتموا أيضا بالصناعة وحمايتها بل إن عبد المؤمن عندما فتح مراكش نهى قبائل المصامدة عن قتل العامة بها لانهم صناع ينفع بهم ومما شجع الدولة على ذلك ازدياد الدولة للصناعات العسكرية وامتداد أثر الحضارة الاندلسية إلى جميع الطبقات فى البلاد المغربية ومن ثم ازداد الطلب على أشياء الترف وأدوات الزينة والزخرفة فاستجلبوا الخبرات الاندلسية الصناعية إلى البلاد المغربية فى مختلف الصناعات ، بل أكثر من ذلك فان الخبرة الصناعية فى العصر الموحدى لم تعد تقتصر على الاندلسيين فقد برز فيها المغاربة أيضا فى مختلف الصناعات .

كما اهتم الموحدون بالثقافة والتعليم واهتموا بالوراقة والنسخ مما يدل على شغفهم بالكتب إن المكتبات الخاصة كانت تضم عددا من مجلدات قد تبلغ خمسمائة



مجلد أو تقدر بالأحمال أو يباع ما يخلفه أحدهم بستة آلاف دينار أو بمائة ألف درهم وقد بلغ اهتمام الموحدين بالكتب أن انشأ يوسف بن عبد المؤمن خزانة علمية واهتم بجمع الكتب إليها من جميع أنحاء المغرب واستمرت هذه الخزانة طوال العصر الموحدى لم تكن النهضة التى استفاد منها الموحدون من دور الاندلس فقد جعلوا سبتة قاعدة لأسطولهم حيث كانت الضرورات العسكرية لها تأثير كبير على بناء السفن بل انهم وسعوا دور انشاء السفن وقد تنوعت السفن بين صغرى وكبرى من شينى وطريدة وشذندى وغراب وشخاتير ومراكب ومسطحات وحراريس وزوارق .

كذلك شهد عصر الموحدين نهضة معمارية كبيرة فقد ازداد بناء المساجد والقصور والمستشفيات وتركت آثارا كبرى فى تطوير الصناعات الخشبية بما احتاجه من سقوف وشبابيك وأبواب ومنابر ومقصورات وآثاث وتحف زخرفية وفى العصر الموحدى استفادوا من المعارف الميكانيكية فى الصناعات الخشبية .

ولقد تقدم الطب وازدهرت الدراسات الطبية لما أنشأه المنصور الموحدى من المستشفيات لعلاج المرضى فى كل المغرب وانه ألحق بكل مستشفى بيتا لصنع الأشربة والدهون والأكحال والغالب أن هذه النهضة الموحدية قد بدأت مع المرابطين نظرا لانهم اهتموا بالعلوم الطبية والكيمياوية بل إن المغاربة قد استفادوا من تجارب غيرهم فى هذه الصنعة وأضافوا جديدا وتؤكد المعلومات الواردة فى كتاب الأعشاب عن الفترة الموحدية حيث بين مصنف الأعشاب بأسمائها اليونانية والعربية والبربرية وغيرها . كما أن المغرب لم يعرف استخراج الذهب إلا القليل .

ولقد بلغت الصناعات كامل ازدهارها فى العصر الموحدى . كما أنه ليس أدل على التقدم العلمى فى عصر الموحدين انه فى عصر يوسف الموحدين قد نصبت ساعة على باب جامع مراكش ارتفاعها فى الهواء خمسون ذراعا . وتنزل عند انقضاء كل ساعة صنجة وزنها مائة درهم وتتحرك بنزولها أجراس يسمع وقعها من بعد .

والراجح أن صناعة الأسلحة كانت أكثر تقدما خلال القرن السادس حيث ضاعف الموحدون انتاجها فى كل ولاية وقيل أنه كان يضرب لعبد المؤمن بن على عشرة قناطير من الأسلحة فى جميع بلاده ويصور هذا تطور الصناعات المعدنية فى هذا النوع من الصناعات استخدام الجيش الموحدى للكرات الحديدية الملتهبة فى دك الحصون والمجانيق الكبار .

كما شهد عصر الموحدين نهضة هندسية معمارية تجلت فى توسيع المدن وتشييد الأسوار وبناء القلاع والمساجد والقصور واقامة المدن الجديدة وانشاء الجسور واقامة الكبارى عليها وكان اهتمام الموحدين وتحويل الحصون إلى مدن وتوسيع مراكش وفاس وتشييد المدن حول المدينة التى يحاصرونها وتميز المنصور بهمة عالية فى فن البناء . ومما يدل على تطور الهندسة المعمارية كثرة المبانى التى شيدت للعساكر وموظفى الدولة فى فاس وسبتة ورباط وهسكورة وأشبيلية وقرطبة ولعل هذه النزعة العسكرية هى التى دفعت الموحدين لبناء القناطر الحجرية بالإضافة إلى ما عرفوه من الجسور المركبة الخشبية وكان الباعث الدينى لدى الموحدين سببا فى اصلاح المساجد والجوامع وتجديدها بالإضافة إلى تميز عصر المنصور الموحدى بإنشاء عدد من المدارس والمستشفيات فى البلاد الغربية والشرقية والاندلس .

وكان انشاء المساجد من أعظم الانجازات الموحدية فقد وصف جامع أشبيلية المنصورى بأنه قد فاق جامع قرطبة فى اتساع أرجائه وفخامة مبانيه وقيل عن جامع مراكش أن ليس بعد جامع قرطبة مثله ويذكر ابن عذارى المراكشى عن جامع الرباط أن ليس فى بلاد المغرب أكبر منه .

وقد تميز العصر الموحدى مع ضخامة البناء وإحكام صنعته بسرعة الانجاز فقد انشأت مدينة الفتح فى عام واحد وتم مسجد أشبيلية فى عام واحد دون صومعته ولم تستغرق انشاءات المنصور على كثرتها أكثر من ثلاثة أعوام .





ومن كل ما ذكر يتضح أن الصناعات فى العصر الموحدى قد شهدتها البلاد الغربية حيث شهدت مراكش نهضة صناعية شاملة باعتبارها قاعدة للتصنيع الزراعى وفاس منطقة للصناعات المعدنية والزراعية ولعل هذا التقدم الصناعى دليل حيوى على حالة الرخاء والأمن والاستقرار كما كانت هذه الحالة الاقتصادية الرغدة حافزا قويا لقيام نشاط فى مختلف الميادين أو دفع ذلك امراء الموحدين وسادتهم وخاصة أصحاب الجاه والمال من الشعب وخاصة فى فاس ومراكش على بناء القصور وتقدم الفنون المعمارية والصناعة .

لقد ترك العصر الموحدى تأثيرا واضحا فى مختلف الميادين فى بلاد المغرب بأقسامه الثلاثة وكذلك فى منطقة الاندلس الخاضعة لهم وبذلك كان عصرهم زاهرا متقدما متحضرا وآثارهم خير شاهد على ما قدموه للعالم الإسلامى وبصفة خاصة فى الميادين السابق الإشارة إليها .

لقد نجح الموحدون فى إشاعة الأمن فى جميع أرجاء دولتهم خلال القرن السادس خاصة فى البلاد الاندلسية ولقد أكد الخلفاء الموحدون على حماية التجار وتأمين طرق التجارة ، بل ان خلفاء الموحدين أنزلوا العقوبات بأصحاب حوادث الاعتداء على التجار كما أن الأسطول الموحدى سيطر على سواحل المغرب كلها فلم يحدث اعتداء قوة بحرية على سواحل البلاد الغربية ولم يحدث اعتداء بحرى على السواحل الاندلسية وكان ظهور الأسطول الموحدى مظهر اطمئنان لأهل السواحل الشرقية والاندلسية ، كما أن الدولة الموحدية كانت تبنى الأسواق ومهد الموحدون الطرق فى جميع أنحاء دولتهم وكان تمهيد الطرق يتم للاستعمال العسكرى وأن التجار كانوا يسلكون هذا الطريق ولهذا نجد الموحدين يمنعون السفار ( المسافرين ) من سلوكها إذ أراد الموحدون القيام بعمل عسكرى .

وعلى الرغم من أن مواقف الموحدين السياسية مع أغلب الدول المعاصرة لهم

كان يشوبها التوتر فإنهم كانوا يرون ضرورة تشجيع التجارة الخارجية وكانت علاقاتهم التجارية مع المدن الايطالية حيث كان الجنويون لايتعدون على مراكب المسلمين وكان الموحدون يرغبون التجار للمجئ إلى بلادهم ويسعون فى تجديد الصلة معهم .

كذلك مارس الموحدون نشاطهم التجارى الخارجي فعلى الرغم من توتر علاقات دول المغرب فى القرن السادس مع الدول المعاصرة لها فى حوض البحر المتوسط فان التجار المغاربة والمسلمين كانوا يدخلون صقلية وإسبانيا ومما شجع على هذه التجارة وجود بعض المسلمين فى صقلية وإسبانيا وكان الحكام المسيحيون يشجعونهم على البقاء لضرورات اقتصادية ، كما أن التجار المشارقة كانوا يدخلون إلى المغرب .

وكان الأمن الذى فرضه الموحدون والامتيازات التى أعطوها إلى الجنوبيين والتقلص المؤقت لتجارة جنوه مع المشرق عام ١١٦٣ م كلها عوامل جعلت جنوه تتجه نحو التجارة المغربية واستخدم الموحدون الدراهم الموحدية التى كانت تضرب فى جميع عواصم الولايات المختلفة ولقد ضاعف المنصور وزن الدينار الموحدى الذى كان وزنه واحدا فى كل المغرب ولا يضرب إلا فى فاس ولقد كان الدينار الموحدى يعادل نصف دينار مصرى من ضرب صلاح الدين الأيوبى ذلك لان الموحدين أخفقوا فى استخراج الذهب من باطن الأرض المغربية ولعل ضعف الدينار الموحدى يفسر مضاعفة الخليفة المنصور عام ٥٨١ هـ / ١١٨٥ م وزن الدينار الموحدى حتى أصبح معادلا للدينار المصرى الأيوبى المضروب فى مصر وهناك أقوال تذكر أن الدينار الموحدى سيطر على الأسواق الإسلامية والمسيحية فى القرن السادس الهجرى .

ولقد كان المغرب يتصل بمراكز التجارة فى إسبانيا وعبرها إلى أوربا من مراكز تنطلق من الثغور الموحدية ولكن حالة الحرب مع الممالك المسيحية الإسبانية جعلت التجارة تمارس دورها عن طريق تجار المدن الايطالية الذين كانوا يعملون كوسطاء . ولقد ساعد التحول التجارى نحو الساحل إلى ظهور مراكز تجارية معروفة مثل صفاقس





والمهدية وبجاية وأشبيلية ومالطة ومرسية والمرية وقرطبة وهكذا اتصلت سواحل المغرب جميعها من نول إلى طرابلس وكانت هذه الموانئ تتصل بموانئ البلاد الاندلسية وقد تضاعفت أهمية هذا الطريق البحرى فى الساحل الغربى فى العصر الموحدى وتحول مدينة سبتة فى العصر الموحدى إلى أكبر ميناء تجارى بعد أن أصبحت قاعدة للاسطول الموحدى كما أن سيطرة الموحدين على الاندلس جعلت من تلك البلاد المصدر الرئيسى للمغرب لأغلب ما يصنع من سلع وذلك لان عدد سكان المغرب كان فى ازدياد مستمر ومن هنا كانت تستورد من البلاد الاندلسية مصنوعات كثيرة .

لقد كان أكبر مآثر الموحدين انهم عملوا على المحافظة على الوضع الإسلامى بالاندلس وبذلوا فى ذلك كل طاقتهم بل انهم بذلوا جهودا مضنية لتعمير المدن التى هجرها أهلها مثل قرطبة وباجة وشلب فان كل هذه الجهود قد ذهبت أدراج الرياح ويبدو أن الاخفاق فى سياسة إحياء هذه المناطق الشرقية والداخلية للاندلس له أسباب نفسية ولعل عبد المؤمن وحفيده المنصور كان يدركان تعمير المدن مما جعلهما أن يجعلا قرطبة عاصمة الاندلس ومن ثم شرع فى تشييد الدور وإقامة الأسواق وجعل لأهلها رواتب شهرية تشجيعا لهم لكن روح الانتهازية كانت من أهم العوامل فى انهيار جبهة المواجهة مع العدو حيث اندثرت مدن كبيرة فى البلاد الشرقية والاندلسية وتغير النشاط الاقتصادى بها .

لكن من نقط الضعف فى الحركة الموحدية تأتى من أنها إذا كانت قد نجحت فى القضاء على المرابطين فقد أخفقوا فى تحقيق آمال العامة إذ استمر التباين الاجتماعى ولهذا تعاظم نفوذ المتصوفة وحاول الطامحون إلى الحكم استثمار موجة الصوفية ذلك لان الموحدين أرادوا استثمار هذا التيار الصوفى الذى استقطب العامة فربطوا حركتهم بالغزالى مدعين تتلمذ ابن تومرت عليه من جهة وادعاء ابن تومرت للمهدية من جهة أخرى فزواج الموحدين بين الفكر الصوفى والمهدى وآمال العامة قد حققت النجاح لابن تومرت لكن شهد عهد المنصور والناصر انحراف الدولة الموحدية

عن تعاليم ابن تومرت . ويبدو أن المنصور شعر بتذكر العامة وخطورة النيابيين الاجتماعى فحاول التقرب إلى العامة بمشروعاته الاجتماعية واستعطف المتصوفة .

وكان محمد بن تومرت مؤسس دولة الموحدية ومفكرها فهو الذى بنى المؤسسات الدستوريية التى تقوم عليها قوة الحركة وتعمق الحركة الاستمرارية بل تضمن قوة الدفع وهى مشيخة الموخدين ( ايت عشرة وايت خمسين ) وبالفعل عندما مات محمد بن تومرت استمرت المشيخة وقامت الدولة وبفضلها تمكن عبد المؤمن بن على من انشاء دولة الخلافة الموحدية . ومن حسن الحظ الذى قاد المشيخة بعده تلميذه عبد المؤمن ابن على يعاونه رجال تؤيدهم قبائل قوية وبفضل الالتحام والتعاون بين البيت الحاكم والمشيخة من السلطة الحاكمة والمؤسسة الدستورية اشتد ساعد الدولة الموحدية .

كذلك ترجع قدرة الدولة الموحدية على اعتمادها على فرع ضخم من فرع البربر هم المصامدة معظم سكان المغرب الأقصى وكان المصامدة مجموعة كبيرة من القبائل التى عمرت المغرب كله من شماله إلى جنوبه وفى هذه المساحة الواسعة بلغت الحضارة المغربية والاندلسية أقصى عصور ازدهارها فبلغت حركة الحضارة والثقافة والنهضة العلمية والمعمارية والفقهية والفلسفية أرفع درجة وصلت إليها فى تاريخها وعلى الرغم من تشدد جمهور الموحدين وبعدهم عن العلوم التى لاتتصل مباشرة بالدين فعصر الموحدين هو العصر الذهبى للفلسفة الإسلامية فى المغرب والاندلس فهو عصر ابن طفيل وابن الرشد وهما من أعظم الفلاسفة فى تاريخ الفكر الإنسانى ، كذلك ظهر أيضا محيى الدين بن عربى أعظم الصوفية الفلاسفة المسلمين .

وهكذا تمكنت دولة الموحدين من مواصلة العمل الإسلامى المجيد الذى قام به المرابطون فقد أقاموا كما سبق القول صرح حضارة إسلامية مغربية أندلسية عرفناها للدور العظيم الذى لعبه الموحدون فى مختلف الجولات المشار إليها ولقد حاولنا هنا أن نغطى أثر الموحدين فى مختلف المجالات بايجاز شديد ، ذلك لأن دور الموحدين فى



مختلف الأنشطة الحياتية يعطى الدليل الملموس على أن الإسلام قوة حضارية دافعة رغم المشاكل والحروب والثورات والمخاطر الخارجية ورغم قصر فترة حكم الدولة الموحدية التى لم تزد فى حكمها القوى الحقيقى ٥٤٠ – ٦٠٩هـ عن سبعين عاما هى فترة سقوط دولة المرابطين وانتهاء بمعركة العقاب التى كانت نهاية الدولة الموحدية فى صورة دولة قوية .

لكن رغم قصر فترة الدولة الموحدية إلا أن عطاءها الحضارى والثقافى والمعمارى والهندسى والعلمى وغيره من المجالات المختلفة كان ذا أثر بارز فى مختلف المجالات التى أدلى الموحدون فيها يدلوهم سواء ظهور علماء الفلاسفة والمتصوفة والأطباء والمهندسين والمعماريين والصناع المهرة وبناء السفن والكبارى وكذلك ازدهار الحياة الاجتماعية والاقتصادية وجعل العامة يعيشون فى بحبوة من العيش بل حياة رغدة ومن هنا استطاعوا أن يدفعوا بالدولة إلى الأمام .

أن التطورات التى شهدتها فترة حكم الموحدين قد تركت آثارا على الحياة الاجتماعية والسياسية التى ارتبطت بالتطورات الاقتصادية .

وهكذا شهد عصر الموحدين انتشارا ورقيا للعلوم الإسلامية والفنون الأدبية ولقد كان ذلك التقدم من أثر تشجيع الخلفاء لاسيما بعد أن شاهدوا آثار التقدم فى الاندلس فقد شهدت مراكش عاصمة الخلافة الموحدية ازدهارا فى مختلف الفنون وشهدت العاصمة أروع آيات الفن فى المساجد العديدة التى بنيت فى هذا العصر . وهكذا كان للموحدون فضلهم فى كل البلاد التى دخلوها فقد عمروها وبرعوا فى مختلف الصناعات وكانت لهم صناعات متفوقة شهد لهم العالم بها وذلك دليل قوى على حيوية الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي الذى قامت على أساسه دعوة الموحدين حيث كانت حضارة الموحدين تتلاءم مع مذهبهم حيث كانت الدولة سنية تتبع مذهب الإمام مالك ونظم الدولة ترجع إلى أسس دينية .

ولقد كان لدولة الموحدين وثروتها وقوة جيشها وأسطولها القوى سمعة حسنة وبعد انهيار دولة الموحدين ورثتها ثلاث دول هى الدولة الحفصية فى تونس ودولة بنى عبد الواد فى تلمسان ثم دولة بنى مرين فى فاس . ولم تعترف هذه الدول الثلاث بعضها لبعض بالاستقلال فاستمرت الحروب فيما بينهم كما أن دولة رابعة ورثت الموحدين فى الاندلس هى مملكة غرناطة التى استقل بها بنو الأحمر أو بنو نضر (٦٣٥هـ / ١٢٣٨ م ). حتى سقوطها . وهكذا وضعت نهاية للدولة الموحدية وانتهى دورها على مسرح الأحداث السياسية فى بلاد المغرب والاندلس والذى نقدمه للقارئ العربى والمسلم لكى يرى كفاح الأجداد فى سبيل الجهاد والمحافظة على العقيدة الإسلامية ودفاعا عن ديار المسلمين .



## خلفاء الموحدين

| الخليفة | المدة |
|---|---|
| عبد المؤمن بن على | ٥٢٤ – ٥٥٨ هـ – ١١٢٠ – ١١٦٣م |
| أبو يعقوب يوسف | ٥٥٨ – ٥٨٠ هـ – ١١٦٣ – ١١٨٤م |
| أبو يوسف يعقوب المنصور | ٥٨٠ – ٥٩٥ هـ – ١١٨٤ – ١١٩٩م |
| أبو محمد عبد الله الناصر | ٥٩٥ – ٦١٠ هـ – ١١٩٩ – ١٢١٣م |
| أبو يعقوب يوسف المستنصر | ٦١١ – ٦٢٠ هـ – ١٢١٣ – ١٢٢٤م |
| عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن | ٦٢٠ – ٦٢١ هـ – ١٢٢٤م |
| أبو عبد الله بن يعقوب المنصور( العادل ) | ٦٢١ – ٦٢٤ هـ – ١٢٢٤ – ١٢٢٧م |
| يحيى بن الناصر | ٦٢٤ – ٦٢٧ هـ – ١٢٢٧ – ١٢٣٠م |
| المأمون بن المنصور | ٦٢٧ – ٦٣٠ هـ – ١٢٣١ – ١٢٣٢م |
| الرشيد بن المأمون بن المنصور | ٦٣٠ – ٦٤٠ هـ – ١٢٣٢ – ١٢٤٢م |
| السعيد على أبو الحسن | ٦٤٠ – ٦٤٦ هـ – ١٢٤٢ – ١٢٤٨م |
| أبو حفص عمر المرتضى | ٦٤٦ – ٦٦٥ هـ – ١٢٤٨ – ١٢٦٦م |
| أبو دبوس الواثق بالله | ٦٦٥ – ٦٦٨ هـ – ١٢٦٦ – ١٢٧٠م |

نهاية الخلافة

## الخاتمة

فى تلك الدراسة وهى الجزء الثالث من تاريخ المغرب العربى الإسلامى والذى يتكون من ثلاث أجزاء هى الدولة الفاطمية فى المغرب وهى الدولة الشيعية التى انتقلت بعد ظهورها إلى مصر ثم دولة المرابطين وآخر تلك الدراسة دولة الموحدين التى قامت على انهاء دولة المرابطين فإنه يتضح لنا فى تلك الدراسة التى نتناولها أن المغرب العربى قد شهد قيام الدولة الفاطمية الشيعية التى أسقطت دول المغرب جميعها وهى الدولة الأغلبية ودولة بنى رستم فى تاهرت ودولة الادارسة فى فاس لكى تقوم على أنقاض هذه الدول الثلاث التى حكمت المغرب الأدنى والأوسط والأقصى .

ويتضح لنا أن التشيع كانت بذرته الأول بعد انتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى وبعد سقيفة بنى ساعدة وكان حجة أنصار على أن بنى هاشم أحق أن يخلفوا النبى ﷺ وأن على بن أبى طالب هو آل النبى وأقربهم وكان جمعا من الصحابة يرى أن علياً أفضل من أبى بكر وعمر ويستدلون على ذلك ببعض الأدلة منها تقديم أسامة بن زيد على أبى بكر وعمر ولم يقدم أحد على على وكان اختبار عثمان بن عفان وتفضيله على على بن أبى طالب سببا فى ظهور التشيع لآل البيت بصورة قوية واستغل عبد الله بن سبأ السخط الذى ساد الولايات الإسلامية ضد سياسة عثمان بن أبى عفان وأخذ يدعو لعلى بن أبى طالب وظهرت دعوته جهرا فى مصر عام ٣٥ هـ . وانتهى الأمر بمقتل عثمان ومبايعة على بن أبى طالب بالخلافة ورفض معاوية ابن أبى سفيان الامتثال للخليفة الجديد وطالب بدم عثمان واشتد التنافس بين بنى هاشم وبنى أمية وباغتيال الخليفة الراشد على بن أبى طالب خلا الأمر لمعاوية بن أبى سفيان .

لكن بعد مقتل على قامت محاولة لمبايعة الحسن بن على . ولقد صارت الكوفة بالعراق مقرا لانصار على بن أبى طالب والساخطين على الدولة الأموية . وكان مقتل على سببا فى بلورة فكرة الحزب الشيعى وقد وقف أنصار هذا الحزب إلى جانب أولاد



على يحرضونهم على تولى الخلافة . حتى كانت نشاطات الشيعة وثوراتهم خلال العصر الأموى ثورات متصلة لكن معاوية بن أبى سفيان دخل الكوفة عام ٤١ هـ وبايعه الحسن والحسين وعاد معاوية بعد ذلك إلى دمشق لكن معاوية أراد أن يأخذ البيعة لابنه يزيد لكن أبناء الصحابة رفضوا أن يبايعوا يزيد وظل الحسين بن على وعبد الله ابن الزبير على موقفهما من مبايعة يزيد . وفى الكوفة ثار الشيعة وأرسلوا للحسين بن على يطالبونه بالخلافة لكن يزيد أرسل إلى الحسين وطلب منه البيعة لكن الحسين خرج إلى الكوفة بعد أن حذره العديد من الذهاب إليها وعدم منازعة بنى أمية لكن الحسين لقى مصرعه على يد قوات الأمويين بالقرب من الكوفة فى كربلاء فى ٦١ هـ/ ٦٨٠ م وكان لمعركة كربلاء أثر خطير فى تطور الأحداث بعد أن أصبح الحسين أبا للشهداء واشتد النزاع بعد ذلك بين الأمويين والعلويين واحتدم بعد مقتل الحسين وفتحت هذه المذبحة باب الفرقة حتى يومنا هذا فى العالم الإسلامى .

وظهرت فرقة التوابون الشيعة وتبلور الحزب الشيعى بعد كربلاء عن عقيدة فى أن الخلافة يجب أن تكون فى الأئمة من آل البيت وأن الامامة من العلويين وكذلك ظهرت بعض الفرق الشيعية التى منها الامامية والزيدية وأصبح الإمام يختلف عن الخليفة عند الشيعة وأن الحركات التى قام بها الشيعة فى العصر الأموى للاستيلاء على الحكم كانت أقوى حركات الشيعة وذلك لإقامة دولة علوية ولكن نتيجة الكفاح فاز بها العباسيون لا العلويون . كذلك ظهرت الفرقة الاثنا عشرية فى ايران بعد الإمامية والزيدية .

لكن رغم ما لاقاه الشيعة من عنف الأمويين ظلوا يتحينون الفرص للثورة لكن بنو أمية أوقعوا نكالا شديدا فى العلويين وأدى ذلك إلى تفرق الشيعة فرقا مختلفة وجميعها تعادى الأمويين وتعتبرهم مغتصبين للخلافة . لذا لم يكن شعار الرضا من آل محمد إلا مناورة ذكية فى الدعوة العباسية . واستغل العباسيون فرصة آلت إليهم بعد

موت محمد بن الحنفية كذلك استغلوا ضعف الشيعة وانقسامهم ومكروا بهم وجعلوا الدعوة شاملة لكى يضمنوا ولاء الشيعة وأن يخفوا اسم صاحب دعوتهم ولم يكن الدعاة يعرفون شخصية الإمام الذى يدعون له . لكن العلويين لم يكونوا مطمئنين إلى الدعوة للرضا من آل البيت . وأعلنت الخلافة العباسية وخدع العلويون بالشعار الغامض وامتنعوا عن مبايعة العباس وأبى جعفر المنصور لكن المنصور وجه إليهم جيشا وقتل محمد النفس الذكية وكان مصرعه شبيهاً بمصرع الإمام الحسين فى كربلاء وحدثت معارك كثيرة منها معركة فخ ولكن انهزم فيها العلويين ونكل العباسيون بالعلويين .

لكن بعد أن قل نشاط العلويين فان العباسيين اتبعوا سياسة المسالمة معهم وأعطى لهم الإمامة بعد أن كانت معركة فخ بالقرب من مكة المكرمة نهاية النهاية ورغم هذه الأعمال الطيبة التى قام بها العباسيون تجاههم إلا أن طابع العنف كان أضعاف ماكان يعنف به الأمويون فاضطهدوهم وطاردوهم وقاتلوهم فى كل مكان وقد أدى ذلك إلى تحول الدعوة الشيعية من العلن إلى السر صيانة لأشخاص الائمة أصحاب الدعوة .

ولقد كانت طائفة الاسماعيلية أنشط فرق الشيعة فقد بثوا الدعاة فى أنحاء العالم الإسلامى المختلفة، خاصة فى اليمن وبلاد المغرب وقد سميت الاسماعيلية بذلك لانهم يقفون عند الإمام اسماعيل بن جعفر الصادق . ولقد كانت محبة الناس لآل البيت العلوى مما دفعتهم للانجذاب نحو الدعاة السريين الذين يدعون للإمام المستتر الذى كانوا يتسترون عليه وذلك لان الشيعة استغلوا رغبة الناس فى تحقيق العدالة والأمن وتنفيذ تعاليم الإسلام الصحيح .

ولقد كان رجال الدعوة الشيعية من الفطانة وبعد النظر فى البحث عن بلد بعيد لم يكن فى متناول القوات العباسية فكان الاتجاه نحو اليمن وكانت تلك البلاد مؤهلة لكى تكون مركزاً للدعوة الشيعية واستقر الرأى على اختيار اليمن لصعوبة الوصول إليها واستقر رستم بن حوشب فى اليمن لكن تفكيره هداه بأن إقامة دولة شيعية علوية ليس



فى اليمن ولكن فى المغرب الأقصى فى المناطق الواقعة غرب نهر شلف والتى لا تخضع لنفوذ الدولة العباسية .

واختار ابن حوشب أبو سفيان والحلوانى وأرسلهما إلى طرابلس وتونس واستقبلهم البربر وساعدوهما وكان ابن حوشب قد اتصل فى صنعاء بعبد الله الشيعى وهو الذى كانت تعقد عليه آمال الحركة الشيعية وقدم الرجل إلى المغرب بعد أبى سفيان والحلوانى . وكان أبو عبد الله الشيعى رجلا موهوبا واسع الحيلة ضليعا فى الفقه الشيعى وغيره من المذاهب الفقهية الأخرى وعندما عهد إليه مهمة الرحيل إلى المغرب ترك له أمر التصرف والتنفيذ ويعتبر أبو عبد الله الشيعى المؤسس الحقيقى للدولة الفاطمية الشيعية . ووصل إلى المغرب عن طريق مكة المكرمة ومصاحبته لوفد من قبائل كتامة حيث تأثروا به ووثقوا به بعد أن ذكرهم بمعركة كربلاء ومعركة فخ وعرفوا أنه عالم ضليع فى الفقه فصحبوه معهم لانه كان يقصد مصر أولا تضليلا لهم ولما وصلوا إلى الفسطاط عرضوا عليه أن يذهب معهم إلى بلادهم ووصل إلى منازل كتامة وكان ذلك عام ٢٨٨ هـ وتوافدت عليه قبائل البربر ونهج فى حياته نهج المعلم المؤدب وكثر أنصاره ومن ثم صار كبيرا لقبيلة كتامة .

ثم تحول إلى مرشد لهؤلاء القوم وبعد أن استطاع أن يجتذب إليه سكان تلك القبيلة والقبائل الأخرى ومن ثم انتقل بأنصاره إلى مكان حصين وحصن بلده تازروت فى جبل الأوراس وبعد ثلاث سنوات من وصوله إلى بلاد المغرب ٢٩١ هـ حض الناس على إقامة دولة الشورى والعدل ودعا إلى تكوين مجلس شورى من شيوخ كتامة والاستيلاء على أرض الدولة الأغلبية وبدأت الحملات على أماكن دولة الأغالبة ووفق فى أول حملة له وانتصر على الأغالبة وكان لهذا الانتصار أثره الكبير فى نفسية أبى عبد الله الشيعى إذ تحول إلى قائد سياسى عسكرى يقود الجيوش وذلك بعد أن تزعزع حكم بنى الأغلب ولقى آخر حكام بنى الأغلب أبو مضر هزيمة قاسية وأعلن أبو عبد

الله الشيعى أن الإمام الحقيقى للمسلمين هو عبيد الله المهدى الذى سوف يظهر قريبا فى المغرب ليحكم الناس بالعدل والحق والمساواة ويرفع الظلم عن الناس . واستطاع فى فترة زمنية وجيزة أن ينجح فى تثبيت دعائم الدولة وذلك بمساعدة «غزوية بن يوسف» زعيم البربر .

وكان إسقاط دولة بنى الأغلب فى القيروان قد شد من عزم أبى عبد الله الشيعى وقواته وكان المهدى وابنه أبى القاسم قد سجنا فى سجلماسة فسير أبى عبد الله الشيعى جيشا فى عام ٢٩٧ هـ / ٩١٠ م قاصدا بنى مدرار وعاصمتهم سجلماسة وتمكن من فك أسر عبيد الله المهدى وابنه والقضاء على صاحب سجلماسة وبويع المهدى بيعة عامة وسلم إليه أبو عبد الله الشيعى الأمر . وهكذا نجح الشيعة الاسماعيلية فى الوصول إلى عرش الخلافة بعد جهاد طويل بل مرير وهكذا ظهرت الدولة العلوية الفاطمية واستوثق لها الأمر ، لكن عبيد الله المهدى قتل عبد الله الشيعى . ولقد أثار نجاح الفاطميين فى تكوين دولة لهم عداء الخلافتين السنتين فى بغداد والاندلس .

وكان ظهور الكيان السياسى للشيعة فى المغرب المتمثل فى الدولة الفاطمية ماهو إلا ثمرة من ثمرات كفاح الشيعة من أجل نصرة العلويين بالإضافة إلى كونه من أسباب صراع السلطة والأزمات السياسية فى العالم الإسلامى .

أخذ عبيد الله المهدى بعد بيعة القيروان يوطد سلطته فى البلاد لذا كان التفكير فى بناء عاصمة جديدة على ساحل البحر المتوسط حيث أن دولته الجديدة لاتزال تحيط بها الأخطار واختار لها اسم المهدية وكانت المهدية مركزا حصينا يعتمد على البحر . كما كانت مركزا مناسبا لإرسال الحملات الحربية لإخضاع الثورات . ولكن البربر لم يدينوا للفواطم بالولاء . فعمل المهدى على القضاء على مصادر القلق والتوتر حيث بسط سلطة الدولة فى المغربين الأقصى والأوسط . وقد حكم عبيد الله المهدى خمسا وعشرين عاما ثبت خلالها قواعد البيت الفاطمى فى افريقية ( تونس ) والمغرب



الأوسط والأقصى بالقوة العسكرية لكن انتشرت فى عهده مقاومة المغاربة ممثلة فى رجال الدين والفقهاء المالكية ولم يستطع إقرار السكينة فى البلاد بسبب موقف الفقهاء المالكية ولم تستطع الدولة الفاطمية أن تكسب أرضية لها فى مناخ المغرب الدينى السنى المالكى مما كان حافزا للمهدى للتفكير فى الاتجاه شرقا والانتقال إلى مصر ومحاولة الاستيلاء عليها . فأرسل فى عام ٣٠١ هـ / ١٩١٤ م جيشا بقيادة ابنه أبى القاسم إلى مصر زحف إلى الاسكندرية والجيزة والفيوم، لكن الجيش هزم واضطر للعودة، لكن فى عام ٣٠٢ هـ / ٩١٥ م جاء جيش ثان واستولى على الاسكندرية لكن الجيش الفاطمى تمت هزيمته وأرسلت حملة ثالثة عام ٣٠٧ هـ / ٩٢٠ م بقيادة أبى القاسم ابن الخليفة وتتابعت الحملات الفاطمية على مصر لكن أشدها خطرا كانت عام ٣٢١ هـ لكن العباسيين بقيادة محمد ابن طغج الاخشيد استطاعوا صد هذه الحملة وكانت هذه آخر حملة أرسلت إلى مصر فى عهد الخليفة الفاطمى الأول عبيد الله المهدى .

ولقد واجهت الدولة الفاطمية فتنة أبى اليزيد بن مخلد بن كيداد والتى بدأت فى عهد عبيد الله المهدى وزادت فى عهد خليفته أبى القاسم والخليفة المنصور وقد نجح فى حصار القيروان ونجح فى اقلاق الفاطميين ونجح فى سحق جيش شيعى أرسله الخليفة من المهدية ولكن فى نهاية الأمر انتصرت الدولة الفاطمية عليه .

بويع الخليفة أبى القاسم بأمر الله بعد وفاة عبيد الله المهدى وكان قد عاش مع والده أحداث الدولة الشيعية وكان الخليفة أبى القاسم قد بذل جهودا جبارة فى مقاتلة أبى اليزيد الخارجى والتى استنفذت جهدا كبيرا من الخليفة الشيعى الثانى حيث استغرقت أربعة عشر عاما وتوفى الخليفة الشيعى الثانى وتولى بعده الخليفة المنصور وفى عهده انتهت ثورة أبى اليزيد ولقب بالمنصور بعد انتصاره على الخوارج وكان المغرب الأقصى قد انتهز فرصة الاضطرابات التى سادت الدولة الفاطمية ليعترف بسلطة بنى

أمية لكن المنصور استطاع أن يحرز الانتصارات وأن يقضى على الثورات وبوفاة المنصور تولى أمور الخلافة الخليفة الرابع والأخير فى المغرب المعز لدين الله الفاطمى وفى عهده أتم الفاطميون فتح مصر عام ٣٥٨ هـ . وهكذا نرى كيف أن الدولة الفاطمية مضت أكثر من نصف قرن فى المغرب حكم فيها أربعة خلفاء وكان آخرهم المعز لدين الله الفاطمى أكثر من عشرين عاما فى المغرب ثم رحل إلى القاهرة بعد أن بناها المعز لدين الله الفاطمى وبعد السيطرة على مصر بأربعة أعوام .

ولقد تمت عدة انجازات طوال حكم الفاطميين فى المغرب فقد اهتموا بالبحرية وكان انشاء المهدية كعاصمة له أثر عظيم فى تدعيم أسطولهم فقد كانت دار صناعة للسفن ولقد أحرزت هذه الأساطيل عدة انتصارات منها فى جنوب ايطاليا وصقلية وجزيرة جربة وتم تدعيم الأسطول الفاطمى فى مياه البحر التيرانى وهاجم مدينة جنوه وسردانية وكورسيكا وسواحل ايطاليا . ولقد عكف الفاطميون على العناية بالأسطول وزيادته حتى أصبحت المهدية من أهم الموانئ الحربية فى حوض البحر الأبيض المتوسط.

ولقد كان التقارب بين بنى أمية فى الاندلس والبيزنطيين سببا فى استئناف الدولة الفاطمية غزوها لسواحل ايطاليا وفى نفس الوقت هاجم الاسطول الفاطمى مدينة المرية فى الاندلس . وكانت سياسة الفاطميين تقوم على استغلال الظروف وعلى التسامح لذا استمرت الدعاية الشيعية الاسماعيلية فى جزيرة صقلية ومالطة .

ولقد كان من الطبيعى أن تمارس صقلية العربية الإسلامية دورها الحضارى والثقافى والتعليمى لابناء أوربا وكان يحكمها الكلبيين من قبلهم واستمر حكمهم لها أكثر من تسعين عاما وكان الانجاز الكبير الذى تم فى عهد الفاطميين إضافة إلى الانجاز البحرى وحكم صقلية هو فتح مصر وإقامة خلافة فاطمية اسماعيلية شيعية فى مصر وكانت ظروف مصر الداخلية تؤهل المعز لدين الله للقيام بالغزو إذ بعد وفاة كافور الاخشيد عام ٣٥٧ هـ انهارت المقاومة وكثرت الاضطرابات وارتفعت الأسعار وتعذر



وجود القوات واختلف العسكر وكانت حروب كثيرة بين الجند والامراء قتل فيها خلق كثير بالإضافة إلى أن الخلافة العباسية بدأت عوامل الضعف تتسلل إلى كيانها ولم يكد شهر رجب ٣٥٨ هـ يهل حتى سقطت الاسكندرية وفى شعبان ٣٥٨ هـ دخل جوهر الصقلى الفسطاط على رأس جيشه وتم تخطيط القاهرة بعد الفتح الفاطمى لمصر بعام وفى رمضان عام ٣٦٢ هـ وصل إلى القاهرة المعز لدين الله الفاطمى وبقدومه للقاهرة طويت صفحة الخلافة الفاطمية الشيعية فى المغرب وتلك نهاية الجزء الأول من هذا البحث عن الفاطميين والمرابطين والموحدين بالمغرب .

وفى هذا الجزء الثانى كانت الدراسة عن خلافة المرابطين فى المغرب والاندلس حيث يستبين لنا كيف أن قبائل صنهاجة الصحراء كانت بحكم انتشارها تحيا حياة الاستقرار كما أن قبائل الجبل كانت تتنقل صيف شتاء طلبا للرعى وقد ظلت رابطة الدم والثقافة المشتركة تؤلف بينهم وقد انتشروا فى المغرب الأقصى بعد أن توغلت قبائلهم فى غرب أفريقيا وقد كانت هذه القبائل تندفع إلى الصحراء موجة أثر موجة حيث فرت بعض القبائل الصنهاجية إلى الصحراء حيث وجد فريقا من صنهاجة يحتل أطراف الصحراء جنوب جبال درن وأخذت تعمل على نشر الإسلام بين قبائل السودان وأخذت هجرتها نحو الجنوب طابع الجهاد المقدس فأخذت تدفع السود نحو الجنوب حتى تم لها إدراك منحنى نهر النيجر فى هجرتها وهذا هو الوطن الذى تتحرك فيه قبائل الملثمين وكانت قبيلة لمتونة أهم هذه القبائل وإلى الجنوب من قبائل لمتونة توجد قبيلة جدالة التى وصل نفوذها حتى مصب نهر السنغال ثم قبيلة مسوفة التى كانت أقرب ديار الملثمين إلى بلاد السودان .

وكانت المناطق التى تعيش فيها قبائل الملثمين مناطق عزلة تمكن لهذه القبائل أن تعيش مستقلة وليس هناك شك فى أن هذه القبائل لها تراث حضارى قبل أن تنحدر من مواطنها فى الشمال وقد كانت قبائل بدوية ذات نصيب من الحضارة ومن هنا كان

عليها أن تكسر الطوق الذى يحاصرها من الشمال والجنوب لكى تقوم بدورها فى ساحة التاريخ الإسلامى وكان عليها أن تعد العدة للتوسع شمالا باختراق جبال درن والاغارة فى سهول المغرب الأقصى أو التقدم صوب الجنوب حيث مملكة غانا الزنجية .

وكانت قبائل لمتونة وجدالة ومسوفة فى قوة عنفوانها الإسلامى حيث كانت متحمسة لنشر هذا الدين الجديد ومن هنا كان الطريق ممهدا أمام زحف الملثمين الذين ألهب الإسلام حماسهم جنوبا لإحراز عدة انتصارات على شعب غانا والمضى جنوبا على مقربة من منحنى النيجر كما وضع الملثمون أيديهم على مدينة أودغست لكن هذه القبائل الصنهاجية القوية كانت فى انتظار زعيم يرد إلى الوحدة صفوفها لكن مع إطلالة القرن الخامس الهجرى كانت صنهاجة الجنوب لاتزال متفرقة ، لكن أكبر هذه القبائل ( لمتونة وجدالة ومسوفة ) كان عليها أن توحد كلمتها لكى تقوى على مدافعة غانا والمحافظة على طرق التجارة .

لكن قبيلة جدالة عقدت الزعامة ليحيى بن عمر بن ابراهيم الجدالى الذى عرف أنه قد آن لهذه القبائل أن تتألف على سياسة روحية والتمسك بالدين لانه أساس تكوين دولة قوية ومن هنا حرص على أن يخرج إلى بلاد المغرب الأقصى لا طلبا لاداء فريضة الحج لكن بحثا عن حقيقة العلم والإسلام وأخذ يرتاد مدارس المغرب طلبا للعلم وكانت القيروان هدفه حيث هو مركز الفقه المالكى بعد انتصارها على الفاطميين والزيريين وقصد الشيخ « أبو عمران الفاسى » الذى ذاع صيته فى المغرب والاندلس وطلب منه فقيها يعلم البربر علوم الإسلام الصحيح وأن يقيم وحدة صنهاجية لكى يكون عونا له بعد أن صور للشيخ عمران وجوب الاهتمام بهذه القبائل الجنوبية وأن يقيم بها فقيه فكتب أبو عمران الفاسى للزعيم الجدالى كتابا إلى أحد تلاميذه من فقهاء المغرب الأقصى وهو ( وجاج بن زلو اللمطى ) وهو من إحدى قبائل صنهاجية الصحراء وكان على الفقيه « وجاج بن زلو اللمطى » أن ينفذ رسالة إمام القيروان فوقع





اختياره على تلميذ من تلاميذه صنهاجى الأصل يدعى « عبد الله بن ياسين » وقبل عبد الله طلب أستاذه بناء على كتاب فقيه القيروان أبى عمران الفاسى ودخل عبد الله بن ياسين الصحراء بصحبة زعيم جدالة وتوجه إلى منازل قبيلة جدالة وأخذ يسعى لتحقيق الهدف واستطاع أن ينفذ إلى قلوب الناس واتخذ لنفسه نهج فقهاء القيروان بالشدة والحزم فقاموا عليه وعزلوه عن الرأى والمشورة وكان السادة وعلية القوم هم الذين تخطو عليه وتبرموا من حكم الكتاب والسنة .

وخرج عبد الله بن ياسين قاصدا المغرب لكنه عاد إلى الجنوب بعد تدخل الأمير يحيى بن ابراهيم الجدالى وكان عبد الله بن ياسين رجلا نشيطا وكان عظيم الإيمان بالإسلام وعهد عبد الله بن ياسين مع سبعة من زعماء جدالة إى بناء رباط فى جزيرة قرب مصب نهر السنغال وذلك بقصد الجهاد ونشر الإسلام بين الزنوج ووقف عدوانهم والاغارة على ديار الملثمين لاسيما ديار جدالة القريبة من حوض السنغال . وتقاطر عليه كثيرون يشاركونهم حياتهم وسرعان ما تطور هذا الرباط وأصبح مركز دينيا واجتماعيا وحربيا وحملوا السلاح وكلما كثر أنصاره بدأ رباط السنغال يدخل فى طور جديد وانه لابد من تحقيق الأهداف التى كان يسعى إلى تحقيقها وهى توحيد قبائل الملثمين .

وقد قنع عبد الله بن ياسين بدور الإمام الدينى أما الدور السياسى أو الحاكم أو القيادة العسكرية فقد تركت للزعيم يحيى بن عمر بن ابراهيم اللمتونى ليقود معركة الجهاد الكبرى . وقد بلغ عدد رجاله ثلاثة آلاف رجل وبعد أن أتم عبد الله بن ياسين تنظيم مجتمعه واتجهت هذه الجموع صوب مدينة أودغست واستطاعوا هزيمة الزنوج ودخول المدينة . واستطاع عبد الله بن ياسين أن يتجه شمالا إلى جدالة بعد اخضاعها لإخضاع لمتونة مباشرة ودخلت لمتونة فى طاعة المرابطين وهكذا استطاع ابن ياسين أن يصنع المعجزة وأن يخضع ربوع الصحراء من جبال درن فى الشمال إلى منحنى النيجر جنوبا ثم الاتجاه شمال جبال درن واستطاعوا فتح سجلماسة وبذلك فتح أمامها أبواب

التوسع شمالا وجنوباً وبدأت قبائل لمتونة وجدالة ومسوفة ولمطة وجزولة تتوسع جنوبا وبذلك كسر الإسلام النطاق ووصل إلى شعوب افريقيا السوداء . ومن هنا استطاع ابن ياسين أن يضع أساس دولة جديدة واتخذ لقومه أميرا يتولى أمرهم ويقود جيوشهم . لكن أثناء الحروب فى الشمال قتل عبد الله بن ياسين عام ٤٥٧ هـ / ١٠٥٩ م .

وعندما قتل ابن ياسين كان سلطان أبى بكر بن عمر وقبيلته لمتونة قد استقر وطاعت له كل قبائل لمتونة الصحراء وقاد انتصاراتهم على الزناتيين فى الشمال وقبائل افريقية المدارية فى الجنوب . وبدأت قبائل المرابطين تتجه إلى المغرب الأقصى وكان ذلك بداية دور جديد لان هزيمة الزنوج ونشر الإسلام فى بلادهم جعل المرابطين لايخشون أن تطعن ظهورهم فكان على الملثمين أن يناضلوا زناتة وأن يجتاحوا اقليم السوس الأقصى والسيطرة على المصامدة وبسط نفوذهم على اقليم مراكش الجنوبية وكذلك مدينة اغمات .

وبذلك سار أبو بكر بن عمر بالحركة فى طريقها الذى رسمه ابن ياسين وتم بناء مدينة مراكش . لكن توقفت حركة الزحف شمالا لعودة أبى بكر بن عمر للجنوب لصراع بين القبائل وتقدم الزنوج شمالا ووقع اختياره على ابن عمه يوسف بن تاشفين حيث ترك ثلث قواته تحت قيادة يوسف واستطاع المرابطون دخول مكناسة وفتح الطريق إلى فاس وتمت لهم السيطرة عليها وبسقوط فاس تنتهى الحلقة الأخيرة من حلقات الصراع بين زناتة والمرابطين وبسطت صنهاجة الجنوب سيطرتها كاملة على المغرب الأقصى ولم تعد بالمغرب الأقصى قوة تذكر سوى صنهاجة .

وكان المرابطون يطبقون فى المغرب الأقصى نفس السياسة التى طبقوها فى الصحراء حيث كان وراء زحفهم أسباب دينية بقصد الاصلاح واستطاع المرابطون بسط نفوذهم على كل المغرب الأقصى وفرقوا شمل قبائل براغوطة واستطاع المرابطون بهذا الفتح فتح الطريق إلى طنجة وبذلك أصبحوا على مقربة من عدوة الاندلس بعد أن صار



المرابطون سادة المغرب بعد الكفاح الطويل الذى استغرق عشرين عاما من عمر دولة المرابطين . ولذا سيلعب المرابطون دورا على مسرح الأحداث السياسية فى المغرب والاندلس يسجله التاريخ الإسلامى بحروف من نور فخرا واعزازاً للدور الإسلامى الخالد فى الاندلس .

وقد سيطر المرابطون على مدينتى سبتة وطنجة وكان ذلك يعنى اتخاذهم أسطول يحمى سواحلهم . وقد حكم يوسف بن تاشفين تلك الأقاليم الواسعة بالعدل والفطانة وإدارة تنظيمه . وعلى هذا فقد أتم يوسف بن تاشفين دور أستاذه ومعلمه ابن ياسين ووثق فيه القادة السياسيون والزعماء ولم ينتهى عام ٤٧٥ هـ / ١٠٨٢ م حتى وصل يوسف بن تاشفين إلى ذروة قوته فى المغرب . وكان استيلاء المرابطين على طنجة وسبتة قد جعلهم يطلون على سواحل البحر المتوسط وينظرون إلى ما يجرى فى البحر المتوسط وما يجرى خلفه من صراع سياسى وحربى بين المسلمين والفرنجة وما يجرى فى الاندلس تهلع له قلوب المسلمين فكان لابد أن تتدخل الدولة فى المعركة الدائرة رحاها بين المسلمين والفرنجة لان أمر المسلمين فى الاندلس قد وصل إلى درجة السوء من الضعف بل انها تنامت فى السوء ووضح للناس أن النهاية آتية وكان الفقهاء والمفكرون يلقون الضوء على الفساد ويهيئون العقول لقبول تحول جديد فى تاريخ البلاد ويمهدون الطريق لفتح صفحة فى تاريخ الاندلس أمام زحف المرابطين إضافة إلى رحيل الفقهاء والعلماء إلى المغرب وكان يوسف بن تاشفين يضع الاندلس من الأهداف الأساسية للجهاد وكان المرابطون يعدون العدة لخوض معركة الاندلس مهما كلفهم ذلك من خسائر وكانت حركة الاسترداد فى عهد « فرناندو » قد اتخذت صفة دولية وبدأ النصارى ينظرون إليها كجهاد مقدس وأصبح يطالب باخضاع جميع المسلمين واجلائهم عن البلاد . فى تلك الظروف لم تستطع القوى الإسلامية أن توحد صفوفها وكان الملك ألفونسو السادس يرمى بنظره إلى طليطلة لتحقيق أهدافه واستطاع أن يسقط المدينة فى يده . لكن سقوط طليطلة فى يد ألفونسو السادس كان لها أثر عظيم فى طرد

المسلمين والهاب حماس القوى النصرانية للقضاء على المسلمين نهائيا من الاندلس .
ورغم هول الصدمة وشدة تأثيرها فان القوى الإسلامية ( ملوك الطوائف ) أدركوا أن مصيرهم كله مثل طليطلة لاسيما بعد أن أخذت قوات المسيحيين تتوغل جنوبا وتستولى على معظم بلاد المسلمين فاضطر ملوك الطوائف إلى طلب النجدة من المرابطين .

وفى عام ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م عبرت قوات يوسف بن تاشفين إلى الاندلس بحشد ضخم استطاع المرابطين بعده الاستيلاء على الجزيرة الخضراء وبدأت القوات تحتشد عند سبتة قادمة من المغرب لانقاذ الاندلس وأصبح الاندلس وكأنه معكسر واحد كبير وهكذا تحقق الهدف الذى الذى كان يسعى إليه يوسف بن تاشفين وهو حشد القوى الإسلامية والوقوف فى خندق واحد والوقوف أمام زحف الملك ألفونسو السادس بعد استيلائه على طليطلة ومحاولة القضاء المبرم على قوات المسلمين وجاء النذر بأن صداما لابد واقع وكانت القوى الإسلامية قد دخلت أشبيلية وغادرت القوات المسيحية سرقسطة وأقبل ألفونسو السادس بحشوده وصارت قواته على بعد ثلاثة أميال من معسكر المسلمين فى الزلاقة وكان مصير المغرب والاندلس معلقا بتلك المعركة التى اضطلع المرابطون بالعبء الأكبر فى القتال بها حيث أطبق المسلمون على القوات الصليبية من الإمام والخلف وحاقت الهزيمة بها وخرج ألفونسو السادس خاسرا وفر من ميدان المعركة . وكان لهذا الانتصار أثره الحاسم فى سير الحوادث فى الاندلس فقد تحطمت القوة الضاربة للقوات الصليبية وانكمشت ليون وقشتالة وتوقف تقدمها نحو الجنوب وأبيدت قوات قشتالة وليون وتوقف تقدم البرتغال فى غرب الاندلس . وأصبح هذا الانتصار فخارا للمرابطين .

وبعد معركة الزلاقة بفترة قصيرة توفى أبو بكر بن عمر زعيم المرابطين وابن عم يوسف بن تاشفين عام ٤٨٠ هـ وقد تكون الأحداث الداخلية فى المغرب وتلك الوفاة حالت دون تعقب يوسف بن تاشفين لألفونسو السادس وإعادة مدينة طليطلة وعاد



يوسف إلى المغرب وتمت البيعة له ولكنه كان مطمئناً على الاندلس لان الجزيرة الخضراء كانت لاتزال تحت نفوذ المرابطين وأنه كان يرى ضرورة التدخل حتى لاتضيع الجهود الذى بذلها سابقا .

وكان عبور يوسف للمرة الثانية إلى الاندلس عام ٤٨١ هـ حيث أطبق المسلمون على حصن لبيط واستطاع المرابطون تحقيق أهدافهم بالقضاء على هذا الحصن الذى يهدد ديار المسلمين . لكن يوسف هذه المرة كان يهدف إلى توحيد القوى الإسلامية فى الاندلس . بعد أن تأكد أن ملوك الطوائف ليسوا بقادرين على الدفاع عن بلادهم وصون كرامة الإسلام بل خانوا أمانة شعوبهم وعقيدتهم وتحالف بعضا منهم مع أعداء الدين . وقد لعب رجال الدين والفقهاء دورا فى القضاء على هؤلاء الأمراء وخلعهم بعد أن اتضح للعامة أنه لم يعد خيرا يرجى منهم . واستطاع قادة جيش المرابطين أن يبسطوا لواء دولتهم على جميع الولايات التى كانت تخضع لامراء متعددين وتم توحيد الجبهة الإسلامية الاندلسية وتوحد الشعب الاندلسى تحت قيادة مرابطية .

ومن ذلك الوقت وقع عبء القتال والجهاد الإسلامى على عاتق القوات المرابطية وبدأت حركة الجهاد تدخل طورا خطير لايقل عن الجهاد السابق فى المغرب والأحداث التى سبقت معركة الزلاقة وحصن لبيط وذلك بعد أن فرض الاندلس على المرابطين مسئولية ثقيلة ، واستطاعوا بعد كفاح طويل فى شرق الاندلس دام أكثر من عشر سنوات أن يحرزوا العديد من الانتصارات وأن يحرروا العديد من المدن والقلاع والحصون وأن يحرزوا نصرا كبيرا على السيد القمبيطور فى معركة بنلسية وأدى سقوط هذه المدينة فى أيدى المرابطين إلى سقوط الجهة النصرانية فى شرق الاندلس وأوغلت قوات المرابطين فى تلك الانحاء . ولقد عاون « بنو هود » فى تلك الانحاء المرابطين مما كان له أكبر الأثر فى توطيد النفوذ الإسلامى .

وكان أن عبر يوسف بن تاشفين إلى الاندلس للمرة الرابعة والأخيرة عام ٤٩٧هـ / ٢١٠٣ م ليضع الأسس القوية لبناء الدولة الجديدة واستطاع أن يؤسس دولة مرابطية مغربية أندلسية حطمت أحلام القوى المسيحية ومات يوسف عام ٥٠٠ هـ / ١١٠٧ م فى مراكش بعد أن دفعت به العناية الإلهية لكى يلعب دورا حاسما فى الوقوف فى وجه حركة استرداد الاندلس ومحاولة اطفاء الأنوار الإسلامية وبعد أن قاد حركة الجهاد طوال خمسين عاما صارع فيها أقوى رجلين فى الاندلس هما ألفونسو السادس والسيد القمبيطور والبابوية المسيحية فى روما والقوات الأوربية التى وقفت خلفها فى الصراع الدائر فى الاندلس .

وكان أول عمل اهتم به يوسف بن تاشفين بعد دخول المرابطين سبتة وطنجة بناء أسطول للنقل لا بناء سفن القتال لانه كان يهدف إلى نقل الجنود والمعدات وحفظ المواصلات بين المغرب والاندلس لكن انتصار الزلاقة مكنهم من بسط نفوذهم على مناطق بها دور صناعة للسفن وبذلك استطاعوا خلق قوة بحرية منظمة وقيادات بحرية ماهرة استطاعت أن تقود الأساطيل المرابطية وقد أشار ابن خلدون إلى قوة الأسطول المرابطى ودوره فى حركة الجهاد الإسلامى فى غرب البحر المتوسط وقد استفاد المرابطون من خبرة أهل السواحل المشتغلين بركوب البحر وزاد عدد القطع البحرية المرابطية فقد جهز على بن يوسف بن تاشفين ثلاثمائة سفينة لانقاذ جزيرة ميورقة من هجوم النورمان ولم يقتصر نشاط الأسطول المرابطى على محاربة أطماع الايطاليين والفرنسيين والقطلايين بل وقف أطماع النورمان فى السيطرة على سواحل دولة بنى زيرى . وقدم المرابطون خدمات جليلة للبحرية الإسلامية سواء فى المغرب أو الاندلس طوال فترة حكمهم القصيرة ، بل لقد لعبت دولة المرابطين دورا بالغ الأثر فى الحروب الصليبية فى الشام إذ أن دخولهم الاندلس قد حال دون مساهمة الممالك المسيحية الاندلسية فى الحملات الصليبية التى كانت تتجه إلى بلاد الشام . بل أن ظهورهم فى تلك المرحلة التاريخية فى المغرب والاندلس قد حال دون اشتراك القوى



الأوربية بكل ثقلها فى الحروب الصليبية فى الشرق وبذلك تكون مدافعة المرابطين للخطر الصليبى وانقسام القوى الصليبية الأوربية بين الشرق والغرب قد أدى خدمات جليلة للشرق الإسلامى، بل إن بعض المرابطين رحلوا إلى بغداد وخطبوا يدعون للجهاد وهكذا قدم المرابطون الخير كل الخير للعالم الإسلامى .

وكان قد تولى أمور البلاد بعد يوسف بن تاشفين ابنه على الذى سار على شاكلة أبيه فى جميع النواحى وعمل على دفع الأخطار التى تهدد الدولة لاسيما من أمراء الاندلس المسيحيين وانتهز فرصة الخلاف الذى وقع بينهم وعبر الاندلس عام ٥٠٠ هـ / ١١١٨ م واستولى على طليطلة ومدريد ووادى الحجارة وعاد إلى المغرب بعد أن ترك بالاندلس جيشا ضخما ومن ثم اضطر للعبور للاندلس عام ٥١٥ هـ / ١١٣٤ م وحقق عدة انتصارات لكنه عاد إلى المغرب ليواجه الأخطار من قبل الموحدين الذين عملوا ضد المرابطين وتحالفت هذه الأزمات ضد خط سير حركة المرابطين فى صد الهجوم الصليبى فى الاندلس مما عجل بانتهاء هذه الدولة ومات يوسف عام ٥٣٧ هـ / ١١٤٢ م بعد أن حكم سبع وثلاثين عاما قضاها فى مواجهة المشاكل فى المغرب والاندلس .

وقد اضطر المرابطون إلى توجيه قواهم إلى صراع الموحدين بالمغرب وبهذا حرم الاندلس من جهودهم . وتوفى تاشفين بن على عام ٥٤٠ هـ / ١١٤٥ م ثم ابراهيم بن تاشفين ثم اسحاق بن على بن يوسف فى نفس العام وبذلك انتهت دولة المرابطين.

ولقد تركت دولة المرابطين مظاهر حضارية راقية فى الاندلس والمغرب وحققوا انجازات سياسية وعسكرية وثقافية واقتصادية فى شتى الميادين ولقد كانت دولة أمينة على تراثها الإسلامى واستطاعت أن تؤلف بين القوى الثلاث ( المغرب والاندلس والسودان ) وتدفقت ثقافة الاندلس على بلاد المغرب وكان لها دور واضح فى مفهوم

الحكم والقضاء والثقافة الإسلامية وظهور أنماط حضارية ذات أبعاد واحدة بعد أن جمعت أقطارا واسعة وقام المرابطون بواجب الجهاد فى سبيل رفع لواء الإسلام كما أن الدعوة الدينية التى قامت على أساسها دعوة المرابطين أشاعت فى الناس روح الثقة والأمان وكان الأمراء والسلاطين والملوك قدوة للرعية والولاة ومن مآثر المرابطين ظهور فن بناء الحصون والقلاع والأربطة وشحنها بالجنود والعتاد والأطعمة وكانت أعداد هذه الحصون تزيد عن عشرين حصنا .

وقدم المرابطون للحضارة الإسلامية الشئ الكثير الذى لازالت أثاره خالدة فى حضارة الإسلام وحافظوا على حضارة المغرب الأوسط والأقصى من الضياع ، كما خطت العلوم العربية خطوات واسعة نحو الانتشار فى عهدهم فى المغرب وانتشرت اللغة العربية بين البربر على نطاق واسع وزاد الاهتمام بالفقه والشريعة وعلوم القرآن الكريم والحديث وعملوا على نشر المذهب السنى المالكى . كما قضوا على بقايا المذاهب المنحرفة وقطعوا دابر المذهب الأباضى ( الخوارج والشيعى والمعتزلة ) بل إن للمرابطين الفضل فى الوحدة العقائدية السنية المالكية التى تميز المغرب الأقصى وهكذا أتم المرابطون وحدة المغرب الأقصى الثقافية كما أن العصر المرابطى يعتبر العصر الذهبى للتراث الإسلامى الغنى فى المغرب الأقصى .

وبل أكثر من ذلك فإن مساجد فاس كانت ملتقى الطلاب من كافة البلاد تدرس بها مختلف العلوم ولم تكن قاصرة على علوم الدين والقرآن الكريم والحديث النبوى والتفسير والفقه وإنما كانت تدرس بها علوم الرياضة والفلك والجغرافيا وقد أطلق على هذا المسجد اسم جامعة القرويين وهى أول جامعة إسلامية كانت تدرس فيها مختلف العلوم لكافة المراحل الطلابية .

لقد تركت دولة المرابطين التى لم يصل عمرها الزمنى إلى مائة عام بصماتها واضحة فى جميع المجالات الحضارية فى المغرب والاندلس ومن هنا فإن الذين يدرسون



تاريخ تلك الدولة التى وضع أساسها عبد الله بن ياسين فقيه المالكية الضنهاجى وأقام عمادها القوى يوسف بن تاشفين تظل أعمالها وانجازاتها فى صفحات التاريخ الإسلامى شاهدة على حيوية الإسلام وارتفاع رايات الجهاد الإسلامى لكى تقف فى وجه القوى الغاصبة التى تريد اطفاء أنوار الإسلام ، لكن حقت كلمة الله لتكون الراية متصلة بأيدى أخوة الإسلام من الموحدين .

وفى الباب الثالث من تلك الدراسة يتضح أن الموحدين بقيادة محمد ابن تومرت استطاعوا أن يحذوا حذو قبائل لمتونة فى قيام المصامدة بتكوين دولة لهم وكان ذلك باعثا فى نفوس المصامدة لانشاء دولة . ولكن تلك الدولة قامت على أساس دينى ودعوة طابعها التجديد وهدفها تحقيق وحدة إسلامية شاملة ومؤسس هذه الدعوة الفقيه محمد بن تومرت الهرغى المصمودى الذى بايعه أنصاره على الدفاع عن دعوته حتى الموت وكان ابن تومرت قد أقام دعوته على أساس الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإعلان حرب على المرابطين واتهامهم بالمسئولية عن فساد المجتمع وأنه كان يسعى لإقامة دولة للشعب المصمودى ففى عام ١١٢٥ م شيد ابن تومرت رباطا له وبدأ يحارب المرابطين فكريا ودينيا . وبعد أن تأكد ابن تومرت من تكوين جماعة قوية من الاتباع انتقل بهم إلى موقع فى قلب جبال أطلس وأطلق على كل من آمن بدعوته اسم الموحدين وأخذ فى تنظيم جماعته فكان هو القائد الروحى والعسكرى والفقيه والقاضى وجعل جماعاته طبقات وجعل مجلس العشرة وهم أول تلاميذه والطبقة الثانية هى مجلس الخمسين وهو شيوخ القبائل . وكانت الخطوة القادمة لابد أن تكون حاسمة فى تحقيق حلمه السياسى لكى تظهر قبيلة مصمودة على مسرح الأحداث السياسية فى المغرب الأقصى توطئة لتحقيق الصدام مع المرابطين لانه فى عام ٥٢٤هـ/ ١١٢٩ م قرر محمد بن تومرت أن يتحدى قوة المرابطين بعد أن حشد أربعين ألف جندى لكن ابن تومرت أخطأ لان الجيش الموحدى لقى هزيمة قاسية وهلك فى هذه المعركة صفوة رجاله المخلصين وسميت معركة البحيرة ومات ابن تومرت بعدها بقليل

٢٢٤ هـ / ١١٣٠ م وكان على عبد المؤمن ابن على وأبو حفص عمر الهنتاتى ثانى شخصية فى الدولة الموحدية أن يقودا الدولة التى لازالت فى طور التكوين والبناء واستطاعا إخفاء موت ابن تومرت ثلاث سنوات رغبة فى عدم اشاعة ذلك حتى تتكون المؤسسات للدولة وكان عبد المؤمن فى حاجة إلى هذه الفترة الزمنية لكى يثبت دعائم الكيان السياسى لدولة الموحدين .

وكان عبد المؤمن قد بدأ التصادم الفعلى القوى مع المرابطين حيث اشترك عام ٥٣٣ هـ / ١١٣٩ م فى معركة حاسمة مع تاشفين بن على بن يوسف انتصر فيها وأنه لم يأت عام ٥٣٧ هـ / ١١٤٢ م إلا وكان نفوذ الموحدين قد انتشر فى الجزء الجنوبى الغربى من مراكش وفى عام ٥٣٨ هـ / ١١٤٣ م انتصر عبد المؤمن بن علىّ على علىّ تاشفين بن على فى معركة قرب تلمسان ويعتبر موت تاشفين بن على فى عام ٥٣٩ هـ / ١١٤٥ م بداية النهاية الفعلية لدولة المرابطين لكن خلفه ابنه ابراهيم بن تاشفين لكنه قتل عام ٥٤٠ هـ واستطاع الموحدون الاستيلاء على مراكش وفى محرم ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م دخل عبد المؤمن مراكش وتم قتل اسحاق بن على بن يوسف آخر خلفاء المرابطين وبذلك أصبح الموحدون سادة المغرب الأقصى وجزء كبير من المغرب الأوسط وبذلك استطاعت العصبية المصمودية بقيادة محمد بن تومرت أن تقضى على دولة المرابطين ويصل نفوذ الموحدين إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط . وكان لهذه السياسة الموحدية تلك النزعة الاستقلالية أثر كبير فى غلبة العناصر البربرية .

وفى عام ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م صار عبد المؤمن بن على خليفة المغرب ومن ثم عمل على ضم الاندلس الذى كان يسيطر عليه المرابطون إلى دولته الجديدة ومن ثم دخل فى صراع من ملوك الطوائف حيث استقلوا بإماراتهم منذ عام ٥٣٩ هـ لكن لم يأتى عام ٥٥٢ هـ إلا وكانت الاندلس قد توحدت تحت قيادة الموحدين وكانت



أشبيلية هى عاصمتهم فى الاندلس ومحط اهتمامهم طوال الحكم الموحدى للبلاد وكان عليهم الاهتمام بشرق ووسط الاندلس لكن الأوضاع السياسية لم تساعدهم على ذلك لان أمراء الاقليم الشرقى عارضوا فكرة الوحدة مع المغرب . ولكن ملك قشتالة استطاع أن يستولى على إمارة مرية لكن الموحدين استطاعوا فى عام ٥٥٣ هـ / ١١٤٧ م الاستيلاء عليها من أيدى ملك قشتالة بعد أن صمد الموحدون لاسترجاعها وكانت استعادة المرية بداية توحيد بقية الاندلس تحت سلطانهم فجعل عبد المؤمن بن على ابنه أبا سعيد عثمان واليا على الاندلس . وقام عبد المؤمن بالعودة إلى المغرب والاتجاه شرقا ليقضى على بقايا صنهاجة والحماديين فدخل تونس عام ٥٥٤ هـ / ١١٥٩ م وقد ساعدته الظروف السياسية السائدة فى تلك البلاد لكى يضمها بعد أن دخل القيروان والمهدية فى عام ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م وكان ذلك العام عام توحيد المغرب من المحيط الأطلسى إلى قفصة تحت لواء واحد ولم تلبث أن دخلت طرابلس وكل ليبيا فى طاعته وكان ذلك يعنى أن المغرب العربى بأقسامه الثلاثة ( الأقصى والأوسط والأدنى ) قد انطوى تحت لواء الموحدين إضافة إلى الاندلس . وتعتبر هذه السنة تاريخا فاصلا فى تاريخ المغرب فهى السنة التى تحققت فيها وحدة المغرب السياسية وخضوعه لخليفة واحد فى مراكش . ومن ذلك العام صارت الخلافة الموحدية المغربية أقوى دولة إسلامية فى العالم الإسلامى كما عمل عبد المؤمن على ترحيل بعض القبائل العربية إلى المغرب الأقصى والاندلس وفى عام ٥٥٨ هـ / ١١٦٣م قضى عبد المؤمن بن على مؤسس دولة الموحدين نحبه بعد أن حكم أربعة وثلاثين عاما وبذلك يكون عبد المؤمن بن على هو العمود الفقرى الذى قامت على أكتافه دولة الموحدين بعد أن مهد محمد بن تومرت الطريق لإقامة هذا الكيان الموحدى .

وكان عبد المؤمن بن على قبل وفاته قد أخذ البيعة لابنه أبو يعقوب يوسف الذى حكم اثنين وعشرين عاما ( ٥٥٨ – ٥٨٠ هـ – ١١٦٣ – ١١٨٤ م ) ولقد حرص الخليفة الجديد على انتهاج سياسة أبيه وقد بذل أقصى جهده فى القيام بالمهام الملقاة

عليه والوقوف بحزم وقوة فى المحافظة على كيان الدولة وواجه يوسف العديد من الثورات والفتن والمشاكل ومنها محاولة الدولة الأيوبية فى مصر السيطرة على المغرب الأدنى (ليبيا وافريقيا ) ودخل بعض المماليك التابعين لمصر هذه البلاد وعملوا على اثارة المشاكل والفتن واحتلال بعض المدن بمساعدة القبائل العربية ، كما قامت فتن أيضا فى الاندلس والتى منها ثورة ابن مردينش الذى استطاع أبو يعقوب القضاء عليها عام ٥٦١ هـ / ١١٦٦ م . لكن أبى يعقوب كان دائما يشعر أن الخطر يأتى من قشتالة وليون والبرتغال وكان يدرك خطر تحالف هذه الدول مجتمعين ضده فكان عليه أن يقاتلهم فرادى وليس مجتمعين فبدأ بالبرتغال وتوجه إلى مدينة شنترين لمحاولة القضاء عليها لكن أبى يعقوب يوسف أصيب فى حصار هذه المدينة وتوفى من أثر اصابته ومات عام ٥٨٠ هـ / ١١٨٤ م وأخذت ضربات مسيحى الاندلس تتوالى على امارات المسلمين لاسيما أن القشتاليين استطاعوا الاستيلاء على فونكة بمساعـــدة ملك أرغون .

وخلفه ابنه يعقوب يوسف المنصور ( ٥٨٠ – ٥٩٥ هـ ) وكان يوسف المنصور من القواد العسكريين الموحدين القلائل الذين استطاعوا أن يقودوا جيوشهم إلى النصر فقد كان رجلا حازما موهوبا فى الشئون العسكرية وكان قد بدأ فعلا فى تحصين البلدان الغربية الاندلسية التى كانت عرضة لغارات العدو واهتم بصفة خاصة بمدينة أشبيلية وإضافة إلى أن وفاة والده الخليفة أبى يعقوب بهذه الصورة المفاجئة كانت ضربة قاسية للموحدين فى المغرب والاندلس إذ استغل أعداء الدولة هذه الفرصة وبدأوا يسعون لتحقيق أطماعهم ومنهم بنو غانية حكام جزر البليار ( يابسة، وميورقة ، ومنورقة ) الذين استولوا على أجزاء من المغرب الأوسط والأدنى بمساعدة بعض القبائل العربية وقد أدى ذلك إلى أن سلطان الموحدين أصيب بنكسة شديدة فى المغرب والاندلس لكن سرعان ما حسم الموحدون خطر بنى غانية فكان رد الفعل عنيفا وسريعا إذ استطاع الخليفة المنصور سحق ثورتهم بعد إرسال العديد من الحملات إليهم ومعهم القبائل





العربية واستمرت هذه المطاردات سنوات طويلة . لكن بعد أن أتم المنصور تأمين خط الظهر وتوحيد الجهود الداخلية فانه بدأ ينظر إلى الاندلس لان الخطر الحقيقى يأتى إليه من هذه القبائل المسيحية التى تهدد الكيان الإسلامى فى الاندلس والمغرب . لذا اتجه بكل قواته وقواه نحو الاندلس وكان الموقف قد عاد إلى الحرج بعد أن ازداد الضغط النصرانى على الاندلس ولم يعد فى علاج ذلك إلا عمل حاسم لوقف تقدم هذه القوى المعادية للإسلام . وبدأ المنصور حركته الجهادية عام ٥٨٧ هـ / ١١٩١ م بمملكة البرتغال التى سبق أن استشهد فيها والده أبو يعقوب يوسف واستطاع فى عام ٥٨٧ هـ / ١١٩١ م الاستيلاء على مدينة شلب وأسر بعض السفن البرتغالية وبذلك أنهارت القوة البرتغالية فلم نعد نسمع بعد ذلك عن دخولهم فى حرب ضد المنصور وبعد أن أسكت المنصور قوة دفع البرتغال قرر أن يتجه إلى الجبهة القشتالية حيث شهد بداية عام ٥٩١ هـ / ١١٩٤ م اكتمال أهبة الاستعداد لغزوته الكبرى وتوافدت القوات إلى أشبيلية . وعندما علم ألفونسو الثامن ملك قشتالة نقض المصالحة التى كانت بينه وبين المنصور وتربص بالمسلمين فى الاندلس واستصرخ أوربا جميعها وبابا روما فوفدت عليه جيوش من فرنسا وألمانيا وهولندا والمدن الايطالية وغيرها من الممالك الأوربية يقودها فرسان ذو خبرة عسكرية وتقدمت الحشود الصليبية الأوربية الكبيرة إلى مكانها فى سهل فسيح حول حصن الأرك .

وبدأ القتال بتقدم فرسان مسيحى أسبانيا وأوربا إلى قلب القوات الإسلامية ونجحوا فى اختراق القلب ، لكن القوات الإسلامية قامت بالالتفاف حولها من جميع الجهات ووقع فرسان أوربا المسيحية بين شقى الرحى وحصرتهم القوات الإسلامية وفى ٩ شعبان عام ٥٩١ هـ / ١٨ يوليو ١١٩٥ م انجلى انتصار المسلمون بقيادة المنصور ولاذ ألفونسو الثامن بعدد قليل من فرسانه بالفرار نحو طليطلة وكان لهذه المعركة أثر بعيد يشبه أثر معركة الزلاقة فى عهد يوسف بن تاشفين . وبعد ذلك النصر ثبتت حدود الإسلام فى الاندلس على خط وادى آنة وأرسل المنصور فرقا من الجيش استعادت

الكثير من حصون غرب الاندلس وتوجه المنصور نحو طليطلة لكن الشتاء كان قد حل وحال دون التقدم للإستيلاء عليها واستطاع المنصور أن يهدم ويستولى على بعض الحصون التى كانت تشكل تهديدا على المسلمين . ومات المنصور فى ربيع الأول ٥٩٥ هـ/ ١١٩٩م وهو صاحب معركة الأرك ومهما يكن من أمر فإن المنصور استطاع أن يقوم بالأعباء الملقاة على عاتقه وأن يبسط نفوذ الدولة على الأراضى الواقعة من ليبيا شرقا إلى المحيط الأطلسى غربا ومن وادى بانة فى الاندلس شمالا إلى افريقية المدارية جنوبا .

وبوفاة المجاهد الكبير الخليفة المنصور تولى خلافة الموحدين ابنه الناصر ( ٥٩٥ – ٦١٠ هـ ) وكانت بداية حكمه قد شهدت عودة بنى غانية إلى الثورة وشن الغارات على افريقية . لكن الناصر أدرك أن خطر بنى غانية يأتى من جزر البليار فصمم على احتلالها جميعها فقد شهد عام ٥٩٩ هـ / ١٢٠٣ م خروج الأساطيل الموحدية من جزيرة يابسة إحدى جزر البليار التى خضعت لسيطرة الموحدين قاصدا ميورقة فاستولى عليها ثم استولى على منورقة وبعام ٦٠٠ هـ / ١٢٠٣ م تم للموحدين اخضاع جميع جزر البليار لنفوذهم السياسى . وكان عليه أن يقضى على فلولهم فى افريقية فاستولى الموحدون على تونس والمهدى وفاس وتم القضاء شبه النهائى على فتنة بنى غانية وتولى محمد بن أبى حفص حكم تونس من قبل الموحدين .

لكن فى الجبهة الاندلسية فان ألفونسو الثامن لم ينس هزيمة الأرك فأخذ يستعد يستمد لجولة قادمة مع المسلمين بعد أن وحد الأسبان صفوفهم وتحالفت جميع ممالكهم واستنجدوا بملوك أوربا وبابا روما وأعلنوا الدعوة لرحرب صليبية فى أوربا وبارك البابا حركتهم وجاءت جيوش جرارة من ايطاليا وفرنسا وألمانيا .

وانتقل الناصر لدين الله إلى الاندلس فى ١٩ شعبان ٦٠٧ هـ / ١٢١١ م واستعد للغزو وكان ذلك بعد انتهاء هدنة مع ألفونسو الثامن تنتهى فى عام ٦٠٦ هـ /



١٢٠٩ م وأخذت الجيوش تتوافد على أشبيلية وفى أوائل عام ٦٠٨ هـ / ١٢١١ م تحرك إلى بلاد قشتالة واستولى على عدة حصون وقلاع وأسرع فى الاستيلاء على حوض الوادى الكبير وهو الباب المؤدى إلى قشتالة وذلك للحيلولة دون دخول النصارى إلى الاندلس بقوات كبيرة وفى نفس الوقت تحركت قوات إسبانيا وأوربا نحو هذا الموقع والتقى الجيشان بعد أن كان قد حدث انقسام فى الجيش الإسلامى واجتمعت قوات مسيحية لم تكن قد اجتمعت لقتال المسلمين من قبل وقد كان فيها ملوك قشتالة وليون ونافارا وأرجون ومعظم كبار فرسان إسبانيا وألمانيا وفرنسا والبرتغال والمدن الإيطالية وتمكنت هذه القوات من الاستيلاء على كل القوات التى صادفتها فى طريقها لكن أثناء معركة « تولوسا » التى تطلق عليها المصادر الإسلامية العقاب انسحبت القوات الأسبانية ( الاندلسية ) المسلمة انتقاما من قيام الناصر بقتل قادتهم الاندلسيين ومن هنا حلت الهزيمة بالجيش الموحدى وفرت القبائل البربرية وكانت آخر القوات التى انسحبت من المعركة قوات العرب الذين تلاحموا بالسيوف مع المسيحيين مدافعين عن الناصر لدين الله الذى استطاع الانسحاب وقضى على معظم الجيش الموحدى وعاد الناصر إلى مراكش حزينا واحتجب عن الناس ومات فى ١ شعبان ٦١٠ هـ / ٥ يناير ١٢١٣ م أى بعد سبعة شهور من هزيمة العقاب وبذلك انهار نفوذ الموحدين تماما فى الاندلس بعد هذه الكارثة . وكانت هذه الكارثة سببا فى تكالب امراء قتشالة وليون وأرجون بالاستيلاء على أراضى الاندلس وكان المسيحيون الأسبان سببا فى تعجل انتهاء الدولة الموحدية .

بعد هزيمة العقاب القاسية على المسلمين ووفاة الناصر تولى خلافة الموحدين من بعده ابنه يوسف الذى تلقب بالمنتصر وشهد عهده بداية الحروب الاهلية والمشاحنات الأسرية وخروج أقربائه عليه وبدأت المدن الاندلسية تتساقط فى أيد ملك قشتالة والبرتغال . وقامت الثورات الداخلية ضده ومحاولة احياء الخلافة الفاطمية فى المغرب من جديد بعد أن قضى عليها صلاح الدين الأيوبى فى مصر ودام حكمه ( ٦١٢ –

٦٢٠ هـ / ١٢١٥ – ١٢٢٤ م ) ثمانى سنوات ولم يقم بأدنى عمل يذكر له طوال هذه السنوات .

وتولى بعده خلافة الموحدين عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن ( ٦٢٠ – ٦٢١ هـ / ١٢٢٤ م ) ولم تدم فترة حكمه إلا عاما واحدا اتسمت بالفوضى وتفرق شمل الموحدين وظهر التصارع على السلطة بصورة واضحة فما كان من شيوخ الموحدين إلا أن استدعوا من الاندلس ( أبو محمد عبد الله بن يعقوب بن المنصور ) وتلقب بالعادل وحكم ثلاث سنوات ( ٦٢١ – ٦٢٤ هـ ) وهاجمت بعض القبائل العاصمة مراكش . لكن الأمور أخذت تسير عن سيئ إلى أسوأ فما كان من شيوخ الموحدين إلا وولوا يحيى بن الناصر خلفا له ( ٦٣٤ – ٦٢٧ هـ ) لكنه دخل فى صراع شديد مع الخليفة المأمون ابن المنصور الذى قدم من الاندلس ودخل العاصمة مراكش وانسحب يحيى وأنصاره بعد أن قام المأمون ببناء كنيسة فى العاصمة مراكش بجوار مسجد العاصمة لكن يحيى بن الناصر هاجم المدينة وهاجم الكنيسة وتوفى الخليفة المأمون وبايع شيوخ الموحدين ابنه الرشيد خلفا له وكان والده قد تولى الخلافة ثلاث سنوات فقط ( ٦٢٧ – ٦٣٠ هـ ) وحكم الرشيد عشر سنوات ( ٦٣٠ – ٦٤٠ هـ ) وفى عهده تساقطت المدن الإسلامية فى الاندلس كتساقط الأوراق فى الخريف وانهار خط الوادى الكبير وسقطت قرطبة وأشبيلية وبلنسية وجيان وجزر البليار وكانت تصفية مخزية وتلقب ملك قشتالة بالقديس المنتصر وصار للمسيحيين منفذ على جبل طارق وتوفى الرشيد وخلفه أخوه على السعد أبو الحسن (٦٤٠ – ٦٤٦هـ) وفى عهده بدأت قوة بنى مرين فى الظهور فى المغرب الأقصى وتحالف بنو حفص معهم ضد الموحدين ودخل العرب وحلفاؤهم العاصمة وقتلوا السعيد وتفرقت القوات الموحدية فقامابن عمه أبو حفص بن عمر الذى تلقب بالمرتضى بالحكم (٦٤٦ – ٦٦٥ هـ)ودامت فترة حكمه تسعة عشر عاما وشهدت فترة حكمه صراعا شديدا مع بنى مرين وعرب المغرب الأقصى مما دفع الخليفة المرتضى إلى القبض على شيوخ القبائل



العربية خوفا من مساعدتهم ومساندة ابن عمه أبى دبوس لكنهم هاجموا مراكش وقبضوا عليه وقتله أبو دبوس وتولى حكم الموحدين وتلقب بالواثق بالله ( ٦٦٥ – ٦٦٨ هـ / ١٢٦٦ – ١٢٧٠ م ) ولم يستطع هذا أن ينقذ الدولة من خطر بنى مرين الذين احتلوا العاصمة مراكش وبذلك سقطت الدولة فى عام ٦٧٠ هـ بعد أن بدأت حكمها الفعلى وسيطرتها على المغرب عام ٥٤٠ ومارست وجودها طوال مائة وخمسين عاما هجريا .

لكن إذا كانت الدولة الموحدية قد سقطت تحت حكم بنى مرين فإن أعمالها بعد سقوطها تشهد لها بالإنجاز العظيم فى مختلف المجالات فقد اهتموا ببناء الأسطول والمدن الساحلية وجاهدوا فى البحر ضد القوى المسيحية وضد بنى غانية واستولوا على جزر البليار من أيديهم وكان للأسطول الموحدى التفوق والانتصار خاصة فى غرب الاندلس ولعل أكبر دليل على سمعة الأسطول الموحدى طلب صلاح الدين الأيوبى مساعدة الأسطول الموحدى له فى حصار مدن الشام لصد الصليبيين عن بيت المقدس وتذكر بعض المصادر أن الخليفة المنصور أرسل لصلاح الدين مائة وثمانين سفينة حربية كذلك فان الأسطول هابة ملك البرتغال أو قشتالة وليون وحاصر سفن هذه البلاد داخل موانيها لكن معركة العقاب وضعت نهاية للأسطول الموحدى عام ٦٠٩ هـ/ ١٢١٢م.

وهكذا نرى كيف أن دولة الموحدين وهى فى عنفوان شبابها فى عصر عبد المؤمن بن على وابنه أبى يعقوب يوسف ثم أبى يوسف يعقوب المنصور صاحب معركة الأرك فان القوات البحرية كانت القوة الوحيدة فى غرب البحر المتوسط ولعبت دورا لايقل عن دور القوات البرية .

كذلك من ناحية المظاهر الحضارية والثقافية والمعمارية والهندسية فقد ترك الموحدون بصماتهم واضحة جلية فى شتى المجالات وتقدم المغرب بجميع أقسامه وبلاد الاندلس خطوات سريعة على درب الرقى والحضارى وانتشر اللسان العربى والقبائل

العربية فى شتى أنحاء المغرب وكانت هجرة القبائل العربية إلى بلاد المغرب الأقصى لها وقع كبير فى انتشار الثقافة العربية والحضارة الإسلامية . وقد اهتموا بالزراعة والصناعة والتجارة وسادت البلاد حالة من الأمن والرخاء والرفاهية لاسيما فى فترة حكم الخلفاء الثلاثة الأول التى حكم فيها عبد المؤمن وأبو يعقوب يوسف والمنصور .

وتقدم الطب والدراسات الطبية وانتشرت المستشفيات وكثرت المساجد والمدن الجديدة وظهر الفن المعمارى المغربى الاندلسى وبدأ طابع جديد فى هذا الميدان يظهر فى النشاطات المعمارية . ومارسوا التجارة مع بلدان العالم الخارجى مع المدن الايطالية والشرق الإسلامى ودول أوربا الغربية وسيطر الدينار الموحدى على الأسواق الإسلامية وبدأ ينافس الدينار الأيوبى فى وزنه . وبلغت الحضارة المغربية الاندلسية أقصى عصور ازدهارها وظهر فى عهدهم العديد من العلماء المفكرين أمثال ابن طفيل وابن الرشيد وابن العربى .

ولقد كان لدولة الموحدين وتقدمها وثروتها وأسطولها وجيشها مآثرها فى مختلف الميادين مما كان له أثر كبير فى تاريخ الإسلام والمسلمين فى المغرب العربى بأقسامه المختلفة والاندلس فقد صانوا الإسلام وحافظوا على تراثه وآخر وجودهم فى الاندلس سقوط المدن الإسلامية بها لعدة قرون فهم حماة الإسلام دعاة للعقيدة ولولا تحالف القوى الصليبية الأوربية ووقوفها خلف ملك قشتالة لما تحقق لهم نصر العقاب عام ٦٠٩ هـ / الذى عجل بالنهاية لهذه الدولة فى الاندلس وتقاسمت أملاكها ثلاث دول فى المغرب هى بنى حفص وبنى عبد الواد وبنى مرين وهذا ما يكون محور الدراسة فى الجزء الخامس من هذه الموسوعة .





## المصادر والمراجع

### ١ – المصادر :

١ – ابن الآبار : أبو عبد الله محمد بن أبى بكر القضاعى : الحلة السيراء ، نشرة حسين مؤنس . القاهرة ١٩٦٣ .

٢ – أبو بكر الصنهاجى : أخبار المهدى بن تومرت وابتداء الدولة الموحدية . باريس ١٩٢٨ .

٣ – ابن الأثير : أبو الحسن الجزرى : الكامل فى التاريخ . عشرة أجزاء . القاهرة ، ١٣٠٣ هـ .

٤ – أحمد بابا التمبكتى : نيل الابتهاج بتطريز الديباج . القاهرة ، ١٢٣٩ .

٥ – الادريسى : أبو عبد الله السبتى : المغرب وأرض السودان ومصر والاندلس ، ليدن ، ١٨٦٦ م .

٦ – امارى ميخائيل : المكتبة العربية الصقلية . ليبزج ، ١٨٨٧ م .

٧ – البكرى أبو عبد الله المرسى : المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، نشرة دى سلان . الجزائر ، ١٨٨٧ م .

٨ – ابن بطوطة : محمد الطنجى : تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأنصار . باريس ١٩٢٢ م .

٩ – التيجانى : أبو عبد الله محمد : جامع تواريخ فاس . بالرمو ، ١٨٧٨ م .

١٠ – التيجانى : أبو عبد الله محمد : ابن تومرت . المهدى أبو عبد الله محمد : الجزائر ، ١٩٠٧ م .

١١ – الجزنائى : أبو الحسن : زهرة الأسى فى بناء مدينة فاس . تلمسان ، ١٩٢٢ م .

١٢ – الحميرى : أبو عبد الله محمد : صفة جزيرة الاندلس . القاهرة ، ١٩٣٧م .

١٣ – الحميرى : الروض المعطار فى أخبار الأقطار . نشرة ليفى بروفسال . القاهرة ، ١٩٣٧ م .

١٤ – ابن خلدون العبر وديوان المبتدأ والخبر . القاهرة ، ١٢٨٤ هـ .

١٥ – الدباغ : عبد الرحمن الأنصارى : معالم الإيمان فى معرفة أهل القيروان . تونس ، ١٣٢ هـ .

١٦ – ابن أبى زرع : أبو الحسن : الانيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب ومدينة فاس . ١٤٨٣ م .

١٧ – شكيب أرسلان : تاريخ غزوات العرب فى فرنسا وايطاليا وسويسرا وجزائر البحر المتوسط . القاهرة ، ١٣٥٢ م .

١٨ – الزركشى : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية . تونس ، ١٢٨٩ هـ .

١٩ – الشهرستانى : أبو الفتح : كتاب الملل والنحل . ليبزج . ١٩٢٣ م .

٢٠ – الضبى : أحمد بن عميرة : بغية الملتمس فى تاريخ رجال الاندلس مدريد، ١٨٨٤ م .

٢١ – ابن عذارى المراكشى : البيان المغرب . باريس ، ١٩٣٠ م .

٢٢ – أبو العرب : محمد بن تميم التميمى : طبقات علماء تونس ، الجزائر ، ١٩٢٤ م .

٢٣ – القلقشندى : صبح الاعشى فى صناعة الانشا . القاهرة ، ١٩١٧ م .

٢٤ – المالكى : أبو بكر عبد الله : رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان وافريقية ، القاهرة ، ١٩٥١ م .





٢٥ – المراكشى ( عبد الواحد ) : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، القاهرة ، ١٩٤٢ م .

٢٦ – ابن أبى دينار: الرعينى القيروانى: المؤنس فى أخبار افريقية. تونس. د.ت.

٢٧ – الرفيق القيروانى : تاريخ افريقية والمغرب . تونس ، ١٩٦٨ م .

٢٨ – السلاوى : أبو العباس الناصرى : الاستقصا فى أخبار المغرب الأقصى ، ١٨٩٤ م .

٢٩ – ابن حوقل ( النصيبى ) : صورة الأرض . بيروت ، د. ت .

٣٠ – الاصطخرى ( زبو اسحق محمد ) : المسالك والممالك . القاهرة ، ١٩٦١ م .

٣١ – العمرى ( شهاب فضل الله ) مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار نشر حسن حسنى عبد الوهاب . تونس ، د. ت .

٣٢ – اليعقوبى ( أحمد بن أبى يعقوب ) : صفة المغرب نقلا عن كتاب البلدان . ليون ، ١٨٦٠ م .

٣٣ – الالوسى : بلوغ الأرب معرفة أحوال العرب ، القاهرة ، ١٩٢٤ م.

٣٤ – المالقى : أبو الحسن النباهى : المرقبة العليا فيمن يستحق الفتيا والقضاء نشرة ، ليفى بروفسال القاهرة ، ١٩٤٨ م .

٣٥ – المسعودى محمد الباجى : الخلاصة النقية فى أمراء افريقية ، تونس ، ١٣٣٣ م .

٣٦ – المقريزى : تقى الدين بن على : اتعاظ الحنفا بأخبار الائمة الفاطميين الخلفاء . نشرة جمال الدين الشيال . القاهرة ١٩٤٨ م .

٣٧ – ياقوت الحمدى : معجم البلدان فى معرفة أخبار المدن والقرى . القاهرة ، ١٢٣٣ م .

٣٨ – الونشريس : أحمد بن يحيى : المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء افريقية والاندلس فى المغرب وفاس . د. ت .

٣٩ – يوسف أشباخ : تاريخ الاندلس فى عهد المرابطين والموحدين . ترجمة عبد الله عنان . القاهرة ، ١٩٤١ م.

٤٠ – الرباطى بو جندار : محمد مصطفى : مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح: الرباط ، ١٩٢٦ م.

## ٢ – المراجع :

٤١ – ابراهيم أحمد العدوى : مصر الإسلامية . القاهرة ، ١٩٧٥ م .

٤٢ – ابراهيم أحمد العدوى : الأساطيل العربية فى البحر المتوسط . القاهرة ، ١٩٥٧ م .

٤٣ – ابراهيم على طرخان : المسلمون فى أوربا فى العصور الوسطى . القاهرة ، ١٩٦٦ م .

٤٤ – ابراهيم بيضون : الدولة العربية فى إسبانيا . بيروت ، ١٩٨٠ م .

٤٥ – ابراهيم أحمد العدوى : تاريخ العالم الإسلامى ، ١٩٨٤ م .

٤٦ – ابراهيم حركات : النظام السياسى والحربى فى عهد المرابطين . الدار البيضاء . د. ت .

٤٧ – أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية . القاهرة ، ١٩٨٤ م .

٤٨ – أحمد أمين : فجر الإسلام . القاهرة ، ١٩٨٧ م .

٤٩ – أحمد صفر : مدينة المغرب العربى فى التاريخ . تونس ١٩٥٩ م .



٥٠ – أحمد الزاوى : تاريخ الفتح العربى فى ليبيا . القاهرة ، ١٩٥٤ م .

٥١ – احسان عباس : العرب فى صقلية . القاهرة ، ١٩٥٩ م .

٥٢ – احسان عباس : تاريخ ليبيا من الفتح العربى حتى مطلع القرن التاسع الهجرى . بيروت ، ١٩٦٧ م .

٥٣ – احسان عباس : عصر الطوائف والمرابطين . بيروت ، ١٩٦٢م .

٥٤ – احسان عباس : عصر سيادة قرطبة . بيروت ، ١٩٦٠ م .

٥٥ – أحمد توفيق المدنى : المسلمون فى جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا . الجزائر، ١٩٥٦ م .

٥٦ – أحمد مختار العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب والاندلس ، . الاسكندرية ، ١٩٦٨ م .

٥٧ – حسن ابراهيم حسن : انتشار الإسلام فى القارة الافريقية . القاهرة ، ١٩٦٤ م .

٥٨ – حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى . القاهرة ، ١٩٤٦ م .

٥٩ – حسن ابراهيم حسن : الفاطميون فى مصر وأعمالهم السياسية والدينية ، القاهرة ، ١٩٣٢ م .

٦٠ – حسن ابراهيم حسن : عبيد الله المهدى . إمام الشيعة ومؤسس الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب . القاهرة ، ١٩٤٧ م .

٦١ – حسن ابراهيم حسن : المعز لدين الله إمام الشيعة الاسماعيلى ومؤسس الدولة الفاطمية فى مصر . القاهرة ، ١٩٤٨ م .

٦٢ – حسن أحمد محمود : الإسلام والثقافة العربية فى افريقيا . القاهرة ، ١٩٦٣ .

٦٣ – حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين . القاهرة ، ١٩٥٧ م .

٦٤ – حسن أحمد محمود : العالم الإسلامى فى العصر العباسى القاهرة د.ت.

٦٥ – حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب . القاهرة ، ١٩٤٧ م .

٦٦ – حسين مؤنس : فجر الاندلس . القاهرة ، ١٩٤٦ م .

٦٧ – حسين مؤنس : المسلمون فى حوض البحر المتوسط إلى الحروب الصليبية. القاهرة ، ١٩٥١ م .

٦٨ – حسين مؤنس : السيد القمبيطور وعلاقته بالمسلمين . القاهرة ، ١٩٥٠م.

٦٩ – حسين مؤنس : تاريخ المغرب والاندلس . القاهرة ، ١٩٨٠ م .

٧٠ – زاهر رياض : شمال افريقيا فى العصور الوسطى . القاهرة ، ١٩٨٥ م .

٧١ – زاهر رياض : الممالك الإسلامية فى غرب أفريقيا . القاهرة ، ١٩٦٨ م .

٧٢ – دوزى وينهرت : تاريخ مسلمى إسبانيا : ترجمة حسن حسنى عبد الوهاب . القاهرة ، ١٩٦٣ م .

٧٣ – رولاند ، أوليفر : جون فيج : موجز تاريخ افريقيا ، ترجمة محمد السيد غلاب . القاهرة ، ١٩٦٧ م .

٧٤ – الازدى ، الحميرى : الحافظ أبو نضر : جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الاندلس . القاهرة ، ١٩٦٦ م .

٧٥ – الاندلسى ، ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ، تحقيق شوقى ضيف ، القاهرة ، ١٩١٤ م .

٧٦ – سعيد عبد الفتاح عاشور : بحوث فى تاريخ الإسلام وحضارته . القاهرة ، ١٩٨٧ م .



٧٧ – سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى . الاسكندرية ، ١٩٦٤م.

٧٨ – سيدة اسماعيل كاشف : مصر فى عصر الاخشيديين ، القاهرة ، ١٩٥٠م .

٧٩ – روم لاندو : تاريخ المغرب فى العصر الحديث . ترجمة نقولا زيادة، بيروت، ١٩٦٣ م .

٨٠ – السيد عبد العزيز سالم : قرطبة حاضرة الخلافة الاندلسية . بيروت ، ١٩٧١ م .

٨١ – السيد عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية الإسلامية فى المغرب والاندلس . بيروت ، ١٩٦٩ م .

٨٢ – السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير . القاهرة ، ١٩٦٨ م .

٨٣ – السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الاندلس . بيروت ، ١٩٦٢ م .

٨٤ – شكيب أرسلان : حاضر العالم الإسلامى . القاهرة ، ١٩٣٦ م .

٨٥ – شارل أندريه جوليان . تاريخ افريقيا ، ترجمة طلعت أباظة . القاهرة ، ١٩٦٨ م .

٨٦ – ارشباليد لويس : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ، ترجمة أحمد عيسى ، القاهرة ، ١٩٦٠ م .

٨٧ – صابر محمد دياب : سياسة الدولة الإسلامية فى حوض البحر المتوسط ، القاهرة ، ١٩٧٣ م .

٨٨ – الحبيب الجنحانى : القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية فى المغرب العربى . تونس ، ١٩٦٨ م .

٨٩ – أرنولد توماس : الدعوة إلى الإسلام . ترجمة حسن ابراهيم حسن وآخرون. القاهرة ، ١٩٧٠ م .

٩٠ – عبد الفتاح مقلد الغنيمى : الإسلام والثقافة العربية فى أوربا . القاهرة ، ١٩٧٩ م .

٩١ – عبد العزيز بن عبد الله : معطيات الحضارة المغربية . المغرب ، ١٩٥٧ م.

٩٢ – عبد الرحمن الجيلالى : تاريخ الجزائر العام . القاهرة ، ١٩٥٥ م .

٩٣ – عمر فروخ : العرب والإسلام فى الحوض الغربى من البحر المتوسط ، بيروت ، ١٢٧٨ هـ .

٩٤ – عبد الوهاب بن منصور : قبائل العرب . الرباط ، ١٩٧٠ م .

٩٥ – عز الدين أحمد موسى : النشاط الاقتصادى فى المغرب الإسلامى . بيروت ، ١٩٨٣ م .

٩٦ – عز الدين أحمد موسى : تنظيمات الموحدين ونظمهم فى المغرب . بيروت، ١٩٦٩ م .

٩٧ – عزيز أحمد : تاريخ صقلية الإسلامية ، ترجمة ابن توفيق الطبى . طرابلس ، ١٩٧٠ م .

٩٨ – على عبد الله علام : الدعوة الموحدية بالمغرب . القاهرة ، ١٩٦٤ م .

٩٩ – على عبد الله علام : الدولة الموحدية بالمغرب . القاهرة ، ١٩٧١ .

١٠٠ – الحموى ، محمد ياسين : تاريخ الأسطول العربى . دمشق . ١٩٤٥ م.

١٠١ – محمد جمال الدين سرور : مصر فى عصر الدولة الفاطمية . القاهرة ، ١٩٦٠ م .

١٠٢ – محمد جمال الدين سرور : النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق . القاهرة ، ١٩٦٨ م .



١٠٣ – محمد عوض محمد: الشعوب والسلالات الافريقية. القاهرة، ١٩٦٥م.

١٠٤ – محمد مرسى الشيخ : دولة الفرنجة وعلاقاتها بالأمويين فى الاندلس . الاسكندرية ، ١٩٨١ م .

١٠٥ – محمود بن صالح : العرب والإسلام . القاهرة ، ١٩٨٤ م .

١٠٦ – محمد عبد الله عنان : نهاية الاندلس وتاريخ العرب المتنصرين . القاهرة، ١٩٦٦ م .

١٠٧ – محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والاندلس . القاهرة ، ١٩٦٤ م .

١٠٨ – محمد عبد الهادى شعيرة : المرابطون وتاريخهم السياسى . القاهرة ، ١٩٦٩ م .

١٠٩ – محمد الرشيد ملين : عصر المنصور الموحدى . بنغازى ، ١٩٧٠ م .

١١٠ – محمود على مكى : وثائق تاريخية جديدة . مدريد ، ١٩٦٠ م .

١١١ – مصطفى أبو ضيف أحمد : أثر العرب فى تاريخ المغرب . الدار البيضاء، ١٩٨٢ م .

١١٢ – مراجع عقيلة الغنانى : قيام دولة الموحدين . الرباط ، د. ت .

١١٣ – مورينو ماريتنو ماريو : المسلمون فى صقلية . بيروت ، ١٩٥٧ م .

١١٤ – لطفى عبد البديع : الإسلام فى أسبانيا . القاهرة ، ١٩٥٨ م .

١١٥ – ليفى بروفسال : الإسلام فى المغرب والاندلس . ترجمة عبد العزيز سالم، القاهرة ، ١٩٦٨ م .

١١٦ – ليفى بروفسال : حضارة العرب فى الاندلس . ترجمة ذوقان فرقوط . بيروت . د. ت .

١١٧ – محمد عبد الله عنان : دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح – المرابطى. القاهرة ، ١٩٦٢ م .

١١٨ – محمد حلمى محمد : الخلافة والدولة فى العصر العباسى . القاهرة ، ١٩٧٢ م .

١١٩ – عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر . القاهرة ، ١٩٥٩ م .

١٢٠ – عبد القادر الصحراوى : جولات فى تاريخ المغرب . الدار البيضاء ١٩٦١م .

٣ – الدوريات :

١٢١ – أحمد مختار العبادى : الصفحات الأولى من تاريخ المرابطين ، مجلة كلية الآداب – جامعة الاسكندرية ، ١٩٦٧ م .

١٢٢ – أحمد مختار العبادى : سياسة الفاطميين نحو المغرب والاندلس . معهد الدراسات الإسلامية ، مدريد ، ١٩٥٧ م .

١٢٣ – أحمد مختار العبادى : الموحدون والوحدة الإسلامية ، مجلة التربية الوطنية ، الرباط ، ١٩٦٢ م .

١٢٤ – حسين مؤنس : سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين وأيامهم فى الاندلس . معهد الدراسات الإسلامية ، مدريد ، ١٩٥٤ م .

١٢٥ – حسين مؤنس : الثغر الأعلى الاندلسى فى عصر المرابطين ، مجلة آداب القاهرة ، ١٩٥٤ .

١٢٦ – سعد زغلول عبد الحميد : العلاقة بين صلاح الدين الأيوبى ، وأبى يعقوب المنصور بن يوسف ، مجلة آداب الاسكندرية ، ١٩٥٣ م .



١٢٧ – محمد الفاسى : مدن المغرب فى القرن الأول كما وصفها صاحب السفرة ، مجلة المغرب ، ١٩٣٩ م .

١٢٨ – محمد المنونى : الإمبراطورية الموحدية فى دور الانحلال ، مجلة دعوة الحق ، الرباط ، ١٩٦٤ م .

١٢٩ – محمود على مكى : التشيع فى الاندلس معهد الدراسات الإسلامية . مدريد ، ١٩٥٤ م .

١٣٠ – عبد الحميد محمود الشرقاوى : الملاحة البحرية الاندلسية فى القرنين الثالث والرابع الهجريين ، ماجستير كلية الآداب – جامعة القاهرة ، ١٩٣٥ م .

## المصادر الأجنبية

1 - Barth, H. : Travels in North and central Africa, London, 1858.

2 - Bel, A. : Ali Ben Youssef Encyc. of Islam.

3 - Deccnival, P. : Morrokoeh, Encyc. of Islam.

4 - Dozy, R. : Histoire des Musulmanes d'Espagne, Leyden, 1861.

5 - Gayangos, P. : History of the Mohammedan dynasties in Spain.

6 - Gold Ziher : Mohammed Ibn Toumart, " dans le Nord d'Afrique " Alger, 1903 .

7 - Julien, A : Histoire de l'Afrique du Nord, Paris, 1931.

8 - Marcais, G. : Les Arabes en Berberie du 9 au 14 siecle, Paris, 1913.

9 - Scott, s. P. : History of the Moorish empire in Europe, London, 1904.

10 - Terrasse, H. : Histoire du Maroc, Casablanca, 1964.

11 - Prescoh, W. : History of the reigon of Ferdinand and Isabella the Catholic, London, 1895.

12 - Levi Provencal, E. : Histoire de " Espogne Musulmane " . Paris, 1950.

13 - Hopkins, J.E. : Medieval Muslim government in Barbary, London, 1958.

14 - Golvin, L. : Le Magreb Central d'époque des Ziridés, Paris, 1957.

15 - Ali Fahmy : Muslim Sea Power in Eastern Mediterranean, 1957.

16 - Leory, O. : A short History of the Fatimid Khalfate.

17 - Gautier, E.F. : La passe d'Afrique du Nord, 1942.

18 - Gautier, E.F. : Islamisation de l'Afrique du Nord, Uaris, 1927.

19 - Brunschvig : La Berberie oriental sousles Hofsides. Paris, 1947.

20 - Gatein, S.D. : A Mediterranean Society, Los Anglos, 1957.

21 - Massignon, L. : Le Maroc dans le premiéres années du XVI siecles, Alger, 1906.

22 - Warmington, B. : The North African Provinces, Cambridge, 1954.

23 - Welsh, A. : Africa South the Shara, London, 1961.

24 - Newman, B. : Morocco to day, London, 1923.

25 - Yalaow : Les relations entre Fatimides de l'Afriquiyya et Omayyades, Madrid, 1937.

26 - Gaudel, : Les premiéres invasions des Arabes dans l'Afrique du Nord, 1900.

27 - Dachraoui, F. : Contribution d'histoire des Fatimidles en Afriquyya, 1961.





# الفهرس

| الموضوع | صفحة |
|---|---|
| المقدمة | ٩ |
| **الجزء الأول : الدولة الفاطمية الشيعية فى المغرب** | ١٣ |
| **الباب الأول : كيف شهر التشيع فى العالم الإسلامى** | ١٥ |
| خلافة عثمان بن عفان وظهور التشيع بصورة واضحة | ٢٠ |
| خلافة على بن أبى طالب وما تم من أحداث | ٢٥ |
| نشاط الشيعة فى العصر الأموى | ٢٩ |
| بيعة يزيد بن معاوية بالخلافة ودور الشيعة | ٣١ |
| الحسين بن على ومذبحة كربلاء وازدياد الدور الشيعى | ٣٢ |
| المذهب الشيعى بعد كربلاء | ٣٤ |
| الشيعة والخلافة العباسية | ٤١ |
| **الباب الثانى : الفرقة الاسماعيلية والدعوة فى المغرب** | ٤٧ |
| اليمن مركز العدوة الشيعية | ٥٢ |
| رجل الدعوة أبو عبد الله الشيعى | ٥٤ |
| كيفية الوصول إلى المغرب | ٥٥ |
| الطور السياسى العسكرى للدعوة | ٥٨ |
| بداية الكيان السياسى للدولة الشيعية | ٦١ |
| **الباب الثالث : الدولة الفاطمية كيان سياسى فى العالم الإسلامى** | ٦٤ |
| عبيد الله المهدى والخليفة الشيعى الفاطمى الأول | ٧١ |

عبيد الله المهدى ومحاولة الاستيلاء على مصر ٧٦

ثورة الخوارج بقيادة أبى يزيد بن مخلد ٧٧

الخليفة الفاطمى الثانى القائم بأمر الله أبو القاسم ٧٩

الخليفة الفاطمى الثالث المنصور أبو الطاهر اسماعيل ٨٠

الخليفة الرابع والأخير فى المغرب المعز لدين الله أبو تميم سعد ٨٢

**الباب الرابع : الانجازات الفاطمية فى المغرب فى عهد الخلافاء الأربعه** ٨٦

الفاطميون والبحرية ٨٦

الفاطميون وحكم جزيرة صقلية ٨٨

الفتح الفاطمى الشيعى لمصر ٩٢

الخلفاء الفاطيمون الذين حكموا فى المغرب ٩٩

**الحزء الثانى : خلافة المرابطين فى المغرب والاندلس** ١٠٠

**الباب الخامس : ظهور المرابطين** ١٠١

قبائل صنهاجة الصحراء ١٠١

وحدة صنهاجة الأولى بقيادة نيولوتان بن نيكلا ١١٠

**الباب السادس : صنهاجة ودور عبد الله بن ياسين** ١١٦

عبد الله بن ياسين ودوره فى بناء دولة المرابطين ١١٩

الصدع بالدعوة والخروج من الرباط ١٢٥

**الباب السابع : المرابطون بعد عبد الله بن ياسين ودورهم فى المغرب** ١٣٠

**الباب الثامن : يوسف بن تاشفين ودوره فى المغرب** ١٣٨

**الباب التاسع : جهاد المرابطين فى الاندلس** ١٥٠





القوى الإسلامية تقهر قوات أوربا الصليبية

معركة الزلاقة ودور المرابطين ١٥٨

يوسف بن تاشفين وعزل ملوك الطوائف وتوحيد الاندلس ١٦٤

يوسف بن تاشفين وبناء الدولة الجديدة فى المغرب والاندلس ١٦٧

البحرية الإسلامية فى عهد المرابطين ١٦٩

الدولة بعد يوسف بن تاشفين ١٧٧

**الباب العاشر : مآثر المرابطين فى المغرب والاندلس**

خلفاء المرابطين ١٨٠

**الجزء الثالث : ظهور دولة الموحدين على مسرح الأحداث فى المغرب والاندلس** ١٩٣

**الباب الحادى عشر : ظهور الموحدين** ١٩٣

دور الفقيه محمد بن تومرت

الصدام الموحدى مع المرابطين

**الباب الثانى عشر : عبد المؤمن بن على والكيان السياسى للموحدين** ٢٠٣

عبد المؤمن بن على وحكمه

الموحدون بن عبد المؤمن بن على

أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن

**الباب الثالث عشر : الدولة الموحدية فى عصر ازدهارها** ٢٢٠

أبو يعقوب يوسف المنصور

الصراع مع بنى غانية بقايا المرابطين

الخليفة المنصور الموحدى وجهاده فى الاندلس

نجاح الجهاد الموحدى وانتصار الأرك الباهر

**الباب الرابع عشر : بداية انهيار الدولة الموحدية** ٢٣٦

الخليفة الموحدى الرابع أبو محمد عبد الله الناصر

موقعة العقاب وضعف السيادة الإسلامية

جهاد الناصر لدين الله فى الاندلس

**الباب الخامس عشر : الدولة الموحدية بعد الناصر لدين الله** ٢٤٦

يوسف المنتصر

أبو محمد عبد الله المنصور العادل

يحيى بن الناصر

الخليفة المأمون بن المنصور

الرشيد بن المأمون بن المنصور

أبو جعفر عمر المرتضى

الموحدون وبناء القوة البحرية

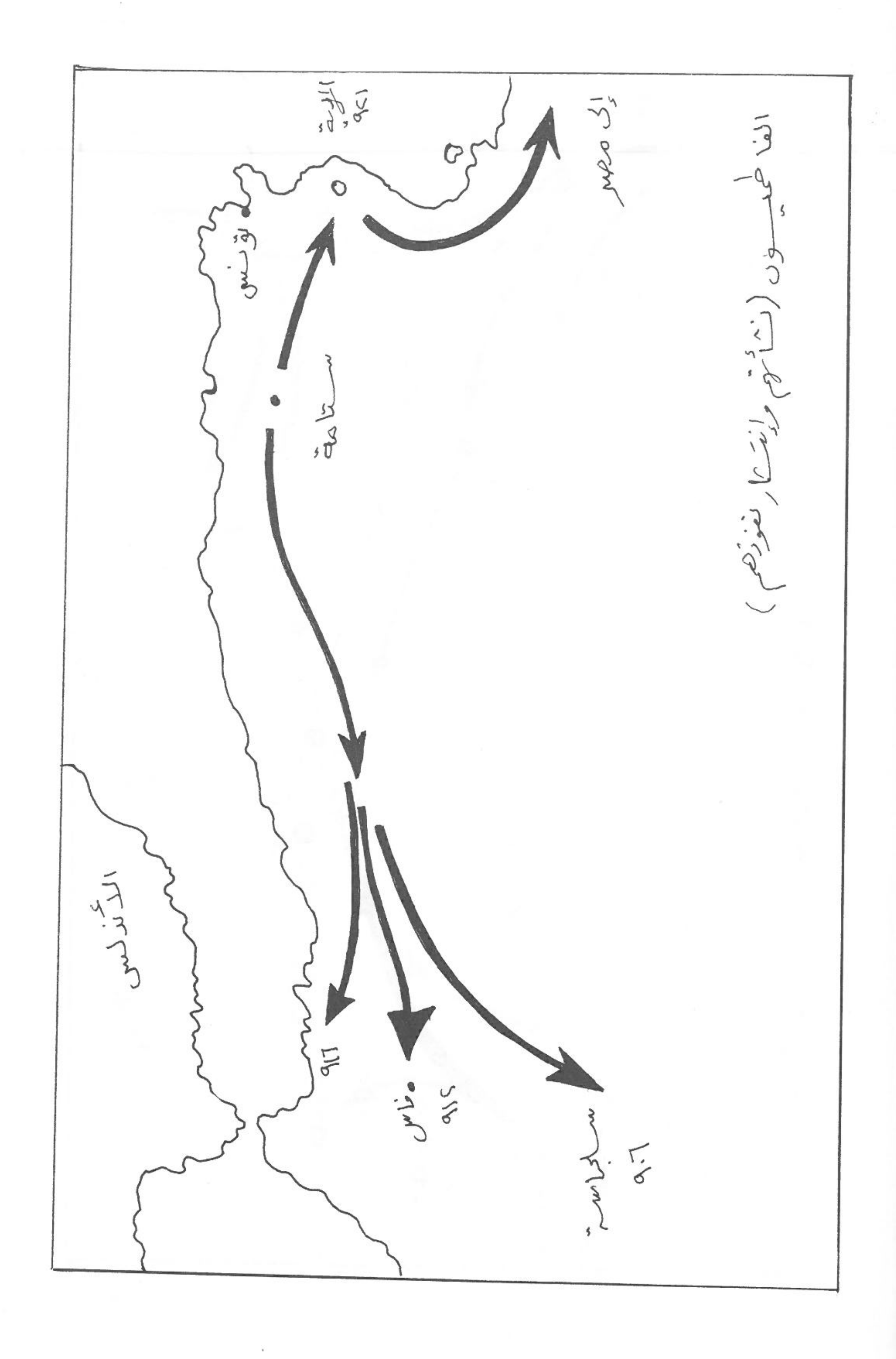
**الباب السادس عشر : مآثر الموحدون الحضارية فى المغرب والاندلس** ٢٦٠

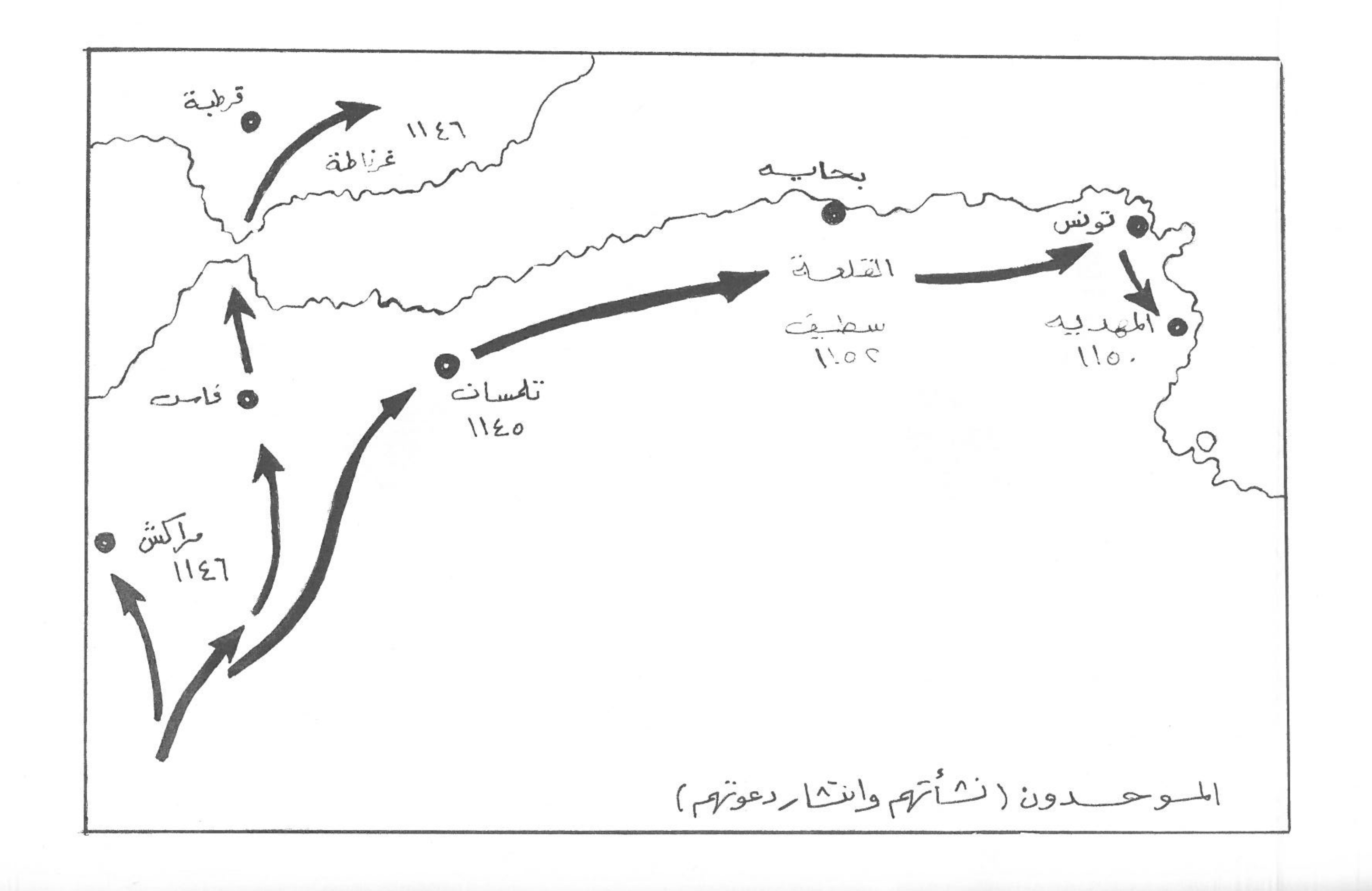
خلفاء الموحدين

**الخاتمة** ٢٧٤

**المصادر والمراجع** ٣٠١


**تم بحمد الله**





قرطبة
غرناطة ١١٤٦
بجاية
تونس
القلعة
سطيف ١١٥٢
المهدية ١١٥٠
فاس
تلمسان ١١٤٥
مراكش ١١٤٦
الموحدون (نشأتهم وانتشار دعوتهم)



المرابطون (نشأتهم وانتشار دعوتهم)
الأندلس
الزلاقة
فاس
تلمسان
الجزائر
بجاية
القلعة
تونس
بنو هلال

# موسوعة تاريخ المغرب العربى

المغرب العربى بين

بنى زيرى وبنى هلال وبنى حماد

الغزوة الهلالية صفحة مضيئة من تاريخ المغرب

دراسة فى التاريخ الإسلامى

الجزء الرابع







إلي إبنى محمـــد

تيمنا باسم الرسول العظيم ﷺ . رؤية المستقبل وصورة الماضى وحلم الأيام وهو يقترب من نهاية عامه الحادى عشر راجيا المولى العلى القدير أن يجعله ابنا باراً مباركاً.

هذا الجزء الرابع من موسوعة المغرب العربى .

دكتور

عبد الفتاح مقلد الغنيمى

## التمهيد

هذا هو الجزء الثالث من موسوعة تاريخ المغرب العربى والذى كان يجب أن لايكون على تلك الصورة من حيث الأحداث التاريخية ذلك لأن هذه الدويلات الزيرية والحمادية وما تلاها من أحداث ووصول الهجرة العربية الهلالية الواسعة إلى المغرب كانت تتطلب أن تكون متممة للدولة الفاطمية التى كانت جزءا من الجزء الثانى من هذه الموسوعة وأن تكون هذه الدراسة مكملة لها وفاصلا بينها وبين دولة المرابطين والموحدين اللتين اشتمل عليهما الجزء الثانى ، لكن الحديث عن الفاطميين والمرابطين والموحدين فى الجزء السابق لم يكن إلا حديثا عن أهم وأكبر ثلاث دول ظهرت فى تاريخ المغرب الإسلامى حتى عصرنا الحالى ، فلم يشهد المغرب العربى منذ الفتوحات الإسلامية الأولى فى القرن الهجرى الأول قيام كيان موحد إلا فى ظل هذه الدول الثلاث ( الفاطمية والموحدية ) وإن ضمت المرابطين المغرب الأقصى وجزءا كبيرا من المغرب الأوسط .

ومن هنا فانى أرجو القارئ الكريم أن يقبل بصدر رحب هذا الوضع الدراسى وليس الزمانى التاريخى ، ذلك لأن الحديث عن الفاطميين وبنى زيرى وبنى حماد فى جزء واحد لم يكن ليضع أعظم ثلاث دول فى المغرب الإسلامى فى دراسة شاملة وهذا مما قصدت إليه من وراء ذلك . علما بأن تسلسل الأحداث التاريخية لم يكن بالضرورة إلا فى إطار المنهج الذى تسير عليه هذه الدراسة وهو وضع صورة متكاملة للمغرب الإسلامى من خلال الدول أو الدويلات التى ظهرت على ساحته السياسية ومارست نوعا من السلطة والتأثير .

كذلك فان قيام دراسة علمية عن الغزوة الهلالية والنظرة إليها نظرة موضوعية علمية دون تأثر بما كتب عنها من كتابات معادية أو خاضعة لتأثير قوى سياسية معاصرة لها وقت الحديث عن الغزوة الهلالية دفعنى لكى أفند هذه الأباطيل والأقوال غير العلمية التى حاولت أن تشوه الوجه الحضارى الباسم لهذه الغزوة التى غيرت وجه



المغرب وصانت له إسلامه وعروبته وحضارته ودافعت عن كيانه السياسى ومحاولة ابعاده عن العرب والإسلام .

ولهذا فان الذى يطالع هذا الجزء من الموسوعة سوف يجد متعة ذهنية وفكرية وعلمية حين يجد أن كل ما قيل عن الغزوة الهلالية لم يكن إلا بهتانا وزورا قصد من ورائه ارضاء رغبة الحكام والخضوع لما يطلبون من امتهان وكراهية للعرب الذين كان لهم الدور الأكبر فى إثراء المغرب جنسيا وحضاريا وثقافيا وعمرانيا واجتماعيا والذين لم يكونوا إلا مسيرة لاحقة لمسيرات سابقة عبر أغوار التاريخ قام بها الفينقيون الذين كانوا فى الأصل عربا وتفرع منهم البربر الذين سكنوا الديار فجاء أخوة العروبة والإسلام لينضموا إلى من سبقهم فى الهجرة إلى هذه الديار .

ومن هنا كان هذا الجزء دراسة وافية عن بنى زيرى وبنى هلال وبنى حماد طوال القرون الثلاثة الهجرية ( الرابع والخامس والسادس ) سيرة سياسية وحضارية على أرض المغرب .

# التمهيد

هذا هو الجزء الثالث من موسوعة تاريخ المغرب العربى والذى كان يجب أن لايكون على تلك الصورة من حيث الأحداث التاريخية ذلك لأن هذه الدويلات الزيرية والحمادية وما تلاها من أحداث ووصول الهجرة العربية الهلالية الواسعة إلى المغرب كانت تتطلب أن تكون متممة للدولة الفاطمية التى كانت جزءا من الجزء الثانى من هذه الموسوعة وأن تكون هذه الدراسة مكملة لها وفاصلا بينها وبين دولة المرابطين والموحدين اللتين اشتمل عليهما الجزء الثانى ، لكن الحديث عن الفاطميين والمرابطين والموحدين فى الجزء السابق لم يكن إلا حديثا عن أهم وأكبر ثلاث دول ظهرت فى تاريخ المغرب الإسلامى حتى عصرنا الحالى ، فلم يشهد المغرب العربى منذ الفتوحات الإسلامية الأولى فى القرن الهجرى الأول قيام كيان موحد إلا فى ظل هذه الدول الثلاث ( الفاطمية والموحدية ) وإن ضمت المرابطين المغرب الأقصى وجزءا كبيرا من المغرب الأوسط .

ومن هنا فانى أرجو القارئ الكريم أن يقبل بصدر رحب هذا الوضع الدراسى وليس الزمانى التاريخى ، ذلك لأن الحديث عن الفاطميين وبنى زيرى وبنى حماد فى جزء واحد لم يكن ليضع أعظم ثلاث دول فى المغرب الإسلامى فى دراسة شاملة وهذا مما قصدت إليه من وراء ذلك . علما بأن تسلسل الأحداث التاريخية لم يكن بالضرورة إلا فى إطار المنهج الذى تسير عليه هذه الدراسة وهو وضع صورة متكاملة للمغرب الإسلامى من خلال الدول أو الدويلات التى ظهرت على ساحته السياسية ومارست نوعا من السلطة والتأثير .

كذلك فان قيام دراسة علمية عن الغزوة الهلالية والنظرة إليها نظرة موضوعية علمية دون تأثر بما كتب عنها من كتابات معادية أو خاضعة لتأثير قوى سياسية معاصرة لها وقت الحديث عن الغزوة الهلالية دفعنى لكى أفند هذه الأباطيل والأقوال غير العلمية التى حاولت أن تشوه الوجه الحضارى الباسم لهذه الغزوة التى غيرت وجه



المغرب وصانت له إسلامه وعروبته وحضارته ودافعت عن كيانه السياسى ومحاولة ابعاده عن العرب والإسلام .

ولهذا فان الذى يطالع هذا الجزء من الموسوعة سوف يجد متعة ذهنية وفكرية وعلمية حين يجد أن كل ما قيل عن الغزوة الهلالية لم يكن إلا بهتانا وزورا قصد من ورائه ارضاء رغبة الحكام والخضوع لما يطلبون من امتهان وكراهية للعرب الذين كان لهم الدور الأكبر فى إثراء المغرب جنسيا وحضاريا وثقافيا وعمرانيا واجتماعيا والذين لم يكونوا إلا مسيرة لاحقة لمسيرات سابقة عبر أغوار التاريخ قام بها الفينقيون الذين كانوا فى الأصل عربا وتفرع منهم البربر الذين سكنوا الديار فجاء أخوة العروبة والإسلام لينضموا إلى من سبقهم فى الهجرة إلى هذه الديار .

ومن هنا كان هذا الجزء دراسة وافية عن بنى زيرى وبنى هلال وبنى حماد طوال القرون الثلاثة الهجرية ( الرابع والخامس والسادس ) سيرة سياسية وحضارية على أرض المغرب .

## المقدمـــة

الحمد لله رب العالمين القائل « وقل ربى زدنى علما » والصلاة والسلام على النبى الخاتم محمد بن عبد الله ﷺ القائل « اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد » وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه وسنته إلى يوم الدين .

أمـا بعـــد .

فهذا هو الجزء الثالث من موسوعة تاريخ المغرب العربى . نضعه بين يدى القارئ العلمى الأكاديمى المتخصص فى الدراسات التاريخية الإسلامية وطلاب الدراسات العليا وطلاب مرحلة الليسانس والقارئ العادى المطلع المثقف الشغوف لمعرفة تاريخ عالمنا العربى والإسلامى لكى يكون إضافة إلى أبحاث كثيرة أعدت فى هذا الجانب لكن هذه الدراسة جاءت بصورة مغايرة عما سلفها من أبحاث ودراسات . ذلك لأنها دراسة متكاملة عن الحقبة الإسلامية منذ الفتح الإسلامى للمغرب حتى بداية التاريخ الحديث وظهور الدولة السعدية فى المغرب الأقصى ووقوع بلاد المغرب الأدنى والأوسط تحت السيطرة التركية العثمانية .

وقد حاولت فى هذه الدراسة أن ألم بجوانب الموضوع الخصبة والتى لم تمتد إليها الأبحاث السابقة لعلى أكون قد قدمت جديدا فى هذا المجال .

وقسم هذا الجزء إلى ثلاثة أبواب كل باب منها قسم إلى عدة فصول وكل باب يعالج موضوعا معينا تندرج تحته الفصول التى تكون هذه الدراسة ثم تلتها الأبواب الأخرى التى تنهى حقبة زمنية معينة فالباب الأول تحدثت فيه عن دولة بنى زيرى فى المغربين الأدنى والأوسط ثم تندرج تحته ستة فصول : الفصل الأول عن بنى زيرى على مسرح الأحداث فى المغرب وكيف ظهرت أثر ترك الخلافة الفاطمية للمغرب وبنى زيرى فى ظل الخلافة والتبعية الفاطمية ، وجاء الفصل الثانى عن السيادة الزيرية على المغرب والانفصال عن الفاطميين وظهور الكيان الزيرى كدولة مستقلة ودور المعز بن



باديس فى حركة الاستقلال وانتصار المذهب السنى على المذهب الشيعى فى المغرب ، وكان الفصل الثالث يعالج موضوعا لابد من ذكره فى سياق هذا الباب وإن كنت قد أفردت له دراسة مستقلة عن زحف بنى هلال إلى المغرب وكيف آلت الأمور فى دولة بنى زيرى بعد الزحف الهلالى وفى الفصل الرابع تحدثت عن المظاهر الحضارية والحياتية فى الدولة ومنها الحياة الاقتصادية والمظاهر الحضارية والثقافية والاجتماعية ثم كان تابعا لها حديث عن الجيش والأسطول والشرطة ودور كل منها فى الحياة الزيرية ، والفصل الخامس عالجت فيها العلاقات الخارجية مع دول العالم وكان الحديث فيه عن العلاقات الزيرية مع الخلافة الفاطمية بالقاهرة والعلاقات مع المرابطين فى المغرب الأقصى والعلاقات مع بنى حماد ثم العلاقات مع الموحدين والعلاقات مع صقلية ومع دول جنوب أوربا ودور الدولة الزيرية فى هذه العلاقات .

والفصل السادس وهو نهاية الباب الأول وكان الحديث فيه عن سقوط الدولة ونهايتها وقائمة بأسماء حكام بنى زيرى فى القيروان والمهدية والعوامل التى أدت إلى هذا الانهيار .

ثم كان الباب الثانى فى هذا الجزء من الموسوعة عن الغزوة الهلالية لبلاد المغرب ولقد آثرت أن يكون هذا الباب هو حلقة الربط بين الباب الأول والثالث لدوره التاريخى فى هاتين الدولتين اللتين ظهرتا فى المغرب الأدنى والأوسط ففى الفصل الأول تحدثت عن بنى هلال قبل الرحيل إلى المغرب وأنسابهم وبطونهم وبنى هلال والدولة الفاطمية، ثم الفصل الثانى عن بنى هلال فى المغرب وصراعهم مع المعز بن باديس والسيطرة على القيروان العاصمة ورحيل ابن باديس إلى المهدية ، وفى الفصل الثالث عالجت موضوع القبائل الهلالية بعد القيروان ودورها فى الأحداث التى جرت فى المغرب ، ثم الفصل الرابع عن الامارات العربية التى خضعت للحكم الهلالى فى صورة شبه مستقلة أو حكم ذاتى ، والفصل الخامس عن بنى هلال وعلاقاتهم بالنورمان ودورهم فى صد غاراتهم وصراعهم مع الموحدين ثم كان الفصل السادس عن المآثر الحضارية للغزوة

الهلالية وأثر البعد الاجتماعى والاقتصادى للغزوة الهلالية فى الحياة اليومية فى المغرب بأقسامه المختلفة .

وكان الفصل السابع الذى تحدثت فيه عن أسباب الحملة العدائية التى شنت ضد بنى هلال وحاولت أن أبين للقارئ الكريم أسباب هذه الحملة العدائية ثم تلاه الفصل الثامن والأخير فى هذا الباب وفيه تناولت بالتحليل الموضوعى والعلمى الأسانيد الصحيحة للرد على ابن خلدون فيما نسبه للهلالية وفى حقيقة الأمر فان الفصلين السابع والثامن هما أخطر ما فى هذه الموسوعة لأنهما دراسة لم يسبق الإشارة إليها من قبل ولم يحاول باحث سابق أن يدحض مزاعم ابن خلدون العدائية للعرب الهلالية .

ثم كان الباب الثالث وهو خاتمة هذا الجزء وفيه تحدثت عن بنى حماد وظهورهم على مسرح الأحداث فى المغرب الأوسط وتم تقسيم هذا الباب إلى ستة فصول ، الفصل الأول تناولت فيه البحث عن ميلاد الدولة الحمادية ككيان مستقل وشمل الحديث عن الدولة الحمادية وظهورها بالقلعة كعاصمة سياسية والحكام الذين حكموا فيها كحماد بن بلكين الزيرى والقائد بن حماد ومحسن بن القائد وبلكين بن حماد ودور كل منهم فى أحداث الدولة وتلاه الفصل الثانى وتناولت فيه البحث والتحرى عن الدولة الحمادية بالعاصمة الجديدة بجاية ومن هم الأمراء الذين حكموا فى هذه العاصمة وهم الناصر بن علناش الحمادى ، والمنصور بن الناصر وباديس بن المنصور والعزيز بن المنصور ، ثم يحيى بن العزيز الذى كان خاتمة حكام بنى حماد .

والفصل الثالث عالجت فيه موضوع مآثر الحكم الحمادى بالمغرب الأوسط وأثر البعد الاجتماعى والبعد الاقتصادى والمنظور الثقافى والحضارى للدولة وظهور فن البناء والتشييد والهندسة الإسلامية المعمارية .

والفصل الرابع عن الجيش والأسطول والشرطة ودورها فى تدعيم كيان الدولة والمحافظة على وجودها .



وكان الفصل الخامس عن السياسة الخارجية لإمارة بنى حماد كالسياسة الخارجية مع أبناء عمومتهم بنى زيرى ثم العلاقات مع الخلافة الفاطمية فى القاهرة والعلاقات مع المرابطين بالمغرب الأقصى وأيضا العلاقات مع الأندلس وأيضا العلاقات مع الدول الأوربية المعاصرة لاسيما مع بابوات روما وأثر ذلك على حركة الجهاد الإسلامى فى هذه العصور ثم العلاقات المحلية الداخلية كالعلاقات مع بنى هلال وزناتة .

وكان الفصل السادس عن نهاية العرش الحمادى وسقوط الدولة وأسرة بنى حماد الذين حكموا البلاد ثم كانت خاتمة تلك الدراسة وما تم الوصول إليه من نتائج علمية وجاءت نهاية المطاف قائمة المصادر والمراجع العربية والأجنبية التى عولت عليها فى هذه الدراسة وللحقيقة فقد استفدت من الدراسات العلمية التى قدمت فى كلية دار العلوم حول هذه الكيانات الثلاثة وإن كانت هذه الدراسات لم تعالج جوانب الموضوع ولكل باحث أو دارس أو متعمق رؤية للأحداث التاريخية وطرق تحليلها ودراستها .

وفى هذا المجال أرجو من الله العلى القدير أن يكون هذا الجهد العلمى خالصا لوجهه ساعيا به أن يكون ثوابه رحمة ومغفرة من رب العباد وأن يفتح به الطريق أمام الذين يحاولون إعادة كتابة التاريخ الإسلامى من زاوية عربية إسلامية تخلصا مما علق به من كيد المستشرقين والمناهضين للحق الإسلامى والمشوهين للوجه المشرف للتاريخ الإسلامى وحضارته الخالدة الوارفة الظلال الزاخرة بنتاج العلماء الذين أثروا الحضارة العالمية والذين تركوا بصماتهم فى المجال الحضارى وأن يتابع أبناء اليوم مسيرة الحياة الحضارية العلمية الابداعية من أجل أمتنا العربية والإسلامية .

والله ولى التوفيق .

عبد الفتاح مقلد الغنيمى

الملك فيصل – الهرم – القاهرة

٦ شعبان ١٤١٢ هـ / ١١ فبراير ( شباط ) ١٩٩٢

# الباب الأول

## دولة بنى زيرى

### بنى زيرى والدولة الفاطمية

قامت الدولة الفاطمية فى المغرب وحالفتها كتامة وصنهاجة وسارتا فى ركابها وبدأت الدولة الجديدة تتوسع صوب المغرب وكان الصراع على أشده بين الفاطميين وأحلافهم وبين زناتة التى كانت وأحلافها صاحبة السيادة على المغرب الأقصى بالإضافة إلى أن زناتة قد اتخذت المغرب الأوسط والأقصى وطنا لها .

وكانت منازل ومرابط صنهاجة وزناتة متجاورة مختلطة والعداء بينهما معروف ذلك العداء الذى عرفه تاريخ المغرب ، لكن خرج هذا النزاع المحلى إلى نطاق أوسع حيث ساندت صنهاجة الدولة الفاطمية منذ قيامها وكان هذا التأييد الصنهاجى قد حقق أحلام الفاطميين وأتاح لجنود الفاطميين أن تتوسع شرقا وغربا ووقفت زناتة فى المغرب الأوسط موقف الحذر ثم أخذت تهاجم المدن مما دعا الدولة الفنية أن تهاجمها اعتمادا على قوات صنهاجة وكتامة ولم تستطع زناتة أن تصمد طويلا أمام قوات هذه الدولة الناهضة .

وسيطرت زناتة على المغرب الأقصى وبايعت عبد الرحمن الناصر فى الاندلس وأحس الفاطميون أن زناتة أصبحت خطرا على كيان الدولة فكان إرسال الحملات العسكرية لاستعادة المغرب . واتخذ العداء بين الطرفين صورة جديدة من الحروب العنيفة والغارات المتواصلة .

وأمعن الصنهاجيون كيدا لزناتة فى تأييد الفاطميين أكثر من ذى قبل . فأقام مناد بن منقوش زعيم صنهاجة سلسلة من الحصون فى أملاكه استطاع عن طريقها أن يصد عدوان زناتة عن أفريقية وكانت زناتة بالمغرب الأوسط لاتزال قوية وبرز دور مناد كمساند أول للدولة الفاطمية والتى اعتمدت عليه كثيرا .



لكن الخطر الزناتى بلغ أشده فى ثورة أبى يزيد بن مخلد بن كيداد الذى كاد أن يقضى على ملك الفاطميين فى أفريقية وبقية المغرب ، لكن الفاطميين انتصروا وهزمت زناتة ولاذت قبائلهم بالفرار وزال خطر أبى يزيد وما أن انتهت ثورة أبى يزيد حتى كانت قوات الفاطميين تغزو المغرب الأوسط وتصدعت جبهة زناتة وتفرق شملها وتقلص نفوذها وبدأت زناتة ترحل بالتدريج من المغرب الأوسط إلى المغرب الأقصى وأمعن ابن زعيم صنهاجة زيرى ( تستمد الدولة اسمها منه ) بن مناد بن منقوش الصنهاجى فى حربهم والتقى بقوات زناتة فى موقع بين أشير وتلمسان وأحرز نصرا عظيما عليهم كما ذكر ذلك جوتيه وحوصر العدو وبذلك تمت سيادة صنهاجة على المغرب الأوسط بعد ذلك النصر ، إذ لولا ذلك الانتصار العظيم الذى حققه زيرى بن مناد لما قدر للمعز أن يبايع صنهاجة وأن تخلف الفاطميين فى حكم المغرب .

وتوفى زيرى ، تاركا ابنه أحد أبطال البربر البرانس فى أفريقية وهو بلكين الذى قاد قوات صنهاجة لتهزم زناتة والتى لم تستطيع الصمود أمامه فولت الأدبار صوب سجلماسة وراح بلكين ينتزع منها مدن المغرب الأوسط فاسترد طبنة وبغاية والمسيلة وبسكرة وتلمسان وقتل من زناتة فى هذه المعارك جموعا لا تحصى وأصبح المغرب الأوسط لأول مرة منذ الغزو والفتح الإسلامى خاليا من زناتة وهاجرت فولوها إلى المغرب الأقصى وبذلك فان سيطرة صنهاجة بقيادة زعيمها بلكين الذى بدأ نجمه يسطع فى سماء الفروسية والقتال والسياسة والذى استعان به الفاطميون وأدركوا قوته فزاد اعتمادهم عليه . وقد أصبحت صورة حقيقية وواقعة فى مجال السياسة المغربية .

ولكن بلكين والذى أصبح من أكبر قواد الدولة والزعيم الأوحد بعد والده زيرى لصنهاجة رأى تدخل الأمويين بالأندلس فى عهد المستنصر قد ازداد فى المغرب الأقصى وساندوا زناتة ومدوا لها يد العون وقضى على نفوذ الخلفاء الفاطميين فى المغرب الأقصى وعاد المغرب الاقصى إلى طاعة الأمويين ، لكن بلكين كان لها بالمرصاد إذ

انقض على المغرب الأقصى لينال من زناتة فى عقر دارها الجديد فاسترد سجلماسة وفاس وهزم زناتة شر هزيمة . ولاذوا بالفرار إلى سبتة ليكونوا تحت حماية الأسطول الأموى .

وفى ذلك الوقت كانت عين المعز على مصر وكان يعد العدة للغزو حيث أنه رأى أن قوة الفاطميين فى المغرب قد تزعزعت بثورة أبى يزيد التى قضى عليها الصنهاجيون وأصبحوا بقيادة زيرى ومن بعده ابنه بلكين أصحاب القوة فى الدولة وكان باب مصر وفتحها هو الخلاص الوحيد أمام الخليفة الرابع أبى تميم مضر بالملقب بالمعز لدين الله والذى تولى الحكم فى ذى القعدة عام ٣٤١ هـ / ٩٥٢ م . وهذا هو الهدف الذى كان يسعى إليه الخليفة الفاطمى الرابع فى المغرب .

## الانتقال إلى مصر وبداية ظهور بنى زيرى :

ليس هناك أدنى شك فى أن الخليفة الفاطمى المعز لدين الله كان أقدر الفاطميين وأبعدهم رؤية فى بناء المستقبل السياسى للدولة إذ أنه أدرك أنه لايستطيع البقاء والاستمرار فى حكم المغرب بعد الصراع الطويل بين المالكية والاسماعيلية (المذهب الشيعى ) وبعد ثورة أبى يزيد بن كيداد الملقب بصاحب الحمار ونفور الناس من الفاطميين واتهامهم بالخروج عن الإسلام وأفتى زعماء السنة بأن حربهم حرب جهاد وأن محاولات السيطرة على المغرب الأوسط بقيادة صنهاجة لم تكن تؤدى إلى ما يبتغيه الفواطم ذلك لأن بنى زيرى بقيادة بلكين كانوا أصحاب القوة والسيادة فيه وهم بدورهم حلفاء الفاطميين والذين لايعصون لهم أمرا ولا خطر على الدولة من ناحيتهم .

وكان النفوذ الفاطمى فى المغرب الأقصى رغم جهود صنهاجة بقيادة بلكين لم يخضع الخضوع النهائى فسرعان ما كان يثور عندما تعود قوات صنهاجة إلى المغرب الأوسط وكان المستنصر بن عبد الرحمن الناصر الأموى قد تمكن من طرد قوات الفاطميين من المغرب الأقصى والقضاء على نفوذهم وأصبح المغرب تحت حكم مغراوة



وبنى يفرن من زناتة وسيادة الأمويين فى سبتة وأدرك المعز لدين الله بعد مناقشات مع كبار قواده ومنهم جوهر الصقلى وبلكين بن زيرى أن المغرب وأفريقية لم يعودا الوطن الخصب للدعوة الشيعية فلابد من الاستيلاء على مصر .

وحشد المعز مائة ألف جندى وقيل أنه صرف على إعداد هذا الجيش أكثر من أربعة وعشرين مليونا من الدنانير عدا ما حمله ألف جمل من صناديق الذهب للصرف منها على الحملة وقد وصف أحد المصريين بالاسكندرية عند دخول هذا الجيش إليها بأنه مثل « جمع عرفة كثرة وعدة » وكان المعز قد دخل الاسكندرية فى شعبان عام ٣٦٢ هـ / ٩٧٣ م .

ولكن قوله حق فان الفاطميين طوال تاريخهم الطويل لم يكونوا بيتا محببا من الناس والعامة ولم يكونوا وثيقى الصلة بالشعب الذى يحكمونه فكما كانوا غرباء فى المغرب كانوا غرباء فى مصر والشام وكل موقع وصلت إليه دعوتهم الشيعية حيث كان المالكية قد وقفوا بالمرصاد للدعوة الشيعية واحتدم الصراع بين المالكيين والشيعة وكثرت الثورات مما جعل الفاطميين يفكرون فى قاعدة جديدة تستطيع الدعوة الشيعية أن تجد فيها الأمن والاستقرار والانتشار بدلا من المغرب وأهله فاتجهت وجهتهم صوب مصر .

وهكذا كان فتح مصر هو الموقف الذى يتلاءم طبيعيا مع ما وجد المعز لدين الله نفسه فيه وكانت الظروف كلها تقف فى صفه واستقر المعز فى مصر واستقبل أعيان المصريين وهو يحمل بيده اليسرى قدرا من الدنانير الذهبية وفى اليد اليمنى سيفا مسلولا وقال لهم ( من لم يرض بهذا – إشارة إلى الذهب فله هذا إشارة إلى السيف ) .

وكان آل زيرى من صنهاجة هم الذين أتاحوا للخلافة الفاطمية سبيل القضاء على نفوذ الأمويين فى المغرب الأقصى واستمرت معونتهم للفاطميين أكثر من أربعين عاما كانوا هم العدة والسند القوى والمساندة السريعة وكان دورهم فى ذلك حاسما

ووثق بهم أبو القاسم إلى حد أنه سمح لهم ببناء عاصمة لهم هى أشير على سفح الجبل الأخضر .

ورحل الفاطميون عن المغرب إلى مصر بعد أن حكموه أكثر من ستين عاما لم يقدموا للبلاد التى حكموها أى أثر حضارى أو ثقافى أو علمى اللهم إلا أنهم عمروا مدينة واحدة هى المهدية والتى كانت قاعدة بل حصنا خاصا لهم أما المدن المغربية الأخرى فلم يكن للفاطميين أدنى أثر فيها ولم ينشئوا مسجدا واحدا يذكر لهم فيما عدا مسجد المهدية الذى كان مسجدا خاصا للأسرة الحاكمة ولم تكن لديهم أية نية فى عمران المغرب فلا هم شقوا طريقا ولا شيدوا أسواقا ولا نفعوا قبيلة من القبائل التى خدمتهم ككتامة أو غيرها .

وقد اتسمت سياستهم بالأنانية البالغة فقد حرصوا على بقاء المغرب تحت سيطرتهم وكذلك عند الانتقال إلى مصر احتفظوا بولاية صقلية مع علمهم ببعد مصر عنها . وعجزهم عن مساندتها عند الشدة ولو كانوا أخضعوها لحكم بنى زيرى لتغير المسار التاريخى بها .

كما أن الفاطميين لعبوا دورا فى اذكاء الصراعات العصبية بين القبائل فاستعانوا ببعضها على البعض الآخر ( صنهاجة وكتامة ضد زناتة ) إلى درجة جعلت هذه القبائل تدخل فى حرب ابادة بل هرب بعض زعماء هذه القبائل إلى الأندلس ناجين بأنفسهم من الصراع القبلى وسنرى أثر ذلك فيما بعد على مستقبل الكيان السياسى للدولة الزيرية . حتى أنه ليمكن القول أن العاصمة الفاطمية وقيام دولتهم فى كل من المغرب ومصر كانت من أكبر أسباب ضعف دولة الإسلام فى الأندلس لأنها كانت بداية الضعف فى المغرب وليست الغزوة الهلالية التى كان الفضل كل الفضل فى الوجه الحضارى والثقافى والعربى والإسلامى للمغرب . وهكذا رحل الفاطميون وبدأ الدور على القيادة الصنهاجية البربرية فى أفريقية والمغرب الأوسط .



# الفصل الأول

## بنى زيرى على مسرح الأحداث فى المغرب الأدنى والأوسط

تقول الروايات التاريخية التى يرويها المقريزى وابن عذارى وابن خلدون وابن الخطيب أن المعز لدين الله الفاطمى قبل رحيله إلى مصر بل أنه عندما عزم على الانتقال إليها استقدم جعفر بن على بن حمدون الزناتى وعرض عليه استخلافه نائبا عنه فى أفريقية وأن يتولى أمور هذه البلاد وهى أفريقية والمغرب ( الأوسط والأقصى ) تابعا للفاطميين فى مصر ومنها أن يكون أميرا مستقلا يتصرف فيما يراه دون انتظار رأى المعز ويولى القضاء بنفسه وألا يرسل أية أموال إلى مصر وقال للمعز « أترك معى أحد أولادك أو أخوتك يجلس فى القصر وأنا أدبر ولا تسألنى عن شئ من الأموال لأن ما أجبيه ( جباية ) يكون بازاء ما أنفقته وإذا أردت أمرا فعلته دون أن أنتظر ورود أمرك فيه لبعد ما بين مصر والمغرب ويكون تقليد القضاء والخراج وغيره إلى فغضب المعز لذلك حتى قال يا جعفر عزلتنى عن ملكى وأردت أن تجعل لى فيه شريكا فى أمرى واستبددت بالأعمال والأموال دونى . قم فقد أخطأت حظك .

وعقب ذلك استدعى المعز لدين الله الفاطمى بلكين بن زيرى بن مناد بن منقوش الصنهاجى وكان من أكبر أكابر قبيلة صنهاجة بل هو الزعيم الأوحد لصنهاجة وقائد الانتصارات الكبيرة على زناتة وأحد كبار رجال دولته وجيشه وعرض عليه ولاية افريقية والمغرب فقبلها بشروط المعز وأسند إليه ولاية المغرب بعد أن حدد له كثيرا من اختصاصاته واقتصرها على ولاية الحرب فقط .

ولقد كانت رؤية المعز فى استدعاء بلكين صائبة ذلك لأن جد بلكين وهو مناد ابن منقوش الصنهاجى قد ملك أفريقيا والمغرب وكان يقيم الدعوة لبنى العباس فى بغداد ثم أقامها من بعده ابنه زيرى بن مناد وكان من أعظم ملوك البربر ولما استتب

الأمر للفاطميين بأفريقية والمغرب تحيز إليهم زيرى بن مناد الصنهاجي والد بلكين وكانت له جهود عظيمة فى دفع الخطر عن الدولة الفاطمية ومناصرتهم وظل على ولائه لهم حتى مات عام ٣٦٠ هـ فى قتاله لقبيلة مغراوة من زناتة وهكذا أحسن المعز لدين الله اختيار بلكين بدلا من جعفر بن حمدون الزناتى وفوض إليه أمور البلاد ما خلا ( فيما عدا ) صقلية وطرابلس وبرقة فقد كانت ولايات مستقلة عن أفريقية وتتبع حكم مصر مباشرة .

وهكذا قبل بلكين الحكم على أن يبقى تابعا للفاطميين فى أفريقية والمغرب ولكنه استعظم المهمة وقال للمعز لدين الله قتلتنى يامولاى بغير سيف أو رمح وفى حقيقة الأمر فان بلكين بن زيرى قال للمعز يامولانا أنت وأبناؤك الائمة من ولد رسول الله ﷺ ما صفا لكم المغرب فكيف يصفو لى وأنا صنهاجى بربرى قتلتنى يامولانا بلا سيف أو رمح ، ويريد بذلك أنه ينوء تحت حمل المسئولية التى عهد إليه المعز لدين الله بها .

وبعد ذلك أصدر المعز له عهدا بولاية افريقية وسماه يوسف ولقبه أبا الفتوح . وكان اسناد المعز لدين الله الفاطمى امارة افريقية والمغرب عامة إلى الأمير بلكين بن زيرى له وقع الأثر فى نفوس الشعب المغربى إذ أن بلكين كان من قبيلة ذات شوكة وعصبية قوية فهى التى أيدت ملك الفاطميين وشدت أزر المعز وأخلصت له فى الولاء والدفاع عن كيان الدولة فى وقت الشدة والخطر .

ويتولى هذا الأمير الصنهاجى حكم افريقية والمغرب انتقلت السلطة رسميا من العنصر العربى إلى العنصر البربرى ، أما فى العهد الفاطمى فقد كانت السلطة ممتزجة بين العنصرين معا .

وقد أوصاه المعز لدين الله وصية قال له فيها إذا نسيت شيئا معا أوصيتك فلا تنسى ثلاثة أشياء ( ألا ترفع الجباية عن أهل البادية ، ولا ترفع السيف عن البربر



ولا تولى أحد من أخوتك أو أبناء عمك فانهم يرون أنهم أحق بهذا الأمر منك واستوصى بالحضر خيرا ) .

وكان الأمير أبو الفتوح يوسف بلكين بن زيرى قد سار مشيعا المعز لدين الله لما رحل ودخل قابس فى ٨ ربيع الأول عام ٣٦٢ هـ . ووصل يوسف مشيعا إلى أبار الخشب ثم أمره المعز بالرجوع إلى افريقية وأوصاه بهذه الوصية وعندما نحلل هذه الروايات ندرك أن دولة الفاطميين فى المغرب قامت على أكتاف كتامة وصنهاجة فلما يعرض المعز الولاية على زعيم زناتى هو جعفر بن على بن حمدون الزناتى هو عدو للصنهاجيين ونقول لعل السياسة التى سلكها الفاطميون من قبل فى ايثار قبيلة على أخرى وضرب قبيلة بأخرى وفى اصطناع زعماء وترك آخرين كانت الدافع لهدف المعز لدين الله إذ أنهم أحبوا الصراعات القبلية فى المغرب وتركوا آل زيرى غارقين فى الصراع القبلى وثارات القبيلة مما جعل المعز يضمن بقاء المغرب تابعا له وهو يحكم مصر إذ أن اختيار زعيم زناتة كان سيدخله فى صراع عنيف مع صنهاجة بعد أن صحب معه معظم قبيلة كتامة إلى مصر .

كذلك فان وصية المعز الثانية لابى الفتوح يوسف بلكين بألا يرفع السيف عن البربر ( وقد يكون المقصود بها البربر البتر سكان الصحراء من زناتة وليس البربر البرانس سكان الحضر من زناتة ) . لكن مهما يكن فليس من المعقول أن يستخدم أبو الفتوح يوسف السيف ضد رعيته التى كان معظمها فى ذلك الوقت من البربر ولم يكن بها إلا قليل من عرب الفتح . أما ألا يرفع الجباية عن أهل البادية فهم بربر زناتة وهؤلاء ناصبوا الدولة العداء منذ أول لحظة وخرجوا عليها وتعاونوا مع أعدائها الأمويين فى الأندلس فقد يكون القصد من وراء ذلك أثقالهم بالجباية حتى يظلوا دائما فى فقر وأن يتركوا أماكن اقامتهم هربا منها ولايفكروا فى القيام بالثورة ضد أبى الفتوح يوسف نائب الفاطميين بالمغرب .

كما أن ما جاء بالرواية عن المعز لدين الله فى وصية أبى الفتوح يوسف بالعناية بالحضر ، والحضر كما هو مفهوم لدى الجميع هم سكان المدن الكبرى ولقد كان سكان المدن الكبرى فى افريقية والمغرب هم من الأسباب الأساسية فى رحيل الفاطميين إذ كان سكانها من أهل السنة أصحاب المذهب المالكى الذين كادوا للمذهب الشيعى ووقفوا له بالمرصاد فى كل مكان ووقف سكان المدن وراء علماء المذهب المالكى يشدون أزرهم فى محاربة بدع الشيعة فكيف يوصى بهم المعز خيرا .

لكن بعض الروايات تذكر أن المعز لدين الله الفاطمى أوصى نائبه على افريقية والمغرب أبا الفتوح يوسف بأن يواصل حملاته العسكرية على المغرب الأوسط والأقصى للقضاء على النفوذ الزناتى والأموى وقد تكون هذه الوصية هى الأقرب للقبول لأن الفاطميين طوال وجودهم بالمغرب كانوا أعداء للأمويين فى الأندلس وعاملين على وقف امتداد نفوذهم إلى المغرب .

## ( أ ) دولة بنى زيرى فى ظل النفوذ الفاطمى

## أبو الفتوح يوسف بلكين بن زيرى بن مناد بن منقوش الصنهاجى

## ( ٣٦٢ – ٣٧٣ هـ – ٩٧٢ – ٩٨٣ م )

يتولى أبو الفتوح يوسف ( بلكين ) بن زيرى بن مناد الصنهاجى واليا أو أميرا شبه مستقل لكل بلاد أفريقية وأقسامها بلاد الزاب وأفريقية ( المغرب الأدنى )وما يفتحه من بلاد المغرب الأوسط والأقصى فقد أصبح لأول مرة فى تاريخ المغرب الإسلامية يتولى الحكم رجل من صميم قبائل البربر أهل المغرب وهو أول حاكم لدولة إسلامية فى بلاده لها اعتراف من قبل الخلافة الفاطمية فقد انتقلت السلطة الفعلية رسميا إلى العنصر البربرى الإسلامى .



وقد كان هذا الأمير شجاعا حازما ، بعيد النظر مظفرا فى حروبه مع زناته وغيرها.
وقد سادت العلاقات الودية بين الدولة الفاطمية فى مصر والدولة الزيرية الصنهاجية فى أفريقية طوال امارة أبى الفتوح يوسف بن بلكين بن زيرى روح الود والصداقة . وتكاد تكون فترة حكم أبى الفتوح إحد عشر عاما ميلاديا كانت استمرارا لحكم الدولة الفاطمية فقد نجح بلكين فى القضاء على محاولات زناتة الاستقلال بالمغرب الاقصى بقيادة زيرى بن عطية المغراوى لتكوين دولة فى فاس وما وحولها تكون تابعة للأمويين فى الأندلس كما تمكن من الاستيلاء على فاس وسجلماسة وطرد عمال بنى أمية وتمكن بلكين من طرد أمراء زناتة من المغرب الأوسط بالأندلس ولكن جهود بلكين لم تستطع أن تستأصل الخطر الزناتى من المغرب الأقصى تماما ، فلم يكد يعود أدراجه إلى افريقية حتى علم أن بنى خزرون قد استولوا على سجلماسة واستمرت مغراوة تحكم المغرب الأقصى حتى سقطت على يد المرابطين عام ٤٦١ هـ / ١٠٦٨م وبقيام دولة زناتة المغراوية تكون حاجز يفصل بين صنهاجة التى تظهر الولاء للفاطميين فى المغربين الأدنى والأوسط وبين الأمويين فى الأندلس . وذلك لان الفاطميين اقتنعوا منذ الاستيلاء على مصر أن مسرح دورهم الكبير الطامعين إلى القيام به هو الشرق وليس فى أى مكان آخر ، حيث الصراعات العقائدية والاجتماعية على أشدها تطوق خلافة بغداد فتزيدها عزلة واضطرابا .

وكان الفاطميون قد عانوا كثيرا من متاعب علاقاتهم مع البربر الذين لم يلتزموا بالولاء لهم وكانت قبيلتا صنهاجة وزناتة الأكثر نفوذا وسطوة والمنافسة بينهما على أشدها إذ نجد أن صنهاجة قد سارت على الخط الفاطمى وتأييده وعين زعيمها ( زيرى بن مناد الصنهاجى ) حاكما على المغرب الأقصى واتجهت زناتة إلى الدولة الأموية فى الأندلس وتحالفت معها ضد صنهاجة وكانت هذه نقطة الضعف فى السيادة الفاطمية على المغرب التى استقلها حاكم الاندلس ( الحكم المستنصر ) باعطاء زناتة الدعم الكافى للوقوف فى وجه الفاطميين وصنهاجة والاحتفاظ بالمغرب الأقصى تحت

سيطرة الأمويين لاسيما على ساحل المغرب مثل طنجة وسبتة ومليلة واضعاف الحكم الفاطمى فى هذه المنطقة وجعل التوازن السياسى والعسكرى فى المغرب الأقصى لصالح الأمويين.

وما لبث الصراع فى المغرب أن اتخذ بعدا محليا مع غياب الحكم الفاطمى المباشر وانتقاله إلى مصر فأخذت القوى السياسية فى المغرب الأقصى والأوسط تتصارع على النفوذ وملء الفراغ والذى كان على بلكين أن يسد الصراع والخلل من أثر رحيل الزعامة الفاطمية .

ومن ذلك بقايا أسرة الادارسة بزعامة الحسن بن كنون آخر أمراء الادارسة قبل أن يقضى الفاطميين عليهم فتحالف الزعيم الأدريسى مع الأسرة الأموية فى الأندلس للوقوف فى وجه الحكم الزيرى بقيادة أبى الفتوح يوسف بن بلكين الزيرى ممثل الفاطميين الشيعة ، كما أن زناتة حليفة الأمويين حاولت أن تجد لها دورا وسط هذا الصراع على النفوذ فقوى شأن هذه القبيلة بتحالف زعمائها مع الأندلسيين وكان هذا الحلف ضد الفاطميين وممثليهم بنى زيرى الذين دفعوا ثمن هذا التحالف بقتل زعيمهم ممثل الخلافة الفاطمية ٣٦١ هـ / ٩٧١ م .

وكانت هذه الحادثة ضربة لنفوذ صنهاجة وانتصارا للسيادة الأموية التى استعادت مركزها فى المغرب الأقصى . لكن النفوذ الأموى لم يدم طويلا بعد سحق النفوذ الشيعى والقضاء على السيادة الفاطمية ممثلة فى بنى زيرى فى هذا الاقليم حيث ظهر الادارسة للسيطرة على المواقع الاستراتيجية فى المنطقة مثل طنجة وتطوان وأصيلة وسبتة التي كانت إحدى ركائزهم العسكرية الأولى فى المنطقة مسقط التحالف بين الادارسة والأمويين وعودة هذه المدن للنفوذ الأموى ، غير أن هذه المعارك والحشود الأموية زادت من توتر العلاقة بين الأمويين وبنى زيرى وعودتهما إلى المجابهة والقتال مرة أخرى وكان على بنى زيرى أن يواجهوا هذا الموقف بقيادة بلكين الزيرى .



وكان آل زيرى قد قاموا ببناء عاصمة لهم أثناء حكم الفاطميين للمغرب فى أشير وكانت قرية صغيرة لم تلبث أن اتسعت بفضل موقعها الممتاز إذ كانت على مشارف منطقة التل الغنية بمزارعها وتشرف على جبال منطقة القبائل الشرقية فى المغرب الأوسط وتتحكم فى الطريق الساحلى كما تشرف على البدو الرعاة القاطنين على مشارف الهضبة ويؤكد البكرى أنه لم تكن هناك مدينة أخرى تضارعها فى مناعتها وعاونهم الخليفة الفاطمى المستنصر فى بنائها بأن أرسل لهم الصناع والمهندسين بل كثيرا من المواد المستخدمة فى البناء حتى إذا اكتملت أشير نقل إليها بنو زيرى السكان من أكثر من قرية وكان أكثرهم من أعداء الدولة حتى يسهل مراقبتهم وأسس آل زيرى إلى جانب عاصمتهم ثلاث مدن أخرى هى الجزائر وميديا ومليانة ونقلوا إليها دواوين الحكومة وكبرت هذه المدن بدورها . حتى تقاطر إليها التجار فأصبحت مراكز تجارية هامة بين منطقتى التل والهضبة كما أصبحت مراكز علمية ثقافية بمن اجتمع فيها من العلماء ورجال الدين والقضاة والمشرعين .

وأصبحت أشير مركز قوة صنهاجة حتى إذا ترك الخليفة المعز المغرب إلى مصر مستخلفا بلكين بن زيرى لم ينتقلوا من عاصمتهم أشير إلى المنصورية إلا اسفين على ترك مدينتهم الأولى فى المغرب وكانت انتقال أبى الفتوح ويوسف إلى المهدية (المنصورة ) يعنى أنه لابد من استكمال عناصر هذه الدولة وأن يقيم الحكم على النظام والقوة . وبذلك كانت تجربة الدولة الزيرية هى بداية الحكم الإسلامى البربرى فى المغرب فى دور الاستقلال والبناء الجديد دون النظر إلى حكم الأغالبة والادارسة وبنى رستم وحكم العرب الفاتحين الموالين للدولة العباسية ثم العرب بقوة الفاطميين كل هذه الدويلات تختلف فى شكل الحكم والقيادة عن دولة بنى زيرى الصنهاجة ذلك لان بنى زيرى كانوا بيتا بربريا أصيلا استعرب لسانا ودخل فى الكيان الإسلامى الكبير وفى البناء العربى الإسلامى للدولة العربية الكبرى .

ويرى ابن خلدون وهو كثيرا ما يخطئ فى الحكم والقول مستندا إلى الأصل البربرى الذى انتقلت إليه السلطة فى المغرب بعد انتقال الفاطميين إلى مصر أن انتقال السيادة والسلطان فى المغرب من العرب إلى زعماء البربر ورؤساء قبائلهم الذين شقوا عصا الطاعة عن الدولة العباسية واستعصى على الدولة حكمهم ، ومن ثم تمزقوا إلى دويلات قبل قدوم الفواطم إلى المغرب وانقسموا أيضا إلى دويلات وقبائل وتبعيات بعد خروج الفاطميين ، أنهم قد انفردوا بالسلطان فى بلادهم وأن افريقية والمغرب استقلتا عن بلاد المشرق وهل مصر والقاهرة إلا بلاد المشرق . أن اختيار الخليفة المعز كان لقبيلة قوية وكثيرة العدد وهذا شأن صنهاجة ولم تكن فى ذلك الوقت قوة عربية قادرة على السيطرة على حكم المغرب لاسيما بعد أن صار الجميع مسلمين لا فرق بين عربى وبربرى الكل يستظل براية الإسلام ويعمل تحت لواء الإسلام فلم يكن إذن معنى لذكر ابن خلدون ومحاولة السير وراء العصبية العربية أو البربرية .

لكن ما جاء على لسان ابن خلدون تلقفه أعداء الإسلام والعرب وغمزوا له فى كتاباتهم وهذا ما نجده فى أقوال الفرنسيين الذين عملوا ما وسعهم العمل للتفرقة بين ما هو عربى وبربرى ناسين أن الإسلام قد وحد وجمع هذه العناصر فأقوال جورج مارسيا-Macais, G. فى كتابه البربر والشرق الإسلامى وفورنال هنرى Fournel, H. فى كتابه البربر المجلد الأول المطبوع فى باريس عام ١٨٧٥ م ينطلقان من فكر خاطئ قامت عليه السياسة الاستعمارية وهى فرق تسد فيقولان أن انتقال السيادة إلى بربر صنهاجة كان تحقيقا لأمل البربر القديم فى الاستقلال عن العرب ودولتهم . وهما قد نسيا أن مفهوم العرب والبربر لم يظهر إلا من خلال كتاباتهم المغرضة فقد كان يطلق على كل منهم مسلم وأصبح الإسلام عنصر الربط والوحدة فى العصور الوسطى ولم يكن مفهوم القوميات قد عرف وكان طابع الدين هو الغالب وكان الإسلام يجمع الأجناس ويوحدها . ومن هنا فما وقع فيه ابن خلدون من خطأ سار عليه أصحاب الأهداف الخفية . وليس المجال هنا للتوسع فى ذلك العنصر من عناصر بناء دولة بنى



زيرى لكن المهم اننا تجاه أسرة مسلمة ذات طابع إسلامى أصيل وأصول عرقية بربرية تتولى شئون الحكم والسيادة على أرض أفريقية وتتطلع للسيطرة على المغربين الأوسط والأقصى ، لم يكن طابعها النزوع إلى الاستقلال أو بناء كيان مستقل ذو طابع قوى لكن أسس بناء الدولة كان قد تم فى عصر الفاطميين ولم يغب على شكل الحكم إلا الخليفة وجهازه الحاكم ولا شك أن بلكين كان ضمن هذا الجهاز وقد درب الكثيرين من اتباعه قبل رحيل المعز لمصر فقد كانت أمور الحكم تسير كالمعتاد وبعد أن وضع العرب قواعد بناء نظم الدولة وسنذكر ذلك فى فصل لاحق فى ثنايا تلك الدراسة .

وهكذا نرى أن وصول الحكم إلى بيت آل زيرى من صنهاجة المؤيد بقوات وقبائل صنهاجة الكبرى القوية جعل نار العداوة تشتعل بين صنهاجة وزناتة وكان خروج العرب من ميدان الصراع نظرا لقلة عرب الفتح أو ما أطلق عليه عرب المغرب البلدين الذين ولدوا بعد الفتح ونشأوا وصاروا مغاربة قد خرجوا من ميدان الصراع على السلطة وصار الصراع طويلا بين صنهاجة وزناتة على السيادة وحكم بلاد المغرب .

ويبدو أن تعيين الفاطميين ليوسف الصنهاجى على إمارة افريقية قد أثار غضب منافسه جعفر بن على بن حمدون الزناتى إذ نراه يترك البلاد هاربا إلى الاندلس حيث كانت أول مظاهر هذا الصراع هو شعور جعفر الزناتى كبير زناتة افريقية وشرق المغرب الأوسط بأنه لم يعد آمنا فى بلاده فبارح افريقيا لاجئا إلى المستنصر فى الاندلس ودخل فى خدمته حيث استقبله الخليفة هو وأخاه يحيى ورحب بهما الخليفة الأموى وعقد لهما على بلاد المغرب الأقصى إذ كان عدو الفاطميين وعقب ذلك ثار الزناتيون وانتقض الزناتيون فى تاهرت ، وكان نجاح بلكين بن زيرى فى القضاء على قوة بنى حمدون بالزاب دافعا لان يهرب جعفر الزناتى وأخوه يحيى إلى الاندلس وصارا من موالى بنى أمية وكانا يحكمان منطقة طنجة وسبتة ، لكن بلكين دخل تاهرت وخربها ، ثم عاد دون أن يندفع وراء زناتة فى المغرب الأقصى لأن المعز كان قد نصحه بألا

يوغل فى غزو المغرب .

وفى عام ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م أضاف المعز لدين الله الفاطمى إلى ولاية أبى الفتوح يوسف بن زيرى ولايات طرابلس وصرت واجدانية وهكذا اتسعت ولاية بلكين فى الشرق حت صارت عند حدود برقة .

وإزاء ذلك التوسع وهذه الانتصارات فإننا نجد الخلفاء الأمويين فى قرطبة وأنصارهم من بنى زناتة قد تمكنوا من اثارة المتاعب فى وجه بنى زيرى ، ذلك لان زناتة لم تسكت على غزو المغرب الأوسط وتخريب مدينة تاهرت فحشد أحد زعماء زناتة وهو خزرون بن خزر الزناتى قواته وسار نحو سجلماسة عام ٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م وكانت تحت حكم أنصار بنى زيرى وقتل أميرها محمد المعز بالله من أولاد الشاكر لله المدرارى وهكذا فتحت زناتة جبهة أخرى جنوبا أمام بنى زيرى التابعين للفاطميين فى مصر ، لكن إزاء هذه السياسة الأندلسية وأعوانها من زناتة واثارة المتاعب أمام الدولة الزيرية الفتية يتقدم أبو الفتوح يوسف بن زيرى نحو المغرب الأقصى ويدخل فاس ويقتحم أصيلا وشالة على ساحل المحيط الأطلسى . وكان الفاطميون بعد نجاحهم السياسى والعسكرى فى المشرق قد عادوا إلى الاهتمام بالمغرب الأقصى وبقية بلاد المغرب نواة دولتهم الكبرى ففى عام ٣٦٩ هـ / ٩٧٩ م كان حلفاؤهم الصنهاجيون من بنى زيرى ممثلوهم فى حكم المغرب الأقصى يقومون بثورات ذات طابع شيعى لاسترداد زعامتهم من الأمويين خلفاء الأندلس وكان على رأسهم بلكين بن زيرى الصنهاجى الذى بدأ تحركه من مدينة فاس وانطلق منها للقضاء على السيادة الأموية فى المغرب ومطاردة بقايا الأمويين وترسيخ النفوذ الفاطمى هناك .

ولقد حاول ابن زيرى توحيد المغرب فعجز عن ذلك لمنافسة قبائل زناتة له وقد كانت القبائل تدين له بالطاعة لكن المغرب الأقصى الذى غمرته القبائل الزناتية كان منشقا على الدوام ومعترفا بسيادة الأمويين بالأندلس ولعل السياسة التى سلكها



الفاطميون من قبل فى ابثار قبيلة على أخرى وفى اصطناع زعماء وترك آخرين وتوصيتهم بلكين باتباع سياسة التفريق كان له تأثير على انشقاق الوحدة القومية فى المغرب الإسلامى وتوجيهها نحو التعصب للروح القبلية على ما فيها من عيوب وخلل .

وكان بلكين هذا أول من أشتهر من بنى زيرى بعد أن فتح الزاب وأوغل حتى سجلماسة ثم استولى عليها وخرب تاهرت ونقل سكانها إلى أشير وما أن تقدم إلى طنجة حتى أعلنت ولائها للأمير بلكين تاركه جانب الأمويين وكان سيف الدولة أبو الفتوح قد نجح فى إخضاع قبائل زناتة بعض الشئ تسانده صنهاجة ويبدو أن بلكين كان قاسيا حقا كما أوصاه المعز إذ هرب كثيرون من البربر إلى الاندلس . وسكنوا الجبل الأصفر وأقام بلكين على أجزاء الدولة أبناءه وأخوته يحكمون معترفين له بالسلطة ومعترفا لهم بدوره بسلطان الفاطميين على أفريقية والمغرب الأوسط وكل شبر يتم فتحه وإضافته للدولة .

وعندما تولى العزيز بالله أبو منصور حكم مصر فى ربيع الآخر عام ٣٦٥ هـ أقر أبو الفتوح يوسف بن بلكين على المغرب وأضاف إليه ولاية طرابلس .

وتوفى أبو الفتوح يوسف بن زيرى عام ٣٧٤ هـ / ٩٨٤ م . وذلك قبل أن ينجح فى رد زناتة على أعقابهم ومات وهو فى طريق عودته من المعارك عائدا إلى افريقية . وقد حكم اثنى عشر عاما هجريا استطاع فى خلالها أن يدعم وجود الدولة وأن يفرض هيبتها وسلطانها على الانحاء التى كانت تخضع للنفود الفاطمى وعارك زناتة واستطاع أن يضع اللبنة نحو انشاء دولة بربرية فى أفريقية والمغرب الأوسط .

وهكذا نرى كيف أظهر هذا الأمير نشاطا واسعا وعملا دؤوبا وقد قام بالمهمة التى أوكلها له الفاطميون على خير قيام ولقد كان بلكين على درجة عالية من الذكاء وبعد النظر عندما قبل تولية الفاطميين له إذ أنه كان يدرك أن هذه البلاد سوف تكون ارثا له ولذريته من بعده ومن هنا فان كل ما قام به من نشاطات وحروب لم يكن ليخدم

الخلافة الفاطمية فقط بقدر ما كان سعيا منه لكى يثبت أركان دولته ويمهد الطريق لاستقلاله وأسرته بالمغرب الإسلامى ، لكنه لم يحاول أن يكسب ود زناتة أو يهادنها بل استخدم القوة والعنف والشدة معها مما دفعها إلى الاستعانة بالأمويين ومن هنا خرج المغرب الأقصى عن سيادة بنى زيرى ودخل بنو أمية ميدان الصراع فى المغرب .

## أبو الفتوح المنصور بن بلكين بن زيرى الصنهاجى
## ( ٣٧٤ – ٣٨٦ هـ – ٩٨٤ – ٩٩٦ م )

كان أبو الفتوح المنصور بن أبى الفتوح يوسف بن زيرى قبل أن يتولى مقاليد الحكم وتؤخذ له البيعة من أشياخ بنى زيرى كان فى عهد أبيه يتولى حكم اقليم الزاب التى افتتحه أبوه بعد أن ترك المعز افريقية وكان نائبا عن أبيه فى حكمه وقد بويع بالإمارة فى مسجد القيروان وكان فارسا مقداما وقسم ولايات الدولة بين أعمامه وأخوته فعين عمه أبا البهار بن زيرى بن مناد عاملا من قبله على المغرب الأوسط وجعل مركز حكمه وعاصمة الاقليم مدينة تاهرت وعين فى نفس الوقت أخاه بطوف بن يوسف بن زيرى واليا فى عاصمتهم القديمة أشير التى بناها جدهما زيرى فى المغرب الأوسذ وأوصاهما بالتعاون معا على حماية المغرب الأوسط والعمل على صد أى عدوان تقوم به قبائل زناتة .

وكان المنصور بن أبى عامر المستبد بحكم الاندلس باسم خليفته هشام المؤيد من الحكم المستنصر قد أيد زعيم زناتة زيرى بن عطية المغراوى وأعانه على بسط سلطانه على المغرب الأقصى وجعل عاصمته فاس . وقد استطاع المنصور بن أبى عامر بعد وفاة بلكين أن يتحلل من الاتفاق الذى كان قد أبرم بينهما وأصبحت الدولة الأموية مطلقة اليد فى شئون المغرب الأقصى وأصبح ميدان المغرب الأقصى هو الميدان الذى يستطيع المنصور فيه أن يبدى نشاطه ويظهر مقدرته ويعمل على تأييد حلفائه من زناتة وقد استطاعت مغراوة أن تجمع شملها وأن تستولى على فاس ، كما حاول المنصور بن



بلكين بن زيرى أن يدفع مغراوة عما أرادته بفاس وسجلماسة ولكنه ارتد على أعقابه مهزوما وتأكدت سيطرة المغراويين بفاس . وعملت زناتة عن طريق زعيم مغراوى زيرى بن عطية على بسط سلطانها على المغرب الأقصى دون منازع من صنهاجة . وهكذا فانه فى عهد محمد بن أبى عامر المنصور ازدادت الأوضاع السياسية فى المغرب تعقيدا وكانت لها أبعاد خطيرة على مستقبل النظام الزيرى بصورة خاصة وبذلك ارتفع عن المغرب الأقصى الكابوس الفاطمى لتنصرف البلاد إلى معالجة مشاكلها الداخلية التقليدية وتتحول أبصار بنى زيرى بعيدا عن المغرب الأقصى نهائيا .

وكان المنصور الزيرى قد أرسل عام ٣٧٤ هـ الجيوش لاسترجاع المغرب الأقصى من أيدى زناتة ولكنها لم تحقق الهدف المنشود من وراء تلك الحملات ، وتولى حماد ابن بلكين قيادة الجيوش ولكن حماد لم يتمكن من القضاء على قوة زناتة نهائيا .

لكن أبا الفتوح المنصور بن يوسف بن زيرى لم يجد بدا من مواصلة الحرب ضد زناتة سادة المغرب الأقصى فأرسل أخاه بطوقت فى جيش كبير نحو فاس واحتلها لكن زيرى بن عطية المغراوى الملقب بالقرطاس تصدى له وأخرجه من فاس وهزمه فى معركة قتل فيها ألوف الصنهاجيين وكانت هذه آخر محاولة قام بها بنو زيرى الصنهاجيين للتدخل فى شئون المغرب الأقصى فأصبح المغرب الأقصى تحت سيطرة زناتة مؤيدة من قبل الأمويين بالأندلس .

وقد وقعت بين أبى الفتوح المنصور وبين أعمامه حروب من أجل تولية العرش ليثبت فيها بما لديه من قدرة وكفاية قتالية عالية حتى انهزم أعمامه والتحق بعضهم بالأندلس وأسسوا هناك إمارة غرناطة وجهز هدية قيمة للخليفة الفاطمى بمصر العزيز بالله أبى منصور نزار ، فأتاه من قبله سجل وهدية بها فيلة وزرافات وكانت سياسته لا تختلف عن سياسة الداعى ابن عبد الله الشيعى أو عن سياسة عبيد الله المهدى فقد كان عامل القيروان فى عهد المنصور بن بلكين يعقد فى دار الإمارة مجلسا يحضره

الدعاة المتضلعون فى عقيدة المذهب الاسماعيلى الشيعى ويدعو إليه علماء السنة ليناظروهم فإذا أخذ السنى المالكى بمذهبهم أغدقت عليه الأموال وإذا أبى نكل به وعوقب .

وعندما حدث انقسام فى صفوف زناتة بالمغرب الأقصى حيث خرجت جماعة منهم على زعيم مغراوة زيرى بن عطية وقدمت إلى ابى الفتوح المنصور بن زيرى وشجعته على غزو المغرب الأقصى ، لكنه لم يستجب لرغبة هؤلاء القوم بل اكتفى بأن يقيم زعيم هؤلاء الجماعة حاكما على اقليم طبنة بالزاب .

وفى فترة حكمه التى امتدت اثنى عشر عاما حدثت عام ٣٧٦ هـ / ٩٨٦ م ثورة شيعية قام بها داعى من غلاة الشيعة يدعى أبا الفهم الخراسانى وضم إليه العديد من الأنصار والعامة لكنه لم يكن يرى فى نهج حكم أبى الفتوح المنصور تمشيا مع المذهب الاسماعيلى لكنه استطاع أن يتغلب عليه ويتم قتله وهو قائم بالمسجد .

ومن الواضح أن دولة بنى زيرى ما كان لها أن تستطيع بسط نفوذها وسيادتها فى ظل التبعية للخلافة الفاطمية الشيعية الاسماعيلية على سكان المغرب الذين ينفرون من المذهب الشيعى ويتعصبون لمذهب السنة وتجذبهم نحو رسول الله ﷺ روح خفية ومن هناك كان تمسكهم بالكتاب والسنة وهما الأساس فى المذهب المالكى ولذا كانت التبعية الزيرية للقاهرة تضعف من وزنهم السياسى وثقلهم فى حكم انحاء المغرب فلم يكن فى غير المعقول فى ظل هذه الأمور أن يبسطوا سلطانهم وسيادتهم على افريقية من حدود مصر غربا إلى وادى شلف والمغرب الأوسط حتى نهر المولوية وكذلك المغرب الأقصى الذى خرج عن طاعتهم نهائيا ، لانهم كانوا رجال دولة صغيرة محدودة القوى والامكانيات ، إضافة إلى ارسالهم الأموال سنويا إلى الخلافة الفاطمية فى القاهرة ويبدو أن هذه الأموال التى كانت ترسل سنويا كانت كبيرة حتى ليتكرم الخلفاء الفاطميين جزء منها إضافة إلى الهدايا التى يتم تبادلها سنويا .



إضافة إلى أن هذا الكيان لم يكن على صلة قوية بمركز الخلافة بالقاهرة إذ نجد أن الخلفاء الفاطميين قد عملوا متتابعين على منع اتصال المصريين بأهالى برقة وطرابلس وما جاورها غربا من بلاد بنى زيرى فلم يكن يؤذن بهجرة المصريين إليها وربما كان سبب ذلك أن لا يتعلم المصريون الذين تعلموا الخضوع للحاكم ويشاهدوا ما ينعم به البربر من حرية واستقلال فى ظل دولتهم بنى زيرى وما تعيش فيه القبائل فى كنف رؤسائها وزعمائها .

وقد ظل هذا الجزء خاضعا للخلافة الفاطمية تتوارثه أسرة بنى زيرى وتعترف بسلطان الفاطميين عليهم .

وكانت القيروان مقر حكم بنى زيرى وكان أمير البلاد يتمتع بلقب يميزه عن غيره من ولاة الأجزاء الأخرى من الدولة وكان هذا اللقب هو شرف الدولة ثم أضاف إليه الحاكم بأمر الله شرف الدولة وعضدها وكان حلفاؤهم فى المغرب من بنى زيرى يستقبلون هدايا الخلفاء الفاطميين بكل احترام وتبجيل فيدعون زعماء القبائل ورؤساء المدن والأقاليم وعليه القوم إلى استقبال الوفد القادم من القاهرة .

وبوفاة المنصور الزيرى زال خطر صنهاجة على المغرب الأقصى أو كاد يزول وانشغل بنى زيرى بمشاكلهم الخاصة وانصرفوا عن استعادة سيادتهم على المغرب الأقصى .

وكان أبو الفتوح المنصور قد أبدى اثناء توليه الحكم ميلا صريحا إلى الانفصال الروحى والسياسى عن الخلافة الفاطمية بالقاهرة ولكن الخليفة الفاطمى العزيز بالله اصطنع معه سياسة الملاطفة وبذلك ظلت العلاقات الودية فى الظاهر سائدة بين مصر وافريقية ولكنها كانت فى الحقيقة قناعا زائفا يخفى وراءه ما كان قائما بالفعل بين الخليفة الفاطمى وبين المنصور من تغاير .

ولقد بدأت ظاهرة الانفصال الروحى والسياسى عن الخلافة الفاطمية فى وقت

مبكر إذ نجد أن الجيل الثانى بعد بلكين يفكر فى الانفصال والاستقلال وهذا إن دل فإنما يدل على الفكرة فى الاستقلال وبناء الدولة الزيرية المستقلة التى كانت فكرة فى رأس مؤسس الدولة بلكين ولكن الظروف السياسية المحيطة به لم تكن تساعده على ذلك وأنه كان يواجه صعابا كثيرة وفى حاجة إلى غطاء يتخذ منه القوة فلم يكن يفكر جديا فى إعلان ذلك لكن عندما توطدت دعائم الدولة وقوة بنائها وارتكزت على مقومات قوية فان ابنه المنصور قد أعلن ذلك الشعور علانية وأنه ربما لم تساعده الظروف أيضا لكن حسن سياسة العزيز بالله الفاطمى وأسلوب المهادنة قد جعل المنصور بن بلكين لايفكر جديا فى إعلان الاستقلال لكن على العموم فان ما يمكن قوله ان المنصور قد إستفاد من دروس سابقة ولم يفكر جديا فى إعلان الاستقلال ربما لانه لم يكن قد أخذ للأمر عدته أو جاء فى وقت متأخر حيث أنه توفى وهو فى سن الشباب ولم تدم فترة حكمه إلا اثنى عشر عاما هجرية إضافة إلى أن العزيز بالله الفاطمى وضع العراقيل من ناحية أخرى أمام المنصور لكى لايجعله يتجه نحو الاستقلال واتبع معه سياسة ماهرة تضمن له مظاهر التبعية ولا تتعارض مع ما كان بنو زيرى يطمعون إليه من الاستقلال الحقيقى والرغبة فى بناء دولتهم المستقلة ذات السيادة وعدم التبعية للخلافة الفاطمية فى مصر لكن فكرة الاستقلال كانت قد تدارست فى أروقة القصر الزيرى فى القيروان وتعلمها الصغار من الكبار بأنه لابد من كيان سياسى مستقل بعيدا عن التبعية الفاطمية فى القاهرة .

* * * *



## نصير الدولة باديس بن أبى الفتح المنصور بن بلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى

## ( ٣٨٦ – ٤٠٦ هـ / ٩٩٦ – ١٠١٥ م )

توفى الأمير المنصور فى سن الشباب وكان شيوخ القوم من أسرة بنى زيرى وكبار رجال الدعوة بناء على ولاية العهد قد رشحوا أبا مناد باديس لتولى شئون الحكم فى أفريقية خلفا لوالده الذى مات فى شعبان ٣٧٦ هـ وكانت سنه وقت توليه أمور الحكم لم يزيد عن اثنى عشر عاما ومن هنا فقد تكون مجلس من الأوصياء على العرش من كبار شيوخ العائلة ومنهم بطوفت بن بلكين بن زيرى عم باديس وكذلك عمه أيضا حماد بن بلكين الذى كان يتولى أمر حكم مدينة أشير فى المغرب الأوسط من قبل والده المنصور .

وقد ترسم خطى أسلافه فى إعلان الولاء للفاطميين ، وجاءه التقليد الفاطمى بتولية الحكم من قبل الخلافة الفاطمية فى القاهرة فى عام ٣٨٧ هـ فى عهد الحاكم بأمر الله أبو على منصور وكان وصول التقليد الفاطمى يوما مشهودا فى البلاد إذ احتفل به الأمير باديس احتفالا عظيما استعرض فيه الجنود وسفن الاسطول الزيرى البحرية ورمى النفاطون بالنار الرومية وجرت ألعاب بين الأمير باديس بالزرافات والفيلة التى كان يتم إرسالها من القاهرة ووزعت الصدقات على الفقراء والمساكين .

ومن هنا فقد ظلت العلاقات بين القاهرة والقيروان فى عصر نصير الدولة باديس ابن المنصور ظاهرة الود والصداقة ولكنها كانت تخفى ما يسودها من تغاير قائم بالفعل بين الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله وبين الأمير باديس .

وثارت عليه قبيلة زناتة بالمغرب الأوسط ورفضت الطاعة للأمير الصغير نظرا لحداثة سنه وصغره وعدم مقدرته على تسيير أمور البلاد ومن ثم كان كبار الأسرة

الزناتية يدركون مدى رفض طاعة زناتة فى المغرب الأوسط فقامت حروب طويلة بين الصنهاجين أصحاب أفريقية والمغرب الأوسط وكان باديس قد سير إليهم جيشا كثيفا بقيادة حماد بن بلكين عام ٣٨٨ هـ وبعد ما يقترب من ثلاث سنوات من الحروب الدامية استقر الأمر بعض الشئ لباديس بن المنصور فى أفريقية عام ٣٩١ هـ/١٠٠١م. أما المغرب الأوسط فقد تولى أمره حماد بن بلكين الزيرى وهو عم باديس .

ولم تستطع الجيوش التى أرسلها باديس لحرب زناتة القضاء على قوة مغراوة وكان الخلاف بين بنى زيرى هو الذى مكن لزناتة أن تقيم ملكها فى المغرب الأقصى ، لكن حمادا خاض حروبا طويلة مع زعيم مغراوة زيرى بن عطية شيخ زناتة المغرب الأقصى وكان النصر فى النهاية لحماد بن بلكين على زيرى بن عطية الزناتى ثم انتصر أيضا على أبنه ماكسن بن زيرى وفى عام ٣٩٥ هـ / ١٠٠٥ م ووجدت زناتة أنها لاتستطيع مقاومة صنهاجة إلى ما لانهاية بعد أن قتلت صنهاجة زعيمها ماكسن بن زيرى الذى خلف أباه زيرى بن عطية وكذلك قتل ولديه محسن وباديس فى معركة دامية ، فاضطر زاوى بن ماكسن بن زيرى آخر أولاد ماكسن إلى الهجرة إلى الأندلس مع أخويه حباسة وحيوس ودخلوا فى خدمة سلطان الأندلس .

وكان باديس لما أراد أن يوجه عمه حماد لقتال زناتة أن استغل حماد حاجة الدولة إليه فاشترط على باديس عدة شروط كثيرة ومنها أن يجعل له كل ما يفتحه من بلاد وأن يتملكها وتكون خارج نطاق الدولة الزيرية وفى بلاد زناتة وعلى أن لايستدعى باديس عمه حماد مرة ثانية إلى أفريقية وأن يختار مكان عاصمته وبذلك أصبح هذا العهد السياسى الذى قطعه باديس لعمه حماد هو الوثيقة الشرعية والاعتراف الضمنى لظهور وقيام دولة بنى حماد فى الجزائر كدولة مستقلة ومعترف بها من قبل السلطات الزيرية فى القيروان إضافة إلى كل الأراضى التى يتم فتحها فى المغرب الأقصى وفى هذه الفترة كان حماد حاكما سابقا على أشير والمغرب الأوسط .



وخرج حماد إلى الثائرين فقاتلهم وهزمهم وأنشأ على مقربة من البرج قلعته الحصينة التى نسبت إليه قلعة بنى حماد واتخذها مقرا لحكومته وملكه الذى استقل به فيما بعد .

وكان لانتصار حماد بن بلكين بن زيرى على زناتة فى المغرب الأوسط وتأمينه حدود الدولة الصنهاجة من ناحية المغرب الأقصى ، أكبر الأثر فى تثبيت سلطانه وبينه الذى سوف يحكم المغرب الأوسط فيما بعد وعلى الرغم من أنه لم يعلن استقلاله وانفصاله عن بنى عمومته آل زيرى أصحاب افريقية إلا أنه بات من الواضح أنه سائر نحو الاستقلال التام والانفصال النهائى بالمغرب الأوسط عن بلاد أفريقية التى يحكمها ابن أخيه باديس بن المنصور .

وقد امتد سلطان بنى زيرى حتى شمل الساحل الأفريقى كله ولقد اهتم باديس بسحق الثورات فى طرابلس ولكن باديس بن المنصور كان قد ندم على ما وافق عليه عمه حماد فطلب منه أن يتنازل عن قسنطينة وغيرها من المدن الأخرى ليولى عليها ابنه المعز وكاتبه فى ذلك وطلب منه أن يستقيل ويرفع يده على ما تحت يديه من أراضى وما حازه من الجهات الواسعة عام ٤٠٥ هـ لكن حمادا أبى وأظهر الخلاف وتأكد لدى باديس رغبة حماد عمه فى الانفصال فزحف إليه وهزمه عند وادى شلف ففر حماد إلى القلعة عام ٤٠٦ هـ وتحصن بها وساءت العلاقات بينهما وثارت بينهما حروب مبيدة لكن حمادا تحصن بالقلعة وطارده باديس حتى أسوار القلعة وسيطر على منطقة وادى شلف وكاد أن يظفر بعمه بعد حصار طويل .

وهكذا انقسم الصنهاجيون على أنفسهم فى عهد باديس بن المنصور واستقل حماد بن بلكين بالمغرب الأوسط وأمن المغرب الأقصى عاديه وعدوان بنى زيرى الصنهاجيين واستطاعت زناتة فى ظل الانقسام أن تمكن لنفسها وتفرض سيادتها على المغرب الأقصى كيفما طاب لها ذلك . وأصبح المغرب الأقصى حقلا وسيادة لها .

ومات الأمير باديس بن المنصور فى ٣٠ ذى القعدة عام ٤٠٦ هـ . فى مدينة المحمدية ( السلمية ) وبموته استراح حماد من حروبه وتم له ما أراد من تأسيس دولة فتية بالمغرب الأوسط ( الجزائر ) وانقسمت بذلك الدولة الزيرية الصنهاجية إلى دولتين إحداهما شرقية فى أفريقية وطرابلس وعاصمتها القيروان ثم فيما بعد المهدية والأخرى غربية فى المغرب الأوسط واتخذت لها قاعدة هى قلعة بنى حماد ثم بعد ذلك انتقل الحكم إلى بجاية .

وقد دامت فترة حكم باديس عشرين عاما هجرية قضاها فى تأمين الدولة والدفاع عن حدودها وبسط نفوذها فى المغرب الأوسط لكن ثقته فى عمه حماد واعطاءه المواثيق لم تكن فى محلها مما جعلته يندم على فعلته ويدخل فى حروب طويلة معه ولولا أن عاجلته المنية لما استطاع حماد أن ينفرد بحكم المغرب الأوسط ولتغير سير حركة التاريخ فى المغرب وأفريقية نظرا لان باديس منذ توليه شئون الحكم قد حرص على تدعيم قواته الحربية والبحرية وحشد الجنود وبناء الحصون والقلاع وتحصين السواحل ، فقد شهدت له أعوام ٣٨٦ هـ . ٣٨٧ هـ قيامه تفقد قواته البحرية على سواحل المدن الأفريقية فزار المهدية وسوسة وسردانية للاطمئنان على هذه القوات وحصن المدن الساحلية وبنى القلاع والأسوار لكى تحافظ على وجودها فى وجه أى عدوان تتعرض له .

ويعتبر باديس امتدادا لجده بلكين ووالده المنصور فى الولاء للفاطميين وإن كانت نية الانفصال قد بدأت تظهر على سطح الأحداث لكن انشغال باديس بثورات بنى زناتة وعصيان عمه حماد وخروجه على شرعية الدولة قد جعل فكرة الانفصال عن القاهرة لاتخرج إلى حيز التنفيذ ، لكن شيوخ بنى زيرى وعلية القوم فى الجهاز الحاكم كانوا يرون ثقل الأموال التى يتم إرسالها سنويا إلى القاهرة وأنها تشكل عبئا على الرعية والحكومة وتعوق حركة الاهتمام بالبناء الداخلى وتقوية الجيش والأسطول



والعمل على مواجهة تحديات الصراع الداخلى والأخطار التى يتعرض لها المسلمون فى جزيرة صقلية .

وكان باديس من الشخصيات القوية التى حكمت افريقية والذى وقع عليه عبء الدفاع عن النظام الزيرى والتمكين للدولة وأنه لولا حرصه على تدعيم الوجود الحشنهاجى الزناتى لما كتب لعمه حمشاشد المواثيق ووافق على مطالبه بشأن الحكم فى المغرب الأوسط ، إذ أن باديس كان يرى ان إبعاد الخطر الزناتى واخضاعه لنفوذ صنهاجة من أهم المهام التى يجب أن تنفذها الدولة حماية للدولة ونظامها الداخلى وعدم الضعف أمام خطر زناته ، لكن باديس لم يكن يخطر له وهو الذى عينه والده المنصور ليكون خلفا له وزكاه الشياخ ورؤساء بنى زيرى أن تأتى الطعنات من عمه حماد . فلو أنه أدرك أن عمه حماد تتوق نفسه للاستقلال بالمغرب الأوسط وتكوين دولة لكان قد اتخذ قرارا بعزله منذ أول يوم تولى فيه مقاليد الحكم . لكن المنصور والده كان أكثر فهما لطبيعة أخيه حماد فان المنصور لم يقدم على تعيين حماد فى أى من الوظائف القيادية فنجد المنصور يعين أخاه بطوقت بن بلكين واليا على أشير ويعين أبا البهار بن زيدى والياً على المغرب الأوسط ويجعل عاصمته تاهرت .

لكن حمادا واستقلاله عن القيادة المركزية فى القيروان عام ٤٠٦ هـ وقبل قدوم الغزو الهلالى بأكثر من ثمانية وعشرين عاما كان بداية نهاية الأسرة الزيرية ولم تكن المسيرة الهلالية سببا فى الانقسام فى بلاد المغرب بل المسيرة الهلالية جعلت حماد بن بلكين ينفصل بالمغرب الأوسط وبنى مغراوة من زناتة ينفصلون بالمغرب الأقصى أم هى كناية بالعرب وبكل ما هو عربى . وهكذا قضى باديس عمره القصير فى محاربة عمه حماد وفى حروب متصلة مع زناتة .

* * * *

# الفصل الثاني

## السيادة الزيرية والانفصال عن الفاطميين
## المغرب الأدنى والأوسط دولة مستقلة
## المعز بن باديس بن المنصور بن بلكين بن مناد
## ابن منقوش الصنهاجى
## ( ٤٠٦ – ٤٥٤ هـ – ١٠١٥ – ١٠٦٢ م )

لما مات باديس بن المنصور وهو يحاصر حماد فى القلعة كتمت خاصته من رجال البلاط وأشياخ القبيلة الخبر وتفاوضوا فيمن يخلفه فى حكم البلاد وبعد مداولات ومشاورات اتفق الجميع على اختيار ابنه الصغير المعز لكى يخلف أباه تحت كفالة عمته أم بلال وكانت سنه وقت توليه الحكم عام ٤٠٦ م لم تصل إلى ثمانى سنوات فقام بالأمر دونه أعمامه ورجال دولته وذلك لصغر سنه وعجزه عن القيام بأعباء الملك لكن اختيارهم جاء لما تفرسوا فيه من نجابة وفطانة .

وقد كان المعز بن باديس رابع أمراء دولة بنى زيرى الذين تولوا الحكم فى البلاد خضوعا للخلافة الفاطمية فى مصر .

ولما كبر أخذ يباشر أمور الحكم بنفسه وقد أبدى مهارة كبيرة فى إدارة شئون الحكم وكان ذلك فى فترة شبابه وبالتحديد فى عام ٤١٦ هـ / ١٠٢٥ عندما كانت سنه قد تخطت الثامنة عشرة من العمر بدأ يحكم منفردا لكن بمشورة أعمامه ورجال دولته . وقد علا صيته وذاعت شهرته فى مختلف الأنحاء . وكان رجلا واسع الذكاء متجدد النشاط ذا فكر سياسى ناضج ومستقل وقال عنه ابن خلدون كان أميرا هماما حازما سئ الطالع فلم يوفق إلى كثير وهو يعتبر من أكبر أمراء المسلمين خلال النصف الأول من القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى وقد أثنى عليه كثيرا معظم



المؤرخين القدامى وخاصة ابن خلدون ، لكن الظروف التى أحاطت بالمغرب الإسلامى كله أثناء فترة حكمه الطويل قد حالت بينه وبين التوفيق الكامل فى كل ما كان يرتجيه لدولته وشعبه العربى المسلم فى افريقية والمغرب .

وكانت له منزلة سامية بين ملوك وأمراء عصره وعظمته بالغة فهادنة الملوك وقصدته الوفود ، وأتاه التقليد الفاطمى من مصر بتوليه عرش البلاد وقد لقب بشرف الدولة . وقد خاض حروبا طويلة مع أعداء الدولة فى الداخل وخارج حدودها .

ولما كان والده باديس قد توفى وهو يحاصر قلعة بنى حماد فانه كان على المعز أن يواجه ما كان يواجهه والده وهى الحركة الانفصالية التى يقودها حماد بن بلكين ، وسارت قوات المعز عام ٤٠٨ هـ إلى حماد وكان حماد يحاصر « باغاية » فلما علم بقدوم قوات المعز بن باديس أفرج عنها وقاتلته قوات المعز وانهزم حماد وأسر أخوه ابراهيم بن بلكين ونجا حماد بأعجوبة بعد أن أصيب بجراح بالغة . لكن حمادا سعى للصلح بينه وبين المعز وتم توقيع هدنة عام ٤٠٨ هـ أقر فيها من وقع الصلح نيابة عن المعز بانفراد حماد بحكم ( المسيلة ، طبنة ، الزاب ، أشير ، تاهرت وكل ما يفتح من بلاد المغرب الأقصى . وبهذه الاتفاقية بين الطرفين وعقد الصلح الذى وقع عام ٤٠٨ هـ . يعتبر نهاية دولة بنى زيرى الموحدة فى افريقية والمغرب الأوسط فقد انقسمت دولة صنهاجة الزيرية إلى دولة بنى باديس فى القيروان ودولة بنى حماد فى القلعة .

والواقع أن بنى باديس قد حلوا محل بنى زيرى فى حكم المغرب الأدنى وظلت دولتهم أقوى دولة بربرية فى المغرب ولقد كانت الأمور دائما فى صالح حماد فها هو الصلح يتم ليحقق له أهدافه فى الاستقلال ، ثم كانت قبل ذلك وفاة باديس والد المعز وهو يحاصر القلعة وكانت وفاته فرصة لحماد قلما تتاح لكثير من الطامحين إلى الاستقلال فقد فك جيش باديس حصار القلعة وانسحبت العساكر إلى مدينة المحمدية

ثم رحلوا إلى المهدية ثم منها إلى القيروان حيث كان المعز بن باديس مقيما بها وتمت بيعته فى ذى الحجة عام ٤٠٦ هـ وسنه ثمانى سنين وتسعة أشهر فقد ولد عام ٣٩٨ هـ وكان الجند قد ولوا عمه ( كرمة بن المنصور ) شقيق باديس قيادة الجند حتى لاتحدث فتنة فى صفوف الجيش لاسيما وأنهم فى حالة قتال وحرب لحين العودة إلى القيروان وقد قام كرمة بن المنصور بتدبير الملك نيابة عن المعز حتى باشر ملكه بنفسه ، وكان يحكم مصر فى ذلك الوقت الحاكم بأمر الله ولما علم باستقرار الأمور بيد المعز بن باديس وقيامه بالحكم أرسل إليه التقاليد ولقبه بشرف الدولة وأرسل إليه مع التقليد هدية وبذلك أعطى لحكمه صفة الشرعية التى كان يشترط الحصول عليها من قبل حكام مصر الفاطميين فى ذلك الوقت . وبعد أن باشر المعز بن باديس الحكم بنفسه كان عليه أن يدفع خطر بنى حماد الذى كان يهدد الدولة وكان جده ( عم أبيه ) حماد بن بلكين قد أعلن استقلاله عن الدولة الزيرية عام ٣٩٥ هـ أيام حكم والده باديس واختط مدينة القلعة عام ٣٩٨ هـ ونقل إليها أهل المسيلة وأهل حمزة ونقل قبيلة جراوة من المغرب وأنزلهم بها وتم بناؤها وتمصيرها على رأس المائة الرابعة ولم يزل حماد أيام باديس أميرا على الزاب والمغرب والأوسط وقام حماد بقتل الشيعة وأظهر السنة وخلع طاعة الفاطميين وأعلن طاعة العباسيين منذ عام ٤٠٥ هـ وكان حماد قد انتصر على كرامة بن منصور عم المعز فما كان من المعز إلا أن قاد المعركة بنفسه فتوجه إلى حماد عام ٤٠٨ هـ وكانت سنه أحد عشر عاما والتقى فى ربيع أول ٤٠٨ هـ واقتتلوا قتالا شديدا وهزم حماد وأصحابه وأمام الانتصار طلب حماد الصلح وأرسل حماد ابنه قائد لتوقيع الصلح وانصرف قائد بن حماد فى رمضان ٤٠٨ هـ وكتب له المعز منشورا بولاية المسيلة وطبنة وزوارة وغيرها من البلاد وظلت شروط الصلح سارية طوال عصر حماد حتى وفاته عام ٤١٢ هـ .

لكن حدث خلاف بين المعز وقائد بن حماد عام ٤٣٢ هـ عندما حاول قائد التمرد على بنى باديس فسار إليه المعز لكى يخضعه وحاصر القلعة عاصمة ملك



الحماديين واستمر الحصار لعامين حتى خضع قائد بن حماد لشروط المعز ، ولقد كانت دولة بنى زيرى تتحكم فى تلك الفترة إلى حد بعيد فى السياسة الخارجية لدولة بنى حماد فأخضعها المعز وأجبرها على السير فى فلك بنى باديس وكان المعز قد اضطره إلى العودة وإعلانه الطاعة والولاء لبنى باديس .

وكان على المعز بن باديس أن يواجه خطرا لا يقل عن خطر بنى حماد وهو خطر بنى زناتة فى المغرب الأقصى وهم الأعداء التقليديون لصنهاجة ولان زناتة كانت تقيم الدعوة لبنى أمية فى الاندلس وكان حكام طرابلس من زناتة يبعثون بالبيعة إلى قرطبة ونتيجة لكثرة الحروب التى خاضتها صنهاجة مع زناتة فى طرابلس اكتسبت تلك المدينة شهرة عظيمة .

وقد شهد عصر المعز بن باديس حل أكبر مشكلة كانت تواجه الدولة ورجالها وهى القضاء على نزعة الانفصال عن بنى حماد كما سبق القول وخاض المعز معهم حروبا طويلة انتصر فيها هو ورجاله وعندما تأكد لحماد وقومه أنهم لا يستطيعون الصمود والوقوف طويلا أمام المعز ورجاله تقدم حماد بطلب الصلح وقبل لحضور الصلح على أساس أن يكون تابعا للقيروان وأن يتمتع فقط باستقلال محلى فى المغرب الأوسط وتم الصلح فى صفر عام ٤٠٨ هـ / ١٠١٧ م ويمكن لهذا أن نقول أن ذلك كان ميلادا لدولة مستقلة تتربع فيما بعد على عرش المغرب الأوسط .

ومع أن شروط الصلح أقرت بتبعية حماد لحكم القيروان وأن عليه ألا يتصرف بنو حماد فى أي شأن من شئون بلادهم السياسية والعسكرية إلا بالاتفاق مع المعز ورجاله أصحاب السلطة فى القيروان ، إلا أن مشاكل الدولة الداخلية وما جد عليها من قضايا والصراع مع بنى زناتة والمشاكل الكثيرة التى أحاطت برجال البلاد والسلطة والأشياخ جعلتهم عاجزين فى الواقع عن القيام بأية محاولة جدية لاجبار بنى حماد على السير فى طاعتهم والخضوع لإرادتهم .

ومن ثم اكتفوا بالطاعة الأسمية والتعاون فى دفع الأخطار التى تتعرض لها دولة بنى باديس وغير ذلك فقد سارت كل دولة من دولتى بنى زيرى كل فى طريقها الذى يحقق لها أهدافها المنشودة .

وبعد أن وضع المعز بن باديس نهاية للصراع بين أبناء أعمامه من بنى حماد فانه كان عليه أيضا أن يضع حدا لثورة زناتة ولابد أن يدافع عن دولته منهم ذلك لانه فى عام ٤١١ هـ / ١٠٢٠ م أغارت زناتة على افريقية ( المغرب الأدنى ) وخرج إليهم عامل مدينة فاس واشترك فى قتال شديد معهم وهزمهم كما أن المعز نفسه خرج إليهم عام ٤١٤ هـ / ١٠٢٢ م فى منطقة قسنطينة ونفراوة ويواصل المعز استعداده لقتال زناتة ويجمع الجيش والأسطول نحو سوسة ثم المهدية ثم يرحل من المهدية إلى صفاقس ثم إلى قابس قاصدا طرابلس ونظرا للحشود الكبيرة التى جهزها المعز من الجيوش فلم يجد الزناتيون بدا من طلب الصلح والدخول فى طاعته وكان ذلك عام ٤١٧ هـ ، وفى عام ٤٢٠ هـ / ١٠٢٩ م أرادت جموع زناتة الهجوم على العاصمة القيروان والاستيلاء عليها لكن المعز بن باديس ، أوقع بهم هزيمة قاسية ، وفى عام ٤٢٨ هـ / ١٠٣٧ م واصلت زناتة عدوانها على البلاد فصدها المعز وأوقع بها هزيمة ساحقة أيضا وقتل كثيرا منهم . ومع كل هذه الانتصارات التى كان يحرزها المعز بن باديس على زناتة وجيشه من العبيد والمرتزقة، إلا أنها لم تسكن للهدوء والطاعة بل عادت للغزو والخروج على طاعة الدولة فخرج إليهم المعز عام ٤٢٩ هـ / ١٠٣٨ م وفتح بعض قلاعهم فى بلاد الزاب وفتح فروس وقلعة كرووم وغيرها من البلاد الأخرى .

* * * *



## بنى زيرى والانفصال عن الفاطميين بمصر

بعد انتقال المعز لدين الله الفاطمى بدولته وكبار رجال أهل بيته وقادة جنده وجنوده وكل ما هو فى احتياج إليه فى مصر بل ونقل رفات أجداده الذين توفوا قبله معه ، لم يعد لافريقية فى تفكيره السياسى مكان كبير ، ذلك لأنه منذ أن انتقلت الخلافة الفاطمية إلى مصر أصبحت مصرية أكثر منها مغربية ولم يعد يعنيها من بلاد المغرب أكثر ما يصلها من مال أو من خطر على مصر والقيام على المذهب الشيعى والعمل على نشره ، لكن الفاطميين لم يتنازلوا قط عن تبعية هذا البلاد لهم وظلوا يتمسكون دائما بأن يظهر بنو زيرى الولاء التام والتبعية للخلافة الفاطمية فى القاهرة ومذهبها الشيعى الاسماعيلى .

ولقد كانت الظروف السياسية فى مصر والاتجاه نحو بلاد الشام والمشرق وما أحاط بالفاطميين من مشاكل جديدة لديهم قد حالت بينهم وبين أحكام قبضتهم على افريقية .

ولقد كانت ظروف مصر الداخلية وما يحيط بها من أخطار ورغبة الفاطميين فى الاتجاه نحو الحجاز والشام ومد النفوذ الفاطمى نحو النوبة واليمن كل هذا جعل من المستحيل على الفاطميين أن يوجهوا الاهتمام الكافى نحو شئون افريقية والمغرب فغضوا الطرف عن ما يحدث فى بلاد المغرب واكتفوا بإرسال التقاليد والاعتراف بالسلطان (الأمير الزيرى الجديد ) وإعلان الطاعة والولاء للخلافة الفاطمية ، وفى نفس الوقت فان الأمل الذى كان يراود بنى زيرى فى الاستقلال بحكم افريقية وبلاد المغرب الأوسط منذ عهد بلكين بن زيرى وطموحاته نحو الاستقلال قد بدأت تتحول إلى حقيقة فى عهد حفيده باديس ، لكن القدر لم يمهله إذ توفى شابا ، كذلك فان سياسة العزيز بالله الهادئة حالت دون إعلان الاستقلال والانفصال عن الخلافة فى القاهرة ، لكن عجلة التاريخ قد دارت ولا يمكن أن تعود للوراء فقد شهد هذا العصر

عصر المعز بن باديس ، أنه من غير الممكن أن تظل افريقية والمغرب الأوسط تسير فى فلك التبعية والولاء للمشرق حيث الخلافة الفاطمية فى القاهرة .

وهنا نقر حقيقة لاتقبل الشك ولا الجدال وهى أن الأسباب الجوهرية التى حفزت المعز الزيرى لإعلان الاستقلال عن الخلافة الفاطمية لم تكن كراهية البربر للعرب أو محاولة ابعاد السيطرة العربية أو الميل للكيان البربرى أو عداوة البربر للعرب فتلك تحصيلات وهمية عمد إليها أعداء الإسلام أمثال جورج مرسيه أو هنرى فورنى لكن الأسباب الواضحة هى أن أهل المغرب قد ملوا المذهب الشيعى الاسماعيلى وأنه لم يعد يتلاءم مع طبيعتهم نظرا لما فيه من مخالفات للقرآن الكريم والسنة وأنه لم يجد أرضا خصبة فى بلاد المغرب ، وأن المذهب المالكى هو الحصن والدرع الذى كان يدافع عنه أهل المغرب وأن كراهية الشعب المغربى للشيعة ومحاربتهم وصمود علماء المالكية فى وجه هذا المذهب الجديد قد خلقت الأسباب الجوهرية للانفصال عن الفاطميين .

كذلك فان الأموال التى كانت ترسل سنويا من بلاد أفريقية والمغرب الأوسط للقاهرة والتى كانت تشكل عبئًا على الخزانة الزيرية وتحول دون خطط البناء والتعمير وتقوية الجيش والأسطول إضافة إلى إرهاق كاهل الشعب المغربى بجمع الأموال والزكاة والخراج والعشور والضرائب وغيرها والتى لم تكن تعود على خزينة الدولة الزيرية إلا بالنذر السئ .

إضافة إلى طموحات قادة الدولة الزيرية فى ظهور كيان دولتهم بصورة مستقلة دون التبعية الأسمية أو المظهرية لاسيما وأن دعائم الأسرة الزيرية قد توطدت لاسيما وأن الأمير المعز بن باديس كان هو الأمير الخامس فى سلسلة حكام بنى زيرى الذين حكموا افريقية والمغرب الأوسط وأن دعائم البناء السياسى قد رسخت وأن الدولة لم تعد تتهددها الأخطار ، إضافة إلى ما عرف فى تاريخ مصر الفاطمية بالشدة المستنصرية وهى أعنف وأبشع أزمة اقتصادية عرفها التاريخ الإسلامى فى مصر وحالة البؤس والشقاء التى



كان يحياها الشعب المصرى فى ظل الحكم الفاطمى والتى لم تكن تعود إلى نقص فيضان النيل سبع سنوات عجاف ، لكن الشدة المستنصرية كانت بسبب السياسة المالية الفاطمية والتى لم تكن تقدر ظروف مصر الاقتصادية والمالية وحب الفاطميين للمال وجشعهم فى جمع الأموال وكانوا يحتجزون الأموال ويقومون بها فى التجارة أو شراء العبيد حتى يعود عليهم بالنفع . هذه هى الأسباب الجوهرية التى دفعت بنى زيرى للانفصال .

أن ما ذهب إليه بعض المؤرخين الفرنسيين من أن الانفصال عن القاهرة كان بسبب نفور البربر من العرب ما هى إلا وسيلة استعمارية للتفرقة بين عنصر المغرب الواحد وبين أبناء اللغة الواحدة والعقيدة الواحدة ، فقد كان العرب يعيشون بين ظهرانى البربر فى تلك الفترة ثم ماذا يقول المؤرخ الفرنسى جورج مارسيه عن انفصال بنى حماد عن أبناء عمومتهم بالقلعة فى المغرب الأوسط وانفصال بربر زناتة عن بنى مغراوة فى المغرب الأقصى عن افريقية . هل فى ذلك كراهية للعرب أو هى نزعات تسود بعض الحقب التاريخية ، أن الجميع مسلمون وليسوا عربا وبربر ولم يعد للبربر كيان وللعرب كيان فالكل أخوة ابناء عمومة وأصول عرقية وتاريخية وعقائدية واحدة فهل فى ذلك جدال .

ولقد كان ظهور الشخصية الاقليمية واكتمال مظاهر الحكم ونمو الوعى القبلى المحلى والاحساس بكيان القبيلة وتعميق مفاهيم الإسلام ونظام الشورى والاستعراب وانتشار اللغة العربية الإسلامية من عوامل الاتجاه نحو الاستقلال ، واحساس الحكام بالقدرة على الاعتماد على ذاتهم وكيانهم فى توجيه أمورها السياسية .

وكما قلت ان انفصال المغرب الأوسط عن المغرب الأدنى وقيام دولة بنى حماد المستقلة على أيدى حماد بن بلكين شقيق المنصور واتخاذهم القلعة ثم بجاية فيما بعد عاصمة لم يكن ذلك احساسا بقدرة بنى حماد وسياستهم فى بناء دولة وكيان سياسى

لهم ، بل أن ما حدث من انشقاق فى الكيان الواحد لم يكن إلا نتيجة للتطور الداخلى فى المغرب الأوسط الإسلامى ثم لماذا بنى حماد ألم يقع المغرب الأوسط سابقا تحت سيطرة بنى رستم وبنائهم لكيان سياسى كانت عاصمته مدينة تاهرت ( أنظر الجزء الثانى من هذه الدراسة ) ، ثم أن قيام بنى حماد فى المغرب الأوسط وقيادتهم لهذا الأقليم أعطى طابع الاستقلال للمغرب الأوسط عن أفريقية بصورته السياسية المحددة والذى سوف تظهر فيه فيما بعد دولة بنى زيان التى تتخذ من تلمسان عاصمة لها .

ثم ماذا يقول رجال التاريخ الغربيين الذين يحاولون أن ينفثوا سمومهم بين الشعوب تفرقا وانشقاقا ، لماذا بدأت عملية الاستقلال فى تاريخ المغرب الأقصى ، فى تلك الفترة وقبلها قيام دولة الادارسة ، لكن المغرب الأقصى فى فترات تاريخية لاحقة شهدها القرن الخامس الهجرى استطاع أن يكون له كيانه السياسى المستقل لا تابعا للمغرب الأدنى أو الأوسط أو الاندلس بل له شخصيته المستقلة التى تتجلى فى قيام وظهور دولة المرابطين . أن الشعور الاقليمى والامتداد الواسع للمغرب من حدود مصر شرقا إلى المحيط الاطلسى غربا جعل قدرة دولة واحدة فى تلك العصور غير متكاملة فى بسط النفوذ ومن هنا ظهرت الكيانات المحلية وليس كراهية البربر للغرب أو النفور والتخلص من السيادة المهم نعود إلى سابق حديثنا عن مظاهر الانفصال والتبعية فنجد أن المعز لدين الله الفاطمى استطاع أن يضمن ولاء بلكين ثم جاء العزيز بالله فكانت سياسته مع المنصور وباديس تسير على نفس النظام فى المحافظة على تبعية بنى زيرى ولكن المعز لدين الله الفاطمى اتبع سياسة ماهرة تضمن له التبعية ولا تتعارض مع ما كان بنو زيرى يضمرون ويطمعون له فى الاستقلال .

فلما مات المعز وخلفه ابنه العزيز بالله عام ٣٦٥ هـ / ٩٧٥ م رأى أن بنى زيرى يضعون صوب أنظارهم فكرة الاستقلال ومحاولة تنفيذها بصورة فعلية أيام أبى الفتوح المنصور بن زيرى ففكر فى أن يضع العراقيل فى طريقهم ويعمل على إضعاف قوة الدفع نحو الاستقلال ويعطل بصورة فعلية تنفيذها حتى يظل بنو زيرى دائما فى حاجة



إلى تأييد الفاطميين ، فأرسل خفية وبدون علم بنى زيرى داعية شيعيا يدعى أبا الفهم وأرسله وبعض الأعوان إلى قبيلة كتامة الأنصار الفعليين للفاطميين لكى تقوم القبيلة خلف هذا الداعية بثورة على الأمير المنصور بن بلكين وفعلا انضمت إليه جموع القبيلة ، لكن المنصور بعد حشده القوات استطاع الانتصار على أبى الفهم الشيعى وقبيلة كتامة وإزاء فشل سياسة العزيز بالله فى ضرب المنصور فانه اضطر إلى العدول عن سياسة التدبير السئ وراء ستار فعاد إلى مهادنة المنصور ورجال دولته فأرسل إليه عام ٣٨٨ هـ/ ١٩٨م بالتقليد والخلع وأجزل عليه بلقب شرف وعضد الدولة وأرسل الهدايا إليه وإلى علية القوم وأشياخ بنى زيرى مرضاة لهم وعملا على أن يكون ولاؤهم للدعوة الشيعية الاسماعيلية لكن الأمور أخذت طابعا آخر عندما تولى الحاكم بأمر الله ٢٩ رمضان ٣٨٦ هـ/ ٩٩٦ م وهو ثالث الخلفاء الفاطميين فقد كان يتولى مقاليد الحكم الزيرى نصير الدولة باديس بن المنصور بن بلكين بن زيرى وهو أيضا ثالث أمراء بنى زيرى فى أفريقية والمغرب الأوسط ، فأرد الحاكم بأمر الله أن يضع باديس فى اختبار لكى يظهر مدى قوته أو خضوعه للفاطميين فأرسل الحاكم بأمر الله أوامره لوالى برقة وكانت فى ذلك الوقت تدخل تحت السيادة المصرية بل هى جزء من الوطن المصرى بأن يتجه بقواته غربا نحو حدود الدولة الزيرية وأن يستولى على طرابلس والتى كانت جزءا من ولاية المغرب الأدنى واستطاع والى برقة فى غيبة قوات باديس أن يدخل المدينة ويضمها لسيطرة برقة لكن قوات بنى زيرى بقيادة باديس استطاعت أن تهزم والى برقة وتجبره على الانسحاب شرقا وترك البلاد الزيرية ، لكن الحاكم أصدر أوامره لحاكم برقة أن يتولى حكم طرابلس قبيلة زناتة ألد أعداء صنهاجة وكان حكمها لابن سعيد المغراوى الزناتى وتمكن من دخول طرابلس وحكمها ، لكن نصير الدولة باديس تمكن من سحق قوات زناتة وهزمها وأخرجها من طرابلس وفشلت سياسة الحاكم بأمر الله قبل بنى زيرى وهو التهديد ثم الترويض فحاول استرضاء باديس وعودة العلاقات الطيبة بينهما .

## المعز بن باديس والاستقلال

عندما تولى المعز بن باديس إمارة أفريقية والمغرب ساءت العلاقات بينه وبين الخليفة المستنصر بالله الفاطمى وتوترت توترا أدى فى النهاية إلى قيام المعز بإعلان انفصاله عن الخلافة الفاطمية ، لأن بنى زيرى سرعان ما برموا هذه التبعية لان المعز بن باديس هذا كان آخر من اعترف بسلطان الفاطميين ونبذهم أيام المستنصر ونادى بنفسه مستقلا عن الفاطميين وخلع طاعتهم فورث كل دولتهم فيما يلى الحدود المصرية غربا فكان ملكه أضخم ملك عرفه المغرب إذ لم تتح لدولة أخرى فى المغرب فى كل عصوره ( فيما عدا الموحدين ) أن امتد نفوذها على طول الساحل الأفريقى .

ولقد كان مخططى السياسة الزيرية من علية القوم وكبار رجال الدولة وأشياخها ورجال الديوان الأميرى من أعمام الأمير المعز هم وراء فكرة الانفصال وضرب النفوذ الشيعى فى البلاد ومن ذلك فان الثورة التى حدثت عام ٤٠٧ هـ / ١٠١٩ م ضد الشيعة وفى أثناء حكم المعز بن باديس لم يكن الأمير وقتها قد جاوز سنه التاسعة وأربعة أشهر فمن هنا كانت خطى الدولة يسير نحو الانفصال ولم يكن وليد عصر المعز الصغير الذى لم يكم قد وصل إلى سن الشباب والذى لم يتولى السلطة الفعلية إلا عام ٤١٦ هـ / ١٠١٦ م فمن الذى خطط لضرب الشيعة وجعلها من أولى المقدمات للانفصال والاستقلال .

ولقد كان النفوذ الشيعى وسيطرة رجال المذهب الاسماعيلى على مقاليد الأمور فى البلاد من أهم المشاكل التى واجهت المعز أو قل رجال دولته ذلك لانه عندما اعتلى العرش عام ٤٠٦ هـ / ١٠١٦ م كان لا يزال الصراع المرير الطويل على أشده بين السنة والشيعة حيث أن المغرب كان أرض السنة ولم يكن للشيعة أو الفرق الإسلامية الأخرى موطأ قدم فيه ، وكان هم مخططى السياسة والخروج بفكرة الاستقلال عم الفاطميين فى عصر المعز مهما تكن مخاطر الاستقلال وتكوين دولة



مستقلة تكون له ولذريته من بعده وكان أهل السنة قد أفتوا بمقاومة نفوذ الشيعة ولقد شهد ذو الحجة عام ٤٠٦ هـ / ١٠١٦ م أميرا قويا اتجه منذ بلغ سن الرشد إلى تولى الحكم بنفسه ولم يخف نزوعه إلى الاستقلال عن الفاطميين والغاء المذهب الشيعى الاسماعيلى فى افريقية والمغرب كافة . وصدرت الأوامر فانطلقت أيدى العامة فى الشيعة قتلا وتنكيلا فى جميع مدن وقرى وأنحاء البلاد الأفريقية ، ولقد كانت ميول المعز لأهل السنة سببا فى قيام ثورة عام ٤٠٧ هـ / ١٠١٧ م ضد الشيعة ووجودهم فى البلاد . وكان المعز وهو صغير قد تربى على أيدى أكبر رجال السنة فى المغرب وهو الحسن بن الرجال والذى كان من أئمة المذهب المالكى والذى صمد وتلاميذه صمود الأبطال أمام أباطيل المذهب الشيعى ولم يكن رجال القصر أو المحيطون بالأمير من الشيعة يعلمون عن ذلك شيئا وربما كان ذلك العالم الفقيه المالكى يربى المعز عن طريق عمته أم بلال وعمه كرمة بن المنصور وفى إحدى الجلسات اثنى المعز بن باديس على الخليفة الراشد أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب فقام الشيعة لقتله فجاءه رجاله وعبيده للدفاع عنه وانتشر فى القيروان أن الشيعة يريدون قتل الأمير فقام أهل القيروان ووضعوا السيف فى رقاب الشيعة فى كل مكان ولم يكتف المعز بن باديس باضطهاد الشيعة فى البلاد بل عمل على تصفية وجودهم فى قواته فقام نحو ٢٠٠ فارس بترك أولادهم وذويهم عام ٤٠٩ هـ فى القيروان ورحلوا إلى صقلية وترك للعامة حرية الفتك بهم وعمت الثورة ضد الشيعة كل أنحاء البلاد فقد حدث فى عام ٤٠٩ هـ أن اجتمع عدد من الفارين الشيعة يريدون الرحيل إلى صقلية وخرجوا من المهدية وفى طريقهم عند قرية كامل باتوا فيها ليلتهم فقام أهالى القرية ليلا وفتكوا بهم وقتلوهم وقد أطلق على هذه الثورة التى عمت سائر أفريقية ( المغرب الأدنى ) للتخلص من الشيعة حركة تطهير البلاد من الشيعة والانتصار لمذهب السنة المالكى .

وقد كانت هذه الثورة التى خطط لها رجال الدولة بمشورة المعز الصغير ورجال الدين الرسلامى أصحاب المذهب المالكى بداية الاستقلال عن الخلافة الفاطمية فى

القاهرة ، ولقد كانت مقدمة القضاء على الشيعة فى أوائل فترة حكم المعز هى محاولة تحقيق فكرة الاستقلال دون أدنى مقاومة من الشيعة ورفع أيديهم عن مرافق الدولة بما فيها الجيش والأسطول والقضاء على كل ما هو شيعى فى البلاد وحرق أعلام الفاطميين وكانت تلك الثورة المبكرة فى عهد المعز تعتبر تحولا سياسيا ودينيا خطيرا فى خط مسار الحكم مما نتج عنه نتائج فعالة فى مستقبل المغرب الإسلامى وكان سبب ذلك هو تنكره للشيعة ومناصرته لأهل السنة وتساهله مع رعاياه فى الثورة عليهم والتنكيل بهم كرد فعل لما عاناه أهل السنة من قبل منهم على عهد الفاطميين ولقد كانت كوامن العقول وما شهد من أحداث مأساوية من قبل الشيعة نحو أهل السنة هى رد فعل العامة ودافع الأهالى للثورة نتيجة ما عانوه من اضطهاد وقتل وحرق أثناء حكم الشيعة لافريقية واستخدام كل الوسائل المتاحة فى ذلك العصر لقمع ثورات أهل السنة بمنتهى القسوة والعنف والبطش مما حرك فى نفوس العامة الكراهية الشديدة لكل ما هو شيعى ولذلك اعتبرت العامة كل من قتله الشيعة من شهداء الإسلام . وعندما اتيحت الفرصة للعامة ووجد أن الأمير الزيرى لايميل إلى الشيعة ثاروا عليهم .

وهكذا قدر لعلم مذهب مالك أن يرتفع وأن يطفو المالكية وأن تعلو كلمتهم فى عهد المعز بن باديس الصنهاجى حين قتل الشيعة بالقيروان وافريقية وقتلوا أينما وجدوا فى المغرب الأوسط أو فى المغرب الأقصى فأنمحت دعوة الاسماعيلية الشيعية من أرض المغرب وتغلب مذهب مالك نهائيا على ما سواه من المذاهب والنحل ، وأوغل فى قلوب المغاربة فأقبلوا عليه اقبالا عظيما بسبب تحريض علماء المالكية وفقهائها للعامة وحثهم على الفتك بالشيعة فى كل مكان ، بل أنهم هم الذين أوعزوا للمعز بن باديس عن طريق مؤدبه ( الحسن بن الرجال ) الذى علمه مذهب السنة والجماعة ومذهب مالك وحرضه على الشيعة وحرض فقهاء المالكية فى كل مدينة وقرية وفى كل تجمع سكانى فى البادية والوديان حرض أهله على من فيها من الشيعة وخرج الأمر من القيروان إلى المهدية وسائر المدن والبلاد الافريقية ( المغرب الأدنى ) .



لكن المعز بن باديس وقد رأى انه وصل إلى مرحلة الهدف الذى يبغى الوصول إليه فى تلك الفترة المبكرة من حكمه وفى تقليم أظافر المذهب الشيعى ، بل أنه أدرك بأن هذا المذهب لن تقوم له قائمة فى بلاد المغرب ولن تكون له الغلبة مستقبلا فانه عمل من جانبه على حماية الشيعة ورجال الدين الشيعى الذين لم تصل إليهم يد العامة بعد ، لانه ربما رأى أن فى القضاء النهائى على كل ما هو شيعى قد يجر عليه، وخيم العواقب وأن ذلك سوف يغضب الفاطميين وحلفاءهم فى القاهرة فقبض على الشيخ أبى الحسن الرجال زعيم المالكية ونكل به وسجنه وأرسل إلى الخليفة المستنصر بالله الفاطمى بالقاهرة يوضح له حقيقة ما جرى وأن ذلك تم من العامة وأظهر ولاءه للفاطميين لكنه من الناحية الأخرى كان يخطط للانفصال وانه مع السنة ويحاول أن يكسب ودهم وتأييدهم له فى المرحلة القادمة لانهم سوف يكونون الدرع الواقى له منخطر الشيعة أو الخارج عند إعلانه الاستقلال .

وإزاء الأحداث السابقة وإدراك حكام القاهرة بخطورة الأحداث التى جرت فى القيروان وافريقية فانهم عملوا من جانبهم على استمالة المعز بن باديس ورجال دولته وكبار أشياخ الدولة فأرسلوا الرسل والوفود والهدايا منذ عام ٤٠٧ هـ / ١٠١٧ م وبعد مضى بضعة شهور على ثورة العامة على الشيعة وذبح أكثر من ثلاثة آلاف منهم وهروب أعداد تصل إلى أكثر من هذا الرقم أو يزيد إلى صقلية وغيرها من البلاد . وكل هذه الوفود والرسل كانت تصل فى عهد الحاكم بأمر الله الفاطمى وابنه الظاهر لاعزاز دين الله أبى الحسن على الذى تولى الحكم فى ذى الحجة ٤١١ هـ / ١٠٢٠ م . وذلك تعبيرا منها عن الرغبة فى تحسين العلاقات بين مصر وافريقية بعد أن تأثرت بأعمال العنف التى ارتكبها العامة فى البلاد ضد الشيعة وضد الولاة المشارقة من قبل الفاطميين فى مصر والذين كانوا على المذهب الشيعى ولكن هيهات فقد وصل مخططو سياسة الحكم الزيرى الى منتصف طريق الاستقلال وزال خطر الشيعة وأهلها ولم يعد آمالهم إلا الإعلان رسميا عن الاستقلال .

## انتصار أهل السنة ( مذهب مالك )

كان المعز بن باديس وأسلافه من بنى زيرى يسيرون على المذهب الشيعى منذ عهد الفاطميين فى المغرب ومصر وظلت المغرب بعد عام ٣٦١ هـ وقت رحيل الفاطميين إلى مصر بتولى بنى زيرى نشر المذهب الاسماعيلى وسار حكام بنى زيرى على هذا العهد حتى وصل الأمر إلى المعز بن باديس وكانت مدرسة القيروان المالكية من أقوى مذاهب الفقه مما جعل أهل افريقية يتمسكون بالكتاب والسنة ويبتعدون عما سواهما وانتشر المذهب الحنفى أيام الأغالبة فى افريقية لانه مذهب الخلفاء العباسيين فى بغداد وقاوم علماء المالكية الفاطميين وساندوا كل ثورة ضدهم ومن هنا ندرك تمسك أهل افريقية والمغرب بمذهب الإمام مالك .

ولقد ناصب الفاطميون مذهب مالك العداء من أول الأمر وأعلنوا حربا لا هوادة فيها على فقهاء المالكية لأن المالكية يفضلون الصحابة على على بن ابى طالب وحرم الفاطميون الافتاء بمذهب مالك والحيلولة بين فقهاء المذهب وبين القضاء والفتيا وتوسل الفاطميون بكل وسيلة لمصارعة خصومهم ورفع لواء مذهبهم وجلبوا ائمة المذهب المالكى الى القيروان وأخذوا يقارعونهم بالرأى فما أزداد فقهاء المالكية إلا تمسكا برأيهم وعمد الفاطميون إلى اغداق الأموال والجاه والمناصب فلم يجد ذلك إلى قلوب المالكية سبيلا ، ومن ثم بدأ التنكيل والتعذيب وأباح الشيعة دم المالكية وضربوا الفقهاء بالسياط وضربوا الرقاب وقطعوا الالسنة وصلبوا بعض الفقهاء أحياء وصادروا الأموال وأخذوا أموال الأحباس وأخذوا يبطحون الناس على ظهورهم ثم يأمرون العبيد السودان أن يدوسوهم بالأقدام حتى تزهق أرواحهم وبثوا العيون على الناس فى صلاتهم وأخذوا الناس بالشدة وعملوا بكل وسيلة على التنكيل بالفقهاء المالكيين .

لكن وقف المالكيون أمام المذهب الشيعى الاسماعيلى وقفه رجل واحد وأفتوا بكفر الشيعة ولا تخطب لهم جمعة وكل من خطب لهم على منابر يعتبر كافرا



(لاحظ شدة الصراع رغم أن الكتاب واحد والقرآن الكريم والسنة واحدة ) واعتبر المالكية الفاطميين زنادقة لما أظهروه من خلاف الشريعة ونادوا بقتل الشيعة حيثما وجدوا كما بقتل الزنادقة ونادوا بالمقاطعة السلبية لهم ومنعوا الناس من حضور صلاة الجماعة وقاطعوا الجنائز واقفرت المساجد من المصلين وقاطع الناس قضاة الشيعة وعمالهم ورفضوا دفع الأموال .

وانتشر تيار المقاومة المالكية فى المغرب كله وشق قضاتها عصا الطاعة ضد الفاطميين فى كل مكان وأقبلوا على الاستشهاد بنفس راضية مطمئنة . وأظهروا تمسكا بالكتاب والسنة والالتزام بنصوص القرآن الكريم وهذ التقاليد القويمة والسنة المحمدية الحميدة قد تردد صداها فى المغرب كله وأن فى الاستمساك بمذهب مالك نجاة إن شاء الله .

وهكذا كان المالكية أشد الناس حربا على الشيعة وأكثرهم عنفا فى مقاومتهم وامتحنوا فى سبيل ذلك طوال ثمانين عاما فصبروا على الايذاء وتمسكوا بالكتاب والسنة حتى كتب الله لهم الظفر وأعز الله بهم الإسلام ورفع كتابه وسنته .

وهكذا صارت المالكية جزءا من قوميتهم وبقيت قوية وحصنا من حصون الإسلام فى افريقية حتى قدم المعز بن باديس وكان قراره بحمل الناس على مذهب مالك وترك ما سواه فنقل المالكية من صفوف المعارضة إلى مقاعد الحكم والسلطان والقضاء والفتيا وتغير وجه الحياة فى ظل المذهب المالكى وانتشرت تعاليمه فى النصف الغربى من العالم الإسلامى . وأصبح هذا المذهب للمغاربة وطنية وعقيدة وكانت المالكية المعقل الذى عصم أهل المغرب من شرور الفتنة فى عصر كادت ريح الشر تقصف بالمجتمع إذ صمدت المالكية وحفظت للمجتمع المغربى وحدته وقوته وسلمته للأجيال التالية وفى ذلك يقول الرحالة ابن جبير أنه لاإسلام إلا ببلاد المغرب لانهم على جادة واضحة.

وهكذا وجدت دعوة المالكية فى نفوسهم صدى محببا يرتاحون إليه كما أن

فقهاء المالكية ارتفعوا فى نفوس المغاربة إلى مرتبة الزعماء الذين يدافعون عن الضعفاء والمغلوبين ويعارضون الحكام فى سبيل إعلاء كلمة الحق كما أن مقاطعة المالكية للسلطان وعزوفهم عن السير فى ركابه بل معارضتهم له فى كثير من الأحيان واستشهادهم فى سبيل عقيدتهم ومذهبهم وأخذهم بالبأس والشدة صار نغمة محببة إلى قلوب أهل المغرب طوال تاريخهم المشهود له بالنزعة الاستقلالية ، فاقتدوا بزعامتهم الدينية وارتبط فى آذهانهم معنى الدفاع عن الحق وحماية الرعية من عدوان الحكام .

وأقبل الناس على اتخاذ المذهب المالكى مذهبا لهم ونبذ المذهب الشيعى الاسماعيلى وتم الغاء المذهب الشيعى رسميا فى عهد المعز بن باديس وأحل محله المذهب المالكى وذلك نازعا إلى الاستقلال السياسى والمذهبى عن الفاطميين تحقيقا لأهل المغرب الأدنى مذهبهم ورسما لسياسة الانفصال عن حكام القاهرة وتحقيق القومية المغربية التى تتجلى فى التمسك بالمذهب المالكى .

وهكذا شهدت نهاية القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى فى عهد المعز بن باديس الصنهاجى انتصارا للمذهب المالكى وقتلا للشيعة فى القيروان وافريقية وسائر بلاد المغرب الإسلامى ، وهكذا لم يجد المعز بن باديس وهو الساعى للاستقلال عن الفاطميين من مفر إلا النزول على رأى المالكية ، ذلك لان مذهب مالك هو أشد المذاهب التزاما بكتاب الله وسنة رسوله وسنة الصحابة والتابعين وقد كان مالك يقول يجب على أهل العلم والفقه أن يدخل إلى ذى سلطان يأمره بالمعروف وينهاه عن الشر حتى يتبين دخول العلم على غيره لان العالم إنما يدخل على السلطان لذلك .

وهكذا أعلن المعز بن باديس فى القيروان عودته إلى المذهب السنى المالكى ورحب شعب القيروان بذلك ترحيبا شديدا حتى قامت عام ٤٣٥ هـ ثورة أخرى على



كل من كان فى القيروان من الشيعة .

وعلى أثر ذلك بعث المعز إلى الخليفة العباسى القائم بأمر الله يطلب منه عهدا بتوليته حكم افريقية والمغرب وفى ذلك كان تحولا من الدعوة للفاطميين إلى الدعوة للعباسيين بعد ذلك بقليل حيث دعا للقائم ثم العباس عام ٤٣٩ هـ أو ٤٤٠ هـ على رواية ابن الاثير .

ولم يكن المعز أول من فكر فى الاستقلال لكن كانت الفكرة فى رأس من سبقوه لكنه كان أول من اتخذ خطوة تنفيذية وذلك لانه حدث خلاف بين المعز والى المهدية خطيب مسجد المهدية بأن يسب آل عبيد الفاطميين ويلعنهم المستنصر الفاطمى عام ٤١٢ هـ. ولقد كان الضعف والاضطراب اللذان سادا مصر أيام المستنصر من جراء المجاعة التى حدثت واستمرت لسبع سنوات سببا من الأسباب القوية التى دعت المعز ابن باديس الى الاستقلال بالمغرب وقطع صلته بالفاطميين وحذف اسم الخليفة من الخطبة ووضع مكانه الخليفة العباسى ونادى بنفسه تابعا للخلافة العباسية ودعا لخليفتهم فى الخطبة كما أمر بحذف لعن الخلفاء الراشدين من الخطبة وأمر بلعن الفاطميين .

ولقد كانت الدعوة السرية التى يقوم بها العباسيون فى ربوع المغرب الإسلامى ذات أثر كبير فى نفوس العامة التى بطبيعتها تميل إلى مذهب السنة إضافة إلى انشغال الخلافة الفاطمية فى عهد المستنصر بالأحداث الداخلية فى مصر حتى إذ كان يوم عيد أمر المعز بن باديس الخطباء بلعن الخلفاء الفاطميين وخلعهم وكان ذلك يوم عيد الأضحى عندما أمر تميم بن المعز والى المهدية خطيب مسجد المهدية بأن يسب آل عبيد الفاطميين ويلعنهم وهكذا أسقطت خطبهم كما أمر المعز نفسه خطيب القيروان أن يسب العبيديين والفاطميين بأشنع السباب ويختلف المؤرخون القدامى فى أى وقت كان إعلان الانفصال الرسمى عن الخلافة الفاطمية بالقاهرة هل كان عام ٤٣٥ هـ

عند الثورة العامة ضد الشيعة أم كان عام ٣٣٨ هـ أم كان عام ٤٤٠ هـ أو ٤٤١ هـ أو ٤٤٣ هـ ولكن يتفق كثير من المؤرخين على أن وزارة البازورى كانت عام ٤٤٢هـ ومن ثم يكون الانفصال عام ٤٤٣ هـ وساءت العلاقات بين مصر والمغرب الأدنى إلا أن الخليفة المستنصر رغم الأحداث لم يكن يرغب فى أن تتم القطيعة على يديه لان انتقام الخليفة الفاطمى سوف يكون شديدا .

لكن الهوة ازدادت اتساعا وعمقا مما أدى فى النهاية إلى القطيعة والانفصال وكان المستنصر مشغولا بأحداث الحجاز والشام ومصر الداخلية ، ولما بلغ الخليفة الفاطمى رغم مشاكله ما فعله المعز بن باديس وأهل السنة بأنصاره من الشيعة الروافض وما تحققه من انحرافه السياسى افزعه ذلك كثيرا واستشار وزيره البازورى . ذلك لان إعلان الانفصال والاستقلال عن الفاطميين وإقامة الدعوة لبنى العباس وقطع الطاعة الفاطمية تعتبر ضربة قاصمة لنفوذ الفاطميين فى المغرب ولطمة على وجه الخليفة فى القاهرة ومن هنا لابد من التفكير فى رد فعل عنيف للمعز بن باديس الذى قضى على ملكه بالمغرب ولقد قوبل إعلان الانفصال عن الفاطميين فى بغداد بالبشرى والسرور ورحلت رسل بغداد إلى المغرب الأدنى ( افريقية ) بل لم يقف الاثر على حدود الفاطميين والعباسيين والمعز بل تعداه إلى أشراف طرابلس فحرض أهل البلد على الشيعة وقطع من الآذان حى على خير العمل واذن للسنة وحذا أهل برقة حذو أهل طرابلس وقطعت الدعوة للفاطميين وكتبت هذه البلاد للمعز بن باديس بالبيعة والطاعة وهكذا انتقل أتثير المعز عن افريقية كلها ضد التشيع وقضى على كل أثر شيعى فى المغرب كله .

ولما كان المعز بن باديس يريد أن يمحو كل أثر للفاطميين على وجه افريقية بعد أن اتخذ السواد لباس العباسيين حرق أعلام الفاطميين وخطب للخليفة العباسى القائم عام ٤٣٩ هـ . ولعنهم على المنابر وطهر القيادة والوظائف من الشيعة واتخذ المذهب



المالكى مذهبا رسميا للدولة وأحرق كتب الشيعة وصادرها من المكتبات وألغى تدريس المذهب الشيعى من المدارس والمساجد وصال أصحاب المذهب المالكى فى أرجاء الدولة يدعون لمذهب الكتاب والسنة ، فانه لم يعد أمامه إلا السكة وهى العملة التى يتداولها العامة والشعب فى أيديهم ومن هنا فلابد من طمس معالم الفاطميين من وجه السكة المغربية وكان الخلفاء السابقين فى حكم بنى زيرى وهم بلكين بن زيرى والمنصور بن بلكين ، باديس بن المنصور لم يفكر أى منهم فى تغيير العملة الفاطمية التى كانت تسود فى أيدى الناس للتعامل بها منذ رحيل الفاطميين إلى القاهرة ، حتى جاء المعز بن باديس الذى قطع الخطبة لهم ودعا للعباسيين لكنه ظل فترة طويلة من حكمه يتعامل بالنقود التى تسك فى دار السكة بالقيروان باسم الخليفة الفاطمى بالرغم من الحاح بعض كبار علماء المذهب المالكى بالقيروان عليه بضرورة تغيير العملة وكان المعز بن باديس والذى تخرج قافلة كبيرة من بلاده كل عام قاصدة الأراضى الحجازية لأداء فريضة الحج مرورا بالأراضى المصرية والأراضى التى سيطر عليها الفاطميون كان يخشى على حجاج المغرب أن يتعرضوا لأى أذى أو يصيبهم مكروه عند مرورهم بالقاهرة ومعهم العملة المعزية الزيرية قاصدين أراضى الحجاز ويرفض سكان هذه البلاد وتجارها بما فيهم أهل الحجاز التعامل معهم بسكتهم التى لاتحمل شعار الفاطميين ولا أسماء حلفائهم .

لكن المعز بن باديس فى عام ٤٤١ هـ اتخذ الخطوة النهائية للقضاء على أدنى أثر للفاطميين فى المغرب وأمر بالغاء التعامل بالسكة الفاطمية التى كانت تحمل أسماء الفاطميين ومحا أسماءهم من الطرز والرايات بعد أن استمرت مائة وخمسة وأربعين عاما ولا شك أن تغيير العملة كان آخر عمل هام قام به ابن باديس من قطع الأواصر السياسية والدينية التى كانت تربطه بالفاطميين فى مصر بعد أن تردد المعز كثيرا قبل أن يقوم بتغيير العملة خشية ألا يتعامل بالعملة الزيرية خارج أراضى دولته لاسيما فى موسم الحج حيث لايتمكن أبناء المغاربة من التصرف بالبيع والشراء فيما

لديهم من أموال لاتحمل أسماء الفاطميين ويرفض كل التجار والباعة التعامل بسكتهم، لكن شهر شعبان عام ٤٤١ هـ شهد تغير الدنانير الفاطمية وأمر بجمع ما لدى العامة من عملة فاطمية وصدرت سكة زيرية تحمل شعار الدولة والخلافة العباسية وبهذا الإجراء يكون ابن باديس قد نجح فى إعلان الاستقلال النهائى عن الفاطميين بعد أن كانت بدايته التقرب للعامة والثورة على الشيعة وتمسكه بالمذهب المالكى ونهايته تغير السكة واسدل الستار النهائـى على كل ما كان يربطـه بالفاطمـيين فى مصر .

لكن بعض المراجع تذكر أن تغيير السكة فى التعامل بها كان عام ٤٣١ هـ وليس عام ٤٤١ هـ ويذكر حسن حسنى عبد الوهاب المؤرخ التونسى أن تغيير العملة كان عام ٤٣٩ هـ بدليل أن الاستقلال قد تم فى هذا العام ولم يكتف المعز بذلك بل أمر بتغيير الإعلام ولون ثيابهم ولباسهم واستبدل به السواد وهو شعار العباسيين وطلب من الخليفة العباسى أن يرسل له الخلع والألوية السوداء فاستجاب الخليفة العباسى القائم بأمر الله لرغبته وأرسل له رسولا يدعى « أبا غالب الشبرازى » بالعهد والولاء ، فقبض عليه امبراطور الروم وهو فى طريقه إلى القيروان عاصمة المعز بن باديس فأرسله إلى القاهرة حيث أمر الخليفة المستنصر الفاطمى باحراق العهد واللواء والهدية فقام المعز بالاعتماد على المصادر المحلية فى صناعة الثياب والإعلام والألوية وتم له ما أراد من قطع الصلة نهائيا مع الفاطميين .

ولقد نجح المعز بن باديس نجاحا كبيرا فى الاستقلال السياسى بالقضاء على النفوذ الشيعى وقضى على معارضة قبائل زناتة فى طرابلس وفى بلاد المغرب الأوسط حيث تنازل عنه محليا لعمه حماد بن بلكين وبذلك استطاع أن يبعد الخطر عن ملكه ودولته ، بل أنه نجح فى القضاء على زعيم المذهب المالكى « الحسن الرجال » .

وقد بذل المعز بن باديس كل ما فى وسعه لكى يكون ملكه له لايعارضه شيعى



ولا سنى ولازناتة ولا أبناء عمومته فى القلعة الذين اعترفوا بالتبعية والسيادة له بعد أن انتصر عليهم وطلبوا الصلح بأنفسهم وأملى المعز بن باديس شروط هذا الصلح بما يتلاءم مع متطلبات الواقع السياسى وتنازل لحماد بن بلكين عن المغرب الأوسط دراً لخطر زناتة وأصبح الملك خالصا له حتى لو استدعى الأمر التضحية ببعض رجال الدين والسياسة الذين قد يؤثرون على رسم سياسة الدولة وسير الأحداث بها وتطيع لهم العامة.

* * * *

# الفصل الثالث

## زحف بنى هلال الى افريقية ( المغرب الأدنى )

عندما أعلن المعز بن باديس استقلاله عن الفاطميين وعودته للمذهب السنى (المالكى ) ودخوله فى طاعة الخليفة العباسى فان الدولة الفاطمية كانت عاجزة عن اتخاذ أى إجراء عملى وعسكرى ضده ، ومن هنا فقد خطرت ببال الوزير الفاطمى أبى محمد الحسن بن على اليازورى فكرة اخضاع بنى هلال وبنى سليم بلاد افريقية والمغرب ونقلهم إليها وذلك لان القضاء على دولة بنى زيرى يكون خيرا للدولة الفاطمية وان قضى بنو زيرى على بنى هلال كان هذا خلاصا من بنى هلال دون أن تخسر الدولة شيئا . وهكذا قام الوزير اليازورى باغراء القبائل العربية المقيمة على حدود مصر الشرقية بالوجه القبلى مثل بنى هلال وبنى سليم وعلى حدودها الغربية بالوجه البحرى مثل رباح ورغبة بالسير إلى القيروان بعد أن أمدهم بالمال والسلاح .

وهكذا انتقل بنو هلال هؤلاء بجموعهم إلى المغرب واتجهوا نحو برقة وكان الخليفة المستنصر بالله الفاطمى قد أقطعهم ملك المعز بن باديس الصنهاجى كوسيلة تنكيل به . ويقول ابن الاثير فى كتابه الكامل فى التاريخ انه فى عام ٤٤٢ هـ دخلت العرب إلى افريقية وسبب ذلك أن المعز بن باديس كان يخطب للقائم بأمر الله الخليفة العباسى وقطع خطبة المستنصر العلوى ، فأرسل إليه يتهدده فأغلظ له المعز فى الجواب وكان قد استوزر الحسن بن على اليازورى ولم يكن من أهل الوزارة الأكفاء فكاتبه المعز وخاطبه بما لم يخاطب به من قبل فعظم ذلك عليه وعاتبه فلم يرجع ابن باديس إلى ما يجب ، فأكثر الوقيعة فى المعز وأغرى به المستنصر فوافقه ثم أصلحوا بين زغبة ورباح وكانت بينهم حروب وحقود وأعطوهم مالا وشرعوا فى إرسال جموعهم إلى افريقية وملوكهم كل ما يفتحون ووعدوهم بالمدد وحفزوهم لمحاربة بنى باديس الخارجين عن سلطان الدولة وردهم إلى حظيرتها واقتنع الخليفة بهذه الوسيلة السهلة التى



لاتكلف الدولة خسائر كبيرة ( تفاصيل هذا الموضوع بالتوسع والتحليل فى الباب القادم من تلك الدراسة عن مسيرة بنى هلال وأثرها فى بلاد المغرب ودورهم الحضارى ) .

ولما رحل بنو هلال إلى افريقية كتبوا إلى اخوانهم الذين يعيشون فى الصعيد المصرى يرغبونهم فى البلاد وسرعان ما تسرب هؤلاء الاعراب إلى أرض برقة فوجدوها بلادا خالية طيبة المرعى كانت عمارتها زناتة فأبادهم المعز بن باديس فأقاموا بها واستوطنوها . وكانت جموع العرب ببرقة والمعز ترد اليه أخبارهم ولم يكن يتوقع منهم شرا على ملكه . وكان العرب لما دخلوا برقة وجدوها خالية من السكان تقريبا بسبب الحروب الطويلة التى كانت بين أهلها من زناتة وقوات بين زيرى الصنهاجية ( وجد العرب برقة خالية ولم يدمروا أو يقتلوا ويكونوا كالجراد ) كما صور بعض المؤرخين وقد قال النويرى وغيره أن برقة كانت خالية كما ذكر ذلك بعض المؤرخين وأين كان التدمير والقتل ) فاستقر فيها نفر من بنى سليم فى برقة وانطلقت بقية بنى هلال إلى طرابلس وافريقية فاستقروا فيها دون تخريب أو قتل أو سفك للدماء ودون أن يلقوا أدنى مقاومة وأرسلوا إلى بقية أبناء عمومتهم فى صعيد مصر يستدعونهم فلحقت بهم جماعات كبيرة من بنى هلال وبنى سليم وتولى قيادة الجميع يحيى الرباحى شيخ رباح أحد بطون بى هلال ثم زحفوا إلى قابس وامتلكوها دون مقاومة وانساب العرب فى بلاد المغرب الأدنى .

وتذكر المصادر التاريخية أن المعز بن باديس طلب من يحيى الرباحى قدوم العرب من طرابلس وافريقية لكى يستعين بهم بنو باديس على أبناء عمومتهم الصنهاجيين فى القلعة ، لكن مؤنس بن يحيى الرباحى زعم المعز بن باديس بأن العرب لا يجتمعون على الكلمة ولا ينقادون للطاعة فألح عليه المعز فى قدومهم ولما قدموا أخذوا الاغارة على الأطراف وسير لهم المعز بن باديس بعض جيوشه فهزموها وعزموا على الرحيل إلى

القيروان ، لكن زعيم رياح طلب منهم الاستيلاء على مدن افريقية وقراها واحدة بعد الأخرى حتى لم يبق إلا القيروان فقدموا إليها وبذلك يسهل أمرها ويتمكنون من الاستيلاء عليها ، وكانوا لما قدموا إلى قرية قالوا هذه القيروان ونهبوها فعظم ذلك على المعز بن باديس فقبض على أسرة الرباحى واقتحم عليه داره ، فعز ذلك على بنى هلال فأرادوا الانتقام فأرسل إليهم المعز حسب رواية ابن عذارى المراكشى ، الفقهاء ومعهم مكاتبات وشروط ووصايا وأعلموهم أن السلطان المعز قد دفع إليهم عملاءهم كأسرة مؤنس الرباحى ومن معه وأخذ عليهم العهود والمواثيق على الرجوع للطاعة فقبلوا وأرسلوا شيوخا منهم ثم انقلبوا على المعز ، لكن المعز استكثر من الجنود حتى بلغ عددهم نحو ثلاثين ألفا ليدفع بهم هجمات الأعراب ، ساءت أموال أعمال القيروان بمضايقات العرب ومحاصرة الأطراف وقلت حركة المسافرين واضطر المعز أن يفكر فى مدافعة هؤلاء الاعراب وكان على المعز أن يواجه هذا الخطر بعد أن فشلت محاولته فى ضمهم لخدمته والعيش بسلام فى أنحاء البلاد .

## معركة حيدران الفاصلة

لقد دخل بنو هلال بلاد افريقية ولن يستطيع المعز وقومه انقاذها منهم واستنجد المعز بن باديس بابن عمه قائد بن حماد صاحب القلعة فأمده بألف فارس واستصرخ زناتة فأقبل إليه المستنصر بن خزرون بألف فارس من زناتة وجمع هو جنده وانضم إليه عرب الفتح ولكن هؤلاء تخلوا عنه وانضموا إلى الهلالية عندما دارت المعركة وكان المعز قد عزم على القتال لصرف خطر العرب عن القيروان وسار حتى أتى حيدران وكان ذلك ثانى يوم عيد الاضحى وذلك لان السلطان المعز تحرك إلى قرية تعرف ببنى هلال حتى إذا كان نصف النهار أتته الأخبار بأن القوم قربوا منه فأمر بالنزول فى أودية وعرة



ولم يتم النزول لهذا الجيش الضخم الذى كان يتكون من ثلاثين ألف فارس ومثلها رجاله وفى رواية ابن عذارى ثمانين ألفا وقد يكون فى العددين مبالغة وكان جبل حيدران بينه وبين القيروان مسيرة ثلاثة أيام وكانت عدة العرب ثلاثة آلاف فارس وعند ابن عذارى ثلاثون ألفا وهو الأقرب للصواب ودارت المعركة بين أهل افريقية يتزعمهم المعز بن باديس والعرب الهلالية فى هذا المكان المسمى حيدران قرب قابس فى ذى الحجة ٤٤٣ هـ / أبريل ١٠٥١ م وكان المتوقع أن ينتصر المعز نظرا لضخامة جيشه وجودة سلاحه وكثرة خيله وكانت غالبية الهلالية فى هذه المعركة من بنى رياح وعددا من بطون الهلالية ولكن انفصال عرب الفتح عن جيش المعز أضعف صفوفه وجر عليه الهزيمة فقضى الهلاليون على جيشه تماما وحاقت الهزيمة بالمعز على الرغم من كثرة جيوشه وقلة أعدائه وكان من نتيجة هذا الانتصار الذى أحرزه العرب فى حيدران أن تقدمت العرب نواحى القيروان وتفرق جند المعز وأصبح الناس لا حامى لهم إلا الله ويذكر ابن عذارى المراكشى أن عبيد المعز وعسكر صنهاجة لما دخلوا مدينة صبرة بعد الهزيمة أساءوا استخدام مبانيها وخربوا عمائرها العظيمة ( ولم يخربها العرب ) شهادة أخرى بجانب شهادة النويرى فهل بعد هذا دليل ) وتراجع المعز بن باديس وتحصن فى القيروان وأقبل العرب يحاصرونهم فيها . وكان أهل القيروان يتتبعون نتائج هذه المعركة وجاءهم الفارون بخبر الهزيمة فحزنوا كثيرا ثم لحق السلطان وفلول جنده بالقيروان وأقام العرب على باب القيروان محاصرين لها .

وأمام الخطر الذى يحيط بالقيروان استعد المعز بن باديس لقتالهم فأعاد ترتيب جيوشه وعاد إلى القيروان يرتب شئونها وخرج إليهم المعز بنفسه فانهزم بعد قتال عنيف ثبت فيه المعز ثم عاد إلى المنصورية فاقتتلت العرب حتى نزلت على القيروان ووقعت الحرب هناك فقتل بين رمادة والمنصورية خلق كثير ، واستمرت مناوشات العرب للمدينة لكن المعز فى عام ٤٤٤ هـ أباح لهم دخول القيروان لما يحتاجون إليه من بيع وشراء واقتسم العرب بعض المدن فكانت طرابلس لزغبة وباجة لمرداس بن رباح ثم

قسموا هذه البلاد فكان لبنى هلال من تونس إلى الغرب وهم رباح وزغبة والمعقل وجشم وقرة والاشبج والملط وسفيان واشتدت الأزمة بالنسبة للمعز وتغلب العرب على سوسة وتونس وهكذا بدأت بوادر الضعف فى الدولة الزيرية .

وكان المعز قد أقام بالمنصورية مع من بقى من عسكره وولى ابنه تميما مدينة المهدية وعقد صلحا مع الهلاليين فى عام ٤٤٥ هـ لكن لم يأت عام ٤٤٦ هـ حتى نقضت العرب الصلح وحاصرت القيروان وهدمت الحصون وضيقت المنافذ على سكان القيروان مما اضطر المعز أن يلحق بالمهدية ويقيم فيها مع ابنه تميم وجعلها عاصمة بنى زيرى الجديدة بدلا من القيروان وخـرج الناس إلى المهدية وهجـروا القـيروان وخرج هو من المنصـورية إلى المهـدية فى عـام ٤٤٩ هـ ( لاحظ ست سنوات ٤٤٣ هـ - ٤٤٩ هـ ) ولم يستطع العرب دخـــول القيروان فلماذا التحايل على العرب وكل ما هو عربى ) .

ولما علمت العرب بوصول السلطان المعز بن باديس إلى المهدية دخلت القيروان . بعد أن ترك المعز وأهل المدينة خاوية على عروشها بعد أن حملوا ما خف حمله وغلا ثمنه ولم يتركوها إلا خاوية صعصعا من كل شئ ودخلها العرب واستولوا على ما كان قد بقى فى قصور المعز ابن باديس والتى كان المعز قد حمل كا ما فيها ولم يجدوا إلا بقايا خيام وبعض الآلات الحربية كالسيوف والدروع القديمة وأسرجة الخيل التى لايمكن استخدامها وخضع من بقى فى المدينة لسطوة العرب وخضوعا لحكمهم لان العرب كانوا يثيرون المتاعب ولم يتمكنوا من حكم المدينة وكان أهل القيروان قد رحل معظمهم مع السلطان إلى المهدية وبعضهم تفرق فى القرى والمدن الأخرى .

ولم تكن هزيمة المعز فى معركة حيدران أمام العرب ودخولهم القيروان نهاية الدولة فقد انتقل المعز إلى المهدية ومنها حكم هو وأبناؤه وأحفاده وجعلوها ملكهم وقام أهل أفريقية للدفاع عن بلادهم ووقعت بينهم وبين العرب حروب طاحنة وحاربتهم زناتة وصنهاجة وهوارة ولقد كانت مقاومة هذه القبائل البربرية للعرب شديدة ورغم ذلك



فانه فى عام ٤٥٣ هـ شهدت مدينة نقيوس مقتل أكثر من مائتين وخمسين رجلا من العرب بسبب خلاف نشب بين أعرابى ورجل من أهل المدينة .

وكـان الاعـرابى قد سب المعز وتصدى أهل المدينة للعرب وقتل منهم العدد المذكور ، وهكذا تصدع ملك المعز بن باديس وأقام بالمهدية بعد أن تمكن العرب الذين أرسلهم المستنصر الفاطمى ووزيره اليازورى وحققوا ما كانوا يحلمون به وأصاب القيروان حاضرة العلم والثقافة والحضارة ما أصابها .

وبعد انتقال المعز إلى المهدية أصيبت دولة بنى زيرى بالانهيار وزاحمها العرب فى كل مكان وأخذت كل قبيلة منهم تنشئ لها إمارة صغيرة فى جهة من جهات افريقية وهكذا انتشر العرب فى أنحاء افريقية ثم أخذ مشايخها وقادتها يفكرون فى التسرب إلى المغرب الأوسط ( الجزائر ) ويرجع المؤرخون أن أهم أسباب هزيمة المعز فى مدافعة العرب ترجع إلى شجاعة العرب الفائقة ومهارتهم الحربية الكبيرة وتخاذل الصنهاجيين وزناتة وخيانتهم للمعز بن باديس فى كل معاركه وتشبهه بالنعيم والجاه وتشبع روحهم بالحياة المعزية المرفهة ، وايثار المعز بن باديس عبيده على جنوده من صنهاجة وكانت هذه العوامل وغيرها ذات أثر بالغ فى هزيمة المعز وهزائمه المتكررة أمام هجمات بنى هلال وبنى سليم .

ولقد حاول المعز أن يصدهم لكنه لم يقدر ، بل ذهب إلى حد أن صاهر ثلاثة من امرائهم لكن ذلك دون جدوى ولقد كانت الأحوال السياسية فى افريقية تمهد لنجاح بنى هلال فقد انقسمت القبائل البربرية الافريقية صاحبة الأمر فى البلاد بعد أن غرقت فى الترف ففقدت روحها العسكرية وما كاد بنو هلال يصلون إلى أراضى افريقية حتى انتصروا على جيوش المعز بن باديس وهجرت مدينة القيروان التى كانت مركز الثقافة وكعبة العلم والحضارة وهاجرت أعداد كبيرة من السكان على رأسهم العلماء إلى المغرب الأقصى فأصبح المغرب الأوسط والأدنى يعيش فى صراع فكرى وعلمى من

جراء هجرة العلماء وأنشأ الهلاليون على أنقاض دولة بنى باديس امارات صغيرة يقاتل بعضها البعض وقضى المعز بن باديس السنوات الأخيرة من حكمه سجينا فى المهدية وشريط من الأراضى الضيقة حولها حتى توفى عام ٤٥٣ هـ / ١٠٦٢ م بعد أن رأى بعينه بوادر انهيار ملكه الواسع العريض من جراء هجوم العرب على افريقية وما جره إليه من وبال استقلاله عن الفاطميين فى مصر .

ويفسر بعض المؤرخين أن المسيرة الهلالية قد وضعت نهاية لدولة بنى زيرى فى افريقية رغم أن تميم بن المعز ظل يحتفظ بالساحة الباقية من أرض افريقية ، أما الباقى فقد تقاسمه الهلاليون وبعض زعماء زناتة وصنهاجة وانقسمت البلاد إلى اقطاعيات صغيرة وضاعت وحدة البلاد الكلية . لكن تميم عمل على جمع شمل البلاد ومحاربة المدن والبلاد التى خرجت عن طاعة الحكومة المركزية فى المهدية .

وقد خرجت بعض البلاد عن طاعة الدولة بمجرد علمهم بهزيمة حيدران ومغادرة القيروان إلى المهدية وكانت سوس أول هذه المدن فامتنعوا عن إرسال الأموال والجباية وجعل حكم المدينة شورى بينهم وأنشأ حكما ديمقراطيا بعد أن كونوا مجلسا استشاريا يدير شئون المدينة لكن المعز رغم الهزيمة أرسل إليهم عام ٤٤٥ هـ أسطولا حاصر المدينة ولكن أهل المدينة لم يستسلموا ودافعوا عن استقلالهم ولكن المعز أرسل أسطولا وجيشا ضيق الخناق على المدينة حتى استسلمت .

وفى ذلك يقول حسن حسنى عبد الوهاب فى كتابه ورقات عن الحضارة التونسية « أنه لأول مرة فى تاريخ تونس الإسلامية نرى مدينة تعلن استقلالها وتتخذ لنفسها حكومة استشارية لا دخل للحكم الاستبدادى والوراثى المطلق بينها ولم يكن له أدنى سلطة فى توجيه أمور البلاد بل هو نظام حكم يرتكز على الشورى وحكم الجماعة الذى تكون من اثنى عشر شخصا كونوا مجلسا استشاريا والذى كان يتم فيه اختيار أفراده من أبناء الشعب لإدارة شئون البلد والذود عن حياضه بما يوافق رغبة



الناس ومن ذلك نجد أنه عندما حاصرت قوات المعز البرية والبحرية مدينة سوسة فإن المجلس رأى الاستيلاء على أموال أهل القيروان المقيمين فى سوسة نظير ما تعرضوا له من أضرار نتيجة هجوم أسطول المعز عليهم وكان ذلك يتلاءم مع رغباتهم . وهذه هى أصول الحكم الجمهورى الشورى الديمقراطى فى العصور الإسلامية السابقة فى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى وهذا هو منهج الحكم الإسلامى الذى اختارته مدينة سوسة منذ ما يقرب من ألف عام والحق يقال أن أهل سوسة قد استفادوا من الصعاب التى مرت بها دولة بنى زيرى فى تلك الفترة الزمنية التى أعلنوا فيها استقلالهم، لكن المعز عمل ما وسعه العمل على عدم السماح بتقسيم دولته والحفاظ على وحدتها ، ولقد شهدت عدة مدن افريقية حركات استقلالية وخروجا عن طاعة وقوة الحكومة المركزية فى المهدية ومنها قابس ، تونس ، فقصة، وسوسة .

وقد ظل المعز بن باديس أربع سنوات يعيش فى كنف ابنه تميم وان كانت السلطة صورية فى يد المعز لكن تميما كان يدير شئون الدولة ويعمل على استتباب الأمن وعدم الخروج على شرعية الدولة .

قضى المعز أربع سنوات فى كنف ابنه تميم قضاها حزينا مكلوما وهو يرى الملك الذى شاده بنفسه يتمزق أمامه وتتقطع أوصال دولة كل يحاول الاستقلال بمدينة أو اقليم حتى قضى نحبه فى عام ٤٥٣ هـ / ١٠٦٢ م .

وقد كان المعز أعظم ملوك بنى زيرى وملكه أضخم ملك عرفه البربر وكان عادلا مستقيم السيرة ، كريما محبا للعلماء وفى عهده نزح الأديب الجزائرى الكبير ابن رشيق الميلى من مسقط رأسه إلى القيروان ، كما قصده الأدباء والشعراء وكان شاعرا مجيدا ، عارفا بعدة صناعات ، وقد أتته بعثة من قيصر الروم فى القسطنطينية عام ٤٢٦ هـ / ١٠٣١ م تحمل هدايا ثمينة فقبلها المعز وكافأ عليها بما يلائم الملوك .

ولم يكن المعز بن باديس يحسب أن أقدامه على استقلاله عن الدولة الفاطمية فى مصر سوف يجر على دولته كل هذا الوبال والخسائر ولم يكن يدرك أن قدوم العرب الذين استعان بهم فى بادئ الأمر وينظر إليهم نظرة بعض العرب من الوافدين إلى دياره من شظف العيش وبحثا وراء المرعى والكلا ولكنهم قلبوا ظهر المجن واستباحوا كثير من المحظورات فى افريقية وكانت فعلة اليازورى وزير المستنصر هى سبب كل هذا البلاء الذى أصاب دولته .

* * * *



## بنى زيرى بعد دخول بنى هلال المغرب

## تميم بن المعز بن باديس بن المنصور بن بلكين بـن زيرى

## ( ٤٥٣ – ٥٠١ هـ – ١٠٦٢ – ١١٠٧ م )

ورث تميم بن المعز عن أبيه ارثا مثقلا فقد انفرط عقد الدولة أواخر أيام المعز وخرجت المدن السابق الإشارة إليها عن طاعة الدولة واستخلف المعز بن باديس ابنه تميما لحكم البلاد وتغلب العرب على أبيه وكان السلطان الجديد قد تولى الحكم وهو داخل أسوار المهدية ولم يكن تحت نفوذه إلا ساحل البحر من سوسة إلى قابس لا غير، كما ذكر ابن خلدون ، بل أن ابن خلدون ذكر أقوالا أبعد من ذلك فقال أنه لم يكن له إلا ماضمته السور لكن تميما كان شجاعا وتربى فى كنف القوة وحكم المهدية واليا من قبل أبيه وهو الذى فضله أبوه على كثير من أخوته لصفات رآه فيها مبكرة ، كان عليه أن يقابل كل هذه الحركات الاستقلالية فى مدينة سوسة وقابس وتونس وقفصة بكل حزم وشدة وجهز الجيوش والأساطيل وأخذ أهبته واستعداداته لاسترداد هذه المدن ووجه تميم همه الأول نحو سوسة فاستردها عام ٤٧٥ هـ وفتحها وأعادها إلى حظيرة الدولة وظلت سوسة خاضعة لنفوذ بنى زيرى وسيطرة تميم ، لكن الاعراب أغاروا على المدينة لكن تميما لم يمكنهم منها وطردهم بعد فترة قصيرة وخرج زعيم العرب ورجاله هائمين هاربين فى الصحراء بعد أن لقنه تميم درسا فى القتال وصيانة حرمة الديار وعدم الاعتداء على المدن الآمنة ، وبهذا الحزم استعاد تميم سوسة وكانت الحرب سجالا بين العرب وبنى زيرى من شأن سوسة وظلت المدينة بين هؤلا وهؤلاء إلى أن قدم الموحدون بعد أن رحل شيوخ المدينة إلى عبد المؤمن بن على وطلبوا منه دخول المدينة والدخول فى طاعته .

واستطاع تميم بن المعز أن يسترد مدينة طرابلس فى شرق البلاد عام ٤٨٨ هـ حيث استطاع القبض على واليها وهو من الاتراك الهاربين من مصر ( شاه ملك )

وخربت طرابلس وقبض عليه وأخذه معه ورجاله من الاتراك أسرى إلى المهدية ولكن إذا كان تميم قد استرد طرابلس فان خلفاءه من بعده لم يستطيعوا المحافظة على الوجود الزيرى فى شرق البلاد واستقل أهل طرابلس بأنفسهم تحت قيادة بنى مطروح وقطعوا الطاعة لبنى زيرى .

وحاول تميم اخضاع قابس كما أخضع سوسة وطرابلس حيث كان منهجه أن يعيد سطوة الدولة ونفوذها وأن يخضع حكام المدن وكانت قابس قد تحالفت مع العرب من رباح وخلعت طاعة بنى زيرى أثناء حكم المعز لكن تميما حاصرها عام ٤٧٤ هـ ولكنها استعصت عليه فجهز حملة قوية عام ٤٧٩ هـ وحاصرها ومعها صفاقس فى وقت واحد وشدد عليها الحصار لكن العرب ساعدوا أهلها مما مكنهم من صد غارات تميم لكنه فى عام ٤٨٦ هـ حاصرها وشدد على اسقاطها حتى خضعت المدينة لنفوذ تميم وأعاد عليها الكرة مرة أخرى فى عام ٤٨٩ هـ حتى يقضى على كل أثر للفوضى والمتاعب التى كانت تقف فى وجه الوالى الزيرى .

ولقد شهدت السنوات الأخيرة من حكم تميم نشاطا حربيا وعسكريا مكثفا شهدت به غزواته للمدن والقدرة على اخضاعها وعمل على التفرقة بين القبائل العربية وتسليط بعضها على بعض نكالا للجميع واستمالة لبعضهم واتخاذهم أصهارا وأعوانا له على غيرهم من البطون العربية الأخرى ولم يكف لحظة على العمل على استتباب الأنور والقضاء على كل أثر من آثار الخروج على الحكومة المركزية فى المهدية فكما استرد سوسة وقابس وطرابلس كان عليه أن يستكمل مسيرة الجهاد فى اخضاع البلاد فاستطاع عام ٤٩٣ هـ بالتعاون مع قبيلة زغبة ورباح العربيتين وتعاونهم أن يسترد صفاقس وأن يهزم حاكم المدينة البراغوطى ومن معه وأرسل تميم ابنه وولى عهده يحيى فى عدة حملات إلى صفاقس لتأديب العصاه والخارجين على سلطة الدولة وهكذا لم يأت عام ٤٩٣ هـ إلا وكان تميم قد استطاع أن يخضع كل المدن التى خرجت على



حكم أبيه واستطاع أيضا أن يسترد جزيرة جربة وأن تخضع لحكم تميم عام ٤٩١ هـ بعد أن كان قد جهز لهم أسطولا كبيرا ، بقيادة أبى الحسن الفهرى لكن الجزيرة قامت بالثورة عام ٤٩٩ هـ وحشدت أسطولها ولذا لم يتمكن الجيش والأسطول الزيرى من دخول الجزيرة وظلت الجزيرة خارج السيطرة الزيرية حتى حكم السلطان على بن يحيى حفيد تميم .

تونس والصراع مع بنى حماد :

كان العرب بعد معركة حيدران قد استحوذوا على كثير من الحواضر الافريقية مثل بجاية والأريس وما يليها وكان بنو حماد أبناء عمومة بنى باديس قد طمعوا فى ملك افريقية ( المغرب الأدنى ) وصارت القيروان فى أيديهم بعد أن خلع حاكمها طاعة الزيريين وقدم إلى ابن حماد لكن تونس أيضا رأت الأمور لاتسير وفق ما يتطلبه النظام والاستقرار فقدم أشياخ المدينة وكبار علية القوم والتجار إلى الناصر بن علناس الحمادى بالقلعة عاصمة بنى حماد يطلبون الدخول فى طاعته فولى عليهم فردا منهم هو عبد العزيز خراسان ، لكن بعد أن تولى تميم الحكم واجهه الخطر الذى كان زمن أبيه فنجد أنه فى عام ٤٥٨ هـ يقود حملة إلى تونس ويحاصرها أربعة عشر شهرا حتى استردها من ابن خراسان الذى أعلن خضوعه وطاعته وبيعته لتميم بن المعز وفك تميم الحصار عن المدينة ، لكن المدينة خرجت عن طاعته مما استدعاه أن يجهز أسطولا لتأديب تونس وبعض الجزر المخالفة مثل جربة وقرطبة ففى عام ٤٩١ هـ جهز أسطولا وأخضع هذه البلاد .

وكان على تميم بن المعز أن يكبح من جماح العرب ويرد أطماعهم فى بلاده بعد أن فكر العرب فى الاستيلاء على المهدية عام ٤٤٩ هـ وهو العام الذى انتقل فيه المعز إلى المهدية وكان الناس ينتقلون إليها أيضا لكنهم فشلوا لكن السلطان تميم بن المعز أحبط خطته وأفشلها ورجع مالك بن علوى للعهد ، وفى عام ٤٧٦ هـ توجه

زعيم العرب مالك بن علوى إلى المهدية يريد فتحها لكن السلطان تميم بن المعز أحبط خطته وأفشلها ورجع مالك بن علوى عن المهدية خائبا لكنه سار إلى القيروان واستولى عليها لكن تميم زحف إليه بجيوشه واضطره إلى الهرب إلى الصحراء وترك القيروان واستولى عليها جيش تميما وعادت إلى ملكه وتم لتميم طرد العرب من سوسة وكانت أعمالهم فى هذه المدن وقتية واغارات وليس استقرارا دائما ونظام حكم .

وكان كثير من أهل افريقية قد رحلوا إلى بلاد بنى حماد فى المغرب الأوسط بعد دخول العرب فعمرت بلاد الحماديين وصلحت أحوالها ووجد بنو حماد فى غارات الهلاليين فرصتهم ليتخلصوا من سيادة بنى باديس ويتصدروا زعامة المغرب ومن هنا تحالف الحماديون مع العرب ضد بنى زيرى واشتبك معهم تميم بن المعز فى معارك كثيرة ووقف ضد محاولة ابن عمه الناصر ابن علناس الحمادى وقضى على المحاولة التى قام بها الناصر عام ٤٥٧ هـ بمساعدة قبائل زناتة والعرب من الاشيع وعدى ، لكن تميما استطاع بمعاونة القبائل العربية من زغبة ورباح وبنى سليم أن يهزمه ولاحظ هنا صداقة تميم للعرب والتعاون وليس للتخريب ، وهزم الناصر وقتل من جيشه أعداد كبيرة وقتل أخوه القاسم بن علناس فى موقعة سبيبة وتمكن تميم بن المعز بتحالفه مع القبائل العربية من صد غارات المعتدين على دياره وساعدوه فى حفظ وفرض سلطان الدولة ونفوذها على ولاة الأقاليم وحكام المدن .

وتمكن تميم بمحالفة العرب من صد غارات الناصر الحمادى ومنعه من غزو المهدية وكانت مساعدة رباح والمعز بن زيرى الزناتى لتميم واتفاقهم معه سببا فى الانتصار على الناصر فى سبيبة ، لكن الناصر عاود الهجوم على القيروان عام ٤٦٠ هـ ولكن تميما وجموع العرب المتحالفة معه أجبرته على الخروج منها عام ٤٦١ هـ وتم الصلح والاتفاق بين تميم والناصر وكانت رغبة الناصر قوية فى السيطرة على بجاية ولكن الصلح لم يحقق له رغبته لكنه إذا كان تميم قد تمكن من القضاء على



المفسدين من الوزراء والحجاب وكان بمقتضى الصلح والمعاهدة أن زوج تميم بن المعز ابن عمه الناصر بن علناس بابنته « بلارة » التى بنى لها قصرا باسمها ، لكن الصلح لم يكن ليدوم فى المستقبل وأن هذا الصلح الذى تم فى عام ٤٦١ هـ قد استمر حتى عام ٥٢٩ هـ عندما انهار هذا الصلح وبدأت تلك الفترة تشهد كثرا من المنازعات بين الطرفين مما استدعى الأمر إلى الاحتكام للسلاح والقوة لحسم بعض الأمور المعلقة .

وفى عهد السلطان تميم استولى النورمان على صقلية عام ٤٨٤ هـ بعد أن لبثت تحت حكم المسلمين نحو مائتين وسبع وسبعين سنة واستقر معظم سكانها تحت حماية النورمان وهكذا سقطت صقلية فى يد روجر الأول النورماندى بعد حرب قصيرة بدأت عام ٤٤٤ هـ / ١٠٥٢ م وانتهت فعلا عام ٤٦٤ هـ / ١٠٧١ م بعد أن خرج أحد المدافعين عنها وهو ابن حواس بأهله وماله إلى افريقية وقد ظلت مدينة قصربانه تدافع عن نفسها ثلاث سنوات بعد ذلك ثم استسلمت وفى عام ٤٨٤ هـ / ١٠٩٢ م سقطت عاصمة الجزيرة بالرمو ، وانتهى أمر المسلمين فى صقلية من الناحية السياسية .

وفى عام ٤٨٠ هـ هاجم السواحل التونسية أسطول جنوى مكون من ثلاثمائة سفينة وتمكنوا من النزول بجانب قاعدة ملكه المهدية ، فأحرقوا الغلال وسبوا النساء ، فصالحهم تميم على مال أخذوه منه وانصرفوا وبقى تميم يدير أمور سلطنته الحقيقية بعد أن نجح فى استرداد المدن التى خرجت عن طاعته وأخضعها فيما عدا مدينة أو اثنتين واستطاع خلفاؤه من بعده استعادتها إلى حظيرة الدولة .

وقد طالت الحرب بين تميم بن المعز والنورمان فى البر والبحر وتقلبت علاقته معهم بين صلح وحرب وبعد وفاة تميم عام ٥٠١ هـ / ١٠٩٥ م لم تتوقف هجمات النورمان على سواحل البلاد الافريقية .

## يحيى بن تميم بن المعز بن باديس بن المنصور
## ابن بلكين الزيرى
## ( ٥٠١ – ٥٠٩ هـ – ١١٠٧ – ١١١٦ م )

توفى السلطان تميم بن المعز عام ٥٠١ هـ / ١٠٩٥ م وكان قد أخذ البيعة فى حياته لابنه يحيى وقد طالت فترة حكم تميم التى كانت ما يقرب من ثمانية وأربعين عاما استطاع أن يمكن للدولة ويسترد سيطرتها على المدن الخارجة وكذلك تحالف مع العرب لكنه ترك عرش البلاد وهى أحسن ما كانت فى عهد سلفه المعز وأخذ البيعة لابنه يحيى من أشياخ بنى باديس وعلية القوم رغم أن هذه البيعة كانت سببا فى مشاكل كثيرة مع أخوته وأبناء العائلة وأحسن تميم سيرته مع الرعية وقمع الثائرين فى البلاد فنجد أنه أعاد بعض المدن التى كانت قد استعصت على أبيه تميم ومن ذلك نجد أنه أعاد بعض المدن التى كانت قد استعصت قبله وحاصرها حصارا طويلا حتى فتحها وكان ذلك بعد تولية الحكم بعام واحد .

واستطاع أن يكون له دور فى سياسة حوض البحر المتوسط الغربى إذ أنشأ أسطولا بحريا قويا غزا به بلاد الروم وصقلية وسردانية وجنوه وداهمت قوته البحرية تلك البلاد وصالحه الأوربيين على مال يدفعونه له سنويا .

وكانت الظروف قد أرغمت بنى باديس فى المهدية على انشاء أسطول قوى واتباع سياسة بحرية قوية للحفاظ على سواحل بلادهم وأملاكهم فى الداخل وقد ساعد سقوط صقلية فى عهد السلطان تميم على نزوح كثيرا من مسلمى صقلية إلى دولة بنى زيرى والانضمام إلى الأسطول الزيرى وكانوا يغيرون على السواحل الايطالية وعلى جزر سردانية وصقلية مما دفع هذه الدول للقيام بحملات بحرية ضد بنى زيرى أصحاب المهدية فتحالف أهل جنوا مع أهل بيزا الايطاليين واستطاعوا فى عام ٤٨٠ هـ/ ١٠٨٧ م احتلال المهدية والاستقرار بها بعض الوقت وقد بارك ذلك رجال



الدين المسيحى الزوربيين وعلى رأسهم البابا فكتور الثالث الذى شجع على تكوين فريق من السفن الجنوية والبيزية للإغارة على سواحل افريقية وتحركت قوات من ثلاثمائة سفينة وثلاثين ألف مقاتل وألف فارس واشتركوا جميعا فى الاستيلاء على المهدية وزويلة وسبوا أهلها وقتلوا وأحرقوا بالنار وعاثوا فسادا فى هاتين المدنيتين ولكن صلحا كان قد تم بينهم وبين تميم على أن يدفع لهم مائة ألف دينار وكان نجاح هذه الحملة أن المسلمين قد خدعوا بها ولم يعدوا للأمر عدته وكانت هذه الحملة الايطالية تستهدف وقف غارة سفن بنى زيرى وتعرضها للملاحة الايطالية ووقف الاغارة على السواحل الايطالية لكن الصلح لم يدم طويلا إذ شهد عام ٤٩٨ هـ قيام أهل جنوه بيزا بمهاجمة المهدية ومعهم ثمانية وعشرون سفينة لكن هذه المرة كان أسطول بنى زيرى على أهبة الاستعداد ويعلم بالتحركات مقدما فخرج إليهم أسطول المهدية وهزمهم وقتل كثيرا منهم ولاذ الباقون بالفرار ويرجع أسباب هذا النصر إلى تدارك السلطان تميم للأخطاء السابقة .

والواقع أن بنى زيرى قد وجهوا جل اهتمامهم بالأسطول البحرى فنجد فى عهد يحيى بن تميم هذا يقوم بتجديد سفن الأسطول والإكثار من بناء السفن والاستعداد للغزو وقام عام ٥٠٣ هـ / ١١٠٩ م بمهاجمة السواحل الايطالية وقد كانت هذه الغارات نوعا من الجهاد الإسلامى ضد النصارى حيث واصل السلطان يحى بن تميم سياسة أبيه تميم وقام بدور كبير فى الغارات البحرية حيث بنى أسطولا كبيرا وضخما غزا به جنوه وسردانية وصقلية وحرص على أن يقوم أهلها بدفع الجزية سنويا وتعددت غزواته البحرية ففى عام ٥٠٣ هـ / ١١٠٩ م جرد يحيى بن تميم أسطولا كبيرا مكونا من خمسة عشر غرابا ( والغراب هو سفينة حربية كبيرة وقد سميت بهذا الاسم لان مقدمة هيكلها كانت على شكل غراب ) وذلك للغزو فى بلاد الروم وقد أصيب منها ست وعاد الباقى إلى المهدية ، وفى عام ٥٠٧ هـ / ١١١١ م أغار أسطول المهدية على بلاد الروم وعاد بسبى كثير فى شهر ربيع الآخرة من نفس العام .

ونشطت حركة الجهاد الإسلامى فى عهد يحيى بن تميم وساعده فى ذلك حسن استعداده البحرى فقد صرف يحيى جل همه ووقته القصير فى إعداد الجيوش وتجهيز الأساطيل والإكثار منها والواقع أن هذه الغزوات البحرية التى قام بها تميم بن المعز وابنه يحيى بن تميم لبلاد النصارى قد حققت أهدافها المؤقتة ،لكنها كانت كناقوس خطر نبه نصارى هذه البلاد إلى أهمية الأسطول وخطورة هجمات أسطول المهدية على بلادهم مما جعلهم يهتمون بالبحرية .

ولكن السلطان يحيى بن تميم لم يحكم سوى ثمانية أعوام وذلك لسوء حظه وشؤم طالع دولته إذ فتك به بعض أخوته ولقد كانت ولاية العهد سببا مباشرا فى نهاية حكم يحيى بن تميم فقد ثار عليه أخوته الذين كان قد أبعدهم عن البلاد لكنهم احتالوا عليه ودخلوا عليه على انهم غرباء عن البلد وأن لهم معرفة جيدة بعلم الكيمياء الذى كان السلطان يحيى مولعا به وشغوفا إلى معركة كل جديد فى هذا العلم لكنهم اشترطوا عليه أن يشرحوا له سر اختراعهم فى تحويل المعادن الأخرى كالنحاس والرصاص إلى ذهب أن يكون وحيدا وكان هو قد نفى اخوته إلى بلاد المغرب فجاءوا إليه متنكرين فى زى مغاربة فهاجموا الوزير والحاجب وقتلوهما وهجموا عليه وأثخنوه جراحا يخرج منها آلام مريرة مدة طويلة ومازالت تعاديه وتراوحه حتى مات عام ٥٠٩هـ / ١١١٥ م . وكانت ولاية العهد سببا فى اثارة كثير من الاضطرابات والمشاكل وأشاعت الفتن بين أبناء الأسرة الحاكمة .

وقد أعاد يحيى بن تميم الخضوع للفاطميين فوصلته هدايا كثيرة منهم وعاد اسمهم إلى الخطبة لكن هذا الاعتراف لم يغير من الحالة شيئا وظل بنو زيرى يتوارثون الإمارة دون تدخل من الخليفة الفاطمى وأصبحت التبعية اسمية ومظهرية تظهر فى وفد يرسله كل أمير جديد إلى مصر يبلغ الخليفة الفاطمى بالقاهرة نبأ تعيينه ويحمل بعض الهدايا التى يرد عليها الخليفة الفاطمى بهدايا مماثلة .



ولم تكن قوة الخلفاء الفاطميين فى القاهرة لتسمح له بأكثر من ذلك بعد أن أصبحت سلطتهم على درجة كبيرة من الضعف وعجزوا عن السيطرة على مقاليد الأمور فى البلاد التى تحت أيديهم وخرجت الشام والحجاز عن سلطانهم وغلبهم على الأمر فى مصر الوزراء الذين أصبحوا يتوارثون هذا المنصب وأصبح منصب الوزير مركز الثقل فى مصر .

وهكذا نرى العلاقات بين الفاطميين فى مصر وبنى زيرى فى المهدية قد عادت علاقات ودية وحل الوئام محل القطيعة بعد أن كان تميم بن المعز بن باديس قد سار على نهج أبيه فى قطع العلاقات واستمر فى قطع الخطبة مما سبب له كثيرا من المشاكل مع الاعراب الموالين للدولة الفاطمية . وقد قبل يحيى بن تميم الصلح والولاء حتى لا تتعرض مملكته لمثل ما تعرضت له أيام جده المعز بن باديس وأبيه تميم . وفى عام ٥٠٥ هـ / ١١١٢ م وصل رسول صاحب مصر الفاطمى بهدية إلى أمير افريقية يحيى بن تميم .

## على بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس

## ( ٥٠٩ – ٥١٥ هـ / ١١١٦ – ١١٢١ م )

تولى على بن يحيى إدارة شئون البلاد فى المهدية بعد وفاة أبيه الذى كان قد أخذ البيعة له أثناء مرضه بعد أن طعنه اخوته وأصيب بجراح ظل يشكو منها فترة ، وتوترت العلاقات بينه وبين روجار الثانى ملك صقلية النورمانى بعد أن بدأ من الواضح أن النورمان سيتمكنون فى القريب العاجل من الاستيلاء على المهدية بعد أن أختل التوازن العسكرى فى غرب البحر المتوسط وانتقل إلى أيدى النورمان بعد أن كان الضعف قد امتد إلى معظم نواحى الحياة فى دولة بنى زيرى ووصل النورمان وغزوهم وغاراتهم للسواحل المغربية ليعرقلوا حركة الجهاد الإسلامى ضد بلادهم وقابل بنو زيرى الغارات النورمانية بأعداد الأساطيل لكن غزو بنى زيرى لسواحل صقلية وجنوب ايطاليا كان عديم الأثر ذلك لانه منذ عام ٥٠٧ هـ / ١١٤ م كان البحر المتوسط بحيرة تورماندية وصارت السيادة فيه للقوى البحرية الأوربية وعربدت فيه أساطيل صقلية ونزل النورمان على سواحل المغرب وتدخلوا فى الصراع الدائر بين أمراء افريقية وساعدوا بعض حكام المدن الافريقية ضد البعض الآخر وأرسل روجار الأساطيل لحماية حكام قفصة ، لكن الأمير على بن يحيى وكان قد تخوف من التدخل فى شئون بلاده واستعد للطوارئ واستنجد بالأمير يوسف بن تاشفين سلطان المرابطين ليساعده على مدافعة العزو النورمانى واستعان بالأسطول المرابطى لصد الهجوم الأوربى وتدخل روجار الثانى فى الشئون الافريقية وتزداد العلاقات سوءا بين روجار الثانى والأمير على لكن روجار الثانى عندما علم بنية المرابطين وتعاونهم مع بنى زيرى فى دفع الخطر النورمانى فى صقلية والذى كان يهدد بنى زيرى فى المهدية ، فقد مدت دولة المرابطين يدها للأمير على بن يحيى فى دفع خطر صقلية بعد أن علمت بنية روجار بغزو السلطان على بن يحيى فى عقر داره فى المهدية والاستيلاء عليها وراسل السلطان على بن يحيى



السلطان يوسف بن تاشفين فى طلب المساعدة والإعداد لحملة بحرية لغزو جزيرة صقلية فلما علم روجار الثانى بذلك أسرع بإرسال رسول وطلب الصلح من على بن يحيى بن تميم الذى استجاب للصلح والذى كان يرى فى هذا الصلح مجرد فرصة وقتية للإعداد القوى والتعاون مع المرابطين فى إرسال حملة بحرية إلى صقلية لكن المنية عاجلته وتوفى فى ريعان شبابه ولم تتجاوز فترة حكمه ست سنوات إذ توفى عام ٥١٥ هـ / ١١٢١ م . وقبل وفاته كان قد أرسل إلى روجار الثانى مهددا له بالاستيلاء على صقلية وكان الأمير على بن يحيى بن تميم قد أعد عام ٥١٠ هـ أسطولا للاستيلاء على جزيرة جربة واسترجعها للسيادة الزيرية بعد أن ظلت خارج السيطرة الزيرية حتى حكم السلطان على بن يحيى بن تميم الذى حشد لها أسطولا كبيرا حاصر الجزيرة وظل مقيما على حصارها حتى أقر أهلها بالطاعة وتعهد أشياخ الجزيرة بالخضوع وعدم قطع الطريق الذى يسلكه التجار والمسافرون إلى المهدية وهكذا أخضع على بن يحيى جزيرة جربة للسيطرة الزيرية بعد أن ظلت خارجة عن سيادة الدولة فترة طويلة منذ معركة حيدران بين المعز بن باديس وعرب بنى هلال بالتعاون مع المرابطين واسترداد صقلية من أيديهم مما جعل روجار يستخدم الحيلة والخداع ويطلب صلحا مع الأمير على وظل يتحين الفرص للاستيلاء على المهدية .

## الحسن بن على بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس

## ( ٥١٥ – ٥٤٣ هـ – ١١٢١ – ١١٤٨ م )

تولى الحسن بن على حكم البلاد بعد وفاة أبيه وكان عهده يكاد يكون أحسن عهود دولة بنى زيرى لولا ما صادفه من عقبات ومشكلات كان لها أثرها فى نهاية حياة الحسن بل ونهاية الدولة وهو آخر أمير صنهاجى زيرى يحكم فى المهدية وكانت الدولة فى رمقها الأخير والنورمان فى صقلية ينتظرون الفرصة للانقضاض على الدولة وتنكروا للحسن بعد أن كان والده على قد عقد صلحا معهم وأنذروه بمهاجمة دولته بعد أن كانت دولة المرابطين قد مدت يد العون لبنى زيرى حيث استعان بهم الحسن بن على وقام على بن يوسف بن تاشفين فى مواجهة خطر روجار وازدياد نفوذه وتحرشه الدائم بالمهدية بأن قام أسطول المرابطين بالإغارة على صقلية وتم فتح بعض المدن وخضوعها للسيادة الإسلامية ومنها مدينة تقوطرة عام ٥١٦ هـ / ١١٢٢ م وكذلك اقليم شلش لكن روجار الثانى ظن أن المحرك لذلك العدوان هو الحسن بن على صاحب المهدية ولذلك كان روجار كلما وصل أسطول إسلامى من المغرب يجاهد فى الأراضى الأوربية أو الصقلية نسبه إلى الحسن بن على .

فقام أسطول صقلية بمهاجمة الأراضى الزيرية عام ٥١٧ هـ / ١١٢٣ م ونزلت جنودهم بجزيرة الديماس ، لكن رجال الحسن قاتلوهم قتالا عظيما واستماتوا فى الدفاع عن وطنهم حتى قهروهم وطردوهم إلى البحر مهزومين وكانت هذه الحملة قد هزمت هزيمة نكراء بعد أن قاتل الأهالى الفرنجة وحاصروهم وقتلوا منهم خلقا كثيرا وهرب الجنود إلى السفن وطلبوا الأمان من السلطان الحسن بن على فخرجوا من البلاد فى جمادى الآخر عام ٥١٧ هـ ودخل المسلمون جزيرة الديماس فاستولوا على الخيول والأسلحة والآلات والأموال .



وكان رجوع الفرنجة بهذه المنازلة له أثر سئ على روجار والشعب ، لكن روجار صمم على غزو المهدية . وتم الخداع مرة ثانية إذ تم الصلح بين الحسن بن على وروجار الثانى عن طريق الفاطميين بالقاهرة عام ٥١٧ هـ . ويذكر صاحب كتاب المؤنس أن الحسن بن على أرسل هدية إلى روجار وقبل الشروط التى اشترطها عليه صاحب صقلية .

وظل روجار يوالى هجومه على المهدية واستولى على قافلة من سفن البحرية الزيرية ليضعف بذلك قوة الحسن بن على مثلما فعل مع صاحب بجاية من بنى حماد ويقضى على روح المقاومة لدى أهل المهدية ويضعف الروح المعنوية عند جند الحسن بن على ففى عام ٥٣٦ هـ / ١١٤١ م استولى على سفن كان الحسن يعدها لإرسالها إلى مصر وظل روجار يتحين الفرص ويتحرش بالحسن ويواصل الغزو والإغارة على المهدية بقيادة جرجس بن ميخائيل الاطاكى لمعرفته بالمهدية ويهون بذلك قوة الحسن وكانت لديه رغبة شديدة فى الاستيلاء على المهدية حتى تم له السيطرة على افريقية كلها ويحركه فى ذلك حب الانتقام لما أصاب جنده من هزيمة قاسية فى جزيرة الديماس عام ٥١٧ هـ حتى تمكن من الاستيلاء على المهدية عام ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م وبذلك طويت صفحة من صفحات تاريخ بنى زيرى فى افريقية وخضعت البلاد للحكم الأوربى حتى قيض الله للبلاد عبد المؤمن بن على أمير الموحدين فأعاد المهدية للسيادة الإسلامية عام ٥٥٥ هـ .

# الفصل الرابع

## المظاهر الحضارية والحياتية فى الدولة

ورث أمراء بنى زيرى الصنهاجيين الحكم فى افريقية بعد رحيل الفاطميين إلى مصر وهو فى صورة متكاملة من حيث التقسيم الإدارى ونظام الإدارة والقضاء والتنظيم ومختلف أنماط الحياة اليومية حيث كان النظام الأساسى للدولة يقوم على نشر المذهب الشيعى الاسماعيلى وإعلاء شأنه ونشره بين القوم فى المغرب والعمل على كبح جماح بنى زناتة والأمويين ومن هنا عمل امراء صنهاجة من بنى زيرى على حمل لواء الدعوة الاسماعيلية نيابة عن الفاطميين ، وكان امراء صنهاجة يساعدون الدعاة ويسهلون مهامهم ويسخرون لهم الجند والشرطة لاداء مهامهم ، بل أن الولاه كانوا يحضرون مجالس الدعاة لكن هذا الأمر انتهى بوفاة باديس بن المنصور بن بلكين.

ولما جاء المعز ابنه ورغب فى الاستقلال وأتاح الفرصة أمام أنصار المذهب السنى للعمل على استرداد فقه الإمام مالك بن أنس مذهب أهل المغرب وأطلق للعامة يدهم فى الشيعة وطردهم خارج البلاد وأعلن المعز قطع كل صلة له بالمذهب الشيعى نهائيا منذ عام ٤٤١ هـ . وبعد أن كان الولاة من بنى زيرى يحكمون فى القيروان باسم الفاطميين ونيابة عنهم ، فقد ألغى المعز كل ذلك فصار الحكم فى البلاد بدون موافقة خلفاء الفاطميين فى القاهرة بل انه لم يعد الولاة ملزمين بنشر المذهب الشيعى بعد أن ألغاه المعز نهائيا وتمسك نظام الحكم فى القيروان والمهدية بالمذهب المالكى وتغيرت ألقاب الأمراء والسلاطين الذين حكموا البلاد بعد المعز فبعد أن كانوا يقتصرون على الألقاب التى يمنحها لهم الفاطميون ( شرف الدولة ، نصير الدولة ، عضد الدولة ) تغير كل ذلك كلية واتخذ امراء بنى زيرى لقب السلطان منذ عهد المعز بن باديس ونهاية إلى الحسن بن على آخر سلاطين بنى زيرى ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م .



وكان نظام الحكم فى سلطنة بنى زيرى يتولاه السلطان بعد أن يتم ترشيحه من قبل أشياخ الأسرة الحاكمة من بنى زيرى وعلية القوم بها سواء كانوا رجالا أم نساء ، بل أن النساء لعبن دورا كبيرا فى الحكم مثلما حدث فى تولية المعز بن باديس نفسه حيث قامت عمته « أم بلال » بأخذ البيعة له وكفلته حتى كبر وكذلك عمه كرمة ابن المنصور حيث كانت تتم ولاية العهد من قبل السلطان وبإجماع الأسرة ، وكان المتبع قبل عصر المعز بن باديس أن يكتب حاكم القيروان بما يريد أن يخلفه فى العرش ويأخذ ولاية العهد له . إلى الخليفة الفاطمى بالقاهرة يطلب منه الموافقة على من يرشحه الأمير والأسرة الحاكمة لولاية العهد وكان وصول هذه الموافقة شرطا أساسيا فى تعيين ولى العهد . وحتى ولاية المعز نفسه وصلته موافقة الحاكم بأمر الله الفاطمى ولقبه شرف الدولة .

لكن بعد استقلال المعز بالأمور فى افريقية لم يعد لكل هذه مكان فى نظام الحكم الزيرى فقد أخذ البيعة لابنه تميم عام ٤٤٣ هـ وأمر الخطيب بالدعاء له فى الخطبة فى مساجد القيروان والمهدية وكل مساجد البلاد ولقب أبا الظاهر تميم واستمر نظام ولاية العهد معمولا به حتى نهاية الدولة فى عهد آخر سلاطينهم الحسن بن على .

وكان ولى العهد يتخذ لقب أمير كما تبين من عقد البيعة الذى كان يعقده السلطان لولى العهد ومن الألقاب المنقوشة على السكة كما كان يدعو للأمير ولى العهد على التأييد بعد أبيه ( تميم بن المعز ) كما يختص بالولاية على المهدية أو المدن الكبرى إذا مات أبوه ينقل إلى القيروان أو المهدية .

وكان منصب الوزير يلى ولى العهد فى الحكم من حيث الأهمية والمهام الملقاة على عاتقه وكانت مهمة الوزير مساعدة السلطان ومشاركته فى تسيير أمور الدولة وتحمل مسئولية بعض الأمور فى الحكم لان السلطان لايستطيع أن يتولى بمفرده إدارة كل شئ وإن كانت المعاونة لاتعدو أن تكون لها صفة الاستقلالية عن إطلاع السلطان

على كل شئ يتم تنفيذه وكان الوزير يختار من علية القوم والأسر العروفة وربما من الأسرة الحاكمة ( فرع السلطان بنى زيرى ، بنى باديس ) وكانت مهمة الوزير تلقى أوامر السلطان وإبلاغها إلى الولاه فى الأقاليم والمدن بما يجب أن يتم تنفيذه .

وقد عرفت دولة بنى زيرى وزارة التنفيذ والتفويض وكان لبعض الوزراء سلطة عامة وشاملة فى أمور تدبير الدولة وإدارة دفة الأمور ولهم حرية التصرف فى المفاوضات وتوقيع المعاهدات والصلح بين السلطنة والدول الأخرى .

ومن أشهر الوزراء الذين لعبوا دورا هاما فى حياة الدولة الزيرية الوزير ( المولى صندل ) وهو الذى تكفل بأمن الدولة وإدارة شئونها فى عهد السلطان الحسن بن على حينما كان هذا صغيرا وإدار دفة الأمور على خير وجه حتى تمكن الحسن من تسلم مقاليد الأمور بنفسه .

ويبدو أن الوزارة فى دولة بنى زيرى قد تغيرت معايير أدائها لدورها فعندما تكون شخصية الوزير قوية ومستمسكا بمقاليد الأمور تكون الوزارة وزارة تفويض مثلما كان الوزير الذى قتله المعز بن باديس نظرا لإصراره على ممارسة مهامه التى تتعارض مع دور السلطان فى الحكم وحين يضعف مركز الوزير يكون الوزير وزير تنفيذ فقط وكان السلطان يفوض وزيره فى تدبير شئون الحكم فتعلو بذلك منزلة الوزير مثلما فعل المعز بن باديس عام ٤١٣ هـ حين عهد بالنظر فى جميع شئون افريقية إلى وزيره القاسم ابن محمد بن أبى العرب . وعندما تضطرب الدولة يجمع السلطان كل مقاليد السلطة والحكم فى يديه وتكون مهمة الوزير استشارية كما هو الحال فى عهد تميم بن المعز الذى جمع السلطة فى يديه حتى يحفظ الدولة من الأخطار التى تتهددها من جراء وجود العرب واستقلال المدن عن الدولة وقد كفلت له هذه السياسة كبح جماح بنى هلال واستمالة القبائل القوية منهم وعودة جميع المدن الخارجة عن طاعة الدولة إلى نفوذ المهدية .



ولعل جمع السلطان لجميع السلطات راجع إلى طمع بعض الوزراء وتطلعهم إلى السلطة كما حدث فى عهد المعز بن باديس إذ نجد أن وزيره محمد بن الحسن استقل بالأمور وجبى الأموال وأرسل الهدايا للخلفاء بالقاهرة ووصل إليه سجل من الخلافة الفاطمية وحاول المعز أن يعزله ويعفيه من الوزارة فرفض فقتل عام ٤١٣ هـ وكان بنى زيرى يثقون فى وزرائهم ثقة كبيرة ويطلقون أيديهم فى الشئون المالية والإدارية واحتل الوزير فى نظم الحكم مكانا ممتازا ومحلا رفيعا .

وقد كان نظام الحكم الزيرى يجعل للفقهاء والقضاه فى الدولة عملا رفيعا . فقد كان فقهاء المالكية ( الحسن بن الرجال ) هم الذين مهدوا الطريق للمعز بن باديس عام ٤٠٦ هـ بالاستقلال عن الخلافة الفاطمية بالقاهرة وثورة العامة على الشيعة وقتلهم وطردهم من البلاد ، فقد كان لدورهم فى الصمود أن حببوا الشعب فيهم ، فلما كان تأييد الفقهاء والقضاه للنظام الجديد الذى سار عليه بن باديس ، كان الفقهاء هم المدافعين عن حقوق الناس .

وكان النظام القضائى فى الدولة الزيرية هو للفصل بين الناس فى الخصومات وحسم النزاع بين الأفراد وعرف عصر بنى زيرى منصب القضاه بالعدل والنزاهة وسرعة اصدار الأحكام وتحرى الدقة فى فصل المنازعات وكان القضاء فى الدولة الزيرية يسير وفق النظام الشيعى الاسماعيلى ، لكن عندما حل المعز بن باديس عام ٤٠٦ هـ حمل جميع أهل افريقية على التمسك بالمذهب المالكى ونبذ ما عداه من المذاهب وبهذا الاجراء الذى اتخذه المعز بن باديس تركزت سلطة القضاء فى يد المالكية وأصبحت جميع الأحكام التى تصدر فى كل البلاد خاصعة للمذهب المالكى ووفق فقه الإمام مالك بن أنس وكانت سلطة القاضى واسعة النطاق وكان قاضى القيروان بمثابة شيخ الإسلام لعموم البلاد والأقطار المغربية ومقره القيروان ثم المهدية وكانت دار القضاه قبل الغزوة الهلالية ملاصقة لجامع عقبة بن نافع الفهرى ، وكانت عدالة القاضى ونزاهته

شرطا أساسيا لبقائه فى هذا المنصب حيث كان للرأى العام فى البلاد دور فى عزل القضاه وتولية بدلا منهم عندما يحيد القاضى عن جادة الطريق ولا يلتزم بحكم الشرع والدين وفق المذهب المالكى .

وقد جعل المعز بن باديس من القضاه أصحاب الرأى فى البلاد وقادة الشعب وحكامه القائمين على تطبيق الشريعة الإسلامية التى أصبحت دستورهم الأول لاسيما بعد تعديل الحكم من المذهب الشيعى الاسماعيلى إلى المذهب المالكى فقد كان القضاه هم حفظة الشريعة لانه لن يصدر حكم إلا إذا أقروه فيه بأنه لايخالف الشريعة الإسلامية ولايناقض أحكامها وأنه صادر وفق المذهب المالكى .

وقد رتب السلاطين للقضاه والفقهاء والعلماء الاعطيات من بيت المال وأجروا عليهم الأرزاق ، وأصبح القضاه الذين اشتهروا بالعدل والنزاهة وحسن السمعة والسيرة هم الملاذ الذى يلجأ إليه الناس كلما تعرضوا لخطر أو وقع عليهم ظلم أو أصابهم مكروه ، وقد روى النويرى أن المعز بن باديس رد أحكام البلاد إلى قضاة المذهب المالكى وأسقط الأحكام التى كانت على المذهب الشيعى الاسماعيلى واعتبر ذلك غير شرعى وأسقط ما دون ذلك من الأحكام ، وهكذا أصبح القضاه فى عهد دولة بنى زيرى مشهودا له بالعدل والنزاهة والسمعة الطيبة للذين تولوا القضاء فى البلاد .

وكان قاضى الجماعة أو قاضى القضاه فى بلاد الشرق يقيم بالعاصمة القيروان ثم المهدية فيما بعد وأن الدولة الزيرية قد شهرت مراتب للقضاه أو درجات فهناك قاضى الأقاليم ثم قاضى المدينة ثم القرية الصغيرة ولقد كان لكل أقاليم الدولة الكبرى قاضيا يبسط سلطانه على قضاة المدن الواقعة فى اقليمه .

ولقد كان قاضى الجماعة فى القيروان ثم المهدية بمثابة وزير العدل فى النظم القضائية المعاصرة وكانت سلطات القاضى متعددة ومتنوعة .

وكانت هناك وظائف كثيرة تخضع للقاضى ويشرف عليها والتى منها وظيفة



صاحب المظالم وكان القاضى يولى عليها فقيها وكانت من الرتب التابعة للقضاء وكان صاحب المظالم يجلس للناس وينظر فى مظالمهم ويحكم فيهم ويفض المنازعات التى طالما كانت تنشب بين العوام والسوقة والتى كان القاضى يفضل أن يتولى أمرها بنفسه وكان ينيب عنه صاحب الأحكام وكان صاحب المظالم له الحق فى النظر فى أحكام الأسواق والفصل فى الأمور الصغيرة وكان صاحب المظالم لاينظر فى رفات الأموال ولا حكم له على الايتام ولا فيما فيه أمرها أمور السلطان والعمال .

وكان القاضى يشرف على الفتيا والافتاء من المناصب العامة التى لها صلة بالقضاء وكانت الفتيا من المهام الكبيرة التى تتطلب فيمن يتولاها أن يكون واسع العلم والمعرفة متفقها ومتعمقا فى أمور الدين وعالما بتفاصيل أمور المذهب المالكى وله دراية واسعة وكاملة بقوانين الأحكام وكان هذا المنصب لايتولاه إلا شخص تتفق الآراء عليه من بعد فى قياس الأمور وله دراية بالتدقيق والتحقيق ويكون أجرأ الناس على اصدار الفتيا فى القضايا التى تهم الحكم والسلطان والرعية ولذلك كان بعض الفقهاء حين يتولى منصب القضاء بطلب شخصا معينا للفتيا كما حدث من القاضى ( أبو الفضل شعلان ) قاضى المهدية فى عهد السلطان تميم بن المعز بن باديس إذ عين شخصا معينا للفتيا فى الدولة الزيرية وقد كانت منزلة متولى الفتيا منزلة عالية .

وكان القاضى يولى أحد معاونيه أحكام الصرف أو الحسبة وهى وظيفة تخول لصاحبها حق مقاومة الفكر وكان المحتسب يستعين بطائفة من الشرطة يطلق عليهم الاعوان ، وكانت وظيفة المحتسب لايتولاها إلا رجل من وجهاء المسلمين وكان يعين نوابا عنه فى سائر البلاد لينفذوا أوامره وكانوا يعرفون بالأمناء ثم كانت وظيفة العدول وهى وظيفة تابعة للقضاء وكان للعدول فى القيروان والمهدية دكاكين ومصاطب معلومة يقصدها المتنازعون لإقامة حججهم وتقديم الوثائق والبيانات .

تلك هى بعض الوظائف التى كانت تتبع القاضى والتى كان يتولاها رجال

تابعون له يؤدون وظائفهم على أحسن وجه أما المهام الكبيرة التى يتطلب الفصل فيها جرأة وشجاعة وعدلا لا يعرف فى الله لومه لائم فكانت تترك للقاضى نفسه لينفذ أحكام الشرع الإسلامى على جميع الناس سواء أكانوا حكاما أو عمالا أو قوادا أو من كبار الأسرة الحاكمة من بنى زيرى أو بنى باديس أصحاب السلطة الفعلية فى البلاد وكان هؤلاء لايعترضون على قاضى القضاه فى القضاء بقضية .

وكان القضاه يتخذون كتابا لهم يتولون كتابة الأحكام ونسخها وقد يكون هؤلاء الكتاب أصحاب خبرة ودراية بأحكام الشرع والدين وحسن الخط وبعض المؤهلات التى تؤهلهم لتولى هذا المنصب وقد كان لقاضى القضاه أكثر من كاتب يقوم بكتابة المهام القضائية الصادر بها أحكام .

وكان القاضى يتدخل فى كل صغيرة وكبيرة ، حتى فى شئون أرباب الحرف و،الصناعات فكان القاضى يولى على كل حرفة رجلا من أهلها يفصل فيما يشب بينهم من خلافات أو منازعات وهو غالبا يكون من الفقهاء لكنه صاحب أو عالم بأسرار هذه الحرفة أو المهنة وكان إذا وقع خلاف فلا يبلغ به حاكم الأقليم أو المدينة بل يظل الأمر بيد القاضى ليفصل فيه فيجب الرجوع إليه والأخذ بحكمه ورأيه .

وكان قاضى القضاه يتولى سلطانه بناء على عقد تولية من السلطان الزيرى الذى كان يعقد له كتاب تولية ويبعث به إليه فيصبح بذلك نصا على القاضى يتبع ما جاء فى كتاب التولية ويعمل بموجبه ومن ذلك ظل القضاء فى دولة بنى زيرى عادلا منصفا للحق رادعا للظالم آخذا بحق المظلوم ولكن القاضى لم يكن عليه سلطان غير شرع الله وحكم قرآنه الكريم وسنة الرسول الكريم يحكم وفق ما جاء بالكتاب والسنة ومن هنا استقامت الأمور وعم البلاد العدل واختفى الظلم والجور وساد البلاد الأمن والأمان فى ظل حكم الشرع والدين ومذهب الإمام مالك بن أنس .



وإلى جانب القضاه كانت وظيفة الكتابة أو كبير الكتاب وكان الكاتب على عهد بنى زيرى من أكبر أعوان السلطان وكانت رتبة الكاتب تلى رتبة الوزارة بل كادت تساويها فى بعض الأحيان ونظرا لأهمية هذه الوظيفة كانت لاتسند إلا لمن عهد فيه الكفاية والقدرة والكياسة والفطانة فى معالجة الأمور وكان الكاتب يختار من أشهر الناس سعة فى الإطلاع والأدب والقدرة فى فن الإنشاء ومن ذوى المعرفة بالعلم والآداب السلطانية وقد كثر عدد الكتاب وتنوعت مهنتهم فمنهم من كان كاتب رسائل أو كاتب خراج إلى كاتب جند إلى غير ذلك وقد امتلأت بهم الدواوين حتى أن ديوان الرسائل كان به أكثر من مائة كاتب وكان ديوان الرسائل فى عهد المعز بن باديس يرأسه الشيخ أبو الحسن بن أبى الرجال الشبيانى مربى المعز بن باديس وكاتم سره والذى كان على درجة عالية من العلم والمعرفة بالآداب وصناعة الشعر وهو الذى لقن المعز وحببه مذهب أهل السنة والجماعة ودله على المذهب المالكى وكان ورعا زاهدا .

وكان لسلاطين بنى زيرى علامات مميزة فى الكتابة تعطى الأوراق الصفة الرسمية ويلاحظ أن وظيفة الكتابة والحسبة والقضاء وجباية الأموال والبريد لم تكن وقفا على قبيلة صنهاجة بل كانت لغيرهم .

واشتهر العديد من الكتاب فى صنعة الكتابة والانشاء خصوصا لان الدولة كانت تقيم العديد من العلاقات الدبلوماسية مع جيرانها من أمراء المغرب ومع الخلفاء وأمراء الشرق ( نلاحظ ذلك فى باب العلاقات الخارجية ) ومع الدول الأوربية وعقد المعاهدات ، فكان سلاطين بنى زيرى فى حاجة إلى طائفة تجيد فن القول ويعرفون لغات النصارى ويستطيعون أن يتفاهموا معهم وأن يقوموا بالترجمة عنهم ( معاهدات ومراسلات بين بنى زيرى وملوك صقلية وايطاليا وجنوب أوربا ) وهكذا رسمت وظيفة الكتابة وديوان الانشاء فى دولة بنى زيرى .

كما عرف عهد بنى زيرى نظام الحجابة ومن ذلك كما ذكر أن يحيى بن تميم قد قتله أخواه هو وحاجبه فى المؤامرة التى دبرت لقتلهما . وقد تولى هذا المنصب الحاجب عبد الوهاب بن حسن بن جعفر حاجب الدولة فى عهد المنصور بن بلكين وكذلك فى عهد المعز بن باديس خلفه ابن بعلى وكانت وظيفة الحاجب تشبه إلى حد كبير وظيفة كبير الأمناء فى عصرنا الحديث وكانت مهمته تقوم على أساس ادخال الناس والوفود ورسل الملوك ورجال البعثات إلى السلطان مع مراعاة مناصبهم وأهمية أعمالهم وأدوارهم فى تلك المقابلات .

هذا هو النظام القيادى الذى كان معمولا به فى دولة بنى زيرى السلطان ثم ولى العهد والوزير وقاضى القضاه والقضاه ثم الوظائف التابعة كصاحب المظالم وصاحب الفتيا والحسبة والعدل والكاتب والحاجب وما يلى ذلك من وظائف أخرى .

ثم بعد ذلك يأتى النظام الإدارى الذى كانت تسير عليه الدولة وهو تقسيم البلاد إلى ولايات عدة القيروان والمهدية وتونس وصفاقس وسوسة ، وقفصة ، وقابس ، وطرابلس وكانت الولايات تقسم إلى مدن وأقسام رئيسية وكانت رياسة المدن والقرى تخضع للوالى وقد كان هذا النظام قائما حتى وقت خضوع صنهاجة الزيريين للفاطميين وكان الخليفة الفاطمى فى القاهرة ، يعين الوالى نفسه ويعين إلى جانبه عامل الخراج والقاضى وصاحب الشرطة . ولكن بعد أن استقل المعز بن باديس بامر افريقية أصبح السلطان المعز بن باديس هو الذى يقوم بتعيين الجهاز الإدارى للدولة وهو الذى يساعده فى إدارة شئون الحكم وسار خلفاؤه من بنى زيرى على هذا النهج والطريقة فى الحكم من بعده وكانت القيروان ثم المهدية مقر الحكومة المركزية وذلك منذ عام ٤٤٩ هـ عندما ترك المعز بن باديس القيروان بعد صراعه مع عرب بنى هلال .



وكان يتم تعيين الولاة بالمدن الافريقية والمغربية من قبل خلفاء المعز لاسيما بعد أن قام تميم بإعادة المدن الخارجة عن طاعة الدولة وكان يعين عليها ولاة من قبله ، لكن بعد الغزوة الهلالية فان الأمور لم تكن تسير وفق رغبات السلطان ولم تنعم بعض المدن بالهدوء والاستقرار نظرا لكثرة الحروب والثورات التى واجهت بنى زيرى بعد استقلالهم عن الفاطميين بالقاهرة وما كان له أثر من جراء دخول العرب لافريقية وقد شجع ذلك على قيام الثورات واستقلال المدن فاستقلت العديد من المدن ، صفاقس ، تونس ، فاس ، قفصة وبنو حماد .

وكانت المدن الافريقية مسرحا كبيرا للصراع بين العرب والسلاطين الذين نجحوا فى اعادتها إلى حظيرة الدولة .

## الحالة الاقتصادية فى البلاد

كان مجتمع المغرب الأدنى ( افريقية ) أواخر القرن الرابع والخامس الهجرى / العاشر والحادى عشر الميلادى مجتمعا زراعيا وإن كانت البداوة هى السائدة فى أرجائه ولقد كانت الزراعة جزءا من العملية الاقتصادية تتفاعل مع الصناعة لتقوم الحركة التجارية وهى العناصر الثلاث التى تشكل عصب الحياة الاقتصادية والتى بدورها تدفع إلى التطور الحضارى والثقافى فالمتغيرات الثقافية والحضارى لا تتم إلا بناء على تطور اقتصادى يعتمد على الزراعة والتجارة . فالتقدم الحضارى لا يتم إلا بناء على تطور وتقدم اقتصادى يدفع بالعملية الحضارية إلى الإزدهار والرقى ، كما أن التركيب البشرى للسكان فى المغرب هو المحرك الأول للتطور الاقتصادى والحضارية ، كما أنه من الواجب القول أن الظروف السياسية التى سادت عصر أسرة بنى زيرى لعبت دورا فى الحالة الاقتصادية والحضارية .

ولقد ورث بنو زيرى نظام الإدارة فى الزراعة والصناعة والتجارة من الفاطميين قبل رحيلهم إلى مصر وعملت حكومة بنى زيرى على الاهتمام بالأراضى الزراعية والزراعة وزيادة الإنتاج ومضاعفة دخل الزراعة والعمل على شيوع الاستقرار والطمأنينة بين الناس وقد عملت الدولة على تثبيت دعائم الاستقرار فى المغرب الأدنى ، لكن قدوم القبائل العربية من بنى هلال وبنى سليم لاسيما منذ أعوام ٤٤٢هـ حتى عام ٤٦٠ هـ هى الفترة التى سادها الاضطراب أما بعد ذلك التاريخ فقد نجح تميم بن المعز فى ادماج العرب مع سكان البلاد الاصليين وصاروا عونا للحكام من تميم بن المعز حتى سقوط الدولة فى عهد الحسن بن على . وقد دونهم السلاطين فى الجيش وأجزلوا لهم العطايا والهبات مما كان عاملا فى النمو الاقتصادى وكف عدوانه على القوافل التجارية .

ولقد كان انهيار الزراعة فى دولة بنى زيرى الصنهاجة وما ترتب على نزوح الناس



إلى المدن الساحلية أو المدن الداخلية الحصينة لم يترك أمام صنهاجة الزيرية غير الاعتماد على التجارة كمصدر أساسى للدخل وللاقتصاد القومى وأضعف بنى زيرى على الرغم من الجهود التى بذلها تميم بن المعز وابنه يحيى ومن جاء بعدهما فى تأمين الطرق البرية ومن ثم فكروا فى البحر وما وراءه وحاولوا تأمين الطرق البحرية فى سواحل دولتهم واحتكار النقل البحرى والاستفادة من خبرة أهل مصر وبلاد المشرق فى ذلك لكن ضعف بلاد بنى زيرى اقتصاديا اضطرهم إلى العمل فى التجارة الخارجية ولما كانت علاقتهم بفاطمى مصر وحمادى بجاية متوترة ، لم يجد بنى زيرى حليفا لهم سوى النورمان فى صقلية وقد كان للنورمان مصالح فى التجارة مع بلاد الشرق فلم يشركوا فى غزوات المدن الايطالية لها ، بل انهم نقشوا آيات قرآنية فى سكتهم (عملتهم ) حتى تجد قبولا فى أسواق العالم الإسلامى غير أن محاولة بنى زيرى احتكار النقل البحرى أو اخفاقهم فى حماية سفن النورمان كثيرا ما كانت تؤدى إلى توتر العلاقات بين الفريقين .

وقد بلغت نقمة النورمان ذروتها يوم حاول بنو زيرى التحالف مع المرابطين لضرب صقلية ( مصدر أوربى ) فشرع النورمان فى احتلال موانئ بلاد بنى زيرى فى منتصف القرن السادس الهجرى حتى كانت الموانئ من طرابلس إلى بونة تحت الاحتلال النورمانى فتقلصت تجارتها وقضى على المهدية كمركز أساسى للتجارة البحرية .

هذا عن النشاط التجارى الذى كان يعتمد على الزراعة والتى ازدادت عناية الدولة بها لتنشيط الفلاحة وحفر القنوات والترع للرى وتنوعت المحاصيل الزراعية وانتشرت زراعة الحبوب والزيتون والحنطة والفواكه واشتهر جنوب البلاد بالنخيل التى تنتج التمور وكانت هذه المحاصيل المختلفة ترد إلى العاصمة المهدية من الولايات المختلفة ثم تقوم العاصمة بتصدير ما لاتحتاج إليه وقد وضع بنو زيرى الخراج على الأراضى

الزراعية بحسب انتاجها وهو نظام معمول به فى كل البلاد الإسلامية والخراج هو خراج الأرض والرؤوس وكان هذا النظام معمولا به تحت الحكم الفاطمى ولم يكن يستدعى تغييره إلا بما يتلاءم مع المذهب المالكى .

وكانت الصناعة بجانب الزراعة تساهم بدورها فى موارد الدولة وتنوعت الحرف والصناعات فى الدولة الزيرية ونشطت صناعة البسط والمنسوجات الصوفية والحريرية والكتانية وأشهر منها الملابس المطرزة واشتهرت بعض المدن بصناعة الزجاج والبلور ومنها القيروان وكذلك صناعة الخزف وصناعة الجلود ودباغتها وغيرها من الصناعات الأخرى ومع هذا يمكن القول بأنه لم تكن لبنى زيرى سياسة مشجعة على الصناعة والتصنيع وذلك لضعف الإنتاج الزراعى وتوقف التعدين وقلة الصناعات المعدنية والأيدى العاملة الماهرة التى هاجرت من البلاد بسبب الغزو الهلال للمناطق الداخلية والهجوم النورمانى على جهات الساحل التى كانت الدولة تصدر الفائض منها إلى الدول التى تبادلها النشاط التجارى .

لكن مع سابق القول بأن بنى زيرى اهتموا بالتجارة البحرية إلا أن ذلك لايعدم القول بأنه كانت هناك تجارة برية لانه بفضل الموارد الزراعية والصناعية الزائدة عن حاجة السوق المحلية والزائدة عن استهلاك السكان فقد نشطت التجارة ونشطت عمليات التصدير والاستيراد وكانت تجارة بنى زيرى مع الشرق عن طريق مصر عن ثغر الاسكندرية قبل عهد المعز بن باديس ثم بعد عهد ابنه تميم فقد أعاد ابنه يحيى العلاقات مع الفاطميين وكذلك كانت علاقتهم مع المغرب وأوربا عن طريق الاندلس وصقلية وكذلك مع بلاد السودان وقدمت تجارة السودان إلى المهدية تمهيدا لنقلها إلى أوربا عن طريق صقلية إذ أصبح بمقدور سفن صقلية وايطاليا المجئ إلى الموانئ الزيرية وأن تحمل من تجارة المغرب الشرقى والسودان ما تحتاج إليه وأصبحت بلاد السودان تجد فى المهدية والموانى المغربية سوقا تجارية عظيمة تمد الأسواق فى بلاد الساحل



الافريقى بكثير من السلع الهامة مثل الذهب والعاج الذى كان يتهافت عليه الأوربيون والرقيق الذى كان يستخدمه بنو زيرى كجنود ، وتجار بنى زيرى مع مصر وبلاد سوريا والعراق بعد تحسين العلاقات مع الفاطميين فى عهد يحيى بن تميم ونشطت التجارة وزاد النشاط التجارى البحرى مع بلاد المدن الايطالية .

ونشطت المهدية لكى تكون لها حق السبق فى التجارة البحرية على سائر أسواق المغرب فى ميدان التجارة الدولية فقصدتها سفن التجارة من الاسكندرية وبلاد الشام . حيث ازدهرت فيها كثير من الصناعات والحرف .

ومن ذلك نجد أن السلطان على بن يحيى بن تميم أبدى عناية فائقة بالسفن التجارية ومنع غيره من حكام المدن الزيرية من الانفراد ببناء أسطول بحرى وقاتلهم من أجل ذلك لكى لاينافسون فى الحركة التجارية .

ومن هنا فان هذه الموارد الثلاث ( الزراعة – الصناعة – التجارة ) كانت من أهم المصادر الرئيسية وقد احتكرت التجارة التى تجلب مصادر النقد لبنى زيرى بما يضاف إليها من الزكاة والصدقة وأعشار السفن التجارية التى كانت تمر بموانى افريقية يضاف إلى ذلك ما كان يرد إلى بيت المال من أموال كبار رجال الدولة وموظفيها بعد مصادرتها بناء على حكم قضائى أو بأوامر من السلطان .

وقد قدر حسن عبد الوهاب فى كتابه البساط أن دخل الدولة فى عهد المعز بن باديس كان حوال ثلاثة ألف ألف دينار أى نحو خمسة وأربعون مليون فرنك ، فى حين أن بعض المصادر قدرت سكة الدولة فى عهد المعز بنحو ٤٠٠ ألف دينار وبنمو الثروة والاهتمام بالفلاحة حسنت الزراعة وازدادت الفراسة وأحيى موات الأرض وارتفعت الصناعات الأهلية فى عموم المدن فزهت صناعة الزرابى والمنسوجات الصوفية والحريرية والقطنية وشملت الرفاهية نواحى البلاد واستتب الأمن والاستقرار بعد احتواء الغزوة الهلالية ونشطت حركة الفكر والعلم والثقافة .

وكانت ( السكة ) عملة البلاد الرسمية الدينار الفاطمى والذى قام المعز بن باديس بتغييره عام ٤٤١ هـ ونقش على إحدى وجهتيه ( ومن يتبع غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ) وفى الوجه الآخر لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وكان دار الضرب فى القيروان ثم المهدية تسك العملة وقد أطلق على الدينار اسم الدينار المغربى وكان العمال الذين يعملون فى دار سك العملة يسمون السكاكين .

وكانت موارد الدولة قبل المعز بن باديس يرسل منها للقاهرة النسبة العظمى ، لكن المعز أبطل ذلك ومن هنا كانت الموارد ينفق منها الرواتب التى تعطى لرجال كبار الدولة كالوزراء والقضاه والكاتب والحاجب والولاه وكبار رجال الشرطة والبريد والحسبة والأسطول والجيش وقد كانت الرواتب كبيرة قبل الغزو الهلالى عام ٤٤٣ هـ لكن بعد ذلك زادت نفقات الجيش والأسطول وقد استدعى الانفاق العسكرى فى شراء الأسلحة وبناء السفن والتدريب والمهمات وشراء الجند من السودان الذى زاد عددهم على أكثر من ثلاثين ألف من العبيد وكان السلاطين يغدقون الأموال على رجال الدفاع والفرسان وأدخل تميم بن المعز العرب فى الجند ومنحهم من الديوان السلطانى الهبات والاعطيات . وكان الانفاق الحربى فى دولة بنى زيرى له الأولوية فى مصاريف الدولة .

وتلك هى لمحة مختصرة وموجزة عن الحالة الاقتصادية فى عهد بنى زيرى منذ تسلمهم مقاليد الحكم فى عام ٣٦٢ هـ / ٩٧٣ م حتى سقوط الدولة فى عهد الحسن بن على فى عام ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م وهى صورة مبسطة وعلى من يرغب فى التوسع الرجوع إلى فاتحة المصادر ليجد بها كل عون فى هذا المجال .



## المظاهر الحضارية والثقافية

عاش المغرب الادنى فى ظل حكم أسرة آل زيرى عيشة رغدة وشهد انتعاشا كبيرا فى المظاهر الحضارية واليومية وأخذت مدنهم وأسواقهم تستقبل آلاف الجمال والسفن المحملة بالبضائع والمنتجات الزراعية والصناعية من المشرق والمغرب حاملة أنواع التجارة كما كانت تخرج منها آلاف السفن والجمال لتحمل محاصيل البلاد إلى حيث تجد التجارة فى انتظارها .

ولقد عاش سلاطين بنى زيرى فى أبهة عظيمة من الجاه والسلطان والترف والنعيم، مما كان سببا فى نهضة فنية هائلة فى هذا الجزء من افريقيا فى حياة القصور التى أقاموها أو الاحتفالات التى اهتموا بها أو الشعراء الذين شجعوهم حتى لقد قيل أن المعز بن باديس صرف فى جهاز ابنته أكثر من عشرة ملايين دينار وحين ماتت أمه أرسل فى طلب خشب لقبرها من الهند وجعل له قفلا من الذهب .

وقد ساعد على ذلك الجو من الرفاهية ما بذله الامراء والاغالبة والخلفاء الفاطميون من جهود مشكورة فى تحسين أحوال البلاد وترفيه بيت العلوم والمعارف ونشر اللغة العربية بين جميع الطبقات محاكاة لما كان يقوم به خلفاء بنى العباس فى بغداد ولما جاء سلاطين بنى زيرى كانت آثار تلك النهضة قد بدأت تتضح وأن تؤتى ثمارها المرجوة، وآن الاوان لاكتمالها ولقد بلغت افريقية فى عهدهم شأوا مرموقا فى الحضارة والتمدين. واشتغل كثير من العلماء والادباء بالتدوين والتعليم والتأليف وازدهرت أسواق الادب وظهرت حركة فكرية لم تعرفها افريقية من قبل .

ولقد كان من أسباب التقدم والازدهار الحضارى فى البلاد هو ذلك التشجيع الذى أولاه السلاطين والامراء فقد خلص القطر التونسى ولاسيما أيام باديس وابنه المعز

وتميم بأوفر نصيب من التمدن الاسلامى .

بل اننا نجد كثيرا من السلاطين كان لهم باع طويل فى الادب والشعر وعلوم الدين والفقه ومن ذلك المعز بن باديس فقد تهل من مختلف فروع العلم والمعرفة وتفقه فى المذهب المالكى على يد معلمه ومؤدبه على بن الحسن بن الرجال وكذلك فان الحسن بن على آخر خلفاء بنى زيرى فى المهدية كان أديبا فصيحا عالى الهمة يحسن الادب والشعر ومن هنا سمت العلوم والفنون فى عهدهم .

ولقد شهد عصر بنى زيرى ظهور القيروان وجامع الزيتونة والجامع الاعظم بها كجامعة لها شأن كبير فى الحياة الثقافية والفكرية فى بلاد المغرب هذه الجامعة الفريدة فى بلاد المغرب شد الرحال اليها المغاربة والمشارقة ونهلوا من علومها ما طاب لهم طوال حكم باديس وحتى عام ٤٤٩هـ تاريخ رحيل المعز إلى المهدية فقد ظلت تغذى الحياة الثقافية فى العالم الاسلامى طيلة أربعة قرون، لكن الغزوة الهلالية كان لها أثرها على الحياة العلمية والثقافية فى البلاد فقد رحل منها العلماء بعد أن تركها المعز بن باديس واقفرت الحياة العلمية والفكرية والثقافية بها حيث أنهم لم يكونوا قادرين على أداء رسالتهم فى ظل الظروف التى تعيش فيها البلاد وجو الصراع بين السلطة الشرعية والقبائل العربية .

وقد سبق القول بأنه كيف استطاع عرب بنى هلال أن ينالوا من دولة بنى زيرى ويهزموا صنهاجة بقيادة المعز بن باديس وأن يدكوا صرح القيروان (أقوال ابن خلدون) وأن يغيروا على المدن االزاهرة وكان استقرار العرب فى افريقية سببا فى تفرقة علماء افريقية إلى شتى أنحاء البلاد إلى المهدية وفاس وسبتة وتلمسان فكانت نكسة القيروان قد ساعدت على ازدهار الحضارة فى مختلف أنحاء المغرب الاوسط والاقصى ولقد استغل بنو زيرى موارد البلاد خير استغلال فعظمت ثروة البلاد وأقبل هؤلاء الامراء



على الترف والرفاهية وكونوا لانفسهم بلاطا يشبه البلاط الفاطمى فى القاهرة والعباسى فى بغداد فى حياته واتجاهاته ويذكر المؤرخون كيف أن مساجد القيروان قد شهدت حلقات للتدريس فى جامع الزيتونه والجامع الاعظم وجامع المهدية وأنشأوا المدارس الجامعة واستقدموا لها الاساتذة والعلماء من الشرق والاندلس .

وقد أنشئت المدارس الجامعة المتخصصة ومن ذلك قيام السلطان يحيى بن تميم (٥٠١- ٥٠٩هـ) بانشاء معهد لعلم الكيمياء الذى كان مغرما به أشد الغرام واستقدم له الاساتذة وشجع الطلاب على دراسه علم الكيمياء وكثرت المدارس فى العهد الزيرى وفى ظل الفوضى التى سببتها الغزوة الهلالية كانت المدارس تؤدى دورها فى الدرس والبحث لرفع شأن اللغة العربية ونشر لسان الاسلام وثقافته بين أبناء سلطنة بنى زيرى وكيف عمل السلطان تميم بن المعز ومن جاء بعده من سلاطين بنى زيرى على ايجاد نوع من التعاون بين السكان لاسيما مع العرب الذين شجعهم على الولاء له وأجزل لهم العطايا وكان جند العرب سندا لهم وكيف أن التعاون بين طوائف المجتمع قد أثمر انتصارا كبيرا للثقافة العربية الاسلامية وتشجيع الابناء والصبيان على حفظ القرآن الكريم ودراسة علوم اللغة العربية وتعلم النطق الصحيح للعربية فى البادية لدى قبائل بنى هلال .

وكيف أن المساجد مارست دورها فى الفقه والتشريع وكيف نمت علوم اللغة العربية كالنحو والبلاغة والادب والشعر وكيف أن المعز بن باديس منذ عام ٤٠٦هـ واتجاه الدولة للمذهب المالكى وانتشاره فى البلاد والقضاء على كل أثر للمذهب الاسماعيلى الشيعى وكيف كان عصر المعز انتصارا نهائيا لهذا المذهب وسرعة انتشاره فى بلاد المغرب وكيف أن العرب وهم من سكان الحجاز مصدر المذهب المالكى (المدينه المنورة مالك بن أنس) قد تناسوا ولاءهم للفاطميين واندمجوا فى الحياة الجديدة

وساهموا بنشر اللسان العربى وعلوم العروبة والاسلام .

وكيف نجحت هذه القبائل فى نشر اللغة العربية والعلوم الاسلامية فى جميع أنحاء المغرب لاتفاق أساليب حياتهم مع الحياة البربرية فى السهول والجبال .

وهكذا اكتمل انتصار المالكية فى افريقية حين أعلن المعز بن باديس عام ٤٤٣هـ رسميا انفصال المغرب عن الخلافة الفاطمية وتغلب مذهب مالك نهائيا وطبع الثقافة العربية فى المغرب بطابعه الذى لازال سائدا حتى اليوم حدث هذا فى القرن الخامس والسادس الهجريين وتوطنت الثقافة العربية نهائيا بتفشى اللغة العربية وتغلغل ثقافة الاسلام وعلومه المختلفة والمتفرعة منها فى نفوس الناس وظهور جيل من مثقفى البربر أنفسهم والعديد من الفقهاء والقضاه والعلماء ورجال التعليم والادارة والذين طبعوا الحياة بطابع الثقافة العربية الاسلامية وساعدهم على ذلك قطع كل صلة بالفاطميين وقيام الاسرات البربرية بنو زيرى فى تونس وبنو حماد فى الجزائر .

وكان العصر الزيرى فى واقع الامر هو بداية الثقافة العربية الاسلامية المغربية ذات الطابع المميز عن الطابع الشرقى فى كل ناحية من نواحى الحياة الثقافية والفكرية ففى الخط ظهر الخط المغربى والذى له طبع ورسم وشكل خاص وفى الفن الاسلامى ظهر طابع خاص. وفى ذلك يقول (جورج مارسى) لقد تنوعت الآثار الاسلامية فى عصر بنى باديس والتى منها آثار دينية مثل المساجد وآثار مدنية مثل القصور وآثار حربية مثل الحصون ومرافق عامة مثل خزانات المياه التى انتشرت فى تونس فى عهدهم والتى شق منها المعز بن باديس قناة فى الجبل لتصل المياه إلى القيروان .

وفى الثقافة الدينية والفكرية المالكية والتقاليد الدينية التى تتلائم مع طبيعة المجتمع المغربى. ويكاد النشاط الادبى فى ذلك العهد يكون قاصرا على العديد من العلماء والفقهاء والقضاه والشعراء التى تمتلئ بهم كتب الطبقات والذين ساهموا بدور



كبير فى مختلف نواحى الحياة العلمية والادبية والثقافية والحضارية والمعمارية وكان لهم باعهم الطويل فى كل مجال. حتى لقد كان لهؤلاء العلماء تفوق فى مجال التأليف فى مختلف العلوم وذاع صيتهم فى بلاد المغرب والمشرق والاندلس مثل ابن الصلت وابن رقيق العبد وابن الزنخ والحسن بن الرجال والقيروانى والكثيرين الذين يحتاج الامر للحديث عنهم إلى دراسة مستقلة. لكن ما يمكن قوله أن عصر بنى زيرى رغم صدمة الغزوة الهلالية فان حركة الثقافة والعلوم والفكر والادب والتعليم والبحث قد تأثرت لبعض الوقت الا انتاج العلماء والادباء والفقهاء والشراء فقد كان كثيرا لدرجة انه عندما مات المعز بن باديس رثاه أكثر من ثلاثمائة شاعر من بينهم ابن رشيق الحنبلى وغيره من الشعراء وهذا خير دليل على تقدم العلم والعلوم والفن والعمارة والحضارة الاسلامية بمختلف فروعها .

## الاسطول والجيش والشرطة

سعى الامير بلكين بن زيرى أول حكام بنى زيرى فى افريقية إلى أن يعيد للبحرية التونسية مكانتها التى فقدتها برحيل الاسطول الفاطمى إلى مصر فيما عدا قليل من السفن التى تركها خلفاء بنى الفواطم لمعاونة ابن زيرى فى حماية أملاكه من الخطر الاموى فى الاندلس فلم يمض على توليه السلطه الا عامات فقط أو ثلاثه ٣٦٥هـ حتى أمر ببناء أسطول قوى بالمهدية وأن يزود بالرجال والعدة والسلاح وأصبح للمهدية فى أقل من عام واحد أسطول .

وجاء بعد ابن زيرى ابنه المنصور الذى حرص على الاهتمام بالبحرية نظرا لاهمية الاسطول فى حماية السواحل الافريقية فى أعوام٣٨٦هـ/ ٣٨٧هـ كالمهدية وسوسة وغيرها وعندما وصل إلى المهدية فى هذه المرحلة لعبت المراكب بين يديه ورحى النفاطون بالنفط .

ولقد أرغمت الظروف بنى زيرى فى المهدية على انشاء أسطول قوى وممارسة سياسة بحرية قوية للحفاظ على أملاكهم فى الداخل. وعندما تولى المعز بن باديس انقطعت العلاقات مع الفاطميين وسير القبائل الهلالية وزير الخليفة الفاطمى وانتقل المعز إلى المهدية واتخذها مقرا له واقتصر ملك تميم بن المعز بن باديس على شريط ساحلى ضيق ونتج عن انحسار سلطان بنى زيرى فى افريقية إلى الساحل بسبب ضغط القبائل العربية على المدن الداخلية إلى ازدياد عناية الصنهاجيين بشئون البحر ولقد كان من نتائج غزو العرب لافريقية انحسار ملك بنى زيرى فى الساحل مما دفعهم إلى الاهتمام بالصناعة البحرية فأسس تميم بن المعز أسطولا ضخما بدار الصناعات بالمهدية واتجهت همته إلى المدن الساحلية فأخضع بنى خراسان فى تونس واستولى على فاس وصفاقس. ووجه الصنهاجيون أنظارهم إلى صقلية وجنوب ايطاليا وعاود التونسيون نشاطهم البحرى منذ أن أصبحت المهدية عاصمتهم الجديدة وهكذا أخذ بنو زيرى يتطلعون إلى البحر بعد أن مضى زمن طويل لم يبرحوا فيه أرض افريقية وقد ظل بنو زيرى يشتغلون بالغزو البحرى منذ أيام المعز بن باديس حتى نهاية عهد الدولة الزيرية فى عهد الحسن بن على .

وكان المعز بن باديس قد أمر فى عام ٤١٤هـ بحشد رجال البحر والاسطول والتعجل باصلاح السفن وعمارة دار الصناعة بالمهدية وأخذ فى انشاء العدد البحرية فأسس فى أمد قصير أسطولا ضخما بلغ عدد قطعه فى عام ٤١٦هـ أربعمائه قطعة بذلك يكون المعز بن باديس أول من بنى أسطولا ضخما لحماية شواطئه من أساطيل الروم والفرنجة وقد حظيت البحرية بعنايته وقد كان المعز يهدف من انشاء هذا الاسطول إلى مواجهة منافسيه فى طرابلس الذى أصبح له قوة بحرية يخشى بأسها وكذلك مواجهة الحملة البيزنطية التى سيرها ميشيل الثانى امبراطول الروم عام ٤١٦هـ. إلى



صقلية وفلورية وحاصر هذا الاسطول بالرم عاصمة صقلية، فاستنصر أهلها المعز بن باديس الذى لم يتردد فى نصرتهم بعد أن تخلت عنهم الخلافة الفاطمية فى مصر، وأرسل المعز أسطولا كبيرا إلى صقلية لمعاونة أهلها ضد غزو النورمان وكان هذا الحشد البحرى يتكون من أربعمائة سفينة، وشجع المعز بن باديس رجال البحر على القيام بغارات متعددة على السواحل الايطالية ولكن أسطول ابن باديس تعرض لاتواء عاتية بالقرب من قوصرة فغرفت سفنه ولم يصل إلى صقلية منها الا عدد قليل. وأنقذ موت باسيل الثانى أهل صقلية من الغزو وقام خليفته قسطنطين الثانى بعقد صلح مع الخلافة الفاطمية عام ٤١٨هـ .

ولقد كان غرق الاسطول الزيرى ضربة لآمال المعز بن باديس فى المحافظة على الوجود الاسلامى لجزيرة صقلية وعاقت الغزوة الهلالية المعز عن نجدة سكان صقلية ومع هذا لم ينقطع أمراء بنى زيرى عن نصرة اخوانهم فى العقيدة .

ولما تعرضت صقلية لغارات النورمان حاول تميم بن المعز الذى خلف أباه أن يتدارك الامر فى الجزيرة فأرسل أسطولا بقيادة ولديه أيوب وعلى فى عام ٤٥٧هـ لايقاف الزحف النورمانى على جزيرة صقلية وقد بقيت قواته بالجزيرة أربع سنوات (العلاقات مع صقلية) لكنها كانت السبب فى قيام فتنة فى الجزيرة حيث قام عبيد ابن باديس بالصراع مع أهالى الجزيرة فاضطر أيواب وعلى إلى العودة إلى المهدية عام ٤٦١هـ تاركين صقلية تواجه خطر النورمان وانتهز النورمان هذه الفرصة وأخذوا يعملون على الاستيلاء على جميع بلاد الجزيرة كلها واستطاع النورمان الاستيلاء على بعض منها عام ٤٦٤هـ وعلى البقية عام ٤٨٩هـ وسقطت صقلية تحت حكم النورمان .

وبدخول صقلية تحت حكم النورمان اشتد الصراع بينهم وبين بنى زيرى الذين

حاولوا استرداد صقلية لكن الضعف كان قد بسط نفوذه على دولة بنى زيرى فاختل التوازن وانتقل إلى أيدى النورمان الذين وأصلوا غاراتهم على السواحل المغربية. وقابل بنو زيرى الغارات النورمانية باعداد أسطول كبير والاكثار من بناء السفن لغزو النصارى لاسيما أيام يحيى بن تميم اذ أرسل عام ٥٠٧هـ أسطولا إلى صقلية لكنه لم يستطع تثبيت أقدام المسلمين بل كانت غارة عادت بسئ كثير ويبدو أن هذه الغارة ضد صقلية وبلاد جنوب ايطاليا كانت محدودة الاثر .

وقد دفعت هذه الغارة أوربا إلى ارسال ٣٠٠ ثلاثمائة سفينة لمحاصرة المهدية ولم يرفعوا الحصار الا بعد أن يدفع لهم تميم بن المعز مائه ألف دينار ووعد بعدم التعرض لسفنهم، على أن هذه الحملة لم توقف الاعمال البحرية ضد نصارى أوربا، ولما جاء يحيى بن تميم إلى الحكم زاد من نشاطه البحرى وشجع البحارة والمجاهدين فى سبيل الدعوة الاسلامية لغزو بلاد النصارى وتنوعت قطع الاساطيل فكان منها ما يسمى بالشوانى ومنها ما يسمى الحراريف ومنها الشلندرى والاغربة وكان هناك أمير للبحر أو قائد للاسطول وهو المسئول عن ادارة المعركة البحرية وسلامة الجند، بل أن بنى زيرى لم يكتفوا بالسفن البحرية بل شبوا المحاريس وقاموا الحصون على الثغور وكان يقيم بهذه الحصون رجال ذوو خبرة بشئونها وكان يطلق على هذه الحصون اسم الرباط وقد حظيت البحرية بعناية فائقة فى عهد بنى زيرى .

كما أن اضافة للقول فان عهد يحيى بن تميم قد شهد نشاط حركة الجهاد الاسلامى وساعد على ذلك حسن استعداده البحرى فقد صرف يحيى جل همه فى اعداد الجنود وتجهيز الاساطيل والاكثار منها والواقع أن هذه الغزوات البحرية التى قام بها تميم بن المعز وابنه يحيى لبلاد النصارى قد حققت أهدافها المؤقتة ولكنها كانت كناقوس خطر وجه النصارى إلى أهمية الاسطول وإلى خطورة هجمات أسطول المهدية



على بلادهم مما جعلهم يهتمون بالبحرية اهتماما فائقا فأكثروا من الاساطيل وقاموا بتوجيه ضرباتهم المتلاحفه على معظم بلاد السواحل الافريقية بما فيها المهدية حتى حققوا أهدافهم فى اسقاط الدولة الزيرية .

وهكذا كانت صقلية هى المركز الاول الذى بدأ منه النورمان يتطلعون إلى افريقية وينتهى الامر بتدمير القوات البحرية الزيرية ويتم الاستيلاء على المواقع الساحلية من البلاد التونسية ولم يأت عام ٥٤٣هـ الا وكانت المهدية عاصمة البلاد قد سقطت فى ايديهم .

وكما اهتم بنو زيرى اهتماما زائدا بالاسطول فقد وجهوا اهتمامهم بالجيش باعتبار انها قوى الدفاع عن الوطن وكان للجيش عناية خاصة لان فلسفة الحكم الزيرى ودخولها فى صراع زناتة والقبائل المناوئة ثم العرب استدعت ضرورة اعداد جيش قوى يكون هو السند الاول فى وقت الحرب وحامى الديار من خطر الهجوم الداخلى والخارجى لاسيما وان الاخطار كانت تحيط بالوطن الافريقى الزيرى. وكان هذا الجيش يتكون من القواد وطوائف الجند وكان القواد من أمراء صنهاجة أو الاسرة الزيرية الحاكمة وذوى النفوذ والمكانة فى الدولة ويذكر المؤرخون أن الجيش كان له نظام خاص من حيث الرتب وكان الجند يتكون من المتطوعة والمرتزقة وعبيد السلطان والاسرة الحاكمة وهم طوائف عدة ومنهم الجند البربرى، العرب الذين استمالهم تميم ابن المعز وأجزل لهم فى العطاء وضمهم لجيشه وكانوا عدته وسنده فى استرجاع المدن الثائرة وفى الغزو والجهاد وكذلك السودان الذين استكثر منهم المعز بن باديس حتى انه يذكر أن عددهم قد بلغ لديه نحو ثلاثين ألف مملوك منهم وذلك ليدفع بهم هجمات الاعراب وقد أكثر تميم بن المعز من شراء العبيد وجندهم فى قواته اضافة إلى تجنيد الاعراب من رباح والاشيج وعدى . وقد أبلى العبيد بلاء حسنا فى معركة حيدران

ويذكر ابن الاثير فى كتابه الكامل لقد انهزمت صنهاجة وثبت العبيد مع سيدهم المعز فكثر القتلى فيهم، قتل منهم خلق كثير وثبت المعز فيمن معه من عبيده ثباتا عظيما .

لكن خلفاء المعز بن باديس استفادوا من وجود العرب فى دولتهم فكونوا جيشا من العرب الهلاليه وكانوا يستعينوه بهم فى حروبهم وكان الجيش موزعا إلى فرق كان أهمها فرقة الفرسان التى كان يعتمد عليها فى القتال بالاضافة إلى أصحاب الدروع، وفرق السودان وكانت هذه الفرق بمثابة فرق الفدائيين فى الوقت الحاضر كان أفرادها يسلحون بأسلحة خفيفة وانهم كانوا يدخلون المعركة فى آخر لحظة لانتزاع النصر من الاعداء انتزاعا اذ كانوا ينقضون كالصاعقة على العدو المهزوم فيدخلون الرعب فى قلبه وأشار بعض المؤرخين إلى أن بنى زيرى استخدموا بعض الجند الصقالية والمرتزقة الاوربيين واعتمدوا عليهم اعتمادا كبيرا ويشير دى ماسى لاترى De Mastafrie إلى أن هؤلاء الجند كانوا من المتطوعة المرتزقة طلاب المغامرات أو ربما يكونون من الاسرى، الذين لم يكن أمام سلاطين بنو زيرى بدا من تجنيدهم فى الجيش والاستفادة منهم لتحقيق أغراضهم ويبدو أن القيادة كانت فى رجل منهم، بل أن ظروف الهجوم المتكرر على السواحل دفعت بنى زيرى إلى الاستعانة بجميع طوائف المجتمع لادارة دفة الحرب فالى جانب هذه الطرق النظامية استعان بنى زيرى بطائفة كبيرة من المتطوعين من أهل البلاد الذين كان يدفعهم حب الجهاد فى سبيل الله طلبا للشهادة فى سبيل الله والدفاع عن الوطن وكانت أعداد المتطوعين تعد بالآلاف وان طائفة من عرب بنى هلال قد اشتركت فى حركة الجهاد فى عهد تميم ومن جاء بعده .

ولقد كانت تقاليد بنى زيرى وصنهاجة فى القتال هو أن يثبت القائد والفارس فى موقعه لا يتقهقر وكان فن حصار المدن قد أصبح المعروف فى قتال بنى زيرى، اذ أن الذى يطالع الاحداث فى عهد السلاطين والحروب يلاحظ طوال مدة الحصار للمدن



والقلاع وبناء الاسوار وذلك ما اتبعه تميم بن المعز فى اعادة المدن الخارجة عن طاعة الدولة إلى سابق عهدها فى عهد سلفة المعز بن باديس .

أما الشرطة فكانت هى الدرع الواقى للوطن وحامية الامن والامان وهى التى تشرف على حفظ النظام واستتباب الامن والقبض على الجناة والمفسدين وكان صاحب الشرطة فى عهد دولة بنى زيرى من المناصب الهامة والرفيعة فى الدولة وهى وظيفة تتبع صاحب السيف وكانت الشرطة أيام المعز بن باديس تضم أعدادا كبيرة وأعوانا كثيرين وكانت القيروان عاصمة البلاد ثم المهدية تخضع لحراسة شديدة من جانب رجال الشرطة الذين كانوا يقومون باغلاق أبواب المدينة والسهر على حماية الابواب والابراج والحراسة ليلا وهذا يدل على حسن استعداد الشرطة ووفرة عددها كما يدل على استتباب الامن .

وهكذا نرى كيف أن بنى زيرى طوال فترة حكمهم التى لم تدم الا مائه واحدى وثمانين سنة قد أبدوا اهتماما كبيرا ومتزايدا بالنشاطات البحرية والحربية والشرطة وذلك لامعرفتهم أن الجيش والاسطول والشرطة هما عماد البناء للدولة فالدولة القوية والآمنة تستطيع أن تسير فيها أمور الحياة سيرا طبيعيا دون النظر لادنى مخاطر خارجية أو داخلية، لكن مهما يكن من تلك السمة البارزة لهذا العصر كانت الجلاء الواسع عن الاوطان الاصلية اما نتيجة أخطار خارجية تمثلت فى الغزوة الهلالية وآثارها وغزوات النورمان للمدن الساحلية والعاصمة المهدية والضغط المستمر لقوى النصارى فى جنوب ايطاليا وصقلية ونتيجة لنزاع القبائل العربية مع بعضها البعض أو نزاع صنهاجة مع زناتة.

لكن كل الشواهد التاريخية تذكر أن بنى زيرى قاموا بدورهم خير قيام وكانوا يطمعون فى بناء دولة قوية تسيطر على المغرب بأقسامه المختلفة الادنى والاوسط

والاقصى وهى السياسة التى كان قد نبناها مؤسس الدولة بلكين بن زيرى لكن الظروف كانت أقوى منهم فاقتسم بنو حماد معهم المغرب الاوسط وانفردت مغراوة بالمغرب الاقصى وجاء الهلاليون وبنو سليم ليضيفوا عبئا جديدا على كاهل الدولة التى مهما بذلت واهتمت واعتنت بالاسطول والجيش والشرطة فان الاقدار كانت أقوى من الاعمال التى خططوا لها ولم تكن الظروف لتسهل لهم بناء الدولة القوية التى كانت قصيرة العمر بالنظر إلى الدول التى ظهرت فى تلك البقعة من المغرب العربى قياسا للاغالبة أو الحفصيين .



# الفصل الخامس

## العلاقات الخارجية مع دول العالم

ليس هناك شك فى أن سلطنة بنى زيرى فى عهد سلاطينها المختلفين كانت لها علاقاتها المباشرة أو غير المباشرة مع العديد من الاقطار المجاورة أو غير المجاورة وكذلك مع الاقطار الاوربية المعاصرة لها، وان تلك العلاقات كانت تتسم بروح المودة والاخوة فى بعض الاحيان وفى أحيان أخرى كان ينتابها نوع من الفتور فى بعض المراحل التاريخية لكن حكام القيروان ثم المهدية فيما بعد. قد سعوا منذ اقامة دولتهم إلى اقامة علاقات من الود والصفاء مع البلاد المجاروة وإلى اقامة علاقات وإلى الاتصال بالقوى الاسلامية المعاصرة لها تحقيقا لروح الاخوة الاسلامية وقد اتصل وأقام علاقات حكام هذه الدولة المجاورة والتى منها مصر ومنها المغرب الاوسط والاقصى وبلاد السودان وصقلية والدول الاوربية الغربية وانهم كانوا يبعثون. بالوفود والسفراء والمبعوثين ومعهم الهدايا إلى حكام وسلاطين هذه البلاد .

ولقد كانت العلاقات تعكس حالة المودة والصفاء بين البلدين أو يحاول السفراء أو المبعوثين تحسين العلاقات وعقد معاهدات صلح ومنها كانت علاقة بنى زيرى مع :

### (١) العلاقات مع الخلافة الفاطمية بمصر

ظلت العلاقة بين مصر وبنى زيرى بالقيروان علاقة تبعية وخضوع للخليفة الفاطمى بالقاهرة طوال حكم الاسرة الصنهاجية (بلكين بن زيرى، المنصور بن بلكين، باديس بن المنصور) إلى أن جاء المعز بن باديس فأعلن الانفصال والاستقلال بافريقية، وبذل الامراء الصنهاجيون طوال تلك الفترة جهدهم لنشر المذهب الشيعى الاسماعيلى

وارسالهم الخراج إلى مصر وضرب السكة بأسماء الخلفاء الفاطميين والتى كانت تضرب بأسمائهم من عام ٢٩٦هـ. إلى عام ٤٤١هـ. وهو العام الذى أبطل فيه المعز بن باديس ضرب السكة باسم الفاطميين .

وساءت العلاقات بين الطرفين منذ انهاء المذهب الشيعى وقطع الخطبة والدعاء على المنابر للعباسيين وأرسلت الخلافة الفاطمية قوات لكن المعز ابن باديس هزم كل القوات التى أرسلها الفاطميون إلى طرابلس وعجزت عن محاربة بنى زيرى سواء فى عهد المعز أو والده باديس ورغم اثارة زناتة ضد حكام بنى زيرى الا أن قواتهم كانت تضطر للعودة إلى مصر منهزمة .

لكن الفاطميين استعانوا ببنى هلال وبنى سليم وبعد هزيمة المعز بن باديس فى معركة حيدران دخل العرب القيروان عام ٤٤٣هـ. وغادرها المعز إلى المهدية عام ٤٤٩هـ. وعندما علم المستنصر بالله الفاطمى بهزيمة المعز بن باديس طرب لذلك وظهر ذلك فى رسالة أرسلها إلى صاحب اليمن على بن محمد الصليحى، وانشق المغرب الادنى عن الفاطميين نهائيا .

لكن العلاقات عادت مرة أخرى لكن بصورة مظهرية وليس صورة التبعية والولاء الكامل والتقيد بأوامر الخلافة لكنها كانت تبعية دون التدخل فى أدنى عمل من أعمال السيادة وذلك فى عهد يحيى بن تميم بعد وفاة أبيه وكان الاستقلال التام فى عهد المعز وابنه تميم (٤٠٦– ٥٠١هـ) أى خمسة وتسعون عاما هجريا هى عمر القطيعة الفعلية ورجع يحيى إلى طاعة الفاطميين وسادت العلاقات الودية وقد قبل يحيى بن تميم عودة العلاقات الوديه حتى لا تتعرض مملكته لكثير من المشاكل، وفى عام ٥٠٥هـ وصل رسول الخليفة الفاطمى بالقاهرة يحمل هدايا إلى سلطان افريقية يحيى بن تميم واستمرت تلك العلاقات الودية بين الفاطميين وبنى زيرى كذلك فى



عهد على بن يحيى بن تميم الذى نهج نهج أبيه وسلك طريقه فخطب للفاطميين على منابر بلاده وبادلهم الهدايا والمراسلات ووصله رسول الخليفة بهدية عام ٥١١هـ. وفى عهد الحسن بن على آخر سلاطين بنى زيرى تحسنت العلاقات بصورة أحسن فخطب لهم على منابر بلاده وأدخلهم فى بعض الشئون الداخلية والسياسية وتدخل الخليفة الفاطمى فى الصلح والخلاف بين الحسن بن على وروجار الثانى حاكم صقلية، بعد أن كان الحسن بن على (٥١٥– ٥٥٤هـ) قد طلب من الخلافة الفاطمية أن تتوسط فى الصراع والصلح بينه وبين حاكم صقلية وتم الصلح بعد أن أرسل الخليفة الفاطمى الحافظ الفاطمى وتبودلت الهدايا والمكاتبات بين الطرفين وأرسل الحسن بن على هدية فخمة فى مركب عظيم سماه نصف الدنيا وشحنه بالهدايا لكن روجار الثانى ملك صقلية استولى عليه فى الطريق إلى الاسكندرية .

ثم استمرت تلك العلاقات الودية بين الفاطميين وبنى زيرى فى عهد الحسن بن على وكذلك بعد سقوط المهدية عام ٥٤٣هـ تحت الاحتلال النورمانى فيذكر أن الحسن بن على أراد أن يتوجه إلى القاهرة طالبا المساندة والمساعدة العسكرية من الخليفة الفاطمى الحافظ بالله وذلك لطرد النصارى من البلاد وقرر السفر إلى مصر لكن خطته فى الاعداد والتجهيز البحرى استطاع اختراقها العدو النورمانى وترصد جورجى ميخائيل الانطاكى اليونانى الجنسية وقائد جيش روجار الثانى فجهز سفنا سرية لاعتراض السلطان الحسن بن على والقبض عليه لكن الحسن بعد أن عرف بذلك عدل عن قرار سفره إلى مصر ولحق بابن عمه يحيى العزيز بن حماد صاحب بجاية .

وهكذا كانت السياسة بين بنى زيرى والفواطم فى القاهرة على أحسن السبل لاتقاء شر المنازعات والبعد عن اثارة القبائل العربية .

وكما كانت هناك علاقات سياسية بهذه الصورة فان العلاقات الاقتصادية وقت

السلم والمهادنة وحسن الجوار والتفاهم حيث كانت تصل بضائع المغرب إلى الاسكندرية وحركة الملاحة البحرية عادية وانتقال الحجاج واستخدامهم طريق مصر كان يتم على خير ما يرام أما فى فترة سوء العلاقة فان مصر الفاطمية كانت سيئة الظن بالمغاربة الذين اعترفوا بالعباسيين وكان حكام القاهرة يضيقون عليهم الخناق حتى انه من أراد الحج من المغاربة كان يعدل عن طريق مصر لكن فترة الصلح شهدت نموا مطردا فى حركة التجارة وظل الطريق مستعملا للتجار والحجاج ورجال الفكر والعلم والدين لكن قطع المذهب الشيعى منذ عام ٤٠٦هـ حتى ٥٣٤هـ جعل التبادل العلمى والثقافى والحضارى لا يسير وفق نظام واحد نظرا لتباعد المذهبين المالكى والشيعى مما جعل حركة العلم والعلماء والطلاب تكاد تكون شبه معدومة نظرا للتباين فى الفكر الا أن ذلك لم يمنع من رحيل بعض العلماء المغاربة وطلابها للدرس فى مدارس الشرق غير مصر مثل الرحيل إلى الحجاز وبلاد الشام والعراق قبل سقوطها فى أيدى المغول عام ٦٥٦هـ .

## (ب) علاقة بنى زيرى بالمرابطين فى المغرب الاقصى

بدأت دولة المرابطين تظهر على مسرح الاحداث السياسية فى عالم المغرب فى عهد يوسف بن تاشفين (٤٦٣– ٥٠٠هـ– ١٠٧١– ١١٠٧م)وذلك لانه قام بدور أساسى فى انشاء دولة المرابطين فى المغرب الاقصى بل يعتبر المؤسس الحقيقى لدولة المرابطين وقد عاصر حكم تميم بن المعز الذين كانوا من أقوى سلاطين بنى زيرى والذى عمل على كبح جماح العرب وأعاد توحيد البلاد تحت النفوذ الزيرى .

وقد اتسمت العلاقات بين الجانبين بروح المودة والصفاء وحسن الجوار ذلك لان بنى زيرى كانوا أعداء لزناتة وأيضا عمل المرابطون على اخضاع القبائل الزناتية وكان



المرابطون من صنهاجة الجنوب وبنى زيرى صنهاجة الشرق وكانوا أبناء عمومة ولم تكن تتعارض المصالح بينهما مما يستدعى الخلافات، ذلك لان المرابطين لم تكن لهم أهداف فى السيطرة على المغرب الادنى (افريقية) انما بسطوا نفوذهم فى المغرب الاوسط حيث نجد انه بنى الحصون فى تلمسان الجديدة بالمغرب الاوسط وجعل قلعة منها غرس زناتة وتقف لهم بالمرصاد بعد أن دفع بنى حماد حكام القلعة وبجاية فيما بعد بالمغرب وزناتة للتحرش بالمرابطين الذين كانوا يرون أن السيطرة على المغرب الاوسط معقل بنى حماد تأمينا لظهرهم من أية مخاطر تهدد المغرب الاقصى .

وقد وقف بنو حماد بالمرصاد لمحاولات يوسف بن تاشفين السيطرة على المغرب الاوسط ودفعوا بالقبائل العربية وزناتة للتصدى لهم ولذا كانت العلاقات غير ودية بعكس الزيريين الذيين الذى رأوا فى ظهور دولة المرابطين قضاء على خطر براغوطة أعدائهم التقليديين .

وقد تم تبادل الرسائل والهدايا فى المناسبات ومن ذلك الرسالة التى بعث بها يوسف بن تاشفين إلى السلطان الزيرى تميم بن المعز عام ٤٥٧هـ أثر انتصار جند المرابطين على نصارى الاندلس فى معركة الزلاقة، ولقد أسدى المرابطون خدمة جليلة للاسلام بدخولهم الصراع فى الاندلس لان سياسة ضرب النصارى والوقوف ضدهم كانت تحقق أهداف المسلمين وتضعف من دور النورمان فى السيطرة على حوض البحر المتوسط الغربى، بل أن بعض المصادر تذكر (المؤنس بن أبى دينار) يذكر أن بنى زيرى ساعدوا يوسف بن تاشفين وابنه على بالاساطيل البحرية وقدموا اليه المؤن والعتاد فى قتاله فى الاندلس، كما أن المرابطين دفعوا عن بنى زيرى خطر زناتة التقليدى كذلك تعاون بنو زيرى والمرابطون فى دفع خطر النصارى عن صقلية وارسال الحملات البحرية لشد أزر المسلمين والذى كان يهدد بنى زيرى فى المهدية، وتعاون على بن يحيى بن

تميم مع على بن يوسف بن تاشفين عندما طلب السلطان الزيرى مع أخيه سلطان المرابطين قوات بحرية لارسال حملة إلى غزو روجار الثانى ملك صقلية وأظهر الجانب المرابطى استعداده فخاف ملك صقلية وعقد صلحا مع سلطان افريقية، واستمرت العلاقات الطيبة وتبادل الهدايا والعلاقات التجارية والثقافية تسير سيرها الطبيعى بين البلدين ورحل العلماء من القيروان إلى فاس وشارك علماء المغرب الادنى (افريقية) فى قيام النهضة العلمية والفكرية والحضارية من جميع جوانبها فى المغرب الاقصى ووجد أبناء افريقية ملاذا وحصنا آمنا فى ظل دولة المرابطين مما نشط من حركة التعليم والثقافة ويرجع الفضل الاكبر لابناء افريقية فى ازدهار الحضارة الاسلامية على أرض المغرب الاقصى .

وعندما تعرض السلطان الحسن بن على آخر سلاطين بنى زيرى فى افريقية لخطر الزحف النورمانى على بلاده فقد أرسل سلطان المرابطين على بن يوسف بن تاشفين فى امداده بالقوات البحرية اللازمة لمواجهة خطر النورمان الزاحف على سواحل افريقية فأرسل المرابطون أسطولا للاغارة على صقلية عام ٥١٦هـ لكسر شوكة روجار الثانى ولقد كانت العلاقات طوال التاريخ الزيرى والمرابطين حسنة وطيبة ولم يحدث ما يعكر صفوها فى أى فترات من فترات حكم البلدين لعدم تعارض المصالح وتوحد الاهداف كما أن العلاقات التجارية كانت تسير وفق متطلبات الحياة واحتياج كل دولة من منتجات البلد الآخر وكانت السفن تتحرك بين موانىء البلدين حاملة الصادرات والواردات .

## العلاقات مع بنى حماد

كان باديس بن المنصور بن بلكين قد منح عمه حماد بن بلكين ولاية اثير بالمغرب الاوسط نظير تعاونه معه ضد أعمامه الذين شقوا عصا الطاعة عليه وكذلك



نظير دوره فى اخضاع قبائل زناتة وطرد الثائرين من أعمامه ودفع خطرهم، لكن حمادا أراد الاستقلال بالمغرب الاوسط وذلك منذ أن بدأ فعلا عام ٣٨٧هـ/ ٩٩٧م فى بناء القلعة واتخاذها عاصمة له مستقلا عن افريقية .

بل أكثر من ذلك فان حمادا استغل ظروف البلاد والاضطرابات الداخلية عام ٣٩٥هـ وعجز باديس عن حكم البلاد التى تحت يديه مما اضطره للتنازل عن الجزائر لعمه حماد بن بلكين، لكن باديس اشترط على عمه أن يكون حكمه خاضعا لسيطرة الدولة وفى اطار نظامها الداخلى وليس استقلالا كاملا. وسيطرت الدولة الزيرية على السياسة الخارجية والتجارة الدولية ولم يكن لبنى حماد أدنى صلة بالعالم الخارجى ولا بالخلافة الفاطمية فى القاهرة فقد بقيت الدولة الزيرية هى الممثل الوحيد والشرعى المعترف به للمغربين الادنى والاوسط، لكن بعد بناء القلعة بدأت بوادر الاستقلال تظهر، وتمسك باديس فى اخضاع حماد وعزله لكن حماد نبذ الطاعة ودعا للخلفاء العباسيين فى بغداد عام ٤٠٥هـ وسار اليه باديس وهزمه فى وادى شلف عام ٤٠٥هـ ومات باديس كما سبق القول عند حصاره قلعة بنى حماد. وسارت اليه قوات المعز بن باديس وهزمه عام ٤٠٨هـ لكن الحروب والعلاقات السيئة لم تدم طويلا وبذلت المساعى الحميدة رغبة فى الصلح وعقد الصلح بين المعز بن باديس وجده حماد بن بلكين عام ٤٠٨هـ وبمقتضى هذا الصلح استقل حماد بالقلعة والزاب والمسيلة وطبنة وأشير وتاهرت وغيرها من المدن الصغيرة وبذلك انقسم ملك صنهاجة الشرق إلى قسمين فى المغرب الادنى بنى باديس وفى الاوسط بنى حماد .

واستمرت العلاقات معتدلة بين الطرفين حتى عام ٤٣٢هـ عندما حدث خلاف بين المعز بن باديس وقائد بن حماد وقام المعز بن باديس بمحاصرة القلعة فترة سنين، ثم سادت العلاقات الودية بين الطرفين بعد ذلك حتى قدمت الغزوة الهلالية إلى

القيروان عام ٤٤٣هـ واستعان المعز بابن عمه قائد الذى أمده بألف جندى من الفرسان ثم اضطر المعز إلى الانتقال إلى المهدية عام ٤٤٩هـ ووجد الحماديون فى ذلك فرصة، وصمم الحماديون على توسيع نطاق دولتهم على حساب أبناء عمومتهم وتصالحوا مع بنى هلال من أجل الحصول على الاراضى .

وخضع لبنى حماد وإلى صفاقس وأهل قسنطينة والقيروان وتونس وهى بلاد تخضع للسيادة الزيرية .

لكن تميم بن المعز استطاع أن يعيد هذه البلاد للسيطرة الزيرية مرة أخرى وأن يقف بالمرصاد لبنى حماد ووقفت الطبيعة الجبلية حصنا آمنا لبنى حماد من خطر بنى هلال فعمر الحماديون البلاد وشيدوا القلاع والحصون وبسطوا نفوذهم على العصاه الخارجين على الدولة الزيرية لكن ذلك لم يدم طويلا واستفادوا من الظروف التى كانت تمر بها الدولة الزيرية، أواخر عهد المعز بن باديس وبداية حكم ابنه تميم فشجعوا حركات الانفصال عن الدولة ومات المعز عام ٤٥٤هـ بعد أن ترك لابنه مهمة احياء الدولة والضرب بيد من حديد على الانفصاليين والوقوف بحزم لبنى حماد. فأعاد تميم للدولة هيبتها وقضى على الثائرين فحالف الاعراب واتخذهم قوة له وقد نجح فى ذلك نجاحا عظيما واستغل القبائل العربية القوية وتحالف معها مثل رباح وزغبة واستعان برجالها فى قتال بنى حماد وتمكن بمساعدة العرب من احباط المؤامرات التى أعدها الناصر بن علناش الحمادى لمهاجمة المهدية كما مكنه التحالف مع بنى هلال من هزيمة بنى حماد هزيمة قاسية وقتل معظم قوات الناصر الحمادى فى معركة سبيبة عام ٤٥٧هـ مما جعل الناصر بن حماد بطلب الصلح، لكن رغبة الناصر فى الصلح كانت تنطوى على الغش والخداع لبنى زيرى أبناء عمومته والرغبة فى القضاء عليهم فعندما أتيحت للناصر بن علناش فرصة الاستيلاء على القيروان عام ٤٦٠هـ دخلها مع حلفائه



من العرب، لكن تميم ابن المعز حاربه واستعد له وأخرجه منها وفر الناصر أمام جموع تميم عام ٤٦١هـ .

ويبدو أن كل محاولات التقرب بين بنى زيرى وبنى حماد عن طريق المصاهرة لم تكن الا لعبة سياسية للتهدئة استغلها الحماديون لكى يحققوا أغراضهم مع أبناء عمومتهم مادام المرابطون قد أغلقوا المجال أمامهم فى التوسع غربا ومادامت العلاقات طيبة بين المرابطين وبنى زيرى .

وكانت عودة العلاقات الطيبة هدفا سعى اليه بنو حماد مع أبناء عمومتهم لكن التعاون والتقارب كنات تقضيه الظروف ولدفع الاخطار التى تحدق بالطرفين لاسيما فى مواجهة القبائل العربية وخطر النورمان والدول الاوربية (الجمهوريات الايطالية)، ولعل الصراع بين الطرفين كان لاحساس بنى حماد بأن دولة بنى زيرى هى المتصدرة للسياسة الخارجية حتى قدوم الهلاليين ولكن بعد قدوم الهلاليين وجد الحماديون فرصتهم للتخلص من أبناء عمومتهم لكى يمارسوا دورهم السياسى على مستوى العلاقات الدولية والعالمية وان يكون لهم مجالهم الخارجى مع شتى الاقطار العاصرة .

وساءت العلاقات بين الدولتين عام ٥١٥هـ فى عهد الحسن بن على بن يحيى آخر سلاطين بنى زيرى بالمهدية وبين ابن عمه يحيى بن عبد العزيز الحمادى وذلك لاعتراض الحمادى على الصلح الذى تم بين الحسن وروجار الثانى صاحب صقلية وقبول الحسن لشروط روجار القاسية وكذلك لاعتقاد يحيى الحمادى أن خطر روجار ولا شك قادم اليه وان روجار سوف يستعين بالحسن لتحقيق أهدافه فى الاستيلاء على المغرب الاوسط وعاصمته بجاية من أيدى الحماديين. وقد دفع ذلك يحيى بن العزيز الحمادى لارسال قوات برية وبحرية لحصار المهدية عاصمة الحسن بن على عام ٥٢٩هـ مما اضطر الحسن للاستعانة بالاسطول الصقلى والذى أمده بقوات بحرية مما

جعل الاسطول الحمادى ينسحب إلى بجاية (بداية انهيار الدولتين) وبعد ذلك التاريخ استمرت العلاقات الطيبة بين الحسن بن على وابن عمه يحيى بن العزيز الحمادى وذلك بالجهود التى بذلها الحسن فى تحسين العلاقات .

كذلك فان الحسن بن على عندما اضطر إلى مغادرة عاصمة بلاده عام ٥٣٤هـ وتركها للنورمان فقد اتجه فكره إلى الالتجاء السياسى عند ابن عمه صاحب بجاية واستقر فترة فى كنف ابن عمه حتى قيض الله للبلاد عبد المؤمن بن على قائد الموحدين فطرد النورمان من السواحل الافريقية عام ٥٥٥هـ .

وفى واقع الامر والبحث عن جوانب هذه العلاقات فان بنى زيرى وأبناء عمومتهم الحماديين قد فشلوا كل الفشل فى أن يشكلوا صفا واحدا فى مواجهة الاخطار التى كانت تهدد المغربين الادنى والاوسط كالعرب والنورمان، ويرجع السبب فى ذلك إلى خطأ الحماديين واستقلالهم ومهاجمتهم المهدية عدة مرات والعمل على اضعاف أبناء عمومتهم مما أدى فى النهاية إلى سقوط المهدية فى أيدى النورمان عام ٥٣٤هـ وسقوط الحماديين فى أيدى الموحدين عام ٥٤٧هـ .

ولقد كان الموقف فى تونس وخضوع بنى خراسان للحماديين فترة تزيد عن ثمانية وستين عاما (٤٥٨– ٥٢٢هـ) وكانت تونس الخراسانية مشكلة من مشكلات الصراع بين بنى حماد وبنى زيرى طوال وجود الدولتين وكذلك لان بنى زيرى لم ينجحوا فى استتباب الامن والنظام فى تونس .

كما ان العلاقات الثقافية والحضارية والعمرانية والتجارية بين الطرفين كانت تزدهر فى ظل ظروف السلام وكان طلاب من بنى حماد يتحركون شرقا إلى القيروان والمهدية طلبا للعلم والبحث والدراسة فى مدارس بنى زيرى ومعاهد العلم التى رصدوا لها الاموال الطائلة ووقفوا عليها الهبات والمنح والعطايا للطلاب والعلماء والدارسين



كما أن الاساطيل كانت تتحرك بين الدولتين تنقل التجارة والمصنوعات والادوات التى تجد قبولا ورواجا لدى البلدين ومن هنا لم يتأثر الجو العلمى والحضارى والتجارى بحالة العداء والحروب بين أبناء الاسرة الواحدة وكان عطاء القيروان والمهدية والمدن المختلفة للمغرب الاوسط (بنى حماد) عطاء بلا حدود .

## العلاقات مع دول الموحدين

فى الوقت الذى كانت فيه دولة الموحدين تحاول أن تتبوأ مكانتها على مسرح الاحداث فى المغرب الاقصى عاملة على هدم الكيان المرابطى بقيادة عبد المؤمن بن على فقد استطاعت أن تظهر على خريطة العالم الاسلامى كدولة جديدة فى عام ٥٤١هـ كان على الطرف المقابل فى بلاد المغرب الادنى دولة بنى زيرى فى الرمق الاخير من حياتها وبدأت تلفظ أنفاسها الاخيرة ومشرفة على السقوط والانهيار من مسرح الاحداث السياسية فى خريطة المغرب العربى وغرب البحر المتوسط وذلك نتيجة للاخطار التى أحدقت وأحاطت بها والتى كان أشدها ضررا وعنفا الخطر النورمانى الذى أنهى الوجود الزيرى عام ٥٤٣هـ وكذلك النزاع مع بنى حماد وقبائل بنى هلال كل هذه قد عجلت بالنهاية .

بعد أن أجاد روجار الثانى ملك صقلية لعبته السياسية وحنكة الاوربى الذى يستغل الظروف لتحقيق الاهداف فاستغل الاحداث الداخلية فى الفترة من (٥٣٧– ٥٤٣) وما ساد الدولة من انحلال وضعف وما أصاب جند الحسن بن على من أسباب الانهيار والانهاك وكذلك لانشغال القوات الزيرية فى محاربة بنى خراسان فى تونس بالاضافة إلى أن خليفة المسلمين عبد المؤمن بن على الموحد الذى كان يسعى إلى تكوين خلافة اسلامية واخضاع جميع أوطان وبلاد المغرب الاسلامى. والعمل على وقف الزحف الصليبى فى المشرق حيث الحروب الصليبية فى بلاد الشام وكذلك فى

المغرب حيث سيطرة النورمان على معظم السواحل المغربية بعد أن تدهورت أحوال الخلافتين الفاطمية فى القاهرة والعباسية فى بغداد وطمع الصليبيين فى مهاجمة المسلمين فى الشام والاندلس ثم بلاد المغرب .

ففى عام ٥٤٤هـ بدأ عبد المؤمن بن على فى تنظيم حملة عسكرية لدفع خطر النصارى ضد بلاد المغرب والتقى وجها لوجه مع الحسن بن على وعملا على طرد النصارى. لذا قصد عبد المؤمن بن على بجاية واستولى عليها عام ٥٤٧هـ ودخل الجزائر ثم منها إلى المهدية عام ٥٥٥هـ. وحكم الحسن بن على المهدية مع واليها الموحدى (أبى عبد الله بن محمد بن مفرح الكومى) الذى ظل يستعين برأى الحسن ابن على وهكذا ظل الحسن بن على مقيما بالمهدية ومرتبطا بالموحدين بأوثق الصلات وأقوى الروابط مدة عشرين عاما حتى عام ٥٦٦هـ عندما طلب منه الخليفة أبو يعقوب بن عبد المؤمن الخروج إلى المغرب لكنه توفى فى الطريق فى بلده قماسينا، لكن ما كان يسعى اليه الحسن قد خاب فلم يستطع أن يعيد ملك بنى زيرى فى افريقية وأن ينفرد بالحكم وتظهر دولته مرة ثانية لكن الحسن بن على كان نائبا للوالى الموحدى الذى كانت بيده مقاليد الامور .

وعندما سقطت المهدية فى يد قوات روجار الثانى بقيادة جورج ميخائيل الانطاكى عام ٥٤٣هـ وفر منها الحسن بن على سلطانها الاخير، بعد أن لم يمد اليه يد المساندة أحد من ملوك وسلاطين الاسلام ولم نصل أدنى معونة ممن راسلهم فى طلبها حتى يتمكن من الدفاع عن المهدية حاضرة العرش الزيرى فى مواجهة النصارى بعد أن حاول الحسن بن على بكل ما أوتى من قوة وجهد وسلاح وقوات أن يمنع وقوع هذه الكارثة العظيمة ولكن الظروف التى كانت تحيط بدولته لم تمكنه من تحقيق أهدافه، وعدل الحسن عن السفر إلى مصر وأرسل أولاده الكبار على ويحيى



وتميم إلى ابن عمه صاحب بجاية الحمادى يحيى بن عبد العزيز يستأذن فى المرور فى بلاده للوصول إلى أمير الموحدين عبد المؤمن بن على بعد أن كانت مراسلات قد تمت بين الطرفين وأبدى الموحدون استعدادهم لمساعدة بنى زيرى، فأذن له يحيى الحمادى بالعبور داخل أراضى دولته، فسار الحسن بن على اليه لكن يحيى الحمادى خدعه لان الحسن عندما وصل إلى بجاية عاصمة الحماديين لم يقابله يحيى الحمادى بل خدع فى ابن عمه وقت الشدة وأصدر يحيى الحمادى أوامره بمنعه من اكمال المسيرة إلى المغرب الاقصى وأن يكون مكانه تحت التحفظ فى مدينة الجزائر هو وأولاده .

ولقد كان الدافع وراء تصرف يحيى الحمادى هو خوفه من الوصول إلى عبد المؤمن بن على أمير الموحدين وربما يكون وصول الحسن بن على مقدمة لاستيلاء الموحدين على بجاية ومنعه من السفر والكتابة إلى عبد المؤمن بن على بما جرى فى بلاده، كذلك كانت العداوة والتنافس والحروب واستعانة الحسن بن على على ابن عمه بروجار صديق الامس وعدو اليوم من أسباب منعه من السفر، وظل الحسن مقيما بالجزائر ومنع من الاتصال بأحد رهن الاقامة الجبرية ونصارى صقلية يعيشون فى ديار الاسلام فسادا وقتلا وتنكيلا، لكن هناك مراسلات سرية قد جرت بين الحسن وهو مقيم سجينا فى الجزائر وبين خليفة المسلمين عبد المؤمن بن على اذ قدم عبد المؤمن إلى بجاية بقوات الموحدين واستولى عليها عام ٥٤٧هـ ولم يدم بقاء النورمان بالمهدية طويلا فعندما قابل الحسن أمير المؤمنين عبد المؤمن بن على وأحسن اليه وضمه إلى مقدمته .

وأثناء اللقاء حث الحسن بن على عبد المؤمن بن على على فتح المهدية، بل أن بعض المؤرخين يذكرون أن الحسن بن على هو الذى دفع عبد المؤمن بن على فى مراسلات سرية بينهما على الاستيلاء على بجاية إلى أن قابله بالجزائر عام ٥٤٧هـ بعد

أن ظل مقيما بها منذ عام ٥٤٣هـ وقربه اليه، ومهما يكن من أمر فقد نجح الحسن بن على حتى بعد أن طرد من المهدية فى العمل على تخليص بلاده من حكم النصارى واستردادها بالقوة المسلحة الموحدية وعاد إلى ملكه وملك آبائه المهدية بل أنه تمكن من اقناع عبد المؤمن بالسير شرقا إلى أبعد مما كان يخطط له الموحدون فى بداية حكمهم وتم فتح المهدية عام ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م وهكذا لم يحل هذا العام حتى كان عبد المؤمن قد مد حدود الدولة الموحدية إلى حدود طرابلس وطرد كل أثر مسيحى من شواطئ المغرب ومكن لسلطان الموحدين منها وبهذا تكون هذه السنة (سنة الاخماس) تاريخا فاصلا فى عهد المغرب الاسلامى كله ففى هذه السنة تحققت وحدة جميع الاراضى المغربية السياسية وتم طرد كل أثر للنصارى من فوق التراب المغربى بالدور الذى لعبه الحسن بن على آخر سلاطين بنى زيرى وتوحدت البلاد حتى المحيط فى دولة يحكمها خليفة واحد، وبذلك كانت الخلافة الموحدية المغربية أقوى الدول الاسلامية وأوسعها سلطانا فلم يدم الاحتلال النصرانى لهذه الديار الا فترة وجيزة وذلك بفضل دور الخلافة الموحدية أما عن العلاقات الاقتصادية والثقافية فلم يشهد عصر بنى زيرى مع الموحدين الا عامين اثنين فقط اذ استولى الموحدون على مقاليد الحكم فى المغرب الاقصى عام ٥٤١هـ وسقطت المهدية عام ٥٤٣هـ وبذلك لم تقم علاقات بين الجانبين اللهم الا ذلك الدور الذى لعبه الحسن بن على فى الاستنجاد بالموحدين لنصرة الاسلام فى افريقية وقدرة الموحدين على تحرير الساحل المغربى من السيطرة الاوربية فى ذلك الوقت المبكر .

## العلاقات مع الاندلس

شهدت فترة ظهور سلطنة بنى زيرى على مسرح الاحداث فى المغرب (٣٦٢- ٥٤٣هـ/ ٩٧٣- ١١٤٨م) فترة ظهور ملوك الطوائف فى الاندلس (٤٠٠-



٤٨٤هـ- ١٠٠٩- ١٠٩١م) ففى الوقت الذى كان فيه بنو زيرى يدعمون وجودهم فى البلاد كانت الخلافة الاموية تلفظ أنفاسها الاخيرة ورغم أن فترة حكم ثلاثة أمراء من بنى زيرى (بلكين بن زيرى وابنه المنصور ابن بلكين وحفيده باديس بن المنصور (٣٦٢- ٤٠٦هـ/ ٩٧٣- ١٠١٥م) قد شهدت السير على نمط العداء الذى كان قائما بين الخلافة الاموية فى الاندلس والخلافة الفاطمية فى المهدية نظرا للخلافات المذهبية والعقائدية والعداء بين الخلافتين ورغبة منهما فى تدعيم نفوذ الاخرى على حساب أى منهما .

والملاحظ أن فترة تولية باديس بن المنصور قد شهدت قيام صراعات داخلية بين أفراد الاسرة لرغبة بعض أعمامه فى عدم توليه عرش القيروان وثاروا عليه فاستعان ببعض منهم (حماد بن بلكين ويطوف بن زيرى) فى مقاتلة الآخرين الذين اضطروا إلى الفرار إلى الاندلس هربا من القتل وكونوا لهم مملكة غرناطة فى جنوب الاندلس وأطلق عليها غرناطة فى عهد بنى زيرى وكان من أهم ملوك الطوائف وأقامها بنو زيرى المهاجرون من افريقية .

ولقد كان حماد بن بلكين السبب الرئيسى وراء ارغام عمه زاوى وصلالة أولادهما إلى الرحيل إلى الاندلس حيث قامت لهم هناك أيام الفتنة الطائفية (ملوك الطوائف) امارة غرناطة وقرطبة وغيرهما وكانت امارة باديس بن حيوس الصنهاجى الزيرى بغرناطة تحمى الجناح الشمالى الغربى للممالك البربرية وكانت تسيطر على هذه الامارة زهاء ثلث قرن على الثلث الجنوبى من شبه الجزيرة الاندلسية وكان حمادى عام ٣٩٠هـ/ ١٠٠٠م قد توجه لمحاربة بنى زيرى الخارجين على سلطة الدولة وانحصر زيرى هذا بجبل شبوة ناحية شرشال وطلب الصلح والاستسلام فعقد حمادى على أن يرحل إلى الاندلس ولحق ومن معه من اخوته وأبنائهم وتابعهم بها عام

٣٩١هـ/ ١٠٠١م .

لذا فان سياسة الاندلس تجاه بنى زيرى لم تكن الا سياسة الضعف والتفكك والانهيار وكانت الاندلس تواجه صراعا داخليا بين أمراء الطوائف اضافة إلى الهجوم المسيحى القادم من الشمال فلم يعنها ما يدور من أحداث فوق افريقية نظرا للبعد الجغرافى وعدم وجود مصالح مشتركة ولقد كانت العلاقة ضعيفة بين الاندلس والفاطميين بل شبه مقطوعة واستمر هذا الوضع خلال حكم ثلاثة أمراء كما سبق القول .

وكانت الاندلس غارقة فى الصراعات الداخلية فيما عدا مملكة غرناطة التى أسسها بنو زيرى فى جنوب الاندلس عام ٤٠٩هـ والتى كانت عوامل الاسرة الواحدة تربطها بافريقية وعدا ذلك فان العلاقات تكاد تكون معدومة، بل ما ربط افريقية بالاندلس فى ذلك الوقت هى علاقات ثقافية وحضارية واقتصادية أكثر منها سياسية نظرا لهجرة العديد من العلماء ورجال الفن والحضارة والتجار إلى افريقية هربا من الصراع الدائر على أرض الاندلس بين ملوك الطوائف والزحف المسيحى القادم من الشمال .

لكن لما انتهى ملوك الطوائف على أيدى المرابطين فى أواخر القرن الخامس الهجرى فمما لا شك فيه أن باديس بن المنصور وكانت علاقاته طيبة بالمرابطين قد قدم مساعدات للمرابطين فى زحفهم للاندلس وساهمت قوات بحرية زيرية فى دعم المرابطين اضافة إلى الموارد الغذائية والحبوب والمساعدات المالية التى قدمتها دولة بنى زيرى لاخوانهم مسلمى المغرب الاقصى فى نضالهم من أجل الدفاع عن قضايا المسلمين بالاندلس، اضافة إلى أن الاحداث التى ألمت بالاندلس والزحف المسيحى من الشمال قد تركت بصماتها على سياسة بنى زيرى لكن بعد تولية المعز بن باديس عام



٤٠٦هـ فقد نمت العلاقات وتطورت زيادة عما كانت عليه العلاقات بين والده باديس ابن المنصور بن بلكين وأقاربه فى غرناطة. وقد شهد عصر المعز بن باديس عودة بعض الاسر الزيرية من غرناطة وحنينها إلى الوطن الام فأرسل زاوى ابن زيرى والذى فر إلى الاندلس وأسس مملكة غرناطة وكان عم المنصور، وتقدم به العمر فرأى أن يعود إلى افريقية فعاد من الاندلس عام ٤١٠هـ/ ١٠٢٠م واستقبله المعز بن باديس وأبناء عمومته والاسرة الحاكمة أحسن استقبال .

وقد ارتبطت افريقية مع الاندلس بروابط حضارية وثقافية وعلمية واقتصادية وتجارية أكثر منها سياسة نظرا لان الصلات السياسية كانت شبه مقطوعة وكان يشوبها نوع من الحذر وسوء الظن، لذا لم تكن هناك علاقات طوال تاريخ بنى زيرى مع الاندلس بالمعنى السياسى المتعارف عليه فى العصور الوسطى أو العصور الحديثة .

## العلاقات مع صقلية وجنوب ايطاليا

على الرغم من مغادرة الفاطميين للمغرب نهائيا عام ٣٦٢هـ الا أن جزيرة صقلية ظلت تخضع لحكمهم فعلى الرغم من أنها كانت تتمتع بالاستقلال الداخلى الا أنها من الناحية السياسية والدينية تعتبر أقاليما من الاقاليم التابعة للخلافة الفاطمية بمصر. وعندما هاجم النورمان الجزيرة استنجد أهل الجزيرة بالمعز بن باديس وقد عرض الامير الزيرى المعز بن باديس مساعدة أهل الجزيرة الا أن المراكب التى أرسلها تحطمت بسبب عاصفة وهزم العرب تعزيزات بحرية بيزنطية للنورمان بالقرب من ريو، وفى الفترة ما بين ١٠٢٦– ١٠٣٥م قام أسطول بنى زيرى بشن غارات على الاراضى البيزنطية بما فيها مقاطعة الليرية على الساحل الشرقى للبحر الادرياتيكى وعلى بعض الجزر

اليونانية وحتى ساحل ترافية وما حل عام ١٠٣٥م حتى طلب البيزنطيون الصلح من المعز بن باديس وفى عام ١٠٣٨م أرسل المعز بن باديس حملة لمساندة الثوار فى الجزيرة وهكذا كان لبنى زيرى نفوذ كبير فى الجزيزة الا انه كانت توجد عوامل سياسية وعسكرية أخرى .

واثناء فترة حكم المعز بن باديس وقبل قدوم بنى هلال ٤٤٣هـ زاد النشاط البحرى والعسكرى من صقلية وغيرها ضد جنوب ايطاليا ولكن دون احراز أية نتيجة دائما، وكان الحسن بن على مؤسس الاسرة الكلبيبية فى صقلية قد حاصر ريو بمساعدة قوات قدمت من بنى زيرى فى افريقية، ولقد هددت قوات المعز بن باديس أراضى اللمبارد فى ناحيتى مالرنة وكابو .

لكنه منذ عام ٤٢٣هـ/ ١٠٣٢م أصبح مركز القوات المعزية الزيرية دفاعيا وأصبح مركز افريقية دفاعيا اذ استولى الفرنجة على عناية بالمغرب الاوسط (بنى حماد) ومع أنها باءت بالفشل الا انها كانت عملية جريئة .

وظهر النورمان فى جنوب ايطاليا فى أوائل القرن الخامس الهجرى ، الحادى عشر الميلادى وكان وجودهم قائما على اللصوصية وقطع الطرق ولم يكونوا يحترمون العجزة ولا النساء ولا الاطفال ولم يكن يعبأ بكنيسة أو دير وكان الوجود الاسلامى فى جزيرة صقلية تهديدا لممتلكاتهم الايطاليه التى استولوا عليها حديثا وتصالح معهم البابا نيكولاس الثانى وعملت الحرب الاهلية فى صقلية على اجتذاب النورمان اليها والذين استهوتهم ثروة أرضها وخصبها وساعدت الظروف على أن يصبح طريق الفتح النورمانى لصقلية ممهدا بعد الانتصارات التى حققها أهل جنوة وبيزا ضد المسلمين .

ومنذ عام ١٠٦٠م تطلع روجار لصقلية ووضع قدميه على أرض مسينا، ومن ثم



فقد صرف روجار كل اهتمامه للاستيلاء على صقلية وفى هذا الاثناء وبعد وقت قصير من الوجود النورمانى لجأ بعض مسلمى صقلية إلى افريقية ونقلوا إلى المعز بن باديس أخبار الوضع السئ للمسلمين فى الجزيرة، فأرسل المعز قوة بحرية إلى صقلية الا أنها تبددت بفعل عاصفة قرب جزيرة قوصرة .

وقرر تميم بن المعز الذى خلف أباه عام ٤٥٤هـ/ ١٠٦٢م ارسال حملة عسكرية بقيادة ابنيه أيوب وعلى. ونزل أيوب إلى البر فى البر فى بلوم وأقام سيادة أبيه فى المنطقة الممتدة من مآزوالى حلفوذى. ووطد على أقدامه فى جرجنت ثم ساعد على تعزيز حامية قصر بانه ولبعض الوقت بعد عام ١٠٦٣ كان ايوب القائد العسكرى المسلم الرئيسى فى صقلية. الا أن الخلاف قد نشب بين المسلمين الصقلس وعبيد الحملة العسكرية القادمين من افريقية وتنازع ايوب وابن الحواس حاكم الجزيرة واقتتلا ولقى الاخير مصرعه وسيطر أيوب على بلرم وقصر بانة وجرجنت وفى الفترة ٤٥٧/ ١٠٦٥م، ٤٥٩هـ/ ١٠٦٧م لم تقع معركة كبرى بين المسلمين والنورمان، الا أن روجار عام ٤٦٠هـ/ ١٠٦٨م أوقع هزيمة بأيوب فى مدينة نزل الامير مما أوهن الروح المعنوية للجماعة الزيرية القادمة من افريقية وأضعف من هيبتها فأنسحبت مع أيوب إلى افريقية تاركه مسلمى صقلية وقد اعترى تنظيمهم خلل كبير .

وفى عام ٤٦٤هـ/ ١٠٧٢م استسلمت بلرم وأدى سقوط بلرم إلى سقوط العديد من المدن فى أيدى النورمان وفى هذه المرحلة ثار الجزء الاسلامى من الجزيرة بأسره على النورمان واستصرخ الاهالى الامير الزيرى تميم ابن المعز الذى أرسل عام ٤٦٦هـ/ ١٠٧٤م أسطولا صغيرا أغار على نقوطرة فى مقاطعة فلورية وقام فى عام ٤٦٧هـ/ ١٠٧٥م بانزال جنود إلى البر قرب مازر الا أنهم صدوا على أيدى النورمان. وفى عام ٤٨٤هـ ١٠٩١م استسلمت آخر المدن الاسلامية وتم بذلك افتتاح النورمان

لجزيرة صقلية فى خلال ثلاثين عاما (٤٥٤– ٤٨٤هـ– ١٠٦١– ١٠٩١م). وتوفى روجار الاول عام ١١٠١م وقد بلغ السبعين عاما من العمر .

لكن روجار الثانى (١١١١– ١١٥٤م) هو أشهر حكام صقلية. وقد كانت له مواجهات مع بنى زيرى والعالم الاسلامى وكانت حملاته البحرية ضد عدد من المدن الواقعة على ساحل بلاد المغرب واحتلالها آخر الامر .

وقد تولى تنظيم الاسطول النورمانى قائدان بحريان من أصل يونانى هما «جورج ميخائيل الانطاكى وكريستو دولوس» وتشير المصادر العربية اليه باسم عبد الرحمن النصرانى، وكان جورج الانطاكى قد عمل سابقا فى خدمة الامير الزيرى تميم بن المعز فتوافرت لدية معلومات طبوغرافية واضحة عن ساحل بلاد المغرب .

وقام الاسطول النورمانى بقيادة هذين الرجلين بمناهضة الدول الاسلامية فى بلاد المغرب للسيادة البحرية فى البحر المتوسط وفى عام ٤٧٩هـ/ ١١١٣م كانت قطع الاسطول الزيرى قد أغارت على نابولى وسالرنة ونتيجة لنشاط غزاة البحر المسلمين أصبح البحر المتوسط غير مأمون بالنسبة التجار والحجاج الاموبيين الذاهبين إلى بيت المقدس وبلاد الشام، الا أن المنازعات الداخلية بين الدول الاسلامية بنى زيرى، بنى حماد، بنى زيرى وبنى هلال (بنى زيرى وبنى خراسان فى تونس) أتاحت للنورمان الفرصة التى كانوا يتطلعون اليها .

وباءت بالفشل جميع المحاولات التى قام بها روجار الثانى ما بين عام ٤٨٥– ٤٩٤هـ/ ١١١٨– ١١٢٧م لاحراز موطئ قدم فى بلاد المغرب وفى أثناء الفوضى التى سادت بلاد افريقية على أثر قدوم بنى هلال أقيمت فى مدينة قابس امارة عربية صغيرة وهى امارة بنى جامع وقد جعل الامير الزيرى تميم بن المعز التعايش معها الا أن



حفيده عليا هاجمها فاستنجد بنو جامع بروجار الثانى الذى أرسل أسطولا لمساعدتهم نظرا للعلاقات التجارية بينهما (التدخل المباشر) وقد فشلت هذه الحملة البحرية النورمانية الاولى وكانت بداية العداء بين النورمان وبين أمراء بنى زيرى واستنجد على ابن يحيى بن تميم بالمرابطين لكنه توفى عام ١١٢١م وخلفه فى الحكم ابنه الحسن الذى كان آخر خلفاء بنى زيرى وفى عام ٥١٦هـ/ ١١٢١م قام بنو ميمون أتباع السلطان المرابطى على بن يوسف بن تاشفين بمهاجمة قوطرة فى مقاطعة قلورية وقتلوا واسترقوا كثيرا من أهلها وردا على هذا الهجوم أرسل روجار الثانى أسطولا ضد المهدية وجزيرة قصر الديماس بقيادة مقدم أسطوله جورج ميخائيل الانطاكى وهزمت الحملة ولم يعد من الثلاثمائة سفينة الا مائة سفينة فقط وتم القضاء على مائتى سفينة وأسر من فيها وغرق الباقى وفى عام ٥٢٢هـ/ ١٢٢٧م. غزا ميمون أراضى النورمان للمرة الثانية وهاجمت سفن المرابطين مدينة بطى وهددوا قطانية ونزلت قواتهم إلى البر قرب سرقوسة، وازاء خطر المرابطين تحالف روجار الثانى مع ملك برشلونة الاسبانى ريمون الثالث .

وفى هذه الاثناء ساءت أحوال سلطنة بنى زيرى وازداد ضعفها بحيث لم يعد ثمة أمل فى بقائها وفى عام ١١٣٥م سار يحيى بن عبد العزيز حاكم بجاية الحمادى إلى المهدية ولمواجهة هذا الخطر لم يكتف الامير الزيرى الحسن بن على بالاستعانة بقبائل بنى هلال بل استعان أيضا بالنورمان أعداء الامس .

وهزمت قوات الحماديين وقامت بين بنى زيرى والنورمان علاقة تتصف بكونها أكثر من هدنة، اذا انه منذ عام ١١٣٥م فصاعدا كانت سياسة روجار الثانى تقوم على ترك المهدية وشأنها مؤقتا، وأن يقوم بارسال حملات بحرية أخرى ضد مدن ساحلية بحجة تأديب غزاة البحر المسلمين حيث لم يكن للسلطان الزيرى سلطة فعلية على هذه

لجزيرة صقلية فى خلال ثلاثين عاما (٤٥٤- ٤٨٤هـ- ١٠٦١- ١٠٩١م). وتوفى روجار الاول عام ١١٠١م وقد بلغ السبعين عاما من العمر .

لكن روجار الثانى (١١١١- ١١٥٤م) هو أشهر حكام صقلية. وقد كانت له مواجهات مع بنى زيرى والعالم الاسلامى وكانت حملاته البحرية ضد عدد من المدن الواقعة على ساحل بلاد المغرب واحتلالها آخر الامر .

وقد تولى تنظيم الاسطول النورمانى قائدان بحريان من أصل يونانى هما «جورج ميخائيل الانطاكى وكريستو دولوس» وتشير المصادر العربية اليه باسم عبد الرحمن النصرانى، وكان جورج الانطاكى قد عمل سابقا فى خدمة الامير الزيرى تميم بن المعز فتوافرت لدية معلومات طبوغرافية واضحة عن ساحل بلاد المغرب .

وقام الاسطول النورمانى بقيادة هذين الرجلين بمناهضة الدول الاسلامية فى بلاد المغرب للسيادة البحرية فى البحر المتوسط وفى عام ٤٧٩هـ/ ١١١٣م كانت قطع الاسطول الزيرى قد أغارت على نابولى وسالرنة ونتيجة لنشاط غزاة البحر المسلمين أصبح البحر المتوسط غير مأمون بالنسبة التجار والحجاج الامويين الذاهبين إلى بيت المقدس وبلاد الشام، الا أن المنازعات الداخلية بين الدول الاسلامية بنى زيرى، بنى حماد، بنى زيرى وبنى هلال (بنى زيرى وبنى خراسان فى تونس) أتاحت للنورمان الفرصة التى كانوا يتطلعون اليها .

وباءت بالفشل جميع المحاولات التى قام بها روجار الثانى ما بين عام ٤٨٥- ٤٩٤هـ/ ١١١٨- ١١٢٧م لاحراز موطئ قدم فى بلاد المغرب وفى أثناء الفوضى التى سادت بلاد افريقية على أثر قدوم بنى هلال أقيمت فى مدينة قابس امارة عربية صغيرة وهى امارة بنى جامع وقد جعل الامير الزيرى تميم بن المعز التعايش معها الا أن



حفيده عليا هاجمها فاستنجد بنو جامع بروجار الثانى الذى أرسل أسطولا لمساعدتهم نظرا للعلاقات التجارية بينهما (التدخل المباشر) وقد فشلت هذه الحملة البحرية النورمانية الاولى وكانت بداية العداء بين النورمان وبين أمراء بنى زيرى واستنجد على ابن يحيى بن تميم بالمرابطين لكنه توفى عام ١١٢١م وخلفه فى الحكم ابنه الحسن الذى كان آخر خلفاء بنى زيرى وفى عام ٥١٦هـ/ ١١٢١م قام بنو ميمون أتباع السلطان المرابطى على بن يوسف بن تاشفين بمهاجمة قوطرة فى مقاطعة قلورية وقتلوا واسترقوا كثيرا من أهلها وردا على هذا الهجوم أرسل روجار الثانى أسطولا ضد المهدية وجزيرة قصر الديماس بقيادة مقدم أسطوله جورج ميخائيل الانطاكى وهزمت الحملة ولم يعد من الثلاثمائة سفينة الا مائة سفينة فقط وتم القضاء على مائتى سفينة وأسر من فيها وغرق الباقى وفى عام ٥٢٢هـ/ ١٢٢٧م. غزا ميمون أراضى النورمان للمرة الثانية وهاجمت سفن المرابطين مدينة بطى وهددوا قطانية ونزلت قواتهم إلى البر قرب سرقوسة، وازاء خطر المرابطين تحالف روجار الثانى مع ملك برشلونة الاسبانى ريمون الثالث .

وفى هذه الاثناء ساءت أحوال سلطنة بنى زيرى وازداد ضعفها بحيث لم يعد ثمة أمل فى بقائها وفى عام ١١٣٥م سار يحيى بن عبد العزيز حاكم بجاية الحمادى إلى المهدية ولمواجهة هذا الخطر لم يكتف الامير الزيرى الحسن بن على بالاستعانة بقبائل بنى هلال بل استعان أيضا بالنورمان أعداء الامس .

وهزمت قوات الحماديين وقامت بين بنى زيرى والنورمان علاقة تتصف بكونها أكثر من هدنة، اذا انه منذ عام ١١٣٥م فصاعدا كانت سياسة روجار الثانى تقوم على ترك المهدية وشأنها مؤقتا، وأن يقوم بارسال حملات بحرية أخرى ضد مدن ساحلية بحجة تأديب غزاة البحر المسلمين حيث لم يكن للسلطان الزيرى سلطة فعلية على هذه

المدن، وفى عام ٥٢٩هـ/ ١١٣٥م احتل النورمان جزيرة جربة وملك الفرنج الجزيرة ونهبوا أموالها وسبوا نساءها وأطفالها وهلك أكثر رجالها .

ومنذ عام ٥٣٧هـ / ١١٤٣م فصاعدا تواصلت حملات النورمان على ساحل بلاد المغرب وأخضعت قوة بحرية صقلية فى محاولتها الاستيلاء على مدينة طرابلس حيث كان بنو مطروح قد أعلنوا استقلالهم عن بنى زيرى وعاثت القوة النورمانية فسادا فى طريق عودتها بمدينة جبحل التابعة لبنى حماد، وفى عام ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م هاجم النورمان جزيرة فرقنة ومدينة برشك، وفى عام ٥٤١هـ/ ١١٤٧م نجح النورمان فى هزيمة بنى مطروح واحتلوا مدينة طرابلس حيث سفكوا دماء أهلها وأخذوا نساءهم ومأوالهم وسكنها الروم والصقالية وسافروا اليها .

وفى عام ٥٤٢هـ/ ١١٤٧م اغتصب شخص يدعى يوسف الحكم فى مدينة قابس فاستنجد أميرها معمر بن رشيد من أسرة بنى جامع بالامير الحسن الزيرى، بينما استنجد المغتصب للحكم بالنورمان وقام الامير الحسن باحتلال قابس واعدام مغتصبى الحكم مما أتاح الفرصة لروجار الثانى لخرق الصلح مع الامير الحسن واحتل أسطول نورمانى بقيادة مقدم الاسطول جورج ميخائيل الانطاكى مدينة المهدية عام ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م وكان ذلك بمثابة مشاركة رمزية من جانب روجار الثانى ملك صقلية فى الحروب الصلبية التى تدور رحاها فى بلاد الشام والاندلس وفى نفس العام احتل النورمان مدن سوسة وصفاقس وقابس، ومع أن الخائن جورج ميخائيل الانطاكى مات عام ٥٤٧هـ/ ١١٥٢م الا أن الاحتلال النورمانى للمدن المغربية ظل مستمرا ففى عام ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م احتلت مدينة بونة (عنابة) وفيما عدا تونس ومدينة أو مدينتين أخريين فان جميع مدن ساحل المغرب الادنى والاوسط دفعت الجزية لروجار الثانى المسيحى. الذى أضاف إلى ألقابه لقب ملك افريقية .



وفى الوقت الذى كان فيه أسطول روجار الثانى يحتل ساحل بلاد المغرب الادنى والاوسط فان ثمة ما يبعث على الاعتقاد أنه انتهج سياسة ودية تجاه الفاطميين فى مصر الذين كانت علاقاته التجارية معهم مرضية ويبدو أن التجارة عامة وتجارة القمح خاصة بين صقلية ودول المغرب العربى استمرت خلال السنوات الطويلة من الحروب قائما بينها .

وتوفى روجار الثانى عام ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م ومع أن النورمان قاموا بالاغارة على الاراضى المصرية ممثلة فى بلدة تنيس عام ٤٥٩هـ/ ١١٥٤م الا أن هذه الاغارة كانت فى حقيقة الامر استمرارا تلقائيا للفتوحات التى تمت فى بلاد المغرب الاسلامى ولكن عندما تولى ابنه وليام الاول الذى كان والده قد اسحوذ على بلاد المغرب حدثت اضطرابات فى هذه البلاد وكان هناك رد فعل عنيف للسيطرة المسيحية ففى صفاقس ثار عمر بن الحسين الغريان فى عام ٥٥١هـ/ ١١٥٨م ضد النورمان وكللت ثورته بالنجاح وحذت جزيرة جربة وفرقته حذو صفاقس وفى عام ٥٥١هـ/ ١١٥٨م استرد بنو مطروح سلطانهم فى طرابلس وفى قابس ثار على النورمان محمد بن رشيد ونجح فى ثورته عليهم وفى عام ٥٥١هـ/ ١١٥٨م أرسل وليام الاول حاكم صقلية عشرين سفينة لاخماد ثورة زويلة وحقق بعض النجاح الا انه ما أن حل عام ٥٥٢هـ/ ١١٥٩م حتى وصل السلطان الموحدى عبد المؤمن بن على من المغرب الاقصى وصفى ممتلكات النورمان فى بلاد المغرب الادنى والاوسط وفى عام ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م قطع عبد المؤمن وصول المؤن عن الحامية النورمانية فى المهدية مما اضطرها للتسليم ودخل عبد المؤن المهدية بكرة عاشوراء المحرم من خمس وخمسين وخمسمائة وسماها سنة الاخماس .

وبذلك أنهى عبد المؤمن بن على خليفة الموحدين الغارة النورمانية فى المغرب

الادنى والاوسط واستردت ديار الاسلام حريتها وسيادتها وطويت صفحة الاحتلال النورمانى من المغرب ولم تطأ أقدام أوربية أرض هذه البلاد الا فى العصر الحديث عندما خضعت للاستعمار الايطالى والفرنسى الذى اضطر للرحيل كما رحل النورمان من قبله وعادت ديار الاسلام لاهل الاسلام .



# الفصل السادس

## سقوط الدولة ونهايتها

دامت هذه الدولة على أرض افريقية والمغرب الاوسط نحو مائه وثمانين عاما ١٨٠ (٣٦٢– ٥٤٣هـ– ٩٧٣– ١١٤٨م) منذ أن عمل مؤسسها الاول بلكين بن زيرى على توطيد دعائم الاسرة الزيرية فى بلاد المغرب الاسلامى واضعا نصب عينيه توحيد كل أجزاء المغرب مقاتلا فى المغرب الاوسط والاقصى حتى سقطت تلك السيادة الاسلامية فى أيدى قوات مسيحية جاءت من وراء البحر المتوسط فى عهد الحسن بن على آخر سلاطين بنى زيرى لكى تسقط المهدية تحت ضربات القوى المسيحية الغازية وبذلك وضعت نهاية فصل من فصول التاريخ الاسلامى على أرض المغرب الصامد الصابر القادر على احتواء كل الصدمات ورد كل الغارات وتصير دولة بنى زيرى فى افريقية من صغار دول المغرب فقد ظلت أمدا طويلا تابعة للفاطميين بمصر حتى قام المعز بن باديس بالاستقلال عنهم .

ولقد حاولت هذه الدولة أن توحد المغرب فعجزت عن ذلك لمنافسة قبائل زناتة لها وقد كانت هذه القبائل تطيعها بعض الطاعة فى عهد مؤسسها ولما ضعفت قليلا تمردت عليها وانشقت عن حكوماتها ونتج عن ذلك توزيع المغرب بين دول متعددة فكانت افريقية والمغرب الاوسط إلى أول القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى تحت حكم بنى زيرى، ثم انفصل المغرب الاوسط عنهم تحت حكم بنى حماد ٤٠٤هـ والمغرب الاقصى الذى غمرته قبائل زناتة (مغراوة) كان منشقا عنهم على الدوام ومعترفا بسيادة الامويين بالاندلس .

ولقد نشأت دولة بنى زيرى وعوامل الضعف تنخر فيها منذ الوهلة الأولى التى

تولى فيها مؤسسها بلكين بن زيرى اذ كان عليه أن يواجه خطر القبائل المناهضة لصنهاجة وهى زناتة وكتامة وغيرها من القبائل التى كانت تطمع فى حكم المغرب بعد رحيل الفاطميين، وقضى بلكين بن زيرى (٣٦٢- ٣٧٣هـ) سنوات عمره يواجه المشاكل الداخلية لكن بتولى المنصور ابنه مقاليد الامور والصراع الداخلى بين البربر يدخل طورا جديدا اذ واجهت المنصور تحديات كثيرة منها عدم القدرة على الدعوة للمذهب الشيعى الاسماعيلى وتمسك الناس بمذهب مالك اضافة إلى الانقسام الداخلى بالاسرة كل هذه العوامل أعاقت حركة التقدم والبناء فى الدولة وصرفت همها لمواجهة الاحداث والمشاكل الداخلية مما عجل بالقضاء على الدولة فلو أن الامور كانت مستقرة والاوضاع يسودها الامن والآمان وتفرغ الناس للعمل لتقدم ركب الحضارة والتطور ولسارت الدولة خطى سريعة نحو التقدم والرقى لكن طبيعة المجتمع القبلى ولتنافر والتناحر بين القبائل من أجل الحكم وتحقيق السيادة دفعت بالدولة إلى هاوية سحيقة جاءت لتعجل بوضع نهاية الدولة على أيدى قوى خارجية بعيدة على الوطن الاسلامى وكان سقوط المهدية أول حادثة من نوعها فى تاريخ العالم الاسلامى .

وجاء باديس بن المنصور ليقع فى خطأ تاريخى فادح وهو الاعتراف لعمه حماد ابن بلكين بقيام حكم محلى فى الاراضى التى يفتحها من قبائل زناتة وكان باديس يهدف إلى حماية المناطق الغربية للدولة من خطر زناتة لكنه لم يكن يحسب أن ذلك الذى فعله هو بداية الانهيار الفعلى للدولة وأن الايام فى عهد ولده وسلفه المعز بن باديس سوف تشهد ظهور دولتين زيريتين على مسرح الاحداث فى المغرب الاسلامى احداهما فى المغرب الادنى (بنى زيرى) والاخرى فى المغرب الاوسط (بنى حماد) .

ولقد شهد عهد المعز بن باديس بعدا آخر فى اضافة أم المشاكل إلى التراكمات السابقة، ذلك لان دولة بنى زيرى منذ اعلان المعز استقلاله عن الفاطميين واجهتها





عدة تحديات فى الداخل والخارج ومنها قوة زناتة العدو التقليدى لاسرة صنهاجة المنافس الوحيد لعرش بنى زيرى وقد استطاع المعز أن ينزل بهم الهزائم وكانت بينه وبين زناتة حروب ووقائع لكن المعز لم يستطع القضاء النهائى عليها. وظلوا يثيرون الخلافات والمتاعب فى وجه السلاطين مما أضعف الدولة وجعلها غير قادرة على مواجهة التحديات الخارجية مما جعلها تتهاوى أمام ضربات عرب بنى هلال القادمين من صعيد مصر. كما أن الدولة واجهت خطرا أشد يتمثل فى أن أبناء عمومتهم من بنى حماد الزيريين استقلوا بالمغرب الاوسط وبمعظم أراضى الجزائر الحالية فقد أعلن حماد بن بلكين الاستقلال بالمغرب الاوسط عام ٤٠٥هـ وساعدت الظروف بنى حماد على تحقيق الاستقلال بدخول بنى هلال افريقية عام ٤٤٣هـ وهزيمتهم للمعز فى حيدران واستقلال العديد من المدن التونسية مثل سوسة وجربة والقيروان وتونس وصفاقس وقابس وغيرها من المدن، بل ان الحمادين حاولوا الاستيلاء على المهدية وهكذا كان على بنى زيرى أن يواجهوا بنى هلال وزناتة وبنى حماد قوى ثلاث تحاربهم الدولة فى آن واحد وكان العرب قد دخلوا القيروان بل عمت افريقية والمغرب الاوسط وتقوقع بنو زيرى فى المهدية وانحسر ملكهم فى الساحل وتغلب العرب على البلاد الداخلية ولم يستطع بنو زيرى لهم دفعا غير تحالف تميم بن المعز مع أقوى القبائل العربية رباح وكلفت اعادة الاستيلاء على المدن التى خرجت عن طاعة الدولة جهدا كبيرا لقتال هؤلاء الحكام مثل بنى خراسان فى تونس والبراغوطى فى صفاقس وبنى جامع فى فاس .

كما أن عبء الدفاع عن بلادهم ضد الخطر القادم من وراء البحر المتوسط وصد عدوان القوات الفرنجية القادمة من أوربا فقد استولى النورمان على جزيرة صقلية عام ٤٨٤هـ وهددوا سواحل افريقية واستولوا على جزيرة جربة عام ٥٢٩هـ وبسطوا سلطانهم على طرابلس عام ٥٣٧هـ ثم عادوا واحتلوها عام ٥٤١هـ وزحفوا على فاس

عام ٥٤٢هـ ولقد شغلهم الصراع الداخلى مع العرب وزناتة وبنى حماد عن أن يدركوا كنة الخطر النورمانى الذى وجد له مساعدة فى أبناء الاسرة الحاكمة بسبب النزاع حول ولاية العهد بين أفراد الاسرة مما سبب كثيرا من الاضطرابات واشاعة الفتن .

كما أن العامل الاقتصادى من جراء ثورة العرب وهجومهم على المدن الداخلية وترك الناس للزراعة والصناعة اضافة إلى تعرض المدن الساحلية (الموانئ) للخطر من جانب البحر المتوسط الذى سيطر عليه النورمان وعملت أساليبهم فى القرصنة عملها على منع تجارة الدولة وعدم قدرتها على منافسة النورمان من داخل السواحل والمدن الايطالية .

وكانت الحروب الداخلية وعدم الامن والامان قد دفعا بالاهالى بالهجرة إلى المغرب الاقصى إلى فاس وتلمسان أو الاندلس أو صقلية وغيرها من البلاد الاسلامية فساءت الصناعة وأهملت الزراعة وكسدت التجارة بالاضافة إلى عوامل أخرى خفية أوصلت الدولة إلى مرحلة الانهيار ثم السقوط .

ولقد كان خطر النورمان هو الذى وضع حدا لنهاية الدولة وسقوطها ذلك لان المصادر تشير إلى أن يحيى بن تميم (٥٠١– ٥٠٩هـ) كان يوجه سفنه للاغارة على سواحل سردانية وجنوة وبروافنس وانه صرف همه إلى غزو النصارى فى الاساطيل البحرية فاستكثر منها وجاهدت سفن المسلمين فى بلاد الفرنجة وجنوه وسردانية ولكن يحيى بن تميم لم يوجه غزواته إلى صقلية اذ كان أبوه تميم مرتبطا بمعاهدة مع روجار الاول عقدت عام ٤٦٨هـ وظلت سارية المفعول فى عهد ولده يحيى ثم فى عهد حفيده على بن يحيى (٥٠٩– ٥١٥هـ) غير أن المنافسات التجارية بين صقلية والمهدية أدت فى النهاية إلى نقضها من جانب النورمان .

وحدث بين روجار وعلى بن تميم جفوة كبيرة ساءت العلاقات على أثرها



بسبب خلاف بين على بن يحيى وحاكم قابس وذلك لرغبة على بن يحيى فى احتكار التجاره البحرية وأدى ذلك إلى حصاره لقابس عام ٥١١هـ فاستعان حاكم قابس بأسطول صاحب صقلية الذى أمده بأسطول ضخم يتألف من أربع وعشرين سفينة حربية لكن أسطول على بن يحيى تمكن من هزيمة أسطول روجار فى مياه قابس وبدأ منذ ذلك الحين يقوى ويدعم أسطوله استعدادا للحرب، ولما كان يدرك تماما عدم قدرته على مواجهة قوات صقلية ومعها قوات أوربا فقد كاتب المرابطين فى مراكش وطلب من يوسف بن تاشفين الاجتماع معه على الدخول فى صقلية وكف روجار عما يعتزمه ويذكر ابن عذارى المراكشى أن روجار أرسل فى عام ٥١٢هـ رسولا إلى على بن يحيى يلتمس تجديد العقود وتأكيد العهود وطلب أموالا له بالمهديه، لكن على بن يحيى أغلظ للرسول فى القول والرد فتزايدت الهوة والعدواه بين الطرفين .

وتوفى على بن يحيى عام ٥١٥هـ وخلفه ابنه الحسن آخر سلاطين بنى زيرى وحدث أن قام أسطول المرابطين فى عهد على بن يوسف بن تاشفين بالاغارة على صقلية عام ٥١٦هـ على مدينة تقوطرة فلم يشك روجار الثانى فى أن المحرك لتلك الغارة المرابطية هو أمير افريقية الحسن بن على فصمم على الانتقام منه فاستفز أهل بلاد الروم قاطبه واجتمع له حشد لم يعهد بمثله من قبل وأعد الحسن بن على عدته وتأهب للقاء أساطيل روجار وجمع مائة ألف رجل وعشرة آلاف فارس واتخذت حملة روجار طابع الحملات البحرية الصليبية وكان الاسطول يتكون من ثلاثمائة سفينة على ظهرها ثلاثون ألف مقاتل وراءها ألف فارس يقودهم جورجى ميخائيل الانطاكى وعبد الرحمن النصرانى بن عبد العزيز وكان جورجى هذا نصرانيا شرقيا هاجر من الشام بعد أن تعلم العربية فاصطنعه تميم وجعله ناظرا على أمواله فلما توفى تميم خاف جورجى على نفسه من يحيى ورحل هو وأهله وذووه إلى صقلية وحظى فى صقلية بمحبه روجار

فسيره سفيرا إلى الخليفة الفاطمى بمصر ثم قائد الاسطول متى عزم روجار على مهاجمة المهدية أرسل عام ٥١٦هـ وانكشفت خطة روجار وتأهب الحسن بن على لاستقباله واستعان بقبائل العرب ونزل الاسطول عام ٥١٧هـ ثم زحفوا إلى مصر الديماس واجتمع المسلمون عليهم وأبيدوا عن آخرهم وأدرك روجار أن الوقت بعد هذه الهزيمة لم يحن لفتح المهدية .

وكان فى امكان الحسن بن على أن يكون ندا قويا وعنيدا لروجار الثانى لولا انه اصطدم بأطماع ابن عمه يحيى بن عبد العزيز الحمادى صاحب بجاية فاضطر إلى مداراة روجار ووقع معه هدنة عام ٥٢٩هـ. وثار أهل المهدية بذلك وكاتبوا يحيى بن عبد العزيز الحمادى ووعدوه بتسليم المهدية له وأرسل قوات بحرية وبرية لذلك فأرسل روجار ٢٠ سفينة لمساندة الحسن .

وكان روجار قد أدرك ضعف قوة الحسن البحرية فعزم على الاستيلاء على المهدية وغيرها من مدن الساحل واستطاع أن يستولى عليها واغتنم روجار فرصة اشتداد المجاعة بافريقية عام ٥٤٣ هـ وهجرة عدد كبير من سكنها وجهز أسطولا من ثلاثمائة سفينة مشحونة بالرجال والسلاح ووصل إلى المهدية فى ٢ صفر وخادع أهلها بدون مقاومة وظفر النورمان بكل المدينة سالمة كما هى .

وكان الحسن سلطانها فانه لما رأى ما يعجزه عن مقاومة قوات روجار خرج منها وهو يقول سلامة المسلمين من القتل والاسر خير لى من الملك والقصر وخرج بحاشيته إلى قسنطينة ثم منها إلى الجزائر. حيث أقام إلى أن افتتحها عبد المؤمن بن على عام ٥٤٧هـ فأكرمه واشترك الحسن بن على فى تحرير المهدية فى العاشر من محرم عام ٥٥٥هـ .

ولقد ارتكب الفرنجة الكثير من الفظائع والجرائم فى زويلة فقتلوا النساء والاطفال





وهتكوا الاعراض وأسالوا الدماء ونهبوا الاموال وسبو النساء وفعلوا ما لا يخطر على عقل بشر من أعمال لم يسبق أن حدثت فى تاريخ الحروب. لعل هذه الاعمال التى قام بها الفرنجة ضد أهالى زويلة كانت السبب المباشر والقوى وراء تحرك عبد المؤمن بن على للقضاء على آخر معقل للنصارى فى افريقية وهى المهدية حيث نجح فى اعادتها إلى حوزة الاسلام والمسلمين وبذلك طويت صفحة من صفحات التاريخ لدولة من دول المغرب الاسلامى كانت بربرية صنهاجية بل أول دولة مغربية خالصة يقيمها البربر ثم استعرابهم وأصبحوا عنصرا أساسيا فى العالم الاسلامى العربى وقد رأينا كيف استنفذوا قواهم فى حروب عقيمة مع القبائل على مدى عمرها القصير ونصروا بقسوتهم هذه القبائل كذلك كان صراعهم مع أبناء عمومتهم أسوأ بكثير من أى عمل من أعمال القتال والصراع وتغير بنو زيرى من أفضل حكام العالم الاسلامى فى القرنين الخامس والسادس الهجريين فقد كانوا أكثر حكام المسلمين حرصا على رعاية مصالح بلادهم ورعاياهم وانهم ان كانوا لم يوفقوا فى الوصول ببلادهم إلى أحسن ما كانوا يرغبون نظرا لكثرة المشاكل الداخلية والخارجية فقد بذلوا أقصى ما فى قدرتهم، ولما وصلت الدولة إلى الاستقرار المنشود نجد أن حكام بنى زيرى قد نجحوا فى اقامة نوع من التعاون الوثيق بين السهول والهضاب ومكنوا للحضارة الاسلامية والثقافة العربية واللسان العربى من أن يزكوا نبتها وتؤتى ثمارها المرجوة فلما أغار عرب بنى هلال على هذه البلاد انقلبت الحياة الاقتصادية رأسا على عقب .

وكانت الغزوة الهلالية أيام المعز بن باديس وما تحمله ابنه تميم بن المعز من جراء هذا الهجوم ولقد كان بنو زيرى أحرص ما يكونون على التمسك بالكتاب والسنة والدين القويم واحترام رعاياهم وقد نهج بنو زيرى سياسة مغربية خالصة فلم يكن لهم أدنى اهتمام بما يجرى فى بلاد المشرق الاسلامى اللهم الا أداء فريضة الحج والحركة

الثقافية والعلمية والتجارية والاقتصادية .

ولا شك أن المعز بن باديس وابنه تميم يعتبران من أعاظم سلاطين العالم الاسلامى فى عصرهما وقد ساعدت سياستهما على اظهار شخصية المغرب الاسلامى واعطائها ملامحها المميزة مع بقية بلاد العالم الاسلامى فى ذلك الوقت .

وتلك هى صفحة مضيئة من صفحات التاريخ الاسلامى فى القرن الرابع والخامس والسادس الهجرى حديث أحداثها فى بلاد المغرب الادنى والاوسط وساهمت بقدر ظروفها وامكاناتها بدور فعال ومؤثر فى اثراء الحركة الثقافية والفكرية والعلمية والحضارية على ذلك الجزء من العالم الاسلامى الممتد من حدود الصين شرقا إلى حدود الاندلس غربا .



## حكام بنى زيرى فى القيروان والمهدية

١ – بلكين بن زيرى بن مناد بن منقوش الصنهاجى

٣٦٢- ٣٧٤هـ- ٩٧٣- ٩٨٤م

٢ – المنصور بن بلكين بن زيرى

٣٧٤- ٣٨٦هـ- ٩٨٤- ٩٩٦م

٣ – باديس بن المنصور بن بلكين

٣٨٦- ٤٠٦هـ- ٩٩٦- ١٠١٥م

٤ – المعز بن باديس بن المنصور

٤٠٦- ٤٥٣هـ- ١٠١٥- ١٠٦٢م

٥ – تميم بن تميم بن المعز

٤٥٣- ٥٠١هـ- ١٠٦٢- ١١٠٧م

٦ – يحيى بن تميم بن المعز

٥٠١- ٥٠٩هـ- ١١٠٧- ١١١٦م

٧ – على بن يحيى بن تميم

٥٠٩- ٥١٥هـ- ١١١٦- ١١٢١م

٨ – الحسن بن على بن يحيى

٥١٥- ٥٤٣هـ- ١١٢١- ١١٤٨م

# الباب الثاني

## الغزوة الهلالية لبلاد المغرب

على الرغم من أن الغزوة الهلالية قد بسطت لواء نفوذها على كل أنحاء المغرب الاسلامى امتدادا من حدود مصر غربا مرورا بكل الاقاليم المغربية وصولا إلى المحيط الأطلسى الا انها رغم كل ذلك الانتشار الواسع والتأثير البالغ من النواحى السكانية والحضارية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية والبنية الاساسية للمغرب الا انها لم تستطع أن تؤسس ملكا أو تشيد دولة أو يكون لها كيان سياسى كبير مستقل معترف به من الاطراف المغربية أو العالمية المعاصرة ولكنهم اقتصروا على سكنى السهول والوديان واقامة الامارات الصغيرة اضافة إلى أنهم لعبوا دورا متميزا فى أوجه الحياة المختلفة وكان وجودهم على أرض المغرب الاسلامى انطلاقا من منتصف القرن الخامس الهجرى حتى العصر الحديث عبارة عن صفحة مضيئة من تاريخ المغرب السياسى والاجتماعى والحضارى على الرغم من الحملات المزعومة التى حاولت أن تشوه هذا الوجه الباسم المشرق بالعروبة والاسلام والذى لولا الدور الهلالى فى حياة المغرب لتغير مسار تاريخ الاسلام والعروبة فى تلك البقعة من العالم الاسلامى .

لقد حفظت الغزوة الهلالية وجه المغرب العربى الاسلامى وصانته من كل محاولات الدس والوقيعة ورفعت رأسه عاليا رغم كل المحن والشدائد ليقول لكل الذين حاولوا طمس معالم حضارته وعروبته وثقافته ها هو المغرب عربيا اسلاميا شرقيا ذا طابع حضارى عربى متميز فالفخر كل الفخر للذين زحفوا فى منتصف القرن الخامس الهجرى ليضعوا اللمسات الخالدة فى تاريخ هذا الوطن الذى عدلت الهجرة الهلالية البنية الجنسية فيه وطبع البلاد طابع العروبة .



# الفصل الأول

## بنى هلال قبل الرحيل إلى المغرب

ينتمى بنو هلال إلى هلال بن عامر بن صعصعه بن معاوية بن بكر بن هوزان بن منصور بن عكرمه بن خصفة بن قيس بن عيلان بن مضر بن نزار بن سعد بن عدنان وبنو سليم أبناء عمومتهم منهم من ولد سليم بن منصور بن عكرمة بن خصعه بن قيس بن عيلان وكان نزول بنى سليم بمصر وعدة قبائل من قيس عام مائة وتسع (١٠٩هـ) فى امارة الوليد بن رفاعة بن خلد بن ثابت الفهمى أما بنو هلال فهم بطن من عامر وكانوا أهل بلاد الصعيد كلها إلى عيذاب .

وكان لحركة القرامطة التى اتخذت مسرحها شرقى شبه الجزيرة العربية أثرها فى زعزعة القيم والافكار إلى حد بعيد اذ أدخلت أفكارا غربية إلى المجتمعات الاسلامية. وقد انضم بنو هلال وبنو سليم إلى القرامطة ولم يكن لانضمام هؤلاء العرب البدو إلى هذه الحركة أدنى أثر فى تغيير عقائدهم اللهم الا رغبة فى العصيان وخروج على النظام فى الدولة العباسية، والفاطمية وكانت جماعة منهم تنتشر فى طريق الحج المؤدى إلى مكة المكرمة .

وحدث أن تغلب بنو الاصفر على البحرين فى عام ٣٧٨هـ باسم العباسيين وطردوا منها بنى سليم الذين كانوا أعوانا للقرامطة ورأى الفاطميون أن يستعينوا بهؤلاء الاعراب الاشداء فشجعوهم على الهجرة إلى مصر ويقول ابن خلدون، لما تطلب شيعة ابن عبيدا المبدى على مصر والشام وكان القرامطة قد تغلبوا على أمصار الشام فانتزعها العزيز منهم وغلبهم عليها وردهم على أعقابهم إلى البحرين، نقل أشياعهم من عرب هلال وسليم فأنزلتهم بالصعيد وفى البر الشرقى من نهر النيل فأقاموا هناك .

كانت هذه الموجات أعدادا هائلة من هلال وسليم تحولوا جميعا إلى مصر حتى لم يبق لهم عدد ولا بقية بالحجاز أو الشام أو البحرين وملأت جموعهم الجهات الشرقية من الصحراء الشرقية المصرية حتى بلغوا الصعيد الاعلى ولبثوا فى مصر زمنا وانضمت اليهم جماعات شتى من القبائل العربية الاخرى لكن اسم بنى هلال صار علما عاما على هذه الجماعات المتنوعة المتحالفة ولعل السبب فى هذه التسمية ما كان لهلال فى ذلك الحين من نصيب فى زعامة هذه الجماعات .

وكما ذكر المقريزى أهل هذه الجموع تملأ فضاء الجانب الشرقى من مصر عشرات السنين وكانوا اذن كما وصفهم المقريزى أهل بلاد الصعيد حتى عيذاب وكانوا قد شغبوا وأثاروا القلاقل فى هذه المنطقة لذا فقد كانت الهلاليه أخلاطا من القبائل العربية بينهم سليم أقوى عناصر الهلاليه وأعرقها وأغناها وجماعات شتى من القيسية والسبئية مثل فزارة من القيسية والمعقل من اليمنية وبطون أخرى من القيسية وهلال هذا الذى غلب اسمه على مجموع هذه القبائل والبطون فيما بعد ربما كان لسهولة الاسم ودورانه على الالسنة دخل فى ذلك .

وقد كانوا كسائر العدنانية يكرهون القحطانية وكانت العداوة بينهم وبين الازد مشهورة لمجاورتهم اياهم فى نجد حيث تكاثر هلال وسليم على مر الايام ولعبوا دورا هز الدول الاسلامية فيما بعد وغير من أوضاعها وقوض بعض نظمها وتقاليدها فقد تحيزوا كما سبق القول للقرامطة وقدموا معهم إلى بلاد الشام فى أيام المعز لدين الله الفاطمى ولما انهزم القرامطة فى عهد العزيز انسحبوا من الشام ونقل العزيز من كان معهم بين عرب بنى هلال وسليم إلى مصر وأنزلهم بالجانب الشرقى من بلاد الصعيد .

وقبل كل هذه التطورات التاريخية والاحداث التى مرت بعرب بنى هلال وبنى سليم كان بنو هلال يعيشون حول الطائف والمدينة المنورة قبل نزوحهم من شبه الجزيرة



العربية وقد عاشوا عند جبل عنزوان بالطائف ونزل بنو سليم ما يلى المدينة وهلال وسليم من القبائل كثيرة البطون وغلب عليها البداوة وقاموا بالاغارة على نواحى الشام والعراق مما أزعج سلطات العباسية ببغداد ولا سيما بعد أن اغار بنو سليم على الحجاج والزائرين بين مكة المكرمة والمدينة المنورة، لكن حقيقة يمكن القول أن بنى هلال وبنى سليم رغم مناصرتهم لدعوة القرامطة الا انهم لم يتأثروا بالافكار الخاصة التى حاول القرامطة نشرها بين سكان البلاد التى سيطروا علها .

ولما كانت الدولة الفاطمية تتقرب إلى القبائل العربية تمشيا مع انتسابها لقريش ومحاولة اعتزازها بالعرب فقد أنزلوا بنى هلال وسليم مصر فى أعداد كبيرة وموجات متتالية وكانت حقيقة الاستقدام هو التقرب اليهم لان الفاطميين كانوا يعتزون بالانتساب إلى قريش ويعملون على الاعتماد على العناصر العربية والاستعانة بهم فى حروبهم وفى تدعيم قوتهم وفى استغلال العصبية فيهم أحيانا واكتظت بهم أنحاء مصر الشرقية بل انه لم يكد عهد الفاطميين يقبل على مصر حتى تدفقت على مصر جماعات من بيوت قريش من الحجاز وغيره ورجب الفاطميون بهم وقريش كما قلنا أقرب اليهم نسبا وهيأوا لهم سبل الاستقرار فى ديار مصر سواء من كان منهم على مذهب الفاطميين أو على مذهبهم وصلت إلى مصر طوائف كثيرة من قريش ومن هنا لم يكن ترحيل بنى هلال وبنى سليم من بلاد الشام الا كما رحل إلى مصر العمر من سلالة عمر بن الخطاب وبنى عدى وبنى كتانة وغيرهم من قريش وكذلك جماعة جعفر الصادق أقارب الفاطميين .

ولكن هذه القبائل كانت تختلف فى طبيعتها وأخلاقها عن أجدادهم هوزان بن منصور، الذين كانوا من أعظم قبائل العرب وأقواها وأبعدها أثرا فى الفتوح الاسلامية أيام الخلفاء الراشيدين ثم الامويين (لاحظ هنا أن نذكر أقوال كل المؤرخين عن هذه

القبائل وسوف نفرد فصلا خاصا ندحض به كل هذه الاقوال .

ويطلق ابن خلدون على هذه الهجرة أو تلك الجماعات التى تحركت إلى المغرب عرب الجيل الرابع أو ما يغالى فيه ابن خلدون ارضاء لبعض الاهداف المملوكية والطبقة الحاكمة فى مصر فى ذلك الوقت وهم من العبيد المماليك المشهود لهم بالكراهية الشديدة للعرب، الذين فقدوا خلق العرب الاول ولم يعد لهم من القوة والقدرة وسلامة العنصر ما يمكنهم من منافسة المتغلبين على الدولة من الفرس والبوهيين والترك والسلاجقة والغز ومن جاء بعدهم وكانت بيده مقاليد الامور فى الدولة العباسية، لذا فقد انسحبت بقاياهم إلى شبه الجزيرة ووسطها وهناك عاشوا على هامش مناطق الحضر والاستقرار ودون أن يؤذن لهم فى دخولها أو سكناها .

ولاحظ هنا كراهية هذه العناصر الدخيلة فى الدولة الاسلامية لكل ماهو عربى، وقست عليهم الدول فانحصروا فى الصحراء وهناك وسط الجزيرة العربية اشتد بهم الفقر واعتمدوا فى معاشهم على الغارات يشنونها (أقوال مؤرخين معادين لكل ما هو عربى ومسايرة حكام ذلك العصر) حتى ساءت سمعتهم وهبط قدرهم وأصبحوا كما يقول ابن خلدون (خولا وأتباعا للدول وشرا وويلا على الحضر) إلى جانب ذلك (لاحظ التجنى الشديد) حيث ان الصحراء مصدر اللغة العربية السليمة، فقد أولئك العرب فصاحة العرب وسلامة اللغة وسط الجزيرة العربية بالقرب من الطائف ومكة والمدينة وهل كان يسكن هذه المناطق قوم من أندونسيا أو ساحل أمريكا الجنوبية، والفلبين فى ذلك الوقت حتى تفسد لغتهم ان العرب لا يحبون الاختلاط فكيف فسدت لغتهم واستعجمت ألسنتهم وشابت لغتهم ألفاظ وعبارات أعجمية (من أين جاءت هذه العجمية؟) فاستعجمت السنتهم ولذا يسميهم ابن خلدون بالعرب المنعجمة (سامح الله ابن خلدون ومن سار على نهجه لانه كان فى ذلك الوقت فى ظل حكم المماليك



والذين قدم عليهم من بلاد الحفصين بالمغرب وعينوه فى بلاطهم) والعداوة مشهورة بين المماليك والعرب فى مصر فكيف لايقول أكثر من ذلك .

بل انه مما ذكره المؤرخون أن بنى هلال عندما أقاموا بصعيد مصر سببوا كثيرا من الايذاء للفلاحين العاملين فى تلك المناطق أما بنو سليم فقد اندمج الكثير منهم فى كتلة السكان فى الصعيد. ويذكر أن بنى هلال قد وطنوا الديار المصرية منذ أمد بعيد مع بداية الفتح الاسلامى لمصر فى عهد الخلفاء الراشدين (١١- ٤٠هـ) أخذت تتسرب بعض من هذه القبائل من بوادى الحجاز وتتسرب إلى الناحية الشرقية بوادى النيل ولما انتقلت الدولة الفاطمية إلى مصر عام ٣٦٢هـ. ورأت أضرارهم وشغبهم فى هذه المنطقة القريبة من القاهرة تضايقت منهم ونقلتهم إلى الصعيد وأسكنتهم الضفة الشرقية من النيل واشترطت عليهم ألا يعبروا إلى الضفة الغربية وكان هدفهم من ذلك عدم تحركهم غربا للانضمام إلى أعداء الفاطميين فى المغرب من بنى زيرى وزناتة وغيرهم وأقام على هذا المنوال من انتقل من بنى هلال وبنى سليم فى الصعيد الاعلى بمصر .

## بنى هلال والدولة الفاطمية

قلنا انه لما استقر المعز لدين الله الفاطمى وابنه العزيز بالله بحكم مصر نقلوا أشياعهم من عرب بنى هلال وبنى سليم إلى مصر وأنزلوهم العدوة الشرقية من النيل فاستقروا فى صعيد مصر. وعندما نقض المعز بن باديس أمير افريقية والمغرب الاوسط (أنظر الجزء الاول من تلك الدراسة) طاعة الفاطميين وحولها إلى بنى العباس وكانت الخلافات بين الفاطميين وبنى زيرى قد ظهرت حيث بنى زيرى يسيرون فى الطريق نحو الغاء طاعه الفاطميين السياسية والمذهبية واعلان الاستقلال بأمر افريقية .

ففى خلافة المستنصر بالله الفاطمى (٤٢٧- ٤٨٧هـ/ ١٠٣٥- ١٠٩٤م)

تطورت علاقات الدولة الفاطمية فى مصر بالدولة الزيرية فى افريقية والمغرب الاوسط ففى عام ٤٤٣هـ/ ١٠٥١م انفصل المعز بن باديس نهائيا عن الدولة الفاطمية. ورأى الفاطميون الفرصة سانحة لاستغلال قوة بنى هلال الكبيرة فى محاربة دولة بنى زيرى فى القيروان من بلاد المغرب بعد أن أعلن المعز بن باديس انفصاله عن الفاطميين وخلع طاعتهم، لاسيما أن عهد الخليفة المستنصر هذا قد شهد وقوع الحروب بين هذه القبائل العربية الهلالية بعضها وبعض وعم ضررهم وأحرق البلاد والدولة شرورهم كما يقول ابن خلدون وأصبحوا مشكلة كبرى للحكم الفاطمى فى مصر. ومع ان العرب الذين دخلوا مصر واستقروا بها كانت غالبيتهم من بنى سليم الا ان اسم بنى هلال قد غلب عليهم جميعا لانهم كانوا أوغل فى البداوة وأعنف من بنى سليم فى معاملة الناس وانزال الضرر بهم فأصبح الكل ينتسبون إلى بنى هلال بن عامر صعصعه وسموا هلاليين أو هلالية .

بل أن هناك من يشير إلى أن العلاقات توترت فيما يقرب من عام ٤٤٠هـ بين المعز بن باديس صاحب امارة افريقية وبين المستنصر بالله الخليفة الفاطمى بالقاهرة. وهنا يجئ دور وزير الخليفة المستنصر أبو محمد الحسن على اليازورى الذى أشار على خليفته بضرورة اغراء القبائل العربية المقيمة على حدود مصر الشرقية بالوجه القبلى مثل بنى هلال وبنى سليم وعلى حدودها الغربية بالرجه البحرى مثل زغبة ورباح بالسير إلى القيروان وتقدم اليازورى لمشايخهم وطلب منهم أن يتولوا أعمال افريقية نيابة عن الفاطميين ودفعهم إلى محاربة بنى زيرى فاذا انتصروا أصبحوا أعوانا للدولة وعمالا لها بتلك البلاد وان هزموا فانه يكون بذلك قد تخلص من عنصر من عناصر العرب القوية فى مصر دون أن يكلفه أدنى مشقة وكان يريد الانتقام من بنى زيرى فحضر الوزير اليازورى مكين الدولة أبا على الحسن بن على بن سليم من أبناء العقيلى أمير أمراء



الدولة الفاطمية وكان مشهورا ومعروفا بالكياسة وحسن الحديث والرأى وسيره إلى زغبة ورباح من بطون هلال المقيمة بالوجه البحرى فحمل معه الهدايا القيمة والجوائز والهبات السخية لامراء العرب فقضى على ما كان بينهم من خلاف وشجار وعداوة وتحملت الدولة الفاطمية ديات القتلى بين الطرفين فلما تم لليازورى ما قصده من وراء ذلك واتخاذهم وسيلة تنكيل بالمعز بن باديس جزاء ما فعله من اضطهاده وقتله الشيعة وانحرافه السياسى، ووهب للعرب المال ثم أذن لهم بعبور النيل غربا بعد أن كان محرما عليهم وأجازوا النيل فى جموع حاشدة وكان العداء قد استحكم بين المعز بن باديس والوزير الفاطمى اليازورى وبذلك انتقم البازورى من المعز بن باديس فرماه بعرب بنى هلال وبنى سليم وقال لهم الخليفة قد أعطيتهم المغرب وملك بنى باديس بن بلكين الصنهاجى. وكان اليازورى قد أرسل للمعز بن باديس يتهدده، فأغلظ له المعز فى الجواب، وكان الوزير الحسن بن على اليازورى من أهل الفلاحة والتبانة ولم يكن من أهل الوزراء الاكفاء. فكاتبه المعز بن باديس بمالم يخاطب به من قبله فعظم ذلك عليه وعاتبه فلم يرجع المعز إلى ما يجب، فأكثر الوقيعة فى المعز وأغرى به المستنصر فوافقه وكتب اليازورى إلى المعز بن باديس مهددا .

أما بعد فقد أرسلنا اليكم خيولا فحولا وحملنا عليهم رجالا كهولا، ليقضى الله أمرا كان مفعولا. ويذكر ابن عذارى المراكشى فى كتابه البيان المغرب، أن المستنصر أذن للعرب باجتياز النيل بعد أن كان ممنوعا عليهم وأعطى كل مجتاز منهم دينارا واجتاز منهم خلق عظيم من غير أن يأمرهم لعلمه انهم لا يحتاجون إلى وصية وحقق بذلك هدفين فقد تخلص من هذه القبائل التى كانت دائبه على اثارة الشغب والمتاعب فى الاراضى المصرية وانتقم بهم من الزيريين بعد أن كانت الدولة الفاطمية عاجزة عن اتخاذ أى اجراء ضدهم وكان القضاء على دولة بنى زيرى خيرا للدولة الفاطمية فان

استقلال بنى زيرى وتنكرهم للشيعة ومناصرتهم لاهل السنة وعودتهم إلى مذهب الامام مالك كان يؤرق بال الخليفة الفاطمى ورجاله، واذ حدث العكس وقضى بنو زيرى على بنى هلال كان هذا خلاصا من هؤلاء العرب الهلالية دون أن تخسر الدولة أموالا وسلاحا وجندا لم تكن لتقدر عليه فى ظل الظروف والحالة السيئة والشدة المستنصرية فى البلاد ولم يكن الوزير الفاطمى اليازورى يفكر فيما يمكن أن يلحقه بنو هلال من الضرر بأفريقية وأهلها انما كان ما يبتغيه هو رد اعتباره وكرامته والتى أغلظ له فى القول المعز بن باديس وعامله بما لم يعامل به وزيرا سابقا من وزراء الدولة الفاطمية والعمل على ارضاء الخليفة المستنصر بعد أن خلع الدعوة الشيعية الفاطمية الاسماعيلية وتحول للدعوة للخليفة العباسى القائم بأمر الله فى بغداد .

وكان الخليفة الفاطمى قد أقطعهم افريقية والمغرب وأعطاهم ما سماه ملك المعز بن بلكين الصنهاجى العبد الايق فلا تفتقروا بعد ذلك. ولقد كان دافع الفاطميين إلى ارسال هذه الحشود العربية هو خشيتهم من أن يمتد خطر الاستقلال ونبذ طاعة الفاطميين إلى حدود مصر الغربية ومن هنا كانوا قد أعدوا لذلك خطتهم المزدوجة فدفعوا بالقبائل العربية الهلالية بالزحف إلى افريقية والمغرب للتخلص من نفوذهم وسوء معاملتهم وعدم خضوعهم لطاعة الدولة وحركات العصيان والاقتتال فيما بينهم ولمناوأة بنى زيرى من ناحية أخرى وتعكير صفو حياتهم فى المغرب من ناحية ثالثه وبهذه الطريقة يكون الفاطميون قد نجحوا فى أن يستخدموا أسلوبا يمكن أن نسميه بالهجوم الدفاعى .

ومن ناحية أخرى قبل العرب الهلالية ومن سار معهم من قبائل العرب الاخرى دعوة الخلافة الفاطمية بالسير إلى افريقية وبلاد المغرب لانهم باجتيازهم نهر النيل والزحف من البر الغربى باتجاه بلاد المغرب فانهم هم أنفسهم يحققون عدة مكاسب



تعود عليهم بالفوائد الكثيرة والتى كانوا يطمعون فى تحقيقها من وراء ذلك التحرك الواسع والكثيف والواسع الانتشار والذى لم يستغرق فترة طويلة للاعداد له فقد سار على قدم وساق وفى فترة زمنية قصيرة ومن أولى هذه المكاسب انهم عندما يذهبون إلى بلاد جديدة فى المغرب فانهم سوف يكونون أحرار بعيدا عن سلطة الدولة الفاطمية وقيودها عليهم وعدم الخضوع لسلطة تفرض سلطاتها عليهم، كما انهم فى بلاد المغرب سوف يجدون أنفسهم يعيشون فى بيئة تشبه موطنهم الاصلى بالحجاز ومن هنا كان استعدادهم للعبور والانطلاق إلى بلاد المغرب أكثر رغبة من الدولة الفاطمية والا لماذا رضوا بهذا العرض وقابلوه بالترحاب وحاولت السلطة الفاطمية أن تغرى الهلالية فأعطتهم المغرب وملك بنى زيرى وقدمت لهم المعونات ولهذا انطلقت الموجة الاولى متجهة إلى افريقية ويهمنا هنا فى هذا المقام أن نقرر أن هذه الجموع الهلالية لم ترحل كلها إلى بلاد المغرب فقد آثر بعضها البقاء فى مصر والاقامة فى الحوض الشرقى شمالا وبالصعيد الاعلى فى أقصى الجنوب وسكنوا أيضا الصعيد الادنى والاوسط ولعل اختيارهم لمنطقة الصعيد الاعلى يرجع إلى غنى وثروة هذه المنطقة فى ذلك الوقت وهذا دعاهم إلى الاقامة والاستقرار والتطور وان احتفظوا بآثار من الفروسية تبدو فى اجادتهم ركوب الخيل .

# الفصل الثانى

## بنى هلال فى افريقية (المغرب الادنى)

وصل بنو هلال إلى برقة (بنى غازى حاليا) عام ٤٤٣هـ/ ١٠٥١م فوجدوها خالية من السكان بسبب الحروب الطويلة التى كانت بين أهلها من قبائل زناتة الشرقيين وبين قوات المعز بن باديس بن زيرى الصنهاجى (لاحظ هنا أن بنى هلال لم يدمروا مدنا أو يهلكوا حرثا أو يقلعوا زرعا أو يقتلوا نسلا) وكانوا لما وصلوا إلى افريقية قد كتبوا إلى اخوانهم الذين يعيشون فى الصعيد يرغبونهم فى البلاد ويذكرون لهم محاسن تلك الديار فسرعان ما تسرب هؤلاء الاعراب إلى أرض برقة فوجدوها بلادا خالية طيبة المرعى كانت عمارتها قبائل زناتة فأبادهم المعز بن باديس وفروا منها وأقام فيها بنو هلال واستوطنوها كما ذكر ذلك النويرى فى كتابه نهاية الارب. وهنا يدرك القارئ حسن مقصد بنى هلال ودخولهم سلما وعدم اشتراكهم فى قتال .

وهكذا سارت جموع العرب حتى دخلوا برقة وما والاها من بلاد فوجدوها بلادا كثيرة المرعى خالية من الاهل فأقامت العرب بها واستوطنتها وعاشت فى أطراف البلاد وبلغ ذلك المعز فلم يعرهم أدنى اعتبار.

لكن ابن الاثير فى كتابه الكامل يذكر أن العرب دخلت إلى افريقية عام ٤٤٢هـ. وهكذا وصلت هذه الجموع الهلالية إلى ديار المعز بن باديس ومن ثم بدأت تستعد لقتاله تنفيذا لما عاهدوا عليه الخليفة المستنصر بالله الفاطمى ووزيره اليازورى واستقر نفر من بنى سليم فى برقة. ولما طاب لهم المقام ووجدوا ما سمعوا به صدقا وما أقره عليهم الخليفة الفاطمى حقا وتحقق لهم صدق ما وجدوه أرسل بنى هلال إلى اخوانهم يطلبون منهم سرعة القدوم فانطلقت الموجات الاخرى من بنو هلال تجاه



افريقية وسارت القبائل إلى هدفها المنشود تؤازر اخواتها الذين سبقوا فى الغزو نحو برقة. وأقامت فترة من الوقت تستجمع قواها وتحشد عتادها وتنتظر الموجات الاخرى القادمة من الديار المصرية لينطلقوا بعد ذلك إلى افريقية غربا .

وقدر عدد الموجات الاولى من الزحف بحوالى أربعمائة ألف رجل (٤٠٠ ألف) وذلك غير من انضم اليهم من الموجات الاخرى التى استمرت فى المدد والزحف بعد ذلك حتى قدرها الميلى فى كتابه الجزائر أن عدد الموجات العربية التى وطئت ديار المغرب أثر هذه الموجة الهلالية الزاحفة بحوالى مليون نسمة لكن مؤلف كتاب خلاصة تاريخ تونس ذكر أن عدد الموجة الاولى بما فيهم النساء والاطفال تبلغ حوالى أربعمائة ألف نسمة وان هذه القبائل كانت تشكل وحدة واحدة متعاونةأثناء تحركهم قبل المغرب الاسلامى .

وقد استطاع بنو هلال الانتشار فى افريقية والسيطرة على أجزاء كبيرة منها فى زمن قصير وكانت العلاقة بين القبائل العربية المنتقلة إلى افريقية والدولة الفاطمية فى مصر متصلة إلى حد ما، ذلك لان العرب عندما بدأوا صراعهم العسكرى نادوا بشعار الخليفة المستنصر .

وهكذا انطلقت بقية بنى هلال إلى طرابلس وافريقية فاستقروا فيها دون أن يلقوا معاونة (لاحظ هنا ان العرب حتى تحركهم غربا بعد طرابلس لم يذكر عنهم أن دمروا أو أحرقوا أو أبادوا، ومن ثم كلما اتجهوا غربا كانت رسائلهم إلى بقية بنى عمومتهم فى الصعيد تتوالى وتتوالى أيضا الجماعات العربية من بنى هلال وبنى سليم فى اللحاق بالذين سبقوا وخبروا الحال فى افريقية .

وتولى قيادة الجميع يحيى الرباحى شيخ بن رباح أحد فروع بنى هلال وكان زعيما بدويا شجاعا مغمرا وكان له سلطان وسطوة كبيرة على جموع قبيلته ورجالها

مطاعا ومسموعا فيهم، فلما استقر القوم فى طرابلس أصبح هو سيد هذا الاقاليم وصاحب السمع والطاعة والولاء فيه، وانعقدت له الزعامة والسيادة والرياسة على بنى هلال وبنى سليم بعد انتقالهم إلى افريقية وتوغلهم فى أراضى بنى زيرى الصنهاجيين .

واذ كنا قد ذكرنا أن بعض المؤرخين أشار إلى أن عدد الذين دخلوا بلاد المغرب كان يترواح بين أربعين ألف نسمة ومليون نسمة الا أن بعض المصادر الاخرى تذكر أنه يصعب تقدير العدد الاجمالى للزاحفين إلى افريقية لكن مصادر أخرى تقدر أن الكتلة الاولى من المسيرة االهلالية كانت حوالى ٥٠ ألف نسمة ثم تلاحقت بعد ذلك جماعات أخرى على أمد طويل ومن ثم يكون رقم المليون نسمة ليس فيه أدنى مغالاة فى التقدير ويقدر عدد الذين زحفوا فيما بعد إلى بلاد المغرب الاوسط والاقصى منهم بمائة ألف بمن فيهم النساء والاطفال وهكذا ثبت الوجود الهلالى فى أرض المغرب حتى تلك اللحظة من وجودهم فى المساحة الشاسعة من الاراضى المغربية من حدود مصر غربا إلى طرابلس دون أدنى قتال أو اشتباك مع أية قوة ولم تحدث فى البلاد التى دخلوها أو استولوا عليها ما يشير إلى وجود خراب أو دمار .

وكانت رئاسة بنى هلال ومن اجتمع معها من القبائل الاخرى وقت دخول الزحف العربى لافريقيه فى قبيلة الاثيج وانضم اليهم رباح وزغبة وقرة وبنو عدى وربيعة، ثم عدة قبائل أخرى منها فزارة وأشجع وجشم وسلول بن قرة، وعمر بن أسد والمعقل، أما بنو سليم فهم بطوان كثيرة منها هبب، عوف، زعب، ذباب وهكذا كان نزول بنى هلال وسليم إلى المغرب فى أعداد وبطون وقبائل كبيرة وموجات متوالية ومتلاحقة .

ويذكر ابن خلدون أن بنى هلال استقروا فى برقة وخربوا مدنها مثل المدينة الحمراء (برقة) واجدابية واستمر أذاهم إلى طرابلس وفزان وانتهى الامر بأن سادوا معظم



مناطق هذه النواحى واختلطوا بأهلها (وهنا ندرك معنى الاختلاط والامتزاج) وليس البعد والتقوقع، ومن ذلك فقد سارت جموعهم كما يذكر ابن خلدون أيضا (كالجراد المنتشر لايمرون على شئ الا أتوا عليه) .

ويغالى ابن خلدون ويسرف اسرافا شديدا فى التجنى على بنى هلال وقبائلهم وينعتهم بنعوت هم بعيدون عنها كل البعد ووصفهم بأوصاف لم تكن لتقبل عقليا من رجال عاشوا حياتهم بالقرب من المدينة المنورة ومكة المكرمة الارض الاسلامية المقدسة ثم رحلوا إلى مصر حيث جنة الله فى أرضه فى ذلك الوقت، ولم يتصرفون بكل هذه البداوة والقسوة والشدة مع اخوة لهم من بنى جلدتهم وعقيدتهم، ليس التخريب والتدمير طبيعة العربى الذى يرى فى الحضارة والعمران مبهرة له فكيف يدمر انسان شيئا يبهره ويرى فيه الحسن والذوق والجمال. لكن مهما يكن فلنمض مع ابن خلدون واصفا لنا تفاصيل ما أنزله الهلالية فى افريقية والمغرب من خراب ودمار .

ونحن هنا نأخذ الاقوال على علاتها لان ذلك سوف ندققه فى فصل لاحق، ويقول ابن خلدون أن بنى هلال ومن دخل معهم من العرب يختلفون كل الاختلاف عن عرب العصر الاول الخلفاء الراشدين (١١– ٤٠هـ) والتى قامت بالفتوح الاسلامية المجيدة ذلك لان بنى هلال وأشياعهم من القبائل الاخرى لم يكونوا جيوشا نظامية تعمل لهدف أسمى وهو تحرير الانسان من رق العبودية والدخول فى عبادة الله ولم يكن لهم هدف دبنى أو قومى أو معنوى وأضح. ونحن نخالفه هنا لان تحركهم كان يهدف إلى تأسيس ملك لهم على أنقاض سلطان بنى زيرى كما ذكر لهم المستنصر ووزيره البازورى قائلا «لقد وهبت لكم ملك بنى زيرى فى افريقية» اذن كان هدفهم اقامة وطن ودولة والتحرر من سيطرة الدولة الفاطمية وهنا يتغاضى ابن خلدون عما ذكره غيره من المؤرخين (ابن الاثير وابن عذارى المراكشى). حين ملكهم الخليفة

الفاطمى كل ما يفتحوله ووعدهم بالمدد بالاموال واتاحة الفرصة للقبائل ومساعدتها للحاق بهم .

يضيف ابن خلدون أن بنى هلال كانوا بدوا وظلوا طوال تاريخهم بدوا والصفحات اللاحقة فى تلك الدراسة تنفى كل هذه الاقوال عندما نذكر أثرهم فى المغرب، وانهم لم يغيروا من طبعهم البدوى لان طوال اقامتهم فى البوادى (هل كانت السكنى بالقرب من الطائف والمدينة ومكة ونهر النيل فى مصر بوادى) وان الدولة كانت تفرض قوتها عليهم وتمنعهم من كل نطاق حضارى وجعلتهم بدوا، كما انهم يتحركون ويتصرفون جماعيا ويطيعون رئيس القبيلة ولا يعرفون رئيسا غيره، ولا يرون فى العمران الا مجالا للغارة والنهب وهم يغيرون على االمزارع والمنشآت دون أن يقيموا وزنا لاهميتها وقيمتها، بل يسعدون بأن يصيبوا منها ما يقدرون عليه ويعيثون فيها فسادا يقتلعون الابواب ويستعملون أخشابها وقودا للنار ويطلقون قطعانهم فى المزارع تأكل الحاصلات دون تفكير ولا يعتزون الا بشئ واحد هو العصبية فهم يتعصبون لقبائلهم أكثر مما يتعصبون لاى شئ آخر .

هكذا وصم ابن خلدون القبائل العربية الهلالية الاصيلة ذات التاريخ الحضارى المجيد فى المغرب بهذه الاوصاف متناسيا أن الذى ربما يكون قد حدث فى بلاد افريقية والمغرب من جراء الغزوة الهلالية أقل بقليل مما قام به كسيلة والكاهنة من أعمال ضد الوجود الاسلامى وأقل بكثير مما يحدث فى أقل معركة من معارك العصور الوسطى فلما رمى ابن خلدون بنى هلال بكل هذه الرجمات النارية التى اعتمد عليها كتاب الغرب ومن ساروا وراءهم من كتاب العرب غير مدققين أو محللين للاحداث وربط العناصر ليمحص كل هذه التهم .

وقد نزلت منهم بطون كثيرة إلى افريقية والمغرب حيث كان أكبر هذه البطون



(جشم والاثيج وزغبة ورباح وربيعة وعدى والزواودة وبنو قرة) وينقسم الاثيج إلى عدة فروع هم كرفة، دريد، العاصم، مقدم، الضحاك، عياض والعمور، وقد وقعت بين هذه الفروع والابطن مشاكل ومنافسات عند الاستقرار بالمغرب وصلت إلى حد القتال وقد أدت هذه الفتن والحروب فى وقتها المبكر إلى ضعف الاثيج مما أدى إلى سطوة واعتزاز رباح عليهم على الرغم من أن الاثيج كانت لهم الزعامة وقت دخول بنى هلال إلى افريقية والمغرب للسيطرة على ملك بنى زيرى وقتال المعز بن باديس الذى خلع طاعة الفاطميين نهائيا عام ٤٤٠هـ .

ويلاحظ أن العاصم ومقدم والضحاك أبناء لشرف ابن الاثيج وأن لطيفا حفيد له ونلاحظ هنا أن العاصم ومقدم انتقلا إلى المغرب فيما بعد فى عهد المنصور الموحدى، كما انتقلت مجموعة من الضحاك إلى المغرب الاقصى كذلك أوائل عهد الموحدين فى عهد عبد المؤمن بن على، وقبائل العمور لم يتأكد نسبهم إلى هلال ويتكون العمور من فرعين هما قرة وعبد الله .

وثانى بطون هلال رباح ونسبهم ينتهى إلى رباح بن أبى ربيعة بن تهيك بن هلال بن عامر وكانوا أكثر بطون هلال عددا وعزة وقد ورث رباح زعامة هلال بعد أن استطاعوا الفوز بها من الاثيج ويتكون رباح من عدة أفرع هم مرداس ومنهم الزواودة ومن أبناء مرداس داود وهم بنو عسكر ولاد ومحمد ومسعود واولاد سباع بن يحيى ويعتبر الزواودة أشهر فروع رباح وفيهم الرياسة على رباح عامة وكما انضم إلى رباح عدد آخر من البطون مثل سعيد وعلى وعامر ويتفرع من عامر فرع يسمى الاخضر تمكنوا من التغلب على مدينة باجة وملوكها قبل موت تميم بن المعز عام ٥٠١هـ .

ويلاحظ أن الزواودة أشهر فروع رباح الذين نالوا الحظ الاوفر من المصادر والمؤرخين لنشاطهم وزغبة هم البطن الثالث من بنى هلال ويصل نسبهم إلى عبد الله

من أبناء هلال وكان زغبة وقت دخولهم افريقية كثيرى العدد ذوى عزة ومنعة وكانوا يتكون من خمسة فروع، يزيد، حصين، مالك، عامر ومروة، وكان يزيد أكبر فروع زغبة من حيث العدد وينقسم إلى ثلاثة عشر فرعا. ثم حصين، مالك ويشتمل مالك هذا فروعا ثلاثة هى سعيد والملطاف والديالم ويمكن اضافة فرع رابع هو غريب بن حارث وتعتبر سويدا أعظم فروع مالك من حيث العدد والقوة .

أما بنو عامر فيتكون من يعقوب، بنى حمير، بنى شافع وكانت لهم علاقة فيما بعد بالدولة الزيانية ومنهم عروة وهم خامس فروع زغبة وينقسمون إلى فرعين هما النضر وقيس، وبنى قرة وهو البطن الاخير من هلال وهم بطن متسع من الهلاليين لكنهم تفرقوا فى القبائل بأعداد صغيرة وأهم فروع بنى قرة ابن عبد الله وينقسمون إلى ماضى ومحمد .

والجدير بالذكر ان بنى قرة لم يكونوا مشتركين فى زحف بنى هلال عندما انطلقوا من صعيد مصر إلى بلاد المغرب، بل انهم انضموا إلى اخوانهم العرب الهلاليين عندما وصل الزحف الهلالى إلى برقة حيث كانوا يقطنون تلك المناطق منذ أن أقطعها لهم الحاكم بأمر الله الفاطمى .

ونلاحظ أن معظم البطون التى دخلت افريقية كانت من الفرع العدنانى الا بطونا قليلة كانت من الفرع القحطانى وكانت المسيرة الهلالية تتكون من أكثر من موجة .

أما القبائل التى لحقت هلالا وصارت معهم فى القتال وتحت لواء القبيلة فهم قبيلة المعقل وقد اختلفت بنو سليم معهم فى افريقية واضطروا بعد ذلك إلى اللجوء إلى مواطن بنى هلال بالمغرب وهناك زاد عددهم وتغلبوا على صحارى المغرب وقد اجتمع اليهم عدد كبير من قبائل فزازة وأشجع، بل اجتمع اليهم عدد آخر من قبائل عياض



والحصن واجتمع اليهم عدد من سليم، وكان عرب المعقل عامة بعد دخول الهلاليين إلى افريقية والمغرب حلفاء زناتة ثم بنى مرين خاصة، أما من بقى من المعقل فى تلك الديار الشرقية فقد كان قليلا واندرجوا تحت لواء حملة ابن كعب بن سليم .

والمعقل هؤلاء ينسبون أنفسهم إلى (جعفر بن أبى طالب الطبار) لان الطالبيين والهاشميين لم يكونوا أهل بادية ويكون الجعافرة قد انتقلوا إلى افريقية فى أعدادهم القليلة ومن هنا يصح النسب الطالبى للمعقل وينقسم المعقل إلى عدة بطون منهم صغير وهم عبد الله وفرج ومحمد ومنه المختار والرقيطات والثعالبة فرع صغير إلى ثعلب، وثانية القبائل الملحقة ببنى هلال بعد المعقل هى جشم وجشم بن معاوية بن بكر من هوزان وينقسم جشم هوزان إلى عدة بطون هى الخلط، سفيان بنى جابر والخلط ينسبون إلى بنى عامر بن عقيل بن كعب ورحل الخليط إلى مصر مع بنى هلال وبنى سليم بعد تغلب العباسيين على منطقة البحرين حيث كانوا يعيشون شيعة للقرامطة .

وكان لسفيان الرياسة والشوكة على العرب الداخلين للمغرب الاقصى وكان لسفيان دور كبير فى الاحداث التى وقعت فى الدولة الموحدية فى العقد الثالث من القرن التاسع الهجرى .

وأما بنو جابر فهم البطن الثالث من جشم وقد انتقلوا من افريقية إلى المغرب ومن الذين دخلوا مع الزحف الهلالى وانضموا تحت لواء الحركة الهلالية واستظلوا بظل بنى هلال عطفان وقيس وعيلان وربيعة وهوزان وبطون من قطحان ومن عطفان، أشجع، خزارة، فزارة، وبطون قبس بن عيلان هى عدوان وكان معظمهم بالطائف ثم أخرجتهم منها ثقيف إلى تهامه وانتقل عدد كبير منهم إلى افريقية يعيشون مع سليم تارة ومع رباح تارة أخرى ثم بنو عنزة وبنو سلول وطرود .

وكذلك بنو عقبة وهم من جذام وكانوا يقومون بحراسة الحجيج ثم انتقل عدد

كبير منهم إلى افريقية مع بنى هلال فى الزحف التاريخى المشهور وهم يعيشون فى نواحى طرابلس وان كانوا يخضعون لسليم .

هذه بعض تقاسيم البطون الهلالية ومن انضم اليها فى الزحف إلى افريقية أما سليم فقد انقسمت إلى خمسة بطون كبيرة شاركت فى الزحف وهى زغب، عوف، لبيد، ذياب، هبيب ومنها تفرعت بطون أخرى .

وهذه نظرة سريعة وموجزة عن فروع بنى هلال وبنى سليم ومن سار معهم إلى افريقية أردنا من سردها أن نبين للقارئ كيف أن هذه الفروع والبطون والقبائل قد لعبت أدوارا مختلفة على مسرح الاحداث فى بلاد المغرب مع حركة التاريخ وكيف ساهمت بكل جهدها فى تطوير المغرب اقتصاديا واجتماعيا وسكانيا وشخصية وعمرانا وحضاريا وثقافيا وكان لها باع طويل لا ينكر فى كل الاحداث التى جرت طوال تاريخ المغرب الطويل وكيف شاركت منذ منتصف القرن الخامس الهجرى حتى القرن الحادى عشر الهجرى فى كل الاحداث التى تعرض لها المغرب وكانت مشاركتها صورة مشرفة لكل عربى ومغربى، لا كما حاول البعض أن يشوه صورتها بأنها كانت تشترى بالمال، والهبات أو العطايا وان دورها كان عربيا ملتزما بالشهامة والكرم والشجاعة والجود بل أن وجود مليون نسمة فى القرن الخامس الهجرى هو الذى صبغ الحياة بالوجه العربى وحفظ تاريخا سجله أبناء بنى هلال بالدماء الغالبة الذكية وليس بالاموال والاحتواء .

اننا سوف نرى فى هذا العرض كيف أنه لم يمض على دخولهم المغرب عشر سنوات وبالتحديد عام ٤٥٣هـ وكان دخولهم المغرب عام ٤٤٣هـ حتى شاركوا تميم ابن المعز غزواته ووقفوا معه يساندونه ويشدون من أزره وتحالفوا معه وصاهروه وانضموا إلى الجند الزيرى وشاركوا فى حفظ تراث الامة وتولوا المناصب وكان دورهم مشرفا



وليس كما صور ذلك ابن خلدون ومن سار على نهجه ألم تذكر كل كتب التاريخ ابن الاثير، ابن عذارى المراكشى وغيرهم من المؤرخين انهم ساهموا فى بناء دولة بنى زيرى وانهم كانوا سندا وحصنا منذ عام ٤٥٣هـ وانهم لم يدخلوا القيروان التى قامت الدينا من أجلها الا عام ٤٤٩هـ وسوف نتحدث عن ذلك بالتفصيل فى فصول لاحقة من هذه الدراسة .

أن تاريخ المغرب العربى الاسلامى يذكر بالفخر والفخار الزحف الهلالى الواسع النطاق للمغرب تلك الصورة المضيئة الوضاءة فى كل صفحة من صفحات الامجاد والتى قلبت موازين الحياة رأسا على عقب أن الجذور العميقة فى التربة المغربية التى زرعها أبناء بنى هلال ودووها بدمائهم وفضائلهم وصفاتهم الحميدة لابد أن تقابل بالجحود والنكران من الذين تنكروا لكل دور عربى اسلامى ناجح، أن مسيرة بنى هلال مهما تطاول عليها أعداؤهم فستظل خالدة فى نفوس المغاربة الاشداء الشوامخ ذوى البنية العربية الباسلة والعريقة التى لا تلين مهما ذكر ابن خلدون فليته كان حيا ليشهد الدور الناجح والصفحة البيضاء النقية للمسيرة الهلالية .

## صراع بنى هلال مع المعز بن باديس

زحفت بنو هلال إلى طرابلس وقابس وامتلكوها وانساب العرب فى أرض افريقية وطردوا القبائل البربر منها وكانت جموع بنى هلال فى تزايد ولكن المعز لم يكن يتوقع منهم شرا على مملكته بعد أن تجمعت على مشارف افريقية وتمكنت من أخذ طرابلس وما حولها وعدة مدن أخرى ومنها انطلقت إلى داخل البلاد وسيطر بنو سليم على الاجزاء الشرقيه من افريقية وبنو هلال ومن يلحق بهم سيطروا على الاجزاء الغربية من هذا الاقليم وقد استقر بنو سليم فى مواطنهم هذه لم يغادروها إلى داخل المغرب الا فى القليل النادر، أما بنو سليم فلم يكتفوا بالنواحى الشرقية من افريقية بل أغراهم موطنهم

هذا بالامتداد غربا فاتجهوا إلى مناطق يستطيعون فيها فرض نفوذهم على أكبر قدر من الاراضى ومن هنا كان احتكاكهم بالمعز بن باديس .

وفى ذلك يقول ابن عذارى المراكشى وقرب المعز اليه مؤنس وكان المعز كارها لاخوانه من صنهاجة محبا للاستبدال بهم حاقدا عليهم ولم يكن يظهر ذلك لهم ولطف له مكانته مؤنس هذا لديه وكان سيدا فى قومه شجاعا عاقلا، فشاوره المعز فى اتخاذ بنى قومه من رياح وهلال جندا له فأشار عليه مؤنس بأن لا يعقل ذلك وعرفه بأن العرب لا يجتمعون على كلمة وعدم انقيادهم إلى الطاعة، لكن المعز ألح فى استدعاء بنى هلال من طرابلس وحدود افريقية ليستعين بهم على بنى أعمامه الصنهاجيين فى القلعة ولما رفض مؤنس الرباحى قال له المعز (تريد انفرادك حسدا منك لقومك) فعزم مؤنس على الخروج اليهم بعدما قدم العذر وأشهد بعض رجال السلطان ثم رحل متوجها نحوهم فنادى فى القوم وحشدهم ووعدهم ووصف لهم كرامة السلطان والاحسان اليهم، ثم قدم فى ركب منهم لم يعهدوا نعمه ولا طالعوا حاضره فلما انتهوا إلى قرية فنادوا هذه القيروان ونهبوها عن مواردها، فلما ورد الخبر على القيروان عظم الامر على المعز بن باديس وقال انما فعل مؤنس هذا ليصحح قوله ويظهر نصحه فقبض المعز على عياله وختم على داره، فلما بلغ مؤنسا ما فعله باهله وولده اشتدت نكابته وعظم بلاؤه وقال قدمت النصيحة فحاق بى الاذى ونسبت إلى الخطيئة فكان أشد اضرارا من القوم وقد علم بعورات القيروان .

هذا هو خبر اتصال بنى هلال بالمعز بن باديس كما رواها ابن عذارى المراكشى ، ثم يرد قائلا، ان المعز أرسل إلى بنى هلال بعض الفقهاء ومعهم مكاتبات وشروطا ووصايا فأعلموهم أن السلطان قد دفع اليهم عيالهم كأسرة مؤنس الرباحى ومن كان معه وأخذ عليهم العهود والمواثيق على الرجوع للطاعة فقبلوا وأرسلوا شيوخا منهم ثم



انقلبوا على المعز بن باديس وشرعوا بالعبث باقليم القيروان حوالى عام ٤٤٣هـ .

وقد غاب عن فكر المعز بن باديس الذى تصور انه يستطيع الاستعانة بالهلالية على بعض خصومه من الصنهاجيين وتصور انه يستطيع اتخاذهم جندا له ليستغنى عن الكتاميين والعبيد وغيرهم ولهذا كان ترحيبه بمؤنس بن يحيى الرباحى ودعاه إلى الوفود عليه بقومه فكان فى ذلك كالمستجير من الرمضاء بالنار، ذلك أن مؤنسا وقومه عندما دخلوا افريقية أفزعوا المعز بن باديس فزعا شديدا اذ رآهم يخربون ويحرقون وينسفون المزارع دون أدنى تفكير فسارع إلى القبض على مؤنس الرباحى، وكان يقيم فى القيروان وطلب اليه أن يخرج وقومه من بلاده ولكن الاوان كان قد فات. لقد دخل بنو هلال بلاد افريقية ونشبوا أظافرهم فيها ولن يستطيع هو أو قومه انقاذها منهم .

وفى هذه الأثناء استكثر المعز من العبيد حتى بلغ عددهم لديه نحو ثلاثين ألف جندى مملوك منهم ليدفع بهم هجمات بنى هلال، وكان هؤلاء قد أخذت قبائل من رباح والاثيج وبنى عدى وغيرهم يزحفون إلى أعمال القيروان ويقطعون السبل ويعيشون فى الاراضى فسادا، وأرادوا أن يتقدموا لمحاصرة القيروان فقال مؤنس الغاضب على المعز، ليست المبادرة عندى برأى فقالوا كيف تحب أن تصنع، فأخذ بساطا فبسطه ثم قال لهم من يدخل إلى وسط البساط من غير أن يمشى عليه قالوا لا نقدر على ذلك قال: فهكذا تأخذ القيروان، حذو شيئا فشيئا حتى لايبقى الا القيروان فخذوها فحينئذ قالوا انك لشيخ العرب وأميرها هذا ما رواه ابن الاثير عن مقدمات الصراع بين بنى هلال والمعز بن باديس وهكذا كانت خطة مؤنس بن يحيى الرباحى فى الاستيلاء على مدن افريقية وقراها واحدة بعد الاخرى حتى اذ لم يبق الا القيروان فانهم يستطيعون التقدم اليها وأخذها وبذلك يسهل أمرها ويتمكنون من الاستيلاء عليها .

وهكذا كان على المعز بن باديس أن يواجه هذا الخطر بعد أن فشلت محاولته فى

ضمهم لخدمته وبعد أن ساءت أحوال أقاليم القيروان بمضايقات بنى هلال وافسادهم للمزارع والثمار ومحاصرة الاطراف وانقطعت أسفار المسافرين وقلت الحركة خوفا من غارات الاعراب واضطر المعز أن يفكر فى مدافعة هؤلاء الاعراب واحتفل فى ذلك ايما احتفال فى حشد القوات والعتاد والزاد والزواد فجمع نحو ثلاثين ألف فارس ومثلها من الجند الراجل وفى رواية ابن عذارى ثمانين ألفا وقد يكون فى العددين مبالغة شديدة واستنجد المعز بجده حماد بن بلكين (عم أبيه باديس) صاحب القلعة فأمده بألف فارس من الرجال وكذلك استصرخ زناتة فأقبل عليه زعيمها المستنصر بن خزرون فى ألف فارس من القبيلة وجمع هو جنده ومن انضم اليه من غرب افريقية القدامى ( عرب الفتح) .

كان العرب الهلالية فى بداية نزولهم افريقية قد بدأوا علاقتهم ببنى زيرى بداية طيبة واتصل بعض من رؤسائهم بالمعز بن باديس وأظهروا له لونا من المهادنة انخدع بها المعز وفطن أن أمر هذه القبائل الوافدة سهل ميسور وانه سرعان ما يسعى لضمها ويؤثر فيها وانها سرعان ما تنتهى علاقتها بالسلطة الفاطمية فى مصر .

وأسرع المعز يكلف بعض رؤوساء العرب بالاعمال ويتصل ببعض منهم بالاصهار ولم يدرك خطورة أثرهم على ملكه، لكن العرب الهلالية لم يكونوا غافلين عن المهمة التى جاءوا من مصر لاجلها فأخذوا يتطلعون إلى معرفة أسرار المعز العسكرية حتى اكتشفوا الأمور جيدا. ومن ثم بدأوا يقومون بالدور الذى أرسلتهم الخلافة الفاطمية فى مصر من أجله وجاهر العرب بالخلاف بعد حوالى عام من اقامتهم بافريقية ونادى العرب بشعار الخليفة الفاطمى المستنصر واستمرت المناوشات بين الفريقين، ثم صعد العرب نشاطهم العسكرى بعد فترة. وبدأوا يتطلعون إلى قاعدة السلطان والحياة بل قاعدة افريقية (القيروان) مما سهل عليهم أخذ بقية النواحى وساروا على نهج أن تأخذ



افريقية من أطرافها جزءا بعد جزء حتى لا تبقى الا قاعدة الاقليم فيتم أخذها بسهولة وتم الاتفاق على الرأى الثانى وهو رأى يدل على براعة عسكرية فهم اعتمدوا على سياسة النفس الطويل وأخذ القليل قطعة قطعة وفيها تستولى القوات المهاجرة على المناطق المطلوب السيطرة عليها على دفعات وليس دفعة واحدة ونفذ العرب خطتهم وصعدوا من درجة الصراع العسكرى ولما أحس المعز بن باديس انه لا رجعة لهذه القبائل، لجأ إلى وسيلة الحرب فاستعد استعدادا عسكريا كبيرا لمواجهة تقدم العرب وجمع جندا كبيرا وترك المنصورية ومنها اتجه إلى ناحية حيدران حيث تجمع العرب على مسيرة ثلاثة أيام من القيروان وعزم على القتال وانتهى إلى جبل حيدران ويقع بينه وبين القيروان مسيرة نحو خمسين ميلا وكانت عدته ثلاثين ألف رجل وعدة العرب ثلاثة آلاف فارس وعند ابن عذارى ان عدة العرب كانت ثلاثين ألف وهو رقم أقرب إلى الصواب فالقوات متقاربة من حيث العدد .

ودارت الحرب وكانت معركة شديدة بين الفريقين واشتد القتال ووصل إلى حد الضراوة والشراسة ويقول ابن عزارى المراكشى فى كتابة البيان المغرب، لما كان ثانى يوم عيد الاضحى كانت الداهية العظمى والمصيبة الكبرى وذلك ان السلطان المعز عيد يوم الاثنين ومشى صباح هذا اليوم إلى ناحية قرية تعرف ببنى هلال، فلما كان نصف النهار اتته الاخبار أن القوم قد قربوا منها بأجمعهم فأمر بالنزول فى أوعار وأوديه فلم يتم النزول بالقوات والعدد والعتاد ولم يتم انشاء المعسكر بل كانت القوات فى طريقها إلى مكان غير حيدران واستغل العرب حالة الارتباك وانهماك الجند فى خط الرحال وحمل العرب الهلالية عليهم حملة رجل واحد فانهزم جند المعز. وصبر المعز صبرا عظيما إلى أن وصلت رماح العرب اليه ومات من العبيد حوله وبين يديه خلق عظيم قدوة بأنفسهم، وأما بنو زيرى وجميع صنهاجة وزناتة وغيرهم من القبائل العربية وغيرها

فانهم تركوا ميدان المعركة والمعز يقاتل وعبيده وانتصر العرب وحاقت الهزيمة بالمعز على الرغم من كثرة جيوشه وقلة أعدائه وكان من نتيجة هذا الانتصار الذى احرزه العرب أن انتهب العرب مضارب المعز ودخل العرب الهلالية معسكر المعز فحازوه وفيه من الذهب والفضة والامتعة والاثاث واللوازم الاخرى مالا يعد ولا يحصى وكان فيه من الاخبية ما يتجاوز عشرة آلاف ومن الجمال خمسة عشر ألفا ومن البغال ما لا يحصيه قول، وهلك أكثر جند المعز وهلك الجبل المعروف بحيدران فافترقوا فيه .

وهكذا انتهت المعركة بين اهل افريقية يتزعمهم المعز بن باديس والعرب الهلالية فى حيدران قرب قابس فى ذى الحجة ٤٤٣هـ/ ابريل ١٠٥١م. وكان المتوقع أن ينتصر المعز نظرا لضخامة جيشه وجودة سلاحه وكثرة خيله وعتاده وكانت غالبية الهلالية فى هذه المعركة من بنى رياح وعدى من بطون الهلالية ولكن انفصال من كان معه من الجند (فيما عدا العبيد) والقبائل أضعف صفوفه وجر علية وبال الهزيمة فقضى الهلاليون على معظم جيشه وتراجع المعز وكان أهل القيروان يتتبعون نتائج هذه المعركة وجاءهم الفارون بخبر الهزيمة فحزنوا كثيرا ثم لحق السكان وفلول جيشه المهزوم بالقيروان وكان قد تراجع اليها وتحصن بها وأقبل العرب يحاصرونه فيها وهكذا تمكن العرب من احراز أول انتصار لهم على جيوش ابن باديس .

وقال ابن الاثير فى الكامل أن العرب الهلالية لما رأت عساكر صنهاجة والعبيد مع المعز هالهم ذلك وعظم عليهم فقال لهم مؤنس الرباحى. هذا يوم فرار فقالوا أين نطعن هؤلاء، وقد لبسوا الكذاغندات وهو نوع من السلاح حماية للجسم، والمغافر فقال مؤنس فى أعينهم فسمى ذلك اليوم (يوم العيون) والتحم القتال واشتدت الحرب فاتفقت صنهاجة على الهزيمة وترك المعز مع عبيده حتى يرى فعلهم ويقتل أكثرهم فعند ذلك يرجعون على العرب فانهزمت صنهاجة وثبت العبيد مع المعز فكثر القتل



فيهم، قتل منهم خلق كثير. وارادت صنهاجة الرجوع على العرب فلم يمكنهم ذلك واستمرت الهزيمة وقتل من صنهاجة أمة عظيمة ودخل المعز القيروان مهزوما على كثرة من معه وأخذت العرب الخيل والخيام وما فيها من مال وغيره .

وتعتبر معركة حيدران أول صدام عسكرى بين الفريقين وانها جعلت المعز يحس بالخطورة الحقيقية للقبائل العربية الوافدة وقد أقلقت نتائج المعركة وما تبعها من أحداث أهل افريقية وشجع ذلك العرب انهم انتصروا فى معركة وظهر العرب بهذه النتيجة الباهرة فى صورة القوى وتجرأ العرب بعد حيدران ونازلوا أهل افريقية ولاسيما القيروان

ولما كان لم يمض ثلاثة شهور على المعركة جمع المعز سبعة وعشرين ألف فارس وسار بهم إلى العرب (المقصود بعد المعركة) وكان خبره قد وصلهم وهجم عليهم وهم فى خيامهم وركب العرب خيولهم وحملوا على جيوشه فهزموها وقتلوا من الصنهاجيين كثيرا. ثم جمع المعز جمعا آخر من صنهاجة وزناتة وخرج اليهم بنفسه ولما أشرف على مضارب العرب ناشبهم القتال فانهزمت جيوشه من صنهاجة وزناتة وثبت المعز فيمن معه من عبيده ثباتا عظيما، ثم انهزم وعاد إلى المنصورية وأحصى من قتل من صنهاجة فى هذا اليوم فبلغ ثلاثة آلاف وزيادة، وتجرا العرب بعد ذلك على الزحف إلى القيروان، وساروا اليها ونازلتهم جيوش المعز فانهزمت ، وامتدت أيدى الهلالية إلى المنصورية ورقادة وقتلوا فيها عددا كبيرا من الناس وتفوق جند المعز وأصبح الناس لا حامى لهم. ويذكر ابن عذارى المركشى، أن عبيد المعز وعسكر صنهاجة لما دخلوا مدينة صبرة أساءوا استخدام مبانيها وضربوا عمائرها العظيمة (وليس العرب الهلالية الذين خربوا المدن والعمائر. جند المعز وأهله) وأقام العرب على باب تونس بالقيروان محاصرين لها وخرج الناس من باب تونس ودارت معركة استخدم فيها العرب

السيوف في رقاب الناس وماتت منهم أعداد كبيرة .

وازاء هذا الخطر الذى يحيط بالقيروان استعد المعز لقتالهم فأعاد ترتيب جيوشه وعاد إلى القيروان يرتب شئونها وخرج اليهم المعز بنفسه فانهزم بعد قتال عنيف ثبت فيه المعز ثم عاد إلى المنصورية فاقتتلت العرب حتى نزلت على القيروان ودفعت الحرب الناس إلى الهرب حتى قتل من رقادة والمنصورية خلق كثير. وقد اضطر المعز ازاء ذلك إلى بناء سور جديد أمام كل من القيروان وزويلة وتحصن هو وجنده فى المنصورية وفكر المعز فى الانتقام من العرب الهلالية الوافدين وانتهز فرصة عيد الاضحى وهجم على العرب وهم فى صلاة العيد لكن العرب امتصوا الصدمة وهزموا بنى زيرى، كما لقى المعز هزيمة أخرى على الرغم من أجناده واستعانته بزناتة إلى جانب قواته من صنهاجة وأحاط العرب بالقيروان من كل جانب ولجأ المعز إلى سلاح المهادنة، لانه لما رأى نتائج كل هذه المعارك فقد أباح للعرب الهلالية أن يدخلوا القيروان للبيع والشراء (حركة تبادل تجارى) ودخلوا فاستطالت عليهم العامة ووقعت بينهم حروب وفى عام ٤٤٤هـ/ ١٠٥٢م بنى المعز سور زويلة والقيروان تحصنا من العرب، وفى عام ٤٤٦هـ حاصرت العرب القيروان وملك زعيمها مؤنس بن يحيى الرباحى مدينة باجة. وكانت اباحة دخول القيروان يقصد منها افامة لون من ألوان التعاون الاقتصادى وذلك لكى يتم التخفيف من آثار الصدمة العسكرية لكن العرب لم يلبثوا أن قاموا ببعض المناوشات ضد أهل القيروان وفقد المعز قدرته على حماية الاهالى بعد أن نقض العرب الصلح وحاصرت القيروان وهدموا الحصون وضيقوا الخناق على سكان القيروان .

وفى هذه الاثناء أخذ المعز يشير على رعاياه بالانتقال إلى المهدية لعجزه عن حمايتهم من عدوان العرب الهلالية وأخذ هؤلاء يهدمون القصور والقلاع والحصون ويقطعون الثمار ويخربون الانهار كما يقول ذلك ابن خلدون وابن الاثير وأقام المعز



بالقيروان والناس ينتقلون إلى المهدية بعد أن كان بعض من قوات المعز قد سار اليها نظرا لان ابنه تميما كان يتولى حكم المهدية من قبل أبيه المعز، واضطر المعز فى النهاية أن يلحق بالمهدية ويقيم فيها مع ابنه تميم وجعلها حاضرة ملكه الجديد وخرج معظم سكان القيروان الا القليل النادر إلى المهدية وخرج هو من المنصورية إلى المهدية عام ٤٤٩/١٠٥٧م، بعد أن ترك المعز وأهل القيروان المدينة وتركوها خاوية بعد أن حملوا ما خف وزنه وغلا ثمنه ولم يتركوها الا خاوية على عروشها ودخلها العرب واستولوا على ما كان قد بقى فى قصور بنى زيرى والتى كان المعز قد حمل كل ما فيهاولم يجدوا الا بقايا خيام قديمة وبعض الآلات القتالية التى علاها الصدأ ولم تصلح للاستعمال والاسلحة القديمة التى لا يمكن استخدامها وخضع من بقى فى تلك المدينة لسيطرة العرب لا حكمهم لان المعز قد عين عليها واليا من قبله قبل تركها وتفرق بعض من أهلها فى الامصار .

ولنا هنا وقفة نقول فيها ان ابن خلدون قد تجنى على العرب، وسار على نهجة الكتاب والمؤرخون المعاصرون وفى ذلك يقول الدكتور حسين مؤنس. ان المعز حاول جاهدا أن يصدهم عن المدينة، بل ذهب إلى حد أن صاهر ثلاثة من أمراء بنى هلال ولكن دون جدوى وأخيرا اضطر إلى الانسحاب بجنده وعتاده وذخائره وأمواله وكل ما يملكه فى القيروان إلى المهدية وهى القلعة التى كان الفاطميون قد بنوها على الساحل فى طرف لسان بارز فى البحر المتوسط إلى الشمال من سوسة، وفى رمضان ٤٤٩هـ/ ١٠٥٧م دخل الهلاليون القيروان وخربوها تماما كما خربوا قبل ذلك كل ما مروا به من مدن طرابلس وافريقية وجعلوها حطاما وقتلوا من أهلها عددا كبيرا وتفرق الباقون فعم الخراب (أقوال حسين مؤنس) .

ويذكر بعض المؤرخين انهم لما أخذوا القيروان أرسلوا إلى الخليفة المستنصر

السيوف فى رقاب الناس وماتت منهم أعداد كبيرة .

وازاء هذا الخطر الذى يحيط بالقيروان استعد المعز لقتالهم فأعاد ترتيب جيوشه وعاد إلى القيروان يرتب شئونها وخرج اليهم المعز بنفسه فانهزم بعد قتال عنيف ثبت فيه المعز ثم عاد إلى المنصورية فاقتتلت العرب حتى نزلت على القيروان ودفعت الحرب الناس إلى الهرب حتى قتل من رقادة والمنصورية خلق كثير. وقد اضطر المعز ازاء ذلك إلى بناء سور جديد أمام كل من القيروان وزويلة وتحصن هو وجنده فى المنصورية وفكر المعز فى الانتقام من العرب الهلالية الوافدين وانتهز فرصة عيد الاضحى وهجم على العرب وهم فى صلاة العيد لكن العرب امتصوا الصدمة وهزموا بنى زيرى، كما لقى المعز هزيمة أخرى على الرغم من أجناده واستعانته بزناتة إلى جانب قواته من صنهاجة وأحاط العرب بالقيروان من كل جانب ولجأ المعز إلى سلاح المهادنة، لانه لما رأى نتائج كل هذه المعارك فقد أباح للعرب الهلالية أن يدخلوا القيروان للبيع والشراء (حركة تبادل تجارى) ودخلوا فاستطالت عليهم العامة ووقعت بينهم حروب وفى عام ٤٤٤هـ/ ١٠٥٢م بنى المعز سور زويلة والقيروان تحصنا من العرب، وفى عام ٤٤٦هـ حاصرت العرب القيروان وملك زعيمها مؤنس بن يحيى الرباحى مدينة باجة. وكانت اباحة دخول القيروان يقصد منها اقامة لون من ألوان التعاون الاقتصادى وذلك لكى يتم التخفيف من آثار الصدمة العسكرية لكن العرب لم يلبثوا أن قاموا ببعض المناوشات ضد أهل القيروان وفقد المعز قدرته على حماية الاهالى بعد أن نقض العرب الصلح وحاصرت القيروان وهدموا الحصون وضيقوا الخناق على سكان القيروان .

وفى هذه الاثناء أخذ المعز يشير على رعاياه بالانتقال إلى المهدية لعجزه عن حمايتهم من عدوان العرب الهلالية وأخذ هؤلاء يهدمون القصور والقلاع والحصون ويقطعون الثمار ويخربون الانهار كما يقول ذلك ابن خلدون وابن الاثير وأقام المعز



بالقيروان والناس ينتقلون إلى المهدية بعد أن كان بعض من قوات المعز قد سار اليها نظرا لان ابنه تميما كان يتولى حكم المهدية من قبل أبيه المعز، واضطر المعز فى النهاية أن يلحق بالمهدية ويقيم فيها مع ابنه تميم وجعلها حاضرة ملكه الجديد وخرج معظم سكان القيروان الا القليل النادر إلى المهدية وخرج هو من المنصورية إلى المهدية عام ٤٤٩/١٠٥٧م، بعد أن ترك المعز وأهل القيروان المدينة وتركوها خاوية بعد أن حملوا ما خف وزنه وغلا ثمنه ولم يتركوها الا خاوية على عروشها ودخلها العرب واستولوا على ما كان قد بقى فى قصور بنى زيرى والتى كان المعز قد حمل كل ما فيهاولم يجدوا الا بقايا خيام قديمة وبعض الآلات القتالية التى علاها الصدأ ولم تصلح للاستعمال والاسلحة القديمة التى لا يمكن استخدامها وخضع من بقى فى تلك المدينة لسيطرة العرب لا حكمهم لان المعز قد عين عليها واليا من قبله قبل تركها وتفرق بعض من أهلها فى الامصار .

ولنا هنا وقفة نقول فيها ان ابن خلدون قد تجنى على العرب، وسار على نهجة الكتاب والمؤرخون المعاصرون وفى ذلك يقول الدكتور حسين مؤنس. ان المعز حاول جاهدا أن يصدهم عن المدينة، بل ذهب إلى حد أن صاهر ثلاثة من أمراء بنى هلال ولكن دون جدوى وأخيرا اضطر إلى الانسحاب بجنده وعتاده وذخائره وأمواله وكل ما يملكه فى القيروان إلى المهدية وهى القلعة التى كان الفاطميون قد بنوها على الساحل فى طرف لسان بارز فى البحر المتوسط إلى الشمال من سوسة، وفى رمضان ٤٤٩هـ/ ١٠٥٧م دخل الهلاليون القيروان وخربوها تماما كما خربوا قبل ذلك كل ما مروا به من مدن طرابلس وافريقية وجعلوها حطاما وقتلوا من أهلها عددا كبيرا وتفرق الباقون فعم الخراب (أقوال حسين مؤنس) .

ويذكر بعض المؤرخين انهم لما أخذوا القيروان أرسلوا إلى الخليفة المستنصر

بالقاهرة بعضا مما غنموه من نفاش قصور بنى زيرى ومعه الهدايا القيمة .

وهكذا انتهى أمر المعز من القيروان بهزيمة المعز واستيلاء العرب الهلالية عليها وتخريبها .

وقد كان ظهور بنى هلال فى افريقية والمغرب فى وقت كانت الاحوال السياسية تمهد لنجاحهم وتوفيقهم، ذلك لان القبائل الافريقية البربرية صاحبه الدولة (بنى زيرى) والامر والنهى فى البلاد كانت قد أغرقت فى الترف واستمرأت نعيم الحياة المرفهة والحضارة وفقدت روحها العسكرية والقتالية ومقوتها الحربية واستعانت بالعبيد السودان ليكونوا أقوام جيشها ولم يكن من المعقول أن تصمد أمام هذه القبائل العربية البدوية الميالة إلى القوة والنزاعة إلى العنف والقتال، كما ان امارة بنى زيرى التونسية قد انقسمت على نفسها بنى زيرى فى القيروان وبنى حماد فى القلعة ولم تستطع أن توحد صفوفها وتجمع كلمتها فى هذا الوقت العصيب لذلك انتصر العرب الهلاليون وهزمت الدولة الزيرية هزيمة ساحقة .

ولقد كان ذلك بداية الانحدار فى تاريخ الثقافة العربية الاسلامية فى افريقية على يد هؤلاء العرب الهلاليين وكانت هذه الهزيمة عظيمة الاثر فى تاريخ المغرب، ذلك لان عرب بنى هلال عرب القرن الخامس الهجرى كانوا يختلفون عن عرب القرن الاول أصحاب الرسالة الخالدة والدعوة والاصلاح، كان عرب عرب الهلالية فى منتصف القرن الخامس الهجرى يغلب عليهم العنف والشراسة والميل للقتال والتمرد على السلطة السياسية وعدم الخضوع لاى سلطان سياسى. فما كادوا ينتصرون فى حيدران عام ٤٤٣هـ ويدخلون القيروان حتى عاثوا فسادا، أفسدوا المزارع واقتلعوا أشجار الزيتون ونهبوا المدن وأحرقوها وأفسدوا الحقول المحيطة بها وحاصروا مدينة القيروان حاضرة الثقافة وكعبة الحضارة فدخلوها عنوة وأعملوا فيها الدمار والخراب ثم أخذوا يزحفون



غربا يهددون مدن افريقية والمغرب (أقوال دكتور حسن محمود نقلا عن مارسى Mar-cais) وكيف تأثر تأثيرا بالغا بأقوال الغربيين ولم يحاول أن ينقدها ويرد عليها ويبطل ما يقال عن كل ما هو عربى والصاق التهم بهذه الغزوة الهلالية (سنرد على ذلك فى فصل مستقل فى تلك الدراسة) .

ويتمادى الدكتور حسن محمود فى القول فيذكر أن بعض الباحثين يشبه الغزوة الهلالية بغارات الجرمان على الدولة الرومانية فى القرنين الخامس والسادس الميلادى وهذا التشابه فى النتائج التى ترتبت على كلا الغارتين قوض الهلاليون صرح الامارة التونسية وأنشأوا امارات عربية صغرى يقاتل بعضها بعضا وتحيل البلادإلى أتون ملتهب من الاضطراب والفوضى ومن حيث أثر هؤلاء الاعراب الفاتحين فى حضارة البلاد. وفقد رأينا كيف ان ازدهار الثقافة العربية فى البلاد كان يستمد وجوده من عنصرين هامين هما الاستقرار والطمأنينة السياسة والاقتصادية ثم من الرخاء والترف وثراء الامراء واغداقهم على أهل العلم والادب والفكر والعلوم وتشجيعهم على المضى فى طريق الابداع والابتكار والتأليف والبحث وقد انهار العنصران عدم الاسقرار السياسى والاقصادى والاجتماعى وتفرق شمل البلاد ونكبت افريقية نكبة اقتصادية كانت بعيدة الاثر فى تاريخها السياسى والاقتصادى والاجتماعى (أقوال تعتمد على مصادر غربية وابن خلدون) .

فقد أصبحت القيروان ومدن افريقية خرابا تلتهمها النيران وتحصد أهلها سيوف السفاحين من الغزاة وفجع العلماء فى أمنهم واستقرارهم فخرجوا يبحثون عن ملاذ لهم من هذه الفتنة ولم يكن أمامهم الا المغرب الاقصى فى ذلك الوقت فقد استقرت أموره السياسية .

بل ان بعض أهل افريقية من المشتغلين بالعلم لجأ إلى صقلية، وكانت لهذه

الاحداث نتيجة واضحة كل الوضوح فى احتلال افريقية (تونس) ثقافيا ومن الغريب أن افريقية لم تفق من هذه الصدمة التى ظلت آثارها ماثلة فى البلاد طيلة العصور الوسطى وفى مطلع العصر الحديث (أقوال مؤرخين محدثين) .

وكأن الاحداث قد اصطلحت على أن تنال من افريقية ومن ثقافتها العربية إلى حد بعيد (كذب هذه الادعاءات) تونس الحالية زهرة العلم والثقافة العربية واللسان العربى البليغ الفصيح .

وأصبح هؤلاء الاعراب فى البلاد قوة لا يمكن التغلب عليها والدمار الذى خلفوه فى الحياة الاقتصادية لم يمكن اصلاحه والسبب فى ذلك أن جروح البلاد من الهلالية كانت لاتزال دامية وكانت موجات عظيمة من هؤلاء البدو تتدفق باستمرار على البلاد ويشهد بذلك الرحالة والجغرافيون الذين زاروا البلاد فى ذلك العصر والذين يذكرون انه لم يبق من مدن افريقية المأهولة الا الدمار والخراب (الزيارة بعد احتلال النورمان لهذه البلاد وتحررها على أيدى الموحدين عام ٥٥٥هـ) وهكذا كانت الغزوة الهلالية لبلاد المغرب الادنى وانتصارها على المعز بن باديس والسيطرة على القيروان عام ٤٤٩هـ/ ١٠٥٧م حدثا من الاحداث الهامة فى القرن الخامس الهجرى، بل انها تركت بصماتها القوية على مدى قرون طويلة فى حركة تاريخها الحضارى والسياسى والثقافى والاجتماعى فقد غيرت من مجرى الاحداث بجميع أطرها المختلفة وكانت الغزوة الهلالية عامل خير وفلاح واصلاح وليس عامل خراب وتدمير كما صورها ابن خلدون والتقط منه هذا الخيط كتاب (الغرب) فأعطوا الموضوع جانب السلبية ولم يذكروا الجانب الايجابى المضئ .



# الفصل الثالث

## ماذا بعد القيروان

بعد انتقال المعز بن باديس إلى المهدية، أصيبت دولة بنى زيرى بالانهيار وزاحمها الاعراب فى كل مكان وأخذت كل قبيلة منهم تنشئ امارة صغيرة لها فى جهة من جهات افريقية وعندما تولى تميم بن المعز حكم البلاد عام ٤٥٤هـ كان قد ورث حملا ثقيلا فقد انفرط عقد الدولة أواخر أيام المعز وخرجت قابس، سوسة، تونس، قفصة وجربة، وصفاقس وغيرها من المدن وتغلب العرب عليه فلم يكن له الا المهدية، لكن تميما قابل كل هذه الحركات الاستقلالية وسيطرة العرب على المدن بكل حزم وشدة وجهز الجيوش واستطاع استردادها وسار على نهجه من جاء بعده من حكام المهدية وطرد تميم كل حكام العرب من هذه المدن .

وان كان العرب قد اقتسموا فيما بينهم بلاد افريقية فاستقرت زغبه ورباح فى برقة وطرابلس، كما استقر بنو هلال وسليم فى منطقة تونس وما يليها غربا فكان لسليم الشرق ولهلال الغرب، وانحصر سلطان الدولة الزيرية المحدود جدا فى المنطقة الساحلية المحيطة بعاصمتهم المهدية، واذ كانت الدولة الزيرية الصنهاجية قد استمرت بعد ذلك ما يقرب من مائة عام فالفضل يرجع إلى مهادنتها للقبائل العربية سرا عن طريق ادماجهم فى الجيش وبذل العطايا والهبات والاقطاعيات لهم وتزوجهم من بنات العرب وتزويج بناتهم الامراء العرب أو تقربا منهم ونجح تميم بن المعز فى استعادة بعض المدن نهائيا كما تمكنوا أن يعيدوا بعضها لفترة وبعض المدن كانت نزاعا بين بنى زيرى والعرب وبنى حماد .

وكان العرب قد انقسموا أيام تميم بن المعز (٤٥٣- ٥٠١هـ/ ١٠٦٢- ١١٠٧م) إلى قسمين قسم وقف مع بنى زيرى وقسم وقف ضدهم وساعد مناوئيهم من بنى حماد، وقد رقفت رباح وزغبة فى صف بنى زيرى وكانت الانقسامات سببا فى عوامل الضعف السياسى والاقتصادى، ولقد كانت عوامل الضعف والانقسام والتفكك سائدة وبصورة واضحة قبل قدوم العرب، فالصراع بين بنى زيرى وبنى حماد وانفصال بنى حماد بالقلعة والصراع بين صنهاجة وزناتة وانفصال بنى براغوطى فى صفاقس، لكن كل هذه المشاكل والتبعيات ألقيت على كاهل العرب وتحمل العرب وحدهم تبعة هذه الانقسامات بحكم يتصف بالقسوة والجور والتعنت، وهل كان قدوم العرب وراء كل هذه الصراعات المشار اليها وهل تدخل العرب الهلالية فى تعميق مفهوم الانقسام فى المغرب الاسلامى، ثم ماذا كان سيحدث لو لم يدخل العرب افريقية، ألم تكن طرابلس فى قبضة زناتة وخربها المعز بن باديس قبل قدوم العرب، ألم يكن بنو حماد يحكمون المغرب الاوسط قبل قدوم العرب، ألم يكن المغرب الاقصى يخضع لصراع طويل بين قبائل زناتة وكتامة وصنهاجة والمصامدة وألم يكن يخضع للنفوذ الاموى فى الاندلس، ان تاريخ المغرب ماهو الا سلسلة من الضعف والانفصال والتفكك، ألم يكن المغرب مقسما قبل قدوم بنى هلال .

نعم لقد أقام العرب بعض الولايات العربية فى افريقية وانفردوا بحكمها الا انهم لم يصلوا بعد إلى اقامة كيان سياسى واحد .

نعم خضعت طرابلس لسيطرة بنى خزرون وانفصلت سوسة وتونس خضعت لحكم بنى خراسان وانفصلت تميم وقابس وصفاقس وجربة وقلعة افلبية وغيرها لكن هل حكم العرب كل هذه المقاطعات ؟



نعم لقد كون العرب امارات عربية هلالية استمرت مدة طويلة ولم ينته دورها الا بدخول الموحدين إلى افريقية وسادت بعض الاضطرابات الاقتصادية كنتيجة مباشرة لاثر الحرب وتلك ظاهرة فى كل العصور اذ أن الاضطرابات الاقتصادية والسياسية لابد أن تحدث من أثر القتال والدمار والقتل والخراب الذى يصيب الدول من جراء هذه الغزوات، بل ان كل ما حدث فى افريقية كان سيحدث بل كان سيكون أكثر ضراوة لو لم يدخل العرب افريقية، ثم انه متى انتهى الصراع بين زناتة وصنهاجة أن النظام القبلى الذى كان يسود المغرب الاسلامى وعدم تمكن العقيدة الاسلامية تمكنا عميقا فى النفوس وبقايا الوثنية كانت تسوده .

ولقد حفظ بنو هلال لبنى زيرى دولتهم من الضياع والانهيار أمام الغزو الحمادى عام ٤٥٧هـ بذلك فقد اتجه العرب إلى المغرب الاوسط فى أوائل النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى بعد استيلاءهم على القيروان بفترة بسيطة .

وقد دخل العرب الهلالية الجزائر من ثلاثه جهات من جهة الساحل والهضاب والصحراء ومن خلال هذه المداخل الثلاث انتشروا فى نواحى متعددة من المغرب الاوسط مثل عنابة وقسنطينة وجنوب الاوراس والزاب حتى وصلوا إلى جبل راش ولم ينتشر العرب فى المغرب الاوسط بالطريقة التى انتشروا بها فى المغرب الادنى بل كانوا أكثر ميلا إلى الهدوء والمسالمة (أين التخريب والتدمير يا ابن خلدون) ولقد وقف الهلالية موقف الشرف والبطولة والتضحية والشهامة مع سلطان البلاد الجديد تميم بن المعز بعد أن أحسن معاملتهم وذلك فى صد الهجوم الحمادى فى موقعة سبيبة عام ٤٥٧هـ عندما حاول الناصر بن علناش الحمادى التعدى على أملاك بنى زيرى فى افريقية ومحاصرة المهدية لاسقاط الحكم بها فقد استعان تميم بن المعز بعرب من سليم ومن رباح وزغبة من بنى هلال وقبل أن يحكم الناصر الحمادى حصارة للاستيلاء

على المهدية فان العرب التابعين لتميم تمكنوا من الاتصال باخوانهم الذين كانوا يسكنون المغرب الاوسط مثل عدى والاثيج واتفقوا معهم على المحافظة على كيان بنى زيرى الذين يعيشون معهم فى دولتهم ودارت المعركة وانهزم الناصر الحمادى وقتل عدد كبير من جيشه وأخذ العرب المغانم بعد أن تنازل عنها تميم بن المعز لهم .

وكانت سياسة الاحتواء التى اتبعها تميم بن المعز سببا فى سيادة الامن والامان فى عهده مع العرب وكان عدد هذه القبائل كبيرا جدا بحيث يذكر ابن الاثير أن بطن رباح وحدها كانت قرب القيروان فى زهاء ثمانين ألف بيت وهى من القبائل التى وقفت مع تميم بن المعز وقد سيطرت بنو هلال وسليم على المنطقة الواقعة من الاسكندرية شرقا إلى مشارف قلعة بنى حماد فحالت حصانة كثير من مدن بنى حماد والسياسة التى اتبعوها بالتحالف مع العرب الهلالية دون سقوط دولتهم. ولقد تعاونت زناتة مع العرب الهلالية ومن ذلك نجد قبائل نوحين يكونون حلفا مع بنى عدى، كما دخلت مغراوة وغمرة فى حلف مع الاثيج وأقطع الحماديون بعض العرب اقطاعات كثيرة مثلما فعلوا مع الاثيج وزغبة فى الزاب وغيرها .

وقد استعصت الجبال الشاهقة على العرب الهلالية، لكنهم بسطوا نفوذهم على السهول وبسائط المدن الجبلية فاستقرت العرب الغازية فى الساحل التونسى وبلاد الجريد وبسائط تل الاطلس الشرقى بين قسنطينة والتل وفى باجة وميلة وباغانى ومجانة ويلاحظ أن بنى سليم قد سكنوا فيما يقرب من الساحل بينما عمر بنو هلال المناطق الداخلية .

ويذكر المؤرخون المعادون للعرب فى أقوالهم أن سكان افريقية جأروا بالشكوى من تملك العرب للديار لاسيما بعد أن خرب العرب القيروان واضطر بنو زيرى لاتخاذ



المهدية عاصمة جديدة لهم وعاثت القبائل العربية الغازية فى المنطقة الشرقية من البلاد خرابا ودمارا فتعطلت الزراعة وكسدت التجارة ومما ضاعف من مشكلة الا من أن النزاع لم يكن بين أهالى البلاد الشرقية والعرب فحسب بل كان بين العرب أنفسهم ولم تستطيع المدن الحصينة والساحلية الحفاظ على وجودها على الرغم من ظهور زعامات محلية مثل بنى خراسان فى تونس، كما أن النورمان عملوا على الاحتفاظ بما احتلوا من مدن الساحل ذلك لان العرب كانوا دائما يغيرون عليهم وينصبون الكمائن لقواتهم للايقاع بها ومحاولة طردهم لانهم كانوا يرون فى ذلك عدوانا على الديار والدين، وشيدت بعض المدن أسوارا عالية حفظا لوجودها .

ولقد سيطر تميم بن المعز على معظم البلاد فظل تميم فى المهدية وما جاورها من بلاد وخضعت صفاقس وقابس وجربة وغيرها لسلطانه، أما بعض النواحى الاخرى فقد تقاسمها العرب الهلاليون لبعض الوقت وكذلك خضعت بعض المدن لزعماء زناتة وصنهاجة وانقسمت البلاد إلى اقطاعيات صغيرة وضاعت وحدتها، وكان العرب لما وصلوا إلى المغرب الاوسط قد تغيرت نفسيتهم وسلوكهم فقد كان عدد الداخلين إلى المغرب الاوسط أقل منه فى المغرب الادنى وكان حكام المغرب أكثر حرصا ودرايه فى معاملة هذه القبائل مما قلل من خسائر المغرب الاوسط. ولقد نجح العرب فى المهمة التى أرسلوا اليها نجاحا كبيرا فقد استطاعوا الانتصار على بنى زيرى وأخذوا منهم بعض المدن وثبتوا أقدامهم على أرض المغرب بحيث لم تنجح أية قوة فى البلاد فى اعادتهم من حيث جاءوا، بل انهم كونوا بعض الامارات الا انهم لم يتمكنوا من القضاء على الدولة الزيرية أو العمل على اعادتها إلى طاعة الفاطميين بعد أن تمكنوا من الانتصار فى افريقية والانتشار فى المغرب الاوسط الا انهم لم يصلوا إلى المغرب الاقصى ولم يدخلوا أرضه الا حين استقدمهم الموحدون فيما بعد. كذلك فان الحضارة الاسلامية

قد تسربت غربا وبدأت تتألق بعد أن سيطر الهلاليون على تراث القيروان فظهرت أهمية مدن المغرب الاقصى كفاس واغمات وسبتة وغيرها .

وقد تمكنت القبائل الهلالية بفضل الحضارة الاسلامية العربية والتى أصابت منها بعض الشئ وبفضل هذا التنوع فى الحياة الاجتماعية وهذه الرابطة الاسرية الوثيقة من أن تكتب لنفسها فى المغرب تاريخا مجيدا فقد استطاعت هذه القبائل بعد تحالفها مع بنى زيرى وبنى حماد وزناتة أن ترفع لواء الاسلام والعروبة فى صحراء المغرب وسواحله وأن تعمل على حمل لواء الاسلام واحياء الدين فى كل بقاع رحل ووصل فيها بنى هلال وبنى سليم، لكن رغم ما قامت به من نشر الاسلام وما أصاب افريقية على يديها وانتهاء القيروان كحاضرة سياسية وثقافية للمغرب وأصيبت دولة بنى زيرى بنكسة خطيرة وليس اسقاط نظام حكمها، الا أن هذه القبائل لم تنجح فى اقامة دولة واحدة قوية تأخذ من الحضارة الاسلامية بالسهم الوافر والعطاء المتواصل، كذلك فان قبائل زناتة تتحمل الوزر الاكبر فى تاريخ المغرب بما عرفت من هذا اللون فى الحياة غير المستقرة فلم نؤسس دولة ناجحة مستقره فى القرن الخامس الهجرى بل عرفوا بالجفوة والغلظة والشدة وكراهية الاستقرار (اذن فلم ينسب كل شئ للعرب الهلالية) وكانت ذات طابع بدوى معروف واذن فهى تشارك بنو هلال فيما أصاب المغرب. بل ان الولايات والامارات التى أقامتها زناتة فى ظل الظروف السائدة فى المغرب تفوق عددا عن التى أقامها العرب الهلالية فلم يتحمل العرب ما قيل انه حدث من خراب أصاب افريقية على يديها، ألم يكن بنو خزرون وبنو مغاوة وبنو يقرن قبائل بربرية زناتية أم كانوا قبائل عربية يا أعداء العرب والعروبة؟ ألم تكن قبائل المغرب متفرقة الكلمة مبعثرة السلطان حتى قدر لها أن تتحد فيما بعد القرن الخامس الهجرى وهل دخل الهلالية افريقية الا فى منتصف القرن الخامس الهجرى .



لقد كانت القبائل الهلالية دافعا لان يستعيد المغرب والبربر الملثمون وحدتهم ويشدوا مكانتهم نحو أهداف سياسية. كان العرب الهلالية عامل وحدة فتوحدت البربر فى ظل دولة المرابطين والموحدين، ألم تكن زناتة تكره الاستقرار وتمثل أكبر عقبة فى سبيل اقامة نوع من الحكومة المنظمة فهم فى هذه الناحية أكثر تشبها بعرب بنى هلال الذين قوضوا بناء الدولة الزيرية الصنهاجية وأخفقوا فى اقامة نوع من الوحدة بل أقاموا امارات متنازعة متنافرة ولم يستطع الهلاليون اذن أن يوجدوا نوعا من الوحدة بين سكان السهول أهل الاستقرار والبدو أصحاب المناطق الوعرة انما أفلحوا فى اقامة امارات تتسم بالعنف والقسوة وهذا عكس ما حدث فى افريقية فى عهد بنى زيرى الذين أفلحوا فى اقامة نوع من التعاون الوثيق بين السهول والهضاب ومكنوا للحضارة الاسلامية أن تؤتى ثمارها ويرعرع نباتها، فلما أغار العرب الهلالية على هذه البلاد انقلبت الحياة الاقتصادية رأسا على عقب وشاع الاضطراب فى الحياة الاقتصادية فى افريقية ونقصت التجارة بين افريقية وبلاد السودان وكان من نتيجة ذلك أن اشتد الغلاء فى البلاد وانقطعت الموارد وكثر الخوف وتبدل الرخاء بالشدة فاتصل الجوع والغلاء وانعدمت الاقوات بعد أن قوضوا صرح الدولة الزيرية Delachapelle (أقوال غربية المؤرخ وبدأوا يطرقون أبواب المغرب الاوسط ويهددون دولة بنى حماد لان هذه البلاد اذ ذاك كانت قد تمزقت وحدتها (بنى زيرى– بنى حماد) وأصيبت صنهاجة بسبب غزو بنى هلال بأضرار جسيمة بل ان كاتبا غربيا آخر (مارى ميخائيل، المكتبة الصقلية) يحمل العرب وزر سقوط صقلية فيقول ان ظهور النورمان فى جنوب ايطاليا قد دفعهم إلى التشوق إلى السيطرة على صقلية وانتهاز فرصة انشغال بنى زيرى فى ذلك الوقت بما دهاهم من غارات العرب الهلاليين وبدأوا ينتزعون مدن صقلية من أيدى المسلمين ولم يجد الصقليون دولة اسلامية قوية تغيثهم من هذه المحنة الشديدة فتم للنورمان الاستيلاء على صقلية نهائيا عام ٤٨٤هـ .

قد تسربت غربا وبدأت تتألق بعد أن سيطر الهلاليون على تراث القيروان فظهرت أهمية مدن المغرب الاقصى كفاس واغمات وسبتة وغيرها .

وقد تمكنت القبائل الهلالية بفضل الحضارة الاسلامية العربية والتى أصابت منها بعض الشئ وبفضل هذا التنوع فى الحياة الاجتماعية وهذه الرابطة الاسرية الوثيقة من أن تكتب لنفسها فى المغرب تاريخا مجيدا فقد استطاعت هذه القبائل بعد تحالفها مع بنى زيرى وبنى حماد وزناتة أن ترفع لواء الاسلام والعروبة فى صحراء المغرب وسواحله وأن تعمل على حمل لواء الاسلام واحياء الدين فى كل بقاع رحل ووصل فيها بنى هلال وبنى سليم، لكن رغم ما قامت به من نشر الاسلام وما أصاب افريقية على يديها وانتهاء القيروان كحاضرة سياسية وثقافية للمغرب وأصيبت دولة بنى زيرى بنكسة خطيرة وليس اسقاط نظام حكمها، الا أن هذه القبائل لم تنجح فى اقامة دولة واحدة قوية تأخذ من الحضارة الاسلامية بالسهم الوافر والعطاء المتواصل، كذلك فان قبائل زناتة تتحمل الوزر الاكبر فى تاريخ المغرب بما عرفت من هذا اللون فى الحياة غير المستقرة فلم تؤسس دولة ناجحة مستقره فى القرن الخامس الهجرى بل عرفوا بالجفوة والغلظة والشدة وكراهية الاستقرار (اذن فلم ينسب كل شئ للعرب الهلالية) وكانت ذات طابع بدوى معروف واذن فهى تشارك بنو هلال فيما أصاب المغرب. بل ان الولايات والامارات التى أقامتها زناتة فى ظل الظروف السائدة فى المغرب تفوق عددا عن التى أقامها العرب الهلالية فلم يتحمل العرب ما قيل انه حدث من خراب أصاب افريقية على يديها، ألم يكن بنو خزرون وبنو مغاوة وبنو يقرن قبائل بربرية زناتية أم كانوا قبائل عربية يا أعداء العرب والعروبة؟ ألم تكن قبائل المغرب متفرقة الكلمة مبعثرة السلطان حتى قدر لها أن تتحد فيما بعد القرن الخامس الهجرى وهل دخل الهلالية افريقية الا فى منتصف القرن الخامس الهجرى .



لقد كانت القبائل الهلالية دافعا لان يستعيد المغرب والبربر الملثمون وحدتهم ويشدوا مكانتهم نحو أهداف سياسية. كان العرب الهلالية عامل وحدة فتوحدت البربر فى ظل دولة المرابطين والموحدين، ألم تكن زناتة تكره الاستقرار وتمثل أكبر عقبة فى سبيل اقامة نوع من الحكومة المنظمة فهم فى هذه الناحية أكثر تشبها بعرب بنى هلال الذين قوضوا بناء الدولة الزيرية الصنهاجية وأخفقوا فى اقامة نوع من الوحدة بل أقاموا امارات متنازعة متنافرة ولم يستطع الهلاليون اذن أن يوجدوا نوعا من الوحدة بين سكان السهول أهل الاستقرار والبدو أصحاب المناطق الوعرة انما أفلحوا فى اقامة امارات تتسم بالعنف والقسوة وهذا عكس ما حدث فى افريقية فى عهد بنى زيرى الذين أفلحوا فى اقامة نوع من التعاون الوثيق بين السهول والهضاب ومكنوا للحضارة الاسلامية أن تؤتى ثمارها ويرعرع نباتها، فلما أغار العرب الهلالية على هذه البلاد انقلبت الحياة الاقتصادية رأسا على عقب وشاع الاضطراب فى الحياة الاقتصادية فى افريقية ونقصت التجارة بين افريقية وبلاد السودان وكان من نتيجة ذلك أن اشتد الغلاء فى البلاد وانقطعت الموارد وكثر الخوف وتبدل الرخاء بالشدة فاتصل الجوع والغلاء وانعدمت الاقوات بعد أن قوضوا صرح الدولة الزيرية Delachapelle (أقوال غربية المؤرخ وبدأوا يطرقون أبواب المغرب الاوسط ويهددون دولة بنى حماد لان هذه البلاد اذ ذاك كانت قد تمزقت وحدتها (بنى زيرى– بنى حماد) وأصيبت صنهاجة بسبب غزو بنى هلال بأضرار جسيمة بل ان كاتبا غربيا آخر (مارى ميخائيل، المكتبة الصقلية) يحمل العرب وزر سقوط صقلية فيقول ان ظهور النورمان فى جنوب ايطاليا قد دفعهم إلى التشوق إلى السيطرة على صقلية وانتهاز فرصة انشغال بنى زيرى فى ذلك الوقت بما دهاهم من غارات العرب الهلاليين وبدأوا ينتزعون مدن صقلية من أيدى المسلمين ولم يجد الصقليون دولة اسلامية قوية تغيثهم من هذه المحنة الشديدة فتم للنورمان الاستيلاء على صقلية نهائيا عام ٤٨٤هـ .

ويواصل كتاب الغرب تجنيهم على عرب بنى هلال ومن ذلك ما ذكره مارسيه Marcais فى كتابه العرب والبربر منذ القرن الحادى عشر حتى الرابع عشر الميلادى ص ١١٦ قوله (لقد غزا عرب بنى هلال افريقية وخربوا القيروان ونالوا من الحضارة (دون ذكر اسلامية) وقوضوا ملك بنى زيرى ثم طرقوا أبواب المغرب الاوسط وهددوا الدولة الحمادية وكان من الممكن أن يتجاوزوا المغرب الاوسط إلى المغرب الاقصى فيمثلون فيه نفس الدور ويعيثون فيه فسادا، كما عاثوا فى افريقية من قبل لولا قيام دولة المرابطين وبسط نفوذها على المغرب الاوسط ووصلتها حامية قوية فى تلمسان استطاعت أن تجنب المغرب الاقصى شر بنى هلال، وقد أدى كفاح المرابطين من أجل السيادة على المغرب الاوسط وعملهم عل مدافعة بنى هلال إلى اصطدامهم ببنى حماد أصحاب القلعة لان بنى حماد لم ينظروا إلى توسع المرابطين فى المغرب الاوسط نظرة الارتياح والرضا، فاستعانوا بعرب بنى هلال وأغاروا على المغرب الاوسط لانتزاعه من المرابطين (لاحظ دور العرب فى الدفاع والمسالمة والالتحام مع حكام وسكان البلاد التى يعيشون فيها ولم تكن علاقتهم علاقات تنافر لما اتحدوا وتعاونوا مع بنى حماد ضد المرابطين لانهم كانوا يرون أن أوطانهم فى ذلك الوقت هى المغرب الادنى والاوسط ومن ثم لابد من المشاركة فى الدفاع عن حدود الدول التى يقطنون فيها .

ويذكر ابن الاثير فى الكامل ان بنى زيرى نظرا لوجود بنى هلال رغم الجهود التى بذلها تميم بن المعز وابنه يحيى فقد أخفقوا فى تأمين الطرق البرية وكان بنو حماد أصحاب القلعة فى وضع تجارى أفضل من بنى زيرى لما صالحوا العرب الهلالية عليه فى نصف غلة بلادهم Mastatrie كتاب غربى فرسى يتحدث عن عرب بنى هلال فى افريقية فى العصور الوسطى ويضيف فرية من فريات الغرب ضد بنى هلال هل من المعقول أن تتازل الدولة عن نصف خراجها لبنى هلال؟ : بل يضيف كاتب آخر أن



العرب الهلالية قد عاشوا فى الاراضى الزراعية وفى الملكيات الخاصة عباث النار فى يبس العرفج وكثر استقلال أرض الآخرين ظلما .

وهكذا كانت افريقية والمغرب الاوسط فى صراع متواصل مع عرب بنى هلال وبنى سليم حتى ظهر المرابطون فى القرن الخامس إلى منتصف القرن السادس الهجرى، تاركين النصف الشرقى من بلاد المغرب لاخوانهم من بنى زيرى وبنى حماد الصنهاجيين ومنافسيهم من القبائل العربية الهلالية الزاحفة وعلى هذا يمكن القول انه بعد أن تمكن عرب بنى هلال من زعزعة ملك بنى زيرى بافريقية وهددوا ملك الحماديين فقد تطلعوا إلى المغرب الاوسط لكن قيام دولة المرابطين وحاميتها القوية المستقرة فى تلمسان جنب المغرب الاقصى إلى حين مصير افريقية وشر القبائل العربية (أقوال Marcais ) .

لكن الغزوة الهلالية قد تركت آثارها على النواحى السياسية فى المغرب الادنى والاوسط شرق الجزائر، فلقد كان من النتائج السياسية للغزوة الهلالية لهذه الديار أن تمكن بعض هؤلاء العرب من زيادة سيطرتهم على هذا الاقليم واخضاع بعض الاراضى والمدن كما سبق القول وتحويلها إلى شكل سياسى وصل إلى حد اقامة الامارة وتكوين أسرة حاكمة وظهرت عدة امارات عربية فى افريقية (المغرب الادنى) وقد اختلفت هذه الامارات العربية فى وجودها من حيث اقترابها من الشكل المتعارف عليه للدولة ونجحوا فى تنمية هذه الامارات العربية وفى تشييد العمران وضرب السكة باسم أميرها واتخاذ حواضر صغيرة لهم مزدهرة بالقصور والبساتين والعمارة .

بل انه كما سبق القول أن الزحف الهلالى قد قدم خدمة جليلة وكبرى للمغرب الاسلامى وحفظ وجوده من استمرار النزاع والصراع القبلى فقد أضعف هذا الزحف

الهلالى وجموع قوى قبائل زناتة التى كانت تحاول اثارة المشاكل والصراعات وبسط سيادتها بالعنف والقوة وتخريب المدن والاغارة المستمرة على الدول المستقرة بصورة متواصلة، ثم ان الهلاليين انتشروا فى كل ناحية من نواحى البلاد الممتدة حتى المغرب الاقصى وسكنوا السهول والوديان والجبال وقمم التلال والسواحل وبسطوا لواء العروبة فى شتى أنحاء المغرب وأقاموا لهم الدويلات الصغيرة (الامارات) .





# الفصل الرابع

## الامارات العربية

كان من أثر الزحف الهلالى إلى افريقية وتحرك بنى زيرى للقيروان حاضرة ملكهم وتمكن العرب من بعض المدن أن ظهرت عدة امارات عربيه مارست دورها فى الحياة التونسية ومن أشهر هذه الامارات التى لعبت دورا بارزا فى الحياة السياسية امارة بنى جامع الهلالية فى قابس فقد تمكن بنو جامع من احكام سيطرتهم على المدينة وحكموها حكما وراثيا وأنشأوا الاساطيل وظهرت لهم انجازات حضارية .

**امارة قابس وبنى جامع :**

تقع قابس على بعد ثلاثة أميال من البحر وهى على بعد مسيرة أربعة أيام من القيروان ويسكنها أخلاط من العرب والعجم والبربر وقد حافظ العرب الهلاليون على جمال المدينة وحسنوها وزادوا فيها (البكرى) وهذه شهادة على حضارة العرب وتعميرهم المدن وليس تخريبها، وقد كانت قابس فى زمن حكم الفاطميين تحت حكم بنى نعمان الكتاميين (نسبة إلى قبيلة كتامة البربرية) فلما وصل الفاطميون إلى مصر زالت سيطرة كتامة على المدينة وأصبح الولاء من بنى زيرى الصنهاجية وظلت قابس حتى أوائل النصف الثانى من القرن الخامس فى حوزة بنى زيرى. وكان ولاة المدينة يعينون من قبل المعز بن باديس وحدث نوع من الاهمال فى شئون القيادة العسكرية مما اضطر المعز إلى عزل أحد قواد جيشه وأخيه من رتبتهما وحبسهما وكان أخوهما الثالث هو والى قابس فأعلن حاكم المدينة الطاعة والولاء للامير العربى (مؤنس بن يحيى الرباحى الهلالى) وظلت قابس عربية يحكمها مؤنس بن يحيى الرباحى .

وكانت امارة صغيرة تحكمها أسرة جامع بنى دهمان من بنى على احدى بطون

رباح التى أقامت امارتها ونجحت فى جعلها حاضرة صغيرة مزدهرة مليئة بالقصور والبساتين والعمائر ففى عهد رافع بن مكى بن كامل بن جامع الهلالى تم اختطاط بحر العروسين. وقد ذكر التيجانى أن أهل قابس ينسبون بناء بحر العروسين لرشيد بن رافع بن جامع وقد أضاف التيجانى انه رأى على بعض أبواب القصر نقشا على الحجر نصه (أمر بعمل هذا الباب الامير الشهم رافع بن أمير الامراء مكى وفى بعض المصادر بكر بن كامل بن جامع فى رجب عام ٥٠٠هـ والمعز بن باديس ترك القيروان عام ٤٤٩هـ) والعرب يعمرون المدن عام ٥٠٠هـ فلماذا التجنى على العرب بالتخريب والتدمير، بل ان ابن خلدون يؤيد رواية التيجانى معتمدا على وجود هذا النقش حتى أيامه .

وضربت باسم أميرها الرشيد السكة (العملة) الرشيدية وقد أتاح لها موقعها الجغرافى فى أن تتمتع بمميزات المدينة البحرية والصحراوية فى آن واحد. مما سمح لبنى جامع ببناء السفن وانشاء علاقات تجارية بحرية مع جيرانهم. وقد عملت الدولة الزيرية بالحاح للقضاء على هذا النشاط التجارى نظرا لاحتكارها للتجارة الخارجية وبناء الاسطول التجارى البحرى .

ولكن هذه الامارة كانت محل هجوم بنى زيرى للاستيلاء عليها فقد حاول تميم بن المعز استردادها عام ٤٧٤هـ ولكنه فشل فعاود الهجوم عليها مرة ثانية عام ٤٧٩هـ وكانت المحاولة الثانية كالسابقة وكان أهل قابس قد ولوا عليهم عمر بن المعز بن باديس شقيق تميم وكانت ولاية العهد التى أخذها المعز لابنه تميم قد جعلت عمر بن المعز هذا يثور على أخيه ويستقل بأمر قابس وصفاقس ودخل مع تميم فى حروب كثيرة وشجع الثوار العرب على قتال الدولة. وهذا جعل تميما يعمل على الاستيلاء على قابس وقد نجح فى ذلك عام ٤٨٩هـ واستردها من أخيه عمر، لكن قابس عادت إلى



طاعة العرب مرة أخرى فحكمها مكى بن كامل بن جامع وبنوه من رباح بنى هلال واستمرت فى قبضتهم إلى أن استولى عليها الموحدون بل ان مكى بن جامع لم يكتف بحكم قابس بل قام بمهاجمة المهدية عاصمة بنى زيرى وحاول أخذها من تميم وتولى رافع بن مكى حكم المدينة بعد أبيه وذلك فى زمن تميم بن المعز وتمت المصالحة بين يحيى بن تميم ومكى الهلالى وظل الصلح ساريا حتى تولى أمور بنى زيرى السلطان على بن يحيى بن تميم وأراد ايقاف خطر رافع الهلالى والحد من تطور قوته، فأرسل على بن يحيى بن تميم الصنهاجى فى عام ٥١١هـ/ ١١٢٧م أسطوله لقطع الطريق على سفن بنى جامع التجارية والاستيلاء عليها فى البحر وهى عائدة من تجارتها مع صقلية وبلاد جنوب ايطاليا، وفى نفس الوقت أرسل أحد أمراء العرب وهو خليفة بن ميمون بن زياد الصخرى لحصار رافع بن مكى والقضاء عليه فى امارته لكن ابن زياد نجح فى التوفيق بين رافع وبنى زيرى واستمرت امارة بنى جامع فى قابس حتى دخول الموحدين افريقية .

لكن عليا بن يحيى بن تميم كان قد نجح فى تحطيم أسطول رافع. وكادت هذه الحادثة البحرية تؤدى إلى صدام بين أسطول بنى زيرى وأسطول صقلية حيث ان الاسطول الزيرى هاجم الاسطول الصقلى الموجود فى مياه قابس ودمره (التيجانى) وبعد انتصاره على أسطول صقلية عام ٥١١هـ حاصر قابس بحرا فاضطر رافع إلى ترك المدينة ولجأ إلى القيروان وكانت تحت سيطرة العرب، واتفق أبناء عمومته على تولية حكم القيروان، لكن بعد عودة على بن يحيى إلى المهدية لمحاولة السيطرة على قابس من جديد تمكن على بن يحيى من مطاردة رافع إلى القيروان حيث لجأ رافع إلى أبناء عمومته الذين ساعدوه وقدم بنو دهمان المساعدة لرافع. وبادر السلطان على بن يحيى ابن تميم بمحاصرة القيروان مما أجبر رافع إلى التسلل منها لبيلا واللجوء إلى قابس،

لكن فى النهاية تم الصلح بين رافع والسلطان على ولم يعد رافع لحكم المدينة لكن تولى حكمها حمزة عم رافع عام ٥١١هـ. ويبدو ان بنى جامع الهلاليين كانوا يخضعون للتبعية الحقيقية لبنى زيرى فيما عدا بعض الفترات كانوا يستقلون استقلالا تاما. وقد ظهرت مقاومات الاسرة الحاكمة لبنى جامع فى قابس وأصبح لهم وزراء ومستشارون وجيش وأسطول وسكة وانجازات معمارية وثقافية وظل العرب الهلاليون يحكمون قابس منذ عام ٤٧٤هـ حتى ٥٥٥هـ عندما أخذ الموحدون قابس ومما يؤخذ على رافع بن مكى انه راسل (روجار الثانى) حاكم صقلية يسأله المساندة البحرية والاعانة على السلطان على بن يحيى الذى منعه من أكمال أسطوله التجارى، ووعده روجار الثانى بأن ينصره على السلطان على بن يحيى وجاء الاسطول الصقلى إلى ميناء قابس، لكن أسطول السلطان الزيرى باغت أسطول روجار الثانى الذى لاذ بالفرار بعد أن قتل المسلمون جماعة كبيرة من جند صقلية. ولقد كان انتصار على بن يحيى من أشد الاسباب فى العداوة بين روجار وعلى بن يحيى وابنه الحسن بن على .

بل انه يذكر انه فى زمن حكم الحسن بن على وفى عام ٥٤٢هـ/ ١١٤٧م اغتصب الحكم فى قابس أحد الافراد من غيرة أسرة بنى جامع فاستنجد أميرها معمر بن رشيد من أسرة بنى جامع بالامير الحسن الزيرى بينما استنجد مغتصب الحكم بالنورمان فى صقلية وقام السلطان الحسن باحتلال قابس واعدام مغتصب الحكم مما أتاح الفرصة لروجار الثانى لخرق صلحه مع الامير الحسن واحتل أسطول نورمانى بقيادة جورج ميخائيل الانطاكى مدينة المهدية عام ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م .

**بعض الامارات العربية الصغيرة :**

يذكر ابن خلدون فى كتابه العبر أن العرب من بنى الورد اللخمبون تمكنوا من اقامة امارة عربية بمدينة بنزرت تمتعت بحماية جيرانهم من عرب بنى مقدم من الاثبج



ودهمان من رباح وقد نجح أمراؤها فى تنمية موارد المدينة وتشييد العمران بها حتى قصدهم الشعراء لمدحهم وفى نفس الوقت عمل أمراء بنى حماد بالقلعة على القضاء عليهم ولكنهم تمكنوا من المقاومة والاحتفاظ بحكم بنزرت بفضل معاونة أبناء عمومتهم من عرب دهمان (جامع فرع من دهمان) حتى دخول الموحدين إلى افريقية واستمرت امارتهم تخضع لحكم الموحدين .

وكذلك أقام بنو هلال من عرب قيس امارة عربية شملت وادى مجردة وشمال تونس واتخذوا طبرقة عاصمة صغيرة لهم وأقاموا بها الحصون للسيطرة على التجارة بين الاندلس وامارتهم نظرا لاهمية موقع طبرقة البحرى والتى كانت مرسى لاهل الاندلس اليها ينتهون ومنها إلى الاندلس يبحرون بتجارتهم وقد اشتهرت طبرقة بكثرة ورود المراكب بالتجار الاندلسيين ونزولهم فيها ونافسهم فى السيطرة على هذه الامارة عرب لخم الذى تمكن بمساعدة عرب رباح من السيطرة على وادى مجردة شمال تونس والاستقلال به مما اضطر بنى هلال إلى التحالف مع جيرانهم من عرب بنى غفوش للمحافظة على كيانهم والقضاء على عرب اللخميين وقد أدى ذلك إلى اضعاف امارة بنى هلال .

وقد تمكن عرب سهل تونس من قطع الطريق على تجارتها والاغارة على مدينة تونس وفرض حمايتهم عليها واستقرار بعضهم بها حيث صاهروا أهلها واندمجوا بالمدينة.

كذلك فان العرب الهلالية سيطروا على مدينة سوسة لبعض الوقت وتقع سوسة على سفح جبل على جنوب شرقى تونس وتمتاز بكثرة خيراتها وكانت سوسة قد خرجت على حكم بنى زيرى عام ٤٤٥هـ بعد معركة حيدران الا أن تميم بن تميم بن المعز استطاع اعادتها للحكم الزيرى واخضاعها لسيطرة الدولة بعد أن كان قد

تكون بها مجلس شورى يحكمها. وبعد عشر سنوات من الاستقلال أعيدت فى عام ٤٥٥هـ ويبدو أن العرب قد تمكنوا من سوسة بعد هذا التاريخ، ذلك ان التيجانى يقول ان العرب الهلالية ملكوها وانتزعوها من أيدى صنهاجة لكنه لم يحدد التاريخ الذى أخضع فيه العرب سوسة لحكمهم، لكن مالك بن علوى أحد أمراء العرب حاول عام ٤٨٢هـ اخضاع سوسة لكن تميم بن المعز صده عنها وطرده منها وهرب إلى الصحراء. لكن بعد وفاة تميم عام ٥٠١هـ تمكن العرب الهلالية من اخضاع المدينة وظلوا يحكمونها إلى أن سقطت فى أيدى نصارى صقلية بعد أن سقطت المهدية عاصمة بنى زيرى وسائر مدن الساحل فى أيديهم وظلت كذلك إلى أن قدم الموحدون حيث رحل شيوخها إلى عبد المؤمن بن على امام الموحدين وطلبوا منه دخول المدينة واخضاعها وأعطوه عهدا بالولاء والطاعة .

ويذكر الادريسى أن العرب من لخم قد أسسوا امارة عربية فى رقطون من اقليم زغوان وكان قد أسسها حماد بن خليفة وظل أبناؤه يتوارثونها من بعده واشتهرت بالخصب وتربية المواشى والاغنام والابقار واستمرت بفضل حماية العرب لها إلى فتح الموحدين افريقية فقضوا على استقلال هذه الامارة .

**العرب فى القيروان :**

يظن كثير من الذين لم يتعمقوا فى دراسة تاريخ دولة بنى زيرى أن مغادرة السلطان المعز بن باديس للقيروان عام ٤٤٩هـ ومغادرتها إلى المهدية أن المدينة قد خضعت لسيطرة وحكم العرب والحقيقة التاريخية غير ذلك تماما ذلك ان المعز قبل مغادرته المدينة قد عين عليها واليا من قبله يتسم بالقسوة والقوة ويدعى (قائد بن ميمون الصنهاجى) وان المدينة كانت تحكم باسم المعز وتحت سيطرته عليها والى من قبله وان العرب قد أثاروا بعض المتاعب فقط، المصادر التاريخية تذكر أن العرب لم يكن



لهم أدنى حكم بالمدينة ولا ادارة ولا تنظيم ولا أدنى مظهر من مظاهر الحكم والسيطرة اللهم الا الانتشار فى أنحاء المدينة لكن بعد عام ٤٥٤هـ ووفاة المعز زادت سيطرة العرب وقويت شوكتهم بالمدينة. لكن تميم بن المعز وقد كان حريصا على وحدة بلاده ورأى ضرورة المحافظة على توازن القوى داخل المدينة، أسرع إلى قوات وجند كثيف وأعاد السيطرة عليها وحفظ النظام وأقام المراقبة والحراسة على أبواب وأبراج المدينة بل ان العرب كانوا يغادرون المدينة ليلا عندما يتم لهم البيع والشراء وأرسل تميم بن المعز مزيدا من العون العسكرى والعتاد وجهز جيشا ضخما بقيادة والى القيروان الصنهاجى، لكن الوالى الصنهاجى خان أمانة الحكم وغدر بسيده وفر إلى القلعة عاصمة بنى حماد ولحق بالناصر بن علناس الصنهاجى وأعلن ولاء القيروان له وهكذا ظلت القيروان لفترة من الوقت تتنازعها السلطة الزيرية والحمادية، لكن كانت تبعية اسمية لبنى حماد .

فقد كان العرب ينتشرون بها ويسيطرون عليها لكن زغبة كانت لها السيادة على القيروان منذ عام ٤٦٦هـ لكن زغبة خرجت من افريقية بعد أن اضطرتها رباح إلى ذلك لكن فى عام ٤٧٦هـ عاد العرب للسيطرة على القيروان مرة ثانية ذلك لان مالك ابن علوى عندما فشل فى أخذ المهدية اضطر للعودة إلى القيروان وتوجه اليها بمن معه من العرب ونجح فى أخذها لكن تميم بن المعز تمكن من طرده منها فى نفس العام .

وللحقيقة فان العرب لم يتمكنوا من السيطرة الكاملة على المدينة وانها تقترب من وجودهم فى سوسة ومن هنا يمكن القول بأن العرب كان لهم وجود ما على القيروان لكن لم تكن لهم السيطرة الكاملة أو الفعلية، بل كانت سيطرة وقتية سرعان ما تزول بقدوم القوات، فأين الذين خربوا ودمروا المدينة وكيف كان يحكم الوالى الصنهاجى وكيف كان الصراع يدور بين بنى زيرى وبنى حماد على حكم المدينة هل

الصراع يدور حول حكم مدينة خربة أم مدينة كاملة المرافق يا ابن خلدون .

**العرب فى اقليم الزاب :**

الزاب اقليم كبير عاصمته مدينة بسكرة وهو يمتد من قصر الدوسن غربا إلى قصر باديس شرقا ويشتمل على العديد من القرى. وقد عمل العرب الهلالية من بنى مزنى على اتساع اماراتهم فأصاقوا إلى امارة الزاب بلاد التل والمسيلة وجبال أوراس ووركلى .

وقد استقر بنو مزنى بقرى الزاب وما جورها من بربر زناتة وبقايا عرب الفتح حيث اتخذوا الفلاحة حرفة لهم. ويزعم بنو مزنى انهم من عرب فزارة وكانوا من أشهر القبائل العربية التى انتقلت إلى افريقية أحلافا لقبائل بنى هلال فى القرن الخامس الهجرى. لكن ابن خلدون نسبهم إلى لطيف من عرب الاثيج حيث يصل نسبهم مسلسلا إلى جدهم نعمان بن خليفة بن لطيف من عرب الاثيج وقد اعتمدوا فى استمرار امارتهم بعد سيطرتهم على بسكرة والزاب على محالفة الزواودة زعماء عرب رباح كفرسان يحمون الامارة بسيوفهم وقد ظلوا يحكمون تلك الاقاليم حتى قدوم الموحدين إلى افريقية حيث استقروا فى قرية حناس احدى قرى بسكرة ثم انتقلوا إلى المدينة لكن تم طرد بنى مزنى من المدينة حيث طردهم بنو رمان البربر فى أواخر عهد الدولة الموحدية وهكذا فقد العرب نفوذهم فى اقليم الزاب وبسكرة .

لكن هناك أقوالا تذكر ان امارة بسكرة تمكنت من المحافظة على استقلالها الذاتى عن العون الذى أمده بها عرب رباح والاثيج حتى فترة طويلة من حكم الموحدين .



**عرب سليم فى قفصة :**

كانت فقصة تخضع لحكم عبد الله بن محمد بن الرند من قبل المعز بن باديس لكنه عندما رأى ما حل بالدولة الزيرية فانه أعلن الاستقلال والانفصال وصالح العرب وخلع الطاعة لبنى زيرى عام ٤٤٥هـ كما خضعت له سائر أعمال توزر، نغراوة، الحامة .

لكن العرب من بنى سليم وهم بنو العابد الذين ينتسبون إلى قبيلة بلى العربية من بطون سليم وقد آلت اليه أمور قفصة بعد تحول أمر المدينة إلى نظام الشورى نظرا لان بنى العابد هؤلاء كانوا أقوى عصبية عربية بالمدينة لكن قدوم قوات الموحدين جعلت بنى العابد يفرون إلى قابس وتركوا أهل المدينة يعلنون الطاعة للموحدين بعد أن حشد عبد المؤمن بن على كافة جيش الموحدين البالغ أكثر من ثلاثين ألف جندى وفارس .

وهكذا نرى أن العرب رغم فشلهم فى تكوين حكومة مركزية موحدة واقامة كيان سياسى فى بلاد المغرب الادنى والاوسط وعدم بلوغ هدفهم فى اسقاط بنى زيرى أو القضاء على قوتهم الا انهم نجحوا فى اقامة هذه الامارات السابق الاشارة اليها والتى كانت تعمل تحت لواء الدولة الدولة الزيرية وان كان لها الحكم الذاتى الذى يسمح لها بالخضوع لسيادة الحكومة المركزية فى المهدية، الا أن بعضا من هذه الامارات كانت تحاول أن تخرج عن نطاق الحكم الذاتى المحلى لتنطلق إلى علاقات خارجية أوسع مع الاندلس أو البلاد الاوربية كصقلية وجنوب ايطاليا ومن هنا كان حكام المهدية يتصدون لها كما فعل السلطان على بن يحيى بن تميم مع رافع بن مكى من بنى جامع وحطم أسطوله وأسطول روجار الثانى صاحب صقلية فى قابس .

وعلى هذا فانه يمكن القول ان هذه الامارات لم تكن لها من النفوذ والسيطرة

الا حكام أقاليم معترف بحكمهم من قبل الدولة ولم يكن لهم حق التعامل الخارجى بل ان الدولة عندما كانت تحس منهم قوة كانت تتصدى لهم وتقاتلهم. اضافة إلى أن الحكم لم يكن مستمرا، وانهم كانوا يتوزعون بين الولاء لبنى زيرى وبنى حماد كما كان بنو خراسان يحكمون تونس من قبل بنى حماد واستقلوا بحكمها ولم تشأ التعرض لها كولاية مستقلة حيث ان حكمه لم يكن ليدوم الا بعضا من السنين .

وهكذا نرى ان العرب الهلالية اذا كانوا قد فشلوا فى تحقيق كيان سياسى كبير مستقل على انقاض دولة بنى زيرى الا انهم نجحوا كل النجاح وحققوا طفرة حضارية كبيرة بكل المقاييس على صعيد المغرب الاسلامى والحق يقال أن الغزوة الهلالية كان لها صدى حضارى وثقافى وعمرانى واجتماعى وسكانى بعيد المدى على الاصعدة المختلفة من جوانب الحياة وهذا ما سنذكره فى فصول لاحقة .



# الفصل الخامس

## بنى هلال والنورمان والموحدين

سيطر بنو زيرى على ساحل افريقية البحرى الممتد من سوسة إلى قابس ونازع العرب الهلالية السلطة الحكومية مناطق الداخل كتونس والقيروان والزاب وبلاد الجريد وغيرها واستقل بها أمراء صغار منهم وفى أثناء الصراع استولى النورمان على صقلية عام ٤٨٤هـ وفى هذه الاثناء ساءت أحوال سلطنة بنى زيرى وازداد ضعفها ولم يلبث النورمان أن استولوا على المهدية حاضرتهم عام ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م كما احتل النورمان فى نفس العام مدن سوسة وصفاقس وقابس وفى عام ٥٤٨هـ. ١١٥٣م احتلوا أيضا مدينة بونة (عنابة) .

وكان الحسن بن على عندما دخل النورمان المهدية يحارب العرب خارج المدينة وقد صادفت حامية النورمان المهدية خالية من الحامية العسكرية لانشغالهم بقتال وحرب العرب فدخلوها واستولوا عليها .

ولما كان العرب قد أحسوا ان عدوهم النورمان قد استولوا على المدن الساحلية أخذوا يهاجمون هذه المدن محاولة منهم لطرد النورمان منها لكن العرب لم يكن لديهم الاسطول البحرى الذى يستطيع الوقوف أمام النورمان الذين كانت تأتى لهم المساعدات عبر البحر من صقلية ومالطة وجنوب ايطاليا، لذا فقد شيد النورمان أسوارا عالية للاحتفاظ بما احتلوا من مدن الساحل وحاولوا أن يهادنوا العرب وأن يبذلوا لهم الاموال حماية لهم الا أن العرب كانوا دائما يغيرون على النورمان عندما تتاح لهم الفرصة مما جعلهم يعيشون دائما فى شبه استنفار دائم ولم تكن تهنأ لهم معيشة فى ظل هجمات العرب المتواصلة عليهم .

أما بالنسبة للموحدين فقد سبق القول أن عرب الزحف الهلالى قد انتشروا قبل قيام الموحدين فى افريقية وفى عدة أجزاء من المغرب الاوسط وكان نفوذهم فى افريقية أكثر منه فى المغرب الاوسط وكانوا يتطلعون إلى مد نفوذهم إلى المغرب الاوسط ليكون لهم السيطرة عليه كما فى المغرب الادنى لكن قبل تحقيق هذا الهدف ظهرت دولة الموحدين فى المغرب الاقصى وانطلقت إلى مد سلطانها إلى المغرب الاوسط والادنى ونشا صراع بين العرب والموحدين استمر فترة طويلة من الزمن، لكن قدوم الفرنجة إلى بلاد المغرب وسيطرتهم على المدن الساحلية ومدنها جعلهما يتجهان إلى عدو مشترك ضد الفرنجة الذين قدموا من صقلية ثم ان العلاقة بين العرب والموحدين تأثرت بنشاط الفرنجة ضد المسلمين، عندما أعلن الخلفاء الموحدون الجهاد ضد نصارى الاندلس وسارع العرب إلى تلبية دعوة الموحدين متحدين معهم ضد أعداء الدين والمغرب .

وكان عبد المؤمن بن على زعيم الموحدين (٥٢٤– ٥٥٨هـ/ ١١٣٠– ١١٦٣م) عندما تمكن من القضاء على دولة المرابطين قد سعى لضم بلاد المغرب لدولته، ذلك لان الصراع الدائر بين القبائل العربية الهلالية والدولة الزيرية بشقيها فى القيروان والقلعة قد أدى إلى انحلال الدولة وان السلطة قد غدت فى السلطنة الزيرية تكاد تكون اسمية، وتمكن النورمان من الاستيلاء على بعض الثغور مثل صفاقس وسوسة وغيرها ثم المهدية وكما استقل شيوخ القبائل العربية كل بناحية يحكمها .

ووفى عام ٥٤١هـ/ ١١٤٦م. تحركت جيوش الموحدين إلى المغرب الاوسط بقيادة عبد المؤمن فقدمت عليه وفود عرب الاثيج وجشم مبايعة له وتم الاستيلاء على بجاية عاصمة بنى حماد وطرقت جيوش الموحدين أبواب افريقية، لكن عرب افريقية الهلالية الذين كانوا يحكمون ولايات صغيرة خشوا على استقلالهم الذاتى فتعاونوا مع صنهاجة واستغلوا الخلاف الذى دب فى صفوف الموحدين وانسحاب بعض قواتهم



فهاجموها وأسروا قائدها وقتلوه وحاصروا القيروان وقام العرب بقيادة موسى بن يحيى الرباحى بمهاجمة بجاية وتم الاستيلاء عليها وطرد الحامية الموحدية منها .

بلغ ذلك عبد المؤمن بن على فحشد قواته بقيادة ابنه عبد الله ضد العرب الهلالية حتى لم يبق معه الا الخاصة وبلغ جيش الموحدين أكثر من ثلاثين ألف رجل وفارس اذ اجتمعت القبائل العربية بافريقية من الاثيج ورباح وزغبة وبنى قرة وغيرها من القبائل العربية بالقرب من بجاية وتناسوا ما بينهم من عدوان وتحالفوا لمحاربة عبد المؤمن وضرورة طرده من افريقية وجمعوا جمعهم من نساء وأموال وارتحلوا اليه فى الميدان .

وأراد روجار الثانى صاحب صقلية أن يمدهم بخمسة آلاف فارس من النصارى ولكن العرب رفضوا وأجابوه بأنهم فى غنى عن نجدته ومساعدته اذ لا يستعان بكافر على قتال مسلم .

والتقى العرب الهلالية بالموحدين بالقرب من سطيف عام ٥٤٧هـ/ ١١٥٢م وتمكن الموحدون من هزيمتهم بعد قتال دام أربعة أيام بلياليها .

ولما عاد عبد المؤمن بن على إلى افريقية عام ٥٥٣هـ/ ١١٥٨م بجيوش من الموحدين وقبائل العرب وزناتة والاعزاز لمحاربة بنى خراسان وحلفائهم بنى على والذين سبق لهم ايقاع الهزيمة بجيوش الموحدين بقيادة عبد الله بن عبد المؤمن حول تونس، تمكن عبد المؤمن بسهولة من دخول المدينة ثم حاصر المهدية وأرسل ابنه لتصفية الامارات العربية التى تأسست وكانت تتمتع بالحكم الذاتى فى ظل وجود الدولة الزيرية المندثرة فاستولى الامير عبد الله بن عبد المؤمن على قابس من بنى كامل بن رباح وقفصة من بنى الورد وطبرقة من مدافع بنى علال وجبل زغوان من بنى خليفة، وشقبارية من بنى الكلاعى والاريس من بنى فتاتة العربى، وبنزرت من بنى الورد اللخمى، وافتتح جميع بلاد افريقية ودخلت فى طاعته المنطة الممتدة من برقة شرقا

حتى تلمسان غربا .

ثم أقسم زعماء وأمراء العرب وأحلفهم على مصحف عثمان بن عفان على السمع والطاعة والاشترك فى الجيوش الموحدية للجهاد فى الاندلس ولكنهم خذلوه بالقرب من وهران وطلبوا العودة إلى ديارهم فقرر عبد المؤمن نقل ألف من كل قبيلة بعيالهم إلى المغرب الاقصى من عرب رياح وبنى جشم وبنى عدى وكانوا من الكثرة، هادفا بذلك ابعادهم عن افريقية واستقرارهم بقرب عاصمته مستغلا شجاعتهم وحبهم للقتال للجهاد فى الاندلس .

ويبدو أن عبد المؤمن بن على زعيم الموحدين قد تمكن من كسر شوكة القبائل العربية الهلالية بافريقية وأن انتصاره عليهم كان ساحقا .

## دور بنى هلال فى الاندلس

عندما اشتد الزحف المسيحى من شمال الاندلس مكتسحا أمامه القوى الضعيفة المتخاذلة المنقسمة بين ملوك الطوائف التى ظهرت على أنقاض الخلافة الاموية فان بعضا من ملوك الطوائف الذين كانوا بتوجسون خفية دعوة المرابطين والاستنجاد بهم قد رأوا الاستنجاد بعرب بنى هلال لشجاعتهم وحميتهم على الدين الاسلامى والذين كانوا قد غزوا افريقية وبدأوا يتطلعون إلى المغرب الاوسط وكانوا على قرب من الاندلس وكان ملوك الطوائف قد عقدوا مؤتمرا فى قرطبة بعد سقوط طليطلة ليتدارسوا أحوال بلادهم وكانت فكرة دعوة بنى هلال للمشاركة فى الجهاد فى الاندلس لكن المعتمد ابن عباد ومؤيديه رفضوا فكرة الدعوة لبنى هلال ومن ثم كانت دعوة المرابطين. على أن ذلك لا ينفى أن العرب الهلالية كان لهم دورهم فى الكفاح فى الاندلس .

وذكر ابن الاثير أن الاندلسيين فكروا فى استدعاء القبائل الهلالية بعد سقوط



طليطلة لكن رأى أن استدعاء المرابطين قد انتصر فى هذا الاجتماع وقد أقدم المرابطون على تنفيذ هذه الفكرة ودعوة الهلاليين للاندلس للقتال معهم فهناك اشارات إلى أن بنى هلال قد اشتركوا مع المرابطين فى موقعتى كنشرة (٤٩٠هـ/ ١٠٩٧م) وموقعة اقليش (٥٠١هـ/ ١١٠٨م) وغزوة ابن الحاج على برشلونة (٥٠٨هـ/ ١١١٤م) وكذلك شاركوا على بن يوسف بن تاشفين فى غزواته عام (٥١٣هـ/ ١١١٩م) وفى جيش تاشفين بن على بن يوسف بن تاشفين ٥٣٠هـ/ ١١٣٦م. كما كانوا معه حين هزم فى تلمسان وسقطت دولة المرابطين ويبدوا أن المرابطين لم ينجحوا فى الاستفادة من القبائل الهلالية كما فعل الموحدون. فقد نجح عبد المؤمن بن على فى استغلال القبائل الهلالية فى حفظ التوازن القبلى فى دولته بالاستعانة ببنى هلال وانشاء هيئة أشياخ العرب إلى جانب هيئة أشياخ الموحدين والاندلسيين .

وقد شارك عرب بنى هلال فى بطاح الزلاقة فقد استعان بهم يوسف بن تاشفين لما كان يضطرم فى نفوسهم من روح الحمية الاسلامية والتحمس للدين والتسابق للاستشهاد والرغبة فى الموت فى سبيل الله وتضافر الجهود لمدافعة الفرنجة ورد عدوانهم.

ويذكر الفتح بن خاقان فى كتابه قلائد العقبان ان المرابطين استعانوا بطائفة كبيرة من عرب بنى هلال الذين كانت تدفعهم حميتهم إلى الانخراط فى سلك المجاهدين طلبا للشهادة فى سبيل الله وكانت أعداد بنى هلال تعد بالآلاف وقد أشار ابن خاقان إلى أن أعراب بنى هلال شاركوا بدور فعال ورائع فى معركة الزلاقة .

واذ كان بنو هلال قد شاركوا المرابطين جهادهم فى الاندلس الا أن دور العرب فى العمليات الحربية التى خاضها الجيش الموحدى فى الاندلس كان أكثر فاعلية خصوصا انهم كانوا يتطلعون إلى الجبهة الاندلسية التى كانت تمر بظروف عصيبة .

ومن هنا فان القبائل العربية قد أسهمت بدور ايجابى فى السياسة الجهادية لبلاد

المغرب فى الاندلس فما أن استنجدت الاندلس ببلاد المغرب لمقاومة الغزو المسيحى بقيادة مملكة قشتالة حتى لبت فرسان القبائل العربية النداء للدفاع عن الاندلس وقد أشاد المؤرخون ببلاء الفرسان العرب فى موقعة اقليش عام ٥٠١هـ/ ١١٠٨م فى العصر المرابطى وفى موقعة الارك فى عام ٥٩١هـ/ ١١٩٥م فى العصر الموحدى وحتى عندما نجح القشتاليون فى الانتقام لهزيمة الارك وتمكنوا من هزيمة الموحدين فى معركة العقاب ٦٠٩هـ/ ١٢١٢م كانت القوات العربية الهلالية آخر من ترك ميدان المعركة وقام بعض فرسانها بمعاونة الخليفة الناصر على الفرار، ثم فى عصر بنى مرين ازدادت مشاركة القبائل العربية فى الاعمال الجهادية بالاندلس اذ لم يقف دورهم عند الاشتراك فى الجيوش الحربية بل كانت جموعهم تشكل الجانب الاكبر فى الامدادات التى وصلت من المغرب إلى الاندلس ولم يقتصر دورهم فى العمليات العسكرية على تنفيذ ما صدر اليهم من أوامر عسكرية بل شاركوا بمشايخهم كمستشارين فى المجلس الحربى للسلطان المرينى لابداء الرأى حول الخطط العسكرية واقفال الطرق لملاقاة العدو. وفى خلال هذه العمليات العسكرية أسند إلى القبائل العربية حماية الممتلكات بالاندلس والدفاع عنها (مصطفى أبو ضيف أحمد: أثر العرب فى تاريخ المغرب) .

وكان الموحدون قد نقلوا اعدادا كبيرة من العرب الهلالية بجوار العاصمة وضمهم إلى جند الموحدين وخصصهم لحماية رعيته واستعان بهم فى غزو الاندلس وبعد ازدياد أعداد جنده بما انضم اليه من القبائل العربية جاز إلى الاندلس ومعه أعداد كبيرة من قوات بنى هلال وأقام بها شهرين مد نفوذ الموحدين خلالها إلى غرب الاندلس وجهز عبد المؤمن عرب المغرب الذين لبوا نداء الجهاد بالخيول العربيه الواردة من افريقية واجتمع له مائة ألف رجل أغلبهم من القبائل العربية وكذلك ثمانين ألف فارس بينهم أعداد كبيرة من فرسان العرب وقد وزعت هذه القبائل العربية التى تنتمى



إلى زغبة ورباح وجشم على المدن الاندلسية لحماية أهلها توزع بعضهم على نواحى قرطبة وأشبيلية وشريش وانتشر نسل العرب الهلالية فى جنوب الاندلس حتى انه على حد قول عبد الواحد المراكشى تمكنوا فى بداية القرن السابع الهجرى من تقديم خمسة آلاف فارس بخلاف غيرهم من الرجالة للدفاع عن جنوب الاندلس .

وفى عام ٥٦٠هـ/ ١١٦٥م أرسل الموحدون أربعة آلاف فارس من القبائل العربية فى مقدمتهم على بن محرز بن زياد من أعيان العرب وفرسانهم .

وقاتل فرسان العرب من بنى رباح والاثيج وزغبة قوات ابن مردنيش بالقرب من قرطبة ويكفى للدلالة على دور العرب البطولى فى هذه المعركة قتل سبعة من شيوخ العرب، وهكذا نرى كيف أن الموحدين اعتمدوا على العرب الهلالية اعتمادا كبيرا فى الجيوش المرسلة إلى الاندلس وأسندوا اليهم حماية المدن الاندلسية من أعدائها حتى ان الدولة الموحدية نوهت بدورهم الايجابى فى معركة الجهاد الاسلامى فى الاندلس وحمايته وهكذا قام الجند العربى الهلالى بمشاركة اخوانه فى حركة الجهاد ضمن الجيش الموحدى الذى قام بدور فعال مؤثر فى الجهاد فى الاندلس والاستقرار على أرضها .

وفى عام ٥٦٥هـ/ ١١٦٩م عندما عزم السلطان الموحدى أبو يوسف يعقوب على الجهاد قام باستدعاء عرب افريقية فلبى عرب افريقية والزاب والمغرب الاوسط النداء مسارعين للمغرب مزودين بالخيل العتاق المدربة عندهم والبالغ عددها أربعة آلاف من افريقية وألف من تلمسان فوصلوا مراكش ووزعت عليهم الدروع والرماح والاسلحة والعلامات والرايات وبعد أن تم تجهيزهم بلغ عسكر العرب عشرة آلاف فارس وخمسة وثلاثين ألف راجل ومكثت القوات العربية بمشاركة الموحدين أربعة أعوام .

وفى معركة الارك ALercos استشار الخليفة أبو يعقوب المنصور وفرسان المنصور

الموحدى على نهج أسلافه فى ارسال العرب إلى الاندلس حماية لها من النصارى إلى جانب سياسة التوطين التى اتبعها فى بلاد المغرب الاقصى شيوخ العرب فى كيفية ادارة المعركة مع مسيحيى الاندلس وكان المجلس يضم العديد من كبار القبائل العربية وتولى العرب جناح الميسرة وتمكنت القوات العربية فى هذه المعركة من الاطاحة بقوات الفرسان الاسبانية المسيحية ووقفوا بين شقى الرحى تطحنهم القوات الاسلامية طحنا فانكسرت شوكة جيش الفونسو الثامن حيث لقى فرسانه القتل والهزيمة وحمل العرب حملة صادقة انتهت بالنصر وأسرع بعض فرسان العرب إلى المنصور يبشرونه بهزيمة العدو وهكذا تمكن العرب فى اللحظة المناسبة واندفاعهم للقتال من ناحية أخرى من احراز النصر فى موقعة الارك ويعلل المؤرخ الاسبانى هيراكو ميرندا من هزيمة القشتاليين بأيدى جيش الموحدين بأنه كان يجيد الكر والفر ويجيد الرماية بالسهام وهى خصال يتصف بها جند العرب وهى طبيعتهم فى القتال .

وفى موقعة العقاب التى تطلق عليها المصادر الاسبانية Las Nares de Tolosa التى حدثت فى ٦٠٩هـ/ ١٢١٢م. حيث استطاع الفرنجة اختراق جيش الموحدين وفرت القبائل الموحدية من وجه الزحف الاسبانى فلم تبق فى ميدان المعركة الا الفرقة العربية الرابعة التى اشتبكت وتلاحمت بالسيوف مع جند قشتالة مدافعة عن الناصر رغم ذلك تمكن المسيحيون من الوصول إلى الدائرة التى تحيط به وقتلوا نحو عشرة آلاف فارس من خيرة جنده المقربين، وهنا أدركت الفرقة الرابعة العربية أن الهزيمة قد حاقت بالجيش الموحدى وأن المسيحيين قد أوشكوا على قتل الخليفة الناصر فقام بعض فرسان العرب بمعاونة الخليفة على الفرار حتى ان أحدهم تخلى عن فرسه العربى الاصيل للناصر لبدانة فرسه وثقله قائلا له : اركب هذه الحرة فانها لا ترضى بعار فلعل الله ينجيك عليها فان فى سلامتك الخير كله» فركبها الناصر تتقدمه نخبة من فرسان



العرب ويحيط به عبيده حتى تمكنوا من الفرار به .

وقد ذكر ذلك ابن أبى زرع فى كتابه الانيس المطرب، وهكذا وقف العرب مع المرابطين والموحدين صفا واحدا فى مواجهة الاحداث الدامية التى يدور رحاها على أرض الاندلس دفاعا عن شرف الاسلام والمسلمين يصدون عن اخوانهم كيد أعدائهم ويذودون بالغالى والنفيس بالدماء والاموال والسلاح والعتاد وساهموا فى حركة الجهاد الاسلامى باعتراف كل كتاب العصر وشهدوا بشجاعتهم وبسالتهم فى القتال ودورهم الرائع فى صد الغارات والهجوم وفى الكر والفر حتى فى لحظات الهزيمة لم يتخلوا عن قائدهم وخليفتهم المنصور وكانوا عونا له وساعدوه على النجاة من أتون المعركة. وهكذا بذلوا كل ما لديهم فهم أصحاب الحمية والذود عن الدين والعقيدة ولم يتخلوا أبدا عن واجبهم المقدس فى حين اننا نجد دولا مثل بنى زيرى فى القيروان والمهدية وبنى حماد أصحاب القلعة وبجاية وهى دول اسلامية فى المغرب الادنى والاوسط لم يكن لها أدنى دور يذكر فى حركة الجهاد الاسلامى ولم تشارك أدنى مشاركة فى الدفاع عن حياض الاسلام فى الاندلس. لكن العروبة والشجاعة والشهامة والنجدة والفداء صفات عربية دفعت بنى هلال للتقدم للقتال فى الاندلس ومن هنا كان دورهم فى المغرب والاندلس دورا بطوليا مشرفا ولم يكن دورا تخريبيا مدمرا كما حاول أن يصفهم بعض المؤرخين ومن سار على نهجهم من كتاب الغرب .

وهنا يتبادر لنا سؤال لماذا فكر ملوك الطوائف فى طلب العون من القبائل العربية والتى أشار اليها معظم المؤرخين أمثال ابن الاثير والمقرى أليس ذلك لثقتهم فى الدور الذى من الممكن أن يقوم به العرب الهلالية فى الزود عن ديار المسلمين فى الاندلس. ثم لماذا فكر بعض زعماء الاندلس فى دعوة الهلالية اذا كانوا أصحاب تدمير وتخريب وقتل، ان سيرتهم العطرة ودورهم فى الشجاعة والبطولة هو الذى زكاهم فى الطلب

للقتال ألم يكن زعماء الطوائف المجتمعين فى قرطبة يتدارسون الموقف العسكرى ثم كان التفكير فى الاستنجاد بالهلاليين .

ثم اذا كان الهلاليون من أصحاب التدمير والتخريب وقتل الحرث والنسل لماذا رفضوا الاستعانة بقوات مسيحية عرضها عليهم روجار الثانى ملك صقلية لتقاتل معهم ضد عبد المؤمن بن على زعيم الموحدين لقد استعان سلاطين بنى زيرى ربنى حماد بقوات مسيحية لمساعدتهم فى قتال بعضهم البعض، لكن العرب الهلالية رفضوا وقالوا أن الكفرة لا تقاتل المسلم ولا يمكن الاستعانة بكافر لقتال مسلم هذا هو موقف الهلالية فى سير الاحداث فى الاندلس وفى افريقية، لقد قاتلوا النورمان فى المهدية وسوسة وصفاقس وقابس وأقلقوا راحتهم لكن فقدانهم للقوة البحرية وعدم تمكنهم من ركوب البحر لم يساعدهم فى طرد النورمان، ثم أنهم ألم يتوحدوا مع الموحدين جيشا واحدا وصف واحدا لقتال النورمان أعداء الدين .

ان الدور الهلالى فى الجهاد الاسلامى فى الاندلس ومشاركة القوى المرابطية والموحدية خير شهادة على السيرة العطرة وليس التشفى والتجنى على العرب وما جاء على لسان ابن خلدون الذى لم يأت فى كتبه كلمة واحدة عن جهاد العرب الهلالية فى الاندلس فى حين ذكر ذلك ابن صاحب العلاه، بن أبى زرع، المراكشى، والبيذق، والسلاوى، وابن عذارى وغيرهم من المؤرخين، وان اشتراكهم فى الجهاد الاسلامى ودورهم الرائع يغفر لهم ما ارتكبوه على أرض افريقية ان كانوا قد ارتكبوا أخطاء .



# الفصل السادس

## الماثر الحضارية للغزوة الهلالية

كان وصول بنى هلال واخوانهم من القبائل العربية الاخرى إلى بلاد المغرب العربى من الاسكندرية شرقا إلى المحيط الاطلسى غربا حدثا من الاحداث العالمية الضخمة المؤثرة التى نركت مآثرها الحضارية على المغرب الاسلامى كله فاذا كانت الفتوحات الاسلامية الاولى فى القرن الهجرى الاول قد نجحت فى نشر الدين الاسلامى والحضارة الاسلامية بالمغرب الا أن الهجرات الهلالية جاءت لتضيف إلى ذلك الدم العربى وتعدل التكوين الجنسى العنصرى لسكان المغرب حتى أصبح العنصر البربرى القديم لاينتمى ولا يعيش الا فى معاقل الجبال الصعبة ذات الطبيعة الوعرة ولا يتميزالا ببعض الظواهر اللغوية البسيطة .

فالذى يتصور مليون نسمة يهاجرون من مصر بقبائلهم المختلفة وشبابهم وشيوخهم ونسائهم وأطفالهم منذ ما يقرب من عشرة قرون ٤٤١هـ حاليا ١٤١٢هـ فكيف بعد هذه الهجرة الواسعة النطاق لايحدث انقلاب كلى فى البنية الاساسية السكانية ولا تستقر طبيعة السكان فى كل نطاق المغرب بعد سيطرة هلال وسليم على هذه المناطق الواسعة، بل اننا نجد ابن الاثير نفسه يذكر انه كان لقبيلة رباح وهى بطن من بطون بنى هلال وفرع القبائل المهاجرة كانت تعيش قرب القيروان فى زهاء ثمانين ألف بيت والبيت يعنى الاسرة ولا يقل عدد سكان الاسرة العربية عن عشرة أفراد فمن هنا يمكن القول أن رباح فقط كان عدد سكانها قرب القيروان ما يقرب من ٨٠٠ ألف نسمة ومن هنا بسطت الغزوة الهلالية لواءها على جميع أنحاء المغرب الاقصى والساحل التونسى وتل الاطلس وبلاد الجريد والزاب ومع بداية الفتح الموحدى بدأت مرحلة توسع

العرب سليما فى كل نطاق فى المغرب ويذكر البيذق أن العرب انتشروا فى كل بلاد المغرب بعد فتح المهدية عام ٥٥٥هـ وقد كان عدد القبائل العربية التى انتقلت إلى المغرب كبيرا جدا وأصبح توطين القبائل العربية الهلالية فى بلاد المغرب الاقصى سياسة ثابتة للدولة .

ولما حافظت قبيلة زغبة على ولائها للموحدين كافأها الخليفة المنصور الموحدى باقرارها على مشاركة بنى باديس حلفاء الموحدين من رناتة فى السكنى بين المسلية وقبيلة تلمسان بينما انصرفت رباح وجشم إلى بلاد المغرب الاقصى فأنزل رباح بلاد الهيط بين قصر كتامة والمحيط وجشم وهم قبائل الخلط وسفيان وجابر بلاد تامسنا وغمارة مما يلى ساحل طنجة إلى سلا وهكذا صار لهذه القبائل العربية الهلالية وجود قوى فى المناطق الساحلية والسهول لاسيما فى حوض وادى سبو ووادى أم ربيع ودكالة وأزمور وانتشر عرب المعقل قرب فج تازا ونتيجة لهذه الموجة العربية الهلالية فقد تعربت بادية البلاد المغربية الغربية وطبعت بالطابع العربى الاصيل وسرى الدم العربى فى وجدان المواطن المغربى وأصبح العرب سمة من سمات البلاد المغربية .

وهكذا أضافت هذه القبائل إلى حضارة بلاد المغرب سمات جديدة ونتج عن امتزاج الدماء العربية والبربرية أجيال أقوى شكيمة وأشد عزيمة وأصلب عودا وأقدر مراسا من أجدادهم وهكذا زاد الاتصال والامتزاج والزواج والمصاهره وتم الاختلاط وبدأت الدماء العربية فى الزيادة وتصبح هى السمة البارزة فى الملامح فلم يعد هناك بربرى بل أصبح شعب عربى يسكن المغرب الاسلامى .

وهكذا كانت أهمية الغزوة الهلالية أو الزحف الهلالى المنظم وقد انطلقت الموجات الاولية فى أعداد قدر متوسطها بنصف مليون أغلبهم من الرجال، بل أوصل بعض الباحثين عددهم إلى المليون نسمة (الميلى) تاريخ الجزائر بعد أن توالت موجات



الهجرة وسارعت القبائل العربية إلى المغرب بعد أن وصلتها أنباء المسيرة الهلالية وعندما يدخل افريقية (المغرب الادنى) نصف مليون أو مليون من العرب منذ ما يقرب من عشرة قرون تتغير سمة الدم وتظهر الدماء العربية القوية فى العروق ويصبح أهل المغرب عربا خلصا بعد أجيال قليلة متعاقبة وعندما يزيد عدد العرب عبر السنوات المتبقية من القرن الخامس الهجرى فان ذلك بدوره يظهر تفاعل الدماء العربية فى كل أجزاء البلاد بحيث زادت فيها نسبة الدماء العربية بحيث لا تقل عن ٩٩٪ عن طريق الاختلاط أو المصاهرة وعن طريق وجود العرب بأعداد كبيرة، بل ان العرب الهلالية لم يتركوا شبرا من أرض المغرب الا وطرقوه وأقاموا فيه فى الجبال الوعرة واستوطنوا فيها وطرقوا البوادى والفيافى والسهول والوديان واستقروا فى أقاليم المغرب المختلفة. فهل بعد ذلك من رأى يارجال الغرب ومؤرخيها الذين يفرقون بين الاقوام الواحدة .

وهكذا غير بنو هلال التكوين البشرى للمغرب بأقسامه المختلفة (الادنى والاوسط والاقصى) فأصبحت العروبة والدماء العربية هى الغالبة ولم يعد البربر الا بقايا وان كان الجميع أبناء عمومة، وفى مقدمة الغزوة احتك أولئك الهلاليون بقبائل كثيرة ودفعوا قبائل أخرى للتقدم غربا نحو المغرب الاقصى والاتجاه جنوبا إلى بلاد السودان فخلت بلاد الجريد وقسنطينة والزاب فى افريقية من أهلها الاولين ونزلتها بطون الهلاليين وتكاثرت فيها وشيئا فشيئا عاد اليها أهلها من البربر أو من بقى منهم واختلط العرب مع البربر اختلاطا تاما فأصبح المغرب من أكبر بلاد العروبة وأعمقها اسلاما .

لم تتأثر الوفود العربية وقبائلها فى بادية البربر من حيث التركيب السكانى، ذلك لان العرب لم يفلحوا فى تغيير التركيبة السكانية لبادية المغرب الاسلامى وأرباعه الا بعد منتصف القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى مع الغزوة الهلالية وبفضلها انتشر العرب فى البوادى والارياف فى دورتين مختلفتين كان طابع الأولى

حربيا فى المغرب الادنى والثانية سلميا فى المغرب الاوسط والاقصى .

وهكذا أدى بنو هلال خدمة كبرى لعروبة المغرب وتكوينه السكانى وتركيبته البشرية فقد أضعفت جموعهم قوى قبائل مثل زناتة التى كانت تحاول استخدام القوة والقهر والسلب والعدوان والتخريب والاغارة على المدن الآمنة كما كان يحدث مع دولة بنى زيرى وبنى حماد فكسرت الغزوة الهلالية فى عنفوانها وعدوانها وحدت من سطوتها على باقى القبائل، ثم ان الهلاليين انتشروا فى كل ناحية من البلاد الممتدة إلى شواطئ المغرب الاقصى ومن صحراء مصر العربية وسكنوا السهول والجبال والسواحل وصاهروا الناس فكان عملهم هذا اكمالا لما سبق أن قام به عرب الفتح الاوائل فتحولت بلاد الجريد فى تونس وبلاد المغرب الاوسط (الجزائر) وبلاد المغرب الاقصى إلى بلاد عربية اسلامية خالصة تتكلم العربية وتحس بأنها جزء من العالم العربى ولولا الهلاليين لما صار المغرب عربيا على الصورة التى نراها لولا الهلاليين لما تعمق الشعور الاسلامى والتسليم للعقيدة الاسلامية (التى تظهر آثارها حاليا فى الجزائر جريدة الاهرام القاهرية ١٩٩١/١٢/٢٨م). ففى الفوز الساحق الذى حققه التيار الاسلامى فى انتخابات الجزائر حيث فازت جبهة الانقاذ الاسلامية بحوالى ٢٨٨ مقعدا. فى الجمعية التأسيسية فى حين فاز الحزب الحاكم بنسبة عشر مقاعد فقط) ان الدماء العربية والسلالة الهلالية القوية تدفع مشاعر أبناء المغرب للانتماء العربى الاسلامى انطلاقا من الغزوة الهلالية .

ولقد ساعد على الامتزاج والانصهار فى بوتقة العروبة بعد انتشار العرب الهلالية فى جميع أنحاء المغرب ذلك الاتفاق والتطابق فى أساليب الحياة وتجانسها مع الحياة البربرية فى السهول والجبال فقد كان العرب والبربر شعوبا بدوية رعوية أو شبه رعوية تمتطى ظهور الابل والخيل مما سهل امتزاج العنصرين حيث تكون جنس خليط



واستعرب البربر وتوغلت اللغة العربية بين البدو من البرابرة وسكان المناطق النائية بعد أن كانت قليلة الانتشار فيهم وساعد على ذلك الانتشار السريع والتنقل المكثف للعرب الهلالية فى عهد الدولة الموحدية .

ومهما يكن من أمر فقد سيطرت طلائع الزحف الهلالى على بلاد المغرب الاقصى شأنها شأن الاوسط والادنى وبدأوا يتخذونه وطنا لهم ومستقرا دائما وبدأت تتدفق عليه بطونهم من الشرق فوج يتلوه فوج وساعدتهم الدولة الموحدية فى ايجاد التوازن القبلى وجاءت الوفود من بلاد المغرب الاوسط ولم تتخلف قبيلة عربية هلالية الا وشارك بعض منها فى الزحف نحو بلاد الاطلس وهضبة الشطوط ونقل خلفاء الموحدين الاربعة الاوائل أعدادا كبيرة من العرب إلى بلاد المغرب الغربية وبدأت حركة واحدة بين القبائل من التحالفات العربية مع البربرية تحت لواء واحد وبدأ الامن والسكينة تسود ربوع هذه البلاد وبدأ الجميع يتصرفون تحت هدف واحد هو بناء المغرب العربى الاسلامى ويعلمون على حدة الهدف من أجل الحفاظ على العروبة والعقيدة ليمهدوا السبيل أمام الاجيال القادمة للعيش فى وطن العروبة والاسلام .

وهكذا توحد الجنس العربى وانصهر مع أبناء العمومة من البربر ووقف الجميع تحت لواء الدم العربى صفا واحدا .

ومن هنا فان اللسان العربى كان نتيجة طبيعية للدم العربى فانتشار الدم العربى هو انتشار اللسان العربى ذلك لاننا نرى أن انتشار اللغة العربية وغلبتها على اللسان العربى وشيوع العروبة بين أهالى المغرب قد ظهرت أهميته بالزحف الهلالى فى التمكين للغة العربية وغلبتها على لسان أهل المغرب ذلك لان المسيرة الهلالية ضمت اليها أعدادا ضخمة وعدد المليون نسمة يكون له ثقله فى المنطقة فى القرن الخامس الهجرى اضافة إلى الغزوة كانت تضم أعدادا كبيرة من الرحال. ومن ثم أدى ذلك إلى تمكن اللغة

العربية مخاطبة ومحادثة واستعمالا وكتابة وبدأت اللغة العربية تمثل اللغة الاساسية للاقليم وحلت محل اللغات القديمة وزادت معلومات المغاربة بالعربية وكثرت استخداماتهم للغة العربية فى مختلف نواحى الحياة وتمثلت فى الحضارة الاسلامية .

وهكذا نرى كيف كانت عوامل كثيرة تعمل على تعريب المغرب وادماجه فى الكتلة العربية فبعد جهود العرب الاوائل فى عصر الفتوحات (الخلافة الراشدية، الامويين، العباسيين) وصراعهم الطويل مع البربر وتحويلهم أفريقية إلى بلاد عربية الحضارة والثقافة واللسان عربية المفاهيم والعادات والتقاليد والقيم والاطر الاجتماعية والتعليمية وادخالهم فى اطار مذهب أهل السنة والجماعة (المذهب المالكى) حاء الادارسة (أنظر الجزء الثانى من الموسوعة، المغرب العربى بين الاغالبة والادارسة وبنى رستم) فنشروا فى أرض المغرب الاقصى بذورا عربية طيبة أتى الهلاليون من المشرق فبذروا بذورا أخرى لم تلبث ان أثمرت واتبعت لسانا ودما عربيا وحضارة عربية زاهرة حاملين علما كثيرا بثوة فى نواحى المغرب كله .

وهكذا كان زحف الهلاليين على المغرب قد مكنهم من لعب دور اجتماعى وسكان جنسى وأعاد تركيب النظام القبلى بين القبائل البربرية وتمكنت اللغة العربية من غزو المغرب الاقصى حتى قال (الفريد بل) فى كتابه عن (البربر وديانتهم) أن رجال البربر أصبحوا اليوم كلهم يتقنون اللغة العربية فى الجبال الاطلسية لاسيما منها الناحية الشرقية. بل وتعدى التأثير لهذه القبائل اللهجات الدراجة للقبائل البربرية حتى قيل أن اللغة الدراجة المغربية تعتبر أفصح اللهجات العربية. وهكذا كما ذكر الميلى فى كتابه تاريخ الجزائر، لقد شاء الله أن يكون للعرب وجود جنسى فى عصر البربر السياسى كما كان للبربر وجود جنسى فى عصر العرب السياسى غير ان بين الوجودين فرقا، فان العرب مؤثرون فى البربر فى العصر البربرى سياسيا ودينيا وفى العصر البربرى اجتماعيا



وثقافيا وحضاريا واقتصاديا وسياسيا .

وهكذا اذ كانت عوامل الطبيعية العربية للقبائل الهلالية واتفاقها مع اخوانهم وأبناء عمومتهم البربر فى نشر الدم العربى واللسان العربى فان طبيعة الارض التى انتشر فيها العرب مع اخوانهم كانت قد سبقت فى انتشار الاسلام فى أركانها وتسربت اليها جموع البدو من القبائل العربية فقد كانت هذه البلاد المغربية الواسعة النطاق تحيط بها الصحراء الكبرى جنوبا فى المنطقة الممتدة من حدود مصر الغربية حتى المحيط الاطلسى وهكذا توغلت فى كل هذا النطاق .

وهكذا تمكنت العربية من هذا الشعب وفى هذا المضمار نجد الدكتور محمد عوض محمد فى كتابه الشعوب والسلالات الافريقية يذكر ان بنى هلال امتدت بطونها من الجانب المصرى حتى المحيط الاطلسى وان العروبة أضحت هذا البحر الخضم الجارف لغير العربية فقد نجد بعض الجزر ذات ثقافة بربرية فنجد فى واحة سيوه فى مصر وفى واحة أوجلا وغيرها فى ليبيا بقية من السكان المنعزلين لاتزال لهم لهجات بربرية. ولكن فى تونس يوجد قطر يمتاز بثقافته العربية الاصيلة العميقة وليس فيها بقية من اللهجات البربرية الا أعداد تعد على أصابع اليد الواحدة فى الاطراف الشمالية الغربية ولا يزيد من يتكلمون تلك اللهجات عن ١ ٪ من سكان البلاد كلها والمؤرخون عن تونس يرددون كثيرا ما حدث عن هجرة عرب بنى هلال فى العصور الوسطى اذ وفدوا بجموعهم بايعاز من الفاطميين ووجهوا نحو تونس لغزوها ومن الجائز أن هؤلاء الهلالية قد خربوا ودمروا كثيرا ولا نشك فى أنهم زادوا فى عروبة تونس، ويكون من الخطأ الزعم بأن سكان تونس من البربر وانهم استعربوا نتيجة الزحف الهلالى الواسع النطاق، لأن الزحف العربى سابق للهلاليين بعدة قرون عديدة وقبل الفتح العربى الاسلامى ولا تعدو الغارات الهلالية أن تكون اضافة للعروبة فى بلاد عربية مستقرة وقد

نجم عن هذه الغارات اضطراب فى الحياة الاجتماعية والتركيبة السكانية .

واذ مضينا غربا نحو الجزائر انتقلنا إلى أقطار تزيد فيها نسبه المتكلمين باللغة واللهجة البربرية رغم ان العروبة تزدهر والثقافة العربيه تنتشر واذ العلوم العربية الاسلامية يرتفع لواؤها وثبتت قواعدها كأحسن ما يكون ونجده فى أقطار المشرق العربى (لاحظ الفصل القادم دولة بنى حماد) فان عدد المتكلمين بها لا يزيد عن ٦٪ وأكثرهم فى الجهات الجبلية المنعزلة، وفى نهاية الاتجاه الغربى للمغرب الاسلامى نجد المغرب الاقصى المطل على البحر المتوسط والمحيط الاطلسى، فان نسبة المتكلمين باللهجات البربرية لا يزيد عن ١٢٪ وسبب ارتفاع نسبة المتكلمين باللهجات البربرية فى المغرب الاقصى وجود أقاليم جبلية عالية وهى جبال الاطلس الشهيرة، كما ان دولة الموحدين والمرابطين كانت تقف حائلا دون انطلاق الهجرة الهلالية وكانت الدولة تقوم بتحديد الاماكن التى تتم سكنى الهلالية بها ولم يتركوا الهلالية على حريتهم فى التنقل اضافة إلى نقل أعداد كبيرة منهم إلى بلاد الاندلس للمشاركة فى حماية المدن فقد أنزل عبد المؤمن العرب فى قرطبة وشريش وأشبيلية وأسكن العرب فى بلنسبة وفى شرق الاندلس وكذلك فى بطليموس. وقد قلل هذا من انتشار الهلالية فى المغرب الاقصى مما ساعد على بقاء نسبة المتكلمين باللغة البربرية حاليا دون غيرها فى الجزائر وتونس .

الا أن اظلالة الزحف الهلالى قد جعلت من بلاد المغرب قطرا عربيا خالصا وأصبحت فيه مراكز للثقافة والحضارة والعلوم الاسلامية المختلفة فى مدن مثل القيروان وفى مسجد القرويين بفاس وفى تلمسان وغيرها من مراكز العلوم الاسلامية وهذا الانتعاش الثقافى والعلمى فى القرن الخامس والسادس الهجرى دون ما سبق من عهود ربما كان من أسبابه تقارب فى السلالات أو نوع من القرابة الروحية والامتزاج الجنسى والسلالى .



وهكذا لم تكن الوحدة اللغوية قائمة دون أن تستند إلى شئ من القرابة الروحية من العرب الهلالية وسكان المغرب، ولما كان من الممكن أن تحدث استجابة من سكان المغرب للمؤثرات العربية والاسلامية دون احساس بوحدة الجنس والتقارب السلالى .

وهكذا كانت المعجزة التى تحققت على أرض المغرب من وحدة الدم والجنس والسلالة واللغة والعقيدة والعادات والتقاليد والقيم والمفاهيم الاجتماعية والتراث الحضارى ولم يكن ذلك الا من أجل القرابة، وهكذا لم يبق من أرض المغرب الواسعة الا جزر بسيطة فى قمم الجبال العالية الشاهقة لم تكن تتلائم وطبيعة سكنى العربى الهلالى الذى زحف فى كل بقاع المغرب مواطنا متجاوبا متفاهما مع أخيه فكان الوجه الحضارى الذى تنعم به المغرب، بل الاكثر من ذلك انتشار اللغة العربية كثيرا وأن قوة تأثير هذه اللغة يظهر فى اللهجات الريفية فى القرى المغربية فقد تفرعت من لسان عربى مغربى وهكذا قدمت الغزوة الهلالية للغة العربية مكسبا كبيرا اذ ضمت أهل المغرب إلى لسان القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف الذى أحبه أهل هذه الديار ودافعوا عن عقيدتهم ولغتهم وبهذا أفادت الغزوة الهلالية أهل المغرب بتقديم لغة حضارية ذات أصول عريقة يستعملونها ويفكرون بها ويقدمون عن طريقها عصارة تفكيرهم العلمى ليضاف إلى الحضارة الاسلامية .

كما اننا نلاحظ أن المناطق الاقرب من المغرب الاسلامى إلى المشرق كانت أكثر تأثرا بالعرب فى العادات والتقاليد واللغة حيث نجد فى ليبيا معظم سكانه كانوا ينتسبون إلى قبيلة أولاد على وهو فى هذا يعد امتدادا لما نجده فى الجانب المصرى من القبيلة حيث نجد الفروع الشرقية من تلك القبيلة التى تمتد بطونها غربا حتى تصل إلى طرابلس وقد يرجع ذلك إلى تغلغل نفوذ عرب الزحف الهلالى وزيادة تأثيرهم فى المغربين الادنى والاوسط، بل اننا نجد أن من ينظر إلى أقوال علماء علم الانساب

(النسابة) وأقوالهم فى المغرب يرى انهم يدخلون بعض البربر فى العرب أو يفعلون العكس. فيدخلون بعض القبائل العربية كهوارة فى النسب البربرى أو نرى بعض القبائل العربية تدعى النسب العربى (صنهاجة، المصامدة) ونرى من يقول بالاصل الوافد للعرب والبربر وهكذا فان الخلط بين نسب العرب والبربر دليل على أن الفروق بينهما كانت تختفى. كما تعتبر محاولة البربر الانتماء إلى العرب دليلا على نية صادقة ونزعة قوية للتعريب وكان التقارب هو الذى ساعد على اندماج العرب مع البربر وعدم اندماج البربر بمن سبق العرب فى الوصول إلى المغرب من الرومان والقرطاجيين وغيرهم من المستعمرين .

وقد وجد البربر أنفسهم بعد الفتح العربى الاسلامى ازاء شعب من بنى عمومتهم يشاطرونهم ويشاركونهم مثلهم وعاداتهم وتقاليدهم فهنا امتزج العنصران ولم يزد توالى القرون التماذج الا قوة وعمقا ومن معابر انتشار العروبة نجد ان الزحف الهلالى كان له انجاز ضخم فى اقليم المغرب من الناحية الحضارية فقد ضموا إلى العروبة أمة عظيمة هى أمة البربر وأضافوا إلى الرقعة العربية منطقة واسعة هى منطقة المغرب العربى بأقسامه المختلفة (ليبيا– تونس، الجزائر، المغرب، موريتانيا) ولم تتم هذه الانجازات فجأة وانما تمت فصائل الزحف الهلالى بالتدريج وتغلغلت آثارها فقد تمت الهجرة ببطء وملا العرب بلاد المغرب بالتدريج فقد جاوز العرب طرابلس الغرب بعد أن مكثوا بها سنين وزحفوا خطوة وسكنوا الاودية جماعات جماعات على مهل واختلطوا بالسكان رويدا رويدا وزادعددهم وأصبحت عاداتهم وتقاليدهم وقيمهم وتراثهم الحضارى ولغتهم بعد بضعة قرون هى المغرب بصورته الواضحة ولقد كان الزحف الهلالى بلا منازع أهم حدث عرفته بلاد المغرب أثناء العصور الوسطى فهذا الزحف الهلالى الواسع الانتشار قد أثر أكثر من الفتح الاسلامى فى القرن الاول الهجرى فكانت بصمات الهلالية بصمات



واضحة لم تستطع القرون أن تمحها أو تؤثر فى البناء العربى الاسلامى فقد صمد هذا الطابع العربى للمغرب أمام الغزو الاستعمارى بالقوة والحزم ووقف أمام محاولات النيل من عروبته فأفشل مخططات القوى المعادية أن تنال من عروبته فقد تمكن المغاربة من الوقوف أمام التيار الاستعمارى الجارف ومحاولات النيل من ثقافته ونجحوا فى التغلب عليه وكسر حدته وطرده من الديار المغربية بعد احتلال زاد عن مائة وثلاثين عاما فى الجزائر .

وها هى الصحافة العالية (ديسمبر ١٩٩١) تتحدث عن الانتصار الباهر الذى حققته جبهة الانقاذ الاسلامية فى الجزائر فى الانتخابات وحصولها على ١٨٨ مقعدا فى الجمعية التأسيسية البالغ عدد أعضاءها ٣٤٠ عضوا وحصولها على نسبة ٤٤ ٪ من مجموع المقاعد التى رشح فيها أكثر من خمسين حزبا سياسيا ولم يكن ذلك النجاح الكاسح الا عودة للعروبة والاسلام وليس للتغريب واللسان الفرنسى، أن المسيرة الهلالية قد وضعت الفرشة الواسعة العريقة العميقة الجذور التى مضى عليها عشرة قرون (ألف عام) لكى يصمد المغرب فاذا اذ لم يكن قد تحرك مليون عربى هلالى أو نصف مليون منذ عشرة قرون. فإن الصورة قد تكون مغايرة تماما لما عليه الحال الآن .

## البعد الاجتماعى للغزوة الهلالية

تركت الغزوة الهلالية بصماتها واضحة جلية فى شتى نواحى الحياة فى بلاد المغرب وتعمقت أبعادها فى شتى المظاهر الحضارية فاذا كنا قد تحدثنا فى الفصل السابق عن البعد الحضارى فى سيادة الدماء العربية وتغير التركيبة السكانية وامتزاج العرب مع البربر وانتشار الدماء العربية على نطاق واسع وما تلى ذلك من أثر على اللسان الذى تحول إلى لسان عربى فصيح وانتشار اللغة العربية لغة القرآن الكريم واتخاذها لغة تخاطب وكتابة وفى الدواوين، فان ذلك لابد ان يؤثر انعكاساته القوية

على النواحى الاجتماعية والحياة اليومية فبعد التماذج والتصاهر وظهور جيل عربى فان ذلك كان له مفاهيمه الاجتماعية وعاداته وتقاليده التى اتخذت الطابع العربى الهلالى.

فقد تأثر العرب بمعتقدات كانت تسود فى عاداتهم رغم مرور القرون العديدة حيث نقلوا العادات والتقاليد التى جاءت معهم من شبه الجزيرة العربية حيث الاستقرار النهائى فى بلاد المغرب وقد تأثرت القبائل العربية الهلالية بالمغرب بمعتقدات الجاهدية وعاداتها الذميعة، الا أن الصفات الحميدة كالكرم والشجاعة وحسن الضيافة والجوار ونجدة الملهوف كل تلك كانت عادات سرت فى الحياة المغربية وأخذ البربر من اخوانهم العرب تلك السلوكيات التى تنم عن الشجاعة والوفاء والكرم وحسن الجوار، لكن الاسلام الحنيف وشريعته السماوية الغراء المستمدة من القرآن الكريم والسنة المطهرة قد شذب من عاداتهم وتقاليدهم ووجههم نحو الخير .

وتبدو روح القبيلة وترابطها واضحة جلية فيما يعرف بالجوار فقد كان العرف المتبع بين القبائل العربية اجارة من يستجير بالقبيلة فاذا طلب شخص غريب من القبيلة حمايته من قبيلة أخرى عندما يتعرض لخطر فان القبيلة تقبل اجارته وتدفع عنه ما يتعرض له من ظلم وغصب وحيق وحرق وتقوم بتأييده ونصرته وكان الجوار معترفا به قبل النزوح إلى المغرب لكنه أصبح جزءا من العرف السائد بين القبائل وقد أخذت به القبائل البربرية كصنهاجة وكتامة وزناتة وهوارة ومغراوة وغيرها من القبائل البربرية الاخرى اذ رأت فى ذلك العرف نوعا من الشجاعة والكرم والبأس والقدرة على حماية المستجير .

والتاريخ العربى الهلالى فى عصر بنى زيرى والموحدين وبنى حماد ملئ بأمثلة جوار وقدسيته فقد أثر عرب افريقية قتل ابناءهم على تسليم جارهم والغدر به ولو أتى



القتل على كل القبيلة وكيف كان الامراء المتصارعون على الحكم والثوار فى وجه الدولة يلجأون إلى القبائل العربية لحمايتهم من بطش السلطان أو قواته وكيف كان العرب يحسنون جوار من يلجأ اليهم .

هذه صفات وأعراف عربية أصيلة فمن يتمسك بها يأبى عليه وازعه الضميرى أن يقوم بالسلب والنهب والقتل والتدمير كما صور ذلك ابن خلدون .

وقد أجار عرب الزواودة بافريقية المغضوب عليهم من أبناء الدولة الزيرية والحمادية أو الهاربين خوفا من بطش حكامها واللاجئين اليها طلبا للحماية مما جعل القبائل العربية فى صراع دائم مع الدولة بسبب الجوار الذى أخذه البربر عن اخوانهم العرب. ونتيجة لانتشار القبائل العربية بالمغرب وتعدد مواطن استقرارها فى جميع أنحاء البلاد امتزجت بقبائل البربر وصاهرتها مما ادى إلى تطور مفاهيم القبيلة العربية فيما يختص بالعلاقة التى تربط الرجل بالمرأة والزواج والحلف والجوار والشعر والغناء والزى وحركة التنقل والارتحال ومساكنهم وحكامهم وعلمهم واختيارهم لشيخ القبيلة ومساعديه وتأثرهم فيما يختص بالعادات والتقاليد وتأثر ثقافتهم بطريقة التعليم فى المغرب لحاجة القبيلة المستمرة إلى زعيم القبيلة والقاضى والمفتى لمساعدة الزعيم فى حكم القبيلة .

وكذلك إلى جانب كل هذا كان المظهر الدينى الاخلاقى الذى تجلت صورته بوضوح فى حياة بعض رؤساء القبائل وأفرادها الذين كرسوا حياتهم للعلم والدين وبناء المساجد والاربطة والزوايا وعمل الخير .

كذلك فانه عندما استولى الموحدون على بجاية من أيدى بنى غانية فان بعضا من سكانها خافوا على أنفسهم من بطش الموحدين فلجأوا كمجموعات كبيرة إلى القبائل العربية المجاورة لمدينة بجاية فأجارتهم وحسن جوارهم حتى استقرت الامور فى البلاد وعادوا إلى مساكنهم ولقد تحملت القبائل العربية ضغط الدولة عليها من أجل

تسليم من سبق اجارته وكان الرفض طابع العرب فى معظم الحالات .

كذلك نقل العرب إلى المغرب ظاهرة التحالف والاحلاف التى كانت تتم بين القبائل عملا على الوقوف فى وجه عدو مشرك، ذلك لان القبيلة منفردة وحدها قد لا تقوى على مواجهة أعدائها فكان لابد أن تنضوى تحت لواء حلف قوى يضم العديد من القبائل مما يدعم قوتها ويحافظ على وجودها وقد تكون الاسباب العسكرية من أهم مظاهر ظهور الاحلاف أو تكون عوامل اقتصادية أو تجارية والحلف أن يحلف الجميع على عهد يعاهدون عليه أن يكونوا يدا واحدة وصفا واحدا فى مواجهة الاخطار المحدقة بهم فقد تحالفت قبائل زناتة مع رباح وتحالفت بنى توجين مع الاثبج وتحالفت مغراوة مع بنى المعقل وظهر تحالف كثير من قبائل البربر مع العرب الهلالية فى مواجهة الاخطار الجسيمة التى تتعرض لها البلاد كما ان العرب وقبائلهم وبطونهم كانت تضمهم الاحلاف ساعة العسرة والشدة فقد تحالفت عرب رباح وزغبه وبنو قرة والاثبج وتناسوا ما فيهم من عدوان وتأثرات فى مواجهة زحف الموحدين على افريقية واستطاعوا بهذا الحلف هزيمة قوات عبد الله بن أمير المؤمنين عبد المؤمن بن على، كذلك تحالفت القبائل الهلالية فى المغرب الاقصى من عرب العاصم والخلط وسيفان وبنى جابر والحارث فيما بينهم ضد استبداد الوزير عمر بن عبد الله وغمس العرب أيديهم فى الماء، بل أكثر من ذلك فانهم يعقدون الحلف عند قبر أحد الشيوخ الصالحين المشهود لهم بالكرامات لكى يكون للحلف طابع الاخلاص والقدسية وتأخذ صبغة دينية. ثم يتصافحون بعد ذلك على التمسك بالحلف وقد سرى نظام الاخلاف طوال عصر الوجود العربى فى دولة المرابطين والموحدين وقبلهم بنى زيرى وبنى حماد ثم انتشر على نطاق واسع فيما بعد وساد المغرب عرف الحلف والتحالف عند الشدة والذى أصبح قيمة اجتماعية أخذت بها القبائل كجزء من ميراثها الاجتماعى الذى



جاءت به من الجزيرة العربية واستمر متوارثا عبر الاجيال .

وانه اذا ألقينا نظرة فاحصة ومتعمقة فى ميراث العرب الهلالية الاجتماعى فاننا نجد أن هذه الجماعات العربية كان يربطها رباط قوى من التقاليد والقيم والميراث العربى الاجتماعى رغم ما يدور بينها من صراعات وعداوة، ذلك لان روح الجماعة كانت تغلب وتسيطر على تصرفاتهم عند الشدة، فلم يكن العرب يفرطون فى من تربطه بهم أدنى صلة أو رابطة فعندما انتصر الموحدون على عرب الخلط، وأن عرب بنى سفيان وبنى جابر سعوا لدى الخليفة وطالبوا بنقل الاسرى من النساء والذرية إلى دار الاشراف حيث قام عرب بنى سفيان وبنى جابر بما تمليه عليهم الطبيعة العربية من الشهامة والمروءة والكرم مع نساء الخلط وانه اذ كان الانتصار إلى القتال والحث عليه سمة من سمات البربر قبل قدوم العرب الهلالية إلى المغرب الا أن ذلك الشعور قد ظهر بصورة أكثر وضوحا عندما تجاور العرب أبناء عمومتهم واخوانهم البربر واختلطوا بهم، كذلك ساد مفهوم التوفيق والتصالح ومجالس الصلح من القبائل بعضها ببعض لمواجهة الاخطار التى تحدق بالجميع عملا على انقاذ القبائل من خطر داهم يتهددها، فلقد كان كثير من المواقف القتالية أو صد عدوان على حرمة القبائل أو قبيلة معينة يستدعى أن يبايع الجميع على الموت وأن يصبحوا يدا واحدة وسيفا واحدا رغم ما كان من تباين أغراضهم وفساد ذات بينهم .

وقد بلغ من أهمية الاحلاف أو التحالف وقدسية هذا النظام الاجتماعى فى حياة القبيلة ان أصبح فى بعض الحالات علما على القبيلة المتمسكة به حتى لا يختلط الامر على البعض فيطلقون اسم الحلف على قبيلة أو قبائل أخرى كما حدث فى حلف «أبى قحافة» بين عرب النضر وبنى عامر من زغبة اذ يزعم البعض انتساب عرب النضر بن عروة إلى «أبى قحافة» بينما يذكر شيوخ القبيلة انه ليس الا اسم حلف كان

يجمعهم مع عرب بنى عامر من زغبة وان اختلاف البطون لا يثنيه تحالف القبائل .

وهكذا فان زحف بنى هلال على افريقية (تونس) والمغرب الاوسط (الجزائر) والمغرب الاقصى (المغرب وموريتانيا) ذا تأثير عظيم على الحياة الاجتماعية والثقافية أيضا، أما تأثيره الاجتماعى فيبدو فى دخول عناصر جديدة بدوية فى هيكل المجتمع المغربى وتركها بصماتها فى كل الامور، ولقد كان لهذه العناصر خصائصها العقلية والخلقية من حيث الشجاعة والحرب والشهامة والكرم والادب وكره النظام والحكومة المركزية والضرائب ولا شك أنهم بمخلطتهم ومعاشرتهم للقبائل قد أثروا فيهم وتأثروا بهم فى القرى وفى المدن، وبعد فترة من الزمن أخذ البربر يقلدونهم فى أساليب حياتهم ويأخذون عنهم أساليبهم التى مهرو ابها، وقد تجلى تأثيرهم اللغوى فى نشر لغة التخاطب العربية بين القبائل البربرية وقد كان احتكاكهم الدائم لبعض قبائل زناتة وفروع البربر الاخرى بالصحراء وغيرها عاملا فعالا فى تعريبها تماما واستمر التعريب والعربية يعملان عملهما طيلة القرون اللاحقة حتى لم تبق البربرية ولهجاتها أداة تخاطب فى أماكن محدودة ومحصورة بين الجبال وفى نطاق ضيق كما سبق القول .

ولقد كانت مرحلة التنقل والارتحال فى فصول العام سمة من سمات البدو الرحل الذين تطيب لهم حركة النقلة والارتحال وراء العشب والكلا والمراعى وأماكن وجود المياه فقد انتشر العرب فى كل بقاع المغرب من أجل الاستقرار حول أماكن تجمع المياه وطابت لهم الرحلة حتى ان بعضا من القبائل العربية قد توغلت فى القرن الخامس والسادس الهجريين حتى أدركت نهر السنغال كما ذكر ذلك أستاذى الدكتور حسن محمود (قيام دولة المرابطين) .

ويسود بلاد المغرب ظاهرة الهضاب الفسيحة مما قضى بها بوجود ظاهرة البداوة التى تعتبر ظاهرة اجتماعية اقتصادية ذلك لان سكان هذه المناطق من القبائل العربية



والبربرية لا يستطيعون الاعتماد على موارد الاقليم القاطنين فيه فيضطرون إلى النقلة والارتحال انتجاعا للكلا وطلبا للمرعى والمعيشة المشهودة .

ومن هنا كانت الظاهرة الاجتماعية فى ظل هذا المجتمع البدوى أن يشتد التناحر فيه بين السكان وتكثر الهجرات من مكان إلى آخر وتثور الفتن وتنتشر الغارات ولا تتعلق القبائل وبطونها بالارتباط بالارض بالصورة التى نجدها فى مجتمعات السهول والوديان حيث الاستقرار الدائم وانهم لا يدافعون عن أرض معينة طالما انه من الممكن الانتقال إلى مكان آخر توجد فيه وسائل المعيشة ميسورة انما كان الدفاع عن الاسرة والعشيرة والقبيلة فأصبحت القبيلة محور الحياة فى المجتمع المغربى العربى .

ومن هنا كان السكان يرتحلون صيفا وشتاء إلى جهات تتوافر فيها مصادر الرزق والمعيشة ومصادر الحياة وهذه الحركة المستمرة شمالا وجنوبا فى مختلف مناطق المغرب فى أنحاء أماكن العشب والكلا كمرعى للابل والماشية كثيرا ما كان يترتب عليها حروب نظرا لقيام قبيلة لسلب مرعى قبيلة أخرى وأراضيها .

ولقد كانت القبائل البربرية أكثر معرفة ودراية بأماكن المرعى والكلا والعشب ومصادر المياه لان هذه أوطانها، ومن هنا كانت تترك أماكنها للقبائل العربية وتندفع زاحفة غربا وجنوبا فى حركة اخلاء تامة لاماكن استقرارها بعيدا عن مواطن العرب فى بداية الزحف الهلالى، لكن لم يمض وقت طويل حتى عاد البربر إلى أماكن سكناهم وجاوروا العرب وجاورهم العرب واستقروا جميعا فى أماكن واحدة وما صحب الاستقرار من اصهار وامتزاج وحسن جوار ونقل كل القيم والعادات والتقاليد .

لكن ظاهرة النقلة والحل والترحال كانت مرحلة أولى من مراحل الاستقرار الهلالى ذلك لان الزحف الهلالى كما جاء فى أقوال الكثير من المؤرخين كان يتميز بأن العرب المستقرين فى بلاد المغرب كانوا من بدو العرب انتقلوا بأحيائهم وحللهم

وخيامهم وجاوروا أهل البلاد من البربر الذين لم يكونوا يعرفون الخيام والتى كان يصحبها العرب معهم والتى كانت تصنع من الوبر والصوف ويسهل هدمها عند غزوهم أو حروبهم .

لكن لم يمضى على دخولهم المغرب الا فترة يسيرة حتى بدأوا يستقرون ويتأثرون بالمظاهر الحضارية العمرانية وانتقل بعض زعمائهم من سكنى الخيام إلى سكنى القصور وحياة النعيم والرفاهية واتخذوا من الخيول العربية الاصيلة مطية لهم بذلا من الجمال، ودخلت حياة الرفاهية بين فصائل القبائل العربية وانهم كانوا يعتمدون كثيرا على أنعامهم التى كانت تهتم بها القبائل العربية الهلالية فهم لا يستطيعون أن يستغنوا عنها فى جمع التصاريف .

وكان لكل قبيلة شيخ يتولى ادارتها ورياستها ويكون صاحب القول الاول فى شئونها واليه يلجأ أفراد القبيلة فى كل أمر من أمورها وهو كبير القبيلة أو البطن أو الفخذ ويكون زعيم أو رئيس المجلس القبلى أو ما يسمى رياسة القبيلة الذى يتكون من مجموعة من الافراد يعاونون شيخ القبيلة وكان شيخ القبيلة يعاونه فى ادارة أمورها أحد أقاربه أو أبنائه أو اخوته بناء على تزكية من أفراد القبيلة أو وجود اجماع عليه ويتم الاختيار لهؤلاء الاشخاص لتمتعهم ببعض الصفات المتميزة كالثروة والجاه والفراسة والصفات القتالية أو حسن الاخلاق والسيرة والقدرة على حل المشاكل وايجاد السبل للتغلب عايها .

وقد كان للقبيلة حق تغيير زعيمها وشيخها اذ ما أساء التصرف وأدى من الاعمال مالا يتلاءم مع مصالح القبيلة أو عرض وجودها للخطر أوتسبب فى مذلة أو شرف القبيلة أو أدى من الاعمال ما يمس شرف القبيلة بل ان الامر كان يصل إلى حد القتل والاغتيال عندما يحاول كبار لقبيلة عزله ولم يستجب فكان يتم الاتفاق على



اختيار من يثق فيه ويجوز الاجماع ويتم خلع من يتولى اذ كانت أفعاله تحقق أهدافا شخصية وكانت الشجاعة القتالية والحربية وكثرة الجمع حوله من أبنائه وأقاربه واخوته وذوى الوشائج والتفاف قلوب القبيلة حوله لاسيما شبابها الذى كان يجد فى شيخ القبيلة مثله الاعلى هذه الامور والصفات هى التى كانت تمهد السبيل أمام شيخ القبيلة للاستمرار فى رياسة قبيلته والعمل على مصلحتها .

لكن عندما استقرت بعض من القبائل الهلالية فى المدن واعتمادها سكنى الامصار وتغلبت عليهم حياة المدن وانصرفوا عن حياة البداوة فانهم تشبهوا بنظام الدولة فى ادارة المدن التى تخضع لسيطرتهم كما فعل ذلك بنو جامع الذين حكموا مدينة قابس وسيطروا على المدينة ما يقرب من تسعين عاما، وكذلك كان لكل قبيلة وزير يتولى أمورها كما حدث لعرب بنى فزارة .

وكان لكل قبيلة رجل يقوم بأمور الكتابة وكان لشيخ القبيلة وكيل عنه يقوم بجباية الاموال والاقطاعات الممنوحة من الدولة للقبيلة، وكان للقبيلة رجل محكم أو مفتى ويستفتى فى المشاكل التى تقع من الافراد بعضهم وبعض وتقبل أحكامه والذى كان لابد أن يكون ملما بأمور الشرع والدين حافظا لكتاب الله وعاملا بسنة رسوله الكريم .

كذلك قبائل بنى هلال التى كانت تقطن الاراضى الحجازية بالقرب من مكة المكرمة والمدينة المنورة كانت ترى فى القرآن الكريم مرجعها ومن هنا حرصت كل البطون والقبائل والافرع على تعليم أبنائها حفظ القرآن الكريم، ومن المرجح بل الثابت أن القبائل العربية الهلالية المستقرة فى المدن فى بلاد افريقية والمغرب وكذلك التى تسكن البوادى تأثرت بنظام التعليم الدينى الذى كان سائدا فى الدولة (بنى زيرى، بنى حماد، المرابطون– الموحدون، بنى حفص، بنى زيان، بنى مرين) ونهج زعماء القبائل

وشيوخها على تعليم أولادهم العلوم الاسلامية ومنها حفظ القرآن الكريم والحديث النبوى. وذلك لحاجة القبيلة إلى من يعلم أبناءها ويحفظهم القرآن الكريم فانتشرت الكتاتيب فى البوادى والقرى وفرق قمم الجبال والمدن الكبرى، بل فى الكهوف حيث بعض سكان البربر، بل أن رؤساء القبائل كانوا يرسلون كل أولادهم لحفظ القرآن الكريم، وكذلك فان هؤلاء الصبيان (الولدان) كانوا من مختلف بطون القبيلة، بل ان بعض القبائل كانت ترسل أبناءها إلى القيروان أو المدن الكبرى ليس لحفظ القرآن الكريم فقط بل الحديث وبعض العلوم الاخرى الاسلامية. وهكذا ظهرت القبائل العربية الهلالية بمظهر دينى أخلاقى تجلت صوره بوضوح حتى جاء بعض رؤسائها وأفرادها الذين كرسوا حياتهم للعلم والدين وعمل الخير واغاثة الملهوف والمحتاج واقامة الزوليا والربط والمساق فى مختلف أنحاء المغرب وتسهيل حركة التجارة والعمل بقوة وعنف ضد قطاع الطرق ومساعدة التجار فى العبور عبر أماكن اقامة القبيلة وظهور الكثير من الفقهاء والصالحين الذين كانوا نساكا عبادا وكانوا لا تأخذهم فى الله لومه لائم .

كذلك فان بنى هلال وهم يقطنون أرض المغرب البعيد عن الاراضى المقدسة فى الحجاز لم ينسوا أداء فريضة الحج فكثيرا ما كان شيوخ القبائل العربية بل بعض من أفرادها بالمغرب يصاحبون ركب الحجاج المغربى حيث كان العلماء يمشون إلى الحجاز فى ركب الحجيج المتجه إلى مصر ثم إلى الحجاز، فقد سافر بعض من عرب سويد وهلهل والخلط وغيرهم حاملين أموالا وهدايا إلى بيت الله الحرام والكعبة المشرفة والانفاق على فقراء الاراضى المقدسة وكانت القبائل العربية على طول الطريق تقوم بتسهيل أمور الحماية لقوافل الحجاج عبر بلاد المغرب سواء المستقرة أو البدوية كذلك فان وجود زعماء من العرب بركب الحجيج لابد وأن يكون معه تابعوه من فرسان



قبائلهم ورجال بطونهم لحمايتهم بصفة شخصية .

وكذلك كان ينضم لركب الحجيج العربى حجاج المغرب الاوسط والادنى والذين كانوا ينتظرون على طريق السفر وصول ركب المغرب لكى ينضموا اليه ومن هنا يكون موكب الحج سنويا لا يخلو من نخبة من رجال العرب وشيوخها وفرسانها وكان وجود جند الحدود من الفرسان العرب عاملا من عوامل الطمأنينه للركب مما كان يفسر على عدم التعرض لهذا الموكب الزاحف إلى الاراضى المقدسة وكان الركب يصل دائما إلى مصر رغم مروره بمناطق استقرار القبائل العربية ببلاد المغرب وكان الركب يحمل معه الهدايا والاموال الكثيرة التى وصلت فى احدى الرحلات إلى مائة وخمسين ألف دينار ذهبا وكسوة للكعبة الشريفة ومصحف مكلل بالجوهر والياقوت والاموال الطائلة التى كانت ترسل لتوزع على أهل مكة المكرمة والمدينة المنورة وهى أموال كان يسيل لها لعاب قطاع الطرق والمفسدين، بل أن الركب كان ينعم بوفاء وكرمه وضيافة واستقبال القبائل العربية التى تسكن على طريق الحج .

وهكذا يتضح لنا دور العرب الهلالية فى نشر الطمأنينة والامان والعلم والايمان والعمل بما جاء به القرآن الكريم ومن كل هذه الخصال والصفات الاجتماعية التى انتقلت إلى المغرب وسادت الحياة اليومية لاهل المغرب نجد ذلك التلاحم والامتزاج والانصهار بين عناصر العرب والبربر مما ساعد على وجود تلك الفرشة العريضة والواسعة من البناء السكانى العربى والاجتماعى فى السلوك والعادات والقيم والتقاليد والاعراف التى لا زال يتصف بها الانسان المغربى الذى يبدو فى تصرفاته ملامح الانسان العربى المغربى الهلالى الذى نقل مفاهيم وحضارة الجوار الحجازى للمدينة المنورة ومكة المكرمة إلى أرض المغرب .

فانتقلت مفاهيم واعراف وقيم وعادات لم تكن سائدة فى البوادى والجبال

والسهول حيث كانت الزحفة العربية الاولى قبل منتصف القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى يقتصر دورها على العرب المستقرين بالمدن والامصار والذين أسسوا المدن الاسلامية وأقاموا الدويلات العربية الاسلامية ببلاد المغرب وذلك حتى أواسط القرن الخامس الهجرى، وهكذا كان انتقال القبائل العربية من هلال وسليم ومعقل إلى بلاد المغرب وانتقالها وامتزاجها مع العناصر المستقرة من البربر مظهرا من مظاهر التغير الاجتماعى الذى عرضنا له فى هذا الفصل وخدمة للاجيال اللاحقة التى ورثت مفاهيم اجتماعية ذات أصول عربية راسخة عاشت على تربة المغرب فأتت ثمارها فى ذلك الرصيد الحضارى الاجتماعى الزاخر فى أوجه الحياة المغربية .

## البعد الاقتصادى للزحف الهلالى

لقد أتيح للعرب الهلالية عندما استقرت جموعهم فى مناطق استقرارهم بعد أن هادنوا السلطة السياسية واندمجوا مع الكيان السياسى للبلاد التى استقروا بها سواء بنى زيرى أو بنى حماد وتعاونهم مع المرابطين والموحدين وانتشارهم فى شتى أرجاء المغرب أن تسهم هذه القبائل فى تنمية اقتصاد البلاد التى وطنوا فيها حيث أن كثيرا من مدن المغرب المختلفة قد اتخذها الهلالية أوطانا استقروا بها أو كانت ضواحيها ومراعيها موقع استقلالهم وسيطرتهم، لقد شارك الهلالية فى البعد الاقتصادى للدول التى استقروا فيها فقد كانوا يتحركون فى يسر وسهولة كما سبق القول ومن هنا ساهموا فى الحركة الاقتصادية وساهموا فى تنمية موارد الدول التى استقروا بها سواء كانت زيرية أو حمادية أو مرابطية أو موحدية ثم فى العصور اللاحقة مع بنى حفص وبنى زيان وبنى مرين .

وقد أدخل الهلالية إلى المغرب تربية الخيول العربية الاصيلة التى انتقلت معهم من مصر والجزيرة العربية ولقد كان من الطبيعى أن تهتم القبائل العربية فى المغرب



وأنواع الحيوانات المختلفة التى جلبتها معها من مصر وبلاد العرب حيث انها لاتستطيع أن تستغنى عن ممتلكاتها من الاغنام والمواشى والانعام وقد استفادوا بخبرتهم فى الاحتفاظ بسلامة أنساب الخيول والابل وكانوا يدافعون عن ثروتهم الحيوانية أكثر مما يدافعون أى شئ آخر فقد كانوا يحمون بها حريمهم وتعينهم على الاغارة والنجاة وتصحبهم حيثما يكونون حتى أصبحت هذه العلاقة الحيوية بين الفرسان والخيل يضرب بها المثل فى التعاطف والتآلف واشتهر بنو سليم وهلال بنى عامر بتوليد وتكثير الخيول الاصيلة وارتباطهم بهذا الحيوان فقد اعتمد الهلالية على الخيول فى فتوحاتهم فى هذه البلاد المترامية الاطراف فى أواخر القرن الخامس وقبل وفاة المعز بن باديس الزيرى يفضل كانت هديته إلى قرطبة خمسين فرسا ثم الحقها بتسعمائة بعد عودة ابنه من قرطبة، لكن معنى دور الهلالية فى كثرة وانتاج الخيل أن الخيل لم تكن موجودة قبل الزحف الهلالى، لقد كان لعرب الفتح دور فى ادخال الخيول العربية الاصيلة لكن الهلالية زادوا من أنواعها وأدخلوا سلالات جديدة لم يكن المغرب العربى يعرفها من قبل ولم يكن البربر يعتادون على تربية الخيول وركوبها فعلم الهلالية لهذه القبائل فن التلقيح الصناعى فى التوليد ثم كيفية انتجاع الخيول فى الكلا والمرعى .

ونظرا لاستقرار القبائل العربية فى بداية انتقالها إلى المغرب فى المنطقة الممتدة من برقة حتى المغرب الاوسط ازدهرت فى منطقة افريقية تربية الخيول حيث انتشرت الخيول السابقة حتى منطقة تلمسان وعندما انتقلوا إلى جميع أنحاء المغرب وانتشروا فى بواديه وأوديته فقد نقلوا معهم الخبرة العربية فى تربية الخيول فتأثرت بعض القبائل الزناتية (بنى توجين، بنى مغراوة) وغيرهم بهم وأخذوا عنهم تربية الخيول وتحسين أنسابها حتى اشتهرت الخيول العربية العازازية نسبة إلى بطن من زناتة وبلادهم تقع فى منطقة تادلا وكذلك قبائل جبل راشد من زناتة حيث كانت لهم شهرة فى تربية الخيول

وينسب أيضا إلى قبائل بنى حميد من زناتة وهى فرع غمارة البربرية بانتاج نوع معروف من الخيول العربية الاصيلة تعرف بالخيول الحميدية .

ويبدو أن قبائل عرب ذياب من سليم والمستقرين فى المنطقة الممتدة من برقة إلى قابس كانوا متخصصين فى تجارة الخيول ونقلها من بلاد المغرب إلى مصر المملوكية بالقاهرة حيث كانت حاجة الجيوش المملوكية إلى الخيول أشد وأكثر وبذلك تاجرت ذياب فى الخيول وكان يتم نقلها إلى الاسكندرية .

ويبدو ان الدول الحاكمة فى بلاد المغرب قد اعتمدت فى تزويد جيوشها بالخيول العربية بجانب ما كانت تنتجه مراعيها على انتاج الامارات العربية المختلفة بافريقية وكانت مراعى هذه الدول تحت رعاية واشراف القبائل العربية .

كذلك يتضح لنا من سير الاحداث فى بلاد المغرب الغربية الدور الذى لعبه عرب قيس فى انتجاب الاغنام وكذلك عرب عبد الله فى تربيتها حتى حازت الشهرة وقد أطلق على أهم أنواع الغنم الموجود بالمغرب لفظ المرينى نسبة إلى الدولة المرينية ومن المغرب نقل إلى الخارج، ويبدو أن شهرة الاغنام المرينية تعود فى حقيقة الامر إلى خبرة القبائل العربية واصالة المواشى التى نقلوها معهم أثناء الزحف إلى المغرب ولقد كانت تربية الخيول والاغنام تحقق للدولة ايرادا كبيرا .

وكما ذكر بعض المؤرخين أن الهلالية عندما دخلوا افريقية كانوا يغيرون على المزارع ويطلقون قطعانهم من المواشى والاغنام تأكل الحاصلات ويعيثون فيها فسادا، الا اننا نجد بعض المؤرخين يذكر انه قد نتج عن تخريب المزارع تخريب معالم الاقتصاد المغربى وفشل نشاط المزارعين البربر فيه مدة طويلة لكن بعد فترة من حياتهم بالمغرب أخذوا يقلدون البربر ويأخذون عنهم أساليب الزراعة والتجارة التى مهروا فيها قديما .



هذا واذا كان العرب الهلالية قد كان لهم دور كبير ومؤثر بل فعال فى تنمية الثروة الحيوانية ببلاد المغرب الا أن ذلك لا ينفى انه وجد من العرب الهلالية من استقر بالضواحى وزوال الزراعة وفلاحة الاراضى وذلك فى العديد من المواطن التى استقرت فيها بعض هذه القبائل التى اضطرت للاستقرار على طول بلاد المغرب من حدود برقة شرقا إلى المحيط الاطلسى غربا فقد ساهم العرب فى العديد من المناطق فى الزراعة وفلاحة الاراضى الصالحة للزراعة واستصلاح الاراضى الصحراوية وتهيئتها للزراعة، على الرغم من تخريب العرب لبعض مدن الاقليم الا انهم نجحوا فى اعادة تعميره والعمل على ازدهاره وانهم استعانوا بالبربر الذين يحترفون الفلاحة. وبعد الاستقرار تحول العرب إلى الزراعة وازداد نشاطهم فيها وتحولوا إلى بناء المدن والمبانى الفخمة والاستغناء عن حياة الخيام ومن ذلك قبيلة الجوارى الذين عمروا القرى ونقلها اليها السكان وكان بدء التعمير عام ٥٥هـ/ ١١٥٥م وقد شارك زعيم قبيلة الجوارى العمل بنفسه حتى يحذو حذوه باقى أفراد قبيلته ويتعاون العرب فى الاستقرار فى القرى والاشتغال بالزراعة .

ولقد ظهر دور العرب واضحا فى الاقاليم الجنوبية على أطراف الصحراء حيث بلاد الجريد والتى كون الهلالية فيها امارتهم المستقلة وهى مدن وبلاد كثيرة تشتهر بالنخيل وكثرة المياه والعيون والارض الخصبة والتربة الصالحة للزراعة .

كذلك اشتهرت امارة قابس العربية بكثرة الانتاج من المحاصيل والحبوب، كذلك اشتهرت مدينة قفصة بالانتاج الزراعى من الفستق والفواكه وكانت أنواعها كثيرة، كذلك كان للعرب الهلالية وجود وسيطرة على بلاد الزاب وسكانها من العرب رزاد الهلالية كثرتهم وذكر ابن خلدون ان بلاد الزاب التى عاصمتها سكرة بها مائة قرية وتشتهر بتربية الابل والبقر بجانب النخيل والزيتون وتحسن بها تربية المواشى وزراعة

الحبوب والثمار حتى أصبح أهلها من أغنياد افريقية .

وهكذا فان بلاد الجريد والزأب التى كانت محل سكنى القبائل الهلالية جنوبا قد تعددت فيها الثمار والصناعات الزراعية لانها اعتمدت بصفة رئيسية على زراعة النخيل وتصنيع انتاجه وهكذا نلاحظ أن هذه المنطقة التى تكونت فيها امارات عربية كانت لها علاقة بالدولة أو علاقاتها ببعضها وبالقبائل العربية المستقرة، وهكذا فان هذه القبائل العربية التى كثرت أعدادها واستقرت واضطرت إلى الاستقرار الدئم وأن تندمج بمن جاورتهم من أهل البلاد من السكان لاشك انهم لعبوا دورا فى الحياة الاقتصادية بتلك النواحى سواء عن طريق احترافهم للزراعة أو التجارة أو الرعى وقد تملك العرب الهلالية البوادى والسهول حتى لم يبق بين الدولة الا ما ضمته أسوار المدن وكذلك بالاضافة إلى ما اقطعته لهم الدولة بالهبات والاقطاعات التى استفاد منها العرب وزرعوها وأفلحت المحاصيل الزراعية بها وقد كانت ملكية الاراضى الزراعية للقبائل التى تسكنها وقد شجع استقرار العرب الكثير من الناس على احياء الارض الجرداء حتى يمتلكوها اقطاعا، الا ان سيطرة العرب الهلالية على الارض قد أفقد بنى زيرى نفوذهم فلم تعد الارض لهم بعد هذه السيطرة. لكن هناك من يذكر (ابن خلدون) ان العرب الهلالية قد عاشوا فى الملكيات الزراعية عياث النار فى يبس العرفج وجاورهم فى ذلك ذوو النفوذ الاقتصادى والمركز الاجتماعى فكثر استغلال أرض الاخرين ظلما والتعدى على الاراضى فلجأ ضعفاء الناس إلى بيع أراضيهم بسعر زهيد، ولقد استفاد العرب الهلالية من الاستيلاء على الاراضى الزراعية واستغلالها أحسن الاستغلال لكى تؤتى بالمحاصيل الجيدة وأصبح العرب ملاكا كبار ومن أولى الشوكة بعد أن لم يكن لهم شيئ حتى ملكية الارض قد اقتصرت الملكيات الزراغية الكبيرة على جمع كبير من الاسر الهلالية الكبيرة وقد استغلوا نفوذهم فى ملكية الاراضى الزراعية وقد بسطوا



سيطرتهم الاقتصادية ولم يفلح وجود الموحدين من اضعاف هذه السيطرة على الرغم من هزيمتهم للعرب الهلالية لكن بعد الصلح معهم فان عبد المؤمن قد أمر العرب الهلالية بالعودة إلى أوطانهم وفلاحة أرضهم ومن هنا فقد اتسعت الزراعة فى المغرب كله وعم الرخاء أرجاء البلاد. وسادت الحياة الرفاهية إلى نهاية القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى لكن الثورات العربية فى قفصة وتحالف الهلالية مع الاعزاز ومع بنى غانية فى خلافة المنصور والناصر وما تم من تخريب قد اتسعت زروع قفصة وأثمارها وثمارها وذلك لسيطرة بنى هلال وحلفائهم على السهول الزراعية كلها.

وقد أثرت هذه القبائل فى الحياة الاقتصادية العربية المغربية تأثيرا ملحوظا اذ نقلوا إلى المغرب فى خبرتهم الطويلة فى تنمية موارد الثروة الحيوانية كما عهدت اليهم دول الغرب ادارة مراعيها وتربية أغنامها، كذلك نجحوا فى الزراعة والفلاحة وفى اعادة تعمير المنطقة الممتدة من برقة إلى طرابلس وزراعتها حتى اشتهرت قراها بأنواع خاصة من المحاصيل الزراعية التى كان يتم تصديرها داخليا وخارجيا .

وقد بذل العرب الهلالية جهودا كثيرة لتوفير المياه للزراعة واستخراجها من باطن الارض وجلبها من الاماكن التى تتوافر فيها إلى مناطق الزراعة وانهم اهتموا بالرى وأولوه عناية خاصة، اضافة إلى الامطار وذلك مستفيدين من خبرة من سيقوهم فى سكنى هذه الاقاليم حتى انهم ما أن استقروا حتى شرعوا فى استكمال ما بدأه أولئك السكان من العرب القدامى أو البربر حتى انهم أقاموا السدود لحجز مياه الامطار وحفروا القنوات للرى والزراعة وساعد وجود المياه على كثرة زراعة المحاصيل الزراعية فى السهول أو الجبال والوديان وكان العيش بجوار الاراضى الزراعية أو القرب منها حتى لتكاد القرى المنتشدة مثلا فى اقليم الزاب تكون متصلة مع الاراضى الزراعية .

ومن كل هذا يتضح أن العرب بعد استقرارهم فى القرن السادس الهجرى ونهاية

القرن الخامس قد كانوا عاملا هاما فى الاقتصاد الوطنى للبلاد وانهم ساهموا بما كان لديهم من امكانيات فى تنمية الموارد الزراعية وادخال محاصيل جديدة لم تكن معروفة من قبل فى البلاد وزاد زراعة الحنطة والشعير والقمح والزعفران وقصب السكر والقطن وزاد انتاج الحرير فى قابس واستفاد العرب من الاخشاب الموجودة فى تونس، وزاد ازدهار صناعة الحرير فى قابس والقطن فى قسنطينة والقمح والشعير والحنطة فى منيسجة، وكان استقرار الامن فى البلاد الشرقية بعد استقرار الهجرات الهلالية قد ساعد على ازدياد الايدى العاملة والناس حيث كان العرب الهلالية يضطرون إلى استئجار عمال زراعيين من البربر أو غيرهم من العبيد والسودان لقطف المحاصيل وجنيها وحملها إلى المدن وتميزت الاقاليم العربية بتنوع المحاصيل ووفرة الانتاج لاسيما فى السهول والجبال وأصبحت بلاد المغرب الاوسط المصدر الاساسى للطعام فى ظل حكم بنى حماد الذين نجحوا فى مداراة هذه القبائل وتقربها اليها بالاقطاعات والجعالات والاستعانة بفرقها النشيطة فى حروبها الاهلية فانفتح المجال أمام بنى هلال واستولوا على البسائط والسهول وساعد ذلك على التحسن الاقتصادى ورقى البلاد من آثار عدوانهم ونجح الحماديون نجاحا ملموسا فى ذلك مما ساعد على ازدهار النشاط الاقتصادى وتقدم الزراعة والحرف الاخرى التى أدت بدورها إلى الانتعاش التجارى وتقدم حركة التبادل وازدياد حجم التجارة .

وكما ساهم العرب العلالية فى الانتاج الحيوانى والزراعى فانه من الطبيعى أن تتأثر التجارة فى بلاد المغرب حيث انتشار القبائل الهلالية خلال القرن الخامس الهجرى وذلك بما طرأ من تغيرات على مراكز الانتاج الحيوانى والزراعى، ذلك لان الحركة التجارية قد نشطت بشكل جديد بعد استقرار العرب النهائى واندماجهم فى أطر الدولة التى يعيشون فيها ودخولهم فى التجارة فى الاسواق، هذا من ناحية بنى هلال



اما الدولة الصنهاجية فلم يكن امامها بعد سيطرة الهلالية الا المدن الساحلية أو المدن الداخلية الحصينة سوى الاعتماد على التجارة كمورد أساسى للدخل وقد أخفق بنو زيرى على الرغم من الجهود التى بذلها تميم بن المعز وابنه يحيى بن تميم فى تأمين الطرق التجارية (لبن الاثير، الكامل) ومن ثم فكروا فى البحر وحارلوا تأمين الطرق البحرية والاستفادة من خبرة أهل بلاد المشرق الاسلامى .

وقد استطاع بنو خراسان العرب حكام تونس الاستفادة من فرض الامن فى البلاد وحافظوا على علاقات طيبة من أجل التجارة، وكان بنو حماد حكام القلعة ثم بجاية فى وضع تجارى أفضل من أبناء عمومتهم بنى زيرى وذلك لما صالحوا العرب على وسائل تمنع هجومهم على المدن وأعفوا أهل بجاية من الضرائب على التجارة الداخلية إلى المدينة وكانوا على علاقة طيبة مع جيرانهم مما جعل بجاية من أهم مراكز التجارة فى السلع الواردة من بلاد السودان جنوب الصحراء الكبرى وبعد أن سيطر العرب الهلالية على بلاد المغرب فقد أخفقت قبائل زناتة البربرية فى حماية التجار وطرق التجارة. ذلك لقدرة العرب الهلالية ونشاطهم فى السيطرة على الطرق التجارية بين افريقية والمغرب وبلاد السودان حيث كانت الطرق الصحراوية تمر بمناطق استقرارهم إلى المدن الكبرى فى السودان .

وقد سيطر العرب فى منتصف القرن السادس على المدن التالية وهى زالة وزويلة ومنيج وودان وصرت وزويلة وصارت هذه المدن الخاضعه لسيطرة العرب الهلالية تحت سيطرة العرب واكتسبت مركزا تجاريا متقدما مع بلاد السودان (كانم، برنو، مالى، غانا، سنغاى) أنظر رسالة الدكتوراه والماجستير الخاصة بى (سلطنة برنو الاسلامية، السياسة الخارجية لسلطنة سنغاى الاسلامية) وكانت سيطرة بنى مزنى واتخاذهم بسكرة عاصمة اقليم الزاب تخضع لسيطرة القبائل العربية على هذه الطرق .

كذلك فان طريق المغرب الاقصى الممتد من سجلماسة ثم درعة إلى أودغست ثم النيجر فقد كان يخضع لحماية فرسان بن عبد الله نظرا لطول الطريق وكبر حجم القوافل التى تمر فيه، وقد تحكمت قبائل ذوى حسان وبنى عامر فى هذا الطريق الحيوى واحتكروا التجارة من المغرب وبلاد السودان ومع نهاية القرن السادس الهجرى تمكن عرب ذوى حسان من السيطرة على هذا الطريق بعد سيطرتهم على السوس واقتسامهم جبايته وحمايته من قبائل المصامدة وصنهاجة .

وقام عرب بنى معقل من الهلالية بالتجارة فى الملح يصدرونه إلى بلاد المغرب حيث كان الملح يحمل من سجلماسة ثم يصل إلى بلاد السودان، وكذلك فى المغرب الادنى قام عرب ذياب من بنى سليم الذين استقروا فى منطقة طرابلس وما حولها بالتجارة بالملح يستخرجونه ثم يرحلون به إلى بلاد السودان ثم كان عرب الجوارى من سليم يستخرجون الملح ويتاجرون به مع دول أوربا المسيحية شمالا. ويبدو أن العرب احتكروا تجارة الملح سواء مع بلاد السودان أو مع الدول الاوربية وتاجر العرب مع بلاد السودان من أجل الذهب والصمغ، وقد تغلب الهلاليون على طرق القوافل فلا يجتازها غيرهم الا بحراسة أحدهم وقام الهلاليون بحماية الطريق خير قيام ووسعوا نطاق التجارة بين المغرب وبلاد الصحراء .

وكما سيطروا على التجارة الخارجية والطرق الموصلة إلى بلاد السودان وأوربا فانهم أيضا سيطروا على التجارة الداخلية واحتكروا تموين بعض المدن بكل ما تحتاج اليه من سلع غذائية وآلت اليهم تجارة مدينة (بونة) عنابة وأمدوا مدينة تونس فى ظل حكم بنى خراسان بما تحتاج اليه من الحبوب والعسل والسمن وشاركوا تجار مدينة قسنطينة فيما يتاجرون حتى عمرت أسواقها بالعرب وأغنى تجارها، كذلك لعبوا دورا هاما فى التجارة مع الديار المصرية وبلاد الشرق كالشام وبلاد العراق واليمن والحجاز،



فقد سيطرت القبائل العربية بالمغرب على التجارة مع هذه البلاد وفرضوا سيطرتهم على الطريق التجارى المؤدى من الاسكندرية إلى طرابلس وأقاموا فرقا من الفرسان للفضاء على كل ما يهدد أمن هذا الطريق ضمانا لاستمرار الحركة التجارية ودوامها مع بلاد الشرق (البكرى، المغرب) .

وكانت برقة المحطة التجارية الاولى فيما بين مصر وبلاد المشرق الاسلامى وبلاد المغرب يحمل العرب منها إلى مصر الاغنام حتى قال البكرى أن أكبر ذبائح مصر من اغنام المغرب وكذلك العسل الذى اشتهر بانتاجه العرب وغيره من الصناعات والمواد التجارية التى كانت تجد اقبالا شديدا عليها فى بلاد مصر وبقية بلاد العالم الاسلامى الشرقى ولقد كان المغرب خلال القرن الخامس الهجرى وأوائل القرن السادس يصدر القمح إلى السودان وبلاد سوريا وصدرت التين واللوز إلى أوربا وكذلك التين إلى مصر وكان الزيت والتمور تصدر أيضا إلى بلاد السودان وكانت التمور السوسية(نسبة إلى بلاد السوس) تصدر إلى ورجلان وأوربا شمالا ويصدر الفستق انتاج قفصة إلى الديار المصرية وربما بلغ اليمن وأوربا وجنوب ايطاليا وكريت وزيت صفاقس إلى بلاد الروم وصقلية وايطاليا وسواحل أوربا ومصر وكان السكر يصدر إلى أوربا والثياب النفراوية إلى مصر والاقمشة الكتانية إلى تونس وترسل الثياب الحريرية والكتانية الملونة والزعفران إلى بلاد السودان وتصدر الثياب السندسية الغالية إلى الهند وكانت الجلود أكثر السلع المصدرة إلى بلاد المشرق وقد تحمل الماشية إلى جنوه وبيزا وكان المغاربة يرسلون النحاس إلى أوربا أو بلاد السودان بعد اعادة تصنيعه وكان الزئبق يصدر إلى عدة أقطار ووصلت تجاره بلاد المغرب إلى الهند والصين .

وهكذا نشطت حركة التجارة والصادرات من البلاد المغربية فى ظل الوجود الهلالى الذى ساهم بدور لا يقل فاعلية عن أدوار بقية سكان المغرب فى الحركة

التجارية وساهموا اسهامات كبيرة فى التحول الاقتصادى بالبلاد ودفعوا حركة التصدير إلى آفاق أوسع بما بذلوا فى الانتاج الزراعى والحيوانى واستخراج المعادن من باطن الارض ولم يكونوا عولا على أحد فى تلك البلاد الواسعة ولم يكونوا عامل افساد وخراب بل عمروا البلاد وأقاموا المدن الجديدة وأسهموا فى تطويرها ورقى مرافقها وكان لهم باع طويل فى النشاط التجارى وقد وفروا الامن والامان لحركة القوافل التجارية وقاموا بحراسة طرق المواصلات بين الشمال والجنوب وحماية الطرق الداخلية المتجهة إلى أوربا شمالا وفرضوا حراسة مشددة من الفرسان للضرب على أيدى من تسول لهم أنفسهم بالتعدى على القوافل التجارية التى كان يصل عددها إلى آلاف الجمال التى كانت تحمل الصادرات جنوبا والواردات شمالا. وبذلك أعطوا دفعة قوية للنشاط التجارى والاقتصادى وكبحوا جماح القبائل البربرية كزناتة والمصامدة وصنهاجة الذى كان بعض من بطونها تعتدى على القوافل وقاموا بحماية الطريق المؤدية إلى بلاد المشرق الاسلامى .

وقد أدى ذلك إلى الازدهار التجارى والاقتصادى وبدوره انعكس على حياة السكان الاجتماعية وساعدوا على نمو المدن ودخول حياة المدينة على نطاق واسع بعد أن كانت تغلب عليهم حياة البداوة واكتسبوا المعارف والخبرات الفنية والعلمية وأصبح جزء كبير منهم من تلك الطبقة الراقية والوسطى بالاضافة إلى بعض من بطونهم كانت من الطبقات الحاكمة المسيطرة على مقاليد الامور فى بعض المدن كما سبق القول وأخذوا بيد اخوانهم البربر وشاركوهم فى معيشتهم وتطور حال البربر وتحول حالهم فى ظل الاندماج والامتزاج مع العرب وكان ذلك من أسباب الرقى الحضارى وظهور الفنون الزخرفية والمعمارية الحديثة فى فن البناء وتطور فن العمارة فى العديد من المدن وتطور الفكر والثقافة واللغة والفن والحضارة وعلوم الدين ولا نبالغ اذا قلنا أن



العرب بتعاونهم مع البربر والاندلسيين كانوا سببا رئيسيا فى تقدم الحضارة العربية المغربية فتقدمت حضارة وازدهرت اقتصاديا .

ومن كل هذا فقد لعب العرب الهلالية واخوانهم من بنى سليم والذين هاجروا معهم أدوارا هامة على مختلف الاصعدة الاجتماعية والحضارية والاقتصادية وكانت بصماتهم واضحة جلية فى كل هذه الميادين المختلفة .

# الفصل السابع

## لماذا الحملة العدائية ضد بنى هلال

أثار ابن خلدون ومن جاء بعده من الكتاب الذين ساروا على نهجه دون محاولة دحض هذه الآراء ، حملة عدائية ضد بنى هلال وتحامل مؤرخو الغرب على كل ما هو عربى متخذين من أقوال ابن خلدون حجة شرعية مشهودة على العرب ، لكن كل هذه كانت ادعاءات لا سند لها وسنحاول فى الفصل القادم تمحييص وتدقيق كل هذه الآراء .

لكن مهما يكن فقد ذكر ابن خلدون عن الاثر المدمر للغزوة الهلالية قائلا ان افريقية والمغرب لما جاز إليها بنو هلال وبنو سليم منذ أول المائة الخامسة وتمرسوا بها لثلاثمائة وخمسين من السنين قد لحق بها وعادت بسائطها خرابا كلها بعد أن كانت بين البحر الرومى والسودان كله عمرانا فشهد بذلك آثار العمران فيه من المعالم وتماثيل البناء وشواهد القرى والمدن .

فهل كانت كل آثار الهجرة الهلالية على المغرب بهذا السوء لقد تعصب ابن خلدون ضد القبائل العربية التى انتقلت إلى المغرب ونسب إليهم التوحش والهجمية واشترك بعض مؤرخى العصور الوسطى فى اتهامهم بتدمير وتخريب بلاد المغرب بعد أن كانت جنة بغاباتها وحقولها المزدهرة ومدنها وقراها الحافلة بالسكان ويلخص ابن خلدون أفكار من قبله من المؤرخين فى دور العرب التخريبى بالمغرب بالمقولة السابقة .

لكن الادريسى الذى يعطينا أدق وصف لمدن المغرب بعد وصول الهجرة إلى افريقية وتتبعه لها ووصفه لمدنها وفى الوقت الذى نراه يصف دور العرب المخرب لبعض المدنه مثل المسيلة وقراها بقوله توارت وهى قرية كبيرة عامرة وإلى هنا تصل غارات العرب وضررها وكذلك حصون المسيلة بقوله ( وجميع هذه الحصون أهلها مع العرب



فى مهادنة وربما أضر بعضهم ببعض غير أن أيدى الأجناد فيها مقبوضة وأيدى العرب مطلقة الأضرار وموجب ذلك أن العرب لها دية فيمن يقتل ، أما مدينة باغاى فالأسواق فى المدينة والأرياض خالية بإفساد العرب لها وكذلك عند وصفه لمدينة المهدية وزودلة والقيروان ونراه فى مواضع أخرى من كتابه نزهة المشتاق وصف تآلف العرب مع سكان المدن من البربر وتعاونهم معهم سواء فى الزراعة والفلاحة والتجارة فيصف بلدا كالمستنير بقوله وهى قصور ثلاثة يسكنها قوم يتعبدون والاعراب لاتظهرهم فى شئ من شجرهم ولا فى عمرانه وكذلك تونس هى مدينة حسنة وجل معاملات أهلها مع ثقاة العرب وأمرائها وهى الآن معمورة موفورة الخيرات يلجأ إليها القريب والبعيد والعرب تجاور أرضها وتأتى بأنواع الحبوب إليها إليها والعسل والسمن ما يكفى أهلها غدقا ، ويصف قسنطينة بقوله بأنها مدينة عامرة وبها أسواق وتجار وأهلها مياسير ذوو أموال وأحوال واسعة ومعاملات للعرب وتشارك فى الحرث والادخار والحيطة .

ولقد حاول ابن خلدون الصاق تهمة للعرب بتخريب المدن والقرى ، وقد سار على نهجه بعض المؤرخين والدارسين من قول بشاع يصف الزحف الهلالى بأوصاف غريبة ويلقى عليها تبعية تدمير المغرب ومدنه وتخريبه بعد أن كان كثير العمران كثير الزراعة وقد أشار ابن خلدون فى غير موقع إلى تخريب عرب الزحف الهلالى للمغرب وأزعجوا سكانه وعطفوا على المنازل والقرى والضياع والمدن فتركوها قفرا وخرابا وأوحش من جوف العير .

ويعلق الأستاذ الميلى فى كتابه تاريخ الجزائر بقوله أقفر من بلاد الجن وأوحش من جوف العير فهى مبالغة أجنبية من أسلوب التاريخ والمهم أن نشير إلى أن ما نقله ابن خلدون وأمثال من تقول وتجنى وتطاول من بعض المؤرخين المسلمين يتضح فيه المبالغة والتهويل وعدم التمحيص والتدقيق والتحرى وراء أسباب المشكلة وفى الحقيقة الثابتة التى لاتقبل مراء أو جدالا أن حركة الزحف الهلالى لم يكن لها من مؤرخين

عرب يؤرخون لها دورها أو يتابعون تحركاتها ، ولم يسجل أحداث الزحف إلا مؤرخو الدول البربرية ( بنى زيرى ، بنى حماد ) والذين أرخوا فى أوائل الزحف وقبل التصالح مع النظم السياسية القائمة وأنه من الطبيعى أن يشوهوا صورة العرب الهلالية ويقفوا إلى جانب الدول البربرية مجاملين لها .

وقد تلقف بعض الكتاب والمؤرخين من غير المسلمين هذا القول مثل المؤرخ الفرنسى العسكرى الحديث هول كاريت Carrette حين ذهب فى وصف الآثار المدمرة للغزوة الهلالية بالمغرب بأشنع التهم وشبه الهجرة الهلالية بالأعصار الذى يقتلع الأشجار ويهدم المنازل أو بالحريق الهائل الذى لا يخلف وراءه غير رماد تذروه الرياح وقد أورد أمثلة كثيرة من عند ابن خلدون ، واستغل الغربيون ذلك ووجهوا نيرانهم إلى العرب للتفريق بين العرب والبربر ( التفريق بين العرب والزنوج فى السودان ) ولعبوا لعبتهم فى العصر الحديث بل أن هول كاريت لم يكتف بالتطاول على بنى هلال بل تطاول على كل العرب الذين وصلوا المغرب فقال ان انتقال العرب إلى المغرب فى عهد الفاتحين الأول فى القرن الأول الهجرى كان كالأعصار يقتلع الأشجار ويهدم المنازل ، وفى عهد الزحف الهلالى كان كالحريق الهائل يبتلع الأشجار والمساكن ويتركها رمادا تزروه الرياح وانتهى إلى أن ما أبقاه الأعصار قضى عليه الحريق .

هذه أقوال رجال الغرب الذين اعتمدوا على أقوال ابن خلدون ومابقى من السياسة العربية قائما بالمغرب ذهب به الطبع العربى الهدام ، فأتم الهلاليون أعمال التخريب التى ابتدأها الخلفاء الأولون ( الفاتحون المجاهدون فى سبيل الله فى القرن الأول الهجرى ) أن العرب لم يفعلوا أدنى شئ بالمغرب إنما هى افتراءات غربية لتشويه كل ما هو عربى لقد شوهوا صورة العرب والإسلام بكل ما لديهم من أقوال .

بل إننا بكل أسف نجد بعضا من مؤرخى المغرب المعاصرين كابن عثمان العكاك فى كتابه موجز تاريخ الجزائر العام لم يجانبه الصواب ولم يقنن الحقائق وكان تصويره



غير سديد فى أن صور هجوم الهلالية كهجوم قبائل الوندال على أوربا وتدميرها وفى ذلك مبالغة غير دقيقة وغير علمية بل يتصف بالإنسياق وراء المجهول غير العلمى ولكنه يمكن القول من كلام كاريت ظهور الروح الصليبية والتعصب العنصرى والعداء الواضح والقوى المعادى لكل ما هو عربى ومعاداة قوية للإسلام والعروبة ، بل أنه لم يكتف بالحكم والتعنت والكيد للهلاليين ، بل عاد إلى الوراء ليحول الفتح الإسلامى الحضارى الثقافى والدينى والعلمى الأخوى ذى الصورة التى لم يكن لها مثيل فى كل الفتوحات العالمية الذى اتسم بطابع الاخوة والمحبة والتسامح بين العرب والبربر ( طارق بن زياد البربرى وفتوح المغرب والاندلس ) ليصف تلك النخبة الطاهرة من شهداء الكاهنة ومذبحة القيروان ، وسياسة عرب الفتح فى اشراك البربر فى جيش الفتح ومنحهم حقهم المشروع فى العطاء وساوى بين العرب والبربر فى الحقوق والواجبات وفى الاشتراك فى النقيط . لكن يأتى هذا الصليبى كاريت فيصف الفتح الإسلامى الخالد بالأعصار الذى يقتلع الأشجار ويهدم المنازل وفى ذلك يصف الطبع العربى بصورة عامة بأنه هدام متناسيا أن العرب هم الذين نقلوا الحضارة إلى أوربا وهم الذين علموا أوربا كل العلوم وهم الذين نقلوا إليها ألوان الحضارة الفكرية والمادية ( راجع كتابنا الإسلام والثقافة العربية فى أوربا ، طبع ١٩٧٩ القاهرة ) .

لكن أسلوب كاريت فى الاقتباس السابق عن ابن خلدون يختلف كل الاختلاف عن الكتابة التاريخية فى العصر الحديث الذى يتسم بالتدقيق فى الفكرة والعبارة والبعد عن منطق التعميم وطرح النزعات العصبية جانبا والبعد عن الاحقاد الموجهة للأديان ، لكن القول الفصل فى ذلك الموضوع أن تاريخ الزحف الهلالى العربى الإسلامى إلى المغرب قد ناله كل الظلم والجور والتعسف بنعوت لم يكن من طباع العرب ، وإن كان ابن خلدون قد اعتمد على أقوال أو كتابات فهى بربرية (لانريد أن نفرق بين العرب والبربر ) كما أن تاريخ بنى هلال نفسه ناله بالتالى بعض الحيف والظلم المتعمد من جانب بعض المؤرخين من غير المسلمين أو المسلمين لانهم

درسوا فى معاهد وكليات غربية فغلب على بعض منهم روح البعثات الصليبية وتسيطر على فكرهم سياسة التفريق التى توضع دائما نصب أعينهم ويحاولون بذر بذورها فى كل مجتمع عربى .

لكن نجد الميلى يعزو ما لحق بالمغرب من أضرار يعود فى المقام الأول إلى الدولة الزيرية الصنهاجة التى لم تحسن التعامل مع هؤلاء العرب كما فعل بنو حماد أصحاب القلعة ثم انهم يتحملون وزر ما فعله الهلاليون ويكونون مسئولين مسئولية كاملة عما لحق بهم من أضرار ، وقد بالغ كتاب العربية فى تقدير تلك الأضرار إلا أنهم كتبوا لدول بربرية ولم تكن للهلاليين حكومة تهتم بدعاية سياسية لهم .

لم تكن الغزوة الهلالية شرا كما صور بعض المؤرخين بل كانت خيرا يفخر به المغرب العربى فان الفضل فى ذلك يرجع إلى أولئك العرب الهلاليين الذين قدموا خدمة كبيرة لعروبة المغرب وأضاءوا وجهه بالحضارة العربية الإسلامية وأشاعوا العمران وبذروا معالم الحضارة العربية الإسلامية لكن مع الأسف الشديد فان ابن خلدون عندما تحدث عن العرب فى مقدمته كان شديد التحامل على العرب الهلاليين وما فعلوه فى المغرب فجاءت صور الحرب فى المقدمة قاتمة جدا ومن هنا فقد أدى بنو هلال خدمة كبرى وجليلة للمغرب ولعروبته وحضارته وأصالته العميقة عبر التاريخ .

واتخذ الكتاب المستشرقون من أقوال ابن خلدون مادة يبالغون فيها ويرمون الغزوة الهلالية والعرب والإسلام فى العصور الوسطى بما لا يقال إلا أنه صورة للحملة الصليبية وبرروا هجومهم على عرب المغرب بما فعلوه عن ابن خلدون ومدحوا البربر وتقربوا إليهم بعدما كانوا يصفونهم بالصفات البشعة والأعمال المنحطة فهى عصور ما قبل الإسلام وبعد الإسلام ( العصر الحديث ) .

ويتحدث المؤرخ المغربى جرمان عياش فى مهرجان ابن خلدون عن عرب القبائل الهلالية وبنى سليم قائلا : أن بعض المؤرخين المعتمدين على ما كتبه ابن خلدون عن



عرب بنى هلال وبنى سليم قد أسرفوا فى تعليل تسلسل الأحداث وتطور الأحوال فى المغرب بفساد العرب المستمر منذ القرن الخامس الهجرى وحتى القرن الحالى فليس من المعقول أن تتسبب بعض القبائل فى انحطاط قطر عظيم مثل المغرب الممتد من حدود مصر غربا إلى شاطئ المحيط الأطلسى وانحلاله وتدميره وتخريبه لمدة عشرة قرون متصلة وليست القبائل الهلالية هى السبب الأساسى لما حدث ، أما دور العرب فمرتبط ونتيجة للظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية التى كانت سائدة قبل قدومهم إلى تلك الديار وفى أثناء تواجدهم ونتيجة لتلك الحياة التى فرضت على هذه القبائل وعملية استقرارها وما نتج عن ذلك من تفاعل حروب ومصادمات ( أظهر دورها المفسد لاقتصاديات بلاد المغرب ) لكن دورهم الايجابى كما ذكرنا فى الحياة السلالية والجنسية والتركيبة البشرية والحياة الثقافية والاقتصادية والدينية ، بل فى شتى نواحى الحياة كان كالعملة لها وجهان فكان الوجه الباسم للدور الهلالى هو تلك العملة التى حاول كتاب الغرب أن يطمسوا معالمها وهكذا أظهر بنو هلال لونا من ألوان الحضارة الإسلامية وأسهموا بنصيب غير قليل فى شتى نواحى الحياة الثقافية والاقتصادية والعمرانية واهتموا بأمور الثقافة والتاريخ والقوات العسكرية . واهتموا كذلك بالأسطول والسكة واتخذوا دارا لضرب العملة وعاشوا حياة الاستقرار والحضر وفى وفرة من العيش وأصبح تأثيرهم أكبر مما يقال عنه وتمكنوا بالاندماج مع أهل المغرب واختلف هذا الاندماج من حيث الدرجة من مكان إلى آخر بان يكونوا عنصر قوة فى حياة المغرب .

كذلك فان المؤرخين المعتدلين أجمعوا على أن الخسائر التى لحقت بالمغرب وافريقية كانت خسائر عادية بل أقل بكثير مما يحدثه أى جيش فى الحروب وهى خسائر نتجت من أثر المعارك الحربية التى دارت بين الفريقين ولم تنتج عن روح تدميرية تخريبية وأن العرب فى هذا المجال وقع عليهم ظلم كبير بل جور شديد من جانب ابن خلدون ومن سار على نهجه بالقول أنهم دمروا أفريقية ولم يتركوا مكانا إلا بعد أن صار

قاعا صنصفا قفرا أوحش من بلاد الجن ، وأن هذا الاتهام فيه مبالغة كبيرة جدا يدل على ذلك احصاء المدن التى قيل أنهم خربوها وهى مدن قليلة العدد وان الانقسامات التى حدثت فى المغرب خلال القرن الخامس كانت قد بدأت قبل قدوم العرب إلى افريقية ومن ذلك انفصال بنى حماد عن أبناء عمومتهم بنى باديس وتفكك الدولة الواحدة إلى دولتين فلم تكن المسيرة الهلالية السبب فى هذه الانقسامات ومن هنا يمكن القول أن وجود العرب فى هذه المنطقة من بلاد المغرب فى تلك الظروف أضاف إلى عوامل الانقسام عاملا جديدا ، وإن لم يكن هو العامل الأساسى ، ثم وقوف القبائل الهلالية أمام جيوش الموحدين القادمة من المغرب الأقصى صفا واحدا لمنعهم من السيطرة على بقية المغرب ، ألم يكن هذا دفاعا عن كيان دولة بنى زيرى ( بنى باديس بنى حماد ) أن تثبيت دعائم الإسلام وتوطيد أركانه وبذر اللغة المغربية الفصحى العربية فى الصحارى والبوادى والقفار والواحات وقمم الجبال وسام على جبين الزحف الهلالى .



# الفصل الثامن

## الرد على ابن خلدون فيما نسبه للهلالية

سوف نحاول هنا فى هذا الفصل الرد على ما جاء عن ابن خلدون فى مقدمته باتهامه العرب باتهامات لاتمت بأدنى صلة لهم ولقد أفاض فى الحديث عن العرب ووصفهم بأوصاف كثيرة مما يدل على أنه لم يكن موضوعيا فى كل ما قاله . فهو يصف العرب بالعصبية وتخريبهم العمران وأن العرب أهل خيام وأن العرب أبعد الناس عن الصنائع وذلك لإسرافهم فى البداوة والتوحش فى القفر والبعد عن العمران الحضارى ، ثم تحدث فى كتابه العبر وديوان المبتدأ والخبر وحملهم كل ما أصاب افريقية والمغرب من خراب ودمار وقد سبقت الإشارة إليه فى الفصول السابقة .

ونحن هنا نحاول اتباع الأسلوب العلمى الموضوعى فى محاولة الرد على ابن خلدون ومقارعة الحجة بالحجة وأن نلقى بالدليل أمام القارئ ليقتنع بما نقوله علميا لاأقوالا جزافية المقصود من ورائها الدفاع عن بنى هلال وأفعالهم .

فنحن نسلم أولا أن ابن خلدون شخصية علمية يرجع إليها الفضل فى وضع أصول علم الاجتماع وفلسفة التاريخ وعلوم العمران والسياسة وأن مؤلفاته تركت بصماتها على شتى فروع العلم المتعلقة بالتاريخ والاجتماع والعمران والسياسة وغيرها من العلوم المختلفة وان اسهاماته العلمية لها دور فى المعرفة ، بل أن هناك العديد من الرسائل العلمية الاكاديمية كالماجستير والدكتوراه قد نوقشت فى الجامعات المصرية والعربية والأوربية والاميريكية حول دراسات ابن خلدون ، لكن نقول أن لكل جواد كبوة ولكل عالم هفوة ولكل صارم نبوءة « بعد » ، ولقد كانت هفوة ابن خلدون البالغة ذلك التجنى الشديد على العرب ومن هنا فان أقواله هذه لابد أن نخضعها للدراسة والبحث والتمحيص والتدقيق لانها قوة تخضع للخطأ والصواب وهى ليست

نصوصا قرآنية لايمكن الاقتراب منها ، بل هى دراسات من الممكن هدمها إذا قدم الدليل القوى الذى يقبله العقل والمنطق ويسير وفق مجريات الأحداث فى تلك العصور ، فان ما كتب فى العصور الوسطى لم يكن ليؤخذ كقضايا نسلم بها ويسير اللاحقون على نهجها ، بل من الممكن استبعادها كلية والدراسة بمفهوم منطقى .

وبالنسبة لابن خلدون نقول أنه كتب مؤلفاته بعد عام ٧٥٨ هـ حيث انتهى من تأليف المقدمة فى خمسة شهور كان آخرها منتصف عام تسعة وسبعين وسبعمائة ثم بدأ بعد ذلك بكتاب تواريخ الأمم المسمى العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر . ثم أن ابن خلدون قد توفى عام ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م مع بداية القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى هذه حقيقة ثابتة وكل المشتغلين بدراسة التاريخ الإسلامى يعرفون هذا .

وبالنسبة للزحف الهلالى أقول أنه بدأ عام ٤٤٢ هـ وفى عام ٤٤٣ هـ / ابريل ١٠٥١ م وأن المعز بن باديس ترك القيروان إلى المهدية عام ٤٤٩ هـ / ١٠٥٧ م ومن هنا فان المسافة الزمنية بين معركة حيدران وتأليف كتاب المقدمة ثلاثمائة وستة وأربعون عاما ( ثلاثة قرون ونصف وهى مسافة بعيدة زمنيا وعلى ذلك فان ابن خلدون لم يكن من شواهد الزحف الهلالى إلى المغرب ولم يكن معاصرا لأحداث الغزوة والقتال فى افريقية إنما كان البعد الزمنى يزيد عن ثلاثة قرون ونصف وهذا يعطى الدليل القوى بأنه لم يكن شاهدا على الأحداث أو معاصرا لها أو قريبا منها زمنيا أو من الجيل الثانى والثالث والرابع للغزوة ، بل كانت المسافة الزمنية البعيدة تقلل من صدق ما جاء عن لسانه بالنسبة للعرب الهلالية .

كما أنه ليس من المعقول أن تكون أفعال الهلالية من تدمير ظلت طوال ثلاثة قرون ثابتة على ما هى سواء أكان زرعا وضرعا ومدنا وعمرانا مما ينفى أن ابن خلدون



قد شاهد بنفسه آثار التدمير بعد هذه الفترة الزمنية فإذن هو لم يقدم الدليل العلمى الثابت بأنه شاهد الاثار بنفسه ، لكنه اعتمد على مصادر كتابات أو أقوال مشابهة لم يذكرها ولم يقل لنا عن هذه المصادر التى استقصى منها معلوماته حتى نتمكن من الرجوع إليها لكنه فى حقيقة الأمر كان واقعا تحت مؤثرات سياسية ووظيفية جعلته يتحامل على العرب وينعتهم بهذه النعوت ومن هنا فقد يكون له عذره لانه ساير أوضاعا سياسية فى مصر التى آلف فيها هذه الكتب .

وكان ابن خلدون قد قدم إلى الديار المصرية عام ٧٨٤ هـ / ١٣٨٢ م فى عهد السلطان الظاهر برقوق وكان قد تم تعيين ابن خلدون قاضى القضاه وفى ديوان الانشاء وتولى منصب شيخ المالكية بالأزهر الشريف وتولى العديد من المناصب فى الدولة المملوكية مما جعل السلطان الظاهر برقوق يقوم بارسال رسالة إلى السلطان الحفصى أبى العباس أحمد بن عبد الله فى ١٥ صفر ٨٧٦ هـ / ١٣٨٤ م يرجو فيها من السلطان الحفصى أن يرسل أسرة ابن خلدون إلى مصر .

وكان العصر المملوكى فى مصر قد شهد حركة مقاومة شديدة من جانب العرب الذين التفوا حول بعضهم البعض وقاموا بحركة واسعة للمقاومة وثار العرب فى بلاد الصعيد والوجه البحرى وقالوا انهم أصحاب البلاد وانهم كانوا يرون انهم أحق بالملك والسلطان من المماليك العبيد المشتراه والرقيق المجلوب ( المقريزى ، السلوك ) ومن هنا ظهرت الأحلاف العربية ضد المماليك الأتراك ولقد كانت العداوة قديمة منذ تولى السلطان عز الدين أيبك مقاليد الأمور فى مصر بعد العصر الأيوبى وكانت هذه الأحلاف معادية للسياسة التركية المملوكية التى برزت بصورة واضحة فى العصر المملوكى.

ولقد شهد القرن الثامن الهجرى صراعا عنيفا بين العرب والسلطات المملوكية عام ٧٤٩ هـ وكانت قيادة الحلف العربى لبنى هلال وقد قتل عدد كبير فى هذا

الحادث من المماليك وامرائهم وكانت هذه المعركة ايذانا بحرب عنيفة بين المماليك والعرب وحلفائهم ( المقريزى ، السلوك ) .

وفى عام ٧٥٤ هـ شن المماليك حملة كبيرة على عرب الصعيد وركبوا بأسلحتهم وقدموا فى أربعمائة فارس وقامت معركة حامية بين الأحلاف العربية والمماليك وقتل من الجانبين خلق كثيرا وطرد العرب إلى بلاد السودان وأضاف المقريزى انه لم يبق بدوى بصعيد مصر . وهرب العرب مسيرة سبعة أيام ثم رجع الأمراء والسلطان إلى الديار المصرية ( ابن اياس ) كذلك فان ابن خلدون عندما كان يقيم بالمغرب وقبل رحيله إلى مصر حاول عدة مرات اثارة القبائل العربية الهلالية وحضها على الثورة ضد سلطان بنى زيان الأمير أبى حمود ولكنه لم يجد استجابة لما كان يرنو إليه من مناصب سياسية بعد أن تعرض لكثير من المحن فى تلمسان والقيروان وغرناطة وغيرها من بلاد المغرب والاندلس .

إضافة إلى أنه عند رحيله إلى مصر فقد استماله المماليك وعلى رأسهم السلطان برقوق الذى كانت ثورة العرب فى صعيد مصر على أشدها فى عصره وعينه قاضيا للمالكية عدة مرات ومن هنا لم تكن كتاباته عن العرب الهلالية على جانب كبير من الموضوعية حيث خاب مسعاه فى السابق وتحقق حلمه فى منصب قاضى المذهب المالكى ومن هنا كان عليه أن يمالئ السلطة المملوكية فى البلاد .

ومن هنا فان العداوة قديمة بين العرب والمماليك والمعارك مستمرة حتى عام ٧٥٤ هـ وابن خلدون مؤلف المقدمة عام ٧٧٩ هـ وقدم إلى الديار المصرية عام ٧٨٤هـ وتقلد الوظائف الهامة فى ظل الدولة المملوكية الكارهة والحاقدة للعرب الذين كانوا يرون فى المماليك عبيدا رقيقا لا يحق لهم حكم الديار المصرية .

لكن أحداثا حدثت فى مصر عام ٧٨٢ هـ / ١٣٨٠ م عندما قام بانزال عرب هوارة فى ذلك التاريخ ( السلطان الظاهر برقوق ) والذى كان يتولى ابن خلدون



المناصب العليا فى عهده والذى أرسل إلى سلطان الحفصيين بطلب أسرة ابن خلدون .

قام السلطان الظاهر برقوق بنقل عرب هوارة إلى الصعيد بعد انقضاء الأحداث العنيفة التى وقعت بين المماليك وعرب الصعيد وما تلا ذلك من اضطرابات كثيرة حتى قل عدد البدو الفارين فى أرض الصعيد وأطرافها ( المقريزى : البيان والاعراب عما بأرض مصر من الاعراب ) ولقد نكل المماليك بالعرب أشد تنكيل فى عهد الظاهر برقوق الذى كان يستخدم ابن خلدون فى وظائف البلاط السلطانى .

ومن الملاحظ حين نقلب صفحات المصادر التى أرخت لأحداث العرب فى مصر عقب هذه المرحلة ، مرحلة الأحلاف ان نغمة جديدة نبعت من كتابة المؤرخين وهى الكره الشديد للعرب ورميهم بالفريه وتلويث السمعة والإساءة إلى مكانتهم وانهم يذكرون كلمة عربان زيادة فى البداوة .

لكن هذه الأحلاف سببت للدولة المملوكية العديد من المتاعب وكانت العداوة شديدة ولايستطيع قلم مؤرخ أن يذكر العرب بشئ من محاستهم لان النظام المملوكى كان قاسيا وفظيعا فى معاملة من يخالفهم فى الرأى .

فابن خلدون له عذره وهفوته ، بل لم تكن هفوة ، إنما كان يخضع لتأثيرات سياسية دفعت به أن يقول عن العرب ما قال وكيف وهل يستطيع أن يجاهر بالقول بأية حسنة من محاسن العرب فى ظل الحكم المملوكى الدموى صاحب القتل والتشريد والاغتيالات وتاريخه مشهود له بذلك ، ومن هنا لم يكن ابن خلدون موضوعيا فى علاجه لموضوع الزحف الهلالى ولم يكن محايدا فى تناول تاريخهم ، بل أن العديد من المصادر والمراجع قد ذكرت دور بنى هلال فى حرب الاندلس وجهادهم مع المرابطين فى معركة الزلاقة ومع الموحدين فى معركة الأرك والعقاب ودورهم مع دولة بنى مرين وكيف فكر ملوك الطوائف فى الاستعانة بالهلالية فى حماية الاندلس لكن

ابن خلدون لم يشر إلى ذلك على الاطلاق وكيف يذكر دور الهلالية البطولى فى حرب الجهاد المقدس فى بلاد الاندلس وهو يخضع لسيف وسلطة وسلطان المماليك ، لقد حاد ابن خلدون عن الموضوعية ولم يلتزم بالنزاهة التاريخية فى حديث عن العرب الهلالية ودورهم فى بلاد المغرب إضافة إلى أنه كتب مؤلفاته فى القرن الثامن الهجرى وكانت آثار الهلالية قد وضحت معالمها وبصماتها فى المغرب خلال هذه القرون الثلاثة واندمجوا مع البربر وخضعوا لسلاطين الدول التى عاشوا فيها ودورهم كان أكثر وضوحا واشراقا مع بنى حفص فكيف يفعل ابن خلدون ذلك الدور انه كان يكتب تحت قسوة وعنف السيف وجور سلطان المماليك ومن هنا جاء كتابه بهذه الصورة مغايرا كل التغاير عن الحقائق التاريخية الثابتة التى نلقى عليها الضوء فى تلك الدراسة .

أما العرب عندما دخلوا أرض برقة وجدوها بلادا خالية من السكان بعد أن كانت قد عمرتها زناتة البربرية لكن المعز بن باديس ( ٤٠٦ / ٤٥٣ هـ ) كان قد دمر ديارهم وفرق شملهم وشتتهم فى الصحراء ، فدخلها العرب الهلالية وأقاموا بها واستوطنوها دون أن يخربوا أو يدمروا شيئا حيث وجدوها بلادا خالية طيبة المرعى (النويرى ، نهاية الأرب جـ ٢٢ . ص ١٥٧ ) وهنا نقول أن تهمة التخريب والتدمير تنفى شهادة النويرى وما جاء فى حديثه عن برقة ودخول الهلالية إليها . كذلك يذكر المؤرخ التونسى ( رابح بونار فى كتابه تاريخ المغرب العربى ص ١٩٣ ) أن العرب الهلالية دخلوا أرض برقة وما والاها من بلاد فوجدوها خالية من الأهل فأقامت بها العرب الهلالية واستوطنوها ، فمن أين جاء الخراب والتدمير وقلع الزرع وهلك الحرث والنسل ياسيدى يا ابن خلدون ثم تحركوا غربا فى اتجاه طرابلس والقيروان وهنا باعتراف كل المؤرخين انهم لم يهاجموا القيروان هجوما كاسحا قويا جملة واحدة بل انهم أخذوا البلاد شيئا فشيئا حتى لم تبق إلا القيروان ثم أخذوها ( ابن الأثير ، الكامل جـ ٨ ص ٥٥ ) ومعنى هذا أنهم لم يهاجموا القيروان جملة واحدة ولم يقتربوا من القيروان إلا بعد ست سنوات من المعركة وذلك فى عام ٤٤٩ هـ وفى فترة الست



سنوات كان المعز بن باديس يمهد لنقل مقر حكمه إلى المهدية ومن هنا أخذ يشير على رعاياه بالانتقال إلى المهدية خلال هذه السنوات فهاجر إليها الكثير من السكان وفى هذه السنوات كان المعز يقوم بنقل مقاليد السلطة إلى المهدية .

وتذكر المصادر أن المعز بن باديس ترك وأهل القيروان المدينة خاوية بعد أن حملوا ما خف حمله ووزنه وغلا ثمنه ولم يتركوها إلا خاوية ودخلها العرب واستولوا عل ما كان قد بقى من قصور بنى زيرى التى كان المعز قد حمل كل ما فيها طوال السنوات الست التى كان يعد نفسه للانتقال إلى المهدية ولم يجدوا فيها إلا بقايا خيام قديمة وبعض الآلات والأسلحة التى لاتستعمل ولا يمكن استخدامها وخضع من بقى فى المدينة لسطوة العرب وليس لحكمهم لان العرب لم يحكموا القيروان على الاطلاق لكن كان لهم السطوة والنفوذ .

والدليل على ذلك أن المعز بن باديس عندما ترك المدينة قد عين عليها قائدا من قومه من بنى زيرى لصنهاجة وهو ( قائد بن ميمون الصنهاجى ) وكان يتسم بالقوة والشدة وأمده بالجند والشرطة لحراسة المدينة وقلاعها وأبراجها وأن المدينة كانت تحكم باسم المعز بن باديس وتحت سيطرته وعليها وال من قبله وفى عهد ابنه تميم بن المعز (٤٥٣ – ٥٠١ هـ ) أرسل قوات عسكرية وشرطة إلى مدينة القيروان لحفظ النظام والمحافظة على توازن القوى داخل المدينة بين العرب المسيطرين وبين السكان الذين كانوا دائما يحتكون بالهلالية فأين سيطرة الهلالية وأين تدمير الحصون وهدمها وهدم القصور وقطع الثمار وتخريب الانهار كما يقول ابن خلدون ، وهل يعين المعز بن باديس حاكما لمدينة خاوية خربة وهل يقوم ابنه تميم بإرسال قوات وجنود لحماية أطلال مدينة مدمرة أو مدينة خربة ، أن الوجود الهلالى لايعدو أن يكون وجودا من قبل السيطرة وفرض النفوذ والقيام بأعمال الشغب فى المدينة وإلا فلماذا يحكموها أو يحكموا أية مدينة كبرقة وطرابلس والمهدية وتونس والقيروان فى تلك الأوقات لقد أخطأ

ابن خلدون فى نسبه هذه الأعمال إلى العرب الهلالية وقوله أن الهلالية نهبت المدينة نهبا شنيعا وارتكبت فيها فظائع كثيرة من تخريب وتقتيل وافساد جعلت القيروان خالية من السكان متدهورة العمران عدة قرون .

**ماذا يحدث عن ترك العاصمة واختيار عاصمة أخرى :**

كان قرار المعز بن باديس بالانتقال إلى المهدية واتخاذها العاصمة الأساسية للبلاد وترك العاصمة السياسية والحضارية والعلمية القيروان أثر معركة حيدران والصراع بين العامة وبين بنى هلال والحروب التى وقعت بينهم ، لكن ذلك استغرق ستة أعوام كان المعز يوصى فيها رعاياه بالانتقال ويصدر أوامره لابنه تميم بن المعز حاكم المهدية بالتوسع فى الانشاءات والمبانى فى العاصمة الجديدة وأن يحسن استقبال الأهالى ويكفل لهم سبل الراحة .

ومن المتعارف عليه فى تلك الحالات أن الدولة تسهل سبل الانتقال أمام الأهالى وسبل المعيشة فى العاصمة الجديدة مادام أنها عاجزة عن حماية الأهالى من عدوان العرب كما يقول ابن الاثير ، إضافة إلى أن قرار الانتقال كان يستدعى نقل كل المراكز السياسية كقيادة الجيش والشرطة والبريد والجباية والبحرية والوزارة وديوان الكتاب والانشاء وجميع المؤسسات التى تخدم الدولة ولها علاقة بخدمة السكان حيث أن دولة بنى زيرى كانت لها ركائزها السياسية والإدارية والعلمية والثقافية ومدارسها وجامعاتها التى تستدعى ضرورة نقل كل هذه المراكز إلى المهدية ، وقد سارت خطة المعز بن باديس على خير أداء ولما حقق الهدف من الانتقال انتقل هو وحاشيته إلى المهدية بعد أن عين فيها واليا من قبله كما سبق القول .

ومن المعروف انه فى حالة ترك العاصمة القديمة واتخاذ عاصمة سياسية جديدة فان العاصمة القديمة تفقد دورها القيادى كمركز للدولة وقطب الاتجاه الذى تتجه إليه البلاد وقد تبع ذلك فقدانها لوزنها الحضارى والقيادى والسياسى والثقافى باعتبار



انها لم تعد مقر الحكم ومركز القيادة وبالتالى يقل الاتصال بها والتنقل إليها وينتقل السكان بدورهم وراء مركز القيادة وهذا ما حدث بالفعل بالنسبة للقيروان التى فقدت دورها فى بلاد المغرب الإسلامى ولم تعد تلك العاصمة التى كانت مركز السلطة والسيادة والثقافة والفكر والحضارة والقطب الذى تجذب إليه كل الاتجاهات ولم تعد القيروان كعبة العلم ومركز الحضارة كما كانت فى السابق .

وبذلك ينتفى عن العرب الهلالية فكرة وافتراء هدم القيروان وتخريبها كما هدم القلاع والحصون ، وما هى الفائدة المادية التى تعود على العرب الهلالية من وراء هدم القلاع والحصون ، أن العرب الهلالية لم يكن فى فكرهم السياسى اقامة دولة وبناء كيان سياسى ، ولو كان ذلك فى فكرهم لكان زعيمهم مؤنس بن يحيى الرباحى قد استطاع دخول القيروان بعد معركة حيدران مباشرة وقضائهم على القوة الرئيسية العسكرية للسلطان المعز بن باديس لكنهم لم يفعلوا ذلك فلماذا إذن هدم الحصون والقلاع مادام لم يكن فى فكرهم تدمير الدولة وإقامة كيان سياسى عربى هلالى .

ثم أن ظاهرة خراب العواصم السياسية القديمة ليست المثل الفريد فى القيروان فقط ، بل إننا نجد أبناء عمومة بنى زيرى وهم بنى حماد أصحاب الجزائر وحكام المغرب الأوسط قد اتخذوا عاصمة لهم فى عهد مؤسس الدولة حماد بن زيرى بن مناد بن منقوش الصنهاجى ، ثم انه لما فكر فى بناء القلعة كعاصمة جديد عام ٣٩٨ هـ بدلا من العاصمة القديمة أشير ، فقد أصدر أوامره ببناء القلعة وترحيل الأهالى من أشير العاصمة القديمة إلى القلعة وقام بتشجيع الناس على الهجرة وهجر إليها أهالى القرى والمدن المجاورة حتى صارت العاصمة القلعة عاصمة حديثة تجذب إليها السكان وصارت مقر الحكم والقيادة وفقدت أشير مركزها كعاصمة واضمحلت سياسيا وسكانيا وفكريا وثقافيا وهجرها الناس إلى القلعة وتلك ظاهرة فى بلاد المغرب الإسلامى .

كذلك فانه عندما ضاقت القلعة لان تكون عاصمة دولة كبرى لبنى حماد وفى عهد الناصر بن علناش الحمادى فانه قرر الانتقال من القلعة إلى بجاية عام ٤٥٧ هـ/ ١٠٦٥ م واتخاذها عاصمة سياسية للبلاد وبعد أن أعاد بناءها وحدودها وجعلها عاصمة لدولته وانتقل إليها عام ٤٦١ هـ / ١٠٦٩ م وظل يحكم فيها حتى عام ٤٨١ هـ / ١٠٨٨ م وعندما تولى مقاليد الحكم فى البلاد ابنه المنصور فقد نقل كل ما يمت بالحضارة والثقافة والمعالم العمرانية من القلعة إلى بجاية واهتم ببناء المنشآت والقصور وبذلك فقدت أشير والقلعة مركزهما كعواصم سياسية لبنى حماد وبالمثل ينطبق القول على القيروان التى تركها المعز بن باديس إلى المهدية وظل يحكم البلاد من عام ٤٤٩ هـ إلى عام ٤٥٣ هـ ولكن للحقيقة فان بنى حماد وقد كانت تملى عليهم الظروف السياسية طوعا لا كرها ترك العواصم القديمة وبناء عواصم جديدة بمحض إرادتهم ، لكن فى حالة القيروان فقد يكون المعز بن باديس قد وقع تحت ضغوط جعلته يغادر القيروان إلى المهدية ، لكن فى كل الحالات لم يكن العرب الهلالية العامل الأساسى الأول فى اضطرار المعز بن باديس إلى ترك العاصمة القيروان واختيار المهدية كعاصمة جديدة وإلا لماذا لم يغادرها مباشرة أثر هزيمته فى معركة حيدران عام ٤٤٣ هـ .

هذا عن خراب القيروان ونفى التهمة التى ألصقت بالهلالية ، كذلك القول بأنهم هدموا المعالم الحضارية للمدن وجعلوها خرابا فنحن نحتكم فى ذلك إلى الادريسى فى كتابه نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق قسم المغرب وأرض السودان والاندلس الذى نشره « دوزى خويه » والذى ألف كتابه فى أوائل القرن السابع الهجرى وتوفى عام ٦٤٩ هـ وكان يسبق عصر ابن خلدون ما يقرب من قرن ونصف من الزمان والذى تعتبر شهادته أقوى دليل عن ابن خلدون باعتبار أنه شاهد المعالم فى المغرب وزار هذه المناطق وتحدث عنها قبل ابن خلدون بفترة طويلة وهى تعتبر شهادة نفى لما قاله ابن خلدون وشهادة اثبات فى حق العرب بأنهم لم يكونوا كما قال عنهم ابن



خلدون .

فنجد أنه يتحدث عن العرب الهلالية قائلا انهم يعيشون فى تآلف مع سكان المدن من البربر وانهم يتعاونون معهم فى القيام بالأعمال الزراعية والتجارية ويتحدث عن القوم فى مدينة المستير مثلا فيقول أن الاعراب لانضرهم فى شئ وكذلك تحدث عن تونس فذكر أن العرب تجاور أرضها وتقدم للمدينة ما تحتاج إليه من مواد غذائية وكذلك تحدث عن قسنطينة فذكر أنه مدينة عامرة ولها معاملات واسعة مع العرب وأن العرب يشاركون فى الحرث والزراعة ، وتحدث عن مدينة المسيلة فقال أن جميع حصون المدينة فى مهادنة مع العرب وتحدث عن العديد من المدن والقرى فلم يذكر الخراب والاضرار التى ذكرها ابن خلدون ( نزهة المشتاق ص ٩٣ ، ص ١٠٩ ، ص ١١٠ طبع ليدن ١٨٩٩ م ) فلما جاء ابن خلدون بعد الادريسى بقرن ونصف من الزمان ليذكر عن العرب الهلالية ما ذكره عنهم ألم يكن أولى بمن عاش فى القرن السادس والسابع الهجرى أن يتحدث واصفا الآثار المدمرة بدلا من ابن خلدون الذى عاش فى القرن الثامن الهجرى ، أن الحقيقة واضحة للعيان وهى أن ابن خلدون كان واقعا تحت ضغوط سياسية أو عوامل نفسية أو اعتمد على مصادر معادية للعرب فى ذلك الوقت وبالطبع كانت مملوكية أو بربرية ومن كل هذا فقد وقع ابن خلدون فى خطأ تاريخى وبالغ مبالغة شديدة فى التجنى على العرب . على الرغم من وضع ابن خلدون لعلم العمران واهتمامه بدراسة المدن ولايستطيع أن نتحدث عن الحسن الوزان وكتاب وصف افريقية رغم وصفه للمدن المغربية جملة وتفصيلا إلا أن كتابه جاء متأخرا جدا عما وصفه ابن خلدون بما يقرب بأربعة قرون أو يزيد .

ثم إننا نرد هنا عليه فى أن القبائل العربية كانت حامية للديار وللسيادة الزيرية على أرضها وكيف أنها وقفت بجانب السلطان تميم ابن المعز بن باديس ( ٤٥٣ – ٥٠١ هـ ) ودافعت عن كيان الدولة الزيرية ضد الإنهيار والسقوط وحالت دون قوات

الناصر بن علناش الحمادى ( ٤٨١ - ٤٩٨ هـ ) من الهجوم على المهدية ومحاولة القضاء على سلطان بنى زيرى . وقد وقع على القبائل العربية الهلالية عبء الدفاع عن سلطان الدولة من ذلك نجد أن تميم بن المعز قد استعان بالقبائل العربية القوية وتحالف معها ولم تكن قد مضى على دخولها البلاد عشر سنوات (٤٤٣ - ٤٥٣ هـ) واستعان بقبائل رباح ورجالها وفرسانها حتى يضمن ولاء جميع القبائل العربية له ويمكن من تحالفه مع العرب من إحباط المؤمرات التى أعدها الناصر بن علناش الحمادى لمهاجمة المهدية كما مكنه التحالف من هزيمة الناصر بن علناش الحمادى عام ٤٥٧ هـ فى موقعة سبيبة وذلك بأن وقفت قبيلة رباح وغيرها من القبائل العربية مع تميم وانحازت القبائل التى كانت تقف فى صف الناصر مع اخوانها وبذلك هزم الناصر شر هزيمة .

لكن ابن خلدون تناسى ذلك الموقف ولم يشر إليه من قريب أو بعيد فى حين أن العديد من المصادر العربية ( كابن عذارى المراكشى، ابن الاثير، السلاوى ، الزركشى ) ووغيرها من المصادر قد أشارت إلى ذلك .

لقد وقفت القبائل العربية الهلالية ولم يكن قد مضى على دخولها المغرب عشرة أعوام وليس مائة عام بجانب الدولة التى يعيشون فوق أراضيها ودافعوا عام ٤٥٧ هـ فى معركة سبيبة عن سلطانهم تميم بن المعز وتحالفت كل القبائل العربية مع ابن المعز وتخلى بعض منها عن الناصر الحمادى عملا بنصيحة القبائل التى تسكن المغرب الأدنى ( افريقية ) فلو أن العرب يريدون تدمير المغرب وخرابه لوقفوا مع الناصر الحمادى وساعدوه فى احتلال المهدية وتدميرها والفوز بالغنائم التى ركز عليها ابن خلدون وكان العرب الهلالية كانوا أهل سلب ونهب ويحاربون من أجل المكسب المادى .

وهناك أقوال أخرى تذكرها للتدليل على هفوة ابن خلدون وهو أن العرب الهلالية



فى صراعهم مع الدولة الموحدية عام ٥٤٧ هـ / ١١٥٢ م وكان قد مضى على وجودهم فى المغرب ما يزيد عن مائة عام قليلا وعندما عرض عليهم روجار الثانى صاحب صقلية أن يمدهم بخمسة آلاف فارس من النصارى لكى تقف بجوارهم فى قتال عبد المؤمن بن على زعيم الموحدين فانهم رفضوا طلب روجار الثانى وأجابوه بأنهم فى غنى عن نجدته إذ لايستعان بكافر على مسلم ( الميلى . تاريخ الجزائر جـ ٢ ، ص ٢٥٧ ) هذه هى أخلاق العرب الأصيلة وليست أخلاق العرب البدو الاجلاف ، فلو انهم يريدون مالا وسطوة وحكما وسيطرة لاستعانوا بقوات نصرانية كما استعان بها حكام بنى زيرى وبنى حماد فى فترات سابقة فى صراعهم مع بعضهم البعض .

لو أن العرب الهلالية يريدون خراب المغرب ومدنه وتدميره لاستعانوا بهذه القوات وتحالفوا مع نصارى صقلية لكن الذين سكنوا بجوار الكعبة وقبر الرسول ﷺ بمكة المكرمة والمدينة المنورة يأبى عليهم إسلامهم الاستعانة بكافر على مسلم . حدث هذا فى القرن السادس الهجرى وجاء ابن خلدون يكرر ماذكره المؤرخون فى أواخر القرن الثامن الهجرى .

أن صفحة العرب الهلالية فى تاريخ المغرب هى صفحة مضيئة بعلامات بارزة من مواقف الشرف والبطولة والفداء والشهامة والرجولة وليس من علامات الخسة والدنائة والخزى والعار ، كانوا جنودا بواسل يدافعون عن المهدية عاصمتهم ضد بنى حماد ويرفضون الاستعانة بقوات نصرانية فى صراعهم مع الموحدين ويرفضون الزحف مباشرة على القيروان بعد هزيمة حيدران عام ٤٤٣ هـ وكانت كل الظروف السياسية والعسكرية والنفسية تساعدهم على ذلك ولو أنهم كانوا يريدون دولة لاقاموا دولة ، لكنهم أرادوا العيش فى ظل السياده الزيرية والحمادية وقد كان دفع الخلافة الفاطمية فى القاهرة لهم فى بادئ الأمر ربما أحدثت بعض التجاوزات مثلما يحدث فى كل الحروب .

وإذا سلمنا بما قاله ابن خلدون فان أفعالهم لا تعدوا واحدا فى المليون عما يحدث فى كل الحروب ماذا فعلت الكاهنة وكسيلة بالعرب الفاتحين فى القرن الأول الهجرى ، ماذا فعلت قشتالة وأرغون بالمسلمين فى الاندلس ماذا فعل النورمان بالمسلمين فى صقلية .

أن الهلالية أصحاب قيم ودين وتقاليد فالذى يأبى عليه دينه أن يتحالف مع أعداء الإسلام لايمكن بأى حال من الأحوال أن يعتدى على حرمات الإسلام والمسلمين ويدمر مدنهم وقراهم وحصونهم وقلاعهم كما ذكر ابن خلدون .

أن الغزوة الهلالية لوجه مشرف فى جبين العروبة والإسلام والمغرب وليس صورة تدميرية تخريبية كما ذكر ابن خلدون ، انها وسام على صدر التاريخ الإسلامى المغربى ، انها مفخرة لكل أبناء المغرب المعاصرين أنها رمز القوة والصلابة والرجولة والتحدى والصبر والصراع الطويل ، لقد أكسبت الغزوة الهلالية كل صفات الفارس العربى والتحدى الهلالى والعمق الإسلامى والحس العربى ، فتحية لكل الذين شاركوا فى الزحف الهلالى الواسع النطاق فى منتصف القرن الخامس الهجرى للمغرب العربى الذين أعطوا جنسا وسلالة عربية قوية وأذكوا روحا وثابة قوية صامدة تتحدى الزمن والأقدار وتقف ضد كل المخططات . والذين تركوا بصمات العروبة والإسلام فى كل بقاع المغرب ، ليت ابن خلدون حيا ليشهد وجه الإسلام الباسم المضئ على أرض المغرب المعاصر .



# الباب الثالث

## بنى حماد على مسرح الأحداث فى المغرب الأوسط

## ( ٤٠٥ – ٥٤٧ هـ )

سبق أن تحدثنا فى الباب الأول من هذا الجزء عن كيفية ظهور بنى زيرى على مسرح الأحداث فى المغرب الإسلامى وكيف أن بلكين بن زيرى أعان الدولة الفاطمية على توطيد ملكها فى المغرب الأدنى والأوسط وحارب قبائل زناتة حروبا عنيفة وقام بخدمة الدولة الفاطمية خدمة خالصة ودخل فى معارك كثيرة كما سبق أن أوضحنا مع زناتة التى كانت تعادى صنهاجة والفاطميين وتناصر الأمويين بالاندلس ، ولما رحل المعز لدين الله الفاطمى إلى مصر عام ٣٦٢ هـ استخلف بلكين بن زيرى الصنهاجى على المغرب الأدنى والأوسط والجزائر وغيرها . وكان استخلاف بلكين بن زيرى على هذه المناطق ايذانا باستقلال البربر لحكم أنفسهم لأول مرة فى العصر الإسلامى وايذانا بسيادة قبيلة صنهاجة البربرية دون القبائل الأخرى على ذلك الجزء من العالم الإسلامى .

ولما توفى بلكين بن زيرى فان ابنه المنصور قد تولى مقاليد الأمور بها بعد أن كان والده قد نهض بأعباء الدولة وأسس مملكة صنهاجة التى قامت بدور عظيم منذ تأسيسها حتى سقوطها وحاولت أن توحد المغرب الإسلامى بشتى أقسامه لولا تمرد زناتة عليه ، لكن المنصور تولى إدارة شئون البلاد عام ( ٣٧٣ – ٣٨٦ هـ ) فقد عمل على استرجاع المغرب الأقصى بإرسال الجيوش لقتال زناتة عام ٣٧٤ هـ وتولى عمه أبو البهار بن زيرى ابن مناد الصنهاجى على المغرب الأوسط وجعل مقره مدينة تاهرت (عاصمة بنى رستم السابقة ) وأقام أخاه بطوقت واليا على أشير فى المغرب الأوسط وأوصاهما بالتعاون معا على حماية المغرب الأوسط من أى عدوان تحاول أن تشنه قبائل

زناتة على هذه الأقاليم والعمل على استخلاص الأراضى منها فى المغرب الأوسط ، وترك لأخيه حماد بن بلكين قيادة جيوش بنى زيرى لكن حمادا لم يستطع القضاء على قوة زناتة نهائيا ومات المنصور عام ٣٨٦ هـ وترك لابنه باديس مهمة قتال زناتة وإرسال الجيوش للقضاء عليها لكن لم تتمكن قوات بنى زيرى من القضاء على قوة مغراوة ، ولقد كان الخلاف والصراع بين بنى زيرى والصراع الداخلى بين البربر قد بدأ يدخل طورا جديدا مما ساعد زناتة أن تقيم ملكها فى المغرب الأقصى ( مغراوة ) وأن تحقق بعض أهدافها فى المغرب الأوسط وتدخل تاهرت ، ومن خلال القتال مع زناتة استطاع حماد شقيق المنصور وعم باديس أن يبرز نفسه كقائد ناجح ولذا كان حماد أبرز القادة الذين وجدهم الأمير باديس بن المنصور ليستعين بهم فى محاربة وقتال زناتة الموالين لبنى أمية فى الاندلس وتكونت الأطماع حوله من أعمام أبيه ، ولما أراد باديس أن يوجه حمادا لقتال زناتة استغل حماد حاجة الدولة الزيرية فاشترط على باديس عدة شروط بعد أن كان قد نجح فى المهمات السابقة التى أوكلت إليه فقد تصدى لمحاربة قبائل زناتة جنوب مدينة المسيلة وغربها إلى وهران فأثخن فيها وكسر شوكتها لذا اشترط عليه عدة شروط كثيرة فى عام ٣٩٥ هـ وهى أن يتملك حماد كل البلاد التى يفتحها ويستولى عليها من أيدى زناتة خارج نطاق الدولة الزيرية وعدم استدعاء حماد مرة ثانية للعمل فى افريقية ( المغرب الأدنى) وأن يختار حماد مكان عاصمته.

ومن هنا فقد استطاع حماد أن يفوز من ابن أخيه باديس بن المنصور بما كان يختمر فى رأسه وفكرته من العمل على اقامة كيان سياسى مستقل له ولاحفاده من بعده ، ولقد وجد فى موافقة باديس على هذه الشروط وتعهد باديس على تنفيذ ذلك بمثابة الوثيقة القانونية والشرعية التى يستند إليها حماد على المدى البعيد لإقامة هذا الكيان السياسى الذى كان يفكر فى اقامته حيث أنه فشل فى أن يكون ولى العهد وخليفة أبيه بلكين بن زيرى وفاز بالولاية أخوه المنصور .



وبذلك فانه من الممكن القول أن الشكل القانونى والتكييف التشريعى للبناء السياسى للدولة قد تم عام ٣٩٥ هـ بعد أن توصل حماد بن بلكين إلى هذا الاتفاق مع باديس ، ومن هنا فقد بدأت خريطة المغرب الإسلامى السياسية تأخذ بعدا سياسيا مختلفا عما كان عليه الحال فى عهد المنصور وأبيه بلكين بن زيرى إذ أن ملامح كيان سياسى جديد قد باتت واضحة فى الافق وهو أن حماد بن بلكين بن زيرى سوف يضع يده على أقاليم فى أراضى زناتة يحق له أن يحكمها باسم الدولة لكن تحت سيادته وتخضع لأوامره فمن هنا فقد تغير الوضع السياسى للمغرب مؤذنا بظهور دولة بنى حماد وكان ذلك بمثابة تملك حماد لحكم المغرب الأوسط ( اشير ، والمغرب الأوسط ) ويمتلك كل ما يفتحه إنما كان ذلك بمثابة الانفراد بالحكم فى إطار الدولة الزيرية وليس الاستقلال الكامل وهكذا لم تمض أكثر من ثلاثين عاما على انفراد صنهاجة بحكم المغرب حتى كان أحد أبناء بلكين ( حماد بن بلكين الزيرى ) يعمل على تقسيم الدولة والانفراد بحكم معظم أجزاء دولة الجزائر الحالية ويكون بها دولة مستقلة حكمها هو وأولاده وأحفاده من بعده عرفت فى المصادر باسم دولة بنى حماد (الدولة الحمادية فى المغرب الأوسط ) فقد استقل حماد بمنطقة غرب تونس والجزائر بل انهم لم يكتفوا بما لديهم من حكم ذاتى بل أسرعوا وأعلنوا استقلالهم عن الدولة الزيرية التى ورثها بلكين بن زيرى والده عن الفاطميين بعد أن اقتطع حماد المغرب الأوسط لنفسه من ابن أخيه باديس بن المنصور ما بين جبال أوراس إلى تلمسان وملوية واختط القلعة كعاصمة سياسية بجبل كتامة .

وكان حماد قد أسس مدينة القلعة عام ٣٩٨ هـ وصار بترك أشير التى ينسب قبل ذلك وكان بنو حماد قد اتخذوا مدينة أشير عاصمة لهم ثم ابتنوا إلى جوارها قلعة ضخمة أشبه بالمدينة الصغيرة عرفت بقلعة بنى حماد .

لكن باديس بن المنصور رأى أن نفوذ عمه حماد قد ازداد وتوسع فى امتلاك

الأراضى فطلب منه أن يتنازل عن مدينة القسنطينة وبعض المدن الصغيرة حولها اختبارا لحسن النوايا ولتولية المعز ابنه أميرا عليها لكن حمادا أبى وأظهر الخلاف وتنكر لابن أخيه وقد استوحش من ذلك حماد فتمرد عليه ، وتأكد لدى باديس ان حمادا لديه رغبة كاملة فى الانفصال عن الدولة .

فزحف إليه ووقعت بينهما معارك عنيفة واستطاع باديس أن يهزمه عند وادى شلف بالقرب من القلعة ففر حماد إلى القلعة عام ٤٠٦ هـ وتحصن بها لكن باديس تتبعه من وادى شلف إلى القلعة وحاصره بها لكن باديس مات فجأة عام ٤٠٦ هـ وهو محاصر قلعة بنى حماد ، ولقد كانت وفاة باديس أثناء حصار القلعة فرصة ما أعظمها فرصة بالنسبة لحماد قلما تتاح لكثير من الطامحين إلى الاستقلال فقد ترك جيش باديس حصار القلعة وانسحبت الجيوش إلى المدينة المحمدية ثم رحلوا منها إلى المهدية ، وبذلك أتيحت الفرصة لحماد من التمكن فى توطيد دعائم حكمه فى ظل أمور بنى زيرى المضطربة أثر وفاة باديس وانشغال كبار الدولة فى تعيين خليفة له .

وتولى المعز بن باديس مقاليد الأمور فى البلاد خلفا لابيه وكان عليه أن يواجه وأن يعمل هو ورجاله بكل السبل والوسائل لمحاولة حل أكبر مشاكل الدولة آنذاك وهى القضاء على نزعة الانفصال عند بنى حماد بقيادة عم أبيه ( جده ) حماد بن بلكين الذى جعل من القلعة حصنا قويا وعاصمة له بعد أن نقل إليها أهل مدينة المسيلة ومدينة أهل حمزة ونقل قبيلة جراوة من المغرب وأنزلها بها .

وكانت جنود كرمة بن المنصور عم المعز تقاتل قوات حماد الذى كان يحاصر مدينة باغاية . فلما علم بقدوم قوات المعز فر عنها وقاتله قوات المعز بن باديس وانهزم حماد واسر أخوه ابراهيم بن بلكين الذى كان يقاتل معه وجرح حماد جرحا بليغا وكاد أن يقع فى الأسر كأخيه ابراهيم لولا أن استطاع الفرار . وأثر هذه المعركة وما جلبت على حماد من خسائر مادية وبشرية وعودته إلى القلعة بأعداد قليلة من جنده



وتركه من كانوا يلتفون حوله أدرك ومساعدوه وبنوه انه لاقبل له بقتال قوات المعز بن باديس وأنهم لايستطيعون الوقوف طويلا أمامهم وعدم القدرة على حرب طويلة لاسيما أنه لازال فى بداية الطريق نحو وضع معالم الدولة التى ينشد تأسيسها فما كان منه إلا أن تقدم بطلب الصلح مع رجال المعز بن باديس على أن يكون تابعا للسلطة المركزية فى القيروان وأن يتمتع باستقلال محلى فى المغرب الأوسط وأن يكون استقلالا ذاتيا وهكذا تصالح المعز بن باديس مع حماد بن بلكين واعترف له بالاستقلال بولاية الجزائر وذلك عام ٤٠٨ هـ والتى كانت تضم المدن التالية ( المسيلة ، طبنة ، الزاب ، أشير ، تاهرت، القلعة ) وكل مايفتح من بلاد المغرب الأقصى وبذلك الصلح تعتبر الدولة الزيرية فى المغرب والتى كانت تشتمل المغرب الأدنى والأوسط قد انقسمت إلى دولتين بنى زيرى أو باديس فى القيروان ثم المهدية ودولة بنى حماد فى أشير والقلعة وبجاية فيما بعد .

وهكذا فانه يمكن القول أنه فى عام ٤٠٨ هـ / ١٠١٧ م يعتبر بمثابة ميلاد أو تاريخ ميلاد دولة بنى حماد المستقلة فى المغرب الأوسط . ومع أن شروط الصلح كانت تنص على ألا يتصرف بنو حماد فى شأن من شئون بلادهم السياسية والعسكرية إلا بالاتفاق مع المعز بن باديس ورجاله أصحاب السلطان والنفوذ فى القيروان ، إلا أن المشاكل الكثيرة التى أحاطت بالدولة الزيرية ورجالها قد جعلتهم عاجزين عن القيام بأى محاولة جديدة أو جدية ( عسكرية ) لإجبار بنى حماد على طاعتهم ، ومن ثم فقد اكتفوا بالطاعة الاسمية ولكن سارت كل من الدولتين فى طريقها الذى ارسمته لنفسها .

كما أنه يمكن القول وطبعا لما أشار إليه العديد من المؤرخين فى المصادر المختلفة أن قيام بنى حماد فى مطلع القرن الخامس الهجرى الحادى عشر الميلادى ، يعتبر نقطة بداية ظهور المغرب الأوسط ككيان مستقل داخل الدولة الإسلامية الواسعة ، ومعنى ذلك أنه قد تحدد وضع المغرب الأوسط على خريطة المغرب الكبير وظهور الكيان

السياسى الحالى للجزائر والتى كانت الدولة الحمادية تشتمل على معظم أراضيها الحالية .

كذلك فان الذى دعم وضع حماد فى تلك البقعة من المغرب الإسلامى ذلك الانتصار الرائع على قبيلة زناتة فى المغرب الأوسط وسيطرته على تلك الأراضى التى وضع يده عليها ليقيم دولته بها وأنه نجح فى تأمين حدود الدولة الصنهاجية من ناحية المغرب ، كل هذا كان له أكبر الأثر فى تثبيت سلطان بيته فى المغرب الأوسط مع أنه لم يكن يرغب فى إعلان انفصاله عن أبناء عمومته فى المغرب الأدنى ، إلا أن كل أفعاله ودخوله فى قتالهم قد أعطى الفرصة للأخير من ( بنى زيرى ) أنه لا محالة سائر فى طريقه نحو الاستقلال التام بالمغرب الأوسط عن دولة بنى عمومته وها هو قد نجح بعد ثلاثة عشر عاما قضاها فى الكفاح الطويل والقتال المرير مع قبيلة زناتة وفى بناء معالم دولته وها هو أيضا قد وضع اللبنة الأولى لتأسيس دولة بنى حماد بعد أن كان التعهد الأول عام ٣٩٥ هـ بينه وبين ابن أخيه باديس بن المنصور قد تم نقضه من جانب بنى زيرى ولم تسمح الدولة له بالاستقلال أو أن يعين حاكما على الاقليم الذى يحكمه دون أن يكون للدولة حق التصرف فى تعيين بدل منه واستدعائه إلى العاصمة القيروان ، لكن جاء صلح ٤٠٨ هـ / ١٠١٧ م ليضع الأمور فى نصابها ويبتدع فجر يوم جديد على ميلاد دولة جديدة تلعب دورها على مسرح الأحداث فى المغرب وهكذا أظهرت الدولة رسميا عام ٤٠٨ هـ بعد توقيع الصلح بين المعز بن باديس وحماد بن بلكين هو الميلاد الحقيقى للدولة وليس عام ٣٩٥ هـ ، ذلك لان الفترة التاريخية أو الزمنية بين التاريخين لم تكن إلا مرحلة تمهيدية حاول حماد فيها أن يوسع دائرة أملاكه أو يعمل على تقوية نفوذه .

وترجع بعض المصادر قيام هذه الدولة إلى عجز بنى زيرى عن بسط نفوذهم وسلطانهم على كل أنحاء المغرب الأدنى والأوسط باعتبارهم ممثلين للفاطميين ولكن



باعتبارهم مستقلين عنهم ، وإن كانوا قد احتفظوا ببعض قواتهم فى المغرب الأدنى ، إلا أنهم قد عجزوا تماما عن بسطها فى المغرب الأوسط والأقصى ، ومن هنا جاء دور حماد ليوطد هذه الدولة ويبسط لواء صنهاجة على تلك الأقاليم ، لكن لم يكن ذلك إلا من أجل أهداف شخصية ومساع نفسية يسعى حماد من ورائها لان يكون له نصيب فى دولة أبيه بلكين بن زيرى الصنهاجى ذلك أن كان أخوه المنصور بن بلكين قد تولى مقاليد الأمور فى افريقية فلماذا لايكون هو مثل أخيه له سلطان ونفوذ ، لكن أخاه تولى عرش افريقية بالوراثة أما حماد فقد نال حكم المغرب الأوسط بالقتال والاستعداد والبناء وهنا اختلاف بين الشخصيتين .

# الفصل الأول

## ميلاد الدولة الحمادية ككيان مستقل

قامت الدولة الحمادية بدور كبير وعظيم منذ تأسيسها إلى سقوطها فى تاريخ المغرب الأوسط وكان لها شأن عظيم على مجريات الأمور والأحداث فى هذا الجزء من المغرب الإسلامى والعالم آنذاك فى ذلك الوقت فقد عملت على ترقية سكان الجزائر وحاولت أن تمد نفوذها غربا فى المغرب الأقصى لكن قوى المرابطين الفتية وقفت عقبة كأداء فى سبيل بسط نفوذها على القبائل الزناتية .

ولقد كان أمراء هذه الدولة بدءا من أولهم حماد بن بلكين رجالا عظماء ، يهتمون بأحوال الشعب والرعية ويدعمون نفوذهم وسلطانهم فى آن واحد ، ويسعون ما وسعهم السعى إلى نشر الأمن والأمان فى مختلف أرجاء الإمارة ، لان ذلك من الأسباب القوية للتقدم الاقتصادى والإزدهار العلمى والحضارى ، ولذلك عملوا على تنشيط الزراعة والفلاحة والاهتمام بأمر الانتاج الزراعى والحيوانى ، والبناء التجارى ، ونشر العمران فى أرجاء البلاد لاسيما العواصم المدمرة التى قاموا بانشائها ( أشير ، القلعة ، بجاية ) وغيرها من المدن الكبرى والموانئ الواسعة العظيمة الواقعة على شاطئ البحر المتوسط .

وكانت دولة بنى حماد دولة ملكية يقوم نظام الحكم فيها على أساس الحكم الوراثى من خلال الأسرة الحمادية حيث أن الذى سيقرأ تاريخها يجد أن الأمراء بدءا من حماد مؤسسها إلى يحيى بن العزيز آخر أمراد الإمارة كانوا جميعا من سلالة حماد، لكن كان يغلب على الدولة طابع الحكم الاستبدادى إلا أن ذلك لايعنى أن الأمير لم يكن له مجلس وزراء يساعدونه فى إدارة الحكم لاسيما انهم اقتبسوا طريقة الحكم ونظامه من أبناء عمومتهم بنى زيرى فى تونس .



وكان ولاؤهم السياسى مرة للفاطميين وتارة أخرى للعباسيين لكنهم قضوا فترة من الزمن يستظلون بمظلة الحكم الزيرى فى القيروان لاسيما قبل قدوم القبائل الهلالية عام ٤٤١ هـ إلى البلاد . وكان ذلك الولاء سواء لبنى زيرى أو الفاطميين أو العباسيين يسير وفق المصالح السياسية التى تحقق فائدة للنظام الحاكم فى البلاد وكان ذلك ينبع من مقتضيات ومتطلبات الظروف التى تحيط بهم فى ذلك العصر وكانت عاصمتهم وقت انشاء الدولة هى أشيرتم منها انتقلت إلى القلعة وهو الاسم الذى درج على التعارف عليه فى المصادر التاريخية إذ اقترنت القلعة ببنى حماد فكان يقال بنى حماد أصحاب القلعة ، لكنه فى بعض الفترات التاريخية انتقلت العاصمة السياسية من القلعة إلى بجاية فى عام ٤٦٠ هـ . لاسيما أن هناك إجماعا من بعض المصادر التاريخية على أن الباعث وراء الانتقال إلى بجاية واتخاذها مركز السلطة والسلطان هو الخوف من خطر القبائل العربية الهلالية التى بدأت تتسرب إلى المغرب الأوسط بعد استقرارها فى المغرب الأدنى منذ عام ٤٤١ هـ ووصول طلائعها إلى الجزائر عام ٤٦٠هـ ومن هنا كان لابد من اللجوء إلى تأسيس عاصمة كبيرة تتوافر فيها شروط الأمن والقدرة على الدفاع والاحتماء بها من هجمات القبائل الهلالية ، ولقد كان الخطر الهلالى يزحف على القلعة لاسيما أن القبائل الهلالية قد بدأت تتحرش بالدولة الحمادية أثر هزيمة الناصر بن علناش الحمادى فى موقعة سبيبة عام ٤٥٧ هـ ومن هنا كان تأسيس بجاية .

ولقد كان الفضل الأول فى تأسيس تلك الدولة الفتية يعود فى المقام الأول إلى حماد بن بلكين الذى كان هو الباعث الأول لكى يظهر هذا الكيان السياسى كوحدة ذات معالم حدودية نامية ومحددة ومعترف بها من القوى السياسية الأخرى فى القرن السادس ، والذى عمل منذ أن وطئت أقدامه أرض المغرب الأوسط على بناء هذا الكيان مهما تكن الظروف والملابسات التى تحيط به من أخطار وقد حقق حلمه فى دولة قوية فتية دخلت التاريخ .

# الدولة الحمادية بالقلعة

## الأمير حماد بن بلكين الزيرى

## ( ٤٠٥ – ٤١٩ هـ – ١٠١٤– ١٢٢٨ م )

هو حماد بن بلكين بن زيرى بن منقوش الصنهاجى . وهو أحد أبناء بلكين بن زيرى وقيل أنه كان الرابع فى الترتيب بين الأبناء بعد المنصور ويطوف ومحمد ، وهو أول أمراء هذه الأسرة . وقد انفرد بحكم معظم اجزاء الجزائر الحالية وكون منها دولة مستقلة يحكمها هو وأبناؤه وأحفاده من بعده .

وقد نشأ حماد فى بيت الخلافة الفاطمية حيث تربى فى قصور الخلافة مع أبناء الخلفاء والأمراء والأسرة الحاكمة الفاطمية فى ذلك الوقت فى المغرب حيث كان أبوه وجده زيرى الساعد الأيمن للدولة الفاطمية ومن هنا فقد وضحت معالم شخصيته وهو طفل صغير وان كنا لانعرف تاريخ مولده على وجه التحديد لكنه بالتقريب كانت ولادته قبل استقلال أبيه بلكين بحكم المغرب عام ٣٦١ هـ بعد سنوات ربما فى أعوام ٣٥٣ هـ أو ٣٥٤ هـ . وقد تربى تربية إسلامية قويمة وتعلم فنون القتال والفروسية ومن هنا لم يكن قد شب عن الطوق حتى كان فارسا ماهرا يجيد الكر والفر وفنون القتال ومن هنا تميزت شخصيته دون أخوته وإن كان أبوه بلكين يعده إعدادا سياسيا لكنه اختار القتال والفروسية ولم يكن يولى اهتماما لغيرها وإن كان على علم كبير بالقرآن الكريم وعلومه والحديث لكنه لم يكن ميالا منذ طفولته لتقبل تعاليم المذهب الاسماعيلى الشيعى .

ولقد ظهرت شخصيته على مسرح الأحداث فى عهد أخيه المنصور بن بلكين عام ٣٧٣ هـ / ٩٨٣ م إذ استعان به المنصور فى قتال زناتة وكسر شوكتها التى كانت تتحدى صنهاجة وتطمع فى أن يكون حكم المغرب لها بدلا من صنهاجة ، ومن



خلال الحروب مع قبائل زناتة لمع اسم حماد كقائد عكسرى ناجح وأن يحقق أهداف الدولة فى كسر حدة هجوم زناتة على أجزاء الدولة البعيدة وحدودها ، وقد اختاره أخوه المنصور لتولى منصب قائد جيش صنهاجة فى الجبهة الغربية للبلاد وأن يمنحه حكم البلاد التى يستخلصها من أيدى زناتة وإن كان المنصور قد عين أخاه الأكبر يطوف واليا على أشير إلا أن حمادا كان القائد والوالى الفعلى لهذه الانحاء من المغرب الأوسط .

ولما كانت الحروب طويلة ومتصلة مع زناتة فان حمادا اضطر إلى اتخاذ مدينة أشير كعاصمة جديدة له .

ومن هنا فقد مهدت له الظروف لكى يطمع فى تأسيس حكومة وأسرة حاكمة له، لاسيما أن الظروف لم تكن تساعدة فى أن يكون وريث أبيه فى عرش افريقية بعد أن وقع الاختيار على أخيه الأكبر المنصور لكنه كتم غيظه وأسر فى نفسه أن يكون له حاكما وسلطانا لايقل عن أخيه المنصور وكان يتحين الفرص والظروف لكى يستغلها أحسن استغلال حتى تتحقق أهدافه وقد لاحت له الظروف ممهدة له طريق الوصول إلى المجد التاريخى فى المغرب فى عهد ابن أخيه باديس بن المنصور ( ٣٨٦ هـ/ ٩٦٦م ) . إذ بولاية باديس مقاليد الأمور بدأ الصراع الداخلى وتغيرت الظروف السياسية وثار عليه أعمامه أشقاء المنصور وأخوته وكان حماد هو الرجل الثائر طيلة حياة باديس وكان حماد يحمى حدود الدولة الغربية أو ما يمكن أن نطلق عليه ولاية الجزائر الشرقية من هجوم زناتة واستطاع منذ عام ٣٧٣ هـ حتى عام ٣٨٦ هـ أى أكثر من ثلاثة عشر عاما أن يجمع حوله الأعوان واستطاع أن يحارب زناتة وأن يهزمها واستدعى ذلك الأمر الاتفاق على عقد هدنة بين الطرفين كانت فى عام ٣٣٥ هـ / ١٠٠٤ م ونحن نرى هنا أن هذا العام هو العام الذى ظفر فيه من ابن أخيه باديس بأن تكون له الأقاليم التى يفتحها وهو تاريخ تخطيط بناء القلعة وإن كانت بعض المصادر ترى أنه عام ٣٩٨ هـ.

وقد نجح حماد فى مد سلطانه ونفوذه حتى ساد المغرب الأوسط كله من نهر شلف إلى نهر الموبوية وكان رئيس الدولة يلقب بالأمير منذ عهد حماد ولكنه حين استقل عن الخلافة الفاطمية حمل لقب ملك لكن نحن نميل إلى أن يظل أسماء امراء بنى حماد كما هو متعارف عليه ، ذلك لأنه لقب ملك لم يكن متعارفا عليه فى ذلك العصر وقد تكون أسماء أطلقها بعض المؤرخين على حكام بنى حماد فى الجزائر تفريقا لهم عن أبناء عمومتهم فى القيروان الذين اتخذوا لقب سلطان وهو الأعم والشائع فى ذلك العصر ، وقد كان حماد بن بلكين كما يقول عنه لسان الدين بن الخطيب فى كتابه الأعلام [ نسيج وحدة ، وفريد دهره وفحل قومه ، ملكا كبيرا وشجاعا ثبتا وداهية حصيفا ، قد قرأ الفقه بالقيروان ونظر فى كتب الجدل ( علم الكلام ) وعلوم المعتزلة ] .

وهو مؤسس الدولة وقد استغل حاجة بنى زيرى إلى قدرته القتالية والعسكرية فأملى شروطه التى سبق الإشارة إليها على ابن أخيه باديس التى كان من بينها امداده بالمال والعتاد والرجال كلما احتاج إلى ذلك للدفاع عن حدود الدولة الغربية والحد من قدرة زناتة على الاعتداء على أراضى الدولة وطردها من الأراضى التى تحت أيديها ، لكن كان شرط باديس هو القدرة على كسر شوكة زناتة وحماية الحدود الغربية للدولة وقد كان حماد ينوى الاستقلال بالحكم والانفراد به بعيدا عن الدولة الزيرية التى كانت صاحبة النفوذ والسيادة على كل المغرب من طرابلس شرقا إلى المحيط الأطلسى غربا .

فقد اختلفت المصادر التاريخية فى إعلان استقلال حماد عن الدولة الزيرية فى القيروان والبعض يرى أنها عام ٣٩٥ هـ والبعض الآخر يرى انها عام ٤٠٥ هـ لكن الجميع اتفقوا على أنها كانت فى عهد باديس بن المنصور والذى توفى عام ٤٠٦ هـ . وأنه قام بقتل الشيعة وأظهر السنة والمذهب المالكى وخلع طاعة الفاطميين وأعلن



طاعة العباسيين وذلك عام ٤٠٥ هـ وكان حماد قد انتصر على أخيه كرامة بن المنصور الذى كان يقود قوات المعز بن باديس ، لكن ابن خلدون يذكر تاريخا مغايرا للتاريخن السابقين إذ أننا نجد أنه يذكر أن حماد بن بلكين قد استقل بالمغرب الأوسط عام ٣٨٧ هـ فى عهد باديس ، وربما يكون قول ابن خلدون انه تولى شئون المغرب الأوسط من قبل باديس بن المنصور واختط مدينة القلعة عام ٣٩٨ هـ وكان بناء القلعة يعنى ميلاد الدولة وظهورها على مسرح الأحداث السياسية فى المغرب الإسلامى كدولة نامية ولقد ظل الأمير حماد بن بلكين ما يقرب من عشر سنوات ٣٩٥ – ٤٠٥ هـ / ١٠٠٤ – ١٠١٤ م وهو يعمل ما وسعه العمل على وضع وبناء دولة وطيدة الدعائم بعد أن حقق نجاحا باهرا فى طرد زناتة وبعثرها فى الصحراء وقضى على كيانها السياسى بحيث لم يعد لها نفوذ أو اقامة فى المغرب الأوسط ولم يعد لها دور تلعبه إلا غزو الاطراف والاغارة على المدن الآمنة ، واتجه فكر حماد بعد أن رأى هذه الأراضى الواسعة من نهر شلف إلى قهر المولولية تخضع لسلطانه فكان عليه أن يقيم دولته ، ولكن هذه الدولة كان لابد لها من عاصمة سياسية تكون مقر الحكم ومركز القيادة والحصن الذى يلجأ إليه وقت الشدة لكى يحميه من زحف الأعداء وكان نفوذه يمتد إلى المغرب الأوسط كله .

ولقد كان النجاح الساحق الذى حققه حماد دافعا الرجال السلطة والأقارب فى دولة بنى زيرى بالقيروان بالوشاية والكيد له لدى باديس الذى بدأ يحس أن عمه حماد قد صار مصدر خطر يهدد وحدة الأراضى الزيرية ، وكان على باديس أن يختار من نفس الأسرة رسولا إلى حماد ووقع الاختيار على الأخ الشقيق لحماد لكى يكون مبعوث الدولة الزيرية إلى حماد وهو ابراهيم بن بلكين وذلك بعد إجماع الأسرة الزيرية على ما حمله من أوامر وهو أن يرفع حماد يده عن الأراضى التى يملكها أو يتنازل عن القسنطينة وأرسل ابراهيم فى عام ٤٠٥ هـ لكنه عندما وصل إلى القلعة وشاهد قوات حماد التى كانت تزيد عن ثلاثين ألف مقاتل ورأى عظمة القلعة وما حققه حماد فى

تلك الفترة القصيرة من الحكم انضم إلى أخيه ورفض العودة إلى القيروان وأعلن استقلاله بالدولة ردا على مطالب باديس ودخل باجة عام ٤٠٥ هـ لكن كما سبق القول سار إليه باديس بقواته وانتصر عليه وانهزم وثار الناس عليه ورفض حاكم مدينة أشير دخول حماد وفلوله المنهزمة المدينة ووقفت باجة فى وجهه ، وانهزم حماد مرة ثانية عام ٤٠٩ هـ / ١٨٢٥ م ، لكن باديس بن المنصور مات فجأة وهو يحاصر القلعة

ودارت حروب طويلة بين كرامة بن المنصور عم المعز بن باديس شقيق حماد فى أشير وكانت مدينة أشير تخضع لحكم بنى زيرى وفى عام ٤٠٨ هـ قام حماد بمحاصرة باغاية بالقرب من قفصة وانهزم حماد وتم الصلح بين المعز بن باديس والذى دفعه إلى ذلك عمه كرامة بن المنصور وكما يقول السلاوى فى كتابه الاستقصا بأخبار المغرب الأقصى أن السلام والصلح كان فاتحة عهد جديد فى تاريخ المغرب .

وتم الصلح مع المعز عام ٤٠٨ هـ ودعم هذا دولة حماد الفتية وتزوج عبد الله ابن حماد شقيقة المعز بن باديس فازدادت المودة واستحكمت الصلة وتلاقت مصلحة رجال دولة حماد مع ما يتطلبه حماد من فرص لاستكمال بناء الكيان السياسى لدولة قوية لعبت دورها على مسرح الأحداث السياسية فى تاريخ المغرب بعد اتمامها قوية البناء وطيدة الأركان . وأطلق المعز سراح عمه ابراهيم بن بلكين والقائد بن حماد واستقرت الأمور بينهما .

ومن هذا التاريخ كما اتفق العديد من المصادر فى وفاة حماد فى عام ٤١٦ هـ / ١٠٢٨ م فان الدولة الحمادية قد بدأت تشعر بالاستقرار واستطاع حماد بعد هذا المجهود الشاق المضنى منذ عام ٣٧٣ هـ حتى عام ٤٠٨ هـ أى بعد خمسة وثلاثين عاما أن ينجح فى إقامة دولة له ولبنيه وكان الصلح الذى عقد بينه وبين المعز بن باديس ( حفيده ) بداية مرحلة الانطلاقة الأوسع والأرحب فى بناء عصرى لدولة تتطلع إلى أن



تتبوأ مكانة لها بين الكيانات السياسية فى بلاد المغرب وقد امتد هذا الصلح ما يقرب من ربع قرن من الزمان واستمر حتى نهاية حكم حماد ثم فترة فى عصر القائد ابن حماد .

وقد قال ابن الخطيب أن القلعة فى عهد حماد قد شهدت ازدهارا معماريا وحضاريا واتسم عهده بالتشييد والبناء وتوطيد دعائم الحكم وشهدت القلعة أيضا القصور العالية والحصون والأبراج القوية والمساجد الجامعة الواسعة الفسيحة التى ظهر فيها الفن العراقى مع الفن الاندلسى واتسمت حياة القلعة بالازدهار والنمو وكثرت الحدائق الغناء والبساتين الانيقة وقرب إليه العلماء والأدباء والشعراء وغيرهم من رجالات الفكر والعلم والدين والسياسة والشورى والزعامة ، وذلك لانه عمل على توطيد دعائم الدولة التى كانت الحروب قد انهكتها مع ابن أخيه باديس وحفيده المعز إضافة إلى الحروب الطويلة مع زناتة ، ومن هنا فان البناء الداخلى بدأ يظهر بصورة جلية كمظهر لكيان سياسى قوى ، ولقد كانت الدولة فى حاجة إلى ذلك الصلح لكى يسود عصر الهدوء والازدهار وقد اتخذت القلعة طابعا عسكريا وشيدت بالحصون الكثيرة فقد كانت ظروف تلك المرحلة تقتضى أن تكون حاضرة عسكرية وليست سياسية لانها لم تكن قد استقرت الأحوال فى المغرب الأوسط ومن هنا قضى حماد فترة ثمانية عشر عاما يعمل على البناء السياسى للدولة ويزيد فى التوسع الزراعى والعمرانى ويشجع الناس على الهجرة إلى القلعة التى نقل إليها أهل المسيلة وأهل حمزة ( ابن خلدون ) لكى تظهر العاصمة بصورة تضاهى العواصم ولكى يعمل على أن تكون قلعة العلم والدين لاسيما ان حمادا كان ضليعا فى الأمور الفقهية وخاصة أنه درس الفقه المالكى والحنفى والشيعى وإن كان قد نبذ الشيعى منذ صغره واتخذ المذهب الحنفى مذهب الدولة العباسية لكن السيادة والغلبة كانت المذهب المالكى .

وتوفى حماد بن بلكين فى شهر رجب عام ٤١٩ هـ / ١٠٢٨ م وقيل أنه

توفى عن عمر يناهز المائة عام بعد أن عمل على بناء دولة وتحقيق أحلامه التى كان يرى أنه أحق من أخيه المنصور وكان يؤيده فى ذلك أخوه ابراهيم ويطوف لكن الظروف السياسية والعائلية كانت أقوى من يحقق أحلامه على أرض المغرب فاستغل وضعه العسكرى كقائد عسكرى ناجح استطاع بما لديه من قدرات عسكرية ، وامكانيات قتالية أن يكبح جماح قبيلة زناتة البربرية التى كانت العدو التقليدى لصنهاجة وأن يطردها من كل بلاد المغرب الأوسط حيث كان مقر استقرارها ويقيم على أرضها دولته الفتية التى لعبت دورها على مساحة التاريخ المغربى بقدر ما سمحت لها الظروف فى ظل المتغيرات التى كانت تطرأ على الساحة المغربية وظهور دولة المرابطين القوية فى المغرب الأقصى والتى حدت من تطلعات بنى حماد نحو بناء كيان واسع على حساب زناتة ( مغراوة ) التى كانت تحكم المغرب الأقصى من قبل بنى أمية حكام الأندلس .

كذلك فان حمادا رغم تاريخه العسكرى إلا أنه لم يكن يتمتع بقدر من المرونة التى كانت تمنع عنه الدخول فى قتال مع أبناء أخوته وأحفاده واخوته فى القيروان ، إلا أن النزعة القبلية المفرطة والتعصب الأعمى للقبيلة قد جلبت حروبا كثيرة على الدولة جعلته يخوض حروبا مع صنهاجة ( أبناء العمومة ) ومع زناتة الأعداء التقليديين والدائمين لبنى حماد .



## الأمير القائد بن حماد بن بلكين

## ( ٤١٩ – ٤٤٦ هـ – ١٠٢٨ – ١٠٥٤ م )

تولى مقاليد الأمور بعد وفاة أبيه حماد والذى كان قد تم اختياره ليخلف أباه فى إمارة الدولة وكان والده يعده لهذه المهام الجسام دون أخوته عبد الله ، زيغلان ، محمد، علناش ( علاء الناس ، أعلى الناس ) ويوسف نظرا لانه كان يتصف بصفات فريدة وكانت المواصفات القيادية والدبلوماسية تؤهله لان يختصه والده بالقيام بابرام الاتفاقيات وعقد الصلح وقيادة الجيوش بجانب والده والاشتراك معه فى جميع المعارك التى خاضها والده وقد دامت فترة حكمه طوال سبعة وعشرين عاما .

وكان قائدا هماما وأميرا شجاعا حازما ، شديد الرأى واستطاع أن يقود دفة الأمور فى البلاد وأن يسهم فى تقدمها ورفاهيتها لاسيما أنه تولى الحكم والبلاد تأخذ طريقها للتقدم والازدهار فى ظل حالة الأمن والطمأنينة التى تسود البلاد .

ونظرا لسداد رأيه وحسن تصرفه فقد أوكل إليه أبوه أن يقوم بقيادة فريق الصلح الذى أرسل للتفاوض مع السلطان المعز بن باديس بشأن وضع نهاية للحرب الدائرة وفتح صفحة جديدة فى العلاقات فقام بالمهمة خير قيام وعاد إلى القلعة فى شهر رمضان عام ٤٠٨ هـ/ ١٠١٧م بعد أن تم التوقيع على الصلح ، ولقد لعب بأسلوبه فى المفاوضات دورا كبيرا فى توطيد الصفاء بينه وبين المعز بن باديس ، وفى أثناء فترة حكمه بدأت العلاقات بين الفاطميين فى القاهرة والسلطان المعز بن باديس تأخذ بعدا مغايرا عن السياسة التى سار عليها أسلافه وحدث الصدام .

فانتهز القائد بن حماد سوء العلاقة بين الطرفين وأراد التقرب للخلافة الفاطمية وأن يخلع الخضوع السياسى لدولة بنى زيرى ويستغل الظروف السائدة لكى يقيم علاقات دولية بدلا من التبعية السياسية لبنى زيرى فراسل القاهرة وأعلن الخضوع

والولاء للخليفة الحاكم بأمر الله ومن قبله الخليفة المستنصر ، فجاءه لقب تشريفى من قبل الفاطميين بالقاهرة ، وهو لقب شرف الدولة .

وقد استطاع أن ينظم شئون البلاد وأن يولى اهتماما كبيرا بالتنظيم الإدارى والقضائى والتشريعى والقوات الحربية فعين أخاه يوسف واليا على الأقاليم الغربية من البلاد وأخاه عبد الله لقيادة وإدارة شئون الدفاع والقوات العسكرية وأخاه زيغلان على مدينة حمزة ، إحدى المدن الغربية التى كانت لاتزال مأهولة بالسكان رغم انتقال عدد كبير من سكانها إلى مدينة أشير فى عهد حماد بن بلكين .

لكن فترة الصلح الذى تم بين المعز بن باديس وحماد بن بلكين لم تدم طويلا إذ بدأ سوء التفاهم يعكر صفو الحياة السياسية ومن هنا لم تكن العلاقات غير مرضية وحدث الخلاف الذى قام على أثره المعز بن باديس بحشد قواته عام ٤٣٢ هـ وغزاه بجيوشه وحاصر القلعة واستمر فى حصارها لمدة عامين ، إلا أنه تم بعد ذلك الصلح ولم يقم المعز بن باديس بغزوة مرة أخرى نظرا لانشغاله بمحاربة القبائل العربية الهلالية التى داهمت البلاد وأخذت الجهد الكثير من دولة بنى زيرى .

لكن القائد بن حماد والذى ورث عن أبيه قتال قبيلة زناتة البربرية لم يكن يهنأ بالصلح الذى تم بينه وبين ابن عمه المعز بن باديس حتى تعرض لهجوم كاسح من قبل زناتة قاده على الحدود الغربية للبلاد زعيم قبيلة مغراوة الزناتى ( حمامة بن زيرى المغراوى ) والذى كان يتخذ من فاس فى المغرب الأقصى عاصمة لبلاده وهاجم الأقاليم الغربية من البلاد حيث أنه كان يسعى إلى اقتطاعها من بنى حماد وضمها إلى أملاكه والتوسع شرقا على حساب الدولة الحمادية ، لكن أخاه يوسف حاكم هذه الأقاليم استنجد بالقائد الذى زحف إليه بقوات كبيرة واشتبك مع حمامة بن عطيه المغراوى فى حروب عنيفة وطاغية استطاع قائد بن حماد بما يمتلك من أساليب يحقق من ورائها الانتصار فدفع بالأموال سرا إلى زعماء زناتة الذين قبلوا الرشوة



وانفضوا من حول حمامة مما أتاح للقائد بن حماد أن ينتصر عليه وأن يهزمه شر هزيمة فاضطر حمامة الزناتى أن يطلب الصلح والعودة إلى فاس مقر امارته دون أن يحقق أدنى هدف مما كان يسعى إليه بل عاد خائبا ودخل حمامة فى طاعة القائد أمير بنى حماد وقد ساعد هذا الانتصار القائد على أن يحاول أخذ دوره فى العلاقات الخارجية وأن يظهر دولته على مسرح الأحداث الإسلامية وكما سبق القول أقام علاقات سياسية ودبلوماسية مع القاهرة وراسل الخلفاء وأرسل إليهم الأموال والهدايا ، وهناك بعض الآراء تذكر أن القائد بن حماد قد وجد نفسه تحت ضغوط سياسية قاهرة أن يعلن اعترافه وولاءه للخلافة الفاطمية وذلك أثر الهجوم الهلالى العربى على افريقية وهزيمة المعز بن باديس هزيمة قاسية فى معركة حيدران عام ٤٤٣ هـ / ١٠٥١ م .

لكن مما يذكر للقائد بن حماد من حسنات فى علاقته مع أبناء عمومته حكام القيروان أنه عندما أحس المعز بن باديس بالخطر العربى الهلالى الداهم فانه استنجد به وقام القائد بدوره بتلبية الاستغاثة وأرسل إليه ألف فارس مقاتل من أشجع فرسان قواته للاشتراك معه فى المعركة وقد لعبوا دورا فى معركة حيدران ولكن لم يوفقوا فى تحقيق النصر .

ومنذ ذلك الوقت واحساسهم بحاجة المعز بن زيرى إليهم فان التوازن السياسى قد بدأ يميل لصالحهم لاسيما ذلك وأن قوة الدفع العربى الهلالى لم يكن قد زال خطرها لكنه فى السنوات الأخيرة أثر الغزوة الهلالية قد بدأ يدرك أبعاد الأخطار التى تتعرض لها إمارته لاسيما أن المد الهلالى لم يكن يتوقف عند حدود الدولة الزيرية ، لكن أيامه لم تشهد دخول بنى هلال إلى أطراف دولته الشرقية ، ومن هنا فقد عاش باقى أيامه يمارس إدارة الدولة وبعد الاعدادات العسكرية تحسبا للأيام القادمة لكنه مات فى ذى القعدة عام ٤٤٦ هـ / ١٠٥٤ م وهو مطمئن على مصير الإمارة الحمادية .

ولقد كانت فترة الحكم الطويلة هذه التى قاربت سبعة وعشرين عاما حافلة

بالأعمال والأمجاد وتوطيد دعائم الدولة والسير على نهج والده حماد فى العمل على النهوض بشتى مرافق الحياة والاهتمام بالعلم والتعليم وتشجيع العلماء لاسيما أنه لم يكن لهذه الدولة ماض حضارى أو ثقافى فهى لم تكن قبل بنى حماد دولة بالمعنى المفهوم ، ولم تكن للمغرب الأوسط عاصمة تاريخية اللهم إلا الدور الذى لعبته مدينة تاهرت كعاصمة سياسية لبنى رستم الاباضية الذين أسقط حكمهم بنو الفواطم .

وقد اتخذ القائد مدينة القلعة عاصمة سياسية له ولم يحاول التفكير فى الانتقال منها لكنه كان يوطد دعائم الدولة ويحاول أن يحد من خطر الأخطار التى تهددها لذا كانت القلعة الضخمة أشبه بالمدينة بل هى مدينة كاملة النظم والمرافق والإدارة وبها من كل المنشآت ما يؤهلها أن تكون العاصمة السياسية للبلاد .

وبلغ من شهرة القلعة وموقعها وضخامتها أن ينسب بنو حماد إليها وأصبح اسمهم فى الكثير من كتب التاريخ بنى حماد أصحاب القلعة ، وقلعة بنى حماد تعتبر أعظم القلاع التى أنشأها المسلمون فى تاريخهم وهى تقارن بقلعة حصن الأكراد فى الشام وقلعة صلاح الدين فى القاهرة فهى فى حقيقة الأمر كاملة المرافق وتستطيع بما توافر لها من امكانات أن تقاوم الحصار لفترات طويلة فقد صمدت أمام حصار المعز ابن باديس أكثر من عامين دون أن يؤثر ذلك على الحالة العامة للقلعة وكانت مقسمة إلى أحياء سكنية كل حى يسكنه جماعة من الحرفيين أو القبائل ولها مسجد ، بل مساجد وتتوسطها قصبة أى حصن ينبع داخلى ولا زالت بقاياها قائمة فى بلاد الجزائر حتى اليوم .

ومن الملاحظ أنه فى تلك الحقبة التاريخية التى نتدارسها أن ظروف القلق وعدم الاستقرار التى عرفتها بلاد المغرب منذ النصف الأول من القرن الثانى الهجرى جعلت الدول ( الاغالبة ، الادارسة ، بنى رستم ) وغيرها من الدول لا تعتمد على قدرة



القبائل المقاتلة أو سلطة الدولة بقدر اعتمادها على الحصون والقلاع القوية المجددة بالسلاح والقادرة على مقاومة الغزو أطول فترة ممكنة .

وهكذا ما كان قد بذل فيه جهده القائد بن حماد تمكينا لحكم أسرته ولمن يأتى من بعده بتوفير ظروف الأمن والمعيشة والاستقرار داخل العاصمة السياسية القلعة التى كانت تتوافر لها أسباب الحكم والاستمرارية فيه .

## الأمير محسن بن القائد بن حماد

## ( ٤٤٦ – ٤٤٧ هـ – ١٠٥٤ م )

تولى مقاليد الأمور فى القلعة بعد وفاة أبيه بعد أن كان أخذ البيعة له من أخوته وأعمامه وأفراد الأسرة الحمادية ، لكنه لم يكن بالصورة التى تتوافر فى حاكم يقود أمور البلاد فقد كان مندفعا متسرعا لم يكن على درجة عالية من الكياسة والفطانة التى تمكنه من إدارة شئون دولة تتعرض للأخطار وتحاول أن تعصف بها الرياح التى كانت تهب على المغرب منذ عام ٤٤١ هـ أثر الغزوة الهلالية ، لكن هكذا قدر عليه أن يقع فى المحظور وأن يخالف وصية أبيه فى أن سلطته لابد أن تدعم بتعاونه مع أعمامه ومع أفراد أسرة بنى حماد وضرورة مشاركتهم له بالرأى والمشورة والاستعانة بهم فى تولى مقاليد الأمور وأخذ مشورة كبار السن فى تقرير مصير البلاد وتدارس أمورها ، لكنه ضرب عرض الحائط بكل هذه الوصايا التى لو سار عليها لما لقى حتفه قتيلا أمام أسوار القلعة العاصمة ولما كانت فترة حكمه قصيرة بهذه الصورة حيث لم يدم حكمه إلا بضعة شهور لم تزد عن أربعة أشهر حيث تولى الحكم فى أواخر شهر ذى القعدة عام ٤٤٦ هـ وقتل فى منتصف ربيع أول عام ٤٤٧ هـ .

ولقد ساعدت كثير من العوامل على قتله وقصر فترة حكمه ذلك لانه كان يشك فى كل من حوله وانه اتخذ أسلوب الغدر والعزل والقتل منهجا له فى الحكم فلم

يمض إلا شهر واحد على توليه أمور البلاد إلا ونجده قد قام بعزل أعمامه عبد الله ويوسف وزيغلان من جهاز الحكم حيث كانوا هم السند والقوة والساعد الايمن لابيه قائد وقد سبق الإشارة إلى الدور الذى لعبوه فى حكم البلاد وفى حياتهم أحسن قيام بالأداء الملتزم فى مسئولياتهم قبل حاكم البلاد ولكنه لم يكتف بالعزل والسجن بل قام بقتل أربعة من أعمامه وسجن بعض من أخوته وأبناء أعمامه مما أحدث فزعا فى الأسرة الحاكمة وبدأت الدسائس تدبر لقتله ولو أنه كان له السبق فى المبادرة واستخدام المال وسيلة للغدر فيمن يشك فى عدم ولائه له حيث كانت الأحوال لصالحه فى استمراره فى الحكم فترة أطول .

وكان والده قد أوصاه بألا يخرج من القلعة ولا يقاتل خارج أسوارها وأن يلتزم الاستقرار بها طيلة ثلاث سنوات كاملة حتى تستقر الأمور فى البلاد ويكون قادرا على الاعداد والعدة لقواته ، لكنه لم يطق صبرا فقد أعلن عمه يوسف بن حماد الثورة عليه فى الاقاليم الغربية من البلاد وهى الحدود المجاورة للمغرب الأقصى حيث قبائل زناتة ورفض قرار العزل وألب القوات ضده وحشد القوات استعدادا لقتاله ، لكنه كان يرى فى ابن عمه بلكين بن محمد بن حماد خطرا قويا على ملكه لا سيما أن أفراد الاسرة الحمادية كانوا يرون فى بلكين صفات الزعامة والقيادة والقدرة على إدارة شئون البلاد ، فقرر محسن بن القائد الغدر به وعهد إلى قبيلة بنى هلال التى كان قد امتد نفوذها فى ذلك الوقت إلى بلاد المغرب الأوسط وقرب زعماءها إلى قادة البلاد وأوكل قتله إلى زعيمين عربيين هما ( خليفة ابن معين الهلالى وعطيه الشريف الهلالى ) لكن بلكين فطن للحيلة وكشف أمرها بعد أن أباحا له العربيان بما كان ينوى عمله محسن به ، فتعاهد الجميع لقتل محسن ورجعوا إلى القلعة وعدلا عن محاربة يوسف بن حماد عم محسن وقرروا أن تعود القوات الحمادية والعربية المشتركة إلى القلعة مرة ثانية لقتال محسن والتخلص منه ، وكان محسن بن قائد فى ذلك الوقت خارج القلعة يقود قواته لقتال عمه



يوسف .

وتقابلت القوات التى عادت بدون قتال مع قوات محسن بن القائد الذاهبة للأقاليم الغربية للبلاد لقتال يوسف بن حماد ، ودارت بينهما معركة قادها بلكين بن محمد بن حماد بمساعدة القوات الهلالية بمهارة حتى انتصر على محسن الذى حاول الفرار داخل القلعة ، لكن بلكين ومن معه استطاعوا مطاردته وإدراكه وقتلوه فى ربيع أول ٤٤٧ هـ ، ودخل بلكين القلعة ليلا ومعه قواته والقوات العربية الهلالية وأعلن نفسه أميرا على القلعة خلفا لسلفه محسن بن القائد الذى قتل والذى لم يحسن إدارة دفة الأمور بالكياسة والحكمة والحنكة فلقى حتفه على أيدى أحد أبناء الأسرة .

ومن هنا فان حادثة قتل محسن بن القائد كانت أول شرارة تؤدى إلى الانقسام العلنى بين أفراد الأسرة الحاكمة بعد أن كان الصراع يدور خلف الكواليس فى القصر السلطانى لكنه هذه المرة اتخذ أسلوب الحرب المعلنة وتمت التصفية بالقوة وأصبح من يملك القوات الأكثر والقدرة على الاستعانة بالقوات العربية بيده مقاليد الأمور فى الأسرة الحمادية وكانت فترة محسن هذه بداية الانهيار للدولة الحمادية .

## الأمير بلكين بن محمد بن حماد بن بلكين

## ( ٤٤٧ – ٤٥٤ هـ – ١٠٥٥ – ١٠٦٢ م )

كان الصراع الداخلى بين أفراد الأسرة الحمادية وما يشبه بالحرب الأهلية بين أفراد البيت الواحد وسياسة القتل والغدر والعزل من الأسباب القوية التى ساعدت على ضعف بنى حماد ودهمتهم الفرقة التى دهمت بنى عمومتهم فى المغرب الأدنى ، ولكن الدولة الحمادية فى هذا الدور الجديد من أدوار قيامها كانت تسعى إلى التوسع

وكسب أراضى جديدة والتوسع غربا على حساب المغرب الأقصى وتحقيق أهداف الجد الأكبر حماد فى بناء دولة قوية ومدافعة أعداء الدولة من زناتة ومحاربة كل من تسول له نفسه الاعتداء على حدود الدولة والضرب بشدة على أيدى الخارجين على سلطة الدولة فى العاصمة السياسية القلعة .

وكان بلكين بن محمد بن حماد خير من ينفذ هذه السياسة كما سنرى ذلك ، والمعروف أن بلكين بن محمد قد وصل للحكم عن طريق قتل ابن عمه محسن وبذلك انتقل الحكم إلى فرع جديد من أسرة حماد هو فرع محمد بدلا من فرع القائد. وقد ظل بلكين بن محمد يحكم البلاد سبع سنوات قام فيها بأعمال لم يقم بها أحد من الذين سبقوه فى حكم المغرب الأوسط ، إذ عمل على تدعيم كيان الدولة السياسى وبسط نفوذها على قدر أوسع من الأراضى وتوسيع رقعة الدولة والمحافظة على هذا الكيان السياسى وسط الانواء والأخطار التى تحدق بالبلاد من ( عرب بنى هلال ، المرابطين وزناتة وبنى زيرى ) .

وقد قال عنه لسان الدين بن خطيب أن بلكين بن محمد كان شجاعا مقداما مغوارا ، جسورا ، جريئا على العظائم ، محبا لسفك الدماء ، وقال عنه ابن خلدون ، كان شهما قويا ، حازما ، سفاكا للدماء ، وقد استطاع أن يستولى على السلطة السياسية فى البلاد بالقوة والإرادة والفطانة والحنكة التى مكنته من اكتشاف ما يدبره ابن عمه ضده ، وقلب الموقف إلى صالحة بعد أن كان ضده وتلك مهارة سياسية تشهد له وقد شهدت سنوات حكمه هذه القصيرة ظهور دولة بنى حماد قوية متماسكة إذ استطاع أن يجمع الأسرة الحاكمة من حوله لذا أطاعته البلاد وخضعت له القبائل.

وقد كانت فترة حكمه تساعد على ذلك ، إذ أن الأمور فى الشرق والغرب كانت تشهد اضطرابات شديدة فمن الشرق كان ابن عمه ( المعز بن باديس ) يعد العدة لمغادرة القيروان بعد أن ضيق عليه عرب بنى هلال الخناق ولم يكن المعز بن



باديس فى تلك الظروف بقادر أن يتجه إلى الغرب إلا طلبا للنجدة والقوة ، وكان بنو هلال قد وصلوا إلى بلاده بل انهم هم الذين أوصلوه إلى عرش البلاد . وكانت زناتة البربرية العدو التقليدى لبنى حماد تعانى اضطرابات قوية على يد المرابطين القوية الصنهاجية الزاحفة من الصحراء جنوبا فاستطاع بلكين أن يستفيد من كل الظروف وأن يستثمرها لصالحه وأن يحقق أطماع بلاده فى التوسع وامتد طموحه إلى المغرب الأوسط والأقصى . وكان المرابطون قد بسطوا نفوذهم على المغرب الأوسط ووضعوا حامية فى تلمسان استطاعت أن تجنب المغرب هجوم بنى حماد والهلالية الذين تحالفوا معهم وقد اهتم المرابطون بالمغرب الأوسط ووضع حد لتقدم بنى حماد والهلالية لانهم كانوا يعلمون أنه يتحكم فى الطريق الموصل إلى المغرب الأقصى ، ومما يدل على اهتمامهم بأمر هذا الاقليم أن يوسف بن تاشفين لما علم باختلال أمره ولى عليه القائد اللمتونى الشهير ( مزدلى ) ليرعى شئونه ويحرس مسالكه فلا ينفذ إليه بنو حماد والعرب الهلالية ويطرقون باب المغرب الأقصى ، لكن بلكين بن محمد بن حماد هاجم عام ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م مدينة فاس وقاتل المرابطين أصحاب يوسف بن تاشفين بها وشردهم إلى الصحراء .

وهكذا أدى توسع المرابطين فى المغرب الأوسط وعملهم على وقف مسيرة العرب الهلالية إلى اصطدامهم ببنى حماد أصحاب القلعة بعد أن كان بنو حماد قد أزروا المرابطين وقدموا لهم الدعم عندما فتحوا المغرب الاقصى وكان بنو حماد منذ عهد بلكين هذا لم يروا فى التوسع المرابطى فى المغرب الأوسط إلا حدا لنفوذهم وقتلا لطموحاتهم للتوسع فى الاجزاء الغربية المجاورة لبلادهم ، لذا ظلوا يترقبون فرصة مواتية لهم حتى عبرت قوات المرابطين إلى الأندلس وشغل يوسف بن تاشفين بالجهاد ، فاستعانوا بعرب بنى هلال وأغاروا على المغرب الأوسط لانتزاعه من المرابطين ، بل انهم كما سبق القول وصلوا إلى فاس بالمغرب الأقصى مما حمل يوسف بن تاشفين على مغادرة الاندلس والعبور إلى المغرب لمواجهة هذا الخطر الداهم ويبدو أن المرابطين قد

أقروا السكينة فى ربوع المغرب الأوسط وحالوا بين بنى حماد وحلفائهم من العرب الهلالية وبين مايريدون من توسع ، بل أن قوات المرابطين هددت مدينة اشير الحمادية كما أنه يمكن القول أن اهتمام المرابطين بأمر المغرب الأوسط وعملهم على تحسينه واقرار السكينة فى ربوعه لم يكن القصد منه مناهضة بنى حماد والكيد لهم ، بل رد العرب الهلالية عن التوسع غربا ، وكما يذكر ابن الاثير أن يوسف بن تاشفين صالح وسالم بنى حماد بعد أن اطمأن إلى أن المغرب الأوسط لم يقع فى قبضة العرب الهلالية .

إضافة إلى أن يوسف بن تاشفين قد بعث برسالة إلى أمير بنى حماد يعاتبه على الاستعانة بعرب بنى هلال فى الوقت الذى كان يجب أن تتضافر فيه جهود أمراء بنى حماد مع المرابطين لمدافعة الفرنجة فى الاندلس ورد عدوانهم على ديار المسلمين ، فلابد أن بنى حماد قد حاولوا الانتقام واغتنام فرصة غياب ابن تاشفين والانقضاض على المغرب الأوسط والمغرب الأقصى مستغنين بالعرب الهلالية الذين كان بلكين بن محمد بن حماد قد هادنهم واستعان بهم .

وهكذا نجح بلكين بن محمد فى أن يصد الاعداء المحيطين بدولته وأن يوفر لها الحماية وأن يكون عهده عهد سلام وود مع أبناء عمومته فى القيروان والذى كان يقدر ظروفهم والأحوال التى تمر بها الدولة أثر هجوم بنى هلال عليها فلم يقم بأدنى عمل يعكر صفو العلاقات بين الدولتين ولم يعمل على مناوشة المعز بن باديس ، إلا أنه قام فى عام ٤٥٠ هـ/ ١٠٥٥م بحملة ضد اقليم الزاب وقاتل حاكم بسكرة لخروجه على سلطة الدولة فى القلعة وقتل عددا كبيرا من قبيلة زناتة ، وفى عام ٤٥٤هـ/ ١٠٦٢م اتجهت قواته وحشوده ناحية الأقاليم العربية للبلاد أثر دخول زناتة حدود الدولة فارة من أمام الهجوم الكاسح الذى شنته عليها قوات المرابطين وقد نجح بلكين ابن محمد فى وقف زحف يوسف بن تاشفين وسيطر على كل البلاد الواقعة غرب العاصمة القلعة فى مدينة فاس .



وتعتبر فترة حكم بلكين بن محمد فترة فرض سيادة الدولة وفرض نفوذها وكان شخصيته قوية كجده حماد مؤسس الدولة فقد كان حريصا على دعم كيانها السياسى وكسب ود وخضوع القبائل والمدن لها وقد بنى دولة قوية مرهوبة الجانب قوية البناء مدعمة الأركان يشهد لها الأعداء والأصدقاء فقد وضع حدا لتحرش المرابطين والهلاليين وحفظ حدودها من كل عدوان خارجى .

لكن سياسة المؤمرات والدس والوقيعة والقتل والاغتيالات والصراع الداخلى بين أبناء الأسرة الواحدة كانت قد أخذت طريقها وربما كانتنهجا لمن يريد أن يتولى الحكم لاسيما بعد أن كان محسن بن القائد قد وضع بذور تلك السياسة بما اتبعه من أساليب وعناد أدت بالبلاد إلى الدخول فى الصراع على العرش . وكان على بلكين بن محمد بن حماد أن يلقى مصير محسن بن قائد ، إذ أنه أثناء عودته مزهوا بانتصاره على المرابطين ودعم نفوذ الدولة تحالف عليه ابن عمه الناصر بن علناس ابن حماد بعد أن تآمر عليه مع أهل بيته من آل حماد وطائفة من الصنهاجيين الذين رأوا فى بريق المال والذهب سببا للتآمر فقتلوه فى ميتسالة بأرض المغرب الأقصى بعد أن كان قد حقق مجدا لبلاده ووزع الأموال التى كانت فى خزائن بلكين على العرب وزناتة وغيرها ممن اشتركوا فى هذه المؤامرة الدنيئة التى قضت على آمال وطموحات رجل من الرجال القلائل الذين حكموا دولة بنى حماد وبعام ٤٥٤ هـ طويت صفحة من أمجد صفحات بلكين بن محمد بن حماد .

# الفصل الثانى

## الدولة الحمادية فى بجاية

## السلطان الناصر بن علناش بن حماد بن بلكين

## ( ٤٥٤ - ٤٨١ هـ - ١٠٦٢ - ١٠٨٨ م )

جاء الأمير الناصر بن علناش إلى حكم الدولة الحمادية عن طريق مؤامرة دبرها مع بعض أعوانه من العرب والصنهاجة من البيت الحمادى الحاكم يعاونهما بعض رجال زناتة ضد ابن عمه بلكين بن محمد بن حماد الذى قتله فى طريق عودته إلى العاصمة القلعة بعد أن حقق انتصارات حاسمة فى المغرب الأقصى ، لكن الناصر لم يدعه يهنأ وينعم بهذه الانتصارات إذ غدر به فى طريق العودة راجعا إلى عاصمته .

ومن هنا فقد كان وصول الناصر إلى الحكم بعد سلسلة من الفتن والحرب الأهلية بداية لفرع جديد من أسرة حماد يحكم البلاد مخالفا لفرع قائد ومحمد حيث كان الناصر بن علناش حفيد حماد وابن الابن الثالث من أبناء مؤسس الأسرة وبذلك انتقل الحكم إلى الفرع الثالث من أبناء حماد ، وكان لناصر أخوان هما علاء الناس، أعطى الناس واللذان لعبا دورا لايقل أهمية عن دور أخيهما الناصر فى حياة الدولة الحمادية حيث بقيت السلطة السياسية فى أيديهما حتى سقوط الدولة عام ٥٤٧ هـ/ ١١٥٢ م .

ويعتبر الأمير الناصر خامس أمراء الاسرة الحمادية الذين حكموا البلاد وطالت فترة حكمه حتى بلغت سبعة وعشرين عاما حافلة بالأعمال الجليلة والانتصارات الحربية وواضعا الأسس لبناء دولة عصرية تضارع الدول المعاصرة لها فى المغرب الإسلامى من حيث القوة والتقدم الحضارى والعمرانى وبناء الجيش .



إلا أننا انصافا للحق لانستطيع أن نعطى هذه الدولة الحمادية اكثر من حقها فقد كانت دولة اقليمية محلية لم تبلغ مبلغ الدول الكبرى كما حاول أن يصور ذلك بعض المؤرخين المحدثين أو طلبة الدراسات العليا المتقدمين لدرجتى الماجستير والدكتوراه بل تعتبر دولة صغيرة من صغار دول المغرب ، فهى لم تبلغ مبلغ دولة المرابطين أو الموحدين الذين أسقطوها ولا تبلغ مبلغ دولة بنى زيرى المجاورة ولم تصل بجاية العاصمة الحديثة التى اتخذها الناصر دار الحكم والسلطنة مبلغ القيروان أو فاس أو مراكش ، وقد كانت دولة قبيلية فليست من الدول ذات النفوذ والشهرة وتخضع لحكم الأمراء ، لكنها لم تصل شأوا من العلم والتقدم الحضارى يقاس كالقاهرة أو بغداد أو قرطبة أو بالرمو أو فاس وغيرها من الحواضر الإسلامية ذات السمعة والمكانة السياسية والعلمية وهى لم تكن إلا دويلة أو امارة صغيرة يحكمها عتاه مستبدون تقاسموا المغرب الإسلامى فيما بينهم .

وعندما تولى الأمير الناصر حكم البلاد فقد كانت الامارة الحمادية قد انتقلت إلى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى أى مضى أكثر من نصف قرن من الزمان على تأسيسها وظهورها ككيان ذاتى مستقل مما هيأ الظروف للأمير الناصر أن يلعب دوره بعد أن ورث حكم امارة توطدت دعائم الاستقرار السياسى لها وكانت قد اكتسبت الشرعية والاستمرارية فى الحكم واستطاع من سبقه ( الأمير بلكين بن محمد بن حماد ) أن يضع حدا لانتهاك حدود بلاده من الناحية الغربية فقد آمن خطر المرابطين وكذلك عمل على احتواء القبائل الهلالية العربية وأنهى المرابطين بدلا منه خطر قبيلة زناتة وكذلك لم يكن فى مقدور أبناء عمومته بنى زيرى الزحف غربا أو تهديد حدود بلادهم بعد أن كان همهم الأكبر الدفاع من البلاد ضد الخطر الداخلى المتمثل فى قبيلة بنى هلال والخطر الخارجى المتمثل فى خطر النورمان الذى هدد صقلية العربية الإسلامية والذين نقلوا سلطانهم وقيادتهم إلى مدينة المهدية منذ عام ٤٤٩ هـ وتوفى أبرز شخصية زيرية فى تاريخ بنى زيرى وهو السلطان المعز بن باديس

عام ٤٥٣ هـ وذلك قبل توليه الناصر علناش بعام واحد مما جعله يشعر انه لم تعد هناك أخطار تهدد كيان دولته وهو من أعظم أمراء هذه الأسرة .

وكان الناصر من الشخصيات البارزة فى بنى حماد بل يكاد يكون الوحيد من بينهم الذى كان أبعد صيتا عما سواه فقد كان يمتلك صفات المهابة والكياسة والفطانة والذكاء الحاد والقدرة على مواجهة المواقف وكان أكثر أمراء بنى حماد ذكاء وحزما ودهاء بل أعظم سلاطين الدولة تحضرا ورقيا كما أن عهده شهد توسع الدولة إلى أقصى حدود لم تبلغها منذ عهد جده حماد بن بلكين مؤسس الدولة .

وقد شهدت سنوات حكمه تغير الميزان الحضارى والثقافى وانتقاله من المغرب الأدنى فى اتجاه الغرب ناحية المغرب الأوسط والأقصى فقد رحل العلماء من القيروان ومدن المغرب الأدنى وفجع العلماء فى أمنهم واستقرارهم فخرجوا يبحثون عن ملاذ لهم يقيهم شر هذه الفتنة ولم يكن أمامهم إلا الاتجاه غربا إلى المغرب الأوسط والأقصى فقد استقرت أموره السياسة فى أيدى بنى حماد والمرابطين ومن هنا بدأت كفة هذين المغربين فى الرجحان فقد أصبحت بلاد بنى حماد المحطة الأولى التى يصل إليها العلماء ورجال الفكر والدين من افريقية ( تونس ) فمن كانت تطيب له أمور الاستقرارا فقد كان يستقر بها ومنهم من كان يفضل الرحيل غربا إلى بلاد المرابطين ، إضافة إلى أن الأمير الناصر بن علناش قد شهدت البلاد فى عهده استقرار سياسيا وازدهارا حضاريا واقتصاديا ثم ما كان من أثر ذلك من الناحية المالية والرخاء والترف وثراء الأمراء واغداقهم على أهل العلم والأدب وتشجيعهم للفئات العلمية وتوفير سبل الراحة أمامها اغراء لها على الاستقرار فى بلادهم باعتبارهم ثروة لاتقدر وسوف يعود منها النفع الكثير على الرعية والبلاد .

حقيقة تاريخية وجغرافية ومكانة سياسية بل قوة عسكرية وقد تطلبت هذه المستجدات على الدولة الحمادية حذقا سياسيا ومهارة سياسية من الناصر فى إدارة دفة



الأمور والسير فى المسار الصحيح حتى يصل بها إلى بر النجاة وسط الانواء الشديدة لاسيما أنها كانت تتعرض للهجوم لاسيما من قبائل زناتة التى اتجهت جنوبا بعد طرد المرابطين لها كما أنها كانت تقيم فى اقليم الزاب وتأخذ بسكرة مقرا لها وتتأهب للعدوان على بنى حماد وبعد أن قتل بلكين بن محمد الأمير السابق زعيمهم صفوان ابن أبى رمان ، لكن زناتة فى ذلك الوقت كانت تواجه عدوا أقوى منها كثيرا وهم المرابطون فقد استطاع المرابطين تفريق شمل زناتة بحيث لم يعد لها بالمغرب الأقصى قوة تذكر ونجح المرابطون فى القضاء على قوة زناتة بالمغرب الأقصى ولكن بقيت لهم بعض فلولهم بالمغرب الأوسط حيث كانوا لايزالون يسيطرون على تلمسان أكبر المدن فيه وكانت لاتزال تتحفز للنضال فيه .

ويخيل إلينا أنه لولا أن الدولة الحمادية كانت قوية فى ذلك الوقت ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م ، لاطمأن المرابطون وانصرفوا إلى فتح السهول الشمالية تاركين زناتة المغرب الأوسط إلى بنى عمومتهم ( بنى حماد ) ولكن حدث فى ذلك الوقت أن بدأن جموع العرب الهلالية بعد أن اجتاحت بلاد افريقية ( تونس ) تطرق ديار بنى حماد فشغلوا عن المغرب الأوسط ولم يستطيعوا أن يقاوموا الزناتيين مقاومة الند للند ، لذلك لم يتردد المرابطون فى التوسع شرقا فاستولوا حتى حدود وادى ملوية ثم انصرفوا إلى مدينة تلمسان وفتحوها وبلغت قوتهم مشارف اقليم الجزائر وكان من الممكن لهم التوجه شرقا لفتح بقية بلاد المغرب ولو كان فى نيتهم المضى إلى فتحها لفعلوا لان البلاد كانت فى تلك الأوقات تفقد قوتها ووحدتها وكانت ممزقة إلى كيانات صغيرة (لكن المرابطين وقفوا عند حدود الجزائر ولم يتجاوزوها لا اشفاقا وعدم قدرة على فتح بقية المغرب وإنما ابقاء على صلات القربى بينهم وبين بنى حماد ( رأى الدكتور حسن محمود ، قيام دولة المرابطين ص ٢٠٦ ) وكان ذلك هو الرأى الصواب لان المرابطين كانوا قوة لايستهان بها فى ذلك الوقت وقواتهم فى الاندلس خير شاهد ولو أنهم كانوا ينوون السيطرة على كل المغرب لفعلوا .

ومن هنا فان الذين عللوا عدم دخول الناصر بن علناش فى صراع مع تلك القوى حتى يستطيع امتصاص طاقة كل من المرابطين وزناتة قد وقعوا فى خطأ كبير ذلك لان سنوات حكم الناصر ( ٤٧٢ – ٤٧٥ هـ ) قد شهدت هجوما مرابطيا على تلمسان وكذلك بعض بلاد الجزائر كوهران وتنس وشريش وأعمال شلف ، ولم يحرك بنو حماد ساكنا لكل هذه التحركات فلو كانت بنو حماد قوية لكانت تلك البلاد المجاورة لها أولى بأن تكون تحت سيادتها بدلا من المرابطين ومن هنا وقع الذين أعطوا بنى حماد دورا وقوة أكثر من فاعلية المرابطين .

وقد قال ابن خلدون عن الناصر بن علناش الحمادى ، لقد بلغت جنوده جنوبا بلاد وركلان ( ورجلان ) وعين عليها واليا من قبله وأخضع جميع أراضى أقليم الزاب وعين واليا مِن قبله أيضا على العاصمة بسكرة وأسس مدينة بجاية عام ٤٦٠ هـ / ١٠٦٨ م وبنى بها القصور والبساتين والحدائق ومنها قصر اللؤلؤة وكان من أعجب قصور الدنيا ونقل الناس إلى العاصمة الجديدة وأسقط عنهم الخراج والضرائب .

وقال عنه لسان الدين بن الخطيب ( أنه كان جريئا ، سفاكا للدماء ، محبا للناس شديد الغيرة عليهم ، وله فى ذلك أخبار مشهورة ، ثم عاد فى صفحات تالية لينفى عنه هذه الأقوال ) .

ولقد تردد الناصر بن علناش كثيرا فى قتال المرابطين حيث توقفوا فى مكانهم عند تلمسان وكفوا أيديهم عن بلاد بنى حماد . كذلك شهد عصر الناصر استمرار القتال والمناوشات مع قبيلة زناتة العدو التقليدى لصنهاجة وبنى زيرى ( بنى باديس ، بنى حماد ) لاسيما بعد طردهم من المغرب الأقصى وتلمسان ، فكان على الناصر أن يواجه زحفهم ناحية بلاده فجرد إليها الحملات ونازلها واستعاد سيطرة بنى حماد على المناطق التى استقرت بها وطردهم من حول القلعة وهجم على مناطق تجمعهم فى (تاقربوست ) واستولى عليها وقتل زعيمهم .



ويضيف ابن خلدون عنه أن أيامه شهدت عظمة دولة بنى حماد بل بلغت أوج مجدها ورقيها وازدهارها وتوسع ملكهم واستفحل ورنا ببصره إلى ملك أبناء عمومته بنى باديس فى المهدية لما ابتلاهم الدهر بفتنة الهلاليين والنورمان ، حتى اضطرب عليه الأمر وكثرت الثورات عليهم فدخل الناصر بن علناش فى صراع معهم وذلك عكس سلفه بلكين بن محمد ابن حماد الذى قضى سنوات حكمه حريصا على حرمة الدماء وصلة الرحم فلم يحاول أن يطأ بلادهم قط أو يدخل فى صراع معهم مكتفيا بما يعانونه من صراع مع العرب الهلالية .

وقد أفادت ظروف الغزوة الهلالية الدولة الحمادية كثيرا فقد ضموا إلى أملاكهم ما جاورهم من أقاليم وخضع لحكمهم كثير من الأقاليم مثل صفاقس وقسنطينة وأهل القيروان وأهل تونس وعلا نجم بنى حماد وتحصنوا بالمناطق الجبلية البعيدة عن خطر العرب وبسطوا سلطانهم على كثير من المدن والبلاد .

وكما سبق القول كان كثير من أهل تونس قد انتقلوا إلى بلاد الحماديين بعد دخول الهلالية فعمرت بلادهم وحسنت أحوالهم وصلحت أمورها وبدأ التقدم والرقى والتمدين والعمران وفن البناء والحضارة والعمران والثقافة تأخذ بأساليبها فى الحياة اليومية فى بلاد بنى حماد ووجد بنو حماد فى صراع بنى زيرى مع الهلالية فرصتهم المنشوده لكى يحاولوا أن يتصدوا لزعامة المغرب الإسلامى ( أقوال مزعومة ) لم يصلوا أبدا إلى مرحلة المرابطين أو الموحدين أو حكم المعز بن باديس ( قبل قدوم الهلالية ) ومن أجل ذلك تحالف الحماديون مع الهلالية ضد بنى زيرى .

ومن هنا توترت العلاقات بينه وبين تميم بن المعز بن باديس (٤٥٣ – ٥٠١هـ/ ١٠٦٢ – ١١٠٧م ) الذى تصدى لمحاولات الناصر بن علناش واشتبك معه فى معارك كثيرة ووقف ضد محاولاته للزحف على حساب أراضى دولة بنى زيرى وقضى على محاولته التى قيام بها عام ٤٥٧ هـ/ ١٠٦٧م بمساعدة قبائل زناتة والعرب من الاثبج وعدى وكان تميم قد أستعان بعرب رباح وزغبة القوية وكذلك بعض من عرب بنى

ومن هنا فإن الذين عللوا عدم دخول الناصر بن علناش فى صراع مع تلك القوى حتى يستطيع امتصاص طاقة كل من المرابطين وزناتة قد وقعوا فى خطأ كبير ذلك لان سنوات حكم الناصر ( ٤٧٢ – ٤٧٥ هـ ) قد شهدت هجوما مرابطيا على تلمسان وكذلك بعض بلاد الجزائر كوهران وتنس وشريش وأعمال شلف ، ولم يحرك بنو حماد ساكنا لكل هذه التحركات فلو كانت بنو حماد قوية لكانت تلك البلاد المجاورة لها أولى بأن تكون تحت سيادتها بدلا من المرابطين ومن هنا وقع الذين أعطوا بنى حماد دورا وقوة أكثر من فاعلية المرابطين .

وقد قال ابن خلدون عن الناصر بن علناش الحمادى ، لقد بلغت جنوده جنوبا بلاد وركلان ( ورجلان ) وعين عليها واليا من قبله وأخضع جميع أراضى أقليم الزاب وعين واليا مِن قبله أيضا على العاصمة بسكرة وأسس مدينة بجاية عام ٤٦٠ هـ / ١٠٦٨ م وبنى بها القصور والبساتين والحدائق ومنها قصر اللؤلؤة وكان من أعجب قصور الدنيا ونقل الناس إلى العاصمة الجديدة وأسقط عنهم الخراج والضرائب .

وقال عنه لسان الدين بن الخطيب ( أنه كان جريئا ، سفاكا للدماء ، محبا للناس شديد الغيرة عليهم ، وله فى ذلك أخبار مشهورة ، ثم عاد فى صفحات تالية لينفى عنه هذه الأقوال ) .

ولقد تردد الناصر بن علناش كثيرا فى قتال المرابطين حيث توقفوا فى مكانهم عند تلمسان وكفوا أيديهم عن بلاد بنى حماد . كذلك شهد عصر الناصر استمرار القتال والمناوشات مع قبيلة زناتة العدو التقليدى لصنهاجة وبنى زيرى ( بنى باديس ، بنى حماد ) لاسيما بعد طردهم من المغرب الأقصى وتلمسان ، فكان على الناصر أن يواجه زحفهم ناحية بلاده فجرد إليها الحملات ونازلها واستعاد سيطرة بنى حماد على المناطق التى استقرت بها وطردهم من حول القلعة وهجم على مناطق تجمعهم فى (تاقريوست ) واستولى عليها وقتل زعيمهم .



ويضيف ابن خلدون عنه أن أيامه شهدت عظمة دولة بنى حماد بل بلغت أوج مجدها ورقيها وازدهارها وتوسع ملكهم واستفحل ورنا ببصره إلى ملك أبناء عمومته بنى باديس فى المهدية لما ابتلاهم الدهر بفتنة الهلاليين والنورمان ، حتى اضطرب عليه الأمر وكثرت الثورات عليهم فدخل الناصر بن علناش فى صراع معهم وذلك عكس سلفه بلكين بن محمد ابن حماد الذى قضى سنوات حكمه حريصا على حرمة الدماء وصلة الرحم فلم يحاول أن يطأ بلادهم قط أو يدخل فى صراع معهم مكتفيا بما يعانونه من صراع مع العرب الهلالية .

وقد أفادت ظروف الغزوة الهلالية الدولة الحمادية كثيرا فقد ضموا إلى أملاكهم ما جاورهم من أقاليم وخضع لحكمهم كثير من الأقاليم مثل صفاقس وقسنطينة وأهل القيروان وأهل تونس وعلا نجم بنى حماد وتحصنوا بالمناطق الجبلية البعيدة عن خطر العرب وبسطوا سلطانهم على كثير من المدن والبلاد .

وكما سبق القول كان كثير من أهل تونس قد انتقلوا إلى بلاد الحماديين بعد دخول الهلالية فعمرت بلادهم وحسنت أحوالهم وصلحت أمورها وبدأ التقدم والرقى والتمدين والعمران وفن البناء والحضارة والعمران والثقافة تأخذ بأساليبها فى الحياة اليومية فى بلاد بنى حماد ووجد بنو حماد فى صراع بنى زيرى مع الهلالية فرصتهم المنشوده لكى يحاولوا أن يتصدوا لزعامة المغرب الإسلامى ( أقوال مزعومة ) لم يصلوا أبدا إلى مرحلة المرابطين أو الموحدين أو حكم المعز بن باديس ( قبل قدوم الهلالية ) ومن أجل ذلك تحالف الحماديون مع الهلالية ضد بنى زيرى .

ومن هنا توترت العلاقات بينه وبين تميم بن المعز بن باديس (٤٥٣ – ٥٠١هـ/ ١٠٦٢ – ١١٠٧م ) الذى تصدى لمحاولات الناصر بن علناش واشتبك معه فى معارك كثيرة ووقف ضد محاولاته للزحف على حساب أراضى دولة بنى زيرى وقضى على محاولته التى قيام بها عام ٤٥٧ هـ/ ١٠٦٧م بمساعدة قبائل زناتة والعرب من الاثيج وعدى وكان تميم قد أستعان بعرب رباح وزغبة القوية وكذلك بعض من عرب بنى

سليم واستطاعت هذه القبائل العربية أن تؤثر على أقاربها من الاثيج وعدى للانصراف عن مساعدة الناصر مما مكن تميما من الانتصار على الناصر وقتل من جيشه أعدادا كبيرة بل قتل فى تلك المعركة ( معركة سبيبة ) أخاه القاسم بن علناش، وكان تحالف تميم بن المعز مع القبائل العربية سببا فى صد غارات الناصر والمعتدين معه على دياره وساعده فى فرض سلطان الدولة .

وتمكن تميم بن المعز أيضا بتحالفه مع العرب الهلالية من صد غارات الناصر الحمادى ومنعه من غزو العاصمة المهدية وكانت مساعدة عرب رياح وزناتة بقيادة المعز ابن زيرى الزناتى وانصراف زناتة عن الناصر بن علناش من عوامل الانتصار فى معركة سبيبة ٤٥٧ هـ لكن الناصر عاود للهجوم على القيروان عام ٤٦٠ هـ/ ١٠٧٠م لكن تميم بن المعز وجموع العرب الهلالية المتحالفة معه أجبرته على الخروج عام ٤٦١هـ وتم الصلح والاتفاق بين تميم بن المعز والناصر بن علناش وتزوج الناصر ( بلازة ) ابنه تميم وبنى لها قصرا بديعا ببجاية أطلق عليه اسمها وسماه قصر ( بلازه ) .

وكان الناصر محبا للفنون والمعمار ، فأنشأ القصور الفاخرة وشيد المدائن العظيمة وابنى المبانى الحديثة وشيد منها البنايات الكثيرة التى تتناسب مع أسلوب العصر فكانت آية فى الروعة والجمال وحلبت بالنقوش والزخارف الهندسية الاندلسية والتى ظهر فى بعضها الفن الفاطمى والعراقى ، وشد الرحيل إليه العلماء والادباء والشعراء وأهل الفن والفكر ومن الشعراء الذين طرقوا بابه فى بجاية ( ابن الكفاه القيروانى ) وكان نفوذه واسعا لكن نقطة الضعف فيه أن عمل على توسيع حدود دولته شرقا على حساب أبناء عمومته من بنى زيرى وتصدى له تميم بن المعز وكان يخاف الاحتكاك بالمرابطين نظرا لقوتهم الهائلة .

لكن طموحاته شرقا قد أصابته بخيبة أمل لان توقعه التوسع شرقا على حساب أبناء عمومته قد أدى به إلى نكسة عسكرية عام ٤٥٧ / ٤٦١ هـ وقد فشل مخطط التوسع شرقا والحلم باقامة دولة واسعة الأركان .



وقد استفاد بنو حماد من هذه النكبة وانكفأوا على أنفسهم داخل حدودهم يعمرون بلادهم وينقلون عاصمتهم القلعة إلى مكان آخر بعد أن شاهدوا بأنفسهم حصار العرب الهلالية للقلعة وأحس الناصر بالخطر الزاحف عليه من ثورة العرب وهجماتهم الساحقة على عاصمة القلعة ، فسعى فى اختطاط العاصمة الجديدة بجاية التى كانت أحسن أعماله على الاطلاق ، إذ فشل فى الأعمال العسكرية فعوضها بالأعمال المدنية وكان الذى أشار عليه ببناء العاصمة الجديدة وزيره ابن البعبع ، وتم بناؤها على أنقاض مدينة « صلداى الفينيقية العربية » والتى كان قد أضاف عليها الرومان وكان ذلك فى عام ٤٦٠ هـ كما سبق القول والإشارة إلى ذلك وكانت من أهم المدن فى المغرب وبدأت سمعتها تعلو فى الافاق محاولة اللحاق بركب المدن الكبرى ، بعد أن انتقل إليها الناصر بن علناش وكل المصالح الحكومية ودواوين الدولة واتخاذها العاصمة السياسية والمركزية للبلاد وقصدها الناس من كل فج فى البلاد وجاء إليها القوم من مختلف النواحى يسعون للكسنى والإعاشة بها بعد أن شجعهم الناصر على ذلك فلم تلبث أن ازداد عمرانها واتسعت وتعددت أحياؤها وكثر سكانها ومن ذلك التاريخ صارت بجاية من أعظم مدن المغرب ، بل هى عاصمة المغرب الأوسط .

وكان الناصر بعد أن انتقل إلى عاصمته الجديدة ورأس أنه فى مأمن من خطر الهجوم الهلالى قد بادر بتجديد المهادنة والتصالح مع أبناء عمومته وساد الاتجاه السياسى حركة سلمية وتأكدت فى نفس الناصر روح التسامح بعد أن غرر به عرب الاثيج وعدى ودفعوه لقتال أبناء العمومة فى المهدية ومنذ ذلك التاريخ لم تحدث أدنى مناوشة أو اشتباك بين تميم بن المعز والناصر بن علناش وكان الناصر قد ربط مصيره بمصير بعض القبائل العربية مثل الاثيج التى تحالف معها وأجزل لها الاقطاعات والعطايا وأدخلها فى ديوان الجند ، كما أنه حالف العديد من القبائل البربرية الزناتية التى تحيط بالدولة الحمادية واستخدم سياسة استمالة بعض البطون منها وتزوج من قبيلة « بنى داماتو » وحالف الناصر بنى توحين وبنا داماتو .

لكننا نجد ابن عذارى المراكشى ، والزركشى يكران أن الناصر بن علناش كان حاكما عادلا يتصف بصفات إنسانية يميل إلى الهدوء ولا يحب الانغماس فى المشاكل السياسية ، لكنه حقق لدولته وشعبه الاستقرار والهدوء النسبى لكن سياسته الاقليمية والسلمية وعدم الاكتراث إلا بما يعنيه والنظرة الإسلامية البعيده والتطلع إلى لعب دور سياسى على مستوى الاحداث الجارية قد كان عاملا فى سقوط دولته ، إذ أنه ترك أبناء عمومته فى المهدية منذ عام ٤٤٩ هـ يواجهون أخطارا كثيرة منها الخطر العربى الهلالى الذى استنفذ الجهد الكبير من الدولة الزيرية وكان التعاون بين بنى حماد وبنى زيرى ربما قد وضع حدا للانقسام والتفكك الذى أصاب حكام المهدية كذلك الوقوف مكتوف الأيدى أمام الخطر الداهم الذى يتهدد المسلمين فى صقلية والزحف النورمانى القوى الذى أدى إلى سقوط صقلية فى أيدى النورمان عام ٤٨٤هـ/ ١٠٩١ م ، لكن هذه السياسة الاقليمية أدت إلى أن يحقق الناصر لدولته وسط الصراعات العاتية مستوى لائقا من التقدم والازدهار بعد أن لبث آخر حياته ينعم بالنظم الإدارية والقضائية والعسكرية والتى انتهت كل المهام فى حالة التقدم بينما يشاهد خلاله عدم التوازن والاختلال فى دولة بنى زيرى فى افريقية ، ويذكر انه قتل بظاهر بجاية يوم الجمعة ٧ جمادى الأول عام ٤٨١ هـ/ ١١٠٤ م وكان حمامة بن زيرى المغراوى قد قتله ثم حمل إلى بجاية ودفن بها .

وهكذا طويت صفحة الأمير الخامس فى سلسلة أمراء بنى حماد بعد أن حكم البلاد سبعة وعشرين عاما قضاها فى الأعمال العسكرية التى ربما لم يحقق منها أدنى انتصار إلا هزيمته للقبائل البربرية الزناتية لكنه لم يستطع أن يحقق انتصارات على الجبهة الشرقية حيث بنى زيرى ولا الجبهة الغربية حيث المرابطين ولم يشارك فى صد الهجوم النورمانى على صقلية أو يتحرك لاغاثة مسلميها ، بل اكتفى ببناء عاصمته بجاية وعاش عيشة البذخ والرفاهية إلى أن هلك عام ٤٨١ هـ / ١٠٠٤ م وآل الحكم من بعده إلى ابنه المنصور الذى جلس على عرش الإمارة الحمادية بعد أبيه .



## الأمير المنصور بن الناصر بن علناش بن حماد

## ( ٤٨١ – ٤٩٨ هـ – ١٠٨٨ – ١١٠٤ م )

يعتبر المنصور بن الناصر من أبرز الشخصيات التى حكمت البلاد فى الأسرة الحمادية كان ترتيبه السادس من بين الأمراء الذين حكموا وقد تولى مقاليد الأمور بعد مقتل أبيه الناصر عام ٤٨١ هـ وقد دامت فترة حكمه سبعة عشر عاما هجرية وقد لعب دورا هاما على مسرح الحياة السياسية لبلاده وكان له أسلوب واضح فى التعامل مع المشكلات الداخلية والخارجية التى أحاطت ببلاده ، وسار المنصور على نفس النهج الذى كان يسير عليه أبوه فى إدارة شئون البلاد وذلك لانه أبقى على المستشارين والدولاب الحاكم فى البلاد يستفيد من خبرته وحنكته والاستعانة به فى دفة الأمور وذلك بعد أن أشاروا عليه بأن خط أبيه هو خط الأمن والأمان الذى قاد الدولة إلى بر النجاه وسط تقلبات الأحداث الجارية من حوله على الساحة المغربية ومن هنا فان خط الدولة السياسى لم يحدث عليه أدنى تغيير إذ اقتفى سياسة أبيه فى الحزم والعزم والكياسة والسياسة .

وقد بلغت الدولة الحمادية فى عصره أقصى عصور مجدها وأوجها ، فقد عنى المنصور بالمنشآت والقصور وفى أيامه أصبحت بجاية من أعظم مدن أفريقية والمغرب الأوسط وأوسعها عمرانا وأكثرها رخاءً وازدهارا .

وكان فاضل الأخلاق ، كريم الشيم ، عزيز النفس ، حازما ساس أمور الدولة سياسة رشيدة ، وشهدت بجاية فى عصره بناء القصور الرائعة والواسعة والقلاع والحصون وأجرى المياه إلى المدينة واستعان بالمهندسين من الاندلس لكى يخططوا له الأحياء الراقية والمبانى الجميلة ، وغلب على عهده طابع البناء الحضارى والثقافى والتطور العلمى والصناعى .

لكن بداية حكمه قد شهدت بعض الأحداث الداخلية التى ربما تكون طابع

الحياة السياسية فى الدولة الحمادية عندما يتولى الأمور بها حاكم جديد إذ دائما ما تحدث الثورات نظرا للمطامع الشخصية ومحاولة أحد أفراد الأسرة الحاكمة مناوأة الأمير الجديد طمعا فى السلطة أو رغبة فى أن ينال وضعا سياسيا معينا ومن هنا كانت تحدث الثورات والمشاكل والتى كان على المنصور أن يواجهها بحزم وقوة حتى يستطيع أن يتفرغ لبناء الدولة ، لان الحزم فى علاج هذه المشاكل يسبب له جوا من الاستقرار فيما بعد وكان عليه أن يواجه الخصوم الثلاثة التى كانت تواجه أبيه وهى القبائل العربية الهلالية التى بدأت تتسرب إلى دولته بأعداد كبيرة والتى بدأت محاولة فرض النفوذ على الحياة اليومية وكذلك خطر المرابطين الأقوياء على الحدود الغربية لبلاده وخطر قبائل زناتة البربرية العدو التقليدى للبلاد وكذلك كان عليه أن يقرر موقفه من الدولة الزيرية فى المهدية والذين كانوا لم ينسوا تدخل أبيه الناصر فى أمورهم الداخلية محاولة فرض نفوذه على العديد من المدن الزيرية ومن هنا فانه لابد لهم أن يسببوا الكثير من القلاقل للأمير الجديد .

ومن هنا ثارت عليه الأقاليم الشرقية المجاورة لدولة بنى زيرى فقد ثار عليه عمه « بليار » والى قسنطينة وقد كان أول الحماديين الذين خرجوا على السلطة الشرعية ويبدو أن ذلك كان بتحريض من تميم بن المعز الذى كانت هذه المدن تخضع لنفوذ الدولة فى السابق وكان بليار يرى أحقيته فى تولى الإمارة بدلا من ابن أخيه المنصور ، كما ثار عليه ابن عمه أبو يكنى بن محسن بن القائد بن حماد « حاكم ولاية بونة » لكن المنصور وجه جهده لمواجهة حركة الثائرين وكان البلياز قد رفض التخلى عن ولاية قسنطينة وتولى منصب جديد فى النظام الجديد مما استدعى المنصور أن يرسل إليه قوات بقيادة أبى يكنى بن محسن بن القائد بن حماد ( قبل أن يتمرد على المنصور ) والذى كان قد تم تعيينه حاكما على قسنطينة بدلا من عمه بلياز ، لكن أبا يكنى وأخاه بغلان عملا على الاستقلال بالمدن التى تحت سيطرتهما وأرسلا إلى تميم بن المعز بن باديس يطلبان منه الدخول فى طاعته لكن تميم بن المعز رفض الاستجابة لطلبهما



« فما كان من ابن يكنى إلا أن استعان بالعرب الهلالية والمرابطين فى المغرب الأقصى وذلك لإثارة القوى الكبرى فى المنطقة طامعا فى تحقيق أحلامه فى بناء كيان مستقل له يحكم مناطق الحدود الشرقية المجاورة لبنى زيرى .

لكن المنصور حاربهما واستخدم القوة والدهاء وحاصر بونة وقسنطينة سبعة أشهر ثم فتحها وقبض على أبى الفتوح بن تميم الزيرى الذى كان قد أرسله والده مندوبا عنه بقوات لمساعدة هذه الأقاليم الثائرة كذلك استولى على قسنطينة وتم طرد العرب منها والقضاء على الثورة وعندما ثار عليه عرب بنى هلال حاربهم وأخضعهم وكذلك قتل أبا يكنى بن محسن وأخاه بغلان واستطاع المنصور أن يقضى على الفتنة وأن يخمدها فى مهدها .

وكذلك كان عليه أن يواجه قوة المرابطين الزاحفة والقوة التى لا قبل له بها ذلك لان المرابطين مهما حاولوا استمالة بنى حماد والتصالح معهم وإرسال الوفود ورسائل التهنئة وحسن الجوار ، لكن كل ذلك لم يضع حدا لأطماع المرابطين فى بلاد بنى حماد والمغرب الأوسط فسرعان ما تبدل حال الصلح وجو الود والتفاهم الذى كان قد ساد جو العلاقات بين الطرفين لاسيما ان يوسف بن تاشفين قد سعى إلى طلب الصلح سابقا . وأمر بكف أيدى المرابطين عن بلاد بنى حماد . لكن قوات المرابطين دخلت حدود بنى حماد الغربية وعاثت فى المناطق الغربية مما اضطر المنصور أن يحشد قوات كثيرة وأن يرسل ابنه عبد الله قائدا لهذه القوات وذلك بعد أن كان المرابطون قد طمعوا فى تلمسان وهاجموها واحتلوها ، لكن ابنه عبد الله رأى ضرورة أن يقاتل قبائل زناتة لانها سبب عدوان المرابطين لان زناتة تهاجم المدن المرابطية مما يستدعى قيام قوات المرابطين بمطاردتها فتدخل حدود بنى حماد ، فحاربهم ووصل بلاد زناتة ( بنى ميسو ، وبنى مانو ) ذلك لان المرابطين لم يكن هدفهم الأساسى الدخول فى صراع مسلح مع بنى حماد واصع النطاق وكسر شوكة بنى حماد ، ذلك لان المرابطين لم يفكروا فى فرض سلطانهم على المغرب الأوسط كله وكان الحد

الفاصل للحدود هى بلاد تلمسان لان ميدان الجهاد الإسلامى ورد عدوان نصارى الاندلس كان شغلهم الشاغل الذى شغلهم عن فتح جبهة شرقية فى المغرب الأوسط ، ومن هنا كانت سياسة المرابطين طيلة عهد المنصور هو تأمين حدود الدولة الشرقية وليس التوسع ولم يكن فرض نفوذهم فى تلمسان وبعض المناطق المجاورة لها إلا نوعا من تحقيق هذا الأمل ، ذلك لان المغرب الأوسط كان يحرس البوابة الشرقية للمغرب الأقصى ومن هنا كانت سياسة الاضطرابات التى تشنها غارات زناتة على الحدود هى السبب الأساسى فى النزاع بين بنى حماد والمرابطين لاسيما أن بنى حماد لم يكن فى مخططهم التوسع غربا على حساب أبناء عمومتهم ( صنهاجة ) المرابطين ، ومن هنا فقد صالحهم المنصور وصاهرهم فحمدوا سياسته بعد أن كان قد زحف إليهم وحاصرهم حتى توسطت فى الصلح بينه وبين المرابطين زوجة يوسف بن تاشفين التى تربطها بالمنصور رابطة الرحم والنسب فقبل الصلح وجنح للسلم ورضى بأن يأمن شر المرابطين وأن يعيش معهم فى سلام لاسيما أن المرابطين كانوا قوة كبرى وعظمى ولهم مكانتهم الدولية والعالية فى ذلك الوقت وتأثيرهم على مجرى الأحداث الدولية لاسيما فى الاندلس وحوض البحر المتوسط الغربى ، ودور أسطولهم فى الدفاع عن المسلمين فى صقلية وحماية الكيان الإسلامى فى غرب البحر المتوسط .

لكن مع قوة المرابطين الدولية العالمية فى ذلك الوقت باعتبارها أكبر قوة فى العالم الإسلامى فى القرن الخامس الهجرى والسادس الهجرى أيضا ، يحاول بعض طلاب الدراسات العليا فى أبحاثهم عقد مقارنة بين قوة بنى حماد الصغيرة والمرابطين وكأنه يحاول أن يجعل بنى حماد دولة كبرى تقارن بالمرابطين الذين كان لهم ملكهم الواسع الممتد جنوبا حتى حدود بلاد السودان وقواتهم الكبرى فى الاندلس وأسطولهم البحرى الذى يخشى الأوربيين قوته وقهر أسطول روجار الثانى حاكم صقلية وأغار على سواحل جنوب ايطاليا وكرر الإغارة أكثر من مرة على صقلية واستولى على بعض المدن فيها وشهرتهم على مستوى العالم الإسلامى فى حين أن بنى حماد وامارتهم لم تعد



أن تكون دويلة صغيرة اقليمية لم يكن لها أدنى عمل خارجى ولم تشارك فى أى عمل للدفاع عن المسلمين سواء بالعتاد والذخيرة والأموال أو المساعدة البحرية ، فقد كانت دولة ذات امكانات محدودة ووضع اقليمى يفرض عليها ألا تلعب دورا إلا ما هو مقدر لها وليست دولة كبرى فى المغرب الإسلامى كما حاول أن يصور ذلك الذين تحدثوا عن المنصور بأنه كان رجلا حربيا مظفرا نجح فى جميع المعارك التى خاضها مع الزناتيين والمرابطين والصنهاجيين فى أوج قوتهم ومجدهم .

وقد قدم عليه فى العاصمة بجاية ابن عمه المعز بن حماد فارا من وجه المرابطين الذين أخذوا منه مدينة المرية بالاندلس التى كان يحكمها فأرضاه المنصور وعينه حاكما على مدينة « تدلس » وأسكنه بها وفى ذلك رد على الذين يحاولون وضع دولة بنى حماد فى ميزان المرابطين ، ذلك لان المنصور لم يحرك ساكنا لهذه الحشود التى استولت على العديد من بلاد الدولة الغربية وان المرابطين لو أرادوا اسقاط الحماديين والاستيلاء على أملاكهم لفعلوا لكن تأمين الحدود كان جزءا من واجبهم السياسى للتفرغ للجهاد فى الاندلس ، لكن يبدوا أن حاكم تلمسان من قبل المرابطين « تاشفين بن يغمور » تحرك للاستيلاء على أشير عاصمة بنى حماد القديمة عام ٤٩٥ هـ / ١١٠١ م وذلك استمرارا للصراع ، فتحركت قوات المنصور عام ٤٩٦ هـ / ١١٠٢ م بعد أن طلب المساعدة العسكرية من أبناء عمومتهم فى المغرب الأدنى والأوسط وربما قدمت إليه قوات من بنى زيرى فى المهدى وتمكن من إعداد قوات كبيرة بلغت نحو عشرين ألف مقاتل منها أعداد كبيرة من القبائل العربية الهلالية وبنى سليم إلى جانب صنهاجة بنى زيرى واستطاع أن يسترد أشير وأن يحاصر تلمسان التى فر منها حاكما واستولت قوات بنى حماد على تلمسان وأوقف زحف المرابطين ثم فى النهاية اضطر إلى رفع الحصار عن المدينة ، وقام يوسف بن تاشفين أمير المؤمنين المرابطى بعزل حاكم تلمسان ( تاشفين بن يغمور ) إرضاء للمنصور .

كما أن المنصور نجح فى التعامل مع القبائل العربية الهلالية وفقا للظروف

السياسية السائدة والأحوال العسكرية للبلاد واستطاع أن يصالح القبائل العربية وأن يضمها لحضن الدولة وسادت حالة الاستقرار طوال تاريخ بنى حماد وبذلك كان بنو حماد فى وضع سياسى أفضل من بنى زيرى ، لما قاموا به من تصالح مع العرب الهلالية وكانوا على علاقات طيبة مع المرابطين وأدى حسن العلاقات مع المرابطين إلى جعل عاصمتهم بجاية من أهم المراكز الحضارية والثقافية والتجارية فى المغرب الإسلامى .

وقد قال عنه لسان الدين بن الخطيب أن المنصور بن الناصر بن علناش كان أديبا لامعا وشاعرا عظيما يكتب الشعر ويقرضه ، وكان حميد السيرة فاضل الخصال ، ضابطا لأمور دولته ، وكان يحافظ على القليل من الأشياء ، وذكر ابن خلدون عنه أنه كان مولعا بالبناء وتشييد المصانع واتخاذ القصور والاهتمام بالفلاحة والزراعة وتنمية موارد البلاد اقتصاديا وصناعيا وتجاريا لاسيما مع بلاد السودان حيث الذهب والمواد الاستوائية التى تحتاج إليها البلاد وتصدر إلى الدول الأوربية .

ومما يؤخذ له من أساليب السياسة الهادئة انه استخدم سياسة حكيمة فى معالجة قضاياه وأموره مع القبائل العربية الهلالية لكى يجنب البلاد أخطارا ربما تؤدى إلى ما حدث فى المغرب الأدنى فقد استخدم أسلوب المهادنة والتحالف والاحتواء وبذل الأموال والهدايا والاقطاعات والضم إلى ديوان الجند ، وضرب القبائل بعضها ببعض حتى أن القبائل كالتى وضعت نفسها تحت تصرف المنصور كالاثيج وعدى وبنى سليم كانت تضع نفسها تحت تصرفه فى الحرب والسلم فقد كانت تشارك فى القتال وحفظ الأمن فى الطرق التجارية وفى المدن وحراسة المدن والقلاع ، وبذلك فقد قدر لهذه القبائل أن تلعب الدور الأساسى فى الحماية الخارجية للدولة وكذلك فى المحافظة على الأمن الداخلى والضرب على أيدى الخارجين على القانون وتأمين سلامة القوافل التجارية التى كانت تتحرك على الطرق الصحراوية من الجنوب إلى الشمال وبالعكس ، كانت تلك القبائل العربية طوع إرادة القيادة الحمادية .



بل أن هذه القبائل قد أصبحت جزءا من نظام الدولة السياسى والإدارى فقد ارتبطت مع بنى حماد ارتباطا عضويا مصيريا كالمشاركة فى حفظ الأمن وجمع الضرائب ومصاحبة ركب الحجيج إلى الأراضى المقدسة وتأمين كل وسائل المواصلات وحراستها .

كذلك ليس أدل على دور القبائل العربية الهلالية من شكوى يوسف بن تاشفين أمير المرابطين من استعانة بنى حماد بالقوات والقبائل العربية فى العدوان على بلاد المغرب الأقصى .

وقد مات المنصور بعد حكم دام سبعة عشر عاما وهو فى طريق عودته من حرب المرابطين بعد أن نجح فى المحافظة على كيان دولته وحفظ دورها فى المسرح الغربى والحفاظ عليها من اعتداء القوى المحيطة بها وجعلها تعيش فى أمن واستقرار ضد الأخطار الخارجية وتوفى عام ٤٩٨ هـ .

## باديس بن المنصور بن علناش بن حماد

## ربيع أول ٤٩٨ – ذى القعدة ٤٩٨ هـ / ١١٠٤ م

نحن هنا أمام شخصية حاكمة من حكام بنى حماد تعتبر الشخصية السابعة فى سلسلة الحكام الذين حكموا البلاد لكن شخصية باديس هذه قد لايكون لها مثيل فى سلسلة الحكام الذين سبقوه إلا شخصية الأمير محسن بن القائد بن حماد ( ٤٤٦ – ٤٤٧ هـ ) الذى حكم البلاد أربعة شهور وقد تقاربا فى التصرفات والطباع مما جعل فترة حكمها أقصر فترة فى تاريخ الحكام ، والذى ينظر إلى شخصية باديس هذا وفترة حكمه يجد أنها فترة قصيرة لم تزيد عن ثمانية شهور إذ تولى حكم البلاد بعد وفاة أبيه المنصور فى ربيع أول عام ٤٨٩ هـ ومات فى ١٣ ذى القعدة من نفس العام . وقد يكون صورة مكررة لشخصية محسن بن القائد من حيث الطباع والسلوك الشخصى

الذى أودى بحياتهما فالأول مات مقتولا وشخصيتنا هذه مات مسموما . لكن الذى يبحث فى بواطن الأمور داخل البلاد الحمادى وبين الأسرة الحاكمة يتعجب لم أفرزت الظروف تلك القيادات السياسية لتكون على رأس السلطة فى البلاد ، لاشك ، أن هناك أمورا خفية قد تستدعى أن يعتلى مثل هؤلاء الأشخاص قيادة المسيرة السياسية لكن الأخطاء القاتلة التى يقعون فيها هى التى تعجل بحياتهم .

وقد تكون هناك أسباب سياسية دفعت المنصور بأن يولى ابنه باديس هذا ولاية العهد خلفا له من بعده ويستدل على ذلك أن باديس هذا كان حاكما على مدينة القلعة وكان مقيماِ بها وقت وفاة أبيه الذى توفى خارج العاصمة بجاية وهو عائد من قتال المرابطين ، فلو أن هناك قوى أخرى مناوئة له فى الحكم لاستغلت الظروف السائدة واستطاعت وهى تقيم داخل العاصمة بجاية أن تتولى مقاليد الأمور .

وقد ذكر عنه ابن خلدون وابن الخطيب أنه كان شديد الغضب سريع البطش عظيم السطوة جبارا شجاعا متهورا مندفعا لا يحسب للعواقب أدنى حساب ولايدرس الخطوات التى يقدم على فعلها ولايدرى كيف تكون النهاية شاذا فى تعامله مع من حوله من قاد البلاد ، وعندما علم بوفاة أبيه خرج من القلعة التى كان يقيم بها ربما كان يتولى شئون الحكم بها وربما كان سجينا ومنفيا واستطع يبذل الأموال أن يستغل الظروف ويصل إلى بجاية ليقيم نفسه حاكما عليها لاسيما وأن نظام الحكم فى تلك الإمارة كان يعتمد على القوة والجبروت والاستبداد وكان نظام الحكم قبلى عشائرى .

وعندما وصل إلى العاصمة بجاية كان أول عمل قام به هو قتل (عبد الكريم بن سليمان ) وزير ابيه وقائد حامية بجاية وذلك ربما أحس منه بخطر على الحكم أو أنه قاوم توليته العرش وعارض فى ذلك وربما كان يريد أن يعين شخصا آخر بدلا منه باعتباره الوزير الأول فى الدولة والمطلع على كل أسرارها (وعزل أخيه العزيز الذى ستصير إليه الأمور فيما بعد ) ،كان العزيز محبوبا لدى أبيه المنصور مقربا من البلاد والإدارة ورجال الجيش وكان يتولى حكم المناطق الغربية من البلاد ويحكم فى مدينة



الجزائر ، فقام بعزله ونفاه ووضع حوله حراسة مشددة فى مدينة جيجل (ابن الخطيب ) وذلك خوفا منه لان العزيز كان عليه إجماع بأن يتولى القيادة السياسية وهم بقتله لولا دفاع أمه عنه فتوعدها هى الأخرى بالقتل لانها حالت دون قتله لأخيه العزيز (عبد العزيز) ومن شذوذه النفسى وأعماله التى تتنافى مع أدنى قيم بشرية أنه ألقى بأحد الصالحين ورجال الدين حيا للأسود لتأكله عندما حاول أن يحول بينه وبين البطش وأن يأمره بالكف عن الأذى فسجنه ثم ألقى به للأسود حيا. وقام بالكثير من الأعمال التى عجلت بنهايته حيث أن يقال أن أمه قد دست له السم لانه توعدها بالقتل ذلك بعد أن دبرت أمر ذلك مع ابنها العزيز الذى وافق عليه رجال البيت الحمادى وقادة الجيش وعلية القوم فى السلطة وقد لقى باديس حتفه قبل أن يستكمل عاما واحدا فى الحكم وذلك جزاء قصر بصيرته وشدة سطوته ، وتولى الحكم بعده أخوه العزيز بن المنصور الذى كان قد عزله عن ولاية الجزائر ونفاه إلى مدينة جيجل حيث قام كبار رجال الدولة باستدعائه من هذه المدينة ليتولى قيادة البلاد بعد أخيه ولم يقم باديس بأدنى عمل من الأعمال التى تذكره قط لقصر فترة حكمه وبطشه وسوء تصرفه وقصر حيلته.

## الأمير المنصور بن الناصر بن علناش بن حماد

## ( ٤٩٨ – ٥١٥ هـ – ١١٠٥ – ١١٢١ م )

هو الشقيق الأصغر للأمير السابق بدايس الذى مات بعد أن وضعت له أمه السم وكان الأمير العزيز وقت وفاة أخيه يعيش منفيا فى مدينة جيجل بأمر من أخيه بعد أن كان حاكما لمدينة الجزائر ، ولم تكن سنه قد تجاوزت العشرين عاما وقت أن تم استدعاؤه إلى مدينة بجاية لتولى قيادة المسيرة الحمادية والإمساك بدفة القيادة بعد أن كانت أمه قد أقنعت قادة البلاد واتفاقهم على توليه عرش الإمارة نظرا لتمرسه بشئون الحكم وعلاقاته الطيبة بقادة الأمة .

ولقد كان حسن ظنهم فى محله إذ أظهر من العزم والحزم وحسن السياسة والإدارة وبعد النظر والإدراك للأمور والاستعانة بالخبرات وأهل المشورة وقد اتفق المؤرخون على أنه نموذج فريد من بين أبناء الأسرة الحمادية وتكاد تكون شخصيته تتقارب مع شخصية جده الناصر بن علناش بل أنه سار على الخط والنهج السياسى الذى كان يسير عليه جده الناصر بن علناش وفى ذلك يقول عنه ابن خلدون انه كان سياسيا بارزا حكيما قاد دفة الأمور لفترة تزيد عن سبعة عشر عاما هجرية وسادت أرجاء المملكة فى عهده جو من الهدوء والأمن والاستقرار وقد تطورت البلاد فى عهده تطورا كبيرا وشهدت الديار عهدا من الانماء والتعمير والتشييد وتقدم فن البناء وازدهرت معالم الحضارة الإسلامية وتركت بصماتها على وجه الحياة وتقدم الاقتصاد وانتعشت التجارة الداخلية والخارجية .

وكان ماهرا عارفا متمرسا بشئون الحكم فقد اكتسب خبرة عند توليه امارة الحكم فى الجزائر سابقا ، وكان حسن الخلق ، وقد ولد ليلة تولى أبيه المنصور الحكم وبذلك تكون سنه الحقيقية يوم توليه امارة بنى حماد سبعة عشر عاما ولذلك سمى بالميمون .

ولقد كانت فترة الحكم السابقة التى لم تدم إلا ثمانى أشهر التى حكم فيها الأمير باديس قد جعلت البلاد تعيش حالة من القلق والانهيار والفوضى من جراء الأعمال التى قام بها سلفه ولم يكن الأهالى يأمنون على غدهم وكسدت الأحوال العامة لكن الدور الكبير الذى لعبه قائد الأسطول الحمادى ( على بن حمدون ) فى تولى إحضار العزيز من منفاه فى جيجل بوساطة السفن الحربية نظرا للصداقة التى كانت تربطه مع العزيز كان له أكبر الأثر فى تهدئة الأمور وعودة الحياة إلى طبيعتها بعد أن كان أميرهم الجديد بعيدا عن مسرح الأحداث فى العاصمة بجاية ومنفيا فى جيجل ومن هنا فان تولى العزيز للحكم يعود الفضل فيه إلى دور على بن حمدون



وكذلك الدور الذى لعبته أمه فى التخلص من الأمير باديس .

وكان القائد البحرى على بن حمدون قد حفظ الأمور فى البلاد عشية وفاة باديس بعد أن تم الاتفاق على تولى العزيز مقاليد الأمور وأرسل له سفينة حربية سرية بقوات بحرية تحضره من منفاه فى جيجل وسارت الأمور كالمعتاد فى تسلم العزيز مقاليد الأمور ، وكان على بن حمدون أول من بايعه وعلية القوم ورجال القصر وسادة البلاد الأميرى وتمت بيعة خاصة ثم بعد ذلك جاء دور البيعة العامة حيث بايعه الشعب والأهالى فى صلاة الجمعة فى الجامع الكبير ببجاية فى السابع من ذى القعدة عام ٤٩٨ هـ / ١١٠٥ م .

واتخذ سياسة حكيمة قبل أطراف النزاع التقليديين الذين كانوا يدخلون فى قتال وحروب مع الدولة وكان عليه أن يبدأ سياسة المسالمة والمهادنة والتصالح وفتح صفحة جديدة من الود وحسن العلاقة وابتدأ بقبيلة زناتة وفتح صفحة من الوفاء والمصاهرة فتزوج ابنة زعيم القبيلة ماخوخ ونكحها وأقطعهم الأراضى وقربه إلى مجلسه وعقد معهم عهدا بألا يكون بينهم حروب أو قتال نظرا لصلة القربى والتراحم والمصاهرة .

كذلك نظر إلى الشرق حيث أبناء عمومته من بنى زيرى وشهدت فترة تولية حكم السلطان ( يحيى بن تميم بن المعز بن باديس ٥٠١ – ٥٠٩ هـ ) وكذلك ابنه على بن يحيى بن تميم ( ٥٠٩ – ٥١٥ هـ ) وتحسنت العلاقات مع المهدية طوال فترة حكمه وساد جو التفاهم والصداقة بعد أن تزوج ابنة السلطان يحيى بن تميم وشقيقة السلطان على بن يحيى • بدر الدجى ) ودخل بها قبل وفاة أبيها بعدة شهور فى عام ٥٠٩ هـ / ١١١٥ م .

هذا عن الجبهة الداخلية والشرقية أما الجبهة الغربية حيث الحدود المشتركة مع المرابطين فى المغرب الأقصى فانه لم يمض عامان على توليه العزيز حتى كانت أقوى شخصية فى تاريخ المرابطين قد ماتت وهو يوسف بن تاشفين الذى مات عام ٥٠٠ هـ

/ ١١٠٦ م وتولى أمر المرابطين بعده ابنه على بن يوسف بن تاشفين وبدأت الأمور تختل وبدأ السلطان الجديد ( أمير المؤمنين ) على بن يوسف يواجه العديد من المصاعب مما جعل المرابطين يصرفون النظر نهائيا عن النظر إلى الحدود الشرقية لبلادهم ولايصارعون بنى حماد وشهدت البلاد القريبة من تلمسان الحد الشرقى للمرابطين هدوءا تاما ، ولم يعد الجانب المرابطى يفكر فى الاعتداء أو التحرش أو خلق متاعب للدولة الحمادية أو الاغارة وملاحقة القبائل الزناتية ، وكانت كل هذه الأمور من الاستقرار شرقا وغربا وداخليا جعلت عهد العزيز يوصف بأنه عهد الرخاء والأمان والسلم والسلام فهو لم يواجه أى نوع من المشاكل التى واجهها سابقوه من الأمراء السبعة الذين حكموا البلاد حيث كان الأمير العزيز هو الأمير الثامن فى سلسلة حكام بنى حماد الذين حكموا المغرب الأوسط والذين كانت تمتص طاقتهم وقدراتهم ومن هنا ساعدته الظروف فى أن يحكم بهدوء واستقرار ليتفرغ للبناء الداخلى وتوطيد دعائم الدولة .

وقد كان عالما أديبا متميزا فى علوم الفقه والدين ومولعا بمجالسة العلماء ومناظرتهم فى مجلسه الذى كان يضم العديد من العلماء والفقهاء ورجال علم الكلام والعلوم الطبيعية كالكيمياء .

ولما أنس من نفسه قوة بدأ يتطلع للعمل العسكرى فى الخارج فقد كان بنو خرسان حكام تونس قد نبذوا طاعته فنازلهم وأرسل الحشود عليهم وأخضع حاكمها أحمد بن عبد العزيز الخرسانى وخضع لنفوذه والخضوع لطاعة العزيز وهكذا قد نجح بنو حماد فى الصعود بعد هذه الانتصارات .

وكان أهل جربة قد ثاروا على العزيز بن المنصور وأعلنوا العصيان عليه وخرجوا عن حكم الأمير العزيز بن المنصور لكن العزيز حشد الحشود واستكثر منها وأعد الأسطول الذى حاصر الجزيرة عام ٥١٠ هـ/ ١١١٧م وظل مقيما على حصارها حتى



أقر أهلها بالطاعة وتعهـد أشياخهم بالخضوع وعدم قطع طريق المسافرين والتجار إلى بجاية ، لكنه من عجيب القول الـذى ذكره ابن خلدون عن بجاية أنها فى ذلك الوقت كانت تخضع لحكم بنى زيرى فى المهدية وكان على بن يحيى الذى عاصر العزيز بن المنصور قد أخضع الجزيـرة واعترف أشياخها بالحكم الزيرى.

وحاولت القبائل العربية الهلالية التى انساحت فى بلاد المغرب الأوسط أن تضع العراقيل والمشاكل فى وجه العزيز فحشدت قواتها وهاجمت القلعة العاصمة القديمة للبلاد ، لكن العزيز تصدى لهم بعد أن هزمت حامية القلعة واضطرتها إلى الفرار ، لكن العزيز أرسل ابنه يحيى على رأس القوات ومعه القائد على بن حمدون للدفاع عن القلعة وطرد القوات العربية منها وتم لهما ذلك، لكن القلعة أخذت بعد تلك الأحداث طريقها إلى التدهور والانحلال .

وشهد عهده نوعا من الاستقرار والأمن فى ظل القيادة الرشيدة التى عملت على مواجهة كل مشكل داخلى أو خارجى لكن عهده شهد بوادر أخطار خارجية تهدد الأمن والاستقرار بل كل البلاد الساحلية والذى تتمثل فى الخطر النورمانى الذى بدأ يطرق البلاد مسلحا بالقوات الحربية والبحرية وبدأت أنظاره تتطلع إلى دولة بنى زيرى فى المهدية لمحاولة احتلالها والسيطرة عليها وانهاء الوجود الزيرى من الساحة المغربية والإسلامية .

لكن سياسة الدولة الحمادية الاقليمية ذات النطاق المحدود فى النظرة للمشاكل العالمية قد صرفتهم عن التفكير فى مواجهة الأخطار الخارجية أو التقارب مع أبناء عمومتهم للعمل سويا للدفاع عن الكيان السياسى الاقليمى بغض النظر عن قصر النظر وتجاهلهم للأحداث الكبرى التى تحيط بالعالم الإسلامى والتى باتت تهدد المغرب العربى .

لكن قرب نهاية العزيز كان الخلل قد بدأ يدب فى جسد الدولة الحمادية ، لكن

حدثا كبيرا سوف يكون له تأثير بالغ على مجرى الأحداث فى المغرب الكبير بل سوف ينهى دولة بنى حماد ويستخلص أراضى الدولة الزيرية من أيدى النورمان ذلك لأن السنوات الثلاث الأخيرة من حكم العزيز وبالتحديد فى عام ٥١٢ هـ/ ١١١٨م قد شهدت ظهور باعث الدولة الموحدية المهدى محمد بن تومرت المصمودى الذى كان قد عاد من المشرق ومر بالمغرب الأوسط ووصل إلى بجاية عاصمة بنى حماد وأخذ يهاجم أمراء العصر ومن بينهم أمراء بجاية ولقد أحس العزيز بن المنصور بالخطر الذى يكمن وراء هذا الداعية المغربى وحاول القبض عليه ، لكن ابن تومرت عندما أحس بالخطر توجه إلى قبائل بنى درياكل الصنهاجة الذين رحبوا به واستضافوه ورحبوا بدعوته وحالوا دون المساس به وقاتلوا من أراد النيل منه ارتحل إلى المغرب ، بعد أن كانِ محمد ابن تومرت قد اجتاز بلاد المغرب وهو فى طريق عودته من المشرق واتصل بعرب الثعالبة الذين كانوا أول القبائل العربية التى ناصرت الدعوة الموحدية وأهدت المهدى حمارا فارها ليركبه بعد أن كان يسعى على قدميه فى سبيل دعوته ، وقد أهدى ابن تومرت هذا الحمار بدوره لرفيقه وقائد دعوته عبد المؤمن بن على الذى سيصبح خليفة الموحدين، بعد أن تعاهدوا سويا على العمل من أجل الدعوة وارتحلا إلى المغرب وأخذه معه .

لكن العزيز توفى عام ٥١٥ هـ / ١١٢١ م وآلت أمور البلاد إلى خلفه وابنه يحيى بن العزيز الذى تشهد الدولة نهايتها على يديه .

## يحيى بن العزيز بن المنصور بن الناصر

## ( ٥١٥ – ٥٤٧ هـ – ١١٢١ – ١١٥٢ م )

شهد عصر هذا الأمير استقرار العرب الهلالية بكثرة وكثافة شديدة فى بلاد المغرب الأوسط وازدياد نفوذهم ولم يستطع هذا الأمير إعادة الدولة الحمادية إلى قوتها



التى كانت عليها . وهو آخر سلاطين بنى حماد . وقد ساءت العلاقات بينه وبين أبناء عمومته بنى زيرى حكام المهدية حيث ضيق الخناق على آخر حكام بنى زيرى الحسن ابن على مما دفع يحيى بن العزيز صاحب بجاية أن يرسل قوات حمادية تشاركها قوات عربية هلالية وأخرى زناتية وكانت قوات كثيفة تشتمل على قوات بحرية وبرية وحاصر المهدية حصارا شديد .

ويذكر أن سبب هذه الحملات البحرية والبرية ذلك الصلح المخزى من وجهة نظر العزيز والذى تم بين روجار الثانى حاكم صقلية والحسن بن على بن يحيى الزيرى والذى أغضب صاحب بجاية يحيى بن العزيز الحمادى حيث كان الأمير يحيى يرى أن هذا الصلح وتلك الهدنة التى تمت بين الطرفين لم تكن فى صالح المسلمين وكان وفد من أهل المهدية وكبار رجالها وشيوخها لما لاحظوا تطاول النفوذ المسيحى الصقلى فى بلادهم وازدياد وفود رسل روجار قد رحلوا إلى بجاية وخاطبوا يحيى بن العزيز وأطمعوه بأن يتولى حكمهم بدلا من ابن عمه الذى هادن الفرنجة ودفع الجزية لهم وأثقل كاهل الأهالى بتحصيل هذه الجزية منهم وأنه فى حالة إرساله قوات حمادية فسوف يتم تسليم البلاد له .

لكن ذلك لم يكن إلا حجة استغلها يحيى العزيز الذى كان يطمع فى التوسع شرقا على حساب بنى زيرى بعد أن سد الموحدون أمامه فرصة النظر للحدود الغربية ، ومن هنا كان السبب الحقيقى هو رغبة بنى حماد أصحاب بجاية والقلعة فى الاستيلاء على المهدية والقضاء على ملك بنى زيرى فى المغرب الأدنى ، حتى يتم لهم السيطرة على المغربين الأدنى والأوسط والانفراد بحكم هذه البلاد . فقد كانت روح التنافس بين الأسرة الواحدة والفرعين الحمادى والباديسى لاتزال قائمة ، ومن هنا فقد انتهز الحماديون فرصة المشاكل الداخلية والخطر الخارجى القادم من صقلية وازدياد النفوذ المسيحى فى بلاد افريقية ، وكان ذلك الطمع للسيطرة وفرض النفوذ ، لكن الحسن بن

على الزيرى عندما علم بقدوم قوات يحيى بن العزيز البحرية والبرية استعد بالجيش والأسطول الذى تمكن من أسر بعض قطع أسطول بجاية . وساعد العرب الهلالية الحسن بن على ونجدوه فى وقت الشدة وقتل كثيرا من الخارجين على حكم الحسن بن على والذين راسلوا وساعدوا يحيى بن العزيز صاحب بجاية الحمادى وازاء هجوم الحماديين لم يجد الحسن بن على أمامه من وسيلة سوى الالتجاء لطلب النجدة من روجار الثانى صاحب صقلية ولكى يمده بعشرين قطعه بحرية تعاونت مع أسطول بنى زيرى وحاصرت أسطول بجاية الحمادى وأرادت القضاء عليه ، لكن الحسن بن على رد أسطول صقلية ومنعه من الهجوم وقاتل أبناء عمومته وقائد أسطولهم « مطرق بن حمدون » وأمر قواته بالكف عن قتالهم لانه كره سفك الدماء وأراد أن يحفظ ماء وجهه الحسين وكان صاحب صقلية بهذا التدخل السافر والذى كان بناء على طلب الحسن بن على يريد إضعاف المسلمين وايقاع التنازع بينهم ومساعدة فريق ضد الآخر لكن الحسن وهذه شيمة بنى زيرى فى المحافظة على أبناء عمومتهم فوت الفرصة على قوات الفرنجة وطلب حقن الدماء العربية الأسلامية ونجح الحسن بن على فى المحافظة على ملكه وصد غارات بنى حماد .

لكن الدولة الحمادية كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة لما أصابها من ضعف وانحلال فقد تمكن عبد المؤمن بن على أول خلفاء الموحدين من دخول العاصمة السياسية للحماديين بجاية فى عام ٥٤٧ هـ / ١١٥٢ م وهكذا انتهت دولة بنى حماد من مسرح الأحداث فى الغرب الإسلامى .

وتذكر المصادر عن يحيى بن العزيز هذا أن جيوشه كانت قوية وأسطوله البحرى كان عظيما لكنه رغم ذلك فقد فشل فى فتح المهدية وأخفق فى حصارها لكنه هاجم تونس واخضعها لنفوذ بنى حماد واستطاع أن يعتقل صاحبها أحمد بن عبد العزيز الخراسانى وأن ينقله معه عند عودته إلى بجاية وأن يقيم عليها حاكما جديدا من



الأسرة الحمادية هو عمه كرامة بن المنصور بن الناصر ، وفى عهده سقطت عاصمة بنى زيرى المهدية فى أيدى النورمان عام ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م ( سوف نعود بالتفصيل إلى هذا الحديث عند فصل العلاقات ) .

وقد لبثت دولة بنى حماد قوية بعض الشئ حتى هاجمها عبد المؤمن بن على واحتل عاصمتها بجاية فى عام ٥٤٧ هـ / ١١٥٢ م وأخذ الأمير يحيى بن العزيز مأسورا إلى مراكش .

وكان يحيى هذا كما يتحدث عنه ابن خلدون قد طالت فترة حكمه وأيامه حتى حكم ما يقرب من اثنى وثلاثين عاما هجرية وكان مستضعفا يخضع لرأى مستشاريه ، وكان مولعا بالصيد ، مغلبا للنساء يعيش حياة الهدوء والدعة وينغمس فى إرضاء شهواته حتى نهاية انفراض الدولة وذهاب الأيام بالأسرة الحمادية الصنهاجية وقد أصدر السكة وغير التعامل بالدنانير الفاطمية وهو أمر لم يقدم عليه أحد من أمراء بنى حماد الذين سبقوه .

وفى عهده زادت شهرة بنى حمدون الذين كانوا السبب فى تولية أبيه عرش البلاد وذاعت شهرة القائد البحرى مطرق بن على بن حمدون وهو الذى فتح تونس ، لكنه فشل فى فتح المهدية .

وقال عنه لسان الدين بن الخطيب ، كان يحيى بن العزيز فاضلا حليما فصيح اللسان والقلم جالس الشعراء والأدباء والعلماء وحضر مجالسهم وكان مغرما بالأدب ، بليغ العبارة ، بديع الإشارة ، مولعا بالصيد ومغرما به ، كما كان يحب اللهو والمضحكات فى مجالسه تغلب عليه عبد المؤمن بن على عندما هاجم الموحدون دولته وعاصمته بجاية وتغلبوا عليه وقضوا على دولته ونقلوه معهم إلى مراكش ، لكنه ظل يعيش أسيرا فى مراكش من عام ٥٤٧ هـ حتى عام ٥٥٨ هـ إلى أن توفى فى ذلك العام ومن هنا فقد عاش تحت كنف عبد المؤمن بن على إحدى عشر عاما هجرية بعد

سقوط دولة بنى حماد وتوسع الموحدون فى المغرب إذ بعد ثمانى سنوات من سقوط بجاية أنهى عبد المؤمن بن على الوجود النورمانى فى المهدية وكل سواحل المغرب ودخل المهدية عام ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م واستولى على المغرب الأدنى وامتد ملكه إلى طرابلس وهكذا توحد المغرب الإسلامى بكل أقسامه من حدود مصر الغربية ( طرابلس ) حتى المحيط الأطلسى تحت حكم الموحدين .

وسقطت دولة بنى حماد بعد أن ظلت تحكم المغرب الأوسط طوال اثنين وأربعين عاما بعد المائة .

وكان قيامها عام ٤٠٥ هـ وسقوطها عام ٥٤٧ هـ وبذلك طويت صفحة من صفحات الوجود الحمادى الاقليمى المتنقل ودخلت المغرب فى طور الوحدة السياسية الكبرى فى ظل الحكم الموحدى الذى أنهى وجود دولة بنى زيرى فى المهدية وطرد النورمان ورد هيبة الإسلام وطرد النورمان من الساحل المغربى وبذلك طويت صفحة الدولة الزيرية بقسميها الحمادى والباديسى ، وسوف نذكر ذلك بالتفصيل فى فصل سقوط الدولة .



# الفصل الثالث

## ماثر الحكم الحمادى بالمغرب الأوسط

دام حكم الدولة الحمادية فى بلاد المغرب الأوسط والجزائر ما يقرب من مائة واثنين وأربعين عاما هجرية ومائة وخمسة وثلاثين عاما ميلاديا تولى فيها حكم هذه البلاد وممارسة نشاطهم السياسى والعسكرى كأمراء تسعة أمراء بدأ من حماد بن بلكين الزيرى الذى أقام هذه الدولة ونهاية بالأمير يحيى بن العزيز الذى قضى على حكمه عبد المؤمن بن على أول خلفاء الدولة الموحدية عام ٥٤٧ هـ / ١١٥٢ م .

وقد كانت دولة بنى حماد أول دولة ( دويلة ) مغربية خالصة يقيمها البربر الذين تم استعرابهم على أرض المغرب الأوسط وإن كان المغرب الأوسط قد شهد قبل ذلك قيام دولة بنى رستم الاباضية التى اتخذت تاهرت كعاصمة سياسية لها حتى أسقطها الفاطميون ، وبذلك أصبحت دولة بنى حماد عضوا أساسيا فى الإسلام والعروبة وساهموا بدور فعال بل ومؤثر وبارز فى دعم انتشار الإسلام ولغته العربية .

وقد نجح حماد بن بلكين فى صراعه مع باديس بن المعز فى الاستقلال بكيان الدولة وإقامة كيان سياسى مستقل بعد أن بذل جهدا عظيما وجبارا فى إقامة هذا الكيان وتنظيمه وحكمه وإن كانت فترة حكمه قد اتسمت بالعنف والقسوة سواء مع رعاياه أو مع خصومه وكانت مظاهر البذخ والترف تغلب على طابع الدولة وإن كان ذلك فى صورة بدوية .

وقد كان نظام الحكم وراثيا استبداديا مع أنه لم يحرم من استخدام الشورى والمشورة واتخاذ الوزراء والمعاونين فى إدارة شئون البلاد وظل الحكم وراثيا منذ حماد بن بلكين يتوارثه ابنه القائد بن حماد ومن بعده جاء محسن بن قائد بن حماد وهكذا استمر هذا النظام الوراثى قائما فى حكم البلاد واخضاعها حتى سقوط الدولة .

وكان اتباع سياسية العنف والشدة والقسوة عاملا من العوامل الأساسية التى ساعدت على نفور الكثير من القبائل والدخول فى صراع مع الأسرة الصنهاجية الحاكمة « قبائل زناتة » وقد استنفذ بنو حماد قوتهم وأموالهم فى حروب طويلة دون جدوى ودون وضع نهاية لها مما جعل هذه الأسرة لا تطول فترة حكمها وجعلها تدخل فى طور الانحدار والانهيار بل الاختصار قبل مضى قرن ونصف على تأسيسها .

وقد كانت دويلتهم من الدويلات الصغيرة التى ظهرت فى العالم الإسلامى يحكمها أمراء مستبدون بالأمر يهجمون على السلطة ويتنازعون ولاية العهد أو الأمير وينزعون منه الحكم انتزاعا دون وجه حق ويحكمون بقوة الجند ويقومون بالثورة والانقلاب كما حدث لمحسن بن القائد بن حماد الذى قتله بلكين بن محمد بن حماد وتولى الحكم بدلا منه ، وكذلك قتل باديس بن المنصور بن الناصر وتولى أخوه العزيز بن المنصور بدلا منه .

لكن للحقيقة التاريخية فان بنى حماد يعتبرون من أفضل الحكام الذين حكموا بلادهم فى العالم الإسلامى فقد حرصوا على راحة رعاياهم ورعاية مصالح بلادهم رغم كل هذه الانقلابات والثورات التى كانت داخل البيت الحمادى والأسرة الواحدة فلم يتغير شكل الحكم أو نظامه ، وإن كان الطابع الوراثى والاستبدادى هو السائد وكان الحكم ارستقراطيا يميل إلى العنف والشدة فى بعض فتراته .

وقد شهدت فترة حكم بنى حماد تغيير العاصمة السياسية عدة مرات فكانت فى البداية مدينة أشير هى العاصمة السياسية ثم تلتها مدينة القلعة ثم استقرت العاصمة السياسية للبلاد فى مدينة بجاية طوال فترة حكم خمسة من الأمراء أى منذ عصر الناصر بن علناش حتى حكم يحيى بن العزيز .

وكان الأمير الحاكم الأول لايحرم أبدا من أخذ مشورة رجال القصر وكبار الأسرة الذين كانوا يحيطون به ويناقشهم ويناقشونه فى أحداث الدولة وما يجب أن



يتم اتخاذه فى علاج المشاكل وإدارة شئون البلاد لكنه ليس من المعقول أن يكون الأمير محاطا بأسرة من نسل حماد الكبير ولا تتم مناقشة أمور الحكم فى جلسات عائلية داخل القصر وبصحبته رجال البلاد والأمراء والنبلاء من أبناء الأسرة .

لكن جهاز الحكم كان يتولاه الوزراء الذين كان يتم اختيارهم من قبل الأمير حاكم البلاد الذين كانوا يختارون بدرجة عالية ورفيعة من الكفاءة والقدرة على إدارة ما يتولون من مهام وكان الوزراء فى غالب الأمر يتم اختيارهم من خارج نطاق الأسرة الحاكمة ، وكان أبرز الوزراء الذين ظهروا فى عصر حكم أسرة بنى حماد هم أسرة بنو حمدون الذين ظهروا فى عصر العزيز بن المنصور أثر مقتل باديس وأزداد نفوذهم طيلة عهد يحيى بن العزيز وكان لهم دور كبير فى اسقاط الدولة نظرا لتعاونهم مع عبد المؤمن بن على خليفة الموحدين ومساعدته فى احتلال بجاية والقضاء على العرش الحمادى .

وكذلك كانت هناك بعض الأسر الكبيرة التى تتوارث حكم بعض الأقاليم والولايات مثل أسرة بنو رمان البربرية التى كانت تتوارث حكم اقليم الزاب وعاصمتها بسكرة بعد أن أخذها الحماديون من أيدى بنى مزنى العرب ، كذلك توارث بنو خراسان حكم تونس من قبل الحماديين .

ولقد عظم شأن الأسرة الحمادية واتسع نفوذها وسلطانها بعد الغزوة الهلالية وضعف أبناء عمومتهم فى المهدية وكادوا يوحدون المغرب الأوسط والأدنى ( تونس ) لولا العصبيات القبلية فيهما ومناوشات العرب الهلالية لهم وكان الناصر بن علناش من أكثر حكام بنى حماد شهرة وأعظمهم سلطانا وملكا وشأنا وأكبرهم قوة وأكثرهم دفعا للعلم والعلماء .

وفى عهد الحكم الحمادى تم تقسيم البلاد ( المغرب الأوسط الجزائر ) إلى

ولايات كبيرة وكانت كل ولاية لها عاصمة كبيرة من المدن الكبرى وكان لكل مدينة أو ولاية حاكم من قبل الحكومة المركزية فى العاصمة بجاية ويخضع لأوامرها وينفذ تعليماتها وكانت المدن مقسمة إلى ولايات كولاية الجزائر وبونة وقسنطينة ، والمسيلة ، وجيجل وأشير والقلعة وحمزة وغيرها من المدن وكان ولاة الأقاليم والمدن الكبرى يختارون فى الغالب من أبناء الأسرة الحمادية الحاكمة سواء كانوا أخوة الأمير أو أعمامه أو أبناء عمومته وذلك ضمانا للسيطرة على البلاد وعملا على استقرارها وكان ولى العهد يتولى حكم بعض الولايات أو المدن الكبرى تمرسا له لممارسة نظام وطريقة الحكم والإدارة توطئه لتولى منصب الأمير فيما بعد ومن ذلك تولى القائد بن حماد حكم المدن فى عهد أبيه حماد وتولى العزيز حكم الجزائر فى عهد أبيه ويوسف بن حماد أيام بلكين وبلكين بن محمد أيام محسن بن القائد وغيرهم الكثير من أبناء الأسرة الحمادية الذين تولوا دفة الأمور فى الولايات رغم صغر مساحة الدولة قياسا لدولة بنى زيرى أو المرابطين .

وكانت الولايات أو المدن تقسم بدورها إلى مدن صغيرة والمدن تتبعها واحات أو قرى صغيرة أو سكان بوادى فى الخيام لكن لهم استقرارا دائما بجوار منابع المياه وكانت النظم الإدارية التى تسير عليها الدولة الحمادية تساعد على احكام سيطرتها على كل نواحى البلاد وقدرتها على الدفاع عنها ومعرفة أحوالها وكذلك سرعة حشد القوات عند الخطر واستدعاء الأهالى من المدن والولايات وكذلك تحصيل الضرائب والخراج والجزية ومسئولية كل حاكم أمام الأمير فى العاصمة .

وقد لعب القضاء دورا كبيرا وهاما فى الدولة الحمادية وفى دعم نظام الحكم الذى كان حريصا كل الحرص على إقامة العدل ونشر العدالة بين أفراد الرعية ورعاية مصالح العباد وكان القضاة يصدرون أحكامهم وفق المذهب المالكى الشائع فى البلاد وطبقا لتعاليم الشريعة الإسلامية وكان القضاة يتم اختيارهم لما يتمتعون به من سمعة



طيبة وتبحر فى عالم الفقه والدين ومن المشهود لهم بالعدل والنزاهة وحسن السمعة والحصول على نصيب موفور من العلم والثقافة والحريص على التمسك بأهداب الدين الحنيف واحترام شئون الرعية ومحاربة المنكر والأمر بالمعروف وكان القضاء مستقلا عن الحكم وكان القاضى الأكبر أو قاضى الجماعة يتم تعيينه من قبل الأمير حاكم البلاد وكان يعاونه بعض القضاه وفى دار القضاء وكذلك كان إرسال قضاة آخرين من قبل قاضى القضاة إلى الأقاليم والولايات للحكم بين الناس وفض المنازعات وتسيير أمور الرعية وفقا للتعاليم الإسلامية المالكية وإن كان القضاء فى بعض الفترات قد سار على المذهب الاسماعيلى الشيعى إلا أن ذلك لم يدم طويلا ، إذ عدل عنه عندما خلع الحماديون طاعة الخلافة الفاطمية العبيدية فى القاهرة .

## البعد الاجتماعى فى الحياة الحمادية

كان المجتمع الحمادى فى المغرب الأوسط ( الجزائر ) فى سنوات حكم بنى حماد خلال القرون الثلاثة التى حكمت فيها تلك البلاد وهى القرن الرابع والخامس والسادس الهجرى يتمثل فى طبقات تتصدر المجتمع الحمادى وهى الطبقة البربرية الحاكمة التى هى طبقة وقبيلة صنهاجة الزيرية الحمادية والتى تتشابه فى اجناسها ودمائها وأصلها الواحد وهذا ما كان ينطبق على صنهاجة الطبقة الحاكمة وكانت تنازعها السيادة ومحاولة فرض النفوذ قبائل بربرية أخرى كتامة وزناتة التى كانت لاتنفك تناوئ الطبقة الحاكمة وتشاكسها من أجل نزع السيادة منها وفرض النفوذ على المجتمع حيث أن موطنها الأصلى كان المغرب الأوسط .

كذلك اشتمل المجتمع الحمادى فى تلك الآونة التى خضع فيها المغرب الأوسط لذلك النفوذ على طبقات كبيرة من العرب الذين قدموا قبل قيام تلك الدولة وهم عرب الفتح الذين كانت ولادتهم فى تلك البقاع وهو العرب البلديين كما أطلق عليهم ذلك الدكتور حسين مؤنس وكان قد مضى على استقرارهم حوالى ثلاثة أو أربعة قرون .

كذلك ضم المجتمع الحمادى العرب الهلالية الذين كانت أقدامهم قد وطئت أرض المغرب الأوسط منذ عام ٤٦٠ هـ وكان العرب الهلالية أهم هذه الطبقات التى تعيش فى المغرب الأوسط ولها تأثير واضح وجلى على الحياة الاجتماعية فى المجتمع الحمادى فهم الذين كانت لهم السيادة بعد أن زاحموا ودفعوا القبائل البربرية غربا وجنوبا وسيطروا على المدن والبوادى والتلال والبسائط وأخذوها عنوة ، وهؤلاء الهلاليون رغم استخدامهم القوة فى زحفهم وفرض نفوذهم وما سببه ذلك من تغيير بعض المعالم العمرانية والانثربولوجية فى زحفهم ورغم تأثير الحركة الاقتصادية فى أول الأمر بذلك النفوذ وزعزعتهم للأمن والهدوء طيلة القرن الخامس الهجرى إلا أن بصماتهم فى الحياة الاجتماعية والحضارية والثقافية والعمرانية واللغوية كانت واضحة قوية وتغير الدماء وتعزيز الكيان الوجدانى للفروسية والرجولة والكفاح فيها .

كذلك ضم المجتمع إلى جانب العرب الهلالية والعرب البلديين والبربر سادة الحكم ومن ينازعهم فيه من كتامة وزناتة طبقة أخرى هى الزنوج وهم الذين استقروا فى البلاد كعبيد وأجراء وكانت أعدادهم كبيرة وعناصرهم متعددة ومهنهم متنوعة ووضعهم الاجتماعى متفاوتا . وقد كان العبيد خلال القرون الثلاثة يتكونون من ثلاثه عناصر هى سبى مسلم وعبيد سودان وروم ، وكان العبيد السود والروم يقومون بأكثر الخدمة فى المجتمع الحمادى لان الطبقات القادرة على تملك العبيد كانت تستنكف أن تؤدى أعمالها بنفسها وكان العبيد السود يعملون فى الصناعة والتجارة بالإضافة إلى وضعهم فى الجندية والجيش والشرطة سواء كانوا روما أو سودا .

كذلك ضم المجتمع الحمادى وهو المجتمع الذى اتصف بالتسامح بعض الذمة من اليهود والنصارى والذين أطلق عليهم المعاهدين أو النصارى المعاهدين أو الروم المعاهدة وفى هذه الحالة يشتمل هذا اللفظ على النصارى واليهود معا . وقد كان اليهود أكثر من النصارى لاسيما فى مدن الساحل التونسى والمدن الكبرى واستمر حالهم إلى نهاية القرن السادس الهجرى ، غير أن النصارى وإن كانوا أقل عددا من اليهود فى بلاد بنى



حماد إلا أنه زاد عددهم بحكم استخدام الروم فى الجيش والبحرية .

وكان البربر الصنهاجة يشكلون قمة الهرم الاجتماعى والوضع المتميز فى البنية الاجتماعية للدولة وكانت طبقة ممتازة لها امتيازات فى الدولة نتيجة انتمائهم للطبقة الحاكمة والقيادة السياسية والإدارية وأصحاب الكلمة العليا فى البلاد وكانت لهم بصمات اجتماعية وسياسية قوية بل نفوذ يفوق نفوذ أية طبقة أخرى نظرا لما يتمتعون به من هيبة واحترام بين أفراد المجتمع الحمادى ، ولقد شهدت السنوات الأخيرة من القرن السادس الهجرى نماذج بين طبقات المجتمع التى يجمعها دين واحد وعقيدة واحدة ممتزجة جنسيا كالبربر والعرب والسودان وذلك مع كل القادمين من الاندلس أثر حركة طرد المسلمين من تلك الديار والقادمين إلى ديار بنى حماد ، كذلك بدأ التعاون والامتزاج أيضا بين قبائل البربر المختلفة كصنهاجة وزناتة وكتامة وغيرها من القبائل البربرية الأخرى وكان كثير من القبائل البربرية تعيش فى المدن الكبرى مما ساعد على الامتزاج والتقارب والتعايش متجاورة وبدأ المجتمع الحمادى يأخذ بعدا وشكلا جديدا من أشكال التقارب الطبقى والجنسى ، لكن منذ منتصف القرن الخامس الهجرى بدأ العنصر العربى الزاحف الوافد بوفرة وقوة يأخذ وضعه الاجتماعى فى المجتمع الحمادى وكان لبنى هلال دور كبير فى رقى الدولة وأثر بالغ فى الحياة الاجتماعية وامتياز على العنصرين البربرى والعربى السابق .

فقد شهد البعد الاجتماعى العربى بعدا حضاريا لغويا ثقافيا إذ بدأ اللسان العربى يغير فى اللسان البربرى حيث أثر العرب فى لغة التخاطب وزحفت العروبه على الأرياف والبوادى والمدن والتلال وبدأ التأثير الحضارى العربى يأخذ شكلا مغايرا لما سبقه حيث أن التأثير العربى الحضارى وتغيير الوضع الاجتماعى لم يكن له ليتم إلا فى ظل الاحتكاك بين الأجناس والعناصر الحكومية للمجتمع الحمادى .

وكان العنصر العربى الهلالى منذ أن وطئت أقدامه أرض الجزائر أو مغرب بنى

حماد الأوسط يشكل طبقة اجتماعية لها عنصر السيادة والقوة والنفوذ بين طبقات المجتمع المختلفة ولها مميزاتها الشخصية والثقافية والاجتماعية وأن بصماتها كانت واضحة وجلية فى اللغة والعادات والتقاليد والقيم والاعراف والمفاهيم مما ساعد على ظهور مفاهيم اجتماعية لم تكن معروفة من قبل عام ٤٦٠ هـ وهو عام الزحف العربى الهلالى الكاسح للمغرب الأوسط ، كذلك شهد المغرب الأوسط خلال حكم بنى حماد قدوم الكثير من مسلمى البلاد الأخرى الإسلامية كالاندلس وصقلية ومالطة بعد سقوطها فى أيدى الفرنجة وفتح بلاد بنى حماد أبوابها لأخوة الإسلام لاستقبالهم للعيش مع اخوانهم لكى يؤدوا دورهم الحضارى والاجتماعى بعد أن تعرضت بلادهم الأصلية للزحف الصليبى الذى أجبرهم على الهجرة إلى بلاد بنى حماد واستقر الاندلسيون بمدن الساحل الكبرى ومارسوا نشاطهم الحضارى والتعليمى والعلمى والثقافى والاقتصادى وكان الاندلسيون يشكلون طبقة ممتازة فى مدينة بجاية العاصمة السياسية لبنى حماد وغيرها من المدن الكبرى إلى جانب البربر لاسيما أهل الجزر الثلاث ( ميورقة ومنورقة وياسية ) وهى جزر البليار التى سيطر عليها الأسبان .

وقد شهد منتصف القرن الخامس الهجرى هجرات متعددة إلى بلاد بنى حماد من القيروان وصقلية والقلعة العاصمة القديمة وغيرها من مدن القطر إلى بجاية العاصمة وكان من بين المهاجرين أعلام الفقه والدين والشريعة والأدب والشعر واللغة ، ومما لاشك فيه أن كل هذه الهجرات الواسعة قد تركت بصماتها وطابعها الحضارى فى الحياة الثقافية فى المجتمع الحمادى « الجزائر » .

وعلى هذا فانه مما تقدم عن الحديث عن البعد الاجتماعى فى الحياة اليومية فى دولة بنى حماد والنظام الاجتماعى يتضح أن سكان المغرب الأوسط خلال القرون الثلاثة التى حكمت فيها دولة بنى حماد ( الرابع والخامس والسادس الهجرى ) قد تعددت عناصرهم واختلفت أصولهم العرقية والسلالية والجنسية وتباينت مواقعهم



الاجتماعية وتنوعت أعمالهم ومهنهم وأدوارهم فى الحياة اليومية وقد كانت السمة البارزة فى تلك الفترة هى عملية الجلاء الواسع عن القيروان وصقلية ومالطة والاندلس وجزر البليار بعد ترك تلك الأوطان الأصلية وفتح بنى حماد أبواب بلادهم لأخوة الإسلام لايجاد وطن جديد يلوذون به من الاضطهاد والذى تمثل فى غزوات النورمان والضغط المتواصل من نصارى الأندلس أو نتيجة الغزوة الهلالية للمغرب الأدنى أو نتيجة نزاع بين قبائل المغرب المختلفة أو اضطهاد أهل الذمة فى بلاد الاندلس ، وصقلية مما كان يوفر لهم تسامح الإسلام السكنى والاقامة فى ديار المسلمين ولاشك فى أن هذه الأحداث وتلك البنية الاجتماعية فى المجتمع الحمادى قد تركت تأثيرها المباشر على النشاط الاقتصادى سواء أكان فى مجال الزراعة والصناعة والتجارة وذلك مما ساعد على ازدهار الحياة الاقتصادية فى دولة بنى حماد .

## البعد الاقتصادى فى دولة بنى حماد

لقد كان بنو حماد فى وضع اقتصادى أفضل بكثير مما كان عليه بنو زيرى فى المهدية نظرا لانهم صالحوا العرب الهلالية وأعفوا أهل بجاية العاصمة من الضرائب على التجارة الداخلية إلى المدينة وكانوا على علاقات طيبة مع جميع جيرانهم من النورمان والمرابطين والمدن الايطالية التجارية ومع بلاد السودان وأيضا فى بعض الفترات مع بنى زيرى حكام المهدية وحافظوا على علاقاتهم الطيبة مع كل الأطراف مما فتح بلادهم للتجارة خاصة أنهم وفروا الحماية للسفن القادمة وتزويدها واعفائها من عشور بعض الصادرات أو تخفيضها وأصبحت بجاية أهم مركز اقتصادى وتجارى فى ساحل البحر المتوسط الجنوبى بل مركزا أساسيا للتجارة البحرية حتى أشاد المورخون الأوربيون بثروتها ووصفوها بأنها مدينة تجارية عظيمة وافرة الخيرات .

ولقد كان للجانب الاجتماعى والاقتصادى دوره فى الأحداث السياسية وقوة الدولة إذ أن النشاط الاقتصادى كان له دوره فى توجيه السياسة خلال فترة حكم بنى

حماد وذلك لما له من أهداف فى فهم المدلول الاجتماعى ذلك لان العامل الاقتصادى هو المحرك الأساسى لحركة الدولة لان العامل الاقتصادى ونشاطه مرتبط بالظاهرة الحضارية والثقافية والسياسية والفكرية للدولة ولان النشاط الاقتصادى يرتبط بحركة السكان فى المجال الزراعى والصناعى والتجارى وأثر هذه الأنشطة الثلاثة فى الحياة الاقتصادى وكيف تطورت دولة بنى حماد وانتقلت من دولة عشائرية بدوية إلى دولة حضارية تنعم بأساليب الحضارة والتقدم الراقى فى ذلك العصر وكيف انها نجحت فى استغلال مواردها الاقتصادية المتاحة والعمل على بناء حضارة إسلامية عربية وكيف وضحت بصماتها الحضارية والتغيرات التى حدثت فى منطقة حكمها وكيف أسهم بنو حماد رغم قصر فترة حكمهم فى تطور اقتصاديات المنطقة الوسطى من بلاد المغرب وربطها بالتباين الاجتماعى والاقتصادى بين طبقات المجتمع وكيف تركت قضيية الترابط والامتزاج الاجتماعى فى استجلاء التقدم الاقتصادى وشئون الحياة الأخرى الفكرية والثقافية والعلمية والحضارية التى سنعرض لها فى فصول لاحقة وكيف أن البعد الاقتصادى وجذوره اضافة إلى البعد الاجتماعى كان لها الأثر المباشر فى كل التطورات الحضارية التى ظهرت فى دولة بنى حماد وكيف أن هذين البعدين الاجتماعى والاقتصادى ظلا يشكلان العمود الفقرى الذى ارتكزت عليه الدولة فى كل بنائها العمرانى والثقافى والحضارى والفكرى والتعليمى وكيف أن النماذج الاجتماعية والتقارب الطبقى ترك تأثيره المباشر على وجه الحياة الاقتصادية فى دعم دولة بنى حماد وساعدها رغم انها دولة اقليمية محلية صغيرة أن تلعب دورا حضاريا وثقافيا شهد به كتاب الغرب المعاصرين لتلك الحقبة التاريخية والذى لم يكن أبدا يتناسب مع وضعها السياسى على خريطة الأحداث فى المغرب الإسلامى أو حوض البحر المتوسط ولكن يبدو أن قوقعة هذه الدويلات وانكفاءها داخليا وعدم مشاركتها للأحداث السياسية الجارية على الساحة العالمية وعدم مشاركتها فى حركة الجهاد الإسلامى ذودا عن حياض الإسلام فى الاندلس وصقلية ومالطة وبلاد جنوب أوربا



الإسلامية قد ساعدها على انماء مصادرها الاقتصادية وتحركها إلى الوضع الحضارى المتقدم .

ومن هنا فان الحياة الاقتصادية للدولة الحمادية قد تقلبت بين مراحل مختلفة بتأثير العوامل السياسية والاجتماعية المحيطة بها وأن الحالة الاقتصادية والتقدم الاقتصادى نقل شعب الدولة الحمادى نقلة حضارية بل طفرة حضارية واسعة من حالة البداوة والرعى والترحال والتنقل إلى حالة من الرقى والتحضر والتدرج فى مدارج الحضارة الإسلامية والأخذ بأساليب الحضارة الإسلامية العالمية وقد شجعت الأسرة الحمادية بدءا من مؤسسها حماد الأكبر ونهاية بيحيى بن العزيز الاهتمام بالبناء الاقتصادى ونتيجة الثورة الداخلية واتاحة الفرصة للرخاء الاقتصادى ولقد كانت دولة بنى حماد دولة غنية منذ نشأتها ومن ذلك انه عندما هزم باديس بن المنصور الزيرى أول حكامها حماد بن بلكين عام ٤٠٦هـ/ ١٠١٥ م .

فقد استولى بنى زيرى على أموال لاتحصى من جيش حماد ، لكن قصب السكر والقطن والتمر ( البلح ) والقمح والشعير والحنطة والزيتون ( حركة التصدى الداخلى والخارجى ) وكانت للأهالى طريقة لحفظ الفواكه مثل التين والعنب ( الزبيب ) والتفاح والرمان والموز واللوز . وقد شهدت القرى نشاطا زراعيا واسعا نظرا للاستقرار السياسى وكانت أراضى المغرب الأوسط جيدة الانتاج وكثر الانتاج داخل المدن المسورة وظلت القلعة تعطى الانتاج المطلوب من الأراضى المحيطة بها بعد انتقال العاصمة إلى بجاية ، وكانت بلادهم بلادا وفيرة الإنتاج وكانت الحبوب هى المحصول الرئيسى إضافة إلى زراعة القمح والشعير والعدس والحمص والذرة والفواكه بأنواعها .

ولقد ساعد النشاط الزراعى الكثيف فى زيادة موارد الدولة ورفاهية الشعب الحمادى وزاد دخل البلاد من الذهب والفضة مما ساعد على التوسع فى التصدير إلى بلاد المغرب الأدنى والبحر المتوسط والمغرب الأقصى وبلاد السودان وكان اللوز والجوز

والبلح والتين المجفف والعنب المجفف أيضا من المحاصيل الزراعية التى تصدر من بلاد المغرب الأوسط التى اشتهرت بها إضافة إلى الزيتون الأسود والقمح والشعير والحنطة .

ولقد ساعد النشاط الزراعى الزائد فى البلاد إلى الاتجاه إلى النشاط الصناعى الزراعى والصناعة وتقدمها .

**الصناعـــة :**

لقد كان حظ بنى حماد أفضل من بنى عمومتهم بنى باديس فى التنمية الصناعية نظرا لانهم رسموا لانفسهم سياسة صناعية وشجعوا الأهالى على التصنيع لوفرة الإنتاج الزراعى وزيادة حركة التعدين ووفرة الصناعات المعدنية حيث شهدت مناطقهم الساحلية ازدهارا زراعيا لانها عاشت بمنأى عن الخطر الهلالى والنورمانى فقامت صناعات نشطة بتشجيع الدولة الحمادية التى وفرت بأسطولها حماية السواحل ونقل المواد بين الموانئ والمدن المختلفة حتى لقد ذكر صاحب كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار ( مؤلف مجهول ) أن صاحب بجاية كان يضاهى صاحب مصر نظرا لان المغاربة كانوا يحيون الصناعة ويعملون على تعليم أولادهم هذه الحرف لاسيما وأن الدولة كانت بحاجة كبيرة إلى الصناعات الحربية ومواد العمارة وأدواتها فضلا عن أن العاصمة بجاية كانت مقرا للصناعات الجيدة بعد أن انتقل إليها الاندلسيون والصقالية وأهل مالطة وعمت الاستفادة من الخبرات الاندلسية لاسيما فى مجال هندسة البناء والعمارة والصناعات الحربية مما ساعد على امتداد اثر الحضارة الاندلسية إلى جميع طبقات الشعب الحمادى .

ولقد ساعدت وفرة الثروة الزراعية والحيوانية والمعادن ووفرة انتاجها على تقدم الصناعة ، ذلك لان المدن الساحلية نظرا لقربها من بلاد جنوب أوربا وقربها من الساحل ساعد على قيام بعض الصناعات التى كان يتم تصديرها إلى الخارج وظهور صناعة الأخشاب لبناء السفن حيث اشتهرت هذه المناطق بالغابات التى تمكن الأهالى



من استغلال أخشابها فى بناء السفن وتصدير الفائض للخارج ووجدت بعض الصناعات المعدنية وصناعة القطن وقصب السكر والكتان والملح الذى كان يصدر بكميات وفيرة إلى بلاد السودان جنوب الصحراء الكبرى ، وكذلك شهدت البلاد ازدهار صناعة النحاس الذى كان يرد من تكادا التبر ( تراب الذهب ) الذى كان يرد من ورجلان وبلاد السودان .

وقد مارس الصناع الحماديون الوانا من الصناعات المختلفة وكانت القلعة العاصمة القديمة والعديد من المدن الكبرى تزهو بالعديد من الحرفيين الذين اشتهروا بصناعتهم الجيدة وشهدت بجاية العاصمة الجديدة نشاطا صناعيا كبيرا نظرا لانها البناء الأكبر للبلاد والذى ترسو فيه سفن أوربا وجنوب البحر المتوسط والمغرب الأقصى ومصر وبلاد المشرق الإسلامى ونظرا للازدهار الاقتصادى فقد زاد الطلب على أشياء الترف وأدوات الزينة والزخارف .

وقد كثرت صناعة الملابس والمنسوجات حيث كان من عادة المغاربة لبس الثياب الصوفية فى الشتاء والقطن والكتان صيفا وانتشرت منذ عصر الأغالبة وقد كثرت مراكز صناعة الورق فى بجاية والمدن الكبرى خاصة أن بجاية صارت مركز القيادة السياسية والإدارية والدولة فى أمس الحاجة إلى الورق لكتابة الشئون الهامة بها وكثرت حرفة الوراقة الوراقين وصناعة الكتب والمخطوطات وحظيت تلك الصناعة بعناية تامة من جانب الأمراء الذين كانوا يهتمون بالعلم وتشجيع الحركة العلمية ومن هنا ظهر الوراقون والنساخين والمكتبات كعامة .

وأدت تلك الصناعات إلى الاهتمام بالتجليد ، وكذلك ظهرت صناعة الجلود والخزف والقيشانى والأوانى الفخارية .

وشهدت فترة حكم بنى حماد انتشارا واسعا فى صناعة الخشب حيث تميزت تلك البلاد بكثرة الانتاج ووفرته .

وقد أخفق بنو باديس فى المحافظة على دور الصناعة التى شيدها الأغالبة والفاطميون بسبب سيطرة النورمان على البحر المتوسط والعرب الهلالية على البر ، بينما استطاع بنو حماد انتاج السفن فى بجاية والتى آمنت من الخطرين معا وذلك لوفرة الأخشاب فى مناطقها ووفرة الزفت والقطران فى جبالها .

ويذكر رابح بونار فى كتابه المغرب العربى تاريخه وحضارته . أن الحماديين قد استفادوا من حضارة بنى رستم فى تاهرت وحضارة الفاطميين ، ثم زادوا عليها واهتموا بالفلاحة وأحيوا الأرض الصحراء والجرداء وغرسوا الأشجار واعتنوا بالبساتين ونشطوا التجارة فى حواضرهم وموانيهم وصارت القلعة على عهدهم مصدرا لتجارة مزدهرة وتصل إليها التجارة من العراق والحجاز ومصر والشام وسائر بلاد المغرب الإسلامى ويذكر البكرى أن بالقلعة كانت تصنع اللبابيد الجيدة والاكسية القلعية الجيدة النسيج المطرزة بالذهب ولصوفها من النعومة والبصيص بحيث ينزل مع الذهب بمنزلة إلا برسيم، ويقول جورج مارسيى وحوالى عام ٥٧٥ هـ / ١٠٦٥ م صارت القلعة مدينة تجارية عظيمة وافرة الخيرات وقصدها أرباب الصناعات من الشرق وافريقية ويبدوا أن صناعة الفخار يومئذ بلغت مبلغا عظيما كما يظهر عليها التأثير المصرى البارز والواضح فنا وعملا ووجد بها من آثار ذلك الكثير ، ثم تطورت الصناعة وتقدمت وتطورت حسب تطور الدولة ورقيها وعظمتها وتطورت صناعة العقاقير والعطور وماء الورد وتقدم فن وعلم الكيمياء والصناعات الطبية والدوائية .

وقد استفاد المغاربة من تجارب غيرهم فى هذه الصناعات وأضافوا عليها ، وكانت المواد المعدنية وغير المعدنية متوافرة وكثرت صناعة الخزف والفضة والنحاس والرخام ، لكن المغرب الأوسط طوال فترة حكم بنى حماد لم يعرف فن استخراج الذهب من باطن الأرض بينما كثر استخراج الفضة من بلاد الساحل .

ومن كل هذا يتضح أن الصناعات طوال فترة حكم بنى حماد قد تركزت فى



مدن الساحل نظرا لسياسة الحماديين فى تأليف وامتزاج قلوب أهل البلاد ، ومن هنا شهدت بلادهم نهضة صناعية شاملة برزت فيها بجاية ومدن الساحل كقاعدة للتصنيع الزراعى والحيوانى والمعدنى ولعل هذا التطور الصناعى يدل على سماحة حكام بنى حماد ، كما أن ظروف الهجرة من البلاد التى سيطرت عليها القوى المسيحية ساعدت على التطور الصناعى الذى شهدته البلاد حتى سقوطها على أيدى الموحدين فى عصر خليفتهم الأول عبد المؤمن بن على عام ٥٤٧ هـ / ١١٥٢ م .

**التجارة :**

لقد أدى النشاط الزراعى والصناعى فى تلك الدويلة الاقلمية إلى ازدياد النشاط التجارى الذى أدى بدوره إلى دفع الحركة الاقتصادية ونموها وتطورها نظرا لما كانت تتمتع به مدنها وأسواقها من سمعة طيبة وعدم دخولها فى صراع مع القوى الأوربية مما مكنها من المحافظة على تدعيم مواردها الاقتصادية .

ولقد كانت التجارة أبرز الأنشطة الاقتصادية وقد ساعدت الظروف السياسية والاقتصادية والجغرافية الطبيعية وموقع المغرب الأوسط بين الاقصى والأدنى وقربها من جنوب أوربا على ازدهار التجارة الحمادية ولقد كانت سياسة المهادنة وحسن العلاقات مع دول أوربا وكذلك العلاقات الطيبة مع المرابطين حكام المغرب الأقصى وأحيانا كثيرة بين أبناء عمومتهم بنى زيرى حكام المهدية وسياسة المهادنة مع العرب الهلالية ، ساعدت كل هذه العوامل على الازدهار التجارى والرخاء الاقتصادى ، كما أن سياسة الحماديين فى بسط لواء الأمن والأمان على ربوع البلاد وتأمين طرق القوافل المتجهة جنوبا إلى بلاد السودان وكذلك شمالا إلى أوربا وشرقا وغربا إلى بقية بلاد العالم الإسلامى على نمو الحركة التجارية ومن هنا فقد تاجرت مع بلاد المشرق والاندلس والاسكندرية ونشطت التجارة الداخلية بين القلعة وبجاية وبقية المدن الأخرى كالجزائر وقسنطينة والمسيلة وغيرها من البلاد وتبادلت المنتجات فيما بينها ، لذا كانت أسواق

مدنها الأخرى عامرة وتجارتها رابحة وتباع فيها أصناف المنتجات الزراعية والصناعية .

ولم يجد بنو حماد أمامهم من وسلة بعد أن فضلوا عدم الاشتراك فى الحروب الخارجية سوى الاعتماد على التجارة وذلك كمصدر أساسى للدخل ، ومن هنا فقد نشط الحماديون فى التجارة الخارجية لان وضعهم التجارى كان أفضل من بنى باديس فقد تاجر أهل بجاية مع تجار المغرب الاقصى وتجار بلاد جنوب الصحراء ( مالى وسنغاي وبرنو ، كانم والواحات الجنوبية ) بلاد المشرق وأهل الروم وكذلك بلاد اليمن والهند والصين والحجاز والعراق والشام .

وكانت مدينة الاسكندرية المصرية محطة يلتقى فيها تجار بجاية مع تجار هذه الدول ونشطت التجارة البحرية .

كان بنى حماد قد حافظوا على علاقات طيبة مع تجار المدن الايطالية وخاصة (بيزا وجنوه والنبدقية ) وحماية سفنهم وتزويدها بالمواد وقد ظل التطور والتقدم الاقتصادى طوال حكم الحماديين ولم يتأثر إلا بعد احتلال النورمان لصقلية عام ٤٨٤هـ وبرز النورمان على مسرح الأحداث السياسية وهددوا بلاد بنى زيرى وبنى حماد وفرضوا سيطرتهم على حوض البحر المتوسط الغربى ، لكن ظلت التجارة معهم فى فترة حكمهم الأولى لصقلية .

لكن التجارة انقطعت معهم عندما بدأوا يشنون الغارات على سواحل المغرب الإسلامى كما عمل النورمان على فرض حصار بحرى على التجارة الحمادية ومنعها من الاتجار مع بلاد جنوب ايطاليا والبلاد الأوربية الأخرى .

ومن هنا فانه يتضح أن التجارة فى بلاد بنى حماد خلال فترة حكمهم قد سارت فى اتجاهات مماثلة لحركة الزراعة والصناعة ، غير أن أزمة التجارة الخارجية أثرت على الأوضاع التجارية الداخلية ، وكان التجار المغاربة أكثر تأثرا بسيطرة العناصر الأجنبية على صقلية ومالطة لاسيما بعد سقوط المهدية عاصمة بنى زيرى فى قبضة



النورمان وسقوط كل الموانى ومنها موانى خاضعة لنفوذ بنى حماد ومن هنا فان هذه التطورات التى حدثت فى المجال الزراعى والصناعى والتجارى قد تركت آثارها الواضحة على المجال الاقتصادى والاجتماعى والسياسى ، لكن رغم ذلك شهدت فترة حكم بنى حماد ازدهارا اقتصاديا دون غيره من بلاد المغرب .

## المنظور الثقافى والحضارى للدولة

اعتنت هذه الدولة بتنشيط العلم والعلماء مما ترك بصماته الواضحة على الحركة الثقافية والحضارية فى طوال البلاد وعرضها ، كما أن الحياة الثقافية والحضارية قد استفادت من هجرة القبائل العربية الهلالية من حيث هجرة العلماء من القيروان إلى القلعة وبجاية واستقرارهم فى مدن بنى حماد ورحيل البعض الآخر إلى المغرب الأقصى.

كما أن الهجرة الهلالية أيضا تركت بصماتها واضحة جلية على الشخصية الثقافية والعلمية والحضارية فى البلاد مما أثر فى اللسان وتعريب أوجه النشاط الحضارى والثقافى للبلاد وتعميق اللغة العربية فى مختلف الأنشطة الثقافية والحضارية وظهرت الأنشطة الحضارية بصورة عربية إسلامية جزائرية إذ أن الحضارة الحمادية وقعت تحت تأثير المظاهر الحضارية والثقافية القادمة من المشرق الإسلامى وأنها تركت آثارها بحيث أنه لم يكن لها نظير مماثل فى بقية أوطان البربر ، وهى شاهد قوى على رقى الحضارة الإسلامية ذات الأصول القوية الراسخة فى وجدان الشعب الحمادى الجزائرى .

ومن هنا فقد شهدت فترة حكم بنى حماد طوال القرن الخامس والسادس الهجريين / الحادى والثانى عشر الميلادى بعدا جديدا فى غلبة الطابع العربى على أوجه النشاط الثقافى والحضارى فقد طبعت المفاهيم البربرية من وجهة المنظور التاريخى منذ القرن الثانى الهجرى بالطابع العربى الإسلامى لكنه لم يكن عميق التوطن فى البوادى والتلال والسهول ولم تكن الموجة العربية الأولى تغطى الفرشة الواسعة لأرض

المغرب فجاءت الغزو الهلالية فى القرن الخامس الهجرى لتقلب موازين القوى الثقافية وتطبع البلاد بالطابع العربى الخالص ، ذلك لان اللغة العربية لغة القرآن الكريم قد حظيت باحترام المغاربة البربر بحيث صارت هى لغة الحديث والخطابة بل هى لسان حال الأدب والعلم وعنوان الثقافة والحضارة ومراسيم الملك والسلطان والمراسلات وعنوان التطور الحضارى والتقدم الثقافى ، وقد نتج عن الغزوة الهلالية التى كانت حدثا ضخما زلزل أركان المغرب الإسلامى وترك بصماته جلية ظاهرة بل خير شاهد على آثار المغرب الثقافية والحضارية والعلمية إذ أن الحياة الثقافية والسياسية والاجتماعية والحضارية ، ما كان لها أن تزدهر فى بلاد بنى حماد إلا فى ظل حركة تعريب الثقافة ولقد شجع الحماديون توطن القبائل الهلالية نظرا لان الحماديين كانوا يشعرون بحاجتهم إلى ذلك للعمل على نشر اللسان العربى وطبع البلاد بالطابع العربى نشرا للثقافة العربية الإسلامية فى ربوع بلادهم وفى ذلك يذكر عثمان الكعاك فى كتابه بلاغة العرب فى الجزائر ، لقد وقع على بنى حماد عبء العمل فى وضع حجر الأساس لتعريب البلاد والسير بخطى واسعة فى هذا المضمار بل بذل جهودا كبيرة مستغلين وجود العناصر العربية الهلالية ومن هنا لم يدخلوا فى صراع معهم بل اعتمدوا عليهم كل الاعتماد فى طبع البلاد بالطابع العربى وقد ساروا على هذا النهج طوال فترةحكمهم وشهد عصر بنى حماد دخول المغرب الأوسط والجزائر ، فى عصر ثورة التعريب لاسيما بعد أن تغلغل الهلالية فى مختلف الأنشطة اليومية وكانت تجمعاتهم فى العديد من القرى والبوادى والواحات الجنوبية ( اقليم الزاب ) وفى التلال والجبال ونتج عن ذلك انصهارهم فى بوتقة المجتمع الجزائرى وامتزاجهم مع اخوانهم وبنى عمومتهم بربر البلاد .

ومن هنا طبع اللسان العربى المغربى فى لغة التخاطب والتعامل والثقافة والتعليم وظهرت بجاية وقسنطينة والمسيلة كعواصم ثقافية حضارية طيلة فترة حكم بنى حماد بعد أن لجأ إليها علماء افريقية من القيروان بعلمهم وثقافتهم وحضارتهم وكان طبيعيا



أن يقيم هؤلاء العلماء فى كنف سلاطين بنى حماد الذين رحبوا بهم وقدموا إليهم كل عون ومساعدة وأشركوهم فى مجالسهم العلمية ومناظراتهم التى كانت تقام فى القصور ويتم فيها مناقشة المشاكل الفقهية والتشريعية .

وقد ساعد انتشار مذهب الإمام مالك بن أنس القادم من افريقية والذى لقى قبولا من فئات الشعب المختلفة وصار هو المذهب السائد بعد أن أعلن حماد بن بلكين مؤسس الأسرة نبذ طاعة الفاطميين والخروج على المذهب الاسماعيلى الشيعى والدعوة للخلافة العباسية فى بغداد مما سهل انتشار المذهب على نطاق واسع وساعد على انتشار الثقافة الإسلامية السنية المالكية وتشريع القوانين وفقا لهذا المذهب السائد ، ولقد كان لعلماء القيروان الراحلين غربا إلى بجاية وغيرها من بلاد المغرب الأقصى الدور الأكبر فى رسوخ الثقافة العربية الإسلامية وانتشار المفاهيم الحضارية العربية ، كذلك لعبت عوامل أخرى ساعدت فى عمق الشعور العربى الثقافى والتى منها احتكاك الجزائر بالاندلسيين القادمين إليها وكذلك هجرة أهل المغرب الأدنى وصقلية وبلرم وغيرها من البلاد الإسلامية المختلفة مما ساعد على ايجاد الاجواء العلمية الملائمة لكى تفسح الثقافة الإسلامية العربية لها مجالا واسعا فى نفوس الرعية التى كانت تواقة إلى تلقى المزيد من الجرعات العربية الإسلامية بعد أن أصبح اللسان السائد لسانا عربيا .

ولقد لعب العلماء القادمين من مختلف الجهات المشار إليها سابقا دورا أساسيا فى نمو وازدهار الحركة الثقافية والفكرية الحمادية وذلك بما حملوه من علوم وآداب وفنون وفكر وثقافة وتعاليم إسلامية .

كل هذه المؤثرات ساعدت على تكوين الشخصية الثقافية الحمادية الجزائرية ، كما ساعد على رقيها وازدهارها ومن ثم بدأت بجاية العاصمة السياسية تصبح عاصمة الفكر والثقافة والعلوم والفنون فى المغرب الأوسط وبدأت تشد إليها الرحال طلبا للعلم والمعرفة وكثرت بها الجامعات والمعاهد العليا والمساجد التى تدرس فى حلقاتها العلوم

المختلفة وبدأت سمعتها العلمية وشهرة علمائها وفلاسفتها ومشرعيها ورجال فقهها تضارع بل تدخل فى طور التنافس مع العواصم الإسلامية المختلفة محاولة أن تجد لها مكانا يتلاءم مع وضعها العلمى الذى اكتسبته فى ظل الحكم الحمادى الذى أجزل العطاء وفسح المجال أمام العلماء مما جعلنا لانبالغ إذا قلنا ان بجاية قد بدأت تنافس غيرها من العواصم العلمية الإسلامية كالقيروان والمهدية وفاس ومراكش وسبتة وبلرم وقرطبة وطليطلة وبغداد والقاهرة وقد اكتسبت مدينة بجاية شهرة علمية واسعة فى المجال الرياضى حيث ازدهرت بها العلوم الرياضية كما أن المهدية اشتهرت بالكيمياء وتلمسان زادت شهرتها فى العلوم الطبية وكان لبجاية الفضل فى انتشار الأرقام العربية التى أخذها الأوربيون منها ولازالت تكتسب حتى الآن الأرقام العربية التى يستخدمها الأوربيون .

وكان فضل المهاجرين عظيما فى الحياة الثقافية الجزائرية إذ تركوا بصماتهم وآثارهم فى مختلف نواحى الحياة الثقافية والذين كان منهم ابن النحوى وابن حمديس الصقلى كما أن طائفة من مهاجرى الاندلس كالأمير الصمادحى وغيره قد قدموا إلى الجزائر فى ظل حكم بنى حماد وأثروا حياتها الثقافية والعلمية وكان لهم فضل لاينكر ولا يجحد فى مختلف الأصعدة العلمية .

وقد ساعد على ازدهار الحركة الفكرية الثقافية والعلمية أن الأمراء الحماديين كانوا يشجعون العلماء والمفكرين وقد شهدت مجالسهم العلمية كثيرا من المناظرات التى كانت تعقد فى القصور فى وقت السلم حيث كان الأمراء يؤثرون العلماء والمفكرين والمخترعين على سائر الطبقات والفئات . وكان للناصر بن علناس الحمادى خامس أمراء الأسرة الحمادية دور كبير فى هذا المضمار إذ كان أجل الأمراء شأنا فى مجال تشجيع حركة العلم والفكر والثقافة وكان أكثرهم مساهمة فى ترقية العلم والعلماء وتنشيطهم ودفعهم للعمل والابتكار .



وقد سجل التاريخ فى عصره صفحات جليلة من معالم التمدن والرقى الإسلامى بالجزائر والتوسع فى حركة العلم والتدريس ونبغ فى عهده طائفة كبيرة من العلماء والمفكرين والمخترعين الذين ضربوا بكل سهم فى مختلف الأنشطة العلمية ، وشهد عصره حركة انتقال العلماء والطلاب والمفكرين من العواصم والبلاد الإسلامية المختلفة إلى بجاية العاصمة الجديدة التى رحبت بكل القادمين من الشرق والغرب والشمال وخلدوا بأعمالهم العلمية صورة حية للحركة الفكرية والثقافية التى كانت تسود ذلك العصر .

وقد أصبح بنو حماد بالجزائر محافظين على قوة الدفع العلى والحضارى معتدين بنظام تشجيعهم وانتفعوا عن هاجر إليهم من أعلام الفقه والأدب والفكر والثقافة وصارت القلعة وبجاية وريثة لأمجاد القيروان .

وهكذا برزت بجاية فى مجال الحضارة وميدانها وتألق نجمها فى عالم الثقافة ومكنوا العلماء من متابعة تأدية رسالتهم بعيدين عما يتهددهم من مخاطر وعمل بنو حماد على حماية تراث قبيلتهم وجمعوا العلماء الذين وصلوا إلى بلادهم وجعلوا المغرب الأوسط قلعة فكرية وعلمية بل انهم حالوا بين العلماء ووصلولهم إلى بلاد المغرب الأقصى طمعا فى كسبهم واستفادة منهم وصانوا تراث الحضارة العربية الإسلامية التى انفرط عقدها فى القيروان وبسطوا ظل حمايتهم على العلماء وأخذت مدارس بجاية والقلعة وأشير والمسيلة بونة ( عنابة ) وجيجل وقسنطينة فى كنفهم تزداد تفوقا ويتألق نجمها حتى لقد قيل أن جامعة بجاية ورثت تقاليد القيروان وخلفتها فى مضمار الثقافة الإسلامية ، كذلك مما ساعد على نمو الحركة العلمية والفكرية وازدهارها أن قبيلة صنهاجة التى أقامت نظام الحكم الحمادى لم تكن قبائل هدم ، إنما كانت قبائل بناء مما ساعد على تشجيع الحركة الثقافية والفنية فقد شهد عصر بنى حماد بناء ثلاث عواصم مختلفة فى فترة لاتزيد عن قرن وربع من الزمان ( أشير والقلعة وبجاية ) مما ساعد على أن تكون حركة الفكر والثقافة متصلة بين هذه العواصم

بل بين مختلف العواصم العربية الإسلامية مما جعلها تعكس تقاربا فكريا وثقافيا وحضاريا يعتبر من حقائق الحضارة الإسلامية وإن كان الأدب والعلوم فى بجاية وافدا من الشرق أو من الاندلس .

ولقد تألق نجم الثقافة العربية الإسلامية وفنونها المختلفة فى ظل حكم بنى حماد الصنهاجى واختلطت المؤثرات المغربية القادمة من القيروان مع المؤثرات الشرقية القادمة من بلاد المشرق والاندلس وقد نتج عن هذا الامتزاج الحضارى أن تبلورت الثقافة الجزائرية وبدأت تظهر فى صورة ثقافة جزائرية تأكد طابعها المحلى بما يتلائم مع قيم وثقافة وتقاليد وأعراف المجتمع الحمادى فى ظل الثقافة والفن فى المغرب الأوسط ، ولكن الحقيقة التى يجب أن تقال أن المؤثرات الاندلسية قد انتشرت فى اقليم الساحل ومدنه المختلفة ومن هنا ظهرت هذه المدن ذات التاريخ المجيد فى الثقافة والحضارة العربية الإسلامية بل أن هذه المؤثرات استطاعت أن تنتشر جنوبا حتى ورقلان التى كانت تخضع للنفوذ الحمادى وداخل نطاق الدولة .

وكان الأمراء يستقدمون أعلام الفقه والعلماء والأدباء لتأديب بنيهم وحضور مجالس مشورتهم كما كان الأمراء فى نفس الوقت يشجعون الأطباء والفلاسفة والرياضيين والكيميائيين وكانت ظاهرة تشجيع العلم والعلماء مشهورة فى بلاط بنى حماد حيث كان كل أمير يقلد الأمير الذى سبقه فى هذا المضمار ، بل انهم اتخذوا الشعراء والأدباء جلساء وقربوا منهم الكثيرين وبصفة خاصة الناصر بن علناش الذى خلد اسمه فى قصائد شعرائه وشعراء ابنائه من بعده وأغدقوا عليهم وشجعوهم بكل وسيلة وعملوا على استقدام نخبة من وأجل العلماء من المشرق والاندلس وأفسحوا المجال أمام الأهالى لكى يجلسوا إلى الفقهاء والعلماء والأدباء والشعراء والذين كانوا يتخذون الائمة لتأدية الصلاة بهم وتدريس القرآن الكريم وعلومه فى احيائهم وبحكم حملة القرآن والحديث والفقه فى قضاياهم وحل مشاكلهم وكيف أن العلماء والفقهاء



كانوا ينتشرون فى مختلف المدن الحمادية ويحيط بهم الطلاب يأخذون عنهم العلوم والآداب وشهد عصر الحماديين مرحلة حافلة بالحركة والنشاط العلمى يفيض بالعلماء الذين تفرغوا لتدريس كل لون من ألوان الثقافة العربية الإسلامية والحياة العقلية والفكرية ، بل أن هذه الدولة قصيرة العمر طويلة الاثر الحضارى قد أدت للثقافة العربية الإسلامية خدمات جليلة حتى بدأ علماء المغرب الأوسط ينافسون علماء المشرق فى هذا المضمار كما ظهر لهم من إنتاج علمى يدرسه العلماء والأساتذة ويرويه الطلاب عن شيوخهم .

واعتنى الحماديون بالبناء والتشييد فأسسوا كثيرا من القصور ويتحدث ابن خلدون عن الناصر بن علناش قائلا أنه هو الذى حصر ملك بنى حماد وصير بجاية دار مملكته وجدد صورها وشيد جامعها وتألق فى اختطاط المبانى وتشييد المصانع وكانت معامل الحديد والزئبق تستخرج من جبل ازراو والنحاس من جبل كنامة والمرجان من مرسى الخرز ، واتخذ القصور وأجرى المياه فى الرياض والبساتين فبنى فى القلعة قصر المنار والملك والكوكب وقصر السلام وقصر اللؤلؤة وقصر أسيمون ، وقد ذكر هذه القصور التى تدل على حضارة بنى حماد المغاربة ببجاية بعض شعراء ذلك العصر كابن حماد، وابن حمديس الصقلى ويذكر جورج مارسى أن آثار الحضارة الحمادية لا نظير لها ببقية وطن البربر وقيل أن النورمان هم الذين بنوا قصورهم على مثال قصور الحماديين فى بجاية وقد بنى بنى حماد المساجد والقناطر وكان الحماديون قد نظموا وأحسنوا وأفننوا فى القلعة كل أنواع الفنون والزخارف وهى التى كانت على مقربة من المسيلة والتى كانت مركزا تجاريا هاما تلتقى عنده القوافل القادمة من افريقيا والسودان والذاهبة فى اتجاه تلمسان وتنسى وتاهرت والقيروان كما اشتهرت القلعة بمنسوجاتها الرفيعة .

وقد ازدهرت الحركة الأدبية أيام الحماديين بسبب تشجيع الأمراء للأدباء والعلماء مما أدى إلى انتعاش الحركة الثقافية فى جميع الأوساط وقد اشتهر من أدباء

هذه الدولة وعلمائها كثيرون منهم أبو عمران الوهرانى المتوفى ٤٢٩ هـ والذى أخذ عن أعلام الفقه وتضلع فى الرياضيات وكان بصيرا بالطب ماهدا فى العلاج وسافر إلى الاندلس حيث مات هناك ، كذلك أبو القاسم السكرى المتوفى ٤٦٥ هـ وكان متخصصا فى القراءات وارتحل فى سبيل ذلك إلى جميع البلدان الإسلامية إلى أن استقر فى مدرسة بنسايور بالقرب من الموصل بالعراق فدرس بها وتوفى بها واشتهر مؤلفاته كتاب الكامل فى القراءات وقد ارتحل ابن الرمامة المتوفى عام ٥٦٧ هـ إلى الاندلس حيث التقى مع ابن رشد الفيلسوف وأخذ عنه ثم عاد إلى المغرب واستوطن فاس مفضلا عدم العودة إلى ديار بنى حماد وتولى القضاء بها إلى أن توفى هناك أما يوسف الورجلانى المتوفى عام ٥٧٠ هـ فقد قرأ مبادئ العلوم ثم ارتحل إلى قرطبة بالاندلس وأخذ عن علمائها وأدبائها ثم عاد إلى بلاده واعتكف فى منزله على التدوين حتى أخرج كتبا عدة أشهرها كتاب ( مروج الذهب فى الفلسفة ) كما نبغ بعض من أهل الذمة الذين تمتعوا بعطف الأمراء ورعاياهم وتمكنوا من الاستنارة بالثقافة العربية الإسلامية وكان أشهرهم اسحق بن يوسف الملقب بالكاتب .

وقد كانت قصور الأمراء خير شاهد على رقى الحضارة الإسلامية ذات الجذور العميقة بالجزائر بالإضافة إلى أن الموسيقى قد ازدهرت بها وكان النورمان مغرمين بالحضارة الحمادية فأقاموا وشكلوا قصور بلرم على شكل قصور بجاية وكان قصر زيزية، وكوويه ببلرم شديدى التشبه بقصور اللؤلؤة والكوكب والميمون والتى سبق الإشارة إليها والتى كانت بجاية تزدهر بالعديد من القصور ذات الروعة والابهة والجمال .

واهتم الحماديون بالفنون الحميلة وأبدى استعدادهم للبذل بسخاء فى سبيل رقى هذه الخصائص الفنية الجميلة التى زادت الحياة بهجة وجمالا وكان النقش والتصوير والموسيقى يحظى بالاهتمام الأكبر حيث استقدموا خلاصة مهندسى هذه الفنون من الاندلس وجنوب أوربا وغيرها وقد ظهر ذلك فى فن البناء والمعمار الذى قام ببنائه



مهندسون جزائريون كبوبناش وغيره وقد وجد كثير من الآثار التى تزدهر بهذه الفنون .

ويبدو أن صناعة الفخار والخزف قد بلغت مبلغا عظيما كما يظهر عليها تأثير مصر فنا وعلما وعملا فقد عثر على أوانى من الخزف المطلى فى بجاية والقلعة وعليها كتابات عربية بخط رائع كما عثر على قارورات من الزجاج وأدوات منها وهذا كله يشير إلى رقى الصناعة الخزفية والزجاجية وتقدم علم هذه الفنون فى ذلك الوقت من القرن السادس الهجرى الثانى عشر الميلادى ، كما أن الزخارف الفنية بالقصور تدل على تقدم فن النقش والتصوير والنحت والطلى والتزيين ، لكن الموضوع هذا فى حاجة إلى زيادة فى البحث نظرا لقلة المصادر التى تتحدث عن هذا اللون من ألوان النشاط الحضارى فى العهد الحمادى لاسيما فى مجال الفنون الزخرفية والعلوم الهندسية والمعمارية .

وكانت العاصمة بجاية تمثل مرحلة التحضر والازدهار الحضارى والانفتاح على العالم الخارجى كعاصمة حضارية ثقافية تختلف عما سبقها من أشير والقلعة وشهدت بجاية حضارة زاهرة فى عهد الناصر بن علناش حيث بدأ يقوم بعملية تحضر شاملة فأنشأ دارا للصناعة الحربية والبحرية وأنشأ السفن حتى صارت حاضرة الحواضر فى بلاد بنى حماد .

وفى عهد سلفه المنصور بن الناصر استمرت عملية تحضر المدينة ورقيها بل أنها كانت الملاذ الذى استقر به أبناء افريقية بعد خراب القيروان ولما كان عام ٥٣٨ هـ اقتلع يحيى بن العزيز ما بقى من آثار خالدة فى القلعة ونقل أدوات الزخارف إلى بجاية ويعتبر العصر الحمادى ٥١٥ – ٥٤٧ هـ قمة ما وصلت إليه بجاية من تطور حضارى بعد أن ساعدت الظروف السياسية السائدة فى دولة المرابطين وبنى زيرى وما أصابها من انهيار سياسى قد أعطى الفرصة لبنى حماد ليحتلوا مركز الصدارة فى المغرب الإسلامى نظرا لضعف القوى المحيطة بهم مما جعل بجاية تمثل مرحلة الوصول إلى مدى حضارى

وثقافى لم تصل إليه الدولة من قبل وجعل دولة بنى حماد تكون محور المغرب الإسلامى وبجاية مركز الحضارة والثقافة والعلوم . ومن مظاهر التقدم والرق الحضارى ما عثر عليه من اثار فى العاصمة ومن معالم ذلك ما جاء فى قصر البحر أو دار البحر من بركة كبرى يناهز طولها ستين مترا فى عرض خمسة عشر مترا وتحيط بها القاعات والرواقات وتشتمل على بدائع الزخارف الفنية المليئة بالرخام المنقوش والزينة بالأشكال الهندسية الجميلة والنادرة بل والعجيبة وكذلك قصر الأمير والذى كان منزل الأمراء ودار سكانهم فهو آية من آيات الفن المعمارى العربى الأصيل الذى يكتسب سمات أندلسية مصرية شرقية ، ومثل ذلك صرح المنار الذى بناه الفنان بوبتاش وهو صرح من صروح التقدم الحضارى فى فن المعمار والجمال إذ كان يشتمل على مرايا لإرسال العلائم ( العلامات ) فى النهار وتوقد النار بأعلاها ليلا لإرسال إشارات الحراسة من منارته إلى منائر أخرى على الجبال المقابلة وقد انتشرت هذه الطريقة فى العصور الإسلامية وأخذها الحماديون وحسنوها على توالى العصور وهذه الآثار خير شاهد على تقدم تلك الفنون فى عصر الحكم الحمادى لبلاد المغرب الأوسط .

وقد نجح العصر الحمادى فى أن يقدم فى مجال العلوم الشرعية عددا من العلماء فى مختلف الفروع بالإضافة إلى أن المذهب المالكى كان قد أضفى لونا من ألوان الثبات الفكرى فى أنحاء المغرب الإسلامى وبرزت مدرسة الحديث إلى جانب دراسة علوم القرآن الكريم ولقيت من المغاربة جل الاهتمام وشهدت ساحة العلم والفكر فى البلاد الحمادية ظهور العديد من علماء الحديث وأعلام الفقه والتفسير والفكر وغيرهم فى شتى أفرع العلوم المختلفة بل انه من الظواهر الجديره بالنظر والذكر أن هذه العلوم التى تسمى بالعلوم النقلية كانت مختلطة باعتبارها علوم عقيدة وقد ذاعت شهرة العلماء فى مختلف أنحاء مدن الدولة الحمادية الكبرى فقد وجد فى بجاية والقلعة والجزائر وتاهرت وبونة وأشير وقسنطينة والمسيلة والزاب علماء أجلاء قصدهم طلاب العلم من كل صوب وحدب يجدون لديهم ما يروى ظمأهم للاستزادة من بحور العلم



المختلفة وقصدهم طلاب المغرب الأدنى والأقصى والاندلس بل طلاب من مصر شدوا الرحال لدراسة علوم الرياضيات والطب وقد كان لبعض هؤلاء العلماء شهرة واسعة على امتداد العالم الإسلامى .

وقد أبدى أمراء بنى حماد اهتماما زائدا بنشر التعاليم الإسلامية وعلوم الدين الإسلامى وكان المذهب المالكى يتصدر المذاهب والعقائد فى المغرب الإسلامى ، على الرغم من أن صنهاجة قد أصبحت حليفة للفاطميين ودعمت حكمهم ، لكنهم مع هذه العلاقة لم ينجح الفاطميون فى أن يكسبوا عقول أهل المغرب وكان المذهب المالكى قد انتشر وبسط نفوذه على سائر المذاهب الإسلامية الأخرى وفشل الفاطميون أصحاب المذهب الشيعى الاسماعيلى فى هذا الشأن ، بل أن حكام بنى حماد فى قطعهم صلاتهم بالفاطميين فى القاهرة كانوا يتقربون إلى الشعب الجزائرى وأن استغلوا المذهب الشيعى سياسيا إلا أن المذهب المالكى كان لسان حالهم لدى الجزائريين فى عصور بنى حماد بل كان هو المذهب السائد على المستوى الشعبى ويلقى من المسئولين كل رعاية فأصبح هذا المذهب مصدر التشريع والأحكام فى البلاد ولقيت علوم القرآن والسنة من تفسير وقراءات وفقه وحديث وتصوف اهتمام الدولة والأهالى وكانت المساجد والزوايا والأربطة المكان الخصب لازدهار العلوم كلها .

وقد كان المسجد والزاوية يلعبان دورا هاما فى الحركة التعليمية فى البلاد ومن ذلك فاننا نجد أن الدولة قد أيدت اهتماما زائدا بالتعليم على الرغم من قلة نصيبها من الحضارة والتثقيف والعلم لكن ولاة الأمور بها قد بذلوا أقصى ما فى وسعهم للوصول بالبلاد إلى ركب التحضر والرقى ومن ذلك نجد أن الأمير حماد بن بلكين مؤسس الأسرة الحمادية عندما اختط القلعة انتشرت فيها المساجد والفنادق وكان المسجد يلعب دورا كبيرا فى التعليم فى تلك الآونة من القرن الخامس الهجرى وكان الشيوخ والائمة والاساتذة يقومون بالتدريس فى المساجد ووجدت الزوايا التى كانت بكثرة فى بلاد

الجزائر وكانت الكتاتيب تسهم بنوع من التعليم بل كانت أشهرها فى تحفيظ القرآن الكريم وتدريسه للصبيان والأولاد الصغار وكانت القلعة عامرة بالكتاتيب إلى جانب كونها مصلى كبير تقام فيه الصلاة .

وفى المدن الكبرى كبجاية كان يقوم التعليم الجامعى وقد أنشأ الناصر ابن علناش فى بجاية معهد سيدى التواتى ( نسبة إلى واحة توات ) الذى كان يحتوى على ثلاثه آلاف طالب تدرس فيه العلوم والمواد المختلفة منها علم الفلك . وقد قصدها العلماء والطلاب من الاندلس والمغرب الأقصى ومدنه المختلفة من المغرب الأدنى ( افريقية ) .

وقد أنجبت علماء أفذاذا وبلغت فى ذلك العهد مبلغا لم تبلغه مدرسة معاصرة .

وقد عرف علماء هذه المدرسة وهى حديثة النشأة وقد تفوقت تفوقا ظاهرا لما كان يوليه الناصر بن علناش باهتمام شديد بها وكان يصرف عليها بسخاء وقد وفد عليها العلماء والطلاب من كل فج وقد نهضت تلك المدرسة ( الجامعة ) نهضة موفقة فى عهد سلفة المنصوروابنه العزيز ويحيى بن العزيز آخر خلفاء بنى حماد وقد تفوقت هذه المدرسة فى تدريس علم الفقه والرواية والحديث فى ذلك العصر تفوقا عظيما وقد شهدت تلك المدرسة عددا كبيرا من العلماء الثقاة المتفرغين للدراسة حيث كان بها أكثر من ثلاثة آلاف طالب .

وقد ارتفع شأن الفقه والحديث والأدب واللغة والشعر والفلسفة والطب والكيمياء والرياضيات وذاع صيت هذه المدرسة فى الأوساط الأوربية فى العصور الوسطى حيث عرفها الناس لاسيما أن الأوربيين كانوا كثيرى التردد على بجاية .

وقد تركت هذه الحياة العقلية الرفيعة المستوى التى وصلت إلى درجة التخصص فى فروع عديدة من المعرفة والفكر أثرا بعيدا فى شعب الجزائر الحمادى إذ أقبلوا على الثقافة والعلم يأخذون منها ما طاب لهم والاستفادة من العلوم الجديدة التى تدرس فى تلك الجامعة وأصبح الطلاب أكثر استعدادا لتقبل حياة علمية رفيعة المستوى والفكر



لاسيما أن الاساتذة كانوا يعملون على التفتح الذهنى العقلى للطلاب لتلقى علوم الثقافة العربية والتراث الإسلامى بمختلف فروعه العلمية لكى يتابعوا الحركة العلمية العالمية ولا يتخلف الركب الحضارى فى بلادهم عما جاورهم من بلاد ومن هنا فتحت أمام الطلاب آفاق جديدة فى مجال العلم وأقبل الجميع على التعلم بنفوس راضية وعقول واعية بدليل وجود أكثر من ثلاث آلاف طالب فى تلك الجامعة فى ذلك الوقت من القرن السادس الهجرى .

كما عرفت العاصمة والمدن الكبرى المكتبات العامة وخزانات الكتب وكانت بجامع المنار بالقلعة مكتبة مليئة بالكتب الواردة من بلاد الشرق الإسلامى والمغرب والاندلس وفى عهد العزيز بن المنصور كان يحاضر فى هذه الجامعة ( جامعة سيدى التواتى ) علماء من الاندلس والمشرق والقيروان ( افريقية ) فقد ازدهرت الحياة العلمية ازدهارا كبيرا حيث احتلت بجاية منزلة عالمية لما بها من العلماء حتى اشتهروا فى انحاء العاصمة بجاية وقد كان لبجاية مكانة كبيرة بحيث أصبحت كعبة العلماء والأدباء والشعراء ومقصد طلاب العلم فقد ارتحل إليها ابن حمديس الصقلى وابن الفضل النحوى وبرز العلماء والفقهاء والشعراء والمؤرخون والأطباء والرياضيون وغيرهم فى بجاية والقلعة وطبنة وأشير والزاب والمسيلة برزوا لا عهد للجزائر به وقد حدد عثمان الكعاك العصر الذهبى للعلوم فى الجزائر بأنه العصر الذى يبدأ مع أوائل القرن الخامس الهجرى وليس هذا العصر سوى الفترة المتألقة التى عاشتها الجزائر فى كنف الدولة الحمادية .

وقد تصدرت علوم اللغة العربية والآداب مجالات النشاط الفكرى فى الدولة الحمادية وكان الأدب يلقى عناية كبيرة واحترام كل الطبقات بعد أن أشتغل به السلاطين والوزراء والأمراء ورجال الدولة والعلماء وعلية القوم .

وظهرت فى البلاد طائفة من الأدباء والكتاب الذين برعوا فى الكتابة وأحاطوا بأسرار اللغة العربية فتهافت عليهم الأمراء والسلاطين يستخدمونهم فى دواوين الدولة

ومصالحها وشهدت بجاية جماعات كثيرة من الأدباء وفحول الشعراء وذاع صيت بعض منهم مثل ابن حمديس وابن حماد وكان انتاجهم غزير الأدب متمكنا من البلاغه.
ولقد كانت العربية الفصحى هى لغة الثقافة والفكر والشعر والمكاتبات وكانت توجد بقايا لغة بربرية فى ذلك الزمن المتقدم فى القرن الخامس الهجرى ، بل بقيت بعض من اللهجات البربرية معروفة ومتداولة وكانت اللغة البربرية يتخاطب بها إلى جانب العربية فى البلاط السلطانى أو الأميرى ( لاتزال اللغة البربرية مستخدمة حتى الآن فى الجزائر ولكن لايزيد عدد المتكلمين بها عن ١٠ ٪ من مجموع الشعب الجزائرى ) لكن سيادة اللغة العربية الفصحى جعلت من الجزائر المحادية تقدم مجموعة كبيرة من الكتاب والشعراء واللغويين وقد برع فى علوم اللغة طائفة كبيرة من الأعلام وكذلك فى علم النحو والصرف والعروض والبلاغة .

ولقد أقبل الأمراء والنبلاء وعلية القوم على الثقافة كما أقبل عليها عامة الشعب الحمادى وظهر من بين الأمراء من نبغ فى هذه العلوم وازدهر المجتمع الحمادى الذى كان مفتوحا وملتقى كل القادمين إليه من الاندلس ومن المشرق العربى وبلاد المغرب المجاورة وكان المنصور بن الناصر الحمادى يعيش فى بلاط يشبه البلاط الاندلسى نظرا لكثرة الاندلسيين القادمين إلى البلاد من جراء المحن المنتشرة فى الاندلس ، ولعبت بجاية دورا ثقافيا وعلميا وحضاريا وفكريا لايقل عن القيروان وأصبحت مركز العلوم فى المغربين الأدنى والأوسط .

وكان الشعراء يمدحون الأمراء والقواد بقصائد شعرية ومنها مدح ابن حمديس للناصر بن علناش وكان الناصر بن علناش محبا للفنون والمعمار فأنشأ القصور الفاخرة وشيد البنايات الكثيرة واستدعى إليه العلماء والشعراء وممن قصده من شعراء عصره ابن الكفاه القيروانى .

وكذلك وصفه لقصر المنصور بن الناصر وكان الأمراء يغدقون عليهم الأموال ، لكن رغم هذه الصورة الحضارية المتقدمة فإننا نجد الدكتور حسين مؤنس لايعطى دولة



الحماديين قدرها فيظهر الدولة بأنها كانت دولة قبيلة يحكمها رؤساء قبليون فى صورة أمراء وانهم كانوا على صورة بدوية ساذجة وانهم بدو جفاه غلاظ أشاعوا جوا من القسوة والعنف لكن الحال تبدل غير الحال منذ عصر الناصر بن علناش حتى سقوط الدولة لاسيما أنه أقام الجامعة ( سيدى التواتى ) والتى كانت تضم بين جنباتها أكثر من ثلاثة آلاف طالب وهى التى ساعدت على تقدم ورقى المعارف فى البلاد ولايختلف اثنان فى أن الناصر بن علناش ( ٤٥٤ – ٤٨١ هـ ) قد شهدت البلاد فى عهده تفوقا حضاريا وعلميا وفكريا لم تشهده البلاد من قبل .

ولقد انتشرت الآثار الفنية فى مدن المغرب الأوسط ولكن العاصمة بجاية كانت أشد تألقا فى سماء الفن بسبب وجود بلاط الأمير وقصر الحكم وشهدت تقدم فن البناء والمعمار بسبب تنافس الأمراء والقواد وعلية القوم وأبناء الأسرة الحاكمة ورجال الدولة فى بناء القصور فحفلت بالعمائر المدنية والمساجد الكبيرة كما سبق القول كما أضحت مدينة بجاية من أهم مراكز الفن فى المغرب فى عهد الحماديين بل تكاد تكون قد تفردت بهذا النوع من الفنون ، بعد أن شهدت عصرا من الاستقرار السياسى والرخاء الاقتصادى مما أدى إلى رواج التجارة والصناعة والزراعة بالقيام بسك العملة عام ٥٤٣ هـ واصدار الدينار العزيزى الحمادى الذى لم يكن أحد من أمراء بنى حماد قد قام بسك العملة من قبله .

وقد عثر على دنانير حمادية فى القلعة وبجاية مضروبة عام ٥٤٣ هـ وكان الحماديون يطلقون عليها الدنانير الناصرية وقد كتب فى إحدى الوجهين بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله محمد رسول الله يعتصم بحبل الله يحيى بن العزيز بالله الأمير المنصور ، ضرب هذا الدينار بالناصرية عام ٥٤٣ هـ ( الإمام أبو عبد الله المنتصر لأمر الله أمير المؤمنين العباسى ) على الوجه الآخر وهذا يعنى اعتراف الدولة بالخلافة العباسية ، وعلى الوجه الآخر كتب الآية ( واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس بما كسبت وهم لايظلمون ) ، ولا إله إلا الله يعتصم بحبل الله يحيى العزيز

بالله الأمير المنصور .

وهذا أكبر دليل على قوة الدولة وثروتها الغنية مما جعل الأمير يحيى العزيز يفكر فى إصدار سكة محلية باسمه بدلا من السكة الفاطمية التى كان يتعامل بها الشعب الحمادى طوال فترة تأسيس الدولة وهذه المسكوكات التى عثر عليها تدل دلالة أكيدة على أن أكثر الآثار الإسلامية التى خلفها الحماديون لازالت معالمها باقية شاهدة على ما بلغته الدولة الحمادية من رقى وتقدم فى فن المعمار وظهر الفن الإسلامى فى المساجد كالمسجد الكبير فى قسنطينة الذى يعتبر أهم الانجازات المعمارية .

ولقد كانت الحضارة الحمادية من أرقى الحضارات المغربية فى النصف الأول من القرن السادس الهجرى وان النقوش الحمادية التى كانت منحوته فى المساجد والقصور، تركت آثارا واضحة على التقدم ، بل أن الحضارة الحمادية قد تركت بصماتها فى المجالات المختلفة وكان القلعة قد حظيت بعناية أمراء بنى حماد فقد ابتنوا فيها القصور وغرسوا الجنات وجلبوا إليها المياه ونظموا لها أبوابا لكن فى عام ٤٦١ هـ / ١٠٦٩ م نقل الناصر بن علناش العاصمة إلى بجاية التى صارت ملجأ الباحثين عن المعرفة والفكر والثقافة والعلوم والفنون الإسلامية . وقد ظهر هذا التقدم الحضارى والرقى الفكرى والعلمى فى ظل سياسة واضحة المعالم تقوم على التسامح والبحث عن كل ما يساعد على تقدم ورقى ونمو وازدهار الحياة فى الدولة وتشجيع البحث والاطلاع وكان من شأنه المساعدة على ظهور الدولة الحمادية بمظهر الدولة المتطورة المتقدمة حضاريا وعلميا وثقافيا وفكريا فى المغرب الإسلامى وفى ظل السياسة التى سار عليها الحماديون وهى عدم الدخول فى الصراعات العالمية التى تجرى على ساحة حوض البحر المتوسط الغربى وعدم اقحام الأمراء انفسهم فى المشاكل التى لا قبل لهم بها فهم لم يشاركوا أدنى مشاركة فى الدفاع عن مسلمى صقليه ومالطه والاندلس كما شارك جيرانهم الشرقيون بنو زيرى والغربيون المرابطون ، بل كانوا لاينظرون إلى الصراع الدائر من حولهم وهذا من أسباب تقدمهم إلا أنها كانت الطامة الكبرى عليهم أيضا فهم لم



يقدموا العون لابناء عمومتهم بنى زيرى الذين قدموا العون للمسلمين فى صقلية أو الاندلس فى حين نجد ذلك على العكس فى سياسة بنى زيرى الذين قدموا العون للمسلمين فى صقلية وشاركوا أسطول المرابطين فى الدفاع عن الاندلس ، كما أن الأسطول المرابطى شارك بنى زيرى فى الدفاع عن المسلمين فى صقلية .

لكن الحماديين نجحوا فى ترويض واحتواء القبائل العربية الهلالية والاستفادة منها فى صنع الحضارة العربية الإسلامية الحمادية ، ولقد أدت الحضارة الحمادية دورها خير اداء على امتداد حقبتها التاريخية التى حكمت فيها البلاد التى دامت ما يقرب من مائة واثنين وأربعين عاما تخللتها فى القرنين الخامس والسادس الهجرى .

وهكذا تجلت روائع الحضارة المغربية الحمادية فى بجاية العاصمة وما تركته من قصور جاءت آية فى روعة الفن وما تم من المساجد وما نقش فى المحراب والذى كان جامع قسنطينة والجزائر وبجاية روعة فى الفن وأبهة البناء بعد أن أقبلوا على بناء المساجد إقبالا منقطع النظير مما جعل الأمراء يعملون على الإكثار منها واستجلاب خيرة الصناع المهرة والمهندسين والذين كانوا ينفقون الكثير فى بناء المساجد ويوجهون جل عنايتهم إلى بناء صرح المآذن ويقبلون على المساجد يعمرونها وكان أهل الفن والصناعة يعملون بسخاء فى بيوت الله يدفعهم حبهم لبيوت الله إلى الاتقان والتجويد لذلك تجلت فى المساجد ومبانيها الضخمة الثروة والرخاء وروعة الفن الذى كان متأثرا إلى حد بعيد بالطابع الشرقى على الرغم من أنه لم يحرم الطابع الاندلسى .

ومن هنا فانه يمكن القول ان دولة بنى حماد عاشت ما يقرب من مائة عام وبالتحديد منذ عام ٤٦١ هـ حتى سقوط الدولة عام ٥٤٧ هـ فى ظل حياة إسلامية عربية شهدت تقدما باهرا على مختلف الأصعدة العلمية والحضارية والفنية والمعمارية والثقافية ، بل أن البلاد عاشت فترة من أزهى فترات تاريخ المغرب رغم قصر عمر الدولة ورغم انها كانت دولة محلية اقليمية انكفأت على نفسها وحققت رخاءً وتقدما

لشعبها وعاشت الحضارة الحمادية فى ظل حكم بنى حماد مستفيدة من كل الظروف العالمية والاقليمية المحيطة بها ومن هنا كان القرن الخامس والسادس الهجرى صورة حية فى الجزائر للحياة والإسلامية الراقية .

## البناء والتشييد وهندسة العمارة الإسلامية

رغم قصر العمر الزمنى الذى حكمت فيه دولة بنى حماد إلا أنها أنجزت الكثير من المهام العمرانية وتقدمت فى فن البناء والعمارة والهندسة فقد شهدت سنوات حكمها ظهور ثلاث عواصم سياسية قام الحماديون بتشييدها وهى أشير العاصمة الأولى ثم القلعة التى استمرت من عام ٤٠٨ حتى عام ٤٦١ هـ والعاصمة الثالثة بجاية التى استمرت من عام ٤٦١ هـ حتى عام ٥٤٧ هـ . وقد اهتم الحماديون ببناء المدن التجارية واعتنوا بالبناء والتشييد وأسسوا العديد من المدن الأخرى ووسعوا فى مساحتها وأضافوا إليها أحياء جديدة وتركوا بصماتهم المعمارية والحضارية فى كل من بلدان المغرب الأوسط كأشير والقلعة وبجاية والجزائر وبونة وطبنة والمسيلة وبنى حمزة وجيجل ومرسى الحرز ومرسى الدجاج وغيرها من المدن المختلفة .

وقد تجلى دور الحمدانيين فى القرنين الخامس والسادس فى توسيع هذه المدن واستحداثها للعواصم الثلاث وتشييد الأسوار العالية وبناء القلاع الحصينة ومنها القلعة الحمادية التى كانت من أعظم القلاع التى أنشأها المسلمون فى تاريخهم وهى تقارن بقلعة حصن الاكراد فى الشام التى استولى عليها صلاح الدين الأيوبى وقلعة صلاح الدين الأيوبى فى القاهرة فهى فى حقيقة الأمر مدينة كاملة ذات أحياء ومساجد تتوسطها قصبة أى أنها هى حصن منيع داخلى ولازالت بقاياها قائمة حتى اليوم فى الجزائر خير شاهد على عصر بنى حماد ودورهم الرائع فى البناء والتشيد ، إضافة إلى



بنائهم المساجد الكبيرة والكثيرة التى تدل على عظمة الاهتمام ببيوت الله فى الأرض وكذلك بناء القصور الكثيرة التى سبق الإشارة إليها فى صفحات سابقة من هذا البحث واقامة الجسور مما يدل على تقدم الهندسة الإسلامية المعمارية فى القرنين الخامس والسادس فى ظل حكم بنى حماد وهى تصور العناية الكبرى بالبلاد فى النواحى المعمارية وتعكس اهتمام بنى حماد بالعمارة وانشاء المدن الحديثة وفق مقاييس ومعايير العصر وقد استمر الحماديون فى تأسيس المدن والعواصم الجديدة خير ما تصور هذا الاهتمام تأسيس العاصمة الحديثة والعصرية بجاية وتوسيع الأمراء للمدن الأخرى وتحويل القلاع والحصون إلى مدن عامرة بالسكان والبناء والنشاط ولعل ما تصور تطور فن الهندسة المعمارية الإسلامية كثرة المبانى التى شيدت بالإضافة إلى ما سبق الإشارة إليه من انشاء المدن الجديدة وبناء المنازل للأمراء وسادة البيت الحاكم وموظفى الدولة وعلية القوم وبناء الأسوار حول القلاع إضافة إلى الحصون التى كانوا يحتمون بها وقت الشدة ولقد انتشر الحماديون من بناء القلاع والحصون طوال فترة حكمهم للبلاد وغلبت عليهم النزعة العسكرية وكان الطابع العسكرى هو الدافع وراء بناء القناطر الحجرية لكى يعبر عليها الجنود فى الذهاب للقتال والعودة إلى المدن وكان بعث الطابع الدينى هو الدافع وراء النشاط الواسع فى بناء أو اصلاح المساجد والجوامع وتجديدها واستحداثها بالإضافة إلى اهتمام الحمدانيين ببناء المدارس والمستشفيات والمصحات لعلاج المرضى وصرف الدواء للمرضى بالمجان ، وقد حرص على حظى هذا النشاط المعمارى والحركة الهندسية المعمارية التى كانت على أوسع نطاق أمراء الحماديين وسادة القوم وخاصة الناس وأصحاب الثروات والموسرين فى العاصمة بجاية والقلعة والمدن الكبيرة وعلى بناء القصور وقد تجلى تقدم فن البناء فى العاصمة والمدن الكبرى التى تعتبر عواصم الأقاليم والولايات فى ضخامة البناء وسرعة الانجاز وحسن التخطيط والمهارة الفنية .

وقد تميزت المبانى الحمادية بالفخامة وآثار القلعة وبجاية خير شاهد على ذلك

وقد فاقت جوامع بجاية وقسنطينة غيرها من الجوامع فى بلاد المغرب قاطبة فى الاتساع وفخامة المبانى وعظمة التأثيث والمفروشات وقيل عن جامع قسنطينة أنه يعد من أكبر الجوامع فى بلاد المغرب .

كذلك ظهر علم تخطيط المدن وهندسة التقسيمات وإصلاح الشوارع وتبليطها فى بجاية والقلعة وشهدت هذه المدن اتساع الشوارع وايصال المياه إلى المنازل والقصور وقد كانت القصور كل قصر منها مكتفيا بذاته بكل ما يحتاجه المرء من شؤون الحياة وتوصيل المياه إلى هذه القصور فى أقبية تحت الأراضى أو فى أقواس ممدودة عليها قنوات المياه .

ومن هنا نرى أن فن المعمار وفن تشييد القصور والمنازل وتخطيط الشوارع قد أولاه أمراء بنى حماد عناية فائقة حتى بلغ شأنا عظيما فى عصر الناصر بن علناس عندما أسس العاصمة الجديدة بجاية وافتتحها عام ٤٦١ هـ وكان تخطيطها وفق أرقى أساليب العصر فى البناء والتخطيط والتنظيم ومن انشاء الحدائق والبساتين وفى تصنيع واستيراد المواد التى يحتاج إليها البناء نفسه وفى تأسيس المساجد والجوامع الكبيرة والقصور وتزيينها وفيما يتطلبه كل ذلك من احتياجات لأدوات الترف وقد كانوا يطعمون المصنوعات الخشبية بالمعادن وتذهيبها وتذهيب النسيج والكتب فضلا عن اتخاذ الحلى وتذهيب الأوانى الفخارية ولعل هذه المتطلبات التى تحتاج إليها المنازل والقصور كانت وراء تلوين المعادن ويوضح تقدم فن صناعة المعادن فى مجال المعمار واستخدام الحديد والرصاص فى أنابيب لجر المياه إلى المدن أو توزيعها فيها .

ولم تكن النهضة المعمارية التى شهدها القرن الخامس والسادس الهجرى فى بلاد بنى حماد بأقل أثرا من الضرورات العسكرية ، فعمارة المساجد وبناء القصور والمستشفيات والمصحات تركت آثارا كبرى فى تطور الصناعات الخشبية بما احتاجته



من سقوف وشبابيك وأبواب ومقصورات ومنابر وأثاثات وتحف زخرفية وكانت السقوف الخشبية تزخرف وتنقش بالقصدير والأصباغ الملونة وكانت المنابر والمقصورات تزخرف بأشكال هندسية ونباتية وتطعم حشوات المنابر بالعاج والاثبوس والصندل وأنواع الأخشاب .

ومن كل هذا يتضح لنا أن الدولة الحمادية قد أبدت اهتماما كبيرا بالجبهة الداخلية وأولت عنايتها بالبناء والتشييد على اعتبار أن الدولة كانت فى فترة تأسيسها تعيش حالة من البداوة وعدم التقدم والرقى الحضارى .

إضافة إلى اهتمام الأمراء حكام البلاد بالعمل على دفع البلاد بخطوات سريعة متواصلة للانتقال بها نقلة حضارية سريعة لمحاولة اللحاق بركب التطور الحضارى الذى تعيشه بلاد بنى زيرى فى القيروان والمهدية لاسيما أن بلادهم كانت دار حرب بين زناتة وبينهم وانهم طردوا زناتة من المغرب الأوسط لكى يقيموا دولتهم هذه على أساس التوسع ولم تكن هذه البلاد إلا خرابا صفصفا ولذا نجد الاهتمام الأول ببناء المدن وتشييد القصور وانجاز الانجازات الحضارية فى فترات زمنية قصيرة لاتقاس بما كان يتم خلالها من أعمال معمارية ، بل أنهم شجعوا الناس على سكن العواصم الجديدة وقرروا اعفاءهم من الضرائب وتسهيل حركة الإقامة لهم بالمدينة مما ساعد على ازدهار هذه المدن وزيادة عدد سكانها وعدد القصور والمنازل الكبيرة بها . حيث ظل الناس مقبلين على البناء والتشييد من شتى الطبقات من أمراء بنى حماد وسادة البيت الحاكم وأرباب الخطط وعامة الناس وإن كان كل حى من أحياء العاصمة بجاية يسكنه أناس لهم طبائع وخصائص معينة فالقصر الأميرى يحيط به قصور أفراد الأسرة الحاكمة والوزراء وكبار القواد والقضاه ورجال الدولة ، أما عامة الناس فانهم كانوا يعيشون فى أطراف المدينة وكانت الاحياء مقسمة بين الصناع والحرفيين واشتهر كل حى أو قطاع بحرفة معينة .

وقد احتوت العاصمة بجاية على أربع وعشرين ألف أسرة وبها الجوامع والمدارس التى يكثر فيها الطلاب وكذلك أساتذة الشريعة والعلوم كما تحوى زوايا المتعبدين وحمامات وفنادق وبلمارستانات وكلها عمارات حسنة البناء وأسواقها جميلة وأهل بجاية على قدر كبير من الغنى والثروة .

ومن كل هذا يتضح مدى اهتمام حكام بنى حماد بالعمل على أن يتم فن البناء والمعمار ودفع حركة البناء والتشييد فى بلادهم وإظهار عاصمتهم بجاية بمظهر العاصمة التى لاتقل شأنا عن القيروان والمهدية وفاس ومراكش وغيرها من الحواضر الكبرى فى المغرب الإسلامى بل وفى العالم الإسلامى ولم يدخر الحكام الحماديون وسعا فى العمل على ذلك كلما أتاحت لهم ظروف السلم وحالة الرخاء الاقتصادى لدفع حركة النهضة المعمارية والحضارية فى بلادهم .

وقد أدوا واجبهم فى هذا المجال على خير أداء إذ أقاموا ثلاث عواصم فى فترات زمنية قصيرة وهذا دليل على حبهم وميلهم للبناء والتشييد وتقدم فن الهندسة المعمارية الإسلامية .



# الفصل الرابع

## الجيش والأسطول والشرطة فى عهد بنى حماد

قامت الدولة الحمادية منذ عهد مؤسسها الأول حماد بن بلكين بن زيرى (٤٠٥ – ٤١٩ هـ) على أساس القوة العسكرية حيث أنها كانت دولة بلا أرض لكن عندما أرسل المنصور بن بلكين أخاه حمادا للدفاع عن الحدود الغربية للدولة من خطر قبيلة زناتة البربرية العدو التقليدى والدائم لصنهاجة الزيرية فانه كلفه بالدفاع عن الحدود ودفع خطر هذه القبيلة ومحاولة طردها من المغرب الأوسط الذى كان المقر الأساسى لقبيلة زناتة بعد أن تولى حماد بن بلكين قيادة الجيوش لكنه لم يستطع القضاء على زناتة ، لكن عندما تولى باديس بن المنصور عام ٣٨٥ هـ وجه عمه حمادا لقتال زناتة وهنا استخدم حماد بن بلكين حاجة الدولة إليه واشترط أن يقيم ملكا على الأراضى التى يستولى عليها ويفتحها فى بلاد زناتة خارج نطاق الدولة الزيرية ومن هنا قامت الدولة على أساس التفوق العسكرى والسيطرة العسكرية وظلت طوال تاريخها السياسى تعتمد على قواتها الذاتية فى صد غارات القبائل البربرية المناوئة لها والدفاع عن حدودها السياسية .

وعندما ظهر الخلاف بين حماد بن بلكين وباديس بن المنصور عام ٤٠٦ هـ . فان حمادا حشد قوات عسكرية تزيد عن ثلاثين ألف جندى لم يستطيع أن يعود إلى القلعة عاصمته إلا بثلاثة آلاف فقط وهزمت قواته وتحصن بالقلعة والذى ينظر إلى رقم الثلاثين ألف جندى التى حشدها حماد بن بلكين يدل على أن الدولة منذ نشأتها الأول كانت دولة تعتمد على القوى العسكرية ، لكنها ربما لم تكن قوات مدربة على فنون القتال بدليل هزيمتها مرتين فى عهد باديس بن المنصور وفى عهد ابنه المعز بن باديس عام ٤٠٨ هـ حيث جرح حماد فى هذه المعركة ونجا بنفسه .

لكن عندما دخلت القوات العربية الهلالية أرض المغرب الأدنى عام ٤٤١ هـ في عهد المعز بن باديس وقبل الدخول فى معركة حيدران فان المعز استنجد بابن عمه القائد بن حماد صاحب القلعة الذى لبى طلبه وأمده بألف فارس مما يدل على استعداد الدولة الحربى للمساعدة وبقاء قواتها فى حالة تأهب دفعا للأخطار .

ولقد بنت الدولة قوات حربية قوية فى عهد الأمير الرابع بلكين بن محمد بن حماد ( ٤٤٧ – ٤٥٤ هـ ) والذى فرضت قواته نفوذها على القبائل واطاعته كل القبائل التى تدخل فى سيادة الدولة وكسر شوكة زناتة بل ان طموحاته العسكرية امتدت إلى المغرب الأقصى حيث هاجمت قواته مدينة فاس عاصمة المرابطين عام ٤٥٤ هـ وقاتل المرابطين مما اضطر يوسف بن تاشفين إلى الانسحاب منها .

ونظرا لقوة جيوش بنى حماد بعد الغزوة الهلالية فانهم بدأوا يبسطون نفوذهم على أقاليم فى المغرب الأدنى كانت تخضع للنفوذ الزيرى مثل جربة وتونس بعد أن خضعت تونس لحكم الناصر بن علناش الحمادى بالقلعة وولى عليهم أشهرهم عبد الحق بن عبد العزيز بن خراسان وفى عهد يحيى بن العزيز الحمادى عادت تونس لحكم بنى حماد عام ٥٢٢ هـ وهو عام سقوط المهدية فى يد النورمان .

وبذلك بدأ نجم بنى حماد فى الصعود بعد الغزوة الهلالية وكانت قواتهم العسكرية تدعم هذا النفوذ خارج حدود دولتهم وقد استغل الناصر بن علناش ضعف قوة بنى عمومته حكام المهدية فتوسع على حسابهم واستخدم قواته لاستقطاع أراضى من دولتهم بدلا من مساعدتهم للوقوف ضد الخطر الداخلى والخارجى .

كذلك كانت القوات الحربية كبيرة العدد ومجهزة بأحسن أجهزة العصر فى عهد سلفه المنصور بن الناصر ( ٤٨١ – ٤٩٨ هـ ) إذ أن هذا الأمير استخدم ما لديه من قوات كثيرة العدد والعدة وحارب بنى هلال وأخضعهم .



وكان المرابطون قد طمعوا فى مدينة تلمسان وهاجموها واحتلوها فأعد المنصور قواته وزحف إلى الحدود الغربية وحاصر تلمسان ولم يفرج عن حصارها إلا بعد أن تم الصلح وكان المنصور رجلا حربيا مظفرا فى جميع معاركه مع زناتة والمرابطين .

وفى عهد يحيى بن العزيز ( ٥١٥ – ٥٤٧ هـ ) كانت جيوشه قوية وأسطوله البحرى عظيما وقد حاول أن يفتح المهدية لكنه أخفق فى حصارها ( كما سبق القول فى صلب هذا البحث ) وهاجم تونس واحتلها واعتقل صاحبها أحمد بن عبد العزيز الخراسانى ولبثت دولة بنى حماد قوية بعض القوة حتى هاجمها عبد المؤمن بن على أول خلفاء الموحدين واحتل عاصمتها بجاية عام ٥٤٧ هـ .

ولاشك أن الدولة الحمادية كان لها جيش قوى متماسك يخضع لنظام عسكرى دقيق وكان الجيش يتكون من الصناجيين حكام البلاد والذين كانت فى أيديهم القيادة العسكرية والرتب العليا فى هذا الجيش وكان هناك جيش دائم يخدم فيه أهل البلاد الموالين للدولة الحمادية وكان الأمراء يستخدمون الرقيق العبيد ( سواء من السودان أو من الروم الفرنجة ) بعد تدريبهم واجزال العطاء لهم وترقيتهم فى أعلى الرتب مما ساعد الدولة على أن تحافظ على حدودها وتأمين التدخل الخارجى فى شئونها الداخلية .

وكان الجيش مقسما إلى عدة فرق وكانت فرقة بنى حماد تشكل أكبر الفرق العسكرية التى تدافع عن الدولة وتشترك فى القتال بالإضافة إلى الفرق الأخرى التى كانت تشارك مثل فرق السودان وكانت الدولة تحصل على حاجتها من العبيد لاشراكهم فى المعارك الحربية وكان امراء بنى حماد يعتمدون على تجنيد فرق من هؤلاء السودان يتخذون منهم حرسا خاصا يدين لهم بالولاء وقد استعان بهم بنو حماد واشتركوا معهم فى كل المعارك التى خاضوها وكانت هذه الفرق بمثابة فرق الفدائيين فى الوقت الحاضر إذ كان أفرادها يحيطون بالأمير فى قتاله .

كذلك استخدم بنو حماد فدقا من الروم والصقالية واعتمدوا عليهم فى القتال وكانت منهم طائفة من النصارى الذين اعتنقوا الإسلام دافعوا عن كيان الدولة الحمادية وكذلك بعض الفرق الاندلسية الذين قدموا إلى بجاية بعد فتح الناصر بن علناش الطريق أمامهم للسكنى فى العاصمة والمدن الساحلية وإن كان جل الاندلسيين قد خدم فى السفن البحرية أو التجارية نظرا لدرايتهم الفائقة بعلوم البحار وفن الملاحة .

بل أن الدولة استعانت فى بعض فتراتها التاريخية بأعدائها التقليدين من زناتة نظرا لحاجة القوات إليهم وذلك عندما هزم الناصر بن علناش فى موقعة سبيبة بينه وبين تميم بن المعز وتخلت عنه القبائل العربية الهلالية وبنو زناتة .

وقد اشتركت قبائل بنى هلال العربية فى القتال بجانب قوات بنى حماد لاسيما فى صد الهجوم المرابطى على تلمسان فقد شاركت القوات الهلالية فى الهجوم على حدود المغرب الأقصى والتوغل داخل حدود المغرب حتى فاس العاصمة ( انظر دور العرب الهلالية فى الدولة الزيرية الحمادية ) .

وكان لكل فرقة علمها الخاص وقوادها ، ذلك لان بنى حماد لم تكن قواتهم ومواردهم البشرية بكافية لخوض قتال على الجبهات الشرقية والغربية والوقوف بحزم أمام خطر زناتة .

بل الأكثر من ذلك فان الدولة لم تكتف بالاستعانة بهذه الطوائف فى قواتها العسكرية ، بل أن ظروف القتال كانت تضطرها إلى الاستعانة بمختلف الطوائف الذين كانوا ينخرطون فى صفوف الجيش طمعا فى القتال للاستشهاد أو كسبا للغنائم ، بل أن الدولة كانت تفرض على القبائل تقديم عدد من الأفراد أو الخيول لاستخدامها فى القتال أو تقديم المؤن والعون المادى دفعا للأخطار التى تحدق بالدولة .

ومهما يكن من قول بشأن قوة الحماديين العسكرية فانها لم تسهم بأدنى جهد عسكرى فى الدفاع عن حقوق المسلمين المسلوبة فى صقلية ومالطة وجزر البحر



المتوسط أو فى الاندلس ولم يذكر أى مصدر معاصر أو متأخر اشتراك قواتهم بجانب قوات بنى زيرى فى الدفاع عن صقلية وهى لم تكن بعيدة عنهم ، واشتراك قواتهم فى صد الهجوم النورمانى على السواحل المغربية بعد احتلال بعض مدنهم أو اشتراك قواتهم مع قوات المرابطين فى الذود عن حياض الإسلام والمسلمين فى الاندلس ولم تدخل فى صراع حقيقى مع المرابطين نظرا لضعف قوتهم بالقياس بالمرابطين ، لكن صراعها الدائم كان مع أبناء عمومتهم بنى زيرى حكام القيروان والمهدية هذا ما أشارت إليه المصادر التاريخية .

وعلى هذا فانه يمكن القول أن الدولة كانت تعتمد على الجيش وكان لها جيش متفرغ للقتال ودائم العمل فى أماكن تمركزه ، بالإضافة إلى دور القبائل فى المساندة والمساعدة فى وقت الحرب وكان عدد الجيش الحمادى فى عهد الناصر بن علناش ثلاثين ألف جندى وقت قتاله فى معركة سبيبة وكان لدى المنصور بن الناصر عندما هاجم تلمسان عشرون ألف مقاتل وقد لعب الجيش دورا أكبر من الأسطول فى حماية الدولة ولعب دورا فى تثبيت أركان الدولة وحمايتها وفى قتال القبائل من زناتة وبنى هلال وكان الجيش كما سبق القول ينقسم إلى فرق منها الفرسان والمشاه وحملة الدروع وكان للجيش راية عامة والقائد يعرف بعمامته رعلى رأسه كدليل على القيادة وقد اعتمدت الدولة على الجيش والأسطول فى حماية كيانها الداخلى والخارجى .

واعتمدت الدولة كذلك على الأسطول ويبدو أن القوة البحرية الحمادية لم تبلغ شأنا عظيما فى المجال البحرى العسكرى نظرا لان الأسطول الحمادى كان ينقصه الرجال والملاحين ومن هنا كانت هذه القوة أدنى من القوة الزيرية البحرية ، بل أنها رغم ما قام به الأمير الناصر بن علناش ويحيى بن العزيز من انشاء الأساطيل والقوى إلا أنهم لم يستطيعوا التفوق على الأسطول الزيرى وعلى الرغم من أن دار صناعة السفن التى أقامها الناصر فى بجاية وكذلك دار صناعة السفن فى مرسى الحرز كانت تنتجان

المراكب والسفن الحربية التى تغزو بلاد الروم وذلك بسبب توافر الخشب فى أودية بجاية وجبالها وكذلك توافر الزفت البالغ الجوده والقطران والمعادن إلا أن انتاج السفن الحربية كان محدودا لاعتماد المغرب الأوسط على البحرية التجارية فى تصريف منتجاته وكان هذا شأن الأسطول الحمادى .

وكانت دور صناعة السفن فى بجاية تقوم بصناعة السفن الحربية للأسطول التجارى وكما ذكر الأدريسى بأنه كانت فى بجاية دور صناعة السفن والأسطول ومعهما بعض المدن الساحلية وقد استطاعت تكوين أسطول بحرى يحمى شواطئها الطويلة وكانت المدن التى بها أساطيل بحرية حربية وتجارية هى بجاية وبونة ( عنابة ) والجزائر وجيجل ومرسى الدجاج وقد نجح الأسطول الحمادى فى أن يشارك فى الحركة التجارية العالمية ويلعب دورا بارزا فى نقل التجارة العالمية إلى موانى جنوب أوربا بعد أن وسعوا دور انشاء السفن فى بجاية وجددوا ما أهمل سابقا فى وهران وعنابة وباديس وأسسوا دورا جديدة فى المدن الأخرى الساحلة واحتلت بجاية مكان الصدارة البحرية وحافظ الحماديون على علاقات طيبة مع دول جنوب أوربا وفتحوا بلادهم لتجار المدن الايطالية وكانوا على علاقات طيبة مع المرابطين وشجعوا التجارة وكان من أثر حسن علاقاتهم مع المرابطين أن أضحت بجاية من أهم مراكز التجارة البحرية .

وكان ظهور الأسطول الحمادى فى تلك الفترة التى سبقت سقوط صقلية عام ٤٨٤ هـ يمثل عصر القوة البحرية الإسلامية وقبل ميل ميزان القوى البحرية الإسلامية لصالح القوى المغربية ، لكن بعد انتقال الصراع من السيطرة الإسلامية على حوض غرب البحر المتوسط ( أنظر كتابنا الإسلام والثقافة العربية فى أوربا ، القاهرة ، ١٩٧٩ ) ودخول عصر الحروب البحرية الطويلة والسيطرة البيزنطية والأوربية على حوض البحر المتوسط الغربى وانتهت السيطرة الإسلامية قبل نهاية القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى ، إلا أن الصراع بين ايطاليا ومدنها وصقلية وبلاد المغرب الأدنى



والأوسط كان قد دخل فى طور جديد ورغم جهود بنى حماد الواسعة فى المجال البحرى إلا أنهم لم يصلوا إلى مرتبة عالية فى قوة الأسطول بالقياس إلى الأسطول الصقلى أو الاسبانى الذى استفاد من خبرة المسلمين ، لكن الدولة الصغيرة ذات القوى البشرية المحدودة والامكانيات العسكرية كان أسطولها يتلاءم مع حجم الدولة وقوتها وثقلها السياسى والعسكرى فى ميدان الصراع فى ذلك الوقت والذى لم تساهم فيه القوى البحرية الحمادية بأدنى عمل عسكرى يذكر لها على صفحات الأمجاد الإسلامية ، ذلك لان أسطولهم لم يقم بأية جهود عسكرية لصد زحف الصليبيين على جزر البحر المتوسط الإسلامية ( صقلية ، مالطة ، سردانية ، كورسيكا ، ميورقة ، منورقة ، يابسة ) أو المساعدة فى دفع الخطر عن الاندلس أو الهجوم على صقلية بعد أن احتلها النورمان عام ٥٨٤ هـ أو جنوب ايطاليا ولم تظهر للحماديين أية أنشطة للدفاع عن شواطئ البحر المتوسط الجنوبى الممتد من طرابلس شرقا حتى طنجة غربا أو شواطئ المغرب الأوسط الذى يخضع لنفوذهم أو الاشتراك فى غارة بحرية إسلامية فى عرض البحر المتوسط كما فعل بنو زيرى أو المرابطون لكن الاهتمام التجارية كان هو الغالب على النشاط البحرى الحمادى .

ولم يكن للأسطول الحمادى دور إلا فى قتال أبناء العمومة حكام المهدية أو قتال حكام تونس ومن ذلك قيام القوات البحرية الحمادية عام ٥٢٩ هـ بقيادة قائد الأسطول مطرق بن على بن حمدون فى عهد الحسن بن على آخر سلاطين بنى زيرى فى المهدية بأن دفع يحيى بن العزيز الحمادى فائدة بعد أن جهز له قوات بحرية فائقة العدد لكى يحاصر المهدية بحرا وبرا وكان الأسطول عظيما كبيرا ولما أحس الحسن بن على بالخطر المحدق ببلاده ووقوع العاصمة لا محالة فى أيدى الحماديين لما أحس به من قوة الأسطول البحرى فانه اضطر إلى الاستعانة بالأسطول الصقلى وطلب من روجار الثانى حاكم صقلية أن يمده بأسطول بحرى للدفاع عن كيان دولته مما جعل أسطول يحيى بن العزيز يسرع بالرحيل إلى بجاية ، وكان الموقف فى تونس من أسباب تدخل

الأسطول الحمادى أيضا إذ نجد أن الأسطول الحمادى عندما فشل فى احتلال المهدية فانه اتجه إلى تونس للسيطرة عليها واخضاع حكامها أحمد بن عبد العزيز بن الخراسانى وأخذه أسيرا إلى بجاية .

كذلك فان الدولة الحمادية أبدت اهتماما شديدا بالمحافظة على الامن والأمان وتوفير أسباب الراحة والاستقرار للأهالى فاستعانت بقوات من الشرطة للمحافظة على شئون الأمن وكان صاحب الشرطة من المقربين لدى الأمير حاكم البلاد وكانت الشرطة تسهر على حراسة الأسواق والمدن والقلاع والحصون وأبواب العاصمة بجاية وتأمين طرق المواصلات الداخلية وحماية الموانى والسهر على راحة التجار وتوفير الأمن فى الفنادق التى ينزلون بها ويبدو أن الدولة قد عهدت إلى قبائل بنى هلال بحماية الطرق الصحراوية مع بلاد السودان وما بين وصول البضائع والسلع وجباية الأموال والضرائب وبذلك وفرت الدولة حماية المواطنين والقادمين إلى ديارها مما ساعد على استقرار الأوضاع الداخلية فى البلاد والضرب بقوة على أيدى اللصوص وقطاع الطرق والمعتدين على القوافل التجارية القادمة عبر الطرق الصحراوية وتوفر أماكن للاستقرار فى هذه الطرق الطويلة .

ولقد لعبت القبائل العربية الهلالية دورا فى تأمين هذه الطرق وكذلك فى حراسة مواكب الحجيج الذاهبة لأداء فريضة الحج فى الأراضى المقدسة الحجازية .

وعلى هذا فانه يمكن القول أن بنى حماد طوال فترة حكمهم والتى توالى على حكمهم تسعة أمراء بقدر ما توفر لهم من امكانات اقتصادية وبشرية فانهم عملوا على بناء دولتهم الصغيرة وفقا لما كان يتطلب ذلك العصر من تأمين البلاد خارجيا فاستعانت بالجيش والأسطول لحماية أمنها الخارجى وبالشرطة والقوات المساعدة له لحماية أمن الوطن والمواطنين الحماديين الذى ساعدت ظروف الاستقرار لكى تتبوأ الدولة وضعها بين الدول المجاورة والتى لم تكن تطمع لان تصبح قوة كبرى كالمرابطين



الذين خاضوا حروبا طويلة فى الاندلس دفاعا عن الإسلام والمسلمين ولا كأبناء عمومتهم حكام القيروان والمهدية الذى دافعوا بما لديهم من امكانيات فى صد عدوان النورمان على صقلية بإرسال الحملات البحرية والعسكرية لصد هذا الخطر إلا أن الظروف حالت دون تمكنهم من تثبيت قواعد الإسلام فى هذه البلاد .

وهكذا نرى أن هذه الدويلة لو قدر لها أن تسير سياسيا وفق متطلبات العصر وتتعاون مع جيرانها فى الشرق بنى زيرى والمرابطين فى الغرب لكان ذلك له آثار طيبة فى دفع الخطر الخارجى وفى التقارب مع القوى المعاصرة لدفع الخطر الموحدى الذى سارع بانهاء دولة المرابطين وهى لم تزل بعد دولة فتية .

وهكذا كانت الظروف التاريخية فى تلك العصور تلعب أدوارها فى محاولة التوسع كل طرف على حساب الطرف الآخر ولكن حقيقة الأمر أن بنى حماد لم تتح لهم الظروف ليفهموا الواجب الإسلامى الملقى على أكتافهم فى التعاون مع حكام القيروان والمهدية ومع حكام فاس فى صد غارات النورمان والفرنجة الأسبان ومن هنا كان القضاء على الدولة عام ٥٤٧ هـ وتوحيد المغرب الإسلامى من طرابلس شرقا إلى طنجة غربا تحت قوة الموحدين الفتية التى أعادت للمغرب الإسلامى وحدته وقوته .

# الفصل الخامس

## السياسة الخارجية لبنى حماد

حاولت الدولة الحمادية طوال فترة حكمها التى شهدت القرن الخامس والسادس الهجريين أن تحافظ على كيانها السياسى وأن تدعم أمنها الداخلى وتعمل على حماية اراضيها بعد أن حصلت على استقلالها واعترفت دولة بنى زيرى فى القيروان والمهدية بهذا الكيان شبه المستقل وذلك على اعتبار انها دولة محلية اقليمية لم تصل طوال فترات تاريخها الذى امتد مائة واثنين وأربعين عاما (٤٠٥– ٥٤٧هـ/ ١٠١٤– ١١٥٢م) والتى حاولت فى بعض فتراتها التاريخية أن تكون دولة عالمية ذات علاقات خارجية ولكن كيانها السياسى لم يكن يسمح لها أن تلعب هذا الدور مثل بنى زيرى أو المرابطين ومن بعدهم الموحدين فقد كانت دولة محلية اقليمية عاشت طوال تاريخها منذ أن أسسها حماد بن بلكين حتى سقوطها فى عهد يحيى بن العزيز الحمادى عام ٥٤٧هـ .

لكن رغم اعتراف بنى زيرى بالدولة الحمادية واستقلالها عن الكيان الاكبر فى القيروان والمهدية الا أن الشئون السياسية الخارجية كانت من نصيب بنى زيرى باعتبار ان دولة بنى حماد كانت فرعا لدولة بنى زيرى فى افريقية .

لكن رغم كل هذا فان ذلك لم يمنع من أن يكون لبنى حماد علاقاتهم السياسية والاقتصادية (التجارية) والثقافية الخارجية مع العديد من الدول المجاورة سواء فى المشرق أو المغرب أو بلاد جنوب أوربا رغم أنهم تقوقعوا داخل حدودهم السياسية والتزموا سياسة لاتتفق مع حركة التاريخ الاسلامى والظروف والاحداث العالمية التى تجرى فى تلك الحقبة التاريخيه وما تعرض له العالم الاسلامى من خطر القوى الاوربية



بعد طرد المسلمين من جزر البحر المتوسط وظهور حركة الاسترداد فى الاندلس بصورة قوية، فان بنى حماد لم يحركوا ساكنا لكل هذه الاحداث وربما التزام السكينة وعدم محاربة القوى الخارجية (قتال بنى زيرى والمرابطين) قد يكون منهجا سياسيا اختطه أمراء الحماديين بعد أن عقدوا المعاهدات مع النورمان والجمهوريات الايطالية والبعد عن المشاكل الخارجية والدخول فى صراعات مع القوى الخارجية ايثارا لسلامة بلادهم لكن هذا المنهج لم يكن يتفق مع الاحوال الاسلامية وصورة الصراع التى كانت تدور فى حوض البحر المتوسط الغربى وعلى الجبهة الشمالية والجنوبية .

### سياسة بنى حماد قبل أبناء عمومتهم بنى زيرى

كان حماد بن بلكين مؤسس الدولة شقيق المنصور بن بلكين الذى انحدرت معه الاسرة الزيرية فى القيروان والمهدية ومن هنا فان حماد كان من أهل الاسره الحاكمة وله حقوق سياسية مثل أبناء المنصور رغم انه كان يطمع فى أن يكون عرش القيروان له خلفا لابيه بلكين بن زيرى لكن حمادا كان طوال حياته يدين لكيانه السياسى لابناء العمومه فى المغرب الادنى ورغم حدوث بعض المصادمات بين باديس بن المنصور وابنه المعز بن باديس لكن الصلح قد تم بين الطرفين عام ٤٠٨هـ/ ١٠١٧م وبعد ذلك استمرت العلاقات حسنة بل ودية بعد أن تزوج ابن حماد الامير عبد الله شقيقة المعز ابن باديس لكن عام ٤٣٢هـ/ ١٠٤٠م شهد خلافا بين المعز بن باديس وابن عمه القائد حين طلب المعز بن باديس من القائد بن حماد مساعدة فى دفع الاخطار التى تحيط بالدولة فأرسل له القائد ألف فارس للمساعدة، الا أن كلا منهما قد فشل فى أن يقف صفا واحدا فى مواجهة الاحداث الخارجية كالغزوة الهلالية التى ارسلها خلفاء الفاطميين بالقاهرة أو الغزو النورمانى القادم من جزيرة صقلية، ونظرا لقصور سياسة بنى حماد الدولية وعدم تقديرهم للاخطار التى تحيط بالدولة الزيرية فى كلا العاصمتين

# الفصل الخامس

## السياسة الخارجية لبنى حماد

حاولت الدولة الحمادية طوال فترة حكمها التى شهدت القرن الخامس والسادس الهجريين أن تحافظ على كيانها السياسى وأن تدعم أمنها الداخلى وتعمل على حماية اراضيها بعد أن حصلت على استقلالها واعترفت دولة بنى زيرى فى القيروان والمهدية بهذا الكيان شبه المستقل وذلك على اعتبار انها دولة محلية اقليمية لم تصل طوال فترات تاريخها الذى امتد مائة واثنين وأربعين عاما (٤٠٥– ٥٤٧هـ/ ١٠١٤–١١٥٢م) والتى حاولت فى بعض فتراتها التاريخية أن تكون دولة عالمية ذات علاقات خارجية ولكن كيانها السياسى لم يكن يسمح لها أن تلعب هذا الدور مثل بنى زيرى أو المرابطين ومن بعدهم الموحدين فقد كانت دولة محلية اقليمية عاشت طوال تاريخها منذ أن أسسها حماد بن بلكين حتى سقوطها فى عهد يحيى بن العزيز الحمادى عام ٥٤٧هـ .

لكن رغم اعتراف بنى زيرى بالدولة الحمادية واستقلالها عن الكيان الاكبر فى القيروان والمهدية الا أن الشئون السياسية الخارجية كانت من نصيب بنى زيرى باعتبار ان دولة بنى حماد كانت فرعا لدولة بنى زيرى فى افريقية .

لكن رغم كل هذا فان ذلك لم يمنع من أن يكون لبنى حماد علاقاتهم السياسية والاقتصادية (التجارية) والثقافية الخارجية مع العديد من الدول المجاورة سواء فى المشرق أو المغرب أو بلاد جنوب أوربا رغم أنهم تقوقعوا داخل حدودهم السياسية والتزموا سياسة لاتتفق مع حركة التاريخ الاسلامى والظروف والاحداث العالمية التى تجرى فى تلك الحقبة التاريخيه وما تعرض له العالم الاسلامى من خطر القوى الاوربية



بعد طرد المسلمين من جزر البحر المتوسط وظهور حركة الاسترداد فى الاندلس بصورة قوية، فان بنى حماد لم يحركوا ساكنا لكل هذه الاحداث وربما التزام السكينة وعدم محاربة القوى الخارجية (قتال بنى زيرى والمرابطين) قد يكون منهجا سياسيا اختطه أمراء الحماديين بعد أن عقدوا المعاهدات مع النورمان والجمهوريات الايطالية والبعد عن المشاكل الخارجية والدخول فى صراعات مع القوى الخارجية ايثارا لسلامة بلادهم لكن هذا المنهج لم يكن يتفق مع الاحوال الاسلامية وصورة الصراع التى كانت تدور فى حوض البحر المتوسط الغربى وعلى الجبهة الشمالية والجنوبية .

## سياسة بنى حماد قبل أبناء عمومتهم بنى زيرى

كان حماد بن بلكين مؤسس الدولة شقيق المنصور بن بلكين الذى انحدرت معه الاسرة الزيرية فى القيروان والمهدية ومن هنا فان حماد كان من أهل الاسره الحاكمة وله حقوق سَياسية مثل أبناء المنصور رغم انه كان يطمع فى أن يكون عرش القيروان له خلفا لابيه بلكين بن زيرى لكن حمادا كان طوال حياته يدين لكيانه السياسى لابناء العمومه فى المغرب الادنى ورغم حدوث بعض المصادمات بين باديس بن المنصور وابنه المعز بن باديس لكن الصلح قد تم بين الطرفين عام ٤٠٨هـ/ ١٠١٧م وبعد ذلك استمرت العلاقات حسنة بل ودية بعد أن تزوج ابن حماد الامير عبد الله شقيقة المعز ابن باديس لكن عام ٤٣٢هـ/ ١٠٤٠م شهد خلافا بين المعز بن باديس وابن عمه القائد حين طلب المعز بن باديس من القائد بن حماد مساعدة فى دفع الاخطار التى تحيط بالدولة فأرسل له القائد ألف فارس للمساعدة، الا أن كلا منهما قد فشل فى أن يقف صفا واحدا فى مواجهة الاحداث الخارجية كالغزوة الهلالية التى ارسلها خلفاء الفاطميين بالقاهرة أو الغزو النورمانى القادم من جزيرة صقلية، ونظرا لقصور سياسة بنى حماد الدولية وعدم تقديرهم للاخطار التى تحيط بالدولة الزيرية فى كلا العاصمتين

(القيروان والقلعة ثم المهدية وبجاية) ونظرتهم الاقليمية الضيقة فانهم يتحلمون وزر ما حدث من أحداث وانهيار الدولتين .

ولقد كانت السياسة الحمادية منذ عهد الناصر بن علناش وبصفة خاصة بعد معركة سبيبة عام ٤٥٧هـ/ ١٠٦٤م سياسة التقوقع والانكفاء داخل الحدود السياسية المحلية وعدم التطلع إلى التوسع شرقا أو غربا دون النظر إلى ما يتعرض له أبناء عمومتهم بنى زيرى ومحاولة الوقوف معهم، فى حين أن الاحداث التاريخية تؤكد أن التعاون الحمادى الزيرى فى مختلف المجالات السياسية والعسكرية والاقتصادية كان يشكل خط دفاع قوى لحماية عروشهم وتنمية موارد بلادهم الاقتصادية والسكانية والثقافية والعلمية وفى ذلك تكون الفائدة المرجوة التى تعود بالنفع على كلا الطرفين والذى يستعرض تاريخ الدولتين منذ تأسيسهما يجد أن بنى زيرى كانوا أكثر حنكة ودراية وتقديرا للاحداث لذا نجد أنهم لم يفكروا مرة واحدة بعد الصلح الذى عقده العز بن باديس عام ٤٠٨هـ/ ١٠١٧م مع حماد بن بلكين فى العدوان على أراضى الدولة الحمادية أو ارسال حملات عسكرية إلى القلعة أو بجاية لكن الصورة تبدو عكسية حين ننظر إلى بنى حماد بعد الغزوة الهلالية نجد انهم قد شجعوا الحركات الانفصالية فى تونس والقيروان وغيرها من المدن الزيرية، بل مدوا لها يد المساعدة والعون وأخضعوهم لنفوذهم لكن على الجانب الآخر فان تميم بن المعز بتحالفه مع الاعراب الهلالية تمكن من احباط المؤامرات التى اعدها الناصر بن علناش الحمادى كما مكنه التحالف من هزيمة الناصر بن علناش بعد أن أغاروا على المهدية واستولوا على تونس والقيروان لذا وقف الطرفان وجها لوجه وصالح الحماديون بنى هلال وتحالفوا معهم وأشركوهم فى الجيش والشرطة والجباية وأقطعوهم الاقطاعيات نكاية فى أبناء عمومتهم ومن أجل التوسع شرقا فى بلاد بنى زيرى منتهزين المواقف السياسية التى تمر بها



البلاد، فضلا عن تواطئ بنى حماد مع زناتة والاعراب لقتال بنى زيرى فى موقعة سبيبة عام ٤٥٧هـ/ ١٠٦٤م .

لكن بنى زيرى لم يقفوا مكتوفى الايدى ازاء ما كان يدبره بنو حماد لهم من مؤامرات ومكائد لمحاولة الاستيلاء على عرش المهدية وتوحيد المغربين الاوسط والادنى فنجد تميم بن المعز (٤٥٢- ٥٠١هـ) عندما أحس بالثورة الداخلية حول العرش بين أفراد الاسرة الحمادية .وقيام أبى يكنى بن محسن بن القائد بن حماد بالثورة مطالبا بالعرش بدلا من المنصور بن الناصر فانه أرسل له ابنه ابراهيم على رأس قوات عسكرية وساعدت فى المطالبة بالعرش ووقف وراءه يدعمه بالجيش والعتاد والمال لكن المنصور بن الناصر انتصر على أبى يكنى بن محسن عام ٤٨٧هـ .

ولقد كان تدخل بنى حماد فى تونس وصفاقس وجربة يمثل أسباب الصراع بين بنى زيرى وبنى حماد، كما ان القيروان خضعت لنفس المصير، ولقد يكون وراء تحرش بنى حماد الدائم ببنى زيرى أسباب نفسية عميقة، وربما لان بنى حماد كانوا يشعرون دائما ان القيروان والمهدية وحكامها من بنى زيرى هم الذين يتصدرون للسيادة الخارجية وان بنى حماد لم ينالوا الاعتراف العالمى بهم كدولة وكيان سياسى مستقل وخضوعهم للسيادة الزيرية، لذا فاننا نراهم يباركون الغزوة الهلالية ويتحالفون معها فانهم وجدوا فيها ضالتهم المنشودة التى تحقق هدفهم الاسمى وهو صعود نجم بنى حماد على حساب بنى زيرى وقدرتهم بعد ذلك للتصدى لقيادة المغرب سياسيا على حساب بنى زيرى ومن ثم يستطيعون أن يرسموا سياستهم الخارجية فى هذا الاطار الجديد بعد الغزوة الهلالية.

ولذا فاننا نجد بدءا من عام ٤٤٤هـ/ ١٠٥٢م وفى نهاية حكم القائد بن حماد بدأت الامور السياسية تتغير وخلع الامراء الحماديون تبعيتهم السياسية للقيروان والمهدية

وسار على هذا النهج محمد بن القائد وابن عمه بلكين بن محمد وبعده الناصر بن علناش حتى نهاية الدولة، لكن رغم خلعهم لنفوذ بنى زيرى فانهم لم يحاولوا أن يرسموا سياسة خارجية سليمة بل اتسمت سياستهم بالاقليمية الضيقة رغم أنهم لم يتركوا فرصة تنتابهم الا واقتنصوها للتوسع على حساب بنى زيرى .

ولعل هذا هو السبب الذى جعل علاقاتهم مع بنى زيرى تتسم بالفتور والعداء رغم محاولات التقرب عن طريق المعاهدة أو عقد معاهدات الصلح الا أن كل ذلك لم يكن الا لعبة سياسية للتهدئة استغلها الحماديون مع بنى زيرى كى يحققوا أهدافهم فى ازالتهم من طريقهم للتوسع شرقا .

ولقد شكل الوضع السياسى فى تونس نقطة صراع دائم بين بنى زيرى وبنى حماد بسبب وجود بنى خراسان حكام تونس ومحاولاتهم الخضوع لبنى زيرى تارة وبنى حماد تارة أخرى .

لكن عودة العلاقات الطبيعية كانت هدفا يسعى اليه بنو زيرى مع أبناء عمومتهم بنى حماد ولأنهم كانوا يدركون مدى المخاطر التى تتعرض لها بلادهم، لكن السياسة الحمادية فى أحلك الظروف كانت سيئة بالنسبة لبنى زيرى فقد سعى يحيى ابن العزيز عام ٥٢٩هـ للاستيلاء على المهدية كما فعل ذلك من قبل جده الناصر بن علناش مما دفع الحسن بن على آخر خلفاء بنى زيرى لطلب العون من روجار الثانى ملك صقلية. وعلى الرغم من المحاولات التى بذلها الحسن بن على للتقرب من بنى حماد بعد أن طرد من المهدية عام ٥٤٣هـ واحتلال النورمان لبلاده وعندما أراد الحسن بن على التوجه غربا إلى المغرب الاقصى لمقابلة عبد المؤمن بن على خليفة الموحدين فان يحيى بن العزيز الحمادى رفض مقابلته وقام بسجنه فى مدينة الجزائر انتقاما منه ولم يفك أسره الا بعد دخول عبد المؤمن بن على بجاية عام ٥٤٣هـ وهكذا



نرى ان الصراع والتطاحن والاقتتال كان هو السمة الغالبة على العلاقات بين الدولتين، لكن فى كل الحالات كانت دولة بنى حماد هى التى تبدأ بالعدوان والتدخل العسكرى واثارة القلاقل .

لكن على الرغم من حالة العداوة التى كانت تغلب على طابع العلاقات بين بنى زيرى وبنى حماد وفى معظم فترات حكم كل منهما الا ان الفترات التى كان يسود فيها السلام والتصالح كانت العلاقات الثقافية والتجارية تنتعش وتعود لحالتها الطبيعية فقد وجد بناة القيروان وبعض مدن المغرب الادنى (افريقية) ضالتهم المنشودة فى التحرك غربا تجاه بلاد المغربين الاوسط والاقصى بل ان العديد من العلماء والادباء والفقهاء والشعراء والمفكرين الافارقة (المغرب الأدنى) قد فضلوا البقاء فى بلاد الحماديين بعد أن فتح الامراء الحماديون أمامهم المجال وأجزلوا لهم العطاء واستدعوهم إلى مجالسهم ومناظرتهم ومن ذلك نجد الشاعر ابن الكفاه القيروانى يمتدح الامير الناصر بن علناش الحمادى ومن هنا فقد ساعد علماء وفقهاء الدين الشرقيين فى النهوض بالحركة العلمية والثقافية فى بجاية والجزائر وتلمسان والقلعة وعنابة وطبنة والمسيلة وبسكرة وجيجل وغيرها من المدن الحمادية ولم تنقطع وفود العلماء والطلاب من المغرب الادنى إلى المغرب الاوسط .

وبالعكس فان بنى حماد فى أشير والقلعة قد شجعوا رحيل الطلاب وأبناء دولتهم إلى القيروان للتزود بالعلوم قبل الغزو الهلالى لاسيما بعد أن تم الصلح بين المعز بن باديس عام ٤٠٨هـ حتى الغزو الهلالى ٤٤١هـ وقد استغل فترة الهدنة والصلح الطويلة لكى يدفعوا بأبناء دولتهم للرحيل شرقا إلى القيروان لتلقى العلم على أيدى شيوخ هذه الكعبة الحضارية الثقافية الاسلامية لاسيما ان الدولة الحمادية كانت لاتزال فى دور التكوين وكانت فى أمس الحاجة إلى العقلية المتعلمة المثقفة التى تساعد على

وضع أركان بناء الدولة ومنذ عام ٤٦١هـ صارت بجاية معقل العلم فى المغرب الاوسط فرحل اليها العلماء وقصدها الناس من مختلف النواحي وكثرت المدارس التى كان من بين طلابها طلاب من قسنطينة والاقاليم الغربية للدولة الزيرية ومن هنا فان حركة الصراع والحروب لم تقف عائقا ولا حائلا دون تحرك العلماء والطلاب بين البلدين وكان العلماء يدرسون العلم أينما رحلوا وأينما حلوا بلا جند ولا رقابة مادام ذلك يسير وفق المذهب المالكى الذى عشقه أهل المغرب جميعا ومن هنا كانت الصلة العلمية والثقافية والحضارية متصلة ودائمة بل ومتبادلة .

اضافة إلى أن حركة التجارة والقوافل والبيع والشراء والترحال بين الاقليميين لم تكن متقطعة دائما بل كانت فى وقت الحروب تقل عما تكون عليه فى حالة الصلح والسلام وكان الحماديون يعملون على فتح بلادهم أمام حركة التجارة الشرقية التى كانت تأخذ طريقها البحرى والبرى عبر أراضى الدولة الزيرية وكذلك رحل التجار من بلاد المغرب الادنى مع اخوانهم أهل بجاية وغيرها من مدن الساحل إلى المشرق والهند والصين واليمن وإلى صقلية وجنوب ايطاليا والاندلس وقامت حركة تصدير واستيراد المواد التى يحتاج اليها كل طرف والتى كانت تزيد عن الاستهلاك المحلى للآخر مما دفع إلى ايجاد سوق تجارية اسلامية لم تكن تتأثر بحركة الصراع العسكرى والسياسى فالشعوب كانت تسعى لما فيه خير الجميع ومن هنا نمت التجارة الداخلية والخارجية لاسيما مع حركة القوافل فى اتجاه الجنوب حيث بلاد السودان الغربى والاوسط (كانم، برنو، مالى، غانا، سنغاى، بلاد التكرور) والتى كانت القوافل المغربية تتحرك فى صورة مجتمعة من أجل خير المجتمع الاسلامى وليس من أجل نظرة محلية ضيقة. فقد نشطت الحركة التجارية بين الجانبين رغم محاولة حكام البلدين فرض حصار اقتصادى كل طرف على الآخر الا ان بنى زيرى لم يكن يستفزهم عمل أبناء بنى حماد فانهم



كانوا يشجعون الحركة التجارية عبر الصحراء ووجدوا دعما من حكوماتهم باعتبار ان التجارة هى المصدر الاساسى للدخل وكان الموقف الاقتصادى لبنى زيرى قد انتابه بعض الضعف من جراء الغزوة الهلالية فدفعهم ذلك إلى فتح أبواب للتجارة مع بنى حماد رغم توتر العلاقات السياسية وقد أشار ابن الاثير فى كتابه الكامل إلى أن بنى حماد كانوا يعرقلون التجارة مع بنى زيرى بسبب توتر العلاقات الا أن بنى زيرى كانوا يعملون على كسب بنى حماد لضعفهم تجاريا واقتصاديا لمصلحة الشعبين .

## بنو حماد والخلافة الفاطمية بالقاهرة

عندما ترك الخليفة الفاطمى المعز لدين الله بلاد المغرب وانتقل للقاهرة عام ٣٦١هـ فقد ترك على حكم بلاد المغرب بلكين بن زيرى الصنهاجي والد الامير حماد ومؤسس الاسرة الحمادية فى بلاد المغرب الاوسط. وهكذا فقد أصبح بلكين بن زيرى الصنهاجى واليا شبه مستقل بحكم بلاد افريقية بأقسامها الثلاث طرابلس وافريقية وبلاد الزاب وما يفتحه من بلاد المغرب الاوسط والاقصى. وقد ظلت هذه البلاد تتبع سياسيا وتدين بالولاء للخلافة الفاطمية بالقاهرة منذ بداية حكم بلكين بن زيرى ٣٦٢هـ/ ٣٧٤هـ حتى حكم المعز بن باديس بن المنصور الذى خرج على سياسة من سبقه من بنى زيرى ونبذ سياسة الولاء والتبعية للخلافة الفاطمية بالقاهرة وفى خلال تلك الفترات الزمنية كان حماد بن بلكين منذ أن أرسله أخوه المنصور بن بلكين وابنه باديس ابن المنصور لمقاتلة زناتة وذلك يعد موافقة على شروطه عام ٣٩٥هـ يقيم بالمغرب الاوسط وفى أشير بالذات مقر تركز قواته .

ولما كان حماد بن بلكين يدرك مدى عدم استعداد الناس لتقبل المذهب الاسماعيلى الشيعى وحبهم الشديد وتمسكهم بالمذهب السنى المالكى فانه قام عام ٤٠٥هـ/ ١٠١٤م بنبذ طاعة الفاطميين والخروج عليهم والدخول فى طاعة العباسيين

وفى حقيقة الامر فان الخلافة الفاطمية فى القاهرة لم يكن يعنيها من أمر بلكين بن زيرى شيئا فهى لم تكن تعترف به أو توجد أدنى صلة بينهما بل كانت كل علاقاتها بحكام القيروان والمراسالات والتقاليد الفاطمية والالقاب تتم بين القاهرة والقيروان وكان حماد بن بلكين يتبع السياسة الزيرية ولم تكن القيروان تسمح له بالعلاقات المباشرة مع القاهرة أو مع غيرها من العواصم الاخرى لان السياسة الخارجية كانت من شأن حكام القيروان وكان حكام القلعة تابعين لهم فى ذلك .

ولقد عمل حماد بن بلكين على نبذ طاعة الفاطميين واعلان الخطبة للخلفاء العباسيين فى بغداد ادراكا منه بأنه يريد أن يكسب شرعية لحكمه لاسيما انه كان يدرك بذلك ارضاء الشعب المغربى والعمل على استمالته لصفه وخضوعه لحكمه لان الخروج على الفاطميين لم يجد أدنى مقاومة من الشعب لعدم رغبة الشعب فى الخضوع للفاطميين وكراهيتهم الشديدة للمذهب الاسماعيلى الشيعى .

وربما قصد حماد بن بلكين بقطع الخلافة الفاطمية انه يريد كسب الشارع السياسى والشيعى له والتفافهم حول قائدهم حماد والتمسك بحكمه لان فى بقائه على حكم البلاد بقاءا وانتشارا لمذهب المالكى الذى كان يصادف قبولا شديدا منهم وتمسكا بتعاليمه وقيمه وشريعته فى كل أمورهم .

لكن ذلك وان كان يشكل بدرة خطيرة للنظام الشيعى فى القاهرة وتوابعه فى بلاد المغرب لاسيما ان انصار المذهب الاسماعيلى الشيعى كانوا حتى عام ٤٠٥هـ/ ١٠١٤م يسيطرون على مقاليد الامور فى بلاد بنى زيرى، ولم تكن هناك أدنى علاقة مباشرة بين الفاطميين ووزرائهم فى القاهرةوبين بنى حماد أصحاب القلعة الذين كانوا لازالوا فى ذلك الوقت حكاما محليين تعترف بهم السلطة السياسية الحاكمة فى القيروان وكذلك على اعتبار ان الفاطميين لم يعترفوا باستقلال الحماديين عن بنى



زيرى وان ولاء الحماديين نحو حكام القاهرة الفاطميين لم يكن ولاءا مباشرا ولا عاما انما كان ولاءا صوريا، لكن ما قام به حماد بن بلكين عام ٤٠٥هـ/ ١٠١٤م من نبذ طاعة الفاطميين كان دافعا قويا لرجال البلاط الزيرى لتشجيع المعز بن باديس للسير على نهج جده حماد فى نبذ طاعة الفاطميين عام ٤٠٧هـ/ ١٠١٦م وما ترتب على ذلك من هذا الاعلان الذى كانت تربطة علاقات مباشرة مع القاهرة وكانت الدولة الفاطمية تحس ان المعز بن باديس والٍ من ولاتها على بلاد المغرب ولم يكن يحق له الخروج على الشرعية الفاطمية الشيعية، فما كان من الفاطميين الا أن أو عزوا للقبائل العربية الهلالية بالزحف على المغرب الاسلامى وصنهاجة بلاد ابن زيرى عام ٤٤١هـ، ودفع المعز وبلاده فى دوامة الحروب والقلاقل والمناوشات والحروب والصراع حتى اضطر عام ٤٥٩هـ إلى ترك العاصمة القيروان والرحيل إلى المهدية .

وازاء هذه الاحداث التى ترتبت على أثر الهجرة العربية الهلالية وما تم فى بلاد المغرب الادنى فان القائد بن حماد (٤١٩- ٤٤٦هـ/ ١٠٢٨- ١٠٥٤م) حاكم القلعة وقد رأى وسمع ما ترتب على الخروج على الخلافة الفاطمية من هجوم القبائل الهلالية وتخريبها للبلاد على حد قول بعض المؤرخين وأدرك بثاقب نظره وحنكته السياسية ودرايته لمعالجة الامور انه لاقبل له بهذا الطوفان العربى الكاسح وانه خاف على عرشه قبادر على الفور عام ٤٤٢هـ باعلان الولاء للفاطميين استرضاء للقبائل العربية الهلالية وخوفا من بطشها وتأمينا لبلاده وأرسل الهدايا والاموال إلى الخلافة الفاطمية بالقاهرة وقامت الخلافة الفاطمية من قبلها بارسال التقاليد الفاطدية له وأنعمت عليه بلقب شريف هو لقب شرف الدولة (ابن خلدون، العبر ، جـ ٦ ص ٣٥٢)، لكن هذا الاعتراف الفاطمى لم يكن الا صوريا ولكن الذى يدعم هذا الاعتراف استمرار الدولة الحمادية فى التعامل بالدنانير الفاطمية وعدم اصدار

مسكوكات جديدة كما فعل المعز بن باديس عام ٤٤١هـ عندما أبدل التعامل بالدنانير الفاطمية بالدنانير المعزية الزيرية لكن الحماديين ظلوا على ولائهم الظاهرى والصورى للفاطميين ولم يغيروا العملة الا فى عام ٥٤٣هـ عندما أصدر الدينار الناصرى .

لكن المذهب الشيعى الاسماعيلى لم يكن له وجود منذ عهد حماد بن بلكين حيث طارد الشعب المغربى الشيعة وقضى عليهم لكن رغم كل هذا فان الفاطميين لم يفقدوا الامل فى عودة المغرب الاسلامى للخضوع لهم والمناداة باسمهم فوق المنابر والخطبة لهم بالمساجد، ومن هنا فقد كانوا يتابعون كل ما يجرى من أحداث على أرض المغرب وربما كان لهم جواسيسهم الذين يرسلون لهم بالاخبار ومن هنا فانهم كانوا يرسلون الهدايا والتقاليد والخلع والالقاب عند ظهور أدنى بادرة من شأنها أن تؤدى إلى تحسين العلاقات بين الطرفين والعمل على المناداة لهم والخطبة لهم فى المساجد بل ان الفاطميين أرسلوا الهدايا والالقاب إلى الامير يحيى بن العزيز الحمادى آخر خلفاء بنى حماد عام ٥٣٢هـ وكانت هذه الهدايا تحملها سفينة كبيرة وصلت بها إلى بجاية وكانت تحمل البضائع والهدايا العظيمة من الخليفة الفاطمى للامير وعلية القوم وقد تم توزيع هذه الهدايا على أفراد الاسرة الحاكمة والوزراء وكبار رجال الدولة بعد أن تم استعراضها فى موكب رائع فى العاصمة بجاية .

اضافة إلى أن الخلافة الفاطمية بالقاهرة ظلت حتى وقت متأخر من حكمها تعتمد على العنصر المغربى فى جيشها بحيث كان الجيش الفاطمى يضم ثلاث فرق من العنصر البربرى المغربى وكانت القبائل المغربية وأفراد جيشها من القوى الكبرى التى يرتكز عليها عليها نظام الحكم ويعتمد عليها جيش الفاطميين اضافة إلى أن المغاربة كانت لهم أحياء خاصة تنسب اليهم فى مدينة القاهرة وكانوا يقيمون بالسكنى فيها، ومن ذلك فان العلاقات لم تكن مقطوعة بل كانت متصلة وكان المغاربة



يشاركون أيضا فى الاعمال البحرية والحربية باعتبارهم ملاحين مهرة .

كما ان العلاقات الاقتصادية كانت تتم بين الطرفين وكان التجار المغاربة بكثرة فى الاسكندرية والقاهرة وكانوا يمارسون نشاطهم التجارى بسهولة ويسر ولم تكن الدولة تتعرض لهذا النشاط لاسيما ان التجار كانوا يقدمون إلى الديار المصرية أحيانا مع قوافل الحجيج ويمارسون نشاطهم وتكونت منهم جاليات فى الاسكندرية والقاهرة، حيث كان التجار المغاربة يدخلون مدائن المدينة ويتعاملون فى التجارة وكان التجار المغاربة يتعاملون بعملة بلادهم المغربية التى تضرب فى بلادهم لكنهم يغيرونها بالعملة المصرية عند التعامل وكانت التجارة المغربية والمصرية تمر عبر الطريق البحرى من الاسكندرية إلى موانئ بلاد المغرب ومن هذه الموانى إلى الاسكندرية وكانت التجارة تستخدم الطرق الصحراوية الداخلية التى تنطلق من بلاد المغرب حتى القاهرة عند سفح الاهرام ومن ثم تدخل القاهرة وان كان الطريق البحرى من الاسكندرية إلى بلاد المغرب أكثر استعمالا لاسيما أن الطريق البرى كان محفوفا بالمخاطر لكن القرن السادس الهجرى شهد كثرة استخدام الطريق البرى الذى يصل المدن الممتدة على الطريق، لكن مصر الفاطمية كانت سيئة الظن بالمغاربة الذين اعترفوا بالخلافة العباسية وكان الوزير الفاطمى بدر الجمال يضيق عليهم الخناق حتى انه من أراد الحج إلى الديار المقدسة من المغاربة كان يعدل عن هذا الطريق وبعد بدر الدين الجمالى كانت العلاقات طيبة بين المغاربة وحكام القاهرة .

لكن العلاقات الثقافية والفكرية والعلمية لم تكن متصلة الا نادرا نظرا لاختلاف المذهبين الشيعى الاسماعيلى والمذهب السنى المالكى ومن هنا لم تشهد العلاقات الثقافية أدنى نمو وازدهار الا أن ذلك لم يمنع نقل بعض العلماء والطلاب الذين كانوا يدرسون أو من يدرسون العلوم غير الشرعية مثل الطب والفلك والكيمياء

والرياضيات وغيرهم من العلوم التى لا تتصل بالمذهب الشيعى الاسماعيلى، لكن مصر الفاطمية كانت دائما تمانع وتعطل أبناء المغرب فى الدراسة بالازهر الا فى المذهب الشيعى الذى كانوا يسعون لنشره ولو بالقوة ولكن المغاربة لم يكونوا يقبلون على دراسته لذا لم تقم علاقات ثقافية بين الطرفين .

## بنو حماد ودولة المرابطين بالمغرب الاقصى

وفى الوقت الذى غزا فيه عرب بنى هلال بلاد افريقية وقوضوا صرح الدولة الزيرية وبدأوا يطرقون أبواب المغرب الاوسط ويهددون دولة بنى حماد، كان على الجانب الآخر المرابطون فى أعوام ٤٤٥هـ، ٤٥٠هـ قد بدأوا زحفهم على المغرب الاقصى وتمكنوا من القضاء على قوة زناتة فى هذه الديار، لكن بقيت فلول منهم بالمغرب الاوسط الذى كان الحماديون يسيطرون على الجزء الاكبر منه وكان المرابطون يفضلون القضاء نهائيا وحسم صراعهم مع زناتة لاسيما ان قبائل زناتة بالمغرب الاوسط قد خفت لنجدة اخوانها زناتة فاس فى صراعها مع المرابطين وانهم كانوا يعيدون تجمع صفوفهم للقيام بعدوان جديد لدرء المرابطين القادمين من الجنوب وعلى الجانب الآخر فان المرابطين يؤثرون أن ينقضوا على زناتة المغرب الاوسط لوضع نهاية لاستفزازاتهم حتى ينصرفوا لفتوحاتهم فى بقية المغرب الاقصى .

ويبدو ان الدولة الحمادية فى تلك الاونة كانت تعانى بعض الضعف والاضطراب والمشاكل من جراء التواجد العربى الهلالى الكثيف مما جعل المرابطين لا يطمئنون إلى الاوضاع فى المغرب الاوسط وتركوا زناتة إلى أبناء عمومتهم بنى حماد، لكن شهدت تلك الحقبة التاريخية بداية جموع العرب الهلالية فى طرق أبواب المغرب الاوسط لذا لم يستطع الحماديون مقاومة زناتة، وما كان على المرابطين أن يتوسعوا صوب الاقاليم الشرقية فاستولوا على وادى ملوية ومدينة وجدة ومدينة وسطاط وانقضوا على اقليم تازا



ثم انقضوا على مدينة تلمسان وفتحوها كما فتحوا وهران وتنيس وبلغت قواتهم مشارق اقليم الجزائر ووقف المرابطون عند حدود الجزائر ولم يتجاوزوها ابقاء لصلات القربى بينهم وبين بنى حماد .

وكان الحماديون يتعرضون لزحفين كبيرين يتصفان بالقوة والشراسة من الشرق القبائل العربية الهلالية التى نجحت السياسة الحمادية فى احتوائهم والقبائل الزناتية التى اخترقت الحدود الغربية فرارا من مطاردة المرابطين وبدأت تسبب المتاعب للدولة الحمادية وكان عليهم مقاومتهم وكان الزيريين يعانون من زحف العرب الهلالية، وكان الحماديون ينظرون نظرة ريبة وشك للمرابطين لانهم فتحوا العديد من المدن فى المغرب الاوسط ووصلوا فى زحفهم إلى تلمسان والجزائر والتى كان ينظر اليها الحماديون على انها امتداد طبيعى لاملاكهم فى المغرب الاوسط ومن هنا كانوا يرون فيهم العدو الاول حيث ان الاستيلاء على المغرب الاوسط كان يمثل جزءا من سياسة الدولة المرابطية .

لكن المرابطين لم ينظروا إلى أبناء عمومتهم بنى حماد نظرة عدائية فقد كان فى امكانهم أن يفتحوا كل بلاد المغرب الاوسط وأن يصلوا فى زحفهم حتى طرابلس وكل بلاد المغرب الادنى ولكن المرابطين قد أصبحوا سادة المغرب دون منازع، لكنهم كانوا يرون فى المغرب الاوسط خط الدفاع الاول عن المغرب الاقصى تأمينا لحدودهم وضربا للقبائل الزناتية التى تلجأ اليه عندما يشتد عليها حصار المرابطين ولقد كان النزاع فى المغرب الاوسط بالنسبة للمرابطين هو تحدى زناتة وليس الحماديين الذين كانت نظرة المرابطين لهم كأبناء عمومة وأشقاء صنهاجة وكان المرابطون يمدون أبصارهم لضرب كل أثر لزناتة لاسيما ان المغرب الاوسط موطنها الاصلى .

وكانت أهمية المغرب الاوسط تفوق غيره بالنسبة للمرابطين فقد كان الوجود

المرابطى فى تلمسان تقف حدا لمد الحماديون بأبصارهم صوب المغرب الاقصى وينهى أحلامهم فى التوسع غربا لذا كانوا يتجهون إلى الشرق حيث بنى زيرى لانهم كانوا يرون أنفسهم انه لا قبل لهم بقوة المرابطين ومن هنا كانوا يردون كيد الحماديين عن المغرب الاقصى .

لذا قاوم الحماديون المرابطين بكل قوتهم واستعانوا بالقبائل العربية الهلالية وكذلك زناتة واستطاعوا أن يحموا بلادهم من زحف المرابطين ونجحوا فى ذلك لدرجة جعلت يوسف بن تاشفين يتراجع عن مطامعه ويجنح إلى السلم ولقد كان الصراع السياسى يدور بين الطرفين، لكن شهدت بعض الفترات حالة من التفاهم والود والصداقة عندما أرسل يوسف بن تاشفين إلى المنصور يبلغه أخبار الانتصار الذى أحرزته القوات المرابطية فى معركة الزلاقة رغم ان بنى حماد حاولوا اغتنام فرصة وجود القوات المرابطية بالاندلس وانقضوا على المغرب الاوسط مستعينين بالاعراب الهلالية .

كذلك فان يوسف بن تاشفين قد أوضح للحماديين انه لم يرد بهم شرا لذا فان الحماديين لم يغلقوا باب التفاهم مع المرابطين بل حاولوا تهدئة الصراع بوسائل مختلفة، فقد تزوج المنصور بن الناصر من المرابطين عندما هم بالهجوم على تلمسان وحصارها حصارا طويلا، لذا فان المنصور فك حصار المدينة خضوعا لصلات القربى .

لكن المرابطين الذين حكموا تلمسان كانوا يتأوئون الحماديين كلما أتيحت لهم فرصة، ولقد تحكمت فى علاقة المرابطين بالحماديين معالم وظروف الامتداد المرابطى ولقد حققت صلة الوشائج والقربى دورا فى هذه العلاقات .

لكن العلاقات السياسية بين المرابطين وبنى حماد لم تشبها شائبة العلاقات مع بنى زيرى ولم تتكرر حوادث العدوان من قبل المرابطين على الحماديين بل ان الحدود التى حددوها لانفسهم لم يحاولوا أن يتخطوها حفاظا على صلة القربى وحسن الجوار .



لكن العلاقات الثقافية كانت على أشدها قوية ومترابطة فالعلماء يتحركون من بجاية إلى فاس ومراكش ومن المدن الحمادية إلى المغرب الاقصى طلبا للتدريس بعد أن غادروا القيروان، بل ان كثيرا من العلماء استقروا بعضا من الوقت فى المغرب الاوسط ثم رحلوا مرة ثانية إلى المغرب الاقصى وكذلك رحل الطلاب من أبناء الحماديين إلى ديار المرابطين حيث أفسح المرابطون المجال للطلاب والعلماء واحتلت فاس مكانة القيروان وصارت فاس جامعة ذات شأن فى الحياة الثقافية وشد اليها الرحال المغاربة والمشارقة ونهلوا من علومها ما طاب لهم وظلت فاس تغذى الحياة الثقافية فى العالم الاسلامى طيلة قرون طويلة حيث كان من الطبيعى أن يعتصم هؤلاء العلماء باقاليم بعيدة عن المخاطر ويتابعوا نشاطهم العلمى فالتجأ أغلبهم إلى مدارس المغرب الاوسط حيث الحماديين وبعض منهم إلى مدارس المغرب الاقصى حيث المرابطين إلى فاس ومراكش وتلمسان وسبتة وأغمات وطنجة وغيرها من المدن .

ولقد تبادلت هذه المدن الصلات والروابط الثقافية والعلمية مع مدن المغرب الاوسط وكان العلماء والطلاب صلة الربط الدائمة بين الطرفين ومن هنا ازدهرت الحضارة والثقافة .

كذلك كانت العلاقات الاقتصادية بين البلدين تسير سيرها الطبيعى حيث التكامل الاقتصادى بين الطرفين كل قطر يصدر ما لا يحتاج اليه من محاصيل ويستورد ما يحتاج اليه من محاصيل فى أمس الحاجة اليه وارتبط تجار البلدين فى روابط تجارية واقتصادية وشاركوا الرحلة إلى بلاد المشرق الاسلامى وجنوب أوربا وصقلية وبلاد السودان ونشطت الحركة التجارية لتعاون تجار بجاية مع تجار المغرب الاقصى وتمتعت مكانة بجاية بميزة تجارية ممتازة .

وكان التجار المغاربة يتعاملون فيما بينهم متخذين من الوكالة نظاما ووصل التجار

المغاربة إلى جنوه والبندقية وبيزا وعرفت أسواق المغرب نشاطا تجاريا اتسم بالبيع والشراء وأفسح المغاربة مجال الفنادق للاجانب فى بجاية وشهدت أسواق المدن تنظيما ساعد على تزايد أعداد التجار الاجانب ودورهم فى التجارة المغربية لاسيما بعد ازدهار بجاية كمحطة رئيسية للسفن القادمة من الشمال والقوافل القادمة من الجنوب حيث بلاد السودان وكان البحر المتوسط يربط بين بيئات المغرب الثلاث وقامت السفن الاسلامية بنشاط كبير فى نقل تجارة البحر المتوسط وكانت بجاية تشكل قطب النشاط التجارى مما جعل التجار الاجانب يتجهون إلى بجاية للحصول على التجارة المغربية التى شارك فيها المرابطون لاسيما انهم كانوا فى حالة حرب مع الاندلس (المسلمين) وكانوا يجدون فى بجاية منفذا لتجارتهم .

## بنو حماد والاندلس

فى الوقت الذى كان فيه بنو حماد يقيمون دولتهم فى المغرب الاوسط ويبذلون أقصى جهودهم لظهور هذا الكيان على مسرح الاحداث فى المغرب فى شكل صورة دولة شبه مستقلة تابعة لبنى زيرى كانت القوى الاسلامية فى البحر المتوسط الغربى مع اطلالة القرن الخامس الهجرى قد بدأت تتقهقر وبدأت ترتد على أعقابها خاسرة وبدأت القوى المسيحية تنتقل إلى مرحلة السيادة وبدأت القوى الاسلامية فى التدهور حتى سقطت الخلافة الاموية وعكف ملوك الطوائف على شئونهم الخاصة وأخذت القوات البحرية الاندلسية التى طالما أدخلت الرعب إلى قلوب الفرنجة يضعف شأنها وكان الدور على بنى زيرى الذين ورثوا ملك الفاطميين فى المغرب وقد أخذوا يعملون قدر طاقتهم على الاحتفاظ برمق البحرية الاسلامية الا أنهم كانوا يعملون منفردين ولم يكن



باستطاعتهم أن يضطلعوا بالعبء كله لاسيما بعد أن انفصل بنو حماد عن القيروان منذ عام ٣٩٥هـ وبدأت الغزوة الهلالية عام ٤٤١هـ مما أثقل كاهل بنى زيرى ومنعهم من الالتفات إلى القوى الاوربية التى بدأت تأخذ زمام المبادرة فى يدها بعد أن تشتت شمل الدولة الزيرية بين الحماديين والعرب الهلالية .

وانتهزت القوى المسيحية ما أصاب بلاد المغرب والخلفاء الفاطميين فى مصر من ضعف من جراء انفصال الحماديين وغارات الاعراب الهلاليين وأخذ الزحف المسيحى فى الاندلس القادم من الشمال يكسب كل يوم أرضا جديدة بعد رفع شعار حركة الارتداد وقذف المسلمين وراء المضيق ورفع المسيحيون شعار بعث القوى النصرانية فى شبه جزيرة أيبريا دفاعا عن بلادهم وأخذوا يمضون فى التقدم صوب الجنوب كلما حققوا نصرا على القوى الاسلامية وأخذ المتطوعون من فرنسا وألمانيا وبلجيكا وايطاليا يشاركوا فى قتال المسلمين .

بل اننا لا نبالغ اذا قلنا ان عام ٤٠٨هـ/ ١٠١٨م الذى شهد بداية استقرار الامور لحماد بن بلكين فى المغرب الاوسط قد شهد انهيار الدولة الاموية وتفكك الاندلس بل ان عام ٤٢٢هـ/١٠٣١م فى عهد حكم القائد ابن حماد (٤١٩-٤٤٦هـ) قد شهد أحداث التقدم الصليبى من الشمال وبذلك ظهر أمراء النواحى الذين تطلق عليهم المصادر ملوك الطوائف وهم لم يكونوا ملوكا ولا ملوك طوائف وانما كانوا عمالا على الولايات ثم استبدوا بالامر كل بولايته ومن هنا لم يكن هناك سياسة خارجية حمادية ولا علاقات مع هؤلاء الملوك، ذلك لان سياسة الحماديين كانت مجرد تابع لسياسة بنى زيرى ومن هنا لم تكن هناك علاقات خارجية بالمعنى المفهوم للعلاقات وربما كانت هناك علاقات حضارية وثقافية واقتصادية تجارية. اضافة إلى روح العداء بين الفاطميين الشيعة وملوك الطوائف السنيين الذين خلفوا الخلافة الاموية

المغاربة إلى جنوه والبندقية وبيزا وعرفت أسواق المغرب نشاطا تجاريا اتسم بالبيع والشراء وأفسح المغاربة مجال الفنادق للاجانب فى بجاية وشهدت أسواق المدن تنظيما ساعد على تزايد أعداد التجار الاجانب ودورهم فى التجارة المغربية لاسيما بعد ازدهار بجاية كمحطة رئيسية للسفن القادمة من الشمال والقوافل القادمة من الجنوب حيث بلاد السودان وكان البحر المتوسط يربط بين بيئات المغرب الثلاث وقامت السفن الاسلامية بنشاط كبير فى نقل تجارة البحر المتوسط وكانت بجاية تشكل قطب النشاط التجارى مما جعل التجار الاجانب يتجهون إلى بجاية للحصول على التجارة المغربية التى شارك فيها المرابطون لاسيما انهم كانوا فى حالة حرب مع الاندلس (المسلمين) وكانوا يجدون فى بجاية منفذا لتجارتهم .

## بنو حماد والاندلس

فى الوقت الذى كان فيه بنو حماد يقيمون دولتهم فى المغرب الاوسط ويبذلون أقصى جهودهم لظهور هذا الكيان على مسرح الاحداث فى المغرب فى شكل صورة دولة شبه مستقلة تابعة لبنى زيرى كانت القوى الاسلامية فى البحر المتوسط الغربى مع اطلالة القرن الخامس الهجرى قد بدأت تتقهقر وبدأت ترتد على أعقابها خاسرة وبدأت القوى المسيحية تنتقل إلى مرحلة السيادة وبدأت القوى الاسلامية فى التدهور حتى سقطت الخلافة الاموية وعكف ملوك الطوائف على شئونهم الخاصة وأخذت القوات البحرية الاندلسية التى طالما أدخلت الرعب إلى قلوب الفرنجة يضعف شأنها وكان الدور على بنى زيرى الذين ورثوا ملك الفاطميين فى المغرب وقد أخذوا يعملون قدر طاقتهم على الاحتفاظ برمق البحرية الاسلامية الا أنهم كانوا يعملون منفردين ولم يكن



باستطاعتهم أن يضطلعوا بالعبء كله لاسيما بعد أن انفصل بنو حماد عن القيروان منذ عام ٣٩٥هـ وبدأت الغزوة الهلالية عام ٤٤١هـ مما أثقل كاهل بنى زيرى ومنعهم من الالتفات إلى القوى الاوربية التى بدأت تأخذ زمام المبادرة فى يدها بعد أن تشتت شمل الدولة الزيرية بين الحماديين والعرب الهلالية .

وانتهزت القوى المسيحية ما أصاب بلاد المغرب والخلفاء الفاطميين فى مصر من ضعف من جراء انفصال الحماديين وغارات الاعراب الهلاليين وأخذ الزحف المسيحى فى الاندلس القادم من الشمال يكسب كل يوم أرضا جديدة بعد رفع شعار حركة الارتداد وقذف المسلمين وراء المضيق ورفع المسيحيون شعار بعث القوى النصرانية فى شبه جزيرة أبيريا دفاعا عن بلادهم وأخذوا يمضون فى التقدم صوب الجنوب كلما حققوا نصرا على القوى الاسلامية وأخذ المتطوعون من فرنسا وألمانيا وبلجيكا وايطاليا يشاركوا فى قتال المسلمين .

بل اننا لا نبالغ اذا قلنا ان عام ٤٠٨هـ/ ١٠١٨م الذى شهد بداية استقرار الامور لحماد بن بلكين فى المغرب الاوسط قد شهد انهيار الدولة الاموية وتفكك الاندلس بل ان عام ٤٢٢هـ/١٠٣١م فى عهد حكم القائد ابن حماد (٤١٩-٤٤٦هـ) قد شهد أحداث التقدم الصليبى من الشمال وبذلك ظهر أمراء النواحى الذين تطلق عليهم المصادر ملوك الطوائف وهم لم يكونوا ملوكا ولا ملوك طوائف وانما كانوا عمالا على الولايات ثم استبدوا بالامر كل بولايته ومن هنا لم يكن هناك سياسة خارجية حمادية ولا علاقات مع هؤلاء الملوك، ذلك لان سياسة الحماديين كانت مجرد تابع لسياسة بنى زيرى ومن هنا لم تكن هناك علاقات خارجية بالمعنى المفهوم للعلاقات وربما كانت هناك علاقات حضارية وثقافية واقتصادية تجارية. اضافة إلى روح العداء بين الفاطميين الشيعة وملوك الطوائف السنين الذين خلفوا الخلافة الاموية

اضافة إلى أن بنى زناتة الذين كانوا يحكمون فى المغرب الاقصى قبل قيام دولة المرابطين كانوا حجر عثرة بين بنى حماد وحكام الاندلس، كما ان ملوك الطوائف المتعددين الذين شغلتهم الاحداث الداخلية لم تكن لهم علاقات خارجية مع بنى حماد أو سياسية خارجية ثابتة أو ذات شأن مع بنى حماد .

انما شهدت العاصمة الحمادية بجاية والمدن الساحلية أيضا هجرة واسعة من الاندلسيين الذين كانوا يصلون إلى هذه الديار هربا من الاحتلال المسيحى وفرارا من الحروب الطاحنة التى تدور رحاها على أرض الاندلس وكانت بلاد بنى حماد تفتح زراعيها لاستقبال هؤلاء المهاجرين لكى يعيشوا بين اخوانهم وكان المغرب الاوسط هو المكان المفضل للهجرة الاندلسية لاسيما ان بلاد المغرب الاقصى والاندلس قد خضعت منذ عام ٤٥٠هـ لحكم المرابطين، اضافة إلى هذه السنوات قد شهدت صراع بنى زيرى مع العرب الهلالية ومع النورمان فى صقلية الذين كانوا فى ذلك الوقت قد وضعوا أقدامهم على أرض صقلية وبدأوا يكملون زحفهم حتى سيطروا عليها نهائيا عام ٤٨٤هـ .

كذلك فان صراع المرابطين مع ملوك الطوائف ومحاولتهم توحيد الاندلس والمغرب تحت قيادة واحدة قد دفعهم إلى الدخول فى صراع مع ملوك الطوائف مما حدا بعلى بن مجاهد العامرى أن يفر من وجه يوسف بن تاشفين ويترك الاندلس ويرحل إلى بجاية وينزل فى ضيافة الناصر بن علناش (٤٥٤– ٤٨١هـ) كما لجأ أيضا حاكم مدينة المرية إلى بجاية ولقد كانت مدينة بجاية لموقعها الممتاز الساحلى منفذا لخلق علاقات متنوعة مع الاندلس لاسيما العلاقات الثقافية والحضارية والتجارية والاقتصادية بل والصناعية ولقد كانت مدن بنى حماد الساحلية والداخلية مفتوحة الابواب أمام الاندلسيين الذين رأوا فى استقبال هذه البلاد لامرائهم حافزا لهم للقدوم اليها



والاستقرار والعمل فى جميع الاعمال لاسيما وان الاندلسيين كانوا قد تفوقوا فى علوم الادب والفن والفلسفة وغيرها من ألوان الحياة العقلية والرفيعة وشهدت الحياة الاجتماعية الحمادية ألوان الحضارة الاندلسية الرفيعة التى تغلبت على نهج الحياة وبدا الاندلسيون يتغلغلون فى مختلف مناحى الحياة الاجتماعية والعلمية والفكرية والاقتصادية وتركت حركة الاندلسيين طابعا فى الحياة الاجتماعية وأحدثت تغييرا تاما بعد أن تغلبت على الطابع البدوى الصحراوى الذى كان يغلب على حياة بنى حماد وأضحت المؤثرات الاندلسية واضحة أتم الوضوح لاسيما ان الامراء الاندلسيين كانوا قد انتقلوا إلى المغرب الاوسط وعاشوا فى العاصمة بجاية وكان الامير الذى يلجأ إلى بجاية كأمير المرية، وعلى بن مجاهد العامرى يصحب معه عند الانتقال بطانته وأسرته ووزراءه وكتابه وقد اتخذ هؤلاء الامراء القصور الحسان وعاشوا عيشة رفيعة مترفة فيها رخاء ومتعة فتأنقوا فى الماكل والملبس والمشرب واتخذوا مجالس من الشعراء والمغنيين وعاشوا حياة لا تكاد تختلف عما كانوا يعيشونها أيام أن كانوا ملوك طوائف فى الاندلس .

وكل هذه الامور قد تركت آثارها الاجتماعية والفنية والحضارية فى بجاية وغيرها من المدن الساحلية الكبرى التى انتقل اليها الاندلسيون لاسيما أن المدن الحمادية كانت تضم أعدادا كبيرة من المهاجرين الاندلسيين الذين انتقلوا إلى الجزائر ومعهم خبراؤهم وعلومهم لاسيما فى المجال البحرى والتجارى والحضارى والعلمى والعمرانى ومن هنا فقد كانت بلاد المغرب الاوسط من أكثر بلاد المغرب الاسلامى استفادة من الهجرة الاندلسية ومن الظروف التى تمر بها الاندلس وعلى هذا فقد كانت العلاقات الحمادية الاندلسية علاقات اقتصادية تجارية وحضارية ثقافية أكثر منها سياسية وبذلك استفادت الجزائر كثيرا من جراء هذه العلاقات .

على الرغم من أن الدولة الحمادية طوال تاريخها الذى امتد من عام ٤٠٥هـ إلى عام ٥٤٧هـ لم تذكر المصادر التاريخية أدنى اشارة إلى اشتراك بنى حماد فى حركة الجهاد الاسلامى على أرض الاندلس سواء كان اشتراكا فعليا بارسال القوات أو السفن البحرية أو العتاد العسكرى أو ارسال الخيول أو المهمات التى تحتاج اليها القوات أو السماح للقبائل التى تعيش فى وطنها بالاشتراك فى حركة الجهاد، بل انها كانت تستغل ظروف انشغال المرابطين بالغزو فى الاندلس وتقوم بمهاجمة الحدود الغربية للمغرب الاقصى .

لكن نظرا لطبيعة تكوين القيادة الحمادية وانغلاقها على نفسها وعدم المساهمة فى الغزوات الاسلامية التى كانت تنطلق من المغرب الاقصى بقيادة يوسف بن تاشفين وولده على بن يوسف أو يوسف بن على فاننا لم نشاهد أو نعثر على أدنى أدلة تبين اشتراك الحماديين فى الصراع الدائر على أرض الاندلس ولكن ربما قد يكون لهم عذرهم باعتبار أنهم دولة اقليمية صغيرة ذات امكانات وقدرات محدودة وليست دولة كبرى كالمرابطين، لكننا نلاحظ عند الدخول فى صراع داخلى مع بنى زيرى أو المرابطين فان قواتهم كانت دائما تتكون بين العشرين ألف أو الثلاثين ألف ومن هنا فقد كانوا مشغولين عن الاندلس وما يدور على أرضه لكنهم استفادوا تجاريا وعلميا وحضاريا وتبادلوا المنتجات التجارية والزراعية والصناعية مع بلاد المغرب وانتقل علماء الاندلس إلى بلادهم وكذلك شجعوا أبناءهم الطلاب لتلقى العلوم على أيدى هؤلاء العلماء والمهاجرين مما أشاع جوا حضاريا وعلميا لم تشهده البلاد من قبل بعد أن أفسحوا المجال أمام هؤلاء العلماء لكى يشاركوا فى حلقات الدرس فى المساجد والمدارس والكليات لاسيما جامعة سيدى التواتى، التى كانت تضم ثلاثة آلاف طالب والتى كان يدرس بها مالا يقل عن عشرة من علماء الاندلس فى مختلف العلوم المعاصرة لاسيما



فى الرياضيات والطب والهندسة والجبر والفلسفة والفلك وعلوم الزراعة والحشرات والكيمياء وغيرها من العلوم .

لكن المصادر لم تذكر أدنى اشارة إلى علاقات سياسية أو مراسلات بين حكام بنى حماد وحكام الطوائف الذين شهدوا فترة من حكم بنى حماد، لكن بعد دخول المرابطين إلى الاندلس ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م وكان ذلك فى عهد الناصر بن علناش الحمادى فان الاندلس قد ارتبطت سياسيا بالسياسة المرابطية والتى سبق الاشارة إلى العلاقات الحمادية المرابطية والتى كانت تصدر أوامرها من العاصمة مراكش .

## بنو حماد والدول الاوربية

كانت سياسة بنى حماد الخارجية تجاه القوى الاوربية المسيحية رغم اختلال التوازن العسكرى لصالح هذه القوى وسيطرتها على الجزر الاسلامية فى البحر المتسط وحركة الارتداد فى الاندلس والصراع الدائر على أرضه هى عدم فتح أدنى باب للدخول فى صراع مع هذه القوى سواء أكان ذلك على أرض الاندلس أو فى جنوب ايطاليا وصقلية ومالطة وغيرها من الجزر التى استولى عليها الاوربيون ككريت وسردانية وكوركسيا وجزر البليار، ومن هذا الجانب السلبى فى السياسة الحمادية الخارجية قبل هذه القوى فقد استغلت القوى الاوربية هذه السياسة وعملت من جانبها على استغلال هذا الموقف السلبى لتعميق الصلات والعلاقات مع بنى حماد بما يحقق مصالحها وأهدافها البعيدة المدى من وراء هذه السياسة، ذلك لان بنى حماد لم يكن لهم أدنى دور فى حركة الجهاد المقدس فى الاندلس أو البحر المتوسط لكن هذه العلاقات الحمادية مع القوى الاوربية لم تظهر بشكل واضح فى النصف الثانى من القرن

الخامس الهجرى وبالتحديد فى عهد الناصر بن علناش (٤٥٤– ٤٨١هـ) وكذلك كانت بصورة واضحة فى عهد يحيى بن العزيز آخر أمراء بنى حماد. لكن الاختلاف فى المطامع فى السيطرة على الدولة الزيرية وهجوم النورمان واضافة إلى هجوم الناصر عام ٤٥٧هـ كل هذا يشكل موقفا يؤخذ على الدولة الحمادية التى تركت بنى زيرى تهيأ للمطامع الاوربية فما كان من النورمان الا أن هاجموا الموانى والمدن الحمادية بكل عنف وشراسة مما جعل الحماديين يذكرون انهم وقعوا فى خطأ تاريخى عندما أحسوا بالقوى التى سيطرت على ديار بنى زيرى لابد قادمة للسيطرة على بلادهم بعد أن احتلوا وسيطروا على بونة (عنابة) وبعض المدن الاخرى .

وأقام الناصر بن علناش علاقات من المودة والصداقة مع بابا روما (جريجورى السابع) وأمراء بعض المدن الايطالية كجنوة وبيزا والبندقية رغم الصراع الذى كان لايزال يدور على أرض صقلية والتعدى على المسلمين والبدء فى انتزاع بعض المدن الصقلية من أيدى المسلمين ولم يجد مسلمو صقلية دولة اسلامية قوية تغيثهم وتقدم لهم النجدة أو المساندة وتنشلهم من هذه المحنة الشديدة، فتم للنورمان الاستيلاء على صقلية نهائيا عام ٤٨٤هـ وبدأوا يرنون بأبصارهم إلى الشاطئ الافريقى المقابل فأغارت قواتهم على مدينة زويلة كما أغارت أساطيل بيزة وجنوة على المهدية عاصمة بنى زيرى وفى عهد حكم الناصر بن علناش حليف الاوربيين وقبل وفاته بعام واحد وذلك عام ٤٨٠هـ حتى لقد قيل ان أساطيل هذه الجمهوريات بلغت ثلاثمائة سفينة تضم ثلاثمائة ألف محارب وشهدت المهدية محنة لم يشهدها المغرب منذ الفتح الاسلامى ورغم هذا لم يتخذ الناصر بن علناش أو ابنه المنصور أدنى اجراء قبل الدول الاوربية التى هاجمت البلاد الاسلامية .



لكن فترة تحسين العلاقات بين بنى حماد والاوربيين فان الناصر بن علناش وقد أدار ظهره للاوربيين بعدما من شرهم هاجم ابن عمة تميم بن المعز عام ٥٤٧هـ فى المهدية وكأنه يعطى اشارة اللأوروبيين انه مثلهم يهاجم هذه الديار وكان شأن الاستيلاء عليها من الاوربيين لا يهمه أو يعنيه مادام هو نفسه يطمع فى عرش بنى زرى يستوى عنده اذا أستولى هو عليها بنفسه أو استولى عليها الأوروبيون حيث كانت هناك صداقات تربطه مع البابا .

بل أكثر من ذلك فان البابا جوريجرى السابع أستغل هذه العلاقات ونجح فى اقناع الناصر بن علناش فى الموافقة على اقامة أسقفية مسيحية فى بونة (عنابة) وترك للنصارى حرية انتخاب أسقفهم وقد صادق الناصر على تعيين هذا الاسقف بل ان الدوائر الكنسية فى ذلك الوقت استغلت سماحة وطهارة الناصر بن علناش فى هذا الموقف وعملت على اقناعه بالدخول فى المسيحية ظنا منها انها ربما تفلح فى ذلك ولكن خاب مسعاها ولكن فى حركة أرضاء القوى المسيحية الاوربية والبابا بالذات فانه بناء على طلبات البابا جريجورى السابع قام الناصر بن علناش بشراء جميع الاسرى المسيحيين الموجودين فى بلاده وأرسلهم هدية إلى البابا ووعد بأن يقوم بشراء كل من تقع عليه يده أو يعثر عليه ويرسله إلى روما فيما بعد وقام الناصر بن علناش بارسال هدايا جليلة قويمة إلى البابا جريجورى السابع وحمل أسقف بونة رسالة ود وصداقة إلى البابا كما ان البابا أرسل فى عام ٤٦٩هـ/ ١٠٧٦م رسالة إلى الناصر وتعتبر أهم رسالة فى ذلك الوقت يقوم بارسالها البابا إلى ملوك المغرب وهى رسالة تدل دلالة قاطعة على مهارة فائقة من الدبلوماسية المسيحية فى ذلك الوقت محاولة منها فى شق الصف الاسلامى واستمالة بعض حكامها إلى جانبهم وقد يكون هذا ربما من الاسباب القوية التى كانت وراء عدم اشتراك بنى حماد فى حركة الجهاد الاسلامى فى ذلك

الوقت، ولقد كانت كل هذه التحركات المسيحية تضع فى الاعتبار الاول تلبية الاستجابة لمصالحها وتحقيق مطامعها، رغم اشارة بعض المؤرخين السذج إلى أن هذه الرسالة دليل الود والتقدير للناصر من قبل البابا، مع العلم بأن البابا فى نفس الوقت هو الذى كان يقود حركة طرد المسلمين من كل الاراضى الاوربية بل قيادة حركة الحروب الصليبية فى بلاد الشام .

لكن سياسة بنى حماد قد غلب عليها طابع السياسة البلهاء فى ذلك الوقت الذى كان الصراع فيه يأخذ شكل الصراع الدينى ولم يكن الصراع السياسى يأخذ الطابع الذى يأخذه فى العصر الحديث فكيف يتسنى لنا أن نقول ان سياسة الحماديين تجاه المسيحيين كانت سياسة التسامح وروح المودة فى حين أن أخوانهم فى العقيدة كانوا يغرقون فى بحور الدماء على مرمى البصر منهم فى صقلية والاندلس وغيرها من الاماكن التى كانت فيها حركة الصراع تدور على قدم وساق فى اقرن الخامس الهجرى. انها لم تكن سياسة تسامح بقدر ما كانت سياسة تخاذل وتقوقع ونوع من السلبية البلهاء لقادة ربما بدوا يغرقون فى الملذات بعد حياة البداوة ولم يعيروا أدنى اهتمام لما يدور من صراع على الارض الاسلامية فى الاندلس وصقلية والتى كانت وفود المهاجرين من هذه الديار تتوافد إلى بلادهم وتصلهم صيحات اخوة الاسلام .

لكن الجانب المسيحى لم يكن ليترك فرصة الا واستغلها لتعميق هذه العلاقات لانهم كانوا ينظرون إلى الامور من زاوية بعيدة وهى تحقيق أهداف مصلحية ومستقبلية هدفها ابعاد الحماديين عن الدخول فى الصراع وتقديم يد العون والدعم والمساندة والاكثر خطورة الانقضاض على الحماديين وامتلاك ديارهم وهذا ما كان سيحدث كما حدث للزيريين فى المهدية لولا ان الله قيض للمغرب الاسلامى قوة الموحدين التى استطاعت ان تسد الطرق على النفوذ الاوربى وتوحد المغرب الاسلامى عام ٥٥٥هـ



تحت قيادتها .

لكن الحماديين لم يحاولوا أن يستفيدوا من الدروس لاسيما بعد أن قام الاسطول النورمانى عام ٥٢٩هـ/ ١١٠٦م بمحاولة اغراق الاسطول الحمادى أمام المهدية كما شهدت سواحل بنى حماد هجرما أوربيا نورمانيا عام ٥٣٧هـ/ ١١١٤م على مدينة جيجل الحمادية وغيرها من المدن الاخرى كما هاجموا مدينة بونة (عنابة) ودخلت أساطيلهم هذا الميناء وعاشت فيه ثم ارتدت بعد ذلك ظافرة ولم تمس بأدنى سوء وامتهنوا الرجال والنساء وأخذوا العديد منهم أسرى واستدلوا واستضعفوا وأغار عليهم المسيحيون فى عقر دارهم بأمرون وينهبون وينكلون والانكى من ذلك أن كل هذه الاحداث تمر ببنى حماد دون أن تهز مشاعر حكامهم أو تشحذ عزائمهم للدخول مع اخوانهم لخوض حركة الجهاد حياة أو موتا، وبينما كان الحماديون ينهجون سياسة التسامح والتعايش من أجل المصالح التجارية كانت المسيحية وثبت الحمية فى نفوس الفرنجة وراح البابوات يباركون جهود المسيحيين فى ايطاليا وجزر البحر المتوسط والاندلس وكان الصراع يمتد ما بين الاسلام والمسيحية والحروب الصليبية تدور رحاها على أبواب أوربا ذاتها وكان من الممكن أن يتغير وجه التاريخ والموقف السياسى العالمى برمته لو تضافر الحماديون مع بنى زيرى والمرابطين والمجاهدين المسلمين فى الاندلس وغيرها ونجحوا وصمدوا فى وجه التيار الاوربى الذى تؤيده كل أوربا بدعوة البابوات لكن موقف الحماديين المخزى من الصراع أطمع الاوربيين فى الهجوم على المدن الساحلية الحمادية نفسها وبدأ استيلاءهم على المهدية عام ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م ومحاولة الاستيلاء على مدينة الجزائر الحمادية وهاجموا بونة لذلك الغرض ولم يمنعهم من التوغل فى الاراضى الحمادية الا ظهور الموحدين الذين حطموا أطماعهم التوسعية، وقد تمسك الحماديون بالسياسة الفاشلة وعلاقتهم المشبوهة مع المسيحيين فعندما

الوقت، ولقد كانت كل هذه التحركات المسيحية تضع فى الاعتبار الاول تلبية الاستجابة لمصالحها وتحقيق مطامعها، رغم اشارة بعض المؤرخين السذج إلى أن هذه الرسالة دليل الود والتقدير للناصر من قبل البابا، مع العلم بأن البابا فى نفس الوقت هو الذى كان يقود حركة طرد المسلمين من كل الاراضى الاوربية بل قيادة حركة الحروب الصليبية فى بلاد الشام .

لكن سياسة بنى حماد قد غلب عليها طابع السياسة البلهاء فى ذلك الوقت الذى كان الصراع فيه يأخذ شكل الصراع الدينى ولم يكن الصراع السياسى يأخذ الطابع الذى يأخذه فى العصر الحديث فكيف يتسنى لنا أن نقول ان سياسة الحماديين تجاه المسيحيين كانت سياسة التسامح وروح المودة فى حين أن أخوانهم فى العقيدة كانوا يغرقون فى بحور الدماء على مرمى البصر منهم فى صقلية والاندلس وغيرها من الاماكن التى كانت فيها حركة الصراع تدور على قدم وساق فى اقرن الخامس الهجرى. انها لم تكن سياسة تسامح بقدر ما كانت سياسة تخاذل وتقوقع ونوع من السلبية البلهاء لقادة ربما بدوا يغرقون فى الملذات بعد حياة البداوة ولم يعيروا أدنى اهتمام لما يدور من صراع على الارض الاسلامية فى الاندلس وصقلية والتى كانت وفود المهاجرين من هذه الديار تتوافد إلى بلادهم وتصلهم صيحات اخوة الاسلام .

لكن الجانب المسيحى لم يكن ليترك فرصة الا واستغلها لتعميق هذه العلاقات لانهم كانوا ينظرون إلى الامور من زاوية بعيدة وهى تحقيق أهداف مصلحية ومستقبلية هدفها ابعاد الحماديين عن الدخول فى الصراع وتقديم يد العون والدعم والمساندة والاكثر خطورة الانقضاض على الحماديين وامتلاك ديارهم وهذا ما كان سيحدث كما حدث للزيريين فى المهدية لولا ان الله قيض للمغرب الاسلامى قوة الموحدين التى استطاعت ان تسد الطرق على النفوذ الاوربى وتوحد المغرب الاسلامى عام ٥٥٥هـ



تحت قيادتها .

لكن الحماديين لم يحاولوا أن يستفيدوا من الدروس لاسيما بعد أن قام الاسطول النورمانى عام ٥٢٩هـ/ ١١٠٦م بمحاولة اغراق الاسطول الحمادى أمام المهدية كما شهدت سواحل بنى حماد هجرما أوربيا نورمانبا عام ٥٣٧هـ/ ١١١٤م على مدينة جيجل الحمادية وغيرها من المدن الاخرى كما هاجموا مدينة بونة (عنابة) ودخلت أساطيلهم هذا الميناء وعاشت فيه ثم ارتدت بعد ذلك ظافرة ولم تمس بأدنى سوء وامتهنوا الرجال والنساء وأخذوا العديد منهم أسرى واستدلوا واستضعفوا وأغار عليهم المسيحيون فى عقر دارهم بأمرون وينهبون وينكلون والانكى من ذلك أن كل هذه الاحداث تمر ببنى حماد دون أن تهز مشاعر حكامهم أو تشحذ عزائمهم للدخول مع اخوانهم لخوض حركة الجهاد حياة أو موتا، وبينما كان الحماديون ينهجون سياسة التسامح والتعايش من أجل المصالح التجارية كانت المسيحية وثبث الحمية فى نفوس الفرنجة وراح البابوات يباركون جهود المسيحيين فى ايطاليا وجزر البحر المتوسط والاندلس وكان الصراع يمتد ما بين الاسلام والمسيحية والحروب الصليبية تدور رحاها على أبواب أوربا ذاتها وكان من الممكن أن يتغير وجه التاريخ والموقف السياسى العالمى برمته لو تضافر الحماديون مع بنى زيرى والمرابطين والمجاهدين المسلمين فى الاندلس وغيرها ونجحوا وصمدوا فى وجه التيار الاوربى الذى تؤيده كل أوربا بدعوة البابوات لكن موقف الحماديين المخزى من الصراع أطمع الاوربيين فى الهجوم على المدن الساحلية الحمادية نفسها وبدأ استيلاءهم على المهدية عام ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م ومحاولة الاستيلاء على مدينة الجزائر الحمادية وهاجموا بونة لذلك الغرض ولم يمنعهم من التوغل فى الاراضى الحمادية الا ظهور الموحدين الذين حطموا أطماعهم التوسعية، وقد تمسك الحماديون بالسياسة الفاشلة وعلاقتهم المشبوهة مع المسيحيين فعندما

سقطت بجاية واستسلم الامير يحيى بن العزيز الحمادى ونقل إلى فاس لحق أخوه الحارث بن العزيز حاكم بونة بالقوات المسيحية فى صقلية وذهب إلى (روجيه الثانى) حاكم صقلية فى ذلك الوقت يطلب مساعدته ونجدته فأرسل معه أسطولا تغلب به على بونة وظل بها بمساعدة النورمان إلى عام ٥٥٢هـ/ ١١٥٦م حتى استولى الموحدون على بونة وقتلوا الحارث وطردوا النورمان .

وهكذا كانت سياسة الحماديين الخارجية مع أوربا فى ذلك الوقت سياسة ساذجة بلهاء لاتنم عن عمق اسلامى ولا فهم لحركة الصراع وموقف الاسلام من الجهاد، كما انها كانت سياسة محبطة لهمم المجاهدين بعدم الاشتراك فى الغزو بل الاكثر بلاهة فتح اسقفية فى بونة فى الوقت الذى تتحول فيه المساجد إلى كنائس فى بلاد الاندلس وصقلية ومالطة وكريت وسردانية وكوريكسا وجزر البليار، لقد فشل الحماديون فى سياستهم الخارجية .

## العلاقات المحلية

## العلاقات الحمادية الهلالية

فى باب سابق وصفحات عديدة سابقة تحدثنا عن الغزوة الهلالية فى بلاد المغرب ومشاركتها فى الاحداث الجارية على أرضه وربما هناك اشارات عديدة عن موقف الهلالية من بنى حماد ولاسيما فى الصراع الخارجى مع بنى زيرى وموقفهم من غزوة سبيبة عام ٤٥٧هـ وكذلك اشتراكهم مع الحماديين فى الهجوم على تلمسان وفاس فى قلب المغرب الاقصى وهجومهم على الحدود الغربية للدولة المرابطية مساعدة لبنى حماد، لكن العلاقات لابد أن تقتضى اشارات أوسع لاسيما ان بنى حماد كان لهم



موقفا مغايرا فى تعاملهم مع القبائل الهلالية لبنى زيرى وحاولوا الاستعانة بهم والاستفادة من طاقاتهم وتحالفوا معهم وتمكنوا بهذه المساعدة من تحقيق عدة انجازات سياسية وحضارية وثقافية واقتصادية وفى تدعيم نفوذهم فى بلاد المغرب الاوسط بل وفى كل دول المغرب وكيف انهم كانوا فى مقدمة القوات التى حاصرت تلمسان ودخلت فاس مما استدعى أمير المرابطين يوسف بن تاشفين أن يراسل حكام بنى حماد شاكيا لهم كيفية الاستعانة بالقوات العربية الهلالية فى غزوهم لبلاده واعتداءاتهم على الحدود الغربية لبلاده .

ولقد كان بنو حماد من الذكاء والحنكة فى علاجهم موضوع القبائل الهلالية بالطرق الدبلوماسية الهادئة اذ انهم نجحوا فى مهادنتهم ومصالحتهم مما جعلهم فى وضع أفضل عن بنى عمومتهم بنى زيرى .

وكما سبق القول أن الغزوة الهلالية بما حشدت من مليون نفس أو أقل من ذلك أو نصف مليون فانها كانت حدثا مضيئا فى تاريخ المغرب حيث حققت وجودها فى الانتصار على المعز بن باديس فى موقعة حيدران ودخول القيروان عام ٤٤٩هـ وتوفقها فترة من الزمن فى بلاد المغرب الادنى ثم استمرت فى التقدم فى بلاد المغرب الاوسط وقد شهد عصر القائد بن حماد بن بلكين (٤١٩- ٤٤٦هـ) ظهور بوادر الزحف الهلالى على بلاد الجزائر ووصول طلائعهم إلى ديار الحماديين قبل دخولهم القيروان ومن هنا فقد وصلوا إلى قرب الجزائر ووجدوا الطريق مفتوحا أمامهم فتقدموا فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى ولقد كانت موقعة سبيبة عام ٥٤٧هـ من أكبر أخطاء الناصر بن علناش اذ اضطرب أمر الناصر بعد ذلك وكثر الزحف الهلالى وتوغل الهلاليون بأعداد كبيرة ومدوا نفوذهم وتوسعوا غربا حتى وصلوا إلى حدود بلاده الغربية ومن ثم تخوف الناصر منهم ومن هجماتهم الساحقة لاسيما بعد حصارهم

للعاصمة القلعة .

ولقد تحالف بنو حماد مع بعض الاعراب وحاولوا اخضاعهم لنفوذهم واضعاف قوتهم وتحالف مع قبائلهم حتى يضمن ولاء الجميع له ونجح الناصر بن حماد نجاحا عظيما فى ذلك وتحالف مع الاثيج وعدى واستعان برجالها فى الدفاع عن دولته واستفاد منهم فى حروبهم ضد بنى زيرى وبنى زيان وعن طريقهم تمكن الحماديون من حكم بعض المدن الزيرية واستعملوهم فى قتال المرابطين وقد استعملوا معهم سياسة التفرقة لدرجة جعلت بعض القبائل العربية تحس بولاء عظيم للدولة الحمادية كما ظهر فى ثورتهم وقتالهم للموحدين منذ دخلوا بجاية وقاوموا عبد الله بن الامير عبد المؤمن بن على وقتلوا قائد جنده (للتوسع فى ذلك يرجع إلى باب القبائل الهلالية فى نفس الدراسة وفى صفحات متفرقة) .

لكن الحماديين أجزلوا لهم العطاء ومنحوهم الاقطاعيات وعينوا منهم مستشارين فى الجيش والقيادة والشرطة وصاهروهم وأدمجوهم فى المجتمع الحمادى واستعانوا بهم فى شتى المجالات التى تحتاج إلى وجودهم ودفعوابعضا منهم للسكنى فى المناطق الجنوبية من التلال والبوادى والمدن والحضر والجبال وساهموا فى وضع الفرشة العريضة لحركة التعريب واندماج الجيش العربى مع البربرى وظهور نسل جديد يتسم بالقوة والشجاعة والشهامة والكرم والرجولة وبذلك تركت الغزوة الهلالية بصماتها واضحة جلية على أرض المغرب الاوسط ولكن رغم سياسة المهادنة والمسالمة لكن التأثير الهلالى العربى لم يكن قويا فى بلاد المغرب الاوسط شأنه شأن البلاد الشرقية الواقعة من حدود مصر غربا حتى بلاد الجزائر ذلك لان الاستقرار فى المغرب الادنى كان أشمل وأوسع كما ان الموحدين نقلوا العديد من الهلالية من المغرب الاوسط بصفة خاصة إلى بلاد المغرب الاقصى مما أوجد بقية بربرية قليلة تتحدث اللغة البربرية حتى وقتنا الحاضر .



## العاقات الحمادية الزناتية

ظهرت حالة العداء بين صنهاجة البربرية وزناتة أيضا منذ أن خلف بلكين بن زيرى الصنهاجى الفاطميين فى حكم المغرب ذلك لان زناتة كانت ترى انها أحق بحكم المغرب من صنهاجة حيث انها كانت صاحبة السيادة فى المغرب الاسلامى بجميع أجزائه فقد كان لها وجود قوى فى المغرب الادنى حيث طرابلس وجنوبها وكذلك قد اتخذت من المغرب الاوسط وطنا لها ومدينة تلمسان مركزا لنفوذها اضافة إلى انها كانت صاحبة السيادة على بلاد المغرب الاقصى وانها كانت تقسم الوطن الصنهاجى قسمين، قسم شرقى وقسم غربى، كما ان البطون الزناتية كانت تضرب فى صحراء افريقية جنوب تونس وسفوح الاوراس والهضاب العليا ونطاق المراعى، ومن هنا كانت الاوطان متجاورة مختلطة والعداء بينهما عداء تقليدى يضرب بجذوره فى عمق التاريخ المغربى منذ القدم وقبل الرومان وقبل الفتح الاسلامى وبعد الفتح وطوال العصر الاموى والعباسى والفاطمى وكان لها دور فى حياة المغرب .

لكن كان رحيل الفاطميين فى القرن الرابع الهجرى إلى مصر وتركهم المغرب تحت حوزة وسيطرة صنهاجة، قد أبرز الصراع بصورة واسعة وجعله صراعا طويلا مستمرا لا ينقطع بل انه اكتسب صفة الدموية واكتسب التباغض صفة عالمية دولية، وكانت زناتة تناصب الفاطميين العداء أثناء حكمهم فكيف يكون الحال بعد رحيلهم لقد أرادت زناتة أن تقوض كيان الدولة الفاطمية بمآزرتها لثورة اليزيد بن كيداد لولا الانتصار الاخير على هذه الثورة .

لكن تصدى زيرى بن مناد الصنهاجى والد بلكين مؤسس الاسرة الزيرية والحمادية لهذه القبائل واسخانه (قتله) فيها جعل جموع زناتة ترحل من المغرب الاوسط وتفرق شملها بعد أن دمرت عاصمتها «أفكان» وكانت مدينة بالمغرب الاوسط

بالقرب من تاهرت واسترد الصنهاجة تاهرت منهم وسيطرت صنهاجة على المغرب الاوسط مدينة مدينة وقصدت طبنة وأشير وتلمسان والمسيلة وبسكرة وبغاية. وهكذا فقدت زناتة قوتها ونفوذها فى المغرب الاوسط التى اضطرت تحت الهجوم الكاسح أن ترحل عنه ولذا صار المغرب الاوسط لاول مرة منذ الفتح الاسلامى شبه خال من زناتة .

لكن بعد رحيل الفاطميين كان على زناتة أن تزحف من جديد على ديارها الاولى فى المغرب الادنى والاوسط لاسيما أن الفاطميين صحبوا معهم العديد من القبائل فى حملة الفتح التى قادها جوهر الصقلى (كتامة صنهاجة وغيرها) وتطلعوا إلى انتزاع الحكم من بلكين والقدرة على مناوئته فى السيادة على البلاد، وبذل بلكين بن زيرى الصنهاجى الحاكم القوى للمغرب الاوسط والادنى وما يتم فتحه فى بلاد المغرب الاقصى كل قوة لكنه لم يستطع أن يقضى على الخطر الزناتى نهائيا فى المغرب الاقصى فانه ما كاد يعود أدراجه إلى القيروان حتى استولى الزناتيون على سجلماسة وأعادوا الكرة من جديد فى توحيد الصف وأعلاء الكلمة والعمل يدا واحدة لتدمير قوة الصنهاجيين الذين أصبحوا هم القوة الوحيدة فى الميدان والمتحكمة فى مصير المغرب سياسيا بعد أن توحدت كلمة مغراوة وبدأت تباشر العدوان والهجوم على المدن التى كانت تحت يدها لمحاولة انتزاعها من يد بنى زيرى، وفى ظل المتغيرات التاريخية زال الخطر الصنهاجى عن المغرب الاقصى لانشغال بنى زيرى بمشاكلهم فى المغرب الادنى وأصبح التفكير فى المغرب الاقصى لايشغل بالهم لكن أصبح همهم الوحيد هو المحافظة على المغرب الاوسط ودفع عدوان زناتة على حدود الدولة الغربية وفى عهد المنصور بن بلكين بن زيرى ثانى خلفاء الزيريين فانه دفعا للخطر الزناتى عين أخاه حماد بن بلكين قائدا للجبهة الغربية وأمده بكل ما يحتاج من عتاد وقوات وأموال للوقوف بحزم أمام عدوان زناتة ومن ناصرها من البطون الزناتية الصغرى واستغل حماد هذه الظروف



وحاجة الدولة اليه فاشترط على ابن أخيه باديس بن المنصور أن يتولى حكم الاقاليم التى يستطيع تحريرها من أيدى زناتة وحقق له كل ما أراد وظهرت دولة بنى حماد على مسرح الاحداث فى أراضى زناتة بالمغرب الاوسط وهكذا أقام حماد دولته على حساب الوجود الزناتى بالمغرب الاوسط ومن هنا اشتدت العداوة وزادت حدتها وأصبح طابع العلاقة هو العداء منذ اللحظة الاولى التى ظهرت فيها دولة بنى حماد واستحكم العداء منذ اليوم الاول لظهورها على مسرح الاحداث فقد كانت زناتة لاتزال تسيطر على الجزء الشرقى من الجزائر إلى قرب تاهرت والقطاع الغربى من المغرب الاقصى بعد أن ارتد على أعقابه مهزوما أكثر من مرة وحاول الزناتيون الاغارة على المغرب الاوسط لكن بنى حماد كانوا لهم بالمرصاد وتم عقد صلح بين المعز بن باديس بن زيرى وبين زناتة على أن يقدم المعز لهم كل عام عددا من الخيول والسلاح .

لكن زناتة وقد أدركت بعد خوضها حروبا طاحنة مع بنى زيرى تفرق شملهم وشتتت قبائلهم وفقدوا قوتهم فى المغرب الاوسط وفقدوا زهرة فرسانهم ونخبة رجالهم وخاضوا حروبا استمرت قرونا من الزمان لم يحالفهم النصر الا قليلا .

ومن هنا كان عليهم أن يصافحوا اليد التى امتدت لهم بالصلح والمهادنة من حماد بن بلكين وابنه القائد بن حماد اللذين استطاعا ان يكسرا حدة الجزء الذى تبقى منها بالمغرب الاوسط وتم اخضاعهم واعترافهم بالنفوذ السياسى والسيادة للاسرة الحمادية ومن هنا كان هناك نوع من الاستقرار فى العلاقات، لكن هذا الاستقرار الوقتى لم يمنع من سيادة زناتة على الجزء الغربى للجزائر، ولكن عصر القائد بن حماد (٤١٩ – ٤٤٦هـ) قد شهد قيام زناتة بالاعتداء على الدولة الحمادية وقام حمامة بن زيرى المعراوى الزناتى بالهجوم على الجزائر بعد أن زادت مطامع زناتة فى الاستيلاء على المغرب الاوسط وطرد بنى حماد إلى افريقية لكى يعيشوا فى كنف أبناء عمومتهم

بنى زيرى أصحاب القيروان، واشتبكت زناتة مع القائد بن حماد وكادت تقضى على دولته لولا أن القائد أدرك الامر واستخدم سلاح المال الذى بذله بسخاء وسعة ووزع الاموال الكثيرة سرا على رؤساء بعض البطون مما دفعهم إلى الانسحاب ليلا من ميدان المعركة وترك حمامة بى زيرى بواجه قوات بنى حماد بقيادة القائد فانهزم الزناتيون واضطر حمامة إلى طلب الصلح والعودة إلى فاس بالمغرب الاقصى، وبذلك تمكن القائد من اخضاع بقايا زناتة فى المغرب الاوسط بعد أن فر الكثير منها إلى الصحراء خوفا من بطش الحماديين والتنكيل بهم وخضعوا لكيان وسلطة الدولة واعترفوا بالحكم الحمادى .

واتبع الحماديون عدة وسائل مع زناتة وصولا إلى اخماد ثوراتهم المتلاحقة وذلك بالتفريق بين البطون واستمالة بعضها ومصاهرة بعض منها كفرع زناتة. وعلى هذا النحو لم يترك الحماديون وسيلة الا واتبعوها مع زناتة، ورغم ان المرابطين هزموا زناتة وشتتوا جموعهم وقلصوا نفوذهم الا انهم كانوا يتحالفون مع المرابطين ضد بنى حماد، لكن الحماديين من جانبهم كانوا يستقبلون أمراء زناتة الفارين من وجه المرابطين ويجزلون لهم العطاء ويقدمون لهم كل عون نكاية فى المرابطين .

بل ان عهد الناصر بن علناش (٤٥٤– ٤٨١هـ) شهد نوعا من التعاون بين الدولة وزناتة ذلك لان الناصر عندما قرر الهجوم على المهدية عاصمة بنى زيرى عام ٤٥٧هـ فان هناك العديد من البطون الزناتية قد صحبته فى غزوته للمغرب الادنى لكن عندما اشتدت المعركة فى سبيبة وازاء اغراء تميم بن المعز لهم بالاموال فانهم انسحبوا من ميدان المعركة تاركين الناصر يواجه عار الهزيمة والفشل .

وفى عهد الناصر بن المنصور (٤٨١– ٤٩٨هـ) ثارت عليه زناتة عدة ثورات مما اضطره إلى الدخول معها فى العديد من المعارك التى منيت فيها زناتة بالفشل والهزيمة.



وهكذا مع نهاية القرن الخامس الهجرى كانت قبضة زناتة قد أصابها الضعف وعصفت الفرقة بهذه القبائل لاسيما ان كثيرا من بطونها كانت تهاجر إلى الاندلس للاشتراك فى حركة الجهاد المقدس بعد أن أغلق ميدان المغرب أمامهم وفشلوا فى اقامة دولة لهم بعد أن خضعوا للمرابطين ومن قبل للحماديين .

وهكذا ضاع تاريخ زناتة بعد أن تفرقت كلمتهم وأصبح حب الترحال والتنقل شعارهم فلم يستطيعوا توحيد صفوفهم وتكوين حلف قوى لهم يصمد أمام الاخطار وهكذا أخفقوا فى ايجاد نوع من الوحدة وبناء دولة .

ومن ثم ظلوا يناصبون العداء الدائم والمناوشات والاغارة على المدن وسلب الاموال حتى قيام الدولة الموحدية كما كانوا السبب فى استنزاف موارد دولة بنى حماد وكان الغزو الهلالى قد استنزف أيضا موارد دولة بنى زيرى فى المهدية وهكذا سقطت الدولتان ضحية الفرقة والعداء المستمر والدائم والطويل من قبائل زناتة .

بنى زيرى أصحاب القيروان، واشتبكت زناتة مع القائد بن حماد وكادت تقضى على دولته لولا أن القائد أدرك الامر واستخدم سلاح المال الذى بذله بسخاء وسعة ووزع الاموال الكثيرة سرا على رؤساء بعض البطون مما دفعهم إلى الانسحاب ليلا من ميدان المعركة وترك حمامة بى زيرى بواجه قوات بنى حماد بقيادة القائد فانهزم الزناتيون واضطر حمامة إلى طلب الصلح والعودة إلى فاس بالمغرب الاقصى، وبذلك تمكن القائد من اخضاع بقايا زناتة فى المغرب الاوسط بعد أن فر الكثير منها إلى الصحراء خوفا من بطش الحماديين والتنكيل بهم وخضعوا لكيان وسلطة الدولة واعترفوا بالحكم الحمادى .

واتبع الحماديون عدة وسائل مع زناتة وصولا إلى اخماد ثوراتهم المتلاحقة وذلك بالتفريق بين البطون واستمالة بعضها ومصاهرة بعض منها كفرع زناتة. وعلى هذا النحو لم يترك الحماديون وسيلة الا واتبعوها مع زناتة، ورغم ان المرابطين هزموا زناتة وشتتوا جموعهم وقلصوا نفوذهم الا انهم كانوا يتحالفون مع المرابطين ضد بنى حماد، لكن الحماديين من جانبهم كانوا يستقبلون أمراء زناتة الفارين من وجه المرابطين ويجزلون لهم العطاء ويقدمون لهم كل عون نكاية فى المرابطين .

بل ان عهد الناصر بن علناش (٤٥٤– ٤٨١هـ) شهد نوعا من التعاون بين الدولة وزناتة ذلك لان الناصر عندما قرر الهجوم على المهدية عاصمة بنى زيرى عام ٤٥٧هـ فان هناك العديد من البطون الزناتية قد صحبته فى غزوته للمغرب الادنى لكن عندما اشتدت المعركة فى سبيبة وازاء اغراء تميم بن المعز لهم بالاموال فانهم انسحبوا من ميدان المعركة تاركين الناصر يواجه عار الهزيمة والفشل .

وفى عهد الناصر بن المنصور (٤٨١– ٤٩٨هـ) ثارت عليه زناتة عدة ثورات مما اضطره إلى الدخول معها فى العديد من المعارك التى منيت فيها زناتة بالفشل والهزيمة.



وهكذا مع نهاية القرن الخامس الهجرى كانت قبضة زناتة قد أصابها الضعف وعصفت الفرقة بهذه القبائل لاسيما ان كثيرا من بطونها كانت تهاجر إلى الاندلس للاشتراك فى حركة الجهاد المقدس بعد أن أغلق ميدان المغرب أمامهم وفشلوا فى اقامة دولة لهم بعد أن خضعوا للمرابطين ومن قبل للحماديين .

وهكذا ضاع تاريخ زناتة بعد أن تفرقت كلمتهم وأصبح حب الترحال والتنقل شعارهم فلم يستطيعوا توحيد صفوفهم وتكوين حلف قوى لهم يصمد أمام الاخطار وهكذا أخفقوا فى ايجاد نوع من الوحدة وبناء دولة .

ومن ثم ظلوا يناصبون العداء الدائم والمناوشات والاغارة على المدن وسلب الاموال حتى قيام الدولة الموحدية كما كانوا السبب فى استنزاف موارد دولة بنى حماد وكان الغزو الهلالى قد استنزف أيضا موارد دولة بنى زيرى فى المهدية وهكذا سقطت الدولتان ضحية الفرقة والعداء المستمر والدائم والطويل من قبائل زناتة .

# الفصل السادس

## نهاية العرش الحمادى

واجهت العرش الحمادى عدة صعوبات بالغة منذ ظهور السيادة الحمادية على مسرح الاحداث فى المغرب الاوسط كدولة شبه مستقلة وكان استقلالها عن بنى زيرى فى القيروان وهى دويلة فى المهد قد جعلها تواجه صعوبات متعددة وقوى كثيرة من الداخل والخارج فى الداخل كما سبق القول واجهت قوى قبائل زناتة العدو التقليدى والمنافس الوحيد على عرش المغرب الاوسط لكن حمادا وابنه القائد استطاعا أن ينزلا بها العديد من الهزائم وكانت بين الدولة الحمادية وزناتة العديد من المعارك والحروب والوقائع ولم تفلح الدولة الحمادية فى القضاء نهائيا على قوة زناتة وظلوا يثيرون القلاقل والمتاعب فى وجه الامراء مما أضعف قوة الدولة وجعلها لا تقدر على مواجهة التحديات الخارجية، لكن يبدو ان هذه المخاطر قد قل شأنها منذ عهد الناصر بن علناش الحمادى، لكن كان عليهم أن يواجهوا خطر أبناء عمومتهم بنى زيرى الذين كانوا يرون انهم أصحاب السلطة الشرعية فى بلاد المغرب الاوسط وان استقلالهم عن الدولة قد جاء فى ظروف لم يكن المسئولون يدركون أن هذا الاستقلال سوف يصبح بهذه الصورة واقعا تاريخيا وقد كان الصراع بين القوتين منذ عام ٤٠٥هـ عندما أعلن حماد بن بلكين استقلاله وساعدت الظروف بنى حماد على تحقيق حلمهم فى الاستقلال التام لكن هذا التحدى للحماديين استمر حتى سقوط دولة بنى زيرى، وظل الصراع بين القوى الثلاث بنى حماد، بنى زيرى، زناتة طوال تاريخ هاتين الدولتين حتى ظهور الموحدين كقوة سياسية ودينية استطاعت توحيد المغرب .

لكن العرش الحمادى كان عليه أن يواجه أيضا قوة المرابطين القوية النامية التى



استطاعت أن تسيطر على المغرب الاقصى وبدأت تدق أبواب الجزائر من أجل السيطرة على المغرب الاوسط وبسطوا نفوذهم السياسى على تلمسان والجزائر ووقفوا عند هذه الحدود وهى الحدود السياسية الشرقية للمرابطين والتى كانت تهدد الحماديين ولقد كان بامكان المرابطين أن يبسطوا نفوذهم على كل أراضى المغرب الاوسط والادنى لولا احساسهم برابطة الدم وصلة القربى والاصل الواحد (صنهاجة) وهكذا أضيف تحد آخر غير زناتة وبنى زيرى للحماديين حد من طموحاتهم ووقف سدا منيعا أمام مد أبصارهم للمغرب الاقصى، ثم كان التحدى الرابع وهو تحدى القبائل العربية الهلالية وهو التحدى الذى بدأ يطرق أبواب المغرب الاوسط فى أواخر عهد القائد بن حماد ٤٤٦هـ وذلك بعد السيطرة على القيروان عام ٤٤٩هـ وكان حصارهم الشديد والمتواصل بعد معركة سبيبة وهزيمة الناصر بن علناش عام ٤٥٧هـ وقراره بترك العاصمة القلعة عام ٤٦١هـ والرحيل إلى بجاية كما رحل المعز بن باديس سابقا من القيروان إلى المهدية بعد أن رأى الناصر بن علناش انه لاقبل له بالقوة العربية الهلالية التى لاتعرف الهزيمة فكان قراره إلى بجاية بعد أن أشار عليه وزيره ابن البعبع لتحاشى هجومهم الساحق على عاصمته القلعة وكانت سياسة المهادنة خروجا من هذا المأزق السياسى الذى وقع فيه الناصر بن علناش بتسببه فى معركة سبيبة .

وكان التحدى الخامس الذى واجهه بنو حماد وكان السبب الرئيسى وراء نهاية العرش الحمادى والحافز الاول للتدخل الموحدى السريع للحيلولة دون سقوط بجاية فى أيدى النورمان هو تحدى القوات الفرنجية القادمة من أوربا بعد أن استولى النورمان على صقلية عام ٤٨٤هـ وهددوا السواحل المغربية واستولوا على المهدية بعد عدة محاولات عام ٥٤٣هـ وقضوا بذلك على دولة بنى زيرى وأحاطت الاخطار بالدولة وكان الخطر النورمانى هو أشد الاخطار التى عصفت بالدولة الحمادية بعد أن بدأ يسيطر على الموانئ

الساحلية التابعة لبنى حماد وبعد أن سيطروا على المهدية .

ولقد اصطدم الحماديون بكل هذه القوى لانهم وقعوا فى أخطاء تاريخية قاتلة تأخذ عليهم عبر حكمهم للبلاد ومنها انهم تركوا أبناء عمومتهم بنى زيرى يواجهون الزحف الهلالى الجارف منفردين اللهم الا من ألف فارس أرسلها القائد بن حماد للمعز بن باديس كمساعدة رمزية وكان من الممكن أن يبدى له من النصائح فى اتباع الاسلوب الذى اتبعه هو نفسه بسياسة الاحتواء والمسالمة والتنازل عن بعض الاقطاعات واشراكهم فى الجندية والشرطة لكنه تركهم يواجهون المصير وشجعوا الثورات ضدهم وأخضعوا العديد من المدن الزيرية لنفوذهم كما انهم لم يعيروا الالتفات إلى الخطر النورمانى وسقوط صقلية ومالطة وغيرها من الجزر وعدم وجود أدنى اهتمام بالصراع الدائر يدل على سذاجة وبلاهة من قبل القائمين على الامر فى العاصمة بجاية، بل انهم لم يمدوا يد العون لابناء عمومتهم بنى زيرى وتركوهم نهبا ومطمعا ونهاية لدولتهم أمام خطر النورمان بل انهم لم يحركوا ساكنا لمساعدة الحسن بن على آخر خلفاء بنى زيرى، بل اننا نجد معاملة قاسية منهم له فكان الحسن بن على قد أرسل أولاده الكبار على ويحيى وتميم إلى ابن عمه يحيى بن العزيز الحمادى صاحب بجاية لكى يأذن لهم بالمرور فى أرضه وصولا إلى أمير الموحدين عبد المؤمن بن على فأذن له يحيى فسار اليه الحسن بن على لكن يحيى تنكر له وخدعه وذلك لان الحسن بن على عندما وصل إلى بجاية رفض أن يقابلة بل أمر بأن يؤخذ سجينا إلى الجزائر وأصدر أوامره بمنعه من اكمال سفره وأن يكون مقامه بمدينة الجزائر هو وأولاده تحت حراسة مشددة، وعرف الحسن انه خدع فى ابن عمه ولقد كان الدافع وراء منعه من اكمال السير هو خوفه من الوصول إلى عبد المؤمن بن على خليفة الموحدين وربما يكون اتصال الحسن مقدمة لاستيلاء الموحدين على بجاية ومنعه من السفر والكتابة بما جرى



فى بلاده إلى الخليفة عبد المؤمن، كذلك فان التنافس والحروب والبغضاء بين الحماديين وأبناء عمومتهم كانت السبب وظل الحسن مقيما بالجزائر ومنع من الذهاب لمقابلة عبد المؤمن بن على لشرح قضية بلاده ولنصر المسلمين من نصارى صقلية ويعيد المهدية وقد حقق الله للحسن أمنيته حين قدم لبجاية بقوات الموحدين واستولى عليها عام ٥٤٧هـ ولم يدم بقاء النورمان بالمهدية طويلا .

ولقد كانت نهاية العرش الحمادى فى عهد الامير يحيى بن العزيز ابن المنصور بن الناصر بن علناش الحمادى (٥١٠- ٥٤٧هـ/ ١١٢٧- ١١٥٢) ذلك لانه عندما تولى يحيى بن العزيز عرش بنى حماد كان المرابطون قد بدأوا يدخلون طور الانهيار وزوال هيبتهم فى نفوس الاندلسيين والمغاربة وكان محمد بن تومرت الملقب بالمهدى قد نجح فى أن يجمع حوله عددا من الانصار من قبيلة المصامدة بعد أن عاد إلى المغرب وكان محمد بن تومرت المصمودى قد وصل من المشرق إلى بجاية عام ٥٨٢هـ فى عهد العزيز بن المنصور (٥٩٨- ٥١٥هـ) وهناك سعى إلى العزيز من وشابة وائتمر عليه فخرج إلى قبيلة «ورياكل الصنهاجية» ونزل عندهم وأقام يدرس العلم وطلبه العزيز لكن أهل هذه القبيلة منعوا قواته وقاتلوا دونه وكان قد التقى بعبد المؤمن بن على بالمغرب الاوسط ثم ارتحلا سويا إلى المغرب وأخذ يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويهاجم أمراء العصر المسلمين ويتهمهم بأنهم مسؤلون عما حل بالمجتمع من مصائب وما وصل اليه من انحلال واستطاع بعد جهود متصلة أن يهدد الدولة المرابطية وأن يتهم المرابطين بالزندقة ورميهم بالضلالة والكفر وما أصاب البلاد من فساد وتهيأ ابن تومرت لكى ينال من المرابطين ونجح محمد بن تومرت المصمودى فى كسب الانصار لدعوته الجديدة وجمع جيشا من المصامدة وهزم المرابطين عام ٥١٧هـ/ ١١٢٣م وكانت دولة المرابطين قد مضى على ظهورها وقت طويل وبدأ الفساد يدب

فى أوصالها وتفقد أثرها فى نفوس القوم .

وعلى الجانب الشرقى كان بنو زيرى فى المهدية فى الرمق الاخير لبقاء دولتهم بعد أن بدأوا يتعرضون لغزو النورمان فى أيام الحسن بن على كما سبق القول وكان ظهور الموحدين قد جعل المرابطين لا ينظرون خارج حدودهم السياسية وجعلهم لا يتفرغون الا لمواجهة مشاكلهم الداخلية وكان يحيى بن العزيز كما سبق القول مولعا بالنساء ومحبا للدعة والراحة ومولعا بالصيد وكان عبد االمؤمن بن على يصف حكام بجاية بالقسوة والجبروت وهو الذى عاش زمنا فى المغرب الاوسط .

ولكن كانت الدولة الحمادية قد استقرت بالجزائر وكانت قوية مرهوبة الجانب لفترة تزيد عن اثنين وستين عاما ثم أصيبت ببعض الضعف ولكنها لم تصل إلى درجة دولة بنى زيرى واذا ألقينا نظرة على حال الدولة فاننا نستشف من مجريات الاحداث انها كانت تتسم بالقوة التامة منذ تأسيسها عام ٤٠٥هـ إلى عام ٤٦٠هـ حتى سنة قرار الناصر بالرحيل إلى بجاية وهزيمته أمام تميم بن المعز عام ٤٥٧هـ فى سبيبة، ومن هذه السنة إلى زوال العرش الحمادى عام ٥٤٧هـ كانت قوتها تختلف باختلاف أمرائها الذين جلسوا على عرشها ولعل أكبر سبب عجل بسقوطها هو عدم مبالاتها بما يجرى لاشقائها بنى زريرى وتركها وحيدة منفردة تدافع العرب الهلالية والنورمان فى صقلية وأخيرا فى المهدية حتى سقطت صريعة أمامها ثم سرت العدوى اليها فأصيبت ببعض ما أصيب به بنو زيرى ولو طال بها الامد لاحتل النورمان كثيرا من مدنها الساحلية ولكن أواخر النصف الاول من القرن السادس الهجرى كان يتمخض عن ظهور قوة كبرى فتية لتجابه قوة النورمان والاسبان المتكالبة على المغرب الاسلامى ولتوحد شمل المغرب بأقسامه المختلفة والاندلس المشتت وتلك القوة التى نتحدث عنها هى قوة الموحدين التى كانت وراء سقوط هذه العروش المتهالكة والتى لم يكن يعنيها



من أمر الدين الا اسمه ومن أمر الاسلام الا الحكم تاركة الامور تجرى بلا وعى ولا دراسة ولا خطة ولا نظرة موضوعية للاحداث والمشاركة فيها، بل كانت الاطماع فى ديار الاسلام هى نهجهم وابتزاز الاهالى وجمع المال هو هدفهم، ولم ينظر إلى بنى زيرى الذين كانوا يعانون فى المهدية ويلات الالتفاف النورمانى والذين ملكوا جميع البلاد الاسلامية فى جنوب أوربا ويقومون بتحريض بابوات روما بدك ديار المسلمين وبنى حماد يراسلون البابوات فى روما ويرسلون لهم الهدايا ويشترون بأموال المسلمين الاسرى المسيحيين ويتم ارسالهم إلى روما ويعذب المسلمون فى الاندلس وصقلية، بل الهجوم على المهدية قد تم بتحريض ومباركة من البابا .

ويذكر ابن الاثير فى كتابه الكامل أن الحقد التاريخى الكامن فى نفس يحيى بن العزيز ونفوس آبائه وأجداده كان من أهم الاسباب التى دفعت يحيى بن العزيز للهجوم على المهدية عام ٥٢٩هـ/ ١١٣٤م كما سبق أن هاجمها جده الناصر بن علناش عام ٤٥٧هـ، فى حين يرى ابن عذارى المراكشى أن القبائل العربية هى التى دفعت يحيى ابن العزيز إلى غزو المهدية ومساعدته من أجل تملكها ويذكر ابن أبى دينار، أن يحيى ابن العزيز قصد المهدية لما سمع بأن الحسن بن على هادن روجار الثانى صاحب صقلية وتعهد بدفع جزية سنوية كبيرة له .

ويذكر الجيلالى فى تاريخ الجزائر ان الوفد الذى قدم من المهدية ليحيى بن العزيز شرح له سوء حال البلاد مع النورمان وسوء سلوك الحسن بن على ومصادقته لروجار وكان لجوء الحسن بن على إلى الصلح مع النورمان نوعا من الاستسلام فى نظر فقهاء المسلمين رغم ان الظروف أملته عليه ولم نسمع عن محاولة حمادية للوقوف بجانب بنى زيرى فى هذه الظروف وان اهانه النورمان للزيريين كانت فرصة للحماديين للاستيلاء على أملاكهم .

بل ان النزاع الذى وقع بين الحماديين والزيريين كان نوعا من الصراع على أملاك الدولة الزيرية وميراثها وبينما كانت مشاكل الحسن بن على آخر سلاطين بنى زيرى تتكالب عليه فى الداخل والخارج كان الحماديون يستغلون الفرصة وينقضون على الدولة الزيرية من أطرافها كما فعل النورمان والعرب .

واذا كان الناصر والمنصور والعزيز قد حاولوا التقرب إلى أبناء عمومتهم عن طريق المصاهرة الا ان يحيى بن العزيز هذا لم يقدم أية محاولة لابناء عمومته لذا أثبتت الاحداث ان الزيريين كانوا أكثر انسانية وولاء للدم والصلة كموقف تميم بن المعز وصلحه مع الناصر بن علناش وموقف الحسن بن على من الاسطول الحمادى الذى جاء لغزو المهدية ومنع أسطول صاحب صقلية من الاشتباك معه وموقف المعز بن باديس مع حماد بن بلكين مؤسس الاسرة عام ٤٠٨هـ وموقف المعز بن باديس أيضا مع القائد بن حماد عام ٤٣٢هـ ولم تجد هذه المواقف أدنى صدى لدى الحماديين بل ان من حسن النية ما جاء من تصرفات الحسن بن على وذهابه إلى بجاية ما حدث له من أحداث كما سبق القول .

بل ان هذه الافعال وما حدث من أحداث جعلت النورمان لا يهابون المرابطين بعد أن كانت ترتعش فرائصهم عند سماعهم بالمرابطين والذين غزوا صقلية أكثر من مرة ولكن لم يأت عام ٥٣٧هـ/ ١١٤٢م الا وكان النورمان يهاجمون مدن الحماديين أصدقائهم فهاجموا مدينة جيجل وقد نجح روجال الثانى فى أخذها عنوة وفى عام ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م فتحت برشك وسواحلها وسبوا أهلها وباعوهم فى صقلية. وبعد هذه الاحداث فطن الحماديون إلى أخطائهم فى الاختلاف مع بنى زيرى، عندما قدم النورمان يغيرون على شواطئ المغربين الاوسط والادنى وأصبحوا قبل تحرك الموحدين مسيطرين على الساحل الممتد عبر ليبيا وتونس والجزائر حتى عناية فى



الساحل الشرقى للجزائر. وكان الوجود النورمانى سببا فى تقدم الموحدين شرقا للسيطرة على المغرب الاسلامى لاسيما بعد مراسلات الحسن بن على الذى كان سجينا فى الجزائر .

ولقد كانت سياسة الموحدين ترمى إلى توحيد المغرب الاسلامى كله والسيطرة على الجانب الشرقى من بلادهم وكانت بجاية بنى حماد والقلعة التى ثبت ضعفها وتخاذلها فى وجه النورمان وهادنت المسيحيين بعد أن سيطروا على الساحل المغربى الممتد من ليبيا وتونس وجزء من المغرب الاوسط، ومن ثم استنجد المسلمون بالخليفة عبد المؤمن بن على الموحدى ذلك لان دولة بنى حماد فى ظل حكم يحيى العزيز لم تعد قادرة على حماية بلادها من احتلال النورمان وكان الموحدون ينظرون إلى امداد يحيى بن العزيز الحمادى لتاشفين بن على بن يوسف آخر حكام المرابطين عام ٥٣٩هـ/ ١١٤٢م بالعدة والسلاح والرجال، كما ان لجوء بقايا المرابطين إلى الحماديين فى بجاية، كما ان القبائل العربية المنتشرة فى تونس والجزائر كانت تسبب القلاقل لدى الموحدين وتخل بأمن المغرب الاقصى، ومن هنا كان الموحدون يرنون بأبصارهم إلى الدولة الحمادية بعد أن اشتبكوا مع قواتهم بقيادة ميمون بن حمدون حين هزم وهو يساعد تاشفين بن على بن يوسف بن تاشفين وهرب إلى تلمسان ثم أخذ طريقة مسرعا إلى الشرق، ومن أجل ذلك تحرك عبد المؤمن واتخذ قراره بالاستيلاء على بجاية فتحرك من عاصمته عام ٥٤٦هـ/ ١١٥٢م وأعد أسطوله وحشد قواته وتظاهر بالرغبة فى العبور إلى الاندلس ومن ثم أفشل مخطط الحماديين وهاجمهم على حين غفلة وطرق الجزائر وفر منها واليها الحمادى وهو القائم بن العزيز شقيق الامير الحاكم يحيى وعندما وصل القائم إلى أخيه لم يكن قد أخذ للامر أهبته واستعداده ولم يجد وسيلة أمامه ولا وقتا الا والموحدون يحاصرون بجاية وضيقوا عليها الخناق

واستسلمت المدينة فى ذى القعدة ٥٤٧هـ وأحدث سقوط بجاية رد فعل عنيف فى المغرب لان سقوطها يعنى سقوط صنهاجة كبرى القبائل البربرية وتقدمت جيوش الموحدين بقيادة عبد الله ابن عبد المؤمن إلى القلعة والتى كانت العاصمة الثانية للبلاد ودخل الموحدون القلعة وأشعلوا النيران فى مساكنها وقاموا بعملية تخريب شملت كل المدينة وامتلأت أيدى الموحدين بالغنائم والاسرى والسبايا أقوال غريبة (جوتيه) ولقد كانت أعمال الموحدين فى بجاية والقلعة سببا فى اثارة القبائل العربية الهلالية من الاثيج ورباح وزغبة وغيرها وجهز عبد المؤمن جيشا لقتالهم لكنهم هزموا جيش الموحدين وقاتلوا قائد هذا الجيش، لكن عبد المؤمن حشد كل جيوش الموحدون لقتالهم ونشبت معركة شديدة هزم فيها العرب (مصطفى أبو ضيف أحمد، أثر العرب فى تاريخ المغرب) واستولى الموحدين على أملاكهم ونجحوا فى القضاء على ملك العرب فى هذه الانحاء عام ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م وحققوا فى ذلك نجاحا كبيرا فى السيطرة على الجزائر الحالية .

ولقد كانت خيانة ميمون بن حمدون وزير يحيى بن العزيز الحمادى وارتماؤه فى أحضان الموحدين من أكبر العوامل التى ساعدت على وضع نهاية للعرش الحمادى، ولقد خرج يحيى بعد الهزيمة هاربا بأسطوله يريد صقلية ومنها إلى بغداد للاستعانة بالخلافة العباسية لكن عدل عن ذلك ورحل إلى بونة (عناية) نازلا لدى أخيه الحارث بن العزيز لكنه أساء معاملته فاضطر إلى الخروج إلى قسنطينة لدى الحسن بن العزيز أخيه فأحسن معاملته وتحصن يحيى بقلعة قسنطينة استعدادا لمقابلة هجوم الموحدين لكن عبد المؤمن بن على ضيق عليه الخناق مما اضر يحيى بن العزيز إلى التفاوض وأعلن خضوعه للموحدين وأما أخوه عبد الله فقد فر إلى صقلية واستنجد بالنورمان فأمدوهم بأسطول حاصر بونة وأعانهم العرب فاستولوا عليها وظلوا يحكمونها حتى عام



٥٥١هـ/ ١١٥٦م لكن الموحدين استولوا على المدينة للمرة الثانية وتعتبر اعادة الاستيلاء على بونة نهاية للدولة الحمادية والاستيلاء على كل أملاك بنى حماد كما كان استسلام الامير يحيى بن العزيز فى قسنطينة اعلانا بنهاية العرش الحمادى، ولولا ظهور الموحدين لسقطت دولة بنى حماد فى أيدى النورمان الذين استولوا على المهدية عام ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م والذين كانوا يستعدون للزحف على بجاية بعد أن نقضوا صلحهم مع الحماديين ولم يعد الصلح يحقق مصالحهم .

وهكذا طويت صفحة من صفحات التاريخ الاسلامى فى المغرب الاوسط ليدخل المغرب الاسلامى مرحلة جديدة من تاريخه والذى توحد فيه على أيدى الموحدين ولم تعد هذه الوحدة للظهور مرة أخرى عبر أدوار التاريخ المختلفة حتى وقتنا الحاضر وان كانت محاولات توحيد المغرب العربى فى مجلس اتحاد المغرب العربى لم تبلغ ما يصبو اليه أهل المغرب من قيام المغرب الكبير ككيان واحد ودولة واحدة فى ظل الاسلام والعروبة لكى تواجه التحديات التى يتعرض لها والمخاطر التى تتهدده .

## أمراء بنى حماد الزيريين الصنهاجة

## حكام المغرب الاوسط (الجزائر)

١ – حماد بن بلكين بن زيرى الصنهاجى
٤٠٥- ٤١٩هـ- ١٠١٤- ١٠٢٨م

٢ – القائد بن حماد بن بلكين
٤١٩- ٤٤٦هـ- ١٠٢٨- ١٠٥٤م

٣ – محسن بن القائد بن حماد
٤٤٦- ٤٤٧هـ- ١٠٥٤- ١٠٥٥م

٤ – بلكين بن محمد بن حماد
٤٤٧- ٤٥٤هـ- ١٠٥٥- ١٠٦٢م

٥ – الناصر بن علناش بن حماد
٤٥٤- ٤٨١هـ- ١٠٦٢- ١٠٨٩م

٦ – المنصور بن الناصر بن علناش
٤٨١- ٤٩٨هـ- ١٠٨٩- ١١٠٤م

٧ – باديس بن المنصور بن الناصر
٤٩٨- ٤٩٨هـ- ١١٠٤- ١١٠٥م

٨ – العزيز بن المنصور بن الناصر
٤٩٨- ٥١٥هـ- ١١٠٥- ١١٢١م

٩ – يحيى بن العزيز بن المنصور
٥١٥- ٥٤٧هـ- ١١٢١- ١١٥٢م



# الخاتمة

من خلال هذا العرض لجوانب الموضوع المختلفة عن دولة بنى زيرى والهلاليين وبنى حماد فى المغربين الادنى والاوسط ومن ندرة المصادر التى تتحدث عن المغرب الاقصى خلال تلك الفترة الزمنية وقبل قيام دولة المرابطين وحالة الفوضى التى كان يعيش فيها المغرب الاقصى والاضطراب السياسى فانه يتضح لنا كيف ان الدولة الفاطمية فى عهد الخليفة المعز لدين الله الفاطمى عندما قرر الرحيل إلى مصر وترك المغرب فى عام ٣٦١هـ/ ٩٧٢م فانه اختار زعيم قبيلة صنهاجة بلكين بن زيرى والذى كان والده زيرى وهو شخصية قد قام بدور كبير فى خدمة الدولة الفاطمية لكى يتولى حكم المغربين الادنى والاوسط ومحاولة السيطرة على بلاد المغرب الاقصى ومن ثم كان تولى بلكين بن زيرى ادارة المغرب هو أول عهد بالبربر لقيادة البلاد بأنفسهم والاعتماد على ذاتهم بعد أن وضع الفاطميون أساس الحكم وادارته التى تسير عليها البلاد .

ومن ثم كان على بلكين بن زيرى أن يظل وفيا عارفا بالولاء للدولة الفاطمية والخضوع لتعاليم القاهرة وظل الحال على هذا المنوال طوال حكم ابنه المنصور وحفيده باديس وان كانت نزعة الاستقلال تختمر فى عقولهم محاولين التحرر من السيطرة الفاطمية لاسيما وان شعب المغرب كان يرفض المذهب الاسماعيلى الشيعى وكان الولاء من جانبهم يرغبون فى الولاء للخلافة العباسية ونزع طاعة الفاطميين .

وفى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى قام رابع أمراء بنى زيرى السلطان المعز ابن باديس بخلعه لطاعة الفاطميين واعترافه بالخلافة العباسية والقضاء على كل أثر ونفوذ للشيعة فى البلاد وأعاد المذهب المالكى إلى سالف عهده قبل دخول الفاطميين

إلى بلاد المغرب وتأسيس عبد الله المهدى للدولة الفاطمية. لكن ذلك أغضب القاهرة والخليفة ووزيره أبا الحسن اليازورى الذى فكر فى ترحيل القبائل العربية الهلالية إلى المغرب وأقطاعها حكم هذه البلاد من قبل الخلافة الفاطمية وتم له ما أراد وتحركت القبائل العربية الهلالية فى هجرات واسعة لم يسبق لها مثيل فى التاريخ الاسلامى والذى قدرت المصادر عدد أفراد هذه الغزوة التى تمت فى النصف الاول من القرن الخامس الهجرى ما يقرب من المليون نسمة أو نصف مليون أو يقل عن ذلك. المهم ان هذه القوات نزلت أرض المغرب وبدأت تنتشر فيه وما أن جاء عام ٤٤١هـ حتى كانت هذه القبائل قد انتصرت على المعز بن باديس فى معركة حيدران ومن ثم بدأت تبسط نفوذها وتعلن عن قوتها وهيمنتها على بعض المدن التى خضعت لحكمها لاسيما صفاقس وقفصة وتونس والاقاليم الجنوبية فى الزاب ومن ثم بدأت تتحرك تجاه المغرب الاوسط بعد أن طاب لهم المقام فى أرض المغرب الادنى وكانت معركة سبيبة عام ٤٥٧هـ بين تميم بن المعز بن باديس وبين الناصر بن علناش الحمادى وما ترتب عليها من انتصار لتميم بن المعز بمساعدة القبائل العربية الهلالية .

ومن ثم افتتح الطريق أمام هذه القبائل للتحرك غربا إلى أراضى الدولة الحمادية وبدأوا يضيقون الخناق على بنى حماد وحاصروا القلعة عاصمتهم السياسية وخشى الناصر بن علناش على كيانه السياسى من النفوذ الهلالى العربى فكان قراره بأن ترك العاصمة القديمة القلعة كما ترك ابن عمه المعز بن باديس القيروان عاصمة المغرب الادنى من قبل عام ٤٤٩هـ وكان انشاء العاصمة بجاية كما زاول الزيريون حكمهم فى المهدية من قبل، لكن الحماديين كانوا يخشون على بلادهم من تعرضها للاخطار فكانت سياسة المهادنة والاحتواء واستخدام الاسلوب اللين فى التعامل مع القبائل العربية فأشركوهم فى الجيش وفى الشرطة وفى الدفاع عن بعض المدن وأقطعوهم



الاقطاعيات الكبيرة وتقربوا اليهم بالمصاهرة وفى مجالسهم الاستشارية ومن ثم أصبح للعرب الهلالية نفوذ فى دولة بنى حماد حيث استفادوا من وجود العرب فى النواحى السياسية والحضارية والثقافية والعسكرية والشرطة وفى مختلف المجالات كالاقتصاد والتجارة والزراعة وحماية الامن والقوافل التجارية ولاسيما قافلة الحجيج المتجهة إلى الاراضى الحجازية .

والذى يطالع تلك الدراسة بأبوابها الثلاث يجد أن هذه الكيانات اذ جاز لنا أن نقول أن العرب الهلالية كيان بذاته رغم أنهم فشلوا فى اقامة دولة لهم الا انهم حكموا العديد من المدن وكان تأثيرهم واضحا كل الوضوح على أوجه الحياة فى دولة بنى زيرى وبنى حماد يدرك ان هذه الكتل الثلاث كانت مترابطة متصلة بل أن تاريخها يكاد يكون تاريخا واحدا وان كانت هناك بعض الفوارق البسيطة، فالدولة الزيرية والحمادية تعود فى أصولها إلى جد واحد هو مؤسس هذه الاسرة وهو بلكين بن زيرى وان اختلفت بعد ذلك مصالح كل منهما عن الاخرى لاسيما بعد استقلال الحماديين بحكم المغرب الاوسط فى ظل الحكم الزيرى ومن ثم بدأت الامور تأخذ بعدا آخر بينهما بعد الغزوة الهلالية التى رأى فيها بنو حماد ضالتهم المنشودة لكى يحققوا حلمهم فى الانفراد بزعامة المغرب والاحساس بقوتهم بعد أن ضعف بنو زيرى وتركهم منفردين يواجهون خطر الهلالية من صقلية عبر البحر المتوسط وكان النورمان سادة هذا الزحف الذى كانت نهاية دولة بنى زيرى على يديه بعد أن أصاب الدولة الضعف والانهيار والتفكك من جراء الصراع المتصل مع بنى حماد وزناتة والعرب ومن ثم انتهت الدولة الزيرية عام ٥٤٣ بسقوط المهدية عاصمة الدولة تحت ضربات القوة النورمانية التى استطاعت الانفراد بدولة بنى زيرى ودخول دولة المرابطين القوية مرحلة الضعف ولم يعد النورمان يعملون لها أدنى حساب ولم يعد أسطولهم البحرى القوى

يهدد صقلية أو يقف حجر عثرة أمام طموحات النورمان فى مدن ساحل المغرب فتم لهم ما ارادوا من السيطرة الفعلية وبعد ذلك مدوا أبصارهم إلى المغرب الاوسط فاحتلوا بعض مدنه مثل بونة (عنابة) وغيرها من المدن وكانوا قبل ذلك قد نقضوا صلحهم مع بنى حماد لان هذا الصلح لم يعد يحقق لهم أهدافهم ومآربهم فى السيطرة والاحتلال وبسط النفوذ .

وفى كل هذه الاحوال فان الغزوة الهلالية التى أشار اليها المؤرخون بأنها سبب انتكاسات شديدة للتاريخ المغربى لم يكن هذا فى جانب الصواب بل كان فيه الكثير من المغالطات والغربة التاريخية التى انساق وراءها العديد من المؤرخين دون أن يفندوا ذلك تفنيدا علميا فوقعوا فى الخطأ الذى أوقع فيه ابن خلدون نفسه والذى كتب عن الغزوة الهلالية فى القرن السابع الهجرى، وأوائل القرن الثامن الهجرى فى حين ان الغزوة الهلالية كانت فى النصف الاول من القرن الخامس الهجرى وشتان بين المشاهدة والعيان وبين الاعتماد على مصادر معادية للعرب والعروبة وربما للاسلام ومن هنا فان قراءة علمية صحيحة فى تاريخ بنى هلال ودراسه الآثار التى ترتبت على هذه الغزوة سواء كانت مؤثرات سلالية بربرية جنسية عرقية أو حضارية لغوية ثقافية واجتماعية ودراسة التقاليد والعادات والقيم الاخلاقية والحضارية التى تركتها هذه الغزوة فى حياة المجتمع العربى من حدود مصر الغربية حتى المحيط الاطلسى يدرك ان تلك الغزوة كانت صفحة مضيئة فى تاريخ هذه البلاد، بل انها كانت السبب المباشر والقوى بل الاوحد فى صيانة كيان المغرب عربيا واسلاميا وحضاريا وتاريخيا ووقوفه فى وجه التحديات العاتيات وانتصاره على كل تحديات الازمان والمكان التى حاولت أن تطمس شخصيته أو تنقص من كيانه العربى الاسلامى الخالد فى وجه الطغاه والغزاه فالى الغزوة الهلالية يعود كل هذا الفخار والزهو العربى الاصيل فى بلاد المغرب .



ومن ثم اذا كانت الظروف التاريخية فى القرنين الخامس والسادس الهجرى لم تساعد القوى الاسلامية فى بلاد المغرب على التوحد والعمل يدا واحدة فى مواجهة الاخطار التى كادت تعصف بالقوى الاسلامية فى هذا البلد الاسلامى الخالد ولم تكن القوى السياسية كبنى حماد تفهم حقيقة الصراع الدائر فى العصور الوسطى والذى كان يأخذ طابع الصراع الدينى بين الاسلام والمسيحية مما أوقع البلاد فى أخطاء شديدة أدت إلى الانهيار السياسى والضعف الاقتصادى والاضمحلال العسكرى والانحدار التاريخى فى ظل أبعاد خطيرة كانت تدور على الوجهة المقابلة للبحر المتوسط حيث الشاطئ الشمالى وحيث سياسة الابادة والطرد والقتل والحرق والتدمير التى اتبعها الاوربيون مع المسلمين فى كل البلاد الاسلامية فى جنوب أوربا وجزر البحر المتوسط والاندلس، ثم القفز على الساحل الجنوبى لاحتلاله وبسط النفوذ عليه والسيطرة على المغرب العربى الاسلامى .

وفى حقيقة الامر لقد وقع كل من ساسه بنى زيرى وبنى حماد فى أخطاء تاريخية قاتلة تجاه التعامل مع العرب الهلالية وتجاه التعامل فيما بينهما وفى النظرة إلى حقيقة الصراع بين القوى الاسلامية والقوى المسيحية .

ولولا أن قيض الله للامة العربية الاسلامية فى بلاد المغرب قوة اسلامية فتية شابة أدركت أبعاد المخطط الذى يحاك ضد القوى الاسلامية لاسيما ان الصراع كان يدور فى شمالها حيث الاندلس وفى الشرق منها حيث احتلال المغرب الادنى من طرابلس شرقا إلى بونة بالمغرب الاوسط غربا فكان أن تحركت القوى الاسلامية الموحدية بقيادة عبد المؤمن بن على أول خلفاء الموحدين للوقوف ضد الاطماع الاوربية ووضع حد لهذا النفوذ فتم الاستيلاء على بجاية عاصمة بنى حماد عام ٥٤٧هـ قبل سيطرة النورمان عليها وتم طرد النورمان من المهدية عام ٥٥٥هـ بعد أن كان النورمان قد سيطروا عليها

عام ٥٤٣هـ وكان ذلك انقاذا للامة الاسلامية فى المغرب من خطر كان يتهددها ويعمل على تقويض كيانها الاسلامى ومن كل هذه التحركات اننا لا ننسى ان بابوات روما كانوا يشجعون مثل هذه الحملات العسكرية على ديار المسلمين لاخضاعهم واضعافهم والقضاء على قوتهم الروحية التى كانت لاتزال تتهددهم لانهم يرون أن الخطر الوحيد الذى يتهدد كيان أوربا فى ذلك الوقت هو خطر انتشار الاسلام وبهذا طويت صفحات هذا الجزء من الموسوعة ونحن ندرك من قبلنا ان الوحدة الاسلامية التى لم تكن قد سادت بلاد المغرب الاسلامى فى ظل التواجد الهلالى العربى ودولة بنى زرى وبنى حماد لو كان قد تم لها الظهور ولم يحدث الانقسام الذى حدث بين المغربين الادنى والاوسط ولو ان السياسة الزيرية استطاعت احتواء الغزوة الهلالية والاستفادة منها مبكرا واستغلالها فى تحقيق خدمة الاسلام والجهاد فى جنوب أوربا، لتغير وجه التاريخ نهائيا ولما سقت الدول الاسلامية فى جزر البحر المتوسط وجنوب أوربا والاندلس لكن الفرقة واستغلال الدول الاوربية حال التشرذم التى كان يعيشها بنو حماد وتحسن العلاقات معهم وتبادل الهدايا وشق الصف الاسلامى، كل ذلك أدى إلى ضعف هذا الصف وانقسام وحدته وتفرق شمله .

فكانت الاحداث التى وقعت والمصائب التى أصابت العالم الاسلامى فى تلك الوقت من جراء السياسة الرعناء التى اتبعها بعض الولاه قبل الدول الاوربية وقبل أبناء عمومتهم وقبل القبائل العربية الهلالية فحققت عليهم الهزيمة والانكسار والزوال التاريخى من ساحة الاحداث وقيام كيان عربى اسلامى واحد تمثل فى دولة الموحدين التى وحدت المغرب الاسلامى بجميع أقسامه وقدر لها أن تحكم هذه الديار فى ظل العقيدة الاسلامية وفى ظل القوة الايمانية التى قطعت داير الاعداء ولم يكن لهم أدنى مقدرة على تحدى الارادة العربية الاسلامية التى وقفت لمخططاتهم بالمرصاد دفاعا عن الحق العربى الاسلامى فى ديار الاسلام بعد أن شاهدوا بأعينهم كيف يتعرض أخوة لهم فى الاندلس لكل ما تعرضوا له من أحداث جسام .



# المصادر والمراجع

## أولا – المصادر العربية :

١ – ابن الآبار ( أبو عبد الله محمد ) : الحلة السيراء ، نشرة حسين مؤنس . القاهرة ، ١٩٦٣ م .

٢ – ابن الاثير ( أبو الحسن الجزرى ) الكامل فى التاريخ . القاهرة، ١٣٠٣هـ.

٣ – الادريسى : أبو عبد الله الشريف : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق المغرب وأرض الاندلس ومصر ، ليدن ، ١٨٦٦ م .

٤ – البكرى ( عبد الله المرسى ) المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، نشرة دى سلان ، الجزائر ، ١٩١١ م .

٥ – التيجانى ( أبو محمد بن محمد ) رحلة التيجانى ، نشرة حسن حسى عبد الوهاب ، تونس ، ١٩٥٨ م .

٦ – الجرنائى : أبو الحسن على : زهرة الاسى فى بناء مدينة فاس ، الجزائر ، ١٩٢٣ م .

٧ – ابن حزم ( أبو محمد الاندلسى ) جمهرة أنساب العرب . نشرة عبد السلام هارون ، القاهرة ، ١٩٦٢ م .

٨ – ابن أبى دينار : محمد القيروانى : المؤنس فى أخبار افريقية وتونس . تونس ، ١٣٥٠ م .

٩ – ابن أبى زرع ، أبو الحسن على الفاسى : الانيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ فاس ، أوبسالا . ١٨٤٣ م .

١٠ – ابن أبى الضياف : أتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان ، تونس ، ١٩٦٣ م .

١١ – ابن الخطيب ، لسان الدين : الاحاطة فى أخبار غرناطة . القاهرة . ١٩٥٥ م .

١٢ – ابن عذارى المراكشى : البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب . بيروت، ١٩٥٠ م .

١٣ – ابن الخطيب ، لسان الدين : أعمال الإعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام . الدار البيضاء ، ١٩٦٤ م .

١٤ – ابن خلدون ( أبو زيد عبد الرحمن ) العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذى السلطان الأكبر . القاهرة ، ١٢٨٤ هـ .

١٥ – ابن خلدون : المقدمة ، بيروت ، ١٩٦٣ م .

١٦ – ابن خلدون : أبو زكريا يحيى : بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد . الجزائر ، ١٩٠٣ م .

١٧ – الدباغ ( عبد الرحمن الأنصارى ) : معالم الإيمان فى معرفة أهل القيروان . تونس ، ١٣٢٠ هـ .

١٨ – الرفيق القيروانى : تاريخ افريقية والمغرب . تونس ، ١٩٦٨ م .

١٩ – الزركشى ك أبو عبد الله بن ابراهيم : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ، تونس ، ١٢٨٩ هـ .

٢٠ – السلاوى : أبو العباس الناصرى : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، القاهرة ، ١٨٩٤ م .





٢١ – أبو العرب تميم : طبقات علماء افريقية ، الجزائر ، ١٩١٥ م .

٢٢ – ابن هذيل ، على بن عبد الرحمن : حلبة الفرسان وشعار الشجعان ، القاهرة ، ١٩٤٩ م .

٢٣ – العمرى ، شهاب الدين فضل الله ، مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ، وصف افريقية والاندلس . نشرة حسن حسنى عبد الوهاب، تونس . د.ت.

٢٤ – القلقشندى ( أحمد بن على ) : نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب . القاهرة ، ١٩٥٩ م .

٢٥ – القلقشندى : أحمد بن على : قلائد الجمان فى التعريف بقبائل عرب الزمان . القاهرة ، ١٩٦٣ م .

٢٦ – ابن القنفذ : أبو الحسن بن الخطيب : الفارسية فى مبادئ الدولة الحفصية ، تونس ١٩٦٨ م .

٢٧ – المالكى ( أبو عبد الله المالكى ) : رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان وافريقية ، القاهرة ، ١٩٥١ م .

٢٨ – المراكشى ( محيى الدين التميمى ) المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، القاهرة ، ١٩٠٦ م .

٢٩ – المقرى ( شهاب الدين التلمسانى ) نفح الطيب فى غصن الاندلس الرطيب ، القاهرة ، ١٣٠٢ هـ .

٣٠ – المقريزى ( تقى الدين أحمد على ) اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء . القاهرة ، ١٩٤٨ م .

٣١ – المقريزى ( تقى الدين أحمد بن على ) : البيان والاعراب عما بأرض مصر من الاعراب . القاهرة ١٩٦١ م .

٣٢ – مؤلف مجهول : مفاخر البربر ، نشرة ليفى بروفسال . الرباط ، ١٩٣٤م.

٣٣ – مؤلف مجهول : تغريبة بنى هلال ورحيلهم إلى بلاد المغرب ، نشرها عمر أبو النصر ، بيروت ، ١٩٧١ م.

٣٤ – مؤلف مجهول : كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار ، نشرة سعد زغلول عبد الحميد ، الاسكندرية ، ١٩٥٨ م .

٣٥ – ياقوت الحموى : معجم البلدان فى معرفة المدن والقرى والعمارة . القاهرة ، ١٢٢٣ هـ .

٣٦ – اليعقوبى ( أحمد بن أبى يعقوب ) : كتاب البلدان ، صفة المغرب ، ليون ، ١٨٨٠ م .

٣٧ – البيذق ( أبو بكر بن على الصنهاجى ) أخبار المهدى وتاريخ الموحدين ، نشرة بروفسال ، باريس ، ١٩٥٨ م .

٣٨ – ابن غبوش : التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار طرابلس ، ١٩٦٧ م .

٣٩ – ابن تغرى بردى ( أبو المحاسن يوسف ) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة . القاهرة ، ١٩٣٥ م .

٤٠ – االباجى ( أبو عبد الله محمد ) الخلاصة النقية فى أمراء افريقية ، تونس، ١٣٢٣ م .

٤١ – الاندلسى ( أبو عبد الله محمد بن محمد ) : الحلل السندسية فى الأخبار التونسية . تونس ، ١٢٨٧ م .

٤٢ – الاصطخرى ( أبو اسحق ابراهيم محمد ) : المسالك والممالك . القاهرة ، ١٩٦١ م .



٤٣ – الجنجانى ( الحبيب ) : القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الرسلامية فى المغرب العربى . تونس ، ١٩٦٨ م .

٤٤ – الجنجانى الحبيب : المغرب الإسلامى ، الحياة الاقتصادية والاجتماعية . تونس ، ١٩٧٧ م .

٤٥ – دائرة المعارف الإسلامية .

٤٦ – الألوسى ، محمود شكرى . بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب . القاهرة ، ١٩٢٤ م .

## ٢ – المراجع العربية :

ابراهيم العدوى : المجتمع المغربى مقوماته العربية والإسلامية ، القاهرة ، ١٩٧٠م.

٤٧ – ابراهيم أحمد العدوى : الاساطيل البحرية فى البحر المتوسط . القاهرة ، ١٩٥٧ م .

٤٨ – ابراهيم على طرخان : المسلمون فى أوربا فى العصور الوسطى . القاهرة ، ١٩٦٦ م.

٤٩ – أحمد توفيق الحدى : الجزائر ، القاهرة ، ١٩٦٣ م .

٥٠ – أحمد توفيق المذنى : المسلمون فى جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا . الجزائر، ١٩٦٩ م .

٥١ – احسان عباس : العرب فى صقلية . القاهرة ، ١٩٥٩ م .

٥٢ – احسان حقى : تونس العربية . بيروت ، ١٩٦٢ م .

٥٣ – أحمد فكرى : مسجد القيروان . القاهرة ، ١٩٣١ م .

٥٤ – أحمد الزواوى : تاريخ الفتح العربى فى ليبيا . القاهرة ، ١٩٥٤ م .

٥٥ – جمال الدين الشيال : تاريخ الحضارة المصرية . المجلد الثانى . القاهرة ، ١٩٦٢ م .

٥٦ – حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى . القاهرة ، ١٩٥٨ م .

٥٧ – حسن ابراهيم حسن : انتشار الإسلام فى القارة الافريقية . القاهرة ، ١٩٦٤ م .

٥٨ – حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين . القاهرة ، ١٩٥٧ م .

٥٩ – حسن أحمد محمود : الإسلام والثقافة العربية فى افريقية ، القاهرة ، ١٩٥٨ م .

٦٠ – حسن أحمد محمود : الدولة الزيرية فى المغرب . القاهرة ، د. ت .

٦١ – حسن حسنى عبد الوهاب : خلاصة تاريخ تونس: تونس ، ١٣٧٣ هـ .

٦٢ – حسن حسنى عبد الوهاب : ورقات عن الحضارة العربية بافريقية التونسية. تونس ، ١٩٦٦ م .

٦٣ – حسن حسنى عبد الوهاب : بساط العقيق فى حضارة القيروان . تونس . ١٣٣٣ هـ .

٦٤ – حسن حسنى عبد الوهاب : مجمل تاريخ الأدب التونسى . تونس ، ١٩٦٨ م .

٦٥ – حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب . القاهرة ، ١٩٤٧ م .

٦٦ – حسين مؤنس : فجر الاندلس . القاهرة ، ١٩٥٩ م .

٦٧ – حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والاندلس . القاهرة ، ١٩٨٠ م .

٦٨ – حسين مؤنس : أطلس العالم الإسلامى . القاهرة ، ١٩٨٩ م .



٦٩ – سعد زغلول عبد الحمدى : تاريخ المغرب العربى . الاسكندرية ، ١٩٦٤م .

٧٠ – ابراهيم على طرخان : امبراطورية غانا الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٧٠ م .

٧١ – ابراهيم على طرخان : دولة مالى الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٧٣ م .

٧٢ – شكيب أرسلان : تاريخ العرب فى فرنسا وسويسرا وايطاليا وجزر البحر المتوسط . القاهرة ، ١٩٣٣ م .

٧٣ – أحمد مختار العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب والاندلس . الاسكندرية، ١٩٦٨ م .

٧٤ – أحمد مختار العبادى : التاريخ العباسى والاندلسى . بيروت . ١٩٧١م.

٧٥ – أحمد مختار العبادى : تاريخ البحرية الإسلامية فى المغرب والاندلس ، بيروت ، ١٩٦٩ م .

٧٦ – عبد العزيز السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الاندلس . القاهرة ، ١٩٦٨ م .

٧٧ – عبد العزيز السيد سالم : المغرب الكبير . القاهرة ، ١٩٦٦ م .

٧٨ – عبد الحميد العبادى : المجمل فى تاريخ الاندلس . ١٩٥٨ م .

٧٩ – عبد العزيز يتعبد الله معطيات الحضارة المغربية ، المغرب ، ١٩٥٧ م .

٨٠ – عبد الله خورشيد البرى : القبائل العربية فى مصر فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة . القاهرة ، ١٩٦٧ م .

٨١ – عبد الله كنون : النبوع المغربى فى الأدب العربى . تطوان ، ١٩٥٧ م .

٨٢ – عبد الفتاح مقلد الغنيمى : الإسلام والثقافة العربية فى أوربا . القاهرة ، ١٩٧٩ م .

٨٣ – عبد الرحمن زكى : تاريخ الدول الإسلامية السودانية بافريقية الغربية . القاهرة ، ١٩٦١ م .

٨٤ – عبد الوهاب بن منصور : قبائل المغرب ، الرباط ، ١٩٦٨ م .

٨٥ – عبد الرحمن الجيلالى : تاريخ الجزائر العام . بيروت ، ١٩٦٥ م .

٨٦ – عثمان الكعاك : الحضارة العربية فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، القاهرة ، د.ت.

٨٧ – عثمان الكعاك : البربر ، تونس . د.ت.

٨٨ – عثمان الكعاك : بلاغة العرب فى الجزائور ، تونس . د.ت .

٨٩ – عثمان الكعاك : مراكز الثقافة فى المغرب العربى . القاهرة ، ١٩٥٨ م .

٩٠ – عثمان الكعاك : موجز التاريخ العام للجزائر ، تونس ، ١٩٢٥ م .

٩١ – الحموى محمد بن ياسين : تاريخ الأسطول العربى . دمشق . د. ت.

٩٢ – عبد الله شربط : الجزائر مرآة التاريخ . قسنطينة ، ١٩٦٥ م .

٩٣ – عبد الله على علام : الدولة الموحدية فى عهد عبد المؤمن بن على . القاهرة ، ١٩٧١ م .

٩٤ – عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر . القاهرة ، ١٩٥٣م.

٩٥ – رابح بونار : المغرب العربى تاريخه حضارته . الجزائر ، ١٩٦٨ م .

٩٦ – عبد الحميد يونس : الهلالية فى الأدب والتاريخ . القاهرة ، ١٩٥٦ م .

٩٧ – أنور الجندى : الفكر والثقافة المعاصرة فى شمال افريقية . القاهرة ، ١٩٦٥م.



٩٨ – محمد عبد المنعم الشرقاوى : ملامح المغرب العربى ، الاسكندرية ، ١٩٥٩ م .

٩٩ – محمد جمال الدين سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، القاهرة ، ١٩٦٧ م .

١٠٠ – محمد جمال الدين سرور : مصر فى عصر الدولة الفاطمية . القاهرة ، ١٩٦٩ م .

١٠١ – محمد عبد الهادى شعيرة : المرابطون وتاريخهم السياسى . القاهرة ، ١٩٦٩ م .

١٠٢ – محمد الفاسى : التعريف بالمغرب . القاهرة ، ١٩٦١ م .

١٠٣ – محمد عبد الله عنان : ملوك الطوائف . القاهرة ، ١٩٦٠ م .

١٠٤ – العسوسى ، أحمد الأنصارى : المنهل العذب فى تاريخ طرابلس الغرب . اسطنبول ، ١٣١٧م .

١٠٥ – ابن غليون : أبو عبد الله محمد بن خليل : التذكار فيمن ملك طرابلس وما بها من أخبار . القاهرة ، ١٣٤٩ هـ .

١٠٦ – المسيلى : مبارك بن محمد الهلالى : تاريخ الجزائر . الجزائر ، د.ت.

١٠٧ – صلاح العقاد : المغرب العربى . القاهرة ، ١٩٧٤ م .

١٠٨ – أما رى ميخائيل : المكتبة الصقلية . لينبرج ، ١٨٥٧ م .

١٠٩ – ماكيفيدى ، كولين : أطلس التاريخ الافريقى ، ترجمة مختار السويفى. القاهرة ، ١٩٨٧ م .

١١٠ – محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والاندلس . القاهرة ، ١٩٦٤ م .

١١١ – مراجع عقيلة الغناى : قيام دولة الموحدين ، بنغازى ، ١٩٧٠ .

## الرسائل الجامعية :

١١٢ – عبد الحميد محمود الشرقاوى : الملاحة البحرية الاندلسية ، كلية الآداب – جامعة القاهرة ، ماجستير ، ١٩٣٥ م .

١١٣ – عبد الفتاح مقلد الغنيمى : السياسة الخارجية لسلطنة سنغاى الإسلامية ، دكتوراه ، ١٩٨٣ م .

١١٤ – عبد الفتاح مقلد الغنيمى : سلطنة برنو الإسلامية ، ماجستير ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٨ م .

١١٥ – السيد داود : بنو باديس وحضارتهم بالقيروان والمهدية ، دار العلوم جامعة القاهرة ، ماجستير .

١١٦ – طاهر راغب حسن : الدولة الحفصية بالمغرب ، دار العلوم جامعة القاهرة، ماجستير .

١١٧ – عبد الحليم عويس : دولة بنى حماد فى الجزائر ، ماجستير – دار العلوم ، ١٩٧٥ م .

١١٨ – حسن على حسن : الحياة الإدارية والاقتصادية والاجتماعية فى المغرب الأقصى ، دكتوراه – دار العلوم .

1 - Cooley W.D. : The Negre Land of the Arabs. London. 1841.

2 - Dozy R. : History des Musulmanes d'Espagne. Leydeu, 1861 .

3 - Gautier. E.F. : Histoire de Muria Musulmane, 1905.

4 - Gautier, E. F. : L'Islamisation de l'Afrique du Nord, Paris, 1927.

5 - Goitein S.D.: Studies in Islamic History and Institutions. Leiden 1968.



6 - Hopkins, J.P. : Medieva Muslim Government in Barbary. London, 1968.

7 - Julien, A. : Histoire de l'Afrique du Nord. Paris, 1931 .

8 - Marcais. G. : Les Arabes en Berberie du XI au XIV siécle. paris. 1913.

9 - Massignon, L. : Le Maroc dans les premiers années du XVI siécles, 1906.

10 - Terrasse, H. : Histoire du Marce, 1946.

11 - Wamington. B. : The North African provinces. Cambridge, 1954.

12 - O'Leary : A short history of the Fattimd Khalifate. London, 1956.

13 - Watt, W. : The influence of Islam in Medival Europe, 1972.

14 - Maslatrie : Relations et commerce de l'Afrique septentrionale au Magreb avec les Nations Chrétiens au Moyen Age.. Paris, 1886.

15 - Marcais, G. : L'Architectine Musulmane d'Occident. Paris, 1956.

16 - Hare A. : Cities of Southern Italy and Sicily. London, 1893.

17 - Golvin, L. : Le Magrib Central a " Epoque des Zikides. Paris, 1957.

18 - Gibb H. : The Influence of Islamic Culture on Medival Europe.

19 - Dachraoui, F. : Contribution à l'Histoire Fatimides en ifriqiyya 1961.

20 - Bausani. A. : Notes on the History of Arabic and Islamic Studies in Italy, 1955.

21 - Brenner, Louis : The North Africa Trading Community, Boston, 1971.

# الفهـــرس

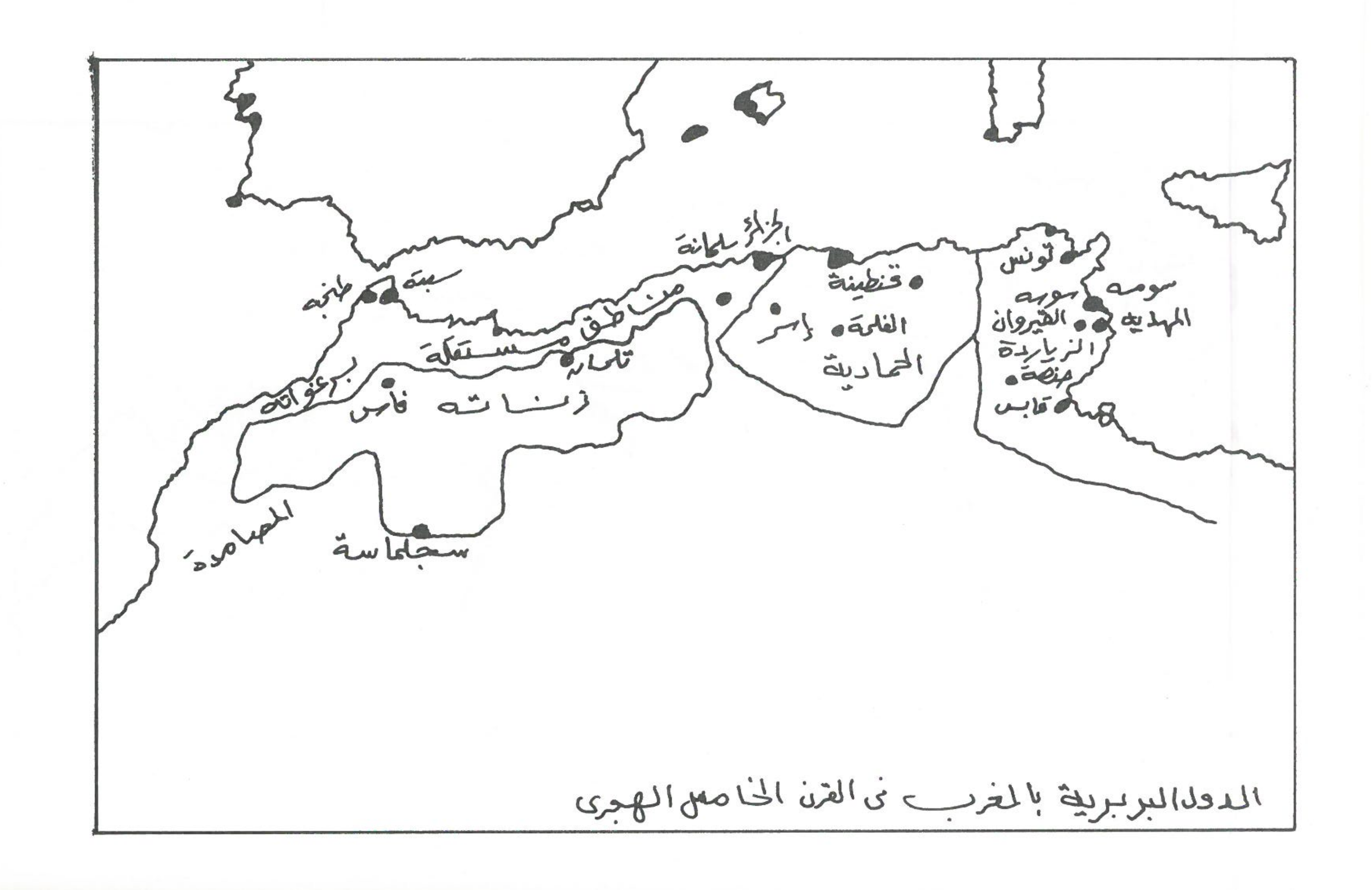

| الموضــــــوع | الصفحة |
|---|---|
| الاهـــداء | ٧ |
| التمـــهـيد | ٨ |
| المـقـدمـة | ١٠ |
| الباب الأول : دولة بنى زيرى | ١٤ |
| الفصل الأول : بنى زيرى على مسرح الأحداث فى المغربين الأدنى والاوسط | ١٩ |
| الفصل الثانى : السيادة الزيرية والانفصال عن الفاطميين | ٤٠ |
| الفصل الثالث : زحف بنى هلال إلى افريقية (المغرب الأدنى) | ٦٢ |
| الفصل الرابع : المظاهر الحضارية والسياسية فى الدولة | ٨٤ |
| الفصل الخامس: العلاقات الخارجية مع دول العالم | ١١١ |
| الفصل السادس: سقوط الدولة ونهايتها | ١٣٥ |
| الباب الثانى : الغزوة الهلالية لبلاد المغرب | ١٤٤ |
| الفصل الأول : بنى هلال قبل الرحيل إلى المغرب | ١٤٥ |
| الفصل الثانى : بنى هلال فى أفريقية (المغرب الأدنى) | ١٥٤ |
| الفصل الثالث : ماذا بعد القيروان | ١٧٥ |



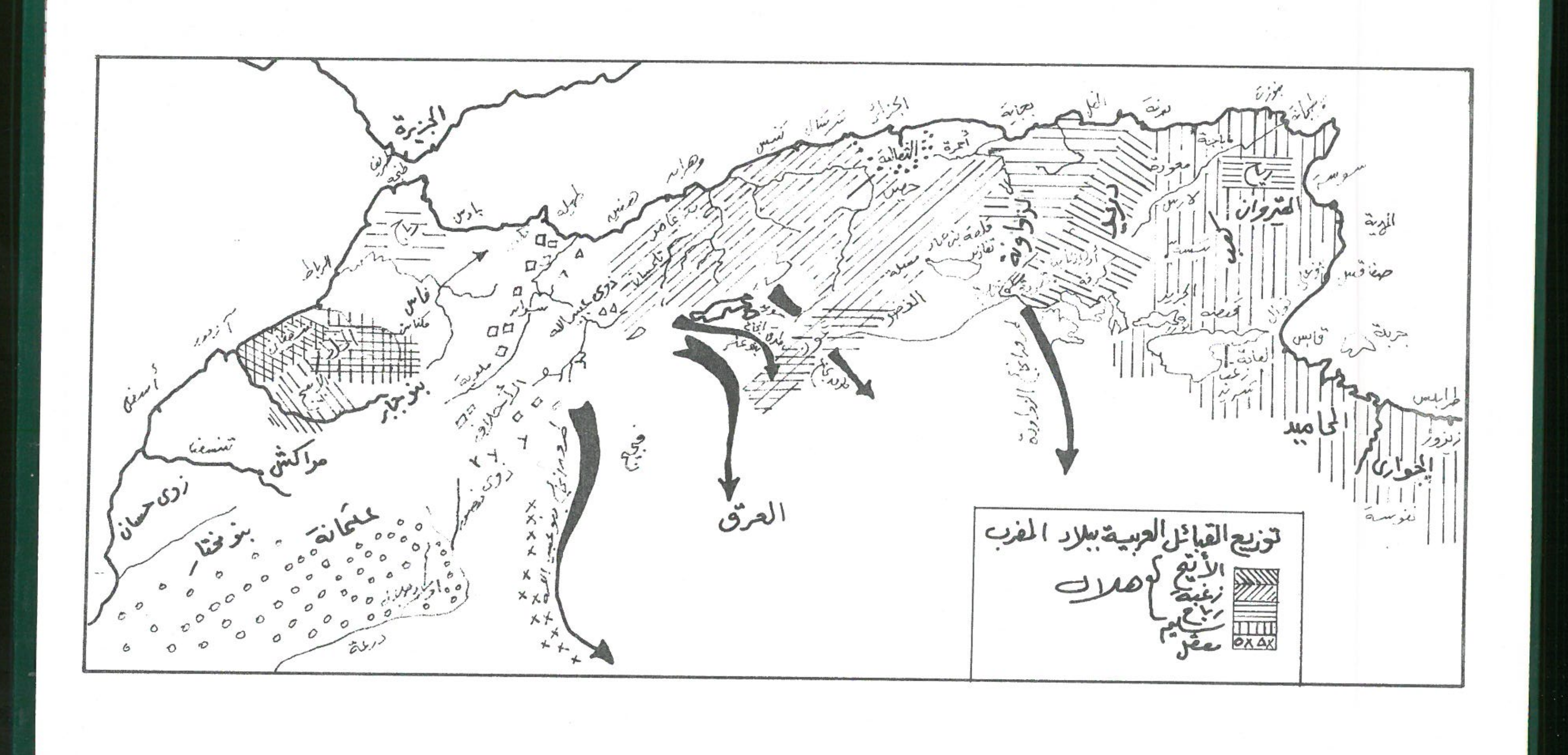


| الموضــــــوع | الصفحة |
|---|---|
| الفصل الرابع : الإمارات العربية | ١٨٥ |
| الفصل الخامس : بنى هلال والنورمان والموحدين | ١٩٥ |
| الفصل السادس : المآثر الحضاربة للغزوة الهلالية | ٢٠٥ |
| الفصل السابع : لماذا الحملة العدائية ضد بنى هلال | ٢٣٨ |
| الفصل الثامن : الرد على ابن خلدون فيما نسبه للهلالية | ٢٤٥ |
| الباب الثالث : بنى حماد على مسرح الأحداث بالمغرب الأوسط | ٢٥٩ |
| الفصل الأول : ميلاد الدولة الحمادية ككيان مستقل | ٢٦٦ |
| الفصل الثانى : الدولة الحمادية فى بجاية | ٢٨٦ |
| الفصل الثالث : مآثر الحكم الحمادى بالمغرب الأوسط | ٣١٣ |
| الفصل الرابع : الجيش والأسطول والشرطة فى عهد بنى حماد | ٣٥١ |
| الفصل الخامس : السياسة الخارجية لبنى حماد | ٣٦٠ |
| الفصل السادس : نهاية العرش الحمادى | ٣٩٤ |
| الخـاتـمــة | ٤١٠ |
| المصادر والمراجــع | ٤١١ |
| المصادر الأجـنبية | ٤٢٠ |


تم بحمد الله




الدول البربرية بالمغرب في القرن الخامس الهجري


توزيع القبائل العربية ببلاد المغرب
الأثبج
زغبة
رياح
سليم
معقل
هلال
الجزيرة
فاس
بنو جابر
مراكش
زوى حسان
بنو مختار
العرق
القيروان
الزواودة
الثعالبة
حصين
المحاميد
الجواري
ذوي عبيد الله
طرابلس
قابس
صفاقس
المهدية
سوسة

هذه الدراسة عن المغرب العربي نقدمها للقارىء العربي والمسلم ولكل الذين يهتمون بالتاريخ الإسلامي تتناول حقبة تاريخية على امتداد ١٤٠٠ سنة وصل فيها المد الإسلامي أبعاداً واسعة حتى يمكن القول أن الإسلام استطاع أن يكون قارة إسلامية شملت أجزاء متجاورة من أسيا وأفريقيا وأوروبا.
وعلى هذا تكون هذه الدراسة عن جزء عزيز من عالمنا العربي والإسلامي والذي لعب دوراً في إثراء الحركة العربية الإسلامية حتى وقع على تلك الكتلة من القارة الإسلامية دور كبير في نشر الإسلام والعروبة في أرجاء واسعة من القارة الإفريقية لا سيما تلك الأقاليم التي تقع إلى الجنوب من المغرب العربي وكذلك في أوروبا حيث الأندلس وما جاورها من أقاليم.